مارسيل بروست

# بحثاً عن الزمن المفقود

## السجينة




ترجمة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

رواية




مارسيل بروست

# بحثاً عن الزمن المفقود

## -5-

## السجينة

**الياس بديوي** (١٩٣٠-١٩٩٧)، من مواليد قرية المسمية في حوران. حاصل على إجازة في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة السوربون ١٩٥٦. عُيِّنَ موجِّهاً للغة الفرنسية في وزارة التربية السورية (١٩٦٦-١٩٨٣) وأستاذاً للترجمة الفورية في جامعة دمشق. كان عضواً في هيئة تحرير مجلة **الآداب الأجنبية** التي يصدرها اتحاد الكتّاب العرب. له العديد من الترجمات المنشورة، منها: ميشيل كاروج: **أندريه بروتون والمعطيات الأساسية للحركة السريالية** (دمشق، ١٩٧٣)؛ اولفن فنك: **فلسفة نيتشه** (دمشق، ١٩٧٤)؛ آلن تورين: **إنتاج المجتمع** (دمشق، ١٩٧٧)؛ الأجزاء الخمسة الأولى من سباعية مارسيل بروست: **بحثاً عن الزمن المفقود** (دمشق، ١٩٧٧-١٩٩٧).

**جمال شحيّد** (مواليد عام ١٩٤٢). دكتوراه في الأدب المقارن (السوربون الجديدة، ١٩٧٤). من أعماله النقدية: **في البنيوية التكوينية** (بيروت، ١٩٨٢؛ **الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة** (بيروت، ٢٠١١)؛ **خطاب الحداثة في الأدب. الأصول المرجعية** (دمشق، ٢٠٠٥). بعض مترجماته: **رحلة لامارتين إلى الشرق** (الكويت، ٢٠٠٦)؛ الجزآن الأخيران من سباعية **بحثاً عن الزمن المفقود** لمارسيل بروست (القاهرة، ٢٠٠٢-٢٠٠٥)؛ كلاريس هيرينشميدت: **الأبجديات الثلاث، اللغة والعدد والرمز** (البحرين، ٢٠٠٧)؛ دومينيك أورفوا: **المفكرون الأحرار في الإسلام** (بيروت، ٢٠٠٨)؛ جاك لوغوف: **التاريخ والذاكرة** (بيروت، ٢٠١٧)؛ مارسيل بروست: **المسرات والأيّام** (أبو ظبي، ٢٠١٤). جورج فيغاريلّو: **تاريخ الجمال** (بيروت، ٢٠١١). ادغار موران: **المنهج** (الجزآن الثالث والرابع) (بيروت، ٢٠١٢). جيل دولوز: **سينما (الصورة الحركة، الصورة الزمن)** (بيروت، ٢٠١٤-٢٠١٥).

مارسيل بروست



# بحثاً عن الزمن المفقود

## – 5 –

## السجينة

رواية

ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد




منشورات الجمل




مارسيل بروست
**بحثاً عن الزمن المفقود – 5: السجينة، رواية، الطبعة الأولى**
ترجمة: إلياس بديوي، مراجعة: د. جمال شحيد

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Marcel Proust: *A La recherche du temps perdu V: La Prisonnière*, 1923


Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com




كنت منذ الصباح، وما أزال أدير رأسي صوب الجدار، وقبل أن أكون شاهدت فوق الستائر الكبيرة التي تغطي النافذة أيَّ لون هو مفرق النهار، علمتُ مذ ذاك الطقسَ السائد. فقد أنبأتني عن ذلك أولى أصوات الشارع حسبما تبلغني مخففة تحرفها الرطوبة أو هي تصدح فعلَ السّهام في المساحة الداوية الفارغة لصباح رحب قرّ نقي. كان قد وافاني، منذ انزلاقة أول حافلة، إن كانت متضجرة تحت المطر أم هي تنطلق وجهة السماء الزرقاء. وربما سبق تلك الأصوات نفسها فوحٌ أكثر سرعة وأشد نفاذاً تسرب عبر منامي فنشر فيه حزناً يؤذن بالثلج أو جعل شخصاً هيناً منقطع الظهور يصدح فيه بأناشيد جمّة في تمجيد الشمس حتى ليبلغ بها أن تحمل إليّ، وقد شرعت، في استمرار إغفاءتي، أتبسم وتستعدّ أجفاني المطبقة للانبهار، استفاقةً مدوخة في جو من الموسيقى. وإنما وافاني على أي حال من غرفتي على الخصوص حسّ الحياة الخارجية في تلك الفترة. وأعلم أن «بلوك» روى أنه كان يسمع حينما يجيء لزيارتي في «كومبريه» وما كان يلقى في يوم أحداً في غرفتي، فقد خلص إلى أني كنت أتحدّث بمفردي. وحينما بلغه بعد حين طويل أن «ألبيرتين» كانت تسكن آنذاك إلى جانبي صرّح إذ أدرك أن أخفيتها عن أعين الجميع، أنه يرى أخيراً السبب الذي كنت من أجله لا أبغي الخروج البتّة في تلك الفترة من حياتي، وقد أخطأ الظن، كان على أية حال معذوراً في ذلك، لأن الواقع وإن يكن

لازماً لا يمكن توقعه توقعاً تاماً والذين يبلغهم أمر صحيح عن حياة آخر غيرهم يستخلصون منه في الحال نتائج ليست من هذا القبيل ويرون في الأمر المكتشف حديثاً التفسير لأمور ليس لها بالضبط أية صلة به.

حينما أفكر الآن أن صديقتي بادرت لدى عودتنا من «بالبيك» إلى السكنى في باريس تحت سقف بيتي، وأنها تخلّت عن فكرة القيام برحلة بحرية، وأن حجرتها على عشرين خطوة في أقصى الممر وفي مكتب والدي ذي النجود، وأنها كانت كل مساء في ساعة متأخرة جداً وقبلما تفارقني، تدسّ لسانها في فمي وكأنما خبز يومي، كأنما طعام مغذٍ يرتدي الطابع القدسي تقريباً الذي لكل جسد أولته العذابات التي قاسيناها بسببه في آخر المطاف ضرباً من العذوبة الروحية، فليس ما أستذكره في الحال بالمقارنة هي الليلة التي أذن لي النقيب «بوردينو» بقضائها في الثكنة منّةً منه ما كانت تشفي في النهاية سوى وعكةٍ عابرة. بل تلك التي أرسل والدي فيها أمي لتنام في السرير الصغير إلى جانب سريري. ذلك أنأ الحياة إن انبغى مرة أخرى أن تخلصنا إزاء عذاب يبدو محتماً فما أكثر ما تفعل في ظروف مختلفة ومتعارضة أحياناً إلى حد يكون معه من باب التدنيس الظاهر تقريباً أن نلاحظ التماثل في النعمة الممنوحة!

حينما كانت «أليبرتين» تعلم على يد «فرانسواز» أنني لم أكن في ليل غرفتي التي لا تزال مرخاة ستائرها نائماً لم تكن تتورع عن إصدار بعض الأصوات وهي تستحمّ في حجرة حمامها. حينئذ كنت أمضي في الغالب، بدلاً من الانتظار حتى ساعة متأخرة، إلى حجرة استحمام ملاصقة لحجرتها وكانت محببة. كان مدير المسرح فيما مضى ينفق مئات ألوف الفرنكات كي يرصّع بأحجار زمرد حقيقية العرش الذي تمثل المغنية فوقه دور إمبراطورة، وقد علّمتنا الباليهات الروسية أن تلاعب أضواء بسيطاً يوفّر لنا، إن وجهّتِ حينما ينبغي، جواهر بمثل بذخها وتنوعها. وليست هذه الزينة، وهي مذ ذاك أكثر بعداً عن المادة، ليست مع ذلك بمثل حسن الزينة التي تحلها الشمس في الثامنة صباحاً محل تلك التي تعودنا رؤيتها

هناك حينما لا ننهض إلا ظهراً. لم تكن نافذتا حجرتي استحمامنا مالستين كي لا تتسنى رؤيتنا في الخارج، بل كانتا مغضنتين بفعل صقيع صناعي تقادم عهده. كانت الشمس فجأة تغمر بالصفرة تلك الموسلين الزجاجية وتلونها بالذهب فأنتشي، وأنا أكتشف رويداً في داخلي شاباً أقدم عهداً حجبته العادة طويلاً، أنتشي بالذكريات كما لو كنت في قلب الطبيعة أمام أغصان مورقة خضراء مذهبة لا ينقصها حتى وجود عصفور. ذلك أني كنت أسمع «ألبيرتين» تصفر دون توقف:

**مجنونة هي الآلام**
**ومن يصغي إليها يفوقها جنوناً.**

كنت أحبها أكثر من ألا أبتسم فرحاً لرداءة ذوقها الموسيقي. والأغنية هذه على أية حال سبق أن فتنت في الصيف الفائت السيدة «بونتان» التي سرعان ما بلغ أسماعها من يقول إنها ضرب من السخافة حتى إنها بدلاً من أن تطلب من «ألبيرتين» إنشادها حينما تستقبل، استبدلت بها:

**أنشودة وداع تنطلق من الينابيع المضطربة**

وهذه أضحت بدورها «لحناً عتيقاً مملاً لـ«ماسنيه» تجرّح به الصغيرة آذاننا».

وتمر سحابة فتحجب الشمس وأرى ستارة الزجاج الحييّة المورقة تنطفئ وتنكفئ إلى لون رمادي.

كان الحاجزان الفاصلان بين حمّامينا (وحمام «ألبيرتين»، وهو شبهه تماماً، حجرة لم يسبق لأمي، وهي تملك أخرى في القسم المقابل من الشقة أن استخدمتها في يوم كي لا يصدر عنها ضجّة) رقيقين إلى حد نستطيع معه التحدث فيما يغتسل كل منا في حجرته، ونوالي حديثاً يقطعه فقط صوت الماء في هذا الجو الحميم الذي غالباً ما يتيحه في الفندق ضيق المسكن وتقارب الحجرات ولكنه شديد الندرة في باريس.

وفي مرات أخرى كنت ألبث مستلقياً أحلم قدر ما أشاء، إذ كان ثمة أوامر بالامتناع مطلقاً عن دخول غرفتي قبلما أكون قرعت الجرس، الأمر الذي كان يقتضيني، بسبب الطريقة غير المريحة التي وضعت بها الإجاصة الكهربائية فوق سريري، وقتاً طويلاً إلى حد أني كنت أمكث في الغالب لحظات وقد عاودني النوم تقريباً بعدما أتعبني البحث عن بلوغها وسرني أن أكون وحيداً. وليس يعني ذلك أني كنت غير مبالٍ تماماً بإقامة «ألبيرتين» في منزلنا. فقد أخذ انفصالها عن صديقاتها يفلح في تجنيب فؤادي عذابات جديدة. كان يمسك به في جو من السكينة وفي لا حراك تقريبي ربما أعانا في شفائه. لكن هذه الطمأنينة التي توفّرها لي صديقتي كانت تسكيناً للألم أكثر منها مسرة. وليس يعني ذلك أنها لم تمكّن من تذوق الكثير من تلك التي أوصد الألم المفرط بابي دونها، لكن تلك المسرات، ولم أكن أدين بها، وما أبعد أن يكون لـ«ألبيرتين» التي كدت لا أنفيها جميلة من بعد ويداخلني الضجر برفقتها وشعور واضح بأني لا أحبها، إنما كنت أتذوقها على العكس حين لا تكون «ألبيرتين» إلى جانبي. لذلك كنت لا أرسل في طلبها في الحال، لمباشرة فترة الصباح، ولا سيما إن كان الطقس صحواً. كنت أمكث على مدى لحظات في اجتماع منفرد مع الشخص الصغير الداخلي محيّي الشمس المنشد الذي سبق أن رويت عنه وأنا عالم أنه يسعدني أكثر منها، ومن بين أولئك الذين يؤلفون شخصنا ليس من كانوا الأكثر وضوحاً للعين من هم الأكثر أساسية. سوف يظل في داخلي، بعدما يكون المرض قد انتهى من إلقائهم أرضاً الواحد تلو الآخر، اثنان أو ثلاثة أصلب عوداً من الآخرين، ولا سيما فيلسوف منهم لا يسعد إلا بعد ما يكتشف بين عملين، بين إحساسين، قسماً مشتركاً. ولكني تساءلت أحياناً إن كان الأخير بينهم لن يكون الشخص الصغير الذي يشبه إلى حد بعيد شخصاً آخر كان بائع البصريات في «كومبريه» قد وضعه خلف واجهته الزجاجية كي يحدد الطقس المتوقع وكان ينزع غطاء رأسه حالما تسطع الشمس ويعيده إن

أزمعت أن تمطر. والصبي هذا، أنا أعرف أنانيته، فإنه يمكن أن أعاني من نوبة اختناق ربما سكنها محض هطول المطر، أما هو فلا يأبه للأمر ولدى أول حبات عيل صبري في انتظارها يفقد مرحه فيرد غطاء رأسه معكر المزاج. وأعتقد جازماً في المقابل أن الصبي المضغاطي سوف يشعر بارتياح كبير ساعة احتضاري وبعدما تكون سائر «أنواتي» الأخرى قد ماتت إن أقبل يلتمع شعاع شمس فيما ألفظ أنفاسي الأخيرة، وتراه ينزع غطاء رأسه لينشد:

«وأخيراً صحا الجو.»

قرعتُ الجرس لاستدعاء «فرانسواز» وفتحت صحيفة **«الوفيغارو»** وبحثت فيها فلاحظت أن ليس ثمة مقالة، أو ما أزعم أنها كذلك، كنت بعثت بها إلى هذه الصحيفة، ولم تكن بعد تدبيرها بعض الشيء سوى الصفحة التي عثرت عليها مؤخراً وكنت كتبتها فيما مضى في عربة الدكتور «بيرسبييه» وأنا أشاهد قبتي أجراس «مارتنفيل». ثم قرأت رسالة أمي. كانت ترى من الغريب والفاضح أن تسكن فتاة بمفردها وإياي. ربما سعدتْ أمي في اليوم الأول، لحظة مغادرة «بالبيك» حينما رأتني على قدر من التعاسة عظيم وأهمها أن تتركني وحيداً، سعدتْ إذ بلغها أن «ألبيرتين» ذاهبة معنا وإذ رأت أنهم حمّلوا القطار إلى جانب حقائبنا تماماً (الحقائب التي أمضت بجانبها الليلة في فندق «بالبيك» باكياً) حقائب «ألبيرتين». وهي ضيقة سوداء وكانت بدت لي على شكل توابيت وكنت أجهل إن هي ستحمل إلى المنزل الحياة أو الموت. على أني لم أطرح حتى السؤال على نفسي وقد تملكني الفرح كلياً في الصباح المشرق، وفي أعقاب هلعي من البقاء في «بالبيك»، باصطحابي «ألبيرتين»، ولئن لم تعارض والدتي في البداية ذاك المشروع (فتكلم صديقتي بلطف مثل والدة أصيب ابنها بجروح خطيرة، وهي ممتنة للعشيقة الشابة التي تتفانى في العناية به) فقد أضحت تعارضه منذ أن تحقق فجاوز الحد وتطاولت إقامة الفتاة في بيتنا. في بيتنا وفي غياب والدي. على أني لا يسعني أن أقول عن هذه المعارضة إن

والدتي أفصحت عنها في يوم. وكما هو شأنها بالأمس حينما كفت عن أن تجرؤ على توجيه اللوم إليّ على عصبيتي وكسلي، كانت الآن تصادف حرجاً - ربما ما تبينته تماماً في حينه أو لم أشأ تبيّنه -، إن هي أبدت بعض تحفظات إزاء الفتاة التي قلت لها إني أزمع أن أخطبها، في المجازفة بتعكير حياتي جعلي فيما بعد أقل تفانياً في خدمة زوجتي وأن تدخل في نفسي ربما في الفترة التي لن تكون بعد فيها على قيد الحياة الندم على أني غممتها بزواجي من «ألبيرتين». كانت أمي تفضّل أن تتظاهر بالموافقة على اختيار تحسّ أنها لن تستطيع أن تثنيني عنه. لكن الذين رأوها جميعاً في تلك الفترة قالوا لي إنه كان ينضاف إلى حزنها على فقد والدتها انشغال دائم يلوح في محياها. والتركيز الفكري هذا والجدال الداخلي كانا يلهبان صدغي والدتي فتفتح النوافذ باستمرار لتبترد. أما القرار فما كانت تفلح في اتخاذه مخافة «استمالتي» إلى اتجاه خاطئ وإفساد ما تعتقد أنه سعادتي. ما كانت حتى تستطيع حزم أمرها للحؤول دون استبقائي موقتاً لـ«ألبيرتين» في المنزل، فإنها لا تودّ أن تبدو أكثر صرامة من السيدة «بونتان» التي يعنيها الأمر أول ما يعنيها وهي لا ترى ذلك غير لائق، الأمر الذي كان يدهش والدتي كثيراً. كانت في جميع الأحوال تأسف أن اضطرت أن تدعنا وحدنا برحيلها في تلك الفترة بالضبط إلى «كومبريه» حيث يمكن أن تمكث (ومكثت في الواقع) شهوراً طويلة كانت أخت جدتي في أثنائها بحاجة مستمرة إليها في النهار والليل. وقد سهل عليها هناك كل شيء بفضل طيبة وتفاني «الوغراندان» الذي لم يحجم عن أية مشقة فأجل عودته إلى باريس من أسبوع إلى آخر دون معرفة وافية لخالتي ولمحض أنها كانت، بادئ الأمر، صديقة لوالدته، ثم لأنه أحس أن المريضة التي لا أمل في شفائها كانت تحب علاجه ولا تستطيع الاستغناء عنه. إن الحذلقة مرض في النفس خطير، بيد أنه محدد المكان ولا يفسدها كلياً. أما أنا فقد كنت، على عكس أمي، شديد السعادة بانتقالها إلى «كومبريه» والذي ربما كنت خشيت بدونه (إذ لا أستطيع أن

أعرض على «ألبيرتين» أن أخبئها) أن تكتشف حبها للآنسة «فانتوي».
ولعل ذلك كان شكّل في نظر والدتي عقبة مطلقة ليس فقط في طريق زواج كانت قد طلبت مني بشأنه على أي حال ألا أكلمها بعد عنه بصورة نهائية وكانت فكرته أضحت لدي أكثر عسراً للاحتمال، بل هي تحول حتى دون أن تقضي هذه الأخيرة بعض الوقت في المنزل. وباستثناء سبب بتلك الخطورة، وهي لا تعرفه، أضحت أمي جراء المفعول المزدوج الناجم عن تقليد طيب الأثر ومحرر لجدتي المعجبة بـ«جورج صاند» والتي كانت تجعل الشهامة قوام الفضيلة، وعن تأثيري المفسد من ناحية أخرى، أضحت تبدي الآن تسامحاً إزاء نساء لعلها كانت أبدت بالأمس صرامة تجاه سلوكهن، بل حتى اليوم إن سبق أن كنّ من صديقاتها البورجوازيات في باريس أو «كومبريه»، ولكنما كنت أشيد بنبلهن وكانت تغفر لهن كثيراً لأنهن كنّ يحببنني كثيراً. لكني أعتقد، على الرغم من كل شيء، حتى بمعزل عن مسألة اللياقة، أن «ألبيرتين» كانت ثقلت على والدتي التي أخذت عن «كومبريه» وعن خالتي «ليوني» وعن سائر قريباتها عادات على صعيد النظام ما كانت صديقتي تحمل عنها أدنى فكرة. فما كانت لتغلق باباً وما كانت تورعت في مقابل ذلك عن الدخول حينما يكون الباب مفتوحاً أكثر مما يفعل كلب أو هرّ. كانت فتنتها المزعجة بعض الشيء هي أن تسلك في المنزل سلوكاً هو أقل لفتاة منه لحيوان أليف يدخل حجرة ويخرج منها وتلقاه حيث لا تتوقع وجوده وكان يقبل ليرتمي على سريري بجانبي - والأمر يوليني في ما يخصني راحة عظيمة - ويوسع لنفسه مكاناً لا يبرحه من بعد، دون أن يضايقك كما لعل شخصاً كان فعل. لكنها التزمت في النهاية بساعات نومي وبأن لا تحاول الدخول إلى غرفتي، وليس ذلك فحسب بل بأن لا تحدث ضجيجاً قبلما أكون قرعت الجرس. و«فرانسواز» هي التي فرضت عليها تلك القواعد. فقد كانت من صنف أولئك الخدم في «كومبريه» العارفين بقيمة سيدهم، وأقل ما يستطيعونه أن يعملوا على أن يقدم له بالتمام والكمال ما يحكمون أنه متوجب له. فحينما

كان زائر غريب يعطي «فرانسواز» إكرامية عليها أن تتقاسمها وفتاة المطبخ لم يكن يتّسع الوقت للواهب لتسليم قطعة نقوده حتّى تكون «فرانسواز» قد قرأت الدرس بذات السرعة والتكتّم والعزيمة على مسامع فتاة المطبخ التي تبادر إلى الشكر لا بالإيماء بل بالفم الملآن والصوت العالي مثلما قالت لها «فرانسواز» إنه يتوجب عليها أن تفعل. لم يكن كاهن «كومبريه» نابغة ولكنه كان بدوره يعرف ما ينبغي أن يكون. فإن ابنة أبناء عم بروتستانتيين للسيدة «سازيرا» كانت قد ارتدت إلى الكاثوليكية بإرشاد منه، وكان سلوك الأسرة تجاهه لا غبار عليه. وجرى الحديث عن زواج مع أحد نبلاء «ميزيغليز». وكتب والدا الشاب، بغية الحصول على معلومات، رسالة يلونها شيء من الازدراء وكان الأصل البروتستانتي موضع احتقار فيها. ورد كاهن «كومبريه» بلهجة جعلت نبيل «ميزيغليز» يسطّر، حاني الرأس ذليلاً، رسالة مختلفة تماماً يلتمس فيها الاقتران بالفتاة على أنه أثمن منّة.

لم يكن لـ«فرانسواز» فضل في حمل «ألبيرتين» على احترام نومي، فقد كانت مشبعة بالأعراف. لقد أدركت «ألبيرتين» من صمت التزمته أو جواب قاطع أجابته عن اقتراح لا بد صاغته الفتاة ببراءة بشأن الدخول إلى غرفتي أو الإرسال في طلب أمر، أدركت وقد أخذ منها الذهول أنها في عالم غريب مجهولة قواعده، وتحكمه قوانين سلوكية لا يمكن التفكير بخرقها. لقد كان وافاها حدس أولي عن ذلك في «بالبيك» ولكنها في باريس لم تحاول حتى أن تقاوم وانتظرت بأناة صوت الجرس الصغير في كل صباح لتجرؤ على إصدار أي صوت.

كان التهذيب الذي وفرته لها «فرانسواز» جليل الفائدة من جانب آخر لخادمتنا العجوز نفسها، إذ هدّأ شيئاً فشيئاً من التأوهات التي لم تكفّ عن إطلاقها منذ رجوعها من «بالبيك». ذلك لأنها تبينت لحظة صعودها إلى الحافلة أنها أغفلت أن تودع «القيمة» على الفندق، وهي امرأة ذات شارب كانت تراقب الأدوار وتكاد لا تعرف «فرانسواز» ولكنها كانت مهذبة نسبياً في ما يخصها. كانت «فرانسواز» تود قطعاً أن تنثني عائدة وتهبط من

الحافلة وترجع إلى الفندق وتودع القيمة ولا ترحل إلا في الغد وحال تعقلي وكرهي المفاجئ لـ«باليك» على وجه الخصوص دون أن أنعم عليها بتلك المنّة فحل بها من ذلك مزاج كدر مرضيّ محموم لم يكن تغيير الهواء كافياً لإزالته وامتد إلى باريس. فليس تمني الموت لعدوّ أو حتى إنزاله به ممنوعاً حسب شرعة «فرانسواز» على نحو ما هي موضحة في نقوش «سانت أندريه دي شان» البارزة، ولكنما من الشنيع ألا تفعل ما يجدر بك أن تفعل وألا ترد المجاملة بمثلها وألا تودع قيمة الدور قبل الرحيل شأن سماجة حقة، وعلى مدى كامل المرحلة كان تذكّرها المتجدد في كل لحظة أنها لم تستأذن تلك المرأة بالانصراف قد دفع إلى وجنتي «فرانسواز» لوناً قرمزياً يمكن أن يبعث الرعب. ولئن رفضت الشراب والطعام حتى باريس فلأن ذلك التذكر ربما كان «ينقل معدتها» حقاً أكثر مما هو عقوبة تنزلها بنا (فلكل طبقة اجتماعية علم أمراضها).مكتبة سُر مَن قرأ

إن من بين الأسباب التي كان من شأنها أن دأبت والدتي على تسطير رسالة يومية لي، ورسالة لا تخلو البتة من استشهاد بالسيدة «دو سيفينييه». ذكرى جدتي. كانت أمي تكتب إليّ قائلة: «لقد قدمت لنا السيدة «سازيرا» واحدة من تلك الواجبات الصباحية المحببة التي تعرف سرّها والتي تجنبنا العزلة دون أن تحمل إلينا المجتمع، كما لعل جدتك المسكينة كانت قالت مستشهدة بالسيدة «دو سيفينييه» وكان من غبائي أن كتبت إلي والدتي في أول ردودي: «ربما تعرفتك والدتك في الحال بمثل هذه الاستشهادات». وقد جنيت من ذلك بعد ثلاثة أيام هذه الكلمة: «إن كان القصد أن تحدثني عن والدتي. يا ولدي المسكين، فإنك تستذكر السيدة «دو سيفينييه» بما لا يناسب الواقع إطلاقاً، فلعلها كانت إجابتك بمثل ما أجابت به السيدة «دوغرينيان»[1]:

(١) هي ابنة السيدة «دو سيفينييه» وكانت سطرت لوالدتها كتاباً تسأل فيه عن جدّها فتقول: كيف حال السيد والدك؟ (بدلاً من كيف حال جدي).

«لم تكن تعني أي شيء لك إذن؟ وكنت أظنكما قريبين».

وفي تلك الأثناء كنت أسمع وقع خطى صديقتي وهي تخرج من غرفتها أو تعود إليها. فأقرع الجرس إذ الساعة تلك التي تزمع «أندريه» المجيء فيها برفقة السائق صديق «موريل»، والذي قدّمه آل «فيردوران»، لاصطحاب «ألبيرتين». وكنت كلمت هذه الأخيرة عن إمكانية بعيدة في عقد قراننا ولكني لم أفعل ذلك صراحة في يوم، وهي نفسها حينما قلت لها: «لست أدري ولكن ربما كان ذلك ممكناً»، هزت رأسها محاذرة تقول بابتسامة حزينة: «لا، ربما لم يكن ذلك ممكناً»، الأمر الذي كان يعني: «إني فقيرة جداً». حينئذ كنت، فيما أقول: «لا شيء أقل ثبوتاً حينما الأمر أمر مشروعات مستقبلية»، كنت أفعل الآن كل شيء للترويح عنها وإكسابها رغد العيش، أحاول ربما بذلك على نحو غير واعٍ حملها على ابتغاء الاقتران بي. كانت هي تضحك من كل هذا البذخ. «والدة «أندريه» هي التي ستعقد الدهشة لسانها أن تراني وقد أصبحت سيدة غنية مثلها وما تدعوه بالسيدة التي تملك «الجياد والعربات واللوحات». كيف ذلك؟ أماأما رويت لك قط أنها تقول هذا؟ آه! يا لها من نموذج! وما يدهشني أنها تُعلي اللوحات لتبلغ مكانة الجياد والعربات».

ذلك أننا سنشهد بعد هذا أن «ألبيرتين»، على الرغم من عادات كلامية غبية ظلت عليها، قد تطورت تطوراً مدهشاً، والأمر كان عندي سواء تماماً، إذ كنت على الدوام قليل الاهتمام بمواطن التفوّق الفكري لدى إحدى النساء إلى حدّ أني إن كنت لفت هذه أو تلك إليها فإنما من قبيل المجاملة البحتة. وحده نبوغ «سيليست» الغريب ربما كان راقني. فقد كنت أبتسم راغماً على مدى لحظات حينما كانت تفيد على سبيل المثال مما نُقل إليها عن غياب «ألبيرتين» فتبادرني بهذه الكلمات: «يا إلهاً من السماء موضوعاً على سرير!» فأقول: «ولكن هيا يا «سيليست»، ولماذا «إله من السماء»؟ - «آه! إن كنت تظن لديك شيئاً من أولئك على سريري؟ فإنك ترين أنني مستلقٍ». - «لست مستلقياً في يوم. فهل من رأى في يوم

أحداً مستلقياً على هذا النحو؟ لقد أقبلت تحطّ هنا. إن بيجامتك الشديدة البياض في هذه اللحظة تعطيك إلى جانب حركات رقبتك هيئة حمامة».

كانت «ألبيرتين» حتى في منطق الأشياء الغبية تتحدث على نحو مختلف تماماً عن البنت الصغيرة التي كانتها منذ بضع سنوات فحسب في «باليبك». فقد كان يبلغ بها أن تعلن، بشأن حدث سياسي تستنكره: «أجد هذا هائلاً»، ولست أدري إن لم تكن تعلمت حوالي ذلك الوقت أن تقول لتعني أنها تجد أحد الكتب سيئ الصياغة: «مشوق، ولكنه واعجبي قد صيغ كأنما بقلم خنزير».

كان خطر الدخول إلى غرفتي قبلما أكون قرعت الجرس يضحكها كثيراً. ولما كانت قد أخذت عنا عادة الشواهد في أسرتنا وكانت تستخدم لذاتها شواهد من المسرحيات التي سبق أن مثلتها في الدير وكنت قلت لها إني أحبها فقد كانت تشبّهني على الدوام بـ«أحشورش».

**وإنما الموت جزاء كل متهور**
**يَمْثل أمامه دون أن يُستدعى.**
**ليس ثمة ما حمي من هذا النظام المحتوم،**
**لا المقام ولا الجنس، والجريمة سواء هنا وهناك.**
**وإني أنا . . . ،**
**كأخرى غيري، خاضعة لهذا القانون،**
**ولا بد لي كيما أكلّمه دون أن أخطره بذلك**
**أن يسعى إليّ أو يستدعيني على الأقل[1].**

كانت قد تغيّرت جسمياً كذلك. فعيناها الزرقاوان المديدتان - قد ازدادتا طولاً - لم تحتفظا بالشكل ذاته. كانتا باللون نفسه ولكنما تبدوان وكأنهما انتقلتا إلى الحالة السائلة، فلكأن أمرها حينما تطبقهما أمر من

---

(١) من مسرحية: إستير *Esther* للمسرحي الشهير «جان راسين» (القرن السابع عشر).

يحول بستائر دون رؤية البحر. وليس من شك أن ما كنت أذكره على وجه الخصوص أن أفارقها في كل ليلة إنما ذاك الجزء منها. وعلى العكس تماماً أثار تجعد شعرها كل صباح على سبيل المثال، أثار طويلاً في نفسي الدهشة عينها وكأنما شيء جديد لم يسبق أن رأيته في يوم. ومع ذلك، هل ثمة ما كان أكثر جمالاً من إكليل البنفسج الأسود الجعد هذا الذي يعلو إشراقة عيني فتاة؟ إن الابتسامة تقدم قسطاً أوفر من الصداقة. أما العقفات الصغيرة اللماعة لشعور مزهرة، وهي أشد قربى إلى الجسد الذي تبدو كأنها صورته نُقلت موجات صغيرة فإنها تعلق أكثر بالرغبة.

كانت ما إن تدخل غرفتي حتى تقفز إلى السرير وتحدد أحياناً نوع ذكائي وتقسم عبر فورة صادقة أنها تفضل الموت على أن تفارقني: كان ذلك في الأيام التي حلقت فيها ذقني قبل الإرسال في طلبها. كانت من تلك النساء اللواتي لا يعلمن كيف يكشفن سبب ما يعتلج في صدورهن. فإنهن يفسرن المتعة التي تسببها بشرة نديّة بالصفات الخلقية التي يتصف بها ذاك الذي يبدو أنه يحمل لهن في ما يخص مستقبلهن سعادة يمكن إلى أن تتقلّص وتصبح أقل ضرورة كلما أطلق المرء لحيته.

كنت أسألها أين تنوي الذهاب «أظن أن «أندريه» تود اصطحابي إلى منطقة «لي بوت شومون» التي لا أعرفها». كان يستحيل علي بالتأكيد أن أحرز بين هذا الكم من الأقوال الأخرى إن كان ثمة كذبة مخبأة تحت هذا القول. كنت على أية حال أثق بـ«أندريه» كي تروي لي عن سائر الأماكن التي تذهب إليها برفقة «ألبيرتين» وكنت نويت في «بالبيك»، حينما أحسستني سئمت إلى أبعد حد «ألبيرتين»، أن أقول لـ«أندريه» كاذباً: «يا صغيرتي «أندريه»، لو أني عدت فالتقيك قبل هذا فقط! فأنت من كنت أحببت. أما الآن فإن فؤادي استقر في مكان آخر. بإمكاننا مع ذلك التلاقي كثيراً لأن حبي لأخرى يسبب لي غموماً كبيراً وستساعدينني على التسرية عنها». على أن هذه الأقوال الكاذبة نفسها أضحت حقيقة بعد انقضاء ثلاثة أسابيع. فربما ظنت «أندريه» في باريس أن الأمر كذبة بالفعل

وأنني أحبها كما لعلها كانت دون شك فعلت في «بالبيك». ذلك لأن الحقيقة تتبدل بالنسبة إلينا كثيراً حتى ليعسر على الآخرين الفصل في الأمر. ولما كنت أعلم أنها سوف تحدثني عن كل ما تكونان فعلتاه هي و«ألبيرتين»، سألتها المجيء لاصطحابها كل يوم تقريباً وقبلت بذلك. وهكذا يمكنني دون همٍّ البقاءُ في المنزل. كانت مهابة «أندريه» التي تكتسبها من أنها إحدى فتيات المجموعة الصغيرة توليني ثقة بأنها ستحصل على كل ما أبغيه من «ألبيرتين». كان بإمكاني حقاً أن أقول لها الآن بصراحة كليّة إنها تستطيع طمأنتي.

ثم إن اختياري لـ«أندريه» (التي اتفق أنها في باريس بعدما تخلّت عن مقصدها في العودة إلى «بالبيك») بمثابة دليل لصديقتي كان مردّه ما روته لي «ألبيرتين» عن المحبة التي محضتني إياها صديقتها في «بالبيك» في فترة كنت أخشى فيها على العكس أن أزعجها ولو أني عرفت الأمر آنذاك فربما كانت «أندريه» من أحببت. وقالت لي «ألبيرتين»: «عجباً، ما كنت تعلم ذلك؟ مع أننا كنا نتبادل المزاح بيننا بهذا الشأن. ألم تلاحظ إلى ذلك أنها شرعت تتخذ طريقتك في الكلام والمحاكمة؟ كان الأمر ملفتاً، ولا سيما حالما تكون قد فارقتك. وما كان ثمة حاجة لتقول لنا إن كانت قد رأتك، فحينما كانت تصل كان يبرز للعيان منذ الثانية الأولى إن هي كانت بالقرب منك. وكنا نتطلع بعضنا إلى بعض ونتضاحك. لقد كانت مثل فحام يود الإيهام بأنه ليس فحاماً وهو كله سواد. وليس يحتاج طحان أن يعلن أنه طحان إذ يرى الناس تماماً كل الطحين الذي يغطيه ولا يزال هناك مطرح الأكياس التي نقلها. والأمر نفسه كان أمر «أندريه»، فقد كانت تدير حاجبيها مثلما تفعل أنت، وكذلك عنقها الطويل، شيء في النهاية أعجز عن إبلاغك إياه. حينما آخذ كتاباً كان في غرفتك، يمكنني قراءته خارجاً ويعلم الناس مع ذلك أنه جاء من عندك لأنه يحتفظ بشيء من تبخيراتك القذرة. ذلك أمر يسير، ولا يمكن أن أقول العكس ولكنه يسير في الأساس لطيف إلى حد ما. وفي كل مرة

تناولك أحدهم بحديث لطيف وبدا أنه يقيم لك وزناً كبيراً كانت «أندريه تأخذها النشوة».

لكني كنت أنصح. مع ذلك، تجنباً لأمر ربما أعد دون علم مني، بالتخلي في ذاك اليوم عن «لي بوت شومون» والتوجه بالأحرى إلى «سان كلو» أو إلى مكان آخر.

وليس يعني ذلك بالتأكيد، وكنت عالماً بذلك، أني أكنّ لـ«ألبيرتين» أدنى قدر من الحب. فربما لم يكن الحب سوى انتشار تلك الحركات الجياشة التي تهز النفس على إثر انفعال. وكان سبق أن هز بعضها مشاعر نفسي بأكملها حينما حدثتني «ألبيرتين» في «بالبيك» عن الآنسة «فانتوي»، ولكنها توقفت الآن فلم أعد أحب «ألبيرتين»، إذ لم يتبق لدي شيء من الألم، وقد سكن الآن، الألم الذي سبق أن عانيت منه في الحافلة في «بالبيك» وأنا أوافي بما كانت عليه مراهقة «ألبيرتين» التي اقترنت ربما بزيارات إلى «مونجوفان». كل ذلك فكرت فيه طويلاً جداً وقد شفيت منه. ولكن بعض عبارات «ألبيرتين» كانت تحملني - ولا أدري السبب - على افتراض أنها لا بد تلّقت في حياتها، وما أقصرها بعد، الكثير من الثناء، وصنوف البوح الغرامية، وأنها تلقتها بالتذاذ، بل كمثل قولك بشهوانية. من ذلك أنها كانت تقول بشأن أمر، أي أمر: «صحيح؟ أهو صحيح تماماً؟» والأكيد أنها لو قالت كواحدة من أمثال «أوديت»: «أتراها صحيحة هذه الكذبة الكبيرة؟» لما أقلقني ذلك لأن موطن السخرية في التعبير ربما لقي تفسيره في تفاهة حمقاء تصدر عن فكر امرأة. ولكن هيئتها المستفهمة: «صحيح؟» كانت توليك من جهة انطباعاً غريباً عن مخلوق يعجز عن تبين الأمور بذاته. ويناشدك شهادتك كما لو لم يكن يملك ما تملك من قدرات (كنت تقول لها: «لقد انقضت ساعة على رحيلنا» أو «المطر يهطل» فتسأل «صحيح؟»). ومن جهة أخرى كان لا بد للأسف، ألا يكون غياب السهولة في تبيّن الظاهرات الخارجية شخصياً المنشأ الحقيقي لعبارة «صحيح؟ أهو صحيح تماماً؟»

كان يبدو بالأحرى أن هذه الكلمات ربما كانت، منذ بلوغها المبكر، إجابات عن: «تعلمين أني لم أجد في يوم من كان بمثل جمالك»، «تعلمين أني أكن لك حباً عظيماً، وأني في حال من التهيج فظيع»، وهي توكيدات كانت تقابلها. بتواضع كله غنج ورضى، عبارتا: «صحيح؟ أهو صحيح تماماً؟» وما كانت تفيدان «ألبيرتين» من بعد في ما يخصني إلا في الإجابة بسؤال عن توكيد من هذا القبيل: «لقد أغفيت ساعة وتزيد. - صحيح؟».

لقد ظل يشغلني برنامج نشاطها اليومي دون أن أحسني مولعاً بـ«ألبيرتين» أقل الولع ودون أن أضع في عداد المتع الفترات التي كنا نقضيها معاً، أجل، لقد هجرت «بالبيك» كي أتيقن أنها لن يسعها من بعد التقاء هذا الشخص أو ذاك من الذين كنت أخشى أن تفعل الإثم معهم وهي تضحك، ربما وهي تضحك مني إلى حد أني حاولت بحذاقة أن أقطع برحيلي علاقاتها المشبوهة جميعها دفعة واحدة. وكانت «ألبيرتين» تملك زخماً كبيراً من السلبية وقدرة عظيمة على النسيان والخضوع إلى حد قُطعت معه هذه العلاقات فعلاً وشفيت الرهبة التي كانت تسكن ضلوعي. لكنما يمكنها أن ترتدي من الصيغ ما يرتدي المرض الغامض الذي يؤلف موضوعها. فقد توافرت لي فسحة من السكينة بعد عذاباتي الماضية ما دامت غيرتي لم تتجسد ثانية في شخصيات جديدة. على أن المرض المزمن يفيد من أدنى ذريعة ليبعث من جديد مثلما يمكن لأدنى مناسبة من جانب آخر أن تفيد عيب الكائن الذي هو علة تلك الغيرة في أن ينشط مجدداً (بعد فترة من العفّة) مع أشخاص مختلفين. لقد استطعت فصل «ألبيرتين» عن شركائها في الجرم وطرد وساوسي جراء ذلك، ولئن كان باستطاعتنا أن ننسيها الأشخاص وأن نقصّر من ارتباطاتها فإن ميلها إلى المتعة كان بدوره مزمناً ولا ينتظر ربما سوى فرصة سانحة كيما يعاود سيرته. وباريس توفر منها مقدار ما توفر «بالبيك».

لم يكن بها حاجة للبحث في أية مدنية كانت لأن العلة لم تكن في

«ألبيرتين» وحدها بل في أخريات، إذ تبدو كل فرصة للمتعة صالحة في نظرهن. فإن نظرة من إحداهن فهمتها الأخرى في الحال إنما تقرّب بين الجائعتين. ومن السهل على امرأة حاذقة أن تبدي أنها لا تبصر، ثم تمضي بعد خمس دقائق إلى المرأة التي فهمت وانتظرتها في شارع عرضي وأن تضرب موعداً بكلمتين اثنتين. فمن عساه يعرف في يوم؟ وما كان أسهل على «ألبيرتين» أن تقول، كيما يستمر ذلك، إنها راغبة في زيارة ثانية لمنطقة في جوار باريس سبق أن أعجبتها. ولذلك كان يكفي أن تعود وقد أفرطت في تأخرها وأن تكون نزهتها امتدت فترة يصعب تفسيرها. مع أنها ربما تيسر تفسيرها دون إقحام أي سبب شهواني فيها، حتى ينبعث دائي من جديد وقد انصب هذه المرة على تصورات لم تكن من «بالبيك» وسوف أجهد في تدميرها شأن سابقاتها، وكأنما يستطيع تدمير سبب زائل أن يفضي إلى تدمير داء خلقي. وما كنت أتبين أني، في هذه العمليات التدميرية التي كان يشاركني فيها، داخل «ألبيرتين»، ملكة التغيير لديها وقدرتها على نسيان بل ما يقارب كره موضوع حبها الأخير. كنت أتسبب في ألم عميق لهذا أو ذاك من أولئك الأفراد المجهولين ممن صادفت على التوالي متعة لديهم، وأني كنت أبعث ذاك الألم دون جدوى لأنهم سوف يهجرون ولكنما يستبدل بهم آخرون، وفي موازاة الدرب المحوط بالكثير من صنوف الهجران التي ستفتعلها غير عابئة سوف يتوالي بالنسبة إليّ آخر لا يعرف الرحمة وتكاد لا تقطعه فترات راحة قصيرة جداً. وهكذا ما كان لعذابي، لو فكرت في الأمر، أن ينتهي إلا بانتهاء «ألبيرتين» أو بانتهائي. وحتى في الفترات الأولى من قدومنا إلى باريس شعرت، وأنا غير راضٍ عن المعلومات التي زودتني بها «أندريه» والسائق عن النزهات التي يقومان بها برفقة صديقتي، أن جوار باريس بمثل قسوة جوار «بالبيك» وذهبتُ بضعة أيام في رحلة مع «ألبيرتين». لكن الشك في ما تفعله كان واحداً أنى كان. واحتمالات أن يكون إثماً كثيرةايضاً. والرقابة أكثر صعوبة بعد حتى انثنيت عائدا وًإياها إلى باريس. والواقع أنني ظننت وأنا أغادر «بالبيك»

أني أغادر عاموره[1] وأنتزع منها «ألبيرتين». لكن عاموره كانت، واأسفي، موزّعة في أربعة أركان العالم. وكنت قد نظّمت في غفلة مني لعبة «التخبية» هذه التي ستفلت فيها «ألبيرتين» دوماً مني، في النصف غيرة مني والنصف جهلاً بتلك المسرات (والحالة هذه نادرة جداً).

وكنت أسائلها فجأة: «آه! بهذه المناسبة يا «ألبيرتين»، تراني أحلم، ألم يسبق أن قلتِ لي إنك تعرفين «جيلبيرت سوان»؟ - «أجل، أعني أنها كلمتني أثناء الدرس إذ كان لديها دفاتر تاريخ فرنسا، بل هي كانت لطيفة جداً فأعارتني إياها وأعدتها إليها حالما رأيتها» - «وهل هي من صنف النساء اللواتي لا أحبهن؟» - «لا، على الإطلاق، بل هي العكس تماماً».

لكنني كنت في الغالب، عوضاً عن الانصراف إلى هذا النوع من الأحاديث المستقصية، أكرّس في تخيل نزهة «ألبيرتين» القوى التي لا أستخدمها للقيام بها. وكنت أكلم صديقتي بذاك الاندفاع الذي تحفظه كاملاً غير منقوص المشروعات غير المنفذة. وكنت أعبر عن توق كبير للمبادرة إلى مشاهدة ثانية لهذه النجمية الزجاجية أو تلك من كنيسة لا سانت شابيل ، وعن أسف عظيم أن لا يسعني القيام بذلك معها وحدها حتى لتقول لي برقة: «ولكن يا صغيري، بما أن الأمر فيما يبدو يروقك إلى هذا الحد فقم بجهد صغير وتعال معنا. وسننتظر قدر ما تريد إلى أن تكون جهزت. وإن سرّك أكثر على أي حال أن تكون وحيداً برفقتي فما عليّ إلا أن أعيد «أندريه» إلى منزلها وتجيء هي في مرة ثانية». على أن هذه التوسلات للخروج كانت هي نفسها تزيد من الطمأنينة التي تسمح لي بالمكوث في البيت.

ما كان يخطر لي أن الخمول الذي بي في الاتكال هكذا على «أندريه» أو على السائق في أمر تهدئة اضطرابي بأن أدع لهما أمر مراقبة «ألبيرتين» كان يشلّ ويجمد كل هذه الحركات التخيلية للعقل وكل إيحاءات الإرادة

(١) هي مدينة الشاذات في العهد القديم.

التي تعين على أن نكشف ونمنع ما يزمع شخص أن يقوم به. والأمر يزداد خطورة بقدر ما بدا لي عالم الممكنات على الدوام، بدا لطبيعة فيّ أكثر انفتاحاً من عالم الواقع الحقيقي. فإن ذلك يعين في معرفة النفس بيد أن المرء ينخدع بالأفراد. كانت غيرتي تنطلق من صور، ومن أجل عذاب، وليس انطلاقاً من احتمال. لكن يمكن أن يكون ثمة في حياة الناس وفي حياة الشعوب (وكان لا بد أن يكون ذات يوم في حياتي) فترة نحتاج فيها إلى مدير شرطة في داخلنا، إلى ديبلوماسي واضح الرؤى ومدير أمن عام صحيح المحاكمة يقول، عوضاً عن أن يحلم بالممكنات التي تخفيها الأمداء على امتداد الجهات الأربع: «إن أعلنت ألمانيا عن هذا فإنما يعني أنها تريد أن تفعل أمراً آخر، لا أمراً آخر في المبهم، بل هذا الشيء أو ذاك بصورة دقيقة وربما بدأ حتى مذ ذاك. - ولئن هرب هذا الشخص فإنه لم يفعل باتجاه الأهداف أ، ب، د بل باتجاه الهدف ج، وإنما المكان الذي ينبغي أن نقوم فيه بتحرياتنا هو إلخ.» بيد أني للأسف كنت أدع تلك الملَكة التي لم تكن متطورة لدي كثيراً، أدعها تتخدر وتفقد قواها وتزول وذلك بتعويد نفسي التزام السكينة ما دام آخرون ينصرفون إلى المراقبة بدلاً مني. أما بشأن سبب تلك الرغبة فلعل قول ذلك لـ«ألبيرتين» كان بدا لي غير مستحب. كنت أقول لها إن الطبيب أمرني بملازمة الفراش، وما كان ذلك صحيحاً. وحتى لو كان صحيحاً ما كانت تعليماته لتستطيع الحؤول دون مرافقتي صديقتي. كنت أستأذنها في العزوف عن مرافقتها و«أندريه». ولن أقول سوى واحد من الأسباب وكان سبباً أساسه التعقل. كنت حالما أخرج بصحبة «ألبيرتين» نهبَ القلق إن هي ظلت لحظة بدوني، فأتصور أنها ربما تحدثت إلى أحدهم أو حتى نظرت إليه. وإن لم تكن صافية المزاج تماماً ظننت أني أفوّت عليها مشروعاً أو أؤجله. هذا. وإن الحقيقة الواقعة لم تكن في يوم سوى مدخل إلى مجهول لا يمكننا الذهاب بعيداً جداً على دربه. والأفضل ألا نعلم وأن نفكر أقل ما يمكن وألا نزوّد الغيرة بأقل التفصيلات المحسوسة. لكن ثمة لسوء الحظ في غياب الحياة الخارجية حوادث تجيء بها الحياة الداخلية.

فإن لم تكن ثمة نزهات لـ«ألبيرتين» فقد كانت المصادفات التي ألقاها في صنوف التفكير الذي أقوم به وحيداً تزودني أحياناً بهذه النتف الصغيرة من الواقع التي تجذب إليها شأن المغناطيس شيئاً من المجهول يصبح، وهذه حاله، مصدر ألم. وعبثاً يعيش المرء تحت ما يشبه الخيمة العازلة، فإن توارد الخواطر والذكريات تستمر في التحرك.

لكن هذه الصدمات الداخلية ما كانت تتشكل في الحال؛ فما إن تكون «ألبيرتين» مضت في نزهتها حتى أجدني منشطاً، وإن يك لبضع لحظات، جراء خواص العزلة المثيرة. كنت آخذ نصيبي من متع النهار في بدايته، وما كانت الرغبة الاعتباطية - التوق الغريب الأطوار المنطلق مني فحسب - ما كانت لتكفي في وضعها في متناول يدي لو لم يبادر الطقس الخاص السائد لا إلى تذكيري بصورها الماضية فحسب، بل إلى توكيد الواقع الراهن وهو مباشرة في متناول جميع الناس الذين لا يضطرهم ظرف احتمالي، ولا يؤبه به بالتالي، إلى ملازمة منازلهم. كان الطقس في بعض الأيام الصافية بارداً، وكنت على اتصال واسع بالشارع حتى ليبدو لك أنهم باعدوا بين جدران المنزل وفي كل مرة تمر الحافلة كان صوتها يدوي كما لعل سكيناً من فضّة كانت ضربت بيتاً من زجاج. لكنني كنت أسمع في داخلي على وجه الخصوص، أسمع منتشياً نغمة جديدة جاء بها الكمان الداخلي. وإنما تشد أوتاره أو ترخيها محض اختلافات في الحرارة والضوء الخارجيين. وفي كياننا، هذه الآلة التي جعلها تماثل العادة صامته، يولد الغناء من هذه الفروق، من هذه التبدلات التي هي مصدر كل موسيقى: فالطقس الذي يسود في بعض الأيام ينقلنا في الحال من نغمة إلى أخرى. ونعود فنلتقي اللحن المنسي الذي ربما كان وسعنا أن نحرز ضرورته الأكيدة والذي ننشده في اللحظات الأولى دون أن نعرفه. وحدها تلك التبدلات الداخلية كانت، وإن هي جاءت من الخارج، تجدد في نظري العالم الخارجي، وكانت تعود فتنفتح في دماغي أبواب اتصال سُدت منذ زمن طويل. وأخذت حياة بعض المدن ومرح بعض النزهات،

يستعيدان مكانهما في نفسي ولعلني وأنا أرتعش بكليتي حول الوتر المهتز كنت ضحيت بحياة الأمس الباهتة وحياتي المستقبلية. وقد ذهبت بهما ممحاة العادة، في مقابل هذه الحالة الشديدة الخصوصية.

إن كنت لم أذهب لمرافقة «ألبيرتين» في مشوارها الطويل، فما كان فكري إلا ليهيم متزايد التطواف، ولأنني رفضت تذوّق تلك الصبيحة بحواسّي كنت أتمتع في خيالي بسائر الصبيحات المماثلة، الماضية أو الممكنة، والأحرى أن أقول بنمط معين من الصبيحات التي لم تكن على تباينهاسوى ظهور منقطع وسرعان ما تعرّفته. ذلك لأن الهواء القارس كان يقلّب بنفسه الصفحات اللازمة فأجد أنجيل اليوم أمامي وقد حُدد تماماً كيما أستطيع متابعته من سريري. تلك الصبيحة المثالية كانت تغمر فكري بواقع دائم يماثل تماماً سائر الصبيحات المشابهة ويبعث في نفسي حبوراً لا نقلل منه حال الوهن الذي بي، فالهناء إنما ينجم عن الفائض اللامستخدم في قوانا أكثر منها عن صحة جيدة. ويمكننا بلوغها بتقليص نشاطنا تماماً كما نفعل بزيادة تلك القوى. والنشاط الذي كان يفيض مني وأحتفظ به بالقوة في سريري كان يجعلني أنتفض وأقفز في داخلي. مِثلي مِثل آلة لاتبدل مكانها فتدور حول ذاتها.

كانت «فرانسواز» تُقبل لإشعال النار وترمي فيها بغية إيقادها بعض دقاق الحطب وكانت رائحته المنسية طوال الصيف ترسم حول الموقد دائرة سحرية كنت، وأنا أشاهد نفسي فيها أقرأ تارة في «كومبريه» وأخرى في «دونسيير»، فرحاً فيما لا أبرح غرفتي في باريس، فرحي لو أنني على وشك الذهاب في نزهة في جانب «ميزيغليز» أو لقاء «سان لو» وأصدقائه يقومون بأنشطتهم العسكرية خارج المعسكر. وغالباً ما يتفق أن تكون المتعة التي يحسها كل الناس في استعادة الذكريات التي جمعتها ذاكرتهم أوفر شدة على سبيل المثال لدى أولئك الذين يحرمهم طغيان الداء الجسماني والأمل اليومي في شفائه أن يمضوا من جهة باحثين في الطبيعة عن لوحات تشبه تلك الذكريات، ويدعهم من جهة أخرى على شيء من

الثقة بأنهم سيستطيعون القيام بذلك في القريب العاجل ليلبثوا تجاهها في حال من الرغبة والتوق ولا يقتصروا على اعتبارها ذكريات ولوحات. ولكن حتى لو استطاعت ألا تكون في يوم سوى ذلك بالنسبة إلي وأمكنني في تذكرها أن أستعيدها فحسب فقد كانت تعيد فيّ وتجعل مني فجأة، بفضل إحساس مماثل، الطفلَ اليافع الذي سبق أن شاهدها. فلم يكن ثمة تبدل في الطقس في الخارج فحسب أو تحول في الروائح داخل الغرفة، بل اختلاف في السن لديّ وحلول شخص محل آخر. كانت رائحة دقاق الحطب في الهواء القارس كأنما قطعة من الماضي، جليدية لا مرئية اقتطعت من شتاء قديم تتقدم داخل غرفتي ويخدّدها في الغالب على أي حال ذاك العطر وذاك الوميض وكذلك سنون مختلفة أعود فأجد نفسي مغموساً فيها ويجتاحني، قبل أن أكون تعرفتها، مرح آمال مهجورة منذ زمن طويل. كانت الشمس تقبل حتى سريري وتخترق الحاجز الشفاف الذي يشكله جسمي المرفق ويدفّئني ويُلهبني كما يفعل بالكريستال. حينئذ كنت أسائل نفسي، كناقه عضّه الجوع فإذا به يغتذي بجميع الأطباق التي لا يزالون يرفضونها له، إن لم يكن زواجي من «ألبيرتين» سوف يفسد حياتي، سواء في ذلك تحميلي العبء الثقيل عليّ المتمثل في تكريس ذاتي لشخص آخر وإلزامي أن أحيا في غياب عن ذاتي بسبب وجودها الدائم وحرماني إلى الأبد من مسرات العزلة، وليس من هذه فقط. فحتى إن لم أطلب في نهاري سوى رغبات، فإن ثمة منها - تلك التي تبعثها لا الأشياء بل الأشخاص - ما كان طابعها الفردية. لذلك كنت إن مضيت وأنا أغادر فراشي لأزيح مقدار لحظة ستارة نافذتي فما كان ذلك فقط كأمر موسيقي يفتح البيانو مقدار لحظة وكيما أتحقق إن كان نور الشمس على الشرفة وفي الشارع يطابق تماماً صورته في ذاكرتي، بل إلى ذلك لمشاهدة غسّالة تحمل سلة غسيلها، وبائعة خبز بصدارة زرقاء وبائعة حليب بمريلة وأكمام من قماش أبيض تمسك بمحجن عُلقت به زجاجات الحليب، وفتاة شقراء مزهوة تتبع معلمتها، صورة باختصار القول كانت الفوارق في خطوطها،

وهي ربما لا قيمة لها على صعيد الكم، كافية لتجعلها مختلفة عما عداها مثلما هو الفارق بين نغمتين في جملة موسيقية، ولعلي كنت بدون رؤيتها سلبت النهار الأهداف التي يمكن أن تعرضها على رغباتي في السعادة. ولئن كان فرط الغبطة الذي تجيئني به رؤية النساء اللاتي تصورهن قبلياً، لئن كان يجعل الشارع والمدينة والعالم أشد استنارة لأشواقي وأولى بالاستكشاف، فقد كان يوليني من جراء ذلك تعطشاً إلى الشفاء والخروج خارجاً وأن أكون، بدون «ألبيرتين»، حراً طليقاً. وكم مرة عانيت لحظةً المرأةَ المجهولة التي كنت أزمع أن أحلم بها، أمام البيت سيراً على الأقدام تارة وطوراً بأقصى سرعة سيارتها، من عجز جسمي عن أن يلحق بنظري الذي كان يدركها وأن يوقف، وقد أهوى عليها وكأنما أطلقته بندقية عتيقة من شق نافذتي، هروب المحيا الذي ينتظرني فيه الوعد بسعادة ما كنت، وأنا حبيس على هذا النحو، لأذوقها في يوم!

وفي المقابل لم يظل لي بعد شيء أتعلمه عن «ألبيرتين». فقد كانت تبدو لي كل يوم أقل جمالاً. وحدها الشهوة التي تؤججها لدى الآخرين كانت ترتفع بها في نظري إلى سدّة عالية حينما كنت أعود فأتألم حين أبلغ الأمر وأعتزم منازعتهم إياها. كان بمقدورها أن تسبب لي العذاب وليس الفرح، وبالعذاب وحده كان يستمر تعلّقي المزعج. وحالما كانت تغيب وتغيب معها الحاجة إلى تسكينه، وهي تقتضي كامل انتباهي كمثل تسلية مريحة، كنت أشعر بالعدم الذي كانته بالنسبة إليّ وما لا بدّ كنته بالنسبة إليها. كنت تعيساً لدوام هذه الحال فأتمنى بين الحين والحين أن أبلّغ أمراً مريعاً اقترفتْه وكان بمقدوره، إلى أن أكون شفيت، أن يخلف بيننا، وسيمكّننا ذلك من التصالح وجعل الرباط الذي كان يجمعنا مختلفاً وأكثر مرونة، وبانتظار ذلك كنت أكلّف ألف ظرف وألف متعة أن تزودها بقربي بوهم تلك السعادة التي لا أحسني قادراً على توفيرها لها. وددت حال شفائي لو أمضي إلى البندقية، ولكن كيف أفعل ذلك إن تزوجت «ألبيرتين» أنا الغيور عليها حتى إني حالما كنت أقرر التحرك حتى في باريس فإنما

أفعل للخروج برفقتها؟ وحتى حينما أمكث طوال العصر في المنزل كان فكري يتعقبها في نزهتها ويرسم أفقاً بعيداً ضارباً إلى الزرقة ويولّد حول المركز الذي كنته منطقةً متحركة من الشك والغموض. وكنت أقول في نفسي: «كم لعل «ألبيرتين» توفر عليّ من غموم الانفصال لو قررتْ، في أثناء واحدة من تلك النزهات، وهي تبصر أني ما عدت أكلمها عن الزواج، ألا تعود وذهبت إلى عمتها دون أن أضطر لوداعها!» لقد شرع قلبي منذ أن أخذ جرحه يلتئم، شرع لا يلتصق بقلب صديقتي. فكنت أستطيع نقلها بالخيال وإبعادها عني دون تألّم. وليس من شك أن آخر غيري، إن خلا مني المكان، سوف يصبح زوجها وربما وقع لها، وقد أضحت حرة، شيء من تلك المغامرات التي كانت تثير اشمئزازي. ولكن الطقس كان جميلاً جداً وكنت واثقاً أنها ستعود في المساء إلى حدّ أستطيع معه، إن خطرت لي فكرة الأخطاء الممكنة هذه أن أسجن الفكرة بفعل حرّ في قسم من دماغي لم يكن لها من الأهمية فيه أكثر مما تكتسبه معايب شخص وهمي تجاه حياتي الحقيقية. لقد تجاوزت، إذ أعملت مفصلات فكري الملينة، تجاوزت، بعزم كنت أحسّه داخل رأسي مادياً وفكرياً في آن واحد على غرار حركة عضلية ومبادرة روحية، حالة الانشغال المعتاد الذي سُجنت داخله حتى الآن وشرعت أتحرك في الهواء الطلق من حيث تبدو لي التضحية بكل شيء للحيلولة دون زواج «ألبيرتين» من آخر غيري وعرقلة ميلها إلى النساء من قبيل اللامعقول في نظري كما هو الأمر في نظر من لم يكن عرفها. والغيرة بأية حال من تلك الأمراض المتقطعة التي يبدو سببها متقلباً وقاهراً ومتماثلاً على الدوام لدى المريض عينه، ومختلفاً تمام الاختلاف أحياناً لدى آخر غيره، فثمة مرضى بالربو لا يهدّئون من نوبتهم إلا بفتح النوافذ وتنشق الهواء الطلق، الهواء النقي على المرتفعات، وآخرون باللجوء إلى مركز المدينة في غرفة تملؤها الأدخنة. وليس من غيور تقريباً إلا وتشرب غيرته بعض الخروقات. فهذا يقبل الخيانة شرط أن يُقال له ذلك، وآخر شرط إخفاء الأمر عنه، وكاد هذا لا

يكون أقل عبثية من ذاك في هذا الأمر، لأنه إن كان الثاني أقرب إلى الخديعة الحقّة لما يخفون الحقيقة عنه، فالأول يلتمس في هذه الحقيقة غذاء لآلامه وامتداداً وتجديداً.

أضف أن هذين الصنفين من التصرف الغريب والمتناقض للغيرة يتجاوزان في الغالب حدّ الأقوال، سواء التُمِسَتْ أو رفضتصنوف البوح. فإنك ترى غيارى لا يغارون إلا من الرجال الذين ترتبط عشيقتهم بعلاقات معهم بعيداً عنهم، ولكنهم يسمحون أن تسلّم نفسها لرجل آخر غيرهم إن كان بتصريح منهم وعلى مقربة وإن لم يكن حتى تحت العين والبصر فعلى الأقل تحت سقف بيتهم. والحالة هذه كثيرة الحدوث إلى حد لدى المسنين الذين وقعوا في غرام امرأة فتية. فإنهم يشعرون بصعوبة نيل إعجابها وأحياناً بعجزهم عن إرضائها فيفضلون على خديعتهم السماح بأن يجيء إلى بيتهم وفي غرفة مجاورة من يحكمون أنه عاجز عن إسداء نصائح السوء لا عن توفير المتعة. والأمر على نقيض ذلك تماماً بالنسبة إلى آخرين: فهم إذ لا يدعون لعشيقتهم أن تخرج وحدها دقيقة واحدة في مدينة يعرفونها يفسحون لها أن تذهب شهراً إلى بلد لا يعرفونه ولا يستطيعون أن يتخيلوا ما ستفعل فيه. كنت أسلك إزاء «ألبيرتين» هذين النوعين من السلوك الغريب المهدّئ. فما كنت لأغار لو أنها بلغت متعاً بالقرب مني وبتشجيع مني وأمكن أن أجعلها جميعاً تحت رقابتي فأوفر على نفسي بذلك خشية الكذب عليّ. ولعلني ما كنت لأغار أيضاً لو أنها ذهبت إلى بلد مجهول لديّ إلى حد ما وبعيد بما لا أقوى معه على تصور أسلوب حياتها أو على إمكان ورغبة معرفته. ولعل الشك في كلا الحالتين كان زال من جرّاء معرفة أو جهل تامّين على السواء.

كان تراجع ضوء النهار يغمسني من جديد عن طريق التذكر في جو قديم نديّ فأتنشقه بذات التلذذ الذي يتنشق به «أورفيوس»[1] الهواء الرقيق

---

(١) Orphée: منشد ورد ذكره في ملحمة هوميروس! وقد انحدر إلى الجحيم بحثاً عن زوجته «أوريديسي».

المجهول على هذه الأرض والمنبعث من «الشانزيليزيه»[1]. لكن النهار كان يدرك مذ ذاك نهايته وأخذت تجتاحني كآبة المساء. كنت أرى، وأنا أنظر عفوياً على ساعة الحائط كم ساعة ستنقضي قبل عودة «ألبيرتين»، إن الوقت لا يزال يتسع لي لارتداء ملابسي والنزول لأسأل صاحبة بيتي السيدة «دو غيرمانت» إرشادات حول بعض أشياء الملبس الجميلة التي أودّ تقديمها لصديقتي. كنت أحياناً ألتقي الدوقة في الباحة وهي خارجة في جولات على الأقدام، حتى إن كان الطقس سيئاً، بقبعة مسطحة وفراء. كنت أعلم تمام العلم أنها لم تكن في نظر كثير من الناس الأذكياء سوى سيدة أية سيدة، إذ لا يعني اسم دوقة «غيرمانت» شيئاً الآن حين لم يبق هناك دوقيات ولا إمارات ولكني كنت قد اتخذت وجهة نظر مغايرة في طريقة استمتاعي بالكائنات والبلدان، فقصور الأراضي جميعها التي كانت دوقة عليها وأميرة و«فيكونتيسة»، كانت تلك السيدة ذات الفراء التي تتحدّى الطقس الرديء، تبدو كأنما تحملها معها مثلما الأشخاص المنحوتون على ساكف البوابة يحملون في يدهم الكاتدرائية التي شيّدوها أو المدينة التي دافعوا عنها. لكن عيني فكري وحده كانتا قادرتين على رؤية هذه القصور وهذه الغابات في اليد المقفّزة للسيدة ذات الفراء ابنة عم الملك. أما عينا جسدي فما كانتا تميّزان فيها في الأيام التي ينذر الطقس فيها بالسوء سوى ممطرة ما كانت الدوقة تخشى التسلح بها. «ليس أحد يدري، والأمر زيادة في الحذر إن وجدتني بعيدة جداً وطالبتني العربة بأسعار غالية جداً عليّ». كانت عبارتا: «غالية جداً» و«تتجاوز إمكاناتي» تترددان طوال الوقت في حديث الدوقة، وكذلك عبارة «أنا فقيرة جداً» دون إمكان أن تستخلص إن كانت تتكلم على تلك الشاكلة لأنها تجد تسلية في قولها إنها فقيرة، وهي بمثل غناها، أو لأنها تراه في باب الأناقة، وهي بمثل أرستقراطيتها، أعني

(١) هو مقر أرواح الأبطال وأرباب الفضيلة في ميثولوجيا اليونانيين (مثل قولك جنات الخلد).

تكلفها الظهور بمظهر الفلاحة وبأنها لا تولي الغنى الأهمية التي يوليها الناس الذين هم محض أغنياء ويزدرون الفقراء. وربما كانت تلك بالأحرى عادة اتخذت في فترة من حياتها كانت تعاني فيها. وهي غنية مذ ذاك ولكن بما لا يكفي إزاء ما تقتضيه صيانة هذا الكم من الممتلكات، عوزاً إلى المال لا تود أن تبدي أنها تتستّر عليه. وأن الأمور التي نتحدث عنها في الغالب مازحين إنما هي بعامة وعلى العكس تلك التي نضيق بها إلا أننا لا نودّ أن يبدو علينا أننا نضيق بها، ربما إلى جانب الأمل الدفين بذاك المكسب الإضافي الذي قوامه بالضبط أن الشخص الذي نتحدّث وإياه سوف يظن، إذ يسمعك تمازح بشأنه، أن الأمر ليس صحيحاً.

لكني كنت أعلم في الغالب أني سألقى الدوقة في منزلها في تلك الساعة، وكنت سعيداً بذلك فقد كان الأمر أيسر لي كي أطيل في سؤالها حول معلومات ترغب فيها «ألبيرتين». وكنت أنزل إلى هناك دون أن أفكر تقريباً كم كان غريباً أن أمضي إلى بيت السيدة «دو غيرمانت» الغامضة هذه، سيدة طفولتي، لمحض أن أستخدمها في سبيل تيسير أمور عملي مثلما نفعل بالهاتف، الآلة الخارقة التي كان الناس بالأمس يذهلون إزاء معجزاتهم وهم يستخدمونها الآن، حتى دون أن يفكروا فيها، ليستقدموا خياطهم أو في طلب «البوظة».

كانت هنات الزينة تولي «ألبيرتين» مسرّات عظيمة. وما كنت أقوى على أن أحجب النفس عن توفير مسرة جديدة لها في كل يوم. وفي كل مرة حدثتني فيها بافتتان عن منديل، عن وشاح من الفرو، عن شمسية أبصرتها من النافذة أو لدى مرورها في الباحة، بعينيها اللتين كانتا تميزان بسرعة عظيمة كل ما يتصل بالأناقة، حول جيد السيدة «دو غيرمانت» وعلى كتفيها وفي يدها، كنت، وأنا عالم أن ذوق الفتاة المتصعّب في طبيعته (وقد زادت من رهافته دروس الأناقة التي شكّلها بالنسبة إليها حديث «إيلستير») لن يرتضي إطلاقاً أي شيء تقريبي بسيط، وإن كان نقلاً عن نموذج جميل، يحل محله في نظر الدهماء ولكنه يختلف عنه اختلافاً

كاملاً، كنت أمضي سراً طالباً أن توضح لي الدوقة أين وكيف وعن أي نموذج صُنِعَ ما راق لعيني «ألبيرتين» وكيف يجدر بي أن أفعل للحصول عليه بالضبط وعلى ما يقوم سر الصانع وسحر طريقته (وهو ما كانت «ألبيرتين» تدعوه «الأناقة» و«الشياكة») والاسم الدقيق ونوعية الأقمشة التي يجدر بي أن أسألهم استخدامها - فإن لجمال المادة أهميته -.

حينما قلت لـ«ألبيرتين» لدى وصولنا إلى «بالبيك» إن الدوقة «دو غيرمانت» تسكن قبالتنا في الفندق نفسه اتخذت لدى سماعها اللقب الكبير تلك الهيئة التي تتجاوز اللامبالاة، إلى العداء، إلى الازدراء الذي هو علامة الرغبة العاجزة في الطبائع الأبية الحماسية الهوى. وعبثاً كانت طبيعة «ألبيرتين» تتسم بالسمو فما كانت الخصال التي تحويها تستطيع التنامي إلا وسط هذه العقبات التي تؤلفها أذواقنا أو ما سلّمنا بحرماننا منه من أذواقنا، هذا الجزء الذي اضطررنا إلى التخلي عنه - كما هو حال «ألبيرتين» بالنسبة إلى الحذلقة: وهذا ما ندعوه بالأحقاد. وحقد «ألبيرتين» على ناس المجتمع الراقي كان يحتل على أية حال حيّزاً هيناً جداً في نفسها ويروقني بجانب روح الثورة فيه - ونعني الحب الفاشل لطبقة النبلاء - المنقوش على الوجه المقابل من الطباع الفرنسية حيث الصنف الأرستقراطي، صنف السيدة «دو غيرمانت». والصنف الأرستقراطي هذا ما كانت «ألبيرتين» ربما اهتمت به لاستحالة بلوغه، بيد أنها إذ تذكرت أن «إيلستير» سبق أن حدّثها عن الدوقة على أنها المرأة الباريسية الأفضل ملبساً فقد أفسح الازدراء الجمهوري تجاه إحدى الدوقات، أفسح المكان لدى صديقتي لاهتمام شديد بإحدى الأنيقات. فكثيراً ما كانت تسألني معلومات عن السيدة «دو غيرمانت» وتودّ أن أمضي إلى منزل الدوقة لأحمل لها نصائح في اللباس. كان بوسعي دون شك أن أطلبها من السيدة «سوان»، بل كتبت إليها مرة لهذه الغاية. لكنما كان يبدو لي أن السيدة «دو غيرمانت» كانت تبلغ مدى أبعد في فن الملبس. فإن نزلت فترة إلى بيتها بعدما أكون تأكدت أنها لم تخرج ورجوت أن يخطروني حالما تكون

«ألبيرتين» قد عادت، كنت أجد الدوقة غارقة في ضباب مبذل من قماش «كريب» الصين الرمادي وكنت أقبل هذا المظهر الذي أحسه ناجماً عن أسباب معقدة ولعله ما كان يمكن تغييره، وأدع للجو المنبثق منه أن يجتاحني، مثلما يجتاح ضباب رقيق أواخر بعض أعصر يبطنها لون رمادي لؤلؤي. فإن كان ذاك المبذل على العكس صينياً بلهب أصفر أو أحمر كنت أراها بصورة غروب مشتعل. ما كانت تلك الأثواب زينة، أية زينة يمكن تغييرها حين تشاء، بل حقيقة معطاة شاعرية كما هي حقيقة الطقس السائد، وكما هو الضوء الخاص في ساعة معينة.

من بين سائر الفساتين أو المباذل التي كانت السيدة «دو غيرمانت» ترتديها كانت تلك التي تبدو الأكثر استجابة لمقصد محدد وتحمل دلالة خاصة هي الفساتين التي صنعها «فورتوني» نقلاً عن رسوم قديمة في البندقية. فهل هو طابعها التاريخي، أم هو بالأحرى كون كلّ منها فريداً هو الذي يوليه طابعاً خاصاً إلى حد تتخذ معه وقفة المرأة التي ترتديها وهي في انتظارك، وهي تتحدث وإياك، أهمية استثنائية كما لو كانت تلك البزة ثمرة تشاور طويل، وكما لو كانت تلك المحادثة تنفصل عن الحياة العادية شأن مشهد روائي؟ فإنك تشاهد في روايات «بلزاك» بطلات يرتدين عمداً هذه الأثواب أو تلك في اليوم الذي يقع عليهن استقبال زائر معين. أما أثواب اليوم فلم يعد لها هذا الطابع البارز، باستثناء فساتين «فورتوني». ولا يمكن أن يبقى أي غموض في وصف الروائي، بما أن هذا الفستان موجود حقاً وأن أقل رسومه محددة بصورة طبيعية تضاهي رسوم عمل فني. لقد كان على المرأة قبل أن ترتدي هذا أو ذاك أن تقوم بعملية اختيار بين فستانين ليسا متشابهين تقريباً بل لكل منهما فرديته العميقة ويمكن أن نطلق اسماً على كل منهما.

لكن الفستان لم يكن يحول دون أن أفكر في المرأة. والسيدة «دو غيرمانت» بدت لي في هذه الفترة حتى أكثر إمتاعاً منها في الزمن الذي كنت بعد على حبّها. ولما تناقص ما كنت أتوقعه منها (هي التي لا أمضي

للقائها من بعد من أجل شخصها) فقد كنت أصغي إليها بما يقارب الهدوء اللامبالي الذي نبديه حينما نكون وحدنا نضع قدمينا على قضبان المدفأة وكما لعلي كنت قرأت كتاباً أُلّف بلغة الأمس. لقد توافر لي ما يكفي من حرية فكرية كيما أتذوق في ما كانت تقول هذه الأناقة الفرنسية الشديدة الصفاء التي لا نلقاها من بعد لا في كلام الزمن الحاضر ولا في كتاباته. كنت أصغي إلى حديثها إصغائي لأغنية شعبية عذب طابعها الفرنسي، وأدرك أن كنت سمعتها تسخر من «ميترلنك» (Moeterlinck) (الذي أضحت الآن معجبة به على أية حال لضعف في فكر المرأة الذي يتأثر بهذه الصرعات الأدبية التي تأتي أشعتها متأخرة) مثلما أدرك أن يسخر «ميريميه» (Mérimée) من «بودلير» (Baudelaire) و«ستاندال» (Stendhal) من «بلزاك» (Balzac) و«بول لوي كوريبه» (Paul Louis Courier) من «فيكتور هوغو» (Victor Hugo) و«ميلاك» (Meilhac) من «لامالارميه» (Mallarmé). وأدرك تماماً أن الساخر كان يحمل فكراً محدوداً جداً قبالة ذلك الذي يسخر منه، ولكنما يملك إلى ذلك مفردات أكثر صفاءً. كانت مفردات السيدة «دو غيرمانت»، بما يقرب من ذات المقدار في مفردات والدة «سان لو»، تتسم بتلك الصفة إلى حد كان يفتنني. فما أنت واجد في معارضات كتاب اليوم الجافة ممن يقولون «في الواقع» (بدلاً من «في الحقيقة») و«على نحو غريب» (بدلاً من «على وجه الخصوص») و«مستغرب» (بدلاً من «يتملكه الذهول») إلخ، إلخ، اللغة العتيقة والتلفظ الصحيح بالكلمات، بل في حديثك مع السيدة «دو غيرمانت» أو مثيلات «فرانسواز». فقد تعلمت من الثانية ومنذ الخامسة من عمري أنهم لا يقولون «لوتارن» (Le Tarn) بل «لوتار» (Le Tar)، ولا يقولون «لوبيارن» (Le Béarn) بل «لوبيار» (Le Béar). وقد كان من ذلك أني حينما دخلت عالم النخبة لم يقع عليّ أن أتعلم أنه ينبغي ألا نقول مثلما تفعل السيدة «بونتان»: مدام «دوبيارن»:

لعلني أكذب إن قلت إن هذا الجانب الريفي وشبه الفلاحي الذي ظلّ

باقياً لديها لم تكن الدوقة تعيه ولم تكن تتعمّد بعض التصنّع في إبرازه. ولكن الأمر من جانبها كان أقل ما كان بساطة كاذبة لدى سيدة كبيرة تظهر مظهر الريفية واستكبار دوقة تسخر من السيدات الغنيّات المزدريات للفلاحين الذين لا يعرفنهم، وأكثره ميل يقرب أن يكون فنيّاً لدى امرأة تعرف سحر ما تملك ولن تفسده بطلاء عصري، وبالطريقة عينها عرف الجميع في «ديف» صاحب مطعم نورماندي يملك «**غليوم الفاتح**» تجنّب تماماً أن يضفي على دائرته الفندقية طابع البذخ العصري الذي يطبع الفنادق وكان يحتفظ، وهو المليونير، بلغة وصدريّة فلاح نورماندي ويأذن لك أن تأتي لمشاهدته وهو يعدّ بنفسه في المطبخ، كما هي الحال في الريف، عشاء كان مع ذلك أفضل إلى ما لا حدود وأغلى ثمناً مما هو في أعظم الفنادق.

ليس يكفي كلّ النسغ المحلي الكائن في الأسر الأرستقراطية العريقة ولا بد أن يولد فيها شخص على ذكاء كافٍ كي لا يجري ازدراء ذاك النسغ وطمسه تحت طلاء المجتمع الراقي، أما السيدة «دو غيرمانت» وهي لسوء الحظ خفيفة الظل باريسية وما كانت تحتفظ من ريفها حين عرفتها بغير النبرة، فكانت على الأقل قد وجدت حينما تبغي وصف حياتها البنويّة بالنسبة إلى لغتها (بين ما لعله بدا ريفياً تغلب عليه العفوية أو على العكس تغلب عليه صنعة المثقفين) واحداً من تلك الحلول الوسط التي هي مبعث الإمتاع في رواية «**فاديت الصغيرة**» (*La Petite Fadette*) لـ«جورج صاند» أو في بعض أساطير نقلها «شاتوبريان» في كتابه «**مذكرات ما بعد الممات**». كانت متعتي على وجه الخصوص أن أسمعها تروي حكاية تضع أمامنا فلاحين برفقتها. لقد كانت الأسماء العريقة والعادات القديمة تولي المقارنات بين القصر والقرية نكهة مستملحة. فإن طبقة من الأرستقراطيين ظلت على اتصال بالأراضي التي كانت سيدة فيها إنما تبقى محلية الطابع حتى لينشر أبسط القول أمام ناظرينا خريطة تاريخية وجغرافية كاملة لتاريخ فرنسا.

فإن لم يكن تصنّع البتّة أو أي تصميم على اصطناع لغة ذاتية فإن هذه الطريقة في التلفظ كانت حينذاك متحفاً حقيقياً لتاريخ فرنسا يستخلص من المحادثة. لم يكن في عبارة «شقيق جدّي فيت - جام» ما يُدهش، إذ نعلم أن آل «فيتس جيمس» يعلنون من تلقاء أنفسهم أنهم أسياد فرنسيّون كبار ولا يودّون أن يلفظ اسمهم على الطريقة الإنكليزية لـ«Fitz-James - Fitt-Jam». وينبغي لنا على أية حال أن نعجب بالطواعية المؤثرة لدى من ظنوا إلى الآن أن عليهم أن يجهدوا في لفظ قواعدي لبعض الأسماء، فإذا هم ينصرفون فجأة، بعدما سمعوا الدوقة «دو غيرمانت» تقولها بطريقة مختلفة، إلى اللفظ الذي ما استطاعوا افتراضه. من ذلك أن الدوقة سبق أن كان لها والد جدّ لدى الكونت «دو شامبور» فكانت تحب أن تعلن، بغية مضايقة زوجها لأنه انحاز إلى آل «أورليان»: «نحن قدامى دو «فروشدورف». وكان الزائر الذي ظن أنه يحسن فعلاً بقوله حتى ذاك «فروشدورف»، كان يبدّل رأيه كأسرع ما يكون ويقول دون إبطاء «فروشيدورف».

وفي مرة كنت أسأل فيها السيدة «دو غيرمانت» من عساه كان الشاب الرائع الذي سبق أن قدّمته لي على أنه ابن أخيها ولم أسمع اسمه بوضوح، لم أميز ذاك الاسم أكثر من ذي قبل حين قالت الدوقة بصوت قوي ولكن دونما تلفظ واضح: «إنه ال.. إي «ايون» شقيق «روبير»، ويبدو أنه يملك شكل جمجمة الغاليّين القدامى» حينئذ فهمت أنها قالت: «إنه العزيز «ليون» (الأمير «دو ليون» وهو بالفعل صهر «روبير دو سان لو»). وأضافت قولها: «وفي جميع الأحوال لا أدري إن كان يملك جمجمتهم ولكن طريقته في الملبس، وهي على كثير من الأناقة على أية حال، ليست من هناك تماماً. ففي يوم ذهبنا فيه للحجّ، من «جوسلان» حيث كنت لدى آل «روان»، أقبل فلاحون من جميع أنحاء «بريتانيا» تقريباً. وكان ثمة قروي من مقاطعة «ليون» عظيم القد، ينظر بدهشة إلى بنطال صهر «روبير» «البيج». فقال له «ليون»: «ما بك تنظر إليّ؟ أراهن أنك لا تعلم من عساني أكون». وإذ كان الفلاح يجيب بالنفي: «هاك إذن!

إني أميرك». فأجاب الفلاح وهو يكشف عن رأسه ويعتذر: «آه! ظننتك إنكليزياً». فإن انتهزت نقطة الانطلاق هذه فدفعت بالسيدة «دو غيرمانت» حول موضوع آل «روان» (وكثيراً ما عقدت أسرتها مصاهرات معهم) شاب حديثها شيء من سحر الاستغفارات الحزين وكما ربما قال هذا الشاعر الحقيقي المدعو «بامبيي»، «من النهكة اللاذعة التي لفطائر القمح الأسود المخبوزة على نار الجولق».

أما عن المركيز «دولو» (الذي نعرف آخرته التعيسة حينما كان يُحمَل وبه صمم إلى منزل السيدة «... العمياء)، فقد كانت تروي عن سنيه الأقل مأساوية حينما كان يحتذي، بعد الصيد في «غيرمانت»، مشايته لتناول الشاي مع ملك إنكلترا، وما كان يرى نفسه دونه ولا يتحرّج معه كما نرى. كانت تُلفت النظر إلى ذلك بكثير من الإثارة حتى لتضيف إليه الزهو الفضفاض الذي يطبع النبلاء في منطقة «بيريغور» وهم على بعض اعتزاز.

والاهتمام على أي حال، حتى في محض توصيف الناس، بالتمييز بين المقاطعات، كان في نظر السيدة «دو غيرمانت»، التي لبثت أبداً ذاتها، سحراً عظيماً ما كان لباريسية المنشأ أن تحوزه في يوم وكانت مجرد أسماء الـ«أنجو» والـ«بواتو» والـ«بيريغور» تعيد في حديثها تشكيل مناظر طبيعية.

فإن عدنا إلى لفظ ومفردات السيدة «دو غيرمانت»، فإنما يبدو النبلاء محافظين حقاً في هذا الجانب بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من بعض الصبيانية وبعض الخطورة ومقاومة التطور، بل من إثارة كذلك للفنان. كنت أودّ أن أعلم كيف كانت تُكتب فيما مضى كلمة «جان» (Jean). وعرفت ذلك باستلامي رسالة من ابن شقيق السيدة «دو فيلباريسيس» الذي يوقّع «جيهان دو فيلباريسيس» (Jehan de Villeparisis) كما ورد في المعمودية وما هو موجود في كتاب «غوتا» (Gotha) - بحرف الـ«h» نفسه الجميل العديم الجدوى الشعاري على نحو ما تتأمله مزوّقاً باللون القرمزي

أو اللازوردي في كتاب للساعات[1] أوفي نجمية زجاجية.

لم يكن الوقت يتسع لي للأسف لإطالة هذه الزيارات إلى غير ما حدّ فقد كنت أودّ ألا أعود بعد صديقتي ما أمكنني ذلك. بيد أني ما كنت أستطيع الحصول من السيدة «دو غيرمانت» على معلومات حول ملابسها إلا بالقطارة، والمعلومات كانت تفيدني من أجل صنع ملابس لـ«ألبيرتين» من الطراز نفسه إن كان بمقدور فتاة أن ترتدي مثلها.

«كنتِ على سبيل المثال يا سيدتي، في اليوم الذي كان عليك فيه تناول طعام العشاء في منزل السيدة «دو سانت أوفيرت» قبل الذهاب إلى منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ترتدين فستاناً أحمر كله وحذاء أحمر، كنتِ مذهلةوتبدين صنفاً من زهر دامٍ كبير وياقوتة مشتعلة، فبأي اسم يدعونه؟ وهل يمكن لفتاة أن ترتديه؟».

وردّت الدوقة إلى وجهها المتعب التعبير المشرق الذي كان لأميرة «دي لوم» حينما يوجّه إليها «سوان» صنوف الثناء ونظرت، ضاحكة حتى لتدمع عيناها وبهيئة ساخرة متسائلة مفتونة، إلى السيد «دو بربوتيه»، ولا يزال هناك في تلك الساعة وكان يبعث تحت نظارته الدفء في ابتسامة مترئفة لهذا الهذر الصادر عن المثقف بسبب ما يبدو لها أنه يخفي وراءه من حماسة جسدية شابة. كانت الدوقة تبدو كأنما تقول: «ما به؟ إنه مجنون». ثم تستدير صوبي بلهجة مغناجة: «ما كنت أعلم أنني أشبه ياقوتة مشتعلة أو زهرة دامية، لكني أذكر بالفعل أن كان لي فستان أحمر، وكان من الساتين الأحمر من مثل ما كانوا يصنعون في تلك الفترة. أجل تستطيع فتاة أن ترتديه لدى الاقتضاء، ولكنك قلت لي إن فتاتك لا تخرج ليلاً، وهو فستان سهرات كبيرة ولا يمكن ارتداؤه للقيام بزيارات».

والعجيب أن السيدة «دو غيرمانت» لم تذكر من تلك الأمسية، وهي بالإجمال غير قديمة، سوى أثوابها وأنها نسيت شيئاً كان ينبغي مع ذلك،

---

(١) كتاب الصلوات الموزع على ساعات النهار لدى المسيحيين.

مثلما سنرى، أن يكون عظيم الأهمية في ما يخصّها. فإنه يبدو لدى رجال الفعل، وناس المجتمع الراقي رجال فعل (صغار جداً، مجهريون، ولكنهم في النهاية رجال فعل)، وإن الفكر الذي يجهده الانتباه لما سيجرى بعد ساعة لا يستودع الذاكرة إلا النزر اليسير. ففي الكثير الغالب مثلاً لم يكن السيد «دو نوربوا» يقول، بداعي الخداع وكي يبدو أنه لم يخطئ حينما كانوا يكلمونه عن تنبؤات صدرت عنه بشأن تحالف ألماني لم يبلغ حتى غايته: «لا بد أنكم تخطئون القول، لست أذكر البتة والأمر غريب عني، فإني دوماً شديد الاقتضاب في صنوف الحديث هذه وما كنت لأتنبأ في يوم بنجاح أحد تلك الأعمال الباهرة التي ليست في الغالب سوى أعمال طائشة تنقلب عادة أعمال عنف. ليس من ينكر أن تقارباً فرنسياً - ألمانياً يمكن أن يحدث في مستقبل بعيد ويكون ذا نفع كبير لكلا البلدين ولا تكون فرنسا الطرف الخاسر فيه حسب ظني، ولكني لم أتكلم عن الأمر البتة لأن القضية لم تنضج بعد، وإن وددتم سماع رأيي فإني أعتقد أننا إن طالبنا أعداءنا القدامى بالارتباط معنا بزواج شرعي فسوف نمنى بفشل كبير ولن ينالنا سوى الأذية». لم يكن السيد «دو نوربوا» يكذب إذ يقول ما يقول بل كان قد نسي فحسب. وسرعان ما ينسى المرء على أية حال ما لم يفكر فيه بعمق وما أملاه عليه التقليد وأملته الأهواء المحيطة، وهي تتغير وتتبدل معها ذاكرتنا. والسياسيون حتى أكثر من الديبلوماسيين لا يتذكرون الموقف الذي اتخذوه في وقت معين وإن تراجعهم عن آراء سابقة ناجم عن نقص في الذاكرة أكثر منه عن فرط طموح، أما أهل المجتمع الراقي فإنهم يتذكرون القليل.

لقد أكدت لي السيدة «دو غيرمانت» أنها لا تذكر أن السيدة «دو شوسبيير» كانت في الأمسية التي كانت ترتدي فيها الفستان الأحمر وأنني مخطئ بالتأكيد، والله يعلم مع ذلك إن كانت عائلة «شوسبيير» قد شغلت مذ ذاك بال الدوق وحتى الدوقة! وإليك السبب. كان السيد «دو غيرمانت» أقدم نائب رئيس لنادي الخيول عندما توفي الرئيس. وقد قام بعض أعضاء

المنتدى الذين لا معارف لهم، وممن قوام متعتهم الوحيدة أن يشهروا بالذين لا يدعونهم، بحملة على الدوق «دو غيرمانت» الذي لم يبد أي اهتمام وهو على يقين من انتخابه وغير مبالٍ إلى حد ما بتلك الرئاسة التي كانت أمراً هيناً بالنسبة إلى موقعه في المجتمع الراقي. وأبرزوا أن الدوقة من أنصار «دريفوس» (مع أن قضية «دريفوس» انتهت منذ زمن طويل، لكنهم كانوا لا يزالون يذكرونها بعد عشرين عاماً، وهي لم تنحز إلى «دريفوس» إلا منذ عامين) وأنها تستقبل آل «روتشيلد» وأنهم يفرطون منذ بعض الوقت في محاباة أثرياءدوليين عظام على شاكلة الدوق «دو غيرمانت»، وهو نصف ألماني. وصادفت الحملة أرضاً مؤاتية، فالمنتديات تبدي على الدوام كثيراً من الغيرة من القوم البارزين جداً وتكره الثروات الضخمة. ولم تكن ثروة «دو شوسبيير» هينة، ولكن لم يكن بوسع أحد أن يستاء منها، فهو لا ينفق فلساً واحداً وشقة الزوجين متواضعة والمرأة تمضي وملبسها الصوف الأسود. صحيح أنها تقيم، إذ هي مجنونة بالموسيقى، حفلات نهارية صغيرة كانت تدعى إليها مغنيات يفوق عددهن كثيراً من يُدعين لدى آل «غيرمانت». لكنما لا يتحدث أحد عنها فكل شيء يجرى دون مرطبات، حتى في غياب الزوج، في ظلمة شارع «لاشيز». وفي الأوبرا كانت السيدة «دو شوسبيير» لا تسترعي الأنظار وهي دوماً برفقة أناس يذكر اسمهم بالوسط الأكثر تطرّفاً في بطانة «شارل» العاشر، ولكنهم قوم مغمورون نادرو الظهور في المجتمعات. وانتصرت العتمة على النور المبهر يوم الانتخاب وعمّت الدهشة وعين «شوسبيير» النائب الثاني للرئيس رئيساً لنادي السباق، ولبث الدوق «دو غيرمانت» على الحصير، يعني النائب الأول للرئيس. صحيح أن رئاسة نادي السباق لا تمثل الشيء الكثير في نظر أمراء من المقام الأول كما أسرة «غيرمانت». أما أن لا تكون رئيساً عندما يحين دورك وتراهم يفضلون عليك أمثال «شوسبيير» الذي لم تكن «اوريان» لسنتين خلتا ترد التحية لزوجته، وليس ذلك فحسب بل يبلغ بها أن تُبدي أنها أهينت إذ يحييها هذا الخفاش

المجهول، فقد شقّ ذلك على الدوق. كان يدّعي أنه يسمو على هذا الفشل ويؤكد من جانب آخر أن الأمر ناجم بالنسبة إليه عن صداقته القديمة لـ«سوان». لكن لم يبرحه الغضب في الحقيقة. وثمة أمر على شيء من الغرابة، فلم يسمع أحد الدوق «غيرمانت» يستخدم في يوم العبارة العادية إلى حد ما: «بالتمام والكمال»، لكنها، منذ انتخابات نادي السباق وحالما يجري الحديث عن قضية «دريفوس» تطلع عبارة «بالتمام والكمال»: «قضية دريفوس، قضية دريفوس، ما أسرع ما تقال والكلمة غير صحيحة. ليست قضية دينية بل هي «بالتمام والكمال» قضية سياسية». كان يمكن أن تنقضي خمس سنوات دون أن تسمع «بالتمام والكمال» إن لم يجر الحديث في أثنائها عن قضية «دريفوس». أما إذا عاد اسم «دريفوس» بعد انقضاء السنوات الخمس كانت عبارة «بالتمام والكمال» تعود في الحال آلياً. والدوق على أية حال لم يعد يطيق أن يجرى الحديث عن هذه القضية التي سببت، كما يقول، طائفة من المصائب، مع أنه لم يكن يتأثر بالحقيقة إلا بواحدة هي فشله في رئاسة نادي السباق.

لذلك استُقبل السيد «دو بريوتيه»، عصر اليوم الذي أروي عنه وذكّرت فيه السيدة «دو غيرمانت» بالفستان الأحمر الذي كانت ترتديه في أمسية ابنة عمها، استقبالاً سيئاً إلى حد حينما أراد أن يقول شيئاً فشرع، بتوارد أفكار ظلّ غامضاً ولم يكشف عنه، شرع يقول وهو يدير لسانه في مقدمة فيه المزموم: «بشأن قضية «دريفوس»...» (لماذا قضية «دريفوس»؟ والأمر كان فقط أمر فستان أحمر، وما كان «بريوتيه» المسكين، ولا يفكر في يوم إلا في إشاعة السرور، ليضمنه بالتأكيد أي خبث). لكن مجرد اسم «دريفوس» جعل الدوق «دو غيرمانت» يقطب حاجبيه السلطويين. «لقد روي لي، يقول «بريوتيه»، عن طرفة على شيء من الحلاوة ومرهفة جداً في الواقع لصديقنا «كارتييه» (دعنا ننبه القارئ إلى أن «كارتييه» هذا، وهو شقيق السيدة «دو فيلفرانش»، لم تكن له أدنى صلة بالجواهري الذي يحمل ذات الاسم!)، وليس يدهشني ذلك على أية حال إذ كان على ظرف كبير».

وقاطعته «أوريان» قائلة: «آه! ما أنا من يشتريه فليس بمقدوري أن أقول إلى أي حد أزعجني «كارتييه» هذا على الدوام ولم أستطع البتة أن أفهم السحر اللامتناهي الذي يلقاه «شارل دو لاتريمواي» وزوجته لدى هذا المبرم الذي ألتقيه في منزلهم كلما مضيت إلى هناك». وأجاب «بريوتيه» الذي كان يصادف عنتاً في لفظ بعض الحروف: «أزيزتي الدرقة، أراك بالغة القسوة بحق «كارتييه». صحيح أنه ربما أفرط بعض الشيء في سلوك الدرب المؤدي إلى منزل «لاتريمواي»، ولكنه في النهاية من صنف، ماذا عساني أقول، من صنف «آشاتيه»[1] الأمين بالنسبة إلى «شارل»، والأمر أصبح من الطيور النادرة إلى حد في هذا الزمن الحاضر. وفي جميع الأحوال إليك الطرفة التي رويت لي. لقد قال «كارتييه»، على حدّ زعمهم، إن السيد «زولا» إن كان سعى أن تقام عليه الدعوى ويصدر حكم بحقه فإنما ليختبر إحساساً لم يكن بعد يعرفه، إحساس الإقامة في السجن». وقاطعته «أوريان» قائلة: «وهو هرب لذلك قبل توقيفه، ليس يستقيم الأمر هكذا. وإني على أي حال، وحتى إن كان الأمر محتملاً، أرى الطرفة غبية بالتأكيد. فإن كان هذا ما تجده على ظرف!» وأجاب «بريوتيه» الذي أخذ يتراجع عن موقفه إذ رآهم يعارضونه: «يا إلهي، ليست الطرفة مني يا أزيزتي «أوريان»، وأنا أرددها مثلما قيلت لي، فخذي منها بمقدار ما تساوي. لقد جرت في جميع الأحوال على السيد «كارتييه» أن جرى تأنيبه بشدة من جانب «لاتريمواي» الرائع هذا الذي لا يود البتة بكثير من الحق أن يجرر الحديث في صالته عما أدعوه، ماذا عساي أقول؟ القضايا الراهنة، والذي تزايد حنقه من جراء وجود السيدة «ألفونس روتشيلد» هناك. وكان على «كارتييه» أن يتحمل هجائية حقيقية من جانب «لاتريمواي». - وقال الدوق وهو في أسوأ مزاج: «بالطبع، آل «ألفونس روتشيلد»، مع أنّهم على ذوق يمنعهم عن الحديث في يوم عن هذه القضية

---

(١) هو رفيق «إينيس» في ملحمة الإنياذة للشاعر «فيرجيليوس».

المنكرة، هم من مناصري «دريفوس» في قرارة نفوسهم كما هي حال اليهود جميعاً. بل ربما كانت هذه حجة من قبيل «من فمك أدينك»[1] (كان الدوق يستخدم عشوائياً عبارة «من فمك أدينك») لا تستغل على نحو كافٍ لإبراز سوء طويّة اليهود. فإن سرق فرنسي، إن قتل، لا أخالني ملزماً باعتباره بريئاً لأنه فرنسي مثلي. أما اليهود فلن يقبلوا إطلاقاً أن يكون أحد مواطنيهم خائناً، مع أنهم يعلمون ذلك علم اليقين، ويهتمون أقلّ القليل بالنتائج المروعة (كان الدوق يفكّر طبعاً بانتخاب «شوسبيير» اللعين) التي يمكن أن تحملها جريمة أحد أهليهم حتى... ويحك يا «أوريان»، لن تزعمي أن مساندتهم جميعاً لأحد الخونة ليست أمراً دامغاً لليهود، ولن تقولي لي إن الأمر ليس كذلك لأنهم يهود. «فأجابت «أوريان» (وهي تحس بشيء من الإزعاج، برغبة معينة في مقاومة «جوبيتير» الراعد وفي وضع «العقل» فوق قضية «دريفوس»): «يا الله، بلى، فإنهم يعلمون، ربما بالضبط لكونهم يهوداً ويعرفون ذواتهم، أنه يمكن أن تكون يهودياً وألا تكون حتماً خائناً ومناهضاً للفرنسيين، كما يزعم ذلك السيد «درومون» فيما يبدو. وما كان اليهود بالتأكيد، لو كان هو مسيحياً، ليهتموا به ولكنهم فعلوا لأنهم يحسون تماماً أنه لو لم يكن يهودياً لما ظنّوه بهذه السهولة خائناً «بصورة قبلية» كما قد يقول ابن أخي «روبير». وصاح الدوق وهو يحدّق بالدوقة: «النساء لا يفقهن شيئاً في السياسة. فهذه الجريمة المريعة ليست قضية يهودية فحسب، بل هي «بالتمام والكمال» قضية وطنية رحبة يمكن أن تجر أفظع النتائج على فرنسا التي يجدر بنا طرد اليهود جميعهم منها، مع أني أقرّ بأن العقوبات المتخذة حتى الآن إنما اتخذت (بطريقة دنيئة لا بد من إعادة النظر فيها) لا ضدّهم بل ضد أبرز خصومهم، ضد رجال من الطراز الأول تركوا جانباً لسوء حظ بلدنا المسكين».

---

(١) وردت العبارة باللاتينية "ad hominem" وتعني حجة تؤخذ على الخصم من كلامه والواضح أنها مذكورة في غير موضعها بما أن المعنيين لا يقولون شيئاً.

ووافاني إحساس بأن الأمور أخذت تسوء وعدت سراعاً إلى حديث الفساتين.

وقلت: «هل تذكرين سيدتي أول مرة كنت فيها لطيفة معي؟» فأردفت القول: «أول مرة كنت لطيفة معه»، وهي تنظر ضاحكة إلى السيد «دو بريوتيه» الذي أخذ طرف أنفه يصغر وابتسامته ترقّ مجاملة للسيدة «دو غيرمانت» وصوته صوت المسكين وهو يشحذ، بعث بعض نغمات مبهمة صدئة. «كنت ترتدين فستاناً أصفر بأزاهير سوداء كبيرة». - «لكن الأمر واحد يا صغيري، فهي فساتين للسهرة». - «وقبعتك التي من أزاهير التُرنجان والتي يا كثر ما أحببتها! ولكن هذا كله في النهاية من قبيل الرجوع إلى الماضي، ووددت أن أخيط للفتاة المذكورة معطفاً من الفرو كالذي كنت ترتدينه صباح الأمس. فهل يستحيل أن أراه؟». - «لا، إن «هنيبعل» مضطر للانصراف بعد قليل، فتعال إلى حيث أقيم وسوف تُريك وصيفتي كل هذا. ولكن يا صغيري إني أرتضي إعارتك كل ما تشاء، أما إذ أوصيت على ملابس من تصميم «كالوا» و«دوسيه» و«باكان» لدى خياطات هينات فلن يكون ذلك البتة الشيء ذاته». - «ولكني لا أبغي إطلاقاً ان أقصد إلى خياطة هينة، فإني أعرف تماماً أن الأمر سيكون مختلفاً، لكنما يشوقني أن أفهم لماذا يكون الأمر مختلفاً». - ولكنك تعلم أني لا أحسن شرح أي شيء، فإني غبية وأتكلم مثلما تفعل فلاحة. إنها مسألة حرفة يدوية وصنعة. أما بخصوص الفراء فيمكنني على الأقل أن أزودك بكلمة على فرائي الذي لن يسرقك بهذه الطريقة. لكنك تعلم أنها ستكلفك مع ذلك ثمانية أو تسعة آلاف فرنك». - «وذاك المبذل الكريه الرائحة جداً الذي كنت ترتدينه في ذلك المساء، وهو قاتم اللون زغب الملمس مبقع مخطط بالذهب كجناح فراشة؟» - «آه! ذاك كان مبذلاً لـ«فورتوني»، وبوسع فتاتك تماماً أن ترتديه في بيتها. لديّ منه الكثير. وسوف أريك بعضها، بل يمكنني أن أعطيك بعضها إن سرك ذلك. لكنما أود على وجه الخصوص أن ترى مبذل ابنة عمي «تاليران». ينبغي أن

أكتب إليها كي تعيرني إياه». - «لكنك كنت تنتعلين كذلك حذاء جميلاً جداً، أفكان لـ«فورتوني» أيضاً؟» - «لا، أعلم ما تقصد أن تقول، إنه جلد جذاء كنّا عثرنا عليه في لندن في أثناء مشترياتنا برفقة «كونسويلو دومانشستر»، وكان رائعاً، ولم أستطع في يوم أن أفهم كيف كان مذهباً، لكأنما جلد من ذهب. ليس ثمة سوى ذلك بالإضافة إلى ماسة صغيرة في الوسط. لقد ماتت الدوقة المسكينة «دومانشستر»، ولكن إن راقك الأمر كتبت إلى السيدة «دو واروِيك» أو السيدة «مارلبورو» لنحاول أن نجد مثله، بل أتساءل إن لم يكن بعد لدي من هذا الجلد. وربما استطعنا أن نوصي بصنعه هنا. سوف أنظر في الأمر هذا المساء وأرسل من يبلّغك».

لما كنت أحاول قدر المستطاع فراق الدوقة قبل أن تكون «ألبيرتين» عادت، كان الوقت في الغالب يوفر لي أن ألتقي في الباحة لدى خروجي من منزل السيدة «دو غيرمانت» السيد «دو شارلوس» و«موريل» وهما في طريقهما لتناول الشاي في بيت. . . «جوبيان»، وهي أعظم منة في نظر البارون! ما كنت ألتقي بهما كل يوم ولكنهما كانا يذهبان كل يوم إلى هناك. ولا بد على أية حال من ملاحظة أن ثبات إحدى العادات يتّصل عادة بسخافتها، والأشياء الباهرة لا يفعلها المرء بعامة إلا بطريقة غير منتظمة. لكن هذه الحيوات، من بين الحيوات المجنونة التي يمتنع فيها المهووس عن سائر الملذات وينزل بنفسه أفدح الأسواء، هي أقل ما يتغيّر. فلعلك تعود فتلقى، كل عشر سنوات، لو دفعك الفضول إلى ذلك، هذا التعيس ينام في الساعات التي يمكن أن يعيش فيها، ويخرج في الساعات التي يكاد لا يتوافر للمرء شيء يفعله فيما عدا أن يُغتال في الشوارع، ويشرب المثلجات حين يداهمه الحر وهو على الدوام يقوم بمعالجة رشح له. وربما كان تحرّك بسيط للعزيمة كافياً في يوم واحد لتغيير ذلك نهائياً. لكن تلك الحيوات بالضبط وقف بالعادة على عديمي العزيمة، والنقائص وجه آخر من صنوف العيش الرتيب تلك التي ربما كانت الإرادة كافية لجعلها أقل شناعة. كان يمكن تأمل هذين الوجهين

على السواء حينما كان السيد «دو شارلوس» يذهب كل يوم بصحبة «موريل» لتناول الشاي في منزل «جوبيان». زوبعة وحيدة تركت أثرها في هذه الحياة اليومية أثارتها ابنة اخ صانع الصداري قالت ذات يوم لـ«موريل»: «موافقة، تعال غداً وسأدفع لك الشاي»، فرأى البارون بحق أن العبارة مبتذلة بالنسبة إلى فتاة ينوي أن يجعل منها تقريباً كنته، ولما كان يحب توجيه الإساءة وينتشي بغضبه ذاته فقد انقضت رحلة العودة، بدلاً من أن يقول لـ«موريل» ببساطة إنه يرجوه إعطاءه بهذا الشأن درساً في اللياقة والتميّز، انقضت كلها في مشاحنات عنيفة. وباللهجة الأكثر وقاحة والأكثر تعالياً: «إن اللمس الذي لا يقترن اضطراراً بالذوق كما أرى حالَ دون تطوّر طبيعي لحاسة الشم، بما أنك تقبلت أن تحمل هذه العبارة النتنة حول دفع الشاي، والثمن خمسة عشر سنتيماً حسبما أفترض، رائحة المجارير فيها إلى منخريّ الملكيين؟ فهل رأيت مرة في منزلي، بعدما أنهيت عزفاً منفرداً على الكمان، أنك كوفئت بضرطة بدلاً من تصفيق حادّ أو صمت أشد بلاغة بعد لأنه صنّع من خشية أن لا يستطيع المرء احتباس ما تجود به خطيبتك علينا بل الزفرة التي دفعتها إلى أطراف الشفاه ؟».

حينما يشهد موظف مثل هذا التأنيب ينهال عليه من جانب رئيسه فإنه مخلوع لا محالة في الغد. بيد أنه ما كان على العكس شيء أشد قسوة على السيد «دو شارلوس» من صرف «موريل»، بل هو إذ خشي أن يكون جاوز الحد قليلاً أخذ يكيل للفتاة مدائح وافية التفاصيل تفيض ذماً وتتخللّها على نحو غير متعمد الوقاحات. «إنها فاتنة. وبما أنك موسيقي فإني أظن أنها أغوتك بصوتها الجميل جداً في النغمات العليا حيث يبدو كأنه ينتظر مرافقة «السي» الرافعة[1] التي تعزفها. أما طبقة القرار لديها فتروقني أقل ولا بد أن يكون ذلك على صلة مع المعاودة الثلاثية لرقبتها الغريبة الدقيقة التي يبدو أنها تنتهي. فإذا بها ترتفع ثانية. ما يروقني فيها

---

(١) Si dièse وهي أعلى قليلاً من النغمة العادية.

إنما قوامها الرشيق أكثر منه تفاصيل تافهة، ولما كانت خياطة وهي لا بد تحسن التلاعب بالمقص فينبغي أن تعطيني رسماً حلواً لذاتها مقتطعاً من ورق».

أما «شارلي» فقد انخفض معدل استماعه لتلك التقاريظ بقدر ما فاتته على الدوام المفاتن التي كانت تتغنى بها خطيبته. لكنه أجاب السيد «دو شارلوس» قائلاً: «مفهوم يا صغيري، سوف أؤنبها كي لا تتكلم من بعد مثلما فعلتْ!» ولئن كان «موريل» يقول هكذا للسيد «دو شارلوس» يا صغيري فليس يعني أن عازف الكمان الجميل كان يجهل أنه كاد لا يبلغ ثلث عمر البارون. وما كان يقول ذلك كما لعل «جوبيان» كان فعل، بل بتلك البساطة التي تفترض في بعض العلاقات أن تغيب اختلاف السن قد سبق ضمنياً الوداد. الوداد المتكلّف لدى «موريل»، والوداد الصادق لدى آخرين غيره. من ذلك أن السيد «دو شارلوس» تسلّم نحو تلك الفترة رسالة صيغت على النحو التالي: «عزيزي «بالاميد» متى ألقاك؟ فإني أفتقدك كثيراً وأفكر فيك كثيراً، إلخ، بكل إخلاص. بيير». أرهق السيد «دو شارلوس» دماغه ليعرف من سوّغ لنفسه من بين أقاربه أن يكتب إليه بمثل هذه اللهجة الأليفة. وهو لا بد إذن يعرفه معرفة عميقة ولكنه لا يتعرف على الرغم من ذلك خطه. ومر في خاطر السيد «دو شارلوس» على مدى بضعة أيام كل الأمراء الذين تخصهم حوليّة «غوتا» ببضعة سطور. وأخيراً اتضح له الأمر فجأة من عنوان مدوّن على ظهر الرسالة: لقد كان صاحب الرسالة خادماً في منتدى قمار يؤمه السيد «دو شارلوس» أحياناً. ولم يعتقد الخادم الخاص أنه يجانب الأدب، إذ يكتب بهذه اللهجة إلى السيد «دو شارلوس» الذي كان يتمتع على العكس بمهابة عظيمة في نظره. ولكنه يظن من غير المحبب أن لا يرفع الكلفة مع من سبق أن عانقه عدة مرات وأولاه بذلك وداده - كما كان يتصور في سذاجة فكره - وسر السيد «دو شارلوس» في الحقيقة أعظم السرور بهذه الدالة. بل هو شيّع السيد «دو فوغوبير» مودعاً على إثر عصرية كي يتمكن من عرض الرسالة عليه. والله يعلم مع ذلك أن

السيد «دو شارلوس» ما كان يحب الخروج مع السيد «دو فوغوبير». ذلك لأن هذا الأخير كان ينظر في كل اتجاه، ونظارته على عينه، إلى الشبان لدى مرورهم. أضف أنه كان يتحرر حين هو برفقة السيد «دو شارلوس» فيستخدم لغة كان البارون يمقتها. فقد كان يؤنّث أسماء الرجال جميعها ويتصور، إذ هو شديد الغباء، أن المزاح على ظرف كبير ولا ينفك يضحك مقهقهاً. ولما كان إلى ذلك يتشبث بمنصبه الدبلوماسي فإن تصرفاته المؤسفة المتضاحكة في الشارع كانت تقطعها على الدوام الرعدة التي يبعثها في نفسه في الوقت عينه مرور قوم من المجتمع الراقي، ومن الموظفين على وجه الخصوص. «عاملة البرق هذه، يقول وهو يدفع بموقفه البارون المتجهم، عرفتها ولكنها تعقلت الحقيرة؛ آه! عامل التسليم ذاك في مخازن «لافاييت» يا لروعته! يا إلهي! هذا مدير الشؤون التجارية يمر طريقه، مُناي ألا يكون لاحظ الحركة التي قمت بها؛ فربما أمكن أن يروي عنها للوزير الذي قد يُحيلني على الاستيداع ولا سيما أنه يبدو أنه واحدة منهن». كان السيد «دو شارلوس» يتميز غيظاً. وأخيراً قرر، بغية تقصير هذه النزهة التي كانت تثير حنقه، أن يخرج رسالته ويحمل السفير على قراءتها، ولكنه أوصاه بالكتمان إذ كان يتظاهر بأن «شارلي» غيور كي يمكنه الإيهام بأنه محبّ، وأضاف بلهجة تشوبها طيبة مضحكة: «لكن ينبغي على الدوام أن نتسبب بأقل ما يمكن من غم».

يحرص المؤلف، قبل العودة إلى دكان «جوبيان» على أن يقول كم يحزنه أن يستاء القارئ من تصاوير غريبة إلى هذا الحد. إننا نجد من جهة! (وهذا هو الجانب الهين من الأمر) أن الأرستقراطية تبدو في هذا الكتاب نسبياً أكثر اتهاماً بالانحلال من الطبقات الاجتماعية الأخرى. ولعله لا مجال للدهشة في ذلك إن كان واقعاً. فإن أعرق الأسر تقرّ في نهاية المطاف، عبر أنف أحمر بحدبة وذقن مشوّه، بعلامات نوعية يُعجب كل واحد فيها «بالعِرق». لكنما ثمة بين هذه الميزات المستمرة والمتفاقمة دوماً ما كان غير مرئي وتؤلفه المَنازع والميول.

وربما كان قولنا بأن كل ذلك غريب علينا وإنه ينبغي استخلاص الشِعر من الحقيقة الغريبة جداً، وربما كان اعتراضاً أكثر خطورة لو كان قائماً على أساس. إن الفن المستخلص من الواقع المألوف كأكثر ما يكون موجود فعلاً وربما كان نطاقه الأكثر اتساعاً. لكن ذلك لا يقلل من صحة أنه يمكن لاهتمام كبير، للجمال أحياناً، أن يولد من أعمال ناجمة عن صيغة فكرية شديدة البعد عن كل ما نحسّ به، عن كل ما نؤمن به إلى حد نعجز معه حتى عن إمكان فهمها، وتنبسط أمامنا على هيئة مشهد لا سبب له. فهل ثمة ما كان أكثر شاعرية من «ارتحشتا» ابن «داريوس» وهو يأمر بجلد البحر الذي ابتلع سفنه بالسياط؟

والأكيد أن «موريل» استخدم السلطان الذي كانت توليه إياه مفاتنه على الفتاة فنقل إليها بعدما تبناها، ملاحظة البارون لأن عبارة «دفع الشاي» غابت عن دكان صانع الصداري غياباً تاماً مثلما يختفي إلى الأبد من إحدى الصالات ذلك الشخص الحميم الذي كان يَجرى استقباله كل يوم والذي وقع الخصام معه لسبب أو لآخر أو هم يحرصون على إخفائه ولا يخالطونه إلا خارجاً. وقد سرّ السيد «دو شارلوس» لاختفاء عبارة «دفع الشاي» ورأى في ذلك برهاناً على سلطته على «موريل» واضمحلال اللطخة الصغيرة الوحيدة في كمال الفتاة. كان في النهاية كمثل كل الذين من صنفه وفيما هو صديق «موريل» المخلص ومن كانت تقريباً خطيبته والنصير المتحمس لاتحادهما، كان نهماً بعض الشيء إلى القدرة على أن يبتدع على هواه خصومات تكاد تكون غير مؤذية ويظل خارجها وفوقها بمثل الهدوء الملكي الذي لعل شقيقه كان أبداه.

كان «موريل» قد قال للسيد «دو شارلوس» إنه يحب ابنة شقيق «جوبيان» ويودّ أن يتزوجها، وكان يلذّ للبارون أن يرافق صديقه الشاب في زيارات ينهض فيها بدور الحمو المقبل المتساهل المتكتم. وما كان شيء يروقه أكثر من ذلك.

أما رأيي الشخصي فإن عبارة «دفع الشاي» صدرت عن «موريل» نفسه

وأن الخياطة الشابة اتخذت، وقد أضلها الحب، إحدى عبارات الشخص المعبود. والعبارة تنفرد بسماجتها وسط لغة الفتاة الحلوة. وكان من جراء تلك اللغة وتلك التصرفات الرائعة التي تنسجم وإياها ورعاية السيد «دو شارلوس» أن كانت الكثيرات من الزبونات اللواتي عملت لهن يستقبلنها استقبال الصديقة ويدعونها للعشاء ويدخلنها دائرة معارفهن، ولا توافق الصغيرة على أية حال إلا بإذن البارون وفي الأمسيات التي تناسبه. ورب قائل يقول: «خياطة شابة في دنيا المجتمعات؟ يا له من أمر غريب!» وإن فكّرنا في الأمر فليس يقل عنه غرابة أن كانت «ألبيرتين» تجيء بالأمس للقائي في منتصف الليل وأنها تعيش الآن معي. ولعل الأمر كان غريباً من أخرى غيرها، لا من «ألبيرتين» وهي بلا أب ولا أم وتحيا حياة حرة إلى حد أني حسبتها في البداية في «بالبيك» عشيقة زير نساء، وأقرب القريبات لديها السيدة «بونتان» التي ما كان يعجبها مذ ذاك لدى ابنة شقيقها سوى عاداتها السيئة وهي تغضي الآن عن كل شيء، إن استطاع ذلك أن يخلّصها منها بتمكينها من أن تتزوج شخصياً ثرياً فيتحول فيه قليل من المال إلى العمّة (فثمة في أرفع المجتمعات الراقية أمهات من صفوة النبيلات وأشدّهن فقراً يرتضين، بعدما أفلحن في تزويج ولدهن فتاة غنية، أن يتعهدهن الأزواج الشبان ويقبلن بفراء وسيارة ومال من كنة لا يحببنها ويدخلنها المجتمعات).

ربّما يأتي يوم ترتاد فيه الخياطات المجتمع الراقي، وقد لا أجد الأمر مستغرباً على الإطلاق، وابنة شقيق «جوبيان» لا تمكّن بعد، وهي استثناء، من توقع هذا الأمر، فالربيع لا تشكله سنونوة واحدة. ولئن أثار الموقع الزهيد جداً الذي شغلته ابنة شقيق «جوبيان» استنكار بعض الناس فما كان «موريل» من استنكر في جميع الأحوال لأن غباءه حول بعض الأمور كان عظيماً إلى حد أنه لم يكن يرى تلك الفتاة التي تفوقه ذكاء ألف مرة، «أقرب إلى الغباء» فحسب، ربما لمحض أنها تحبه، بل كان يفترض من صنف المغامرات ومساعدات خياطات متنكرات يلعبن دور السيدات

النساء الرصينات تماماً اللاتي كن يستقبلنها وما كانت تفاخر بذلك. لم يكنّ بالطبع من آل «غيرمانت» ولا حتى من الناس الذين يعرفونهم، بل بورجوازيات ثريات أنيقات متحررات فكرياً بما يكفي ليرين أن المرء لا يعيبه أن يستقبل خياطة، ومستعبدات فكرياً بما يكفي ليشعرن ببعض الرضى في رعاية فتاة يذهب سموّ البارون «دو شارلوس» للقائها كل يوم، وهي بالحفظ والصون.

ما كان شيء يروق البارون أكثر من فكرة هذا الزواج، وكان يعتقد بذلك أن «موريل» لن يؤخذ منه. ويبدو أن ابنة شقيق «جوبيان» كانت قد ارتكبت، ولا تزال طفلة تقريباً، «هفوة». ما كان السيد «دو شارلوس»، فيما يقوم بالثناء عليها أمام «موريل»، ليغضبه أن يبوح بالأمر لصديقه الذي ربما ثارت ثائرته، وأن يثير بفعلته الشقاق بينهما. ذلك لأن السيد «دو شارلوس»، وإن يكن شديد الخبث، كان يشبه عدداً كبيراً من الأشخاص الطيبين الذين يمتدحون هذا أو تلك ليقيموا البرهان على طيبتهم الشخصية، ولكنما يتجنبون تجنبهم للنار الأقوال الخيّرة، وما أندر ما تُقال، وكانت قادرة على إشاعة السلام. إلا أن البارون كان يحترس، على الرغم من ذلك، من أي تلميح وذلك لسببين. فقد كان يقول لنفسه: «إن حكيت له أن خطيبته لا تخلو من وصمة عار فسوف يُجرح اعتزازُه بنفسه ويحقد علي. ثم من ذا يقول لي إنه ليس مغرماً بها؟ فإن لم أقل شيئاً فإن نار الهشيم هذه سرعان ما تنطفئ وأتحكم بعلاقاتهما على هواي ولا يحبها إلا بالقدر الذي أرغب فيه. أما إذا حدثته عن الهفوة الماضية التي ارتكبتها خطيبته فمن ذا يقول لي إن «شارلي» العزيز ليس بعد على حب كافٍ كي يضحي غيوراً؟ حينئذ أحوّل، بغلطة تصدر عني، حباً لا طائل تحته، ونسوقه حسب مشيئتنا، إلى غرام كبير، وهو أمر يصعب التحكم به. «لهذين السببين مجتمعين كان السيد «دو شارلوس» يصمت صمتاً ليس له إلا مظهر التكتم ولكنه أهل للتقدير من جانب آخر لأن السكوت يكاد يكون مستحيلاً على قوم من طينته.

كانت الفتاة رائعة على أي حال، وودّ السيد «دو شارلوس»، الذي كانت ترضي لديه كامل الميل الجمالي الذي يمكن أن يحمله للنساء، لو توافرت له منها مئات الصور الفوتوغرافية. وهو الأقل غباءً من «موريل» كان يسره أن يعلم عن السيدات اللائقات اللواتي كن يستقبلنها واللواتي كان حسه الاجتماعي يحسن تحديد مواقعهن. لكنه كان يحترس تماماً (وهو راغب في الحفاظ على سلطانه) من أن يقول ذلك لـ«شارلي» الذي يوالي الاعتقاد، وهو في ذلك حيوان حقيقي، بأنه لا وجود، باستثناء «صفّ الكمان» وآل «فيردوران»، إلا لآل «غيرمانت» وبعض الأسر التي تقرب أن تكون ملكية والتي عددها البارون، وليس كل ما تبقى سوى «حثالة» و«رعاع». كان «شارلي» يأخذ هذه العبارات بالمعنى الحرفي.

كيف ذلك، السيد «دو شارلوس» الذي ينتظره، وعبثاً يفعل، كل أيام السنة، هذا العدد الكبير من السفراء والدوقات ولا يتناول عشاءه مع الأمير «دو كروا» لأنهم يقدمون هذا الأخير عليه، السيد «دو شارلوس» هذا كان يقضي كامل الوقت الذي يختلسه من هاتيك السيدات الكبيرات وهؤلاء السادة الكبار لدى ابنة شقيق بائع صدريات؟ أولاً، وهو السبب الأهم، كان «موريل» هناك. وحتى لو لم يكن هناك فلست أرى أية غرابة، أو أنكم تحكمون حينذاك كما لعل أحد خدم «إيميه» كان فعل. فليس ثمة أو يكاد سوى ندل المطاعم للاعتقاد بأن الرجل الطائل الثراء يرتدي على الدوام ثياباً جديدة باهرة وأن سيداً يتربع على قمة الأناقة ينظم حفلات عشاء لستين مدعواً ولا ينتقل إلا في سيارة. وإنهم لفي ضلال. فكثيراً ما يحتفظ رجل طائل الثراء بالسترة الرثّة نفسها. وإن سيداً يتربع على قمة الأناقة لسيد لا يصادق في المطعم إلا المستخدمين ويلعب لعبة الورق، بعدما يعود إلى منزله، مع خدّامه. لكن ذلك لا يحول دون رفضه المرور بعد الأمير «مورا».

كان في عداد الأسباب التي تشيع السعادة في صدر السيد «دو شارلوس» أن ابنة شقيق «جوبيان» سوف تصبح ما يقرب أن يكون امتداداً

لشخصية «موريل». وانطلاقاً من ذلك للسلطان الذي كان للبارون عليه ولمعرفته به. ولعل السيد «دو شارلوس» ما كان فكر ثانية واحدة في أن يحس بتبكيت الضمير لإقدامه على «خيانة» زوجة عازف الكمان المقبلة بالمعنى الزوجي للكلمة. ولكنما وجود «زوجين شابين» عليك أن تقودهما وأن يتبادر إليك أنك حامي زوجة «موريل» المرهوب الجانب الكلي الاقتدار، الزوجة التي ستقيم البرهان، إذ تضع البارون موضع الآلهة، على أن العزيز «موريل» أدخل في روعها هذه الفكرة وهي تحوي في داخلها والحالة هذه شيئاً من «موريل»، بدّلا من نوع سيطرة السيد «دو شارلوس» وولّدا في «ضيعته» «موريل» كائناً إضافياً هو الزوج، أي وفّرا له شيئاً إضافياً وجديداً وطريفاً يحبه فيه. بل ربما أصبحت تلك السيطرة أوفر حجماً الآن مما سبق أن كانت في يوم. فحيثما كان «موريل»، وهو وحيد وعارٍ إن جاز القول، يقاوم في الغالب البارون وهو متيقن من غزو فؤاده مجدداً، سوف تجتاحه بسرعة أكبر، ما إن يتزوج، الخشية على أسرته وشقته ومستقبله ويوفّر لمشيئات السيد «دو شارلوس» مساحة أوسع وتأثيراً أوفر. كل ذلك كان يروق السيد «دو شارلوس»، بل، إن قضت الحاجة في عشيات يداخله فيها السأم، إلى حد إشعال الحرب بين الزوجين (فالبارون ما كان في يوم كارهاً للوحات المعارك). ولكنما أقل على أي حال من تفكيره بالتبعية التي سيعيش فيها الزوجان الشابان في كنفه. كان حب السيد «دو شارلوس» لـ«موريل» يعود فيتخذ جِدّة رائعة حين يقول في نفسه: وزوجته كذلك ستكون لي لفرط ما هو لي، ولن يتصرّفا إلا بالطريقة التي لا يمكن أن تغضبني وسوف ينساقان لنزواتي وهكذا سوف تكون علامة (هي مجهولة لدي حتى الآن) لما كدت أنساه وكان بالغ التأثير في فؤادي وهو أن «موريل» في نظر الجميع، في نظر الذين سيشاهدون أني أرعاهما وأزودهما بالمسكن، في نظري أنا، ملك يدي. كان السيد «دو شارلوس» أكثر سعادة بهذا الواقع البدهي في نظر الآخرين ونظره منه بكل ما تبقى. ذلك أن امتلاك ما نحب غبطة أعظم بعدُ من الحب. والذين يخفون على

سائر الناس هذا الامتلاك فإنما يفعلون في الكثير الغالب مخافة أن يؤخذ منهم موضوع حبهم، فإذا سعادتهم تتناقص بسبب تحوّطهم في الإمساك عن الكلام.

ربما تذكرنا أن موريل سبق أن قال فيما مضى للبارون إن به رغبة في إغواء فتاة، ولا سيما هذه، وإنه بغية أن يفلح في ذلك سوف يعدها بالزواج ولكنه «سيطلق ساقيه للريح» ما إن يتم الاغتصاب. لكن السيد «شارلوس» كان قد نسي الأمر تماماً بمواجهة تصريحات لابنة شقيق «جوبيان» جاء «موريل» يبوح له بها. بل ربما كان الأمر إلى ذلك واحداً بالنسبة إلى «موريل» أيضاً. وربما كان ثمة فاصل حقيقي بين طبيعة «موريل» على نحو ما كشف عنها بصفاقة - بل ربما بالغ فيها حاذقاً - وبين اللحظة التي تعود لها الغلبة فيها. فإن الفتاة، إذ توثقت علاقته بها، قد أعجبته وأخذ يحبها. وكان قليل المعرفة بنفسه إلى حد يخيل له معه أنه لا شك يحبّها، بل ربما يحبّها إلى الأبد. صحيح أن رغبته البدئية الأولى ومشروعه الإجرامي باقيان، إنما تغطيهما كثرة من العواطف المتناضدة إلى حد أن ليس ثمة ما ينبئ بأن عازف الكمان لم يكن صادقاً بإعلانه أن تلك الرغبة الفاسقة لم تكن الدافع الحقيقي لفعلته. كان ثمة على أي حال فترة قصيرة المدة بدا له فيها ذاك الزواج ضرورياً دون أن يقرّ بذلك لنفسه صراحة. كان «موريل» يعاني في تلك الفترة من تشنجات في يده قوية إلى حد ويرى نفسه مضطراً أن يتوقع احتمال أن يكون عليه هجر الكمان. ولما كان به خارج حدود فنّه كسل يستحيل إدراكه فإن ضرورة اللجوء إلى عهده غيره أخذت تفرض نفسها وكان يفضّل أن تتعهده ابنة شقيق «جوبيان» على السيد «دو شارلوس» إذ توفر له هذه التركيبة قسطاً أوفر من الحرية وكذلك اختياراً واسعاً من نساء مختلفات سواء عن طريق المتدربات المتجددات دوماً اللواتي سيكلّف ابنة شقيق «جوبيان» بإغوائهن لصالحه أو عن طريق سيدات جميلات ثريات يدفعها إلى التعهر في أحضانهن. أما أن تستطيع امرأته المقبلة رفض النزول إلى صفوف المسايرة هذه وأن تكون شريرة إلى

هذا الحد فذلك لم يداخل لحظة حسابات «موريل». وهي على أية حال انتقلت إلى النسق الثاني وخلّفت مكانها للحب الصافي بعد ما زالت التشنجات. والكمال سيكون كافياً إلى جانب راتب السيد «دو شارلوس» الذي سوف تضعف بالتأكيد مطالبه بعدما يكون هو، «موريل»، قد تزوج الفتاة. فالزواج هو الأمر المستعجل بسبب حبه ولمصلحة حريّته. وبعث يطلب يد ابنة شقيق «جوبيان» الذي استشارها في ذلك. على أن الأمر لم يكن ضرورياً. فشغف الفتاة بعازف الكمان كان ينساب من حولها مثلما شعرها حينما تحلّه وفرحة نظراتها المبثوثة. كان كل شيء تقريباً يُمتع «موريل» أو يرى فيه مكسباً يوقظ لديه انفعالات روحية وأقوالاً من ذات القبيل، بل دموعاً في بعض الأحيان. فقد كان صادقاً إذاً - إن أمكن لمثل هذه الكلمة أن تنطبق عليه - في توجيهه لابنة شقيق «جوبيان» أقوالاً تزخر بالعواطف (كما هي عاطفية أيضاً تلك التي يوجهها نفر كثير من نبلاء شباب بهم رغبة ألا يعملوا شيئاً في الحياة إلى ابنة رائعة لأحد البورجوازيين الطائلي الثراء) بقدر ما كانت تزخر بنذالة فاضحة النظريات التي سبق أن عرضها أمام السيد «دو شارلوس» حول الإغواء وفض البكارة. لكنما كان لدى «موريل» مقابل للحماسة الفاضلة تجاه شخص يوليه مسرّة وللالتزامات العلنية التي يتخذها إزاءه. فما إن يتوقف الشخص عن إيلائه مسرة أاو حتى، على سبيل المثال، إن سبب له الالتزام بالوفاء بالوعود المعطاة إزعاجاً، حتى يضحي في الحال من جانب «موريل» موضع كراهية كان يبررها لنفسه وكانت تسمح له، في أعقاب بعض الاضطرابات العصبية، أن يبرهن لذاته بعدما يستعيد مرح جملته العصبية أنه في حلّ من أي التزام حتى إن أخذت الأمور من وجهة نظر فاضلة محضة.

من ذلك أنه في نهاية إقامته في «بالبيك» كان قد أضاع في ما لست أدري كامل نقوده، وإذ لم يجرؤ على قول ذلك للسيد «دو شارلوس» أخذ يبحث عمن يطلب منه مالاً. وكان علم من أبيه (الذي منعه على الرغم من

ذلك أن يصبح مدمن اقتراض في يوم) أن من المناسب في مثل هذه الحالة الكتابة إلى الشخص الذي ينبغي التوجه إليه «بأننا نبغي التحدث إليه في شؤون مالية» وأننا «نطلب منه موعداً لبحث شؤون مالية». كانت هذه الصيغة السحرية تشيع الغبطة في صدر «موريل» إلى حد كان تمنى معه، فيما أعتقد، أن يخسر مالاً لمجرد متعة أن يطلب موعداً للحديث في «شؤون مالية». لكنه رأى في فترة تالية من الحياة أن الصيغة لم تكن تحمل كامل الزخم الذي يظنّه لها. فقد لاحظ أن نفراً ممن ما كان لولا ذاك كتب إليهم في يوم لم يبعثوا إليه بجواب بعد خمس دقائق من استلامهم الرسالة «للتحدث في شؤون مالية». وإن انقضى العصر دون أن يكون وصل جواب لـ«موريل» لم يكن يخطر له أن السيد المقصود، حتى إن وضعنا الأمور في أفضل حالاتها، لم يكن ربما قد عاد، أو كان عليه أن يكتب رسائل أخرى، هذا إن لم يكن حتى ذهب في سفر أو حلّ به مرض، إلخ. فإن حصل «موريل» بصدفة غريبة على موعد لصباح الغد كان يبادر الرجل الملتمس إلى هذه الكلمات: «كنت بالضبط دهشاً لعدم ورود جواب لي وأتساءل إن كان ثمة أمر ما، وهكذا إذن، الصحة دوماً على ما يرام، إلخ.». وهكذا كان قد طلب إليّ في «بالبيك» ودون أن يقول لي إنه يبغي أن يكلمه في «شأن ما» أن أقدمه إلى «بلوك» هذا نفسه الذي سبق أن كان كريهاً معه في الحافلة قبل أسبوع. ولم يتردد «بلوك» في إقراضه - أو بالأحرى في حمل السيد «نسيم برنار» على إقراضه - خمسة آلاف فرنك - منذ ذلك اليوم أحب «موريل» «بلوك» حتى العبادة. وكان يتساءل مغرورق العينين كيف يمكنه أن يؤدي خدمة لشخص أنقذ حياته. وأخذت على عاتقي أخيراً أن أطلب لـ«موريل» ألف فرنك شهرياً من السيد «دو شارلوس»، والمال يسلّمه في الحال لـ«بلوك» الذي يسترد ماله على هذا النحو في مهلة مقبولة. وفي الشهر الأول أرسل «موريل» في الحال، ولا يزال تحت تأثير الطيبة التي أبداها «بلوك»، الألف فرنك، لكنه رأى دون شك بعد ذلك أن استخداماً مختلفاً للأربعة آلاف فرنك المتبقية يمكن أن

يكون أكثر إمتاعاً، إذ شرع يقول الكثير من السوء بحق «بلوك». كانت رؤيته كافية لتبعث لديه أفكاراً سوداء، ولما نسي «بلوك» نفسه ما كان بالضبط قد أقرضه لـ«موريل» وطالبه بثلاثة آلاف وخمس مئة فرنك بدلاً من أربعة آلاف، وهو ما كان أكسب عازف الكمان خمسة مئة فرنك، عزم هذا الأخير أن يجيب أنه، إزاء مثل هذا التزوير، لن يدفع من بعد سنتيما واحداً، وليس ذلك فحسب بل يجدر بمقرضه أن يعد نفسه في غاية السعادة لأنه لا يتقدم بشكوى ضده. وكان إذ يقول تتوهّج عيناه. ولم يكتف على أية حال بقوله إن «بلوك» والسيد «نسيم برنار» ما كان ينبغي أن يحقدا عليه، بل يجدر بهما عما قليل أن يعربا عن سعادتهما بأن لا يحقد عليهما. وأخيراً إذ صرّح السيد «نسيم برنار» فيما يبدو، أن «تيبو» كان يعزف بالجودة التي يعزف بها «موريل»، رأى هذا الأخير أنه يجدر به أن يقاضيه أمام المحاكم، إذ يضر به مثل هذا القول في مهنته، ثم إنه، لما لم يعد ثمة عدالة في فرنسا، ولا سيما في مخاصمة اليهود (إذ كانت معاداة السامية عند «موريل» النتيجة الطبيعية لإقراض الخمسة آلاف فرنك من جانب الإسرائيليين[1]). لم يعد يخرج إلا بمسدس محشو. إن حالة عصبية كهذه أعقبت وداداً كبيراً كانت تزمع أن تتشكل لدى «موريل» في ما يخص ابنة شقيق صانع الصداري. والصحيح أن السيد «دو شارلوس» ربما كان، دون أن يخالجه الشك في ذلك، في بعض أسباب هذا التغير فكثيراً ما كان يصرّح، دون أن يفكر في كلمة مما يقول وبغية تنكيدهما، أنه لن يلقاهما ثانية حالما يتزوجان وسيدعهما يحلّقان بقواهما الذاتية. كانت تلك الفكرة في حد ذاتها غير كافية على الإطلاق لفصل «موريل» عن الفتاة، لكنها كانت جاهزة، وقد لبثت في فكر «موريل»، أن تأتلف في اليوم المحدد وأفكاراً أخرى تجانسها ويمكن أن تضحي، بعدما يتحقق الامتزاج، عامل قطيعة قوياً.

---

(١) بالمعنى الديني.

وفعلاً لم يكن يتفق لي كثيراًأن ألتقي السيد «دو شارلوس» و«موريل». فكثيراً ما يكونان قد دخلا إلى دكان «جوبيان» حينما كنت أفارق الدوقة لأن المتعة التي أحسها بالقرب منها عظيمة حتى ليبلغ بي أن أنسى، لا الانتظار القلق الذي كان يسبق عودة «ألبيرتين» فحسب، بل حتى ساعة تلك العودة. سوف أضع جانباً من بين تلك الأيام التي أطلت المكوث فيها في منزل السيدة «دو غيرمانت»، واحداً تميّز بحادث صغير غابت عني دلالته غياباً تاماً ولم أفهمها إلا بعد انقضاء فترة طويلة عليه. كانت السيدة «دو غيرمانت» قد أعطتني في عصر ذلك اليوم سرنجات جيء بها من منطقة الجنوب لأنها كانت تعلم أني أحبها. وعندما صعدت إلى منزلي بعدما فارقت الدوقة كانت «ألبيرتين» قد عادت، والتقيت على الأدراج بـ«أندريه» التي بدا أن الرائحة القوية جداً المنبعثة من الزهور التي جئتُ بها أزعجتها.

فقلت لها: «كيف ذلك، أراكما عدتما». - «منذ لحظة مضت، لكن كان على «ألبيرتين» أن تسطر رسائل، فصرفتني». - «ألا تظنين أنها تهيئ لمشروع تلام عليه؟» - «إطلاقاً، في اعتقادي أنها تكتب لعمتها. لكنها لن تغتبط بسرنجاتك هي التي لا تحب الروائح القوية». - «الفكرة كانت خاطئة إذن! سأقول لـ«فرانسواز» أن تضعها على صحن درج الخدمة». - «إن كنت تتصور أن «ألبيرتين» لن تشمّ رائحة السرنجة تسري على إثرك. هي ربما، إلى جانب رائحة المسك الرومي، من أكثرها تأثيراً. ثم إني أظن أن «فرانسواز» ذهبت لشراء بعض الحاجات». - «ولكن كيف يمكن إذاً أن أعود وأنا لا أحمل اليوم مفتاحي؟» - «أوه! عليك فقط أن تقرع الجرس وتفتح لك «ألبيرتين». ثم إن «فرانسواز» تكون ربما عادت في هذه الأثناء».

وودعت «أندريه». وأقبلت «ألبيرتين» تفتح لي منذ أول دقة جرس، وكان ذلك على شيء من التعقيد، لأن «فرانسواز» نزلت و«ألبيرتين» لا تعرف موضع الضوء. واستطاعت أخيراً أن تدخلني ولكن أزهار السرنجة جعلتها تفرّ هاربة. ووضعتها في المطبخ، فاتسع بذلك الوقت لصديقتي،

وقد قطعت رسالتها (دون أن أدرك سبب ذلك)، كي تذهب إلى غرفتي التي نادت عليّ منها، وتستلقي على سريري. ومرة أخرى لم أجد في اللحظة نفسها إلا ما كان طبيعياً جداً في كل ذلك، وفي الأكثر على شيء من الغموض وغير ذي بال في جميع الأحوال. لقد كانت على شفا أن تُفاجأ بصحبة «أندريه» فوفرت لنفسها بعض الوقت بإطفاء جميع الأنوار والانطلاق إلى غرفتي كي لا تسمح بمشاهدة فوضى سريرها وتظاهرت بأنها تكتب. ولكننا سوف نرى فيما بعد كل ذلك، ذلك الذي ما عرفت في يوم إن كان صحيحاً.

وباستثناء هذا الحادث الوحيد كان كل شيء يجرى بصورة طبيعية حينما أعود فأصعد من منزل الدوقة. ولما كانت «ألبيرتين» تجهل إن لم أكن أرغب في الخروج إياها قبل العشاء فقد كنت أجد في البهو عادة قبعتها ومعطفها وشمسيتها وقد تركتها هنالك تحسباً لأي طارئ. وما إن أبصرها لدى عودتي حتى يصبح جو المنزل محتملاً. كنت أحسّ، بدلاً من هواء أصبح نادراً، أن السعادة تملأ جنباته، وأراني تخلصت من حزني وجعلت هذه الهنات من «ألبيرتين» ملكاً لي فجريتُ إليها.

كنت في الأيام التي لا أنزل فيها إلى بيت السيدة «دو غيرمانت» أقلب مجموعة لوحات لـ«إيلستير» أو كتاباً لـ«بيرغوت» من أجل أن يبدو الوقت أقل طولاً في أثناء هذه الساعة التي تسبق عودة صديقتي.

حينئذ - ولما كانت الأعمال نفسها التي تبدو وكأنها تتوجه حصراً إلى البصر والسمع إنما تتطلب بغية تذوقها أن يتعاون العقل المتنبه تعاوناً وثيقاً مع هاتين الحاستين - كنت أدفع خارجاً، دون أن أرتاب بالأمر، الأحلام التي سبق أن بعثتها «ألبيرتين» بالأمس في صدري يوم كنت لا أعرفها بعد والتي أخمدتها الحياة اليومية. كنت ألقي بها في جملة الموسيقى أو في صورة الرسام وكأنما في بوتقة وأغذّي بها العمل الذي كنت أقرأه. وليس من شك أن العمل كان يبدو لي أوفر حياة.

على أن «ألبيرتين» لم تكن أقل كسباً حينما تُنقل هكذا من أحد

العالمين اللذين أوتينا ولوجهما واللذين نستطيع أن نحدد بالتناوب موقع الشيء نفسه فيهما، حينما نُقلت هكذا من ضغط المادة الساحق كيما تلهو في أمداء الفكر السحرية. وكنت أجدني فجأة وعلى مدى لحظة قادراً على الإحساس بعواطف لاهية نحو الفتاة المملة. كانت تتخذ في تلك اللحظة مظهر عمل من أعمال «إيلستير» أو «بيرغوت» وأحس باندفاعة مؤقتة إليها إذ أبصرها في فسحة الخيال والفن.

أخطروني بعد قليل أنها عادت للتو، أضف أنه كان ثمة أمر بأن لا يُعلن عن اسمها إن لم أكن وحدي، إن كان عندي على سبيل المثال «بلوك» الذي كنت أرغمه على البقاء فترة إضافية كي لا أجازف بلقاء بينه وبين صديقتي. ذلك أني كنت أخفي أنها تقطن في المنزل بل حتى أن أكون رأيتها قط في بيتي لشدة ما أخشى أن يقع أحد أصدقائي في حبها وأن ينتظرها خارجاً، أو أن يسعها، في لحظة لقاء في الممر أو البهو، أن ترسم إشارة وتضرب موعداً. ثم كنت أسمع حفيف تنورة «ألبيرتين» وهي تقصد غرفتها، فإنها من قبيل التحفظ، وكذلك دون شك بصنوف المراعاة التي تفننت فيها بالأمس في أعشيتنا في «لا راسبلير» بغية ألا تأخذ مني الغيرة، ما كانت تُقبل إلى غرفتي وهي تعلم أني لست وحدي. لكنما لم يكن هذا لذاك السبب فحسب، وكنت أدرك الأمر فجأة. وأخذت أتذكر، فإنه سبق لي أن عرفت «ألبيرتين» أولى ثم هي بُدلت بأخرى غيرها، وهي الحالية، وما كان بوسعي أن ألقي مسؤولية التبدل إلا على ذاتي. فكل ما لعلها كانت أقرّت لي به بسهولة وعن طيب خاطر حينما كنا رفيقين حقيقيين توقف عن الدفق حالما اعتقدتْ أني أحبها أو هي كشفت، ربما دون أن تفضي لنفسها باسم الحب، عاطفة استقصائية مرادها أن تعرف وتتألم مع ذلك من أنها تعرف وتحاول أن تعلم أكثر. ومنذ ذلك اليوم أخفت عني كل شيء. كانت تحيد عن غرفتي إن ظنت أنني لا حتى مع صديقة في الغالب، بل مع صديق، هي التي كانت عيناها فيما مضى تهتمان أشد الاهتمام حينما كنت أتحدث عن فتاة «ينبغي أن نحاول حملها على

المجيء، فقد يبهجني أن أعرفها». - «ولكنها مما تدعينه بالصنف المنحط». - «تماماً، وسيكون حتى حينما أبعدت في الكازينو الصغير نهديها عن نهدي «أندريه»، لست أعتقد أن ذلك كان بسبب وجودي، بل بسبب وجود «كوتار» الذي ربما أساء، في اعتقادها دون شك، إلى سمعتها. وكانت مع ذلك قد شرعت مذ ذاك تبدي جموداً وما عادت الأقوال الواثقة تطلع من شفتيها وأصبحت حركاتها متحفظة. ثم إنها استبعدت عن ذاتها كل ما قد يثيرني. فكانت تضفي على الأجزاء التي لا أعرفها في حياتها طابعاً يشارك جهلي في زيادة ما فيه من بعد عن الإساءة. والآن أصبح التحول ناجزاً، فتراها تمضي رأساً إلى غرفتها إن لم أكن وحيداً، لا لتتحاشى الإزعاج فحسب بل لتبرهن لي أنها غير مهتمة بالآخرين. كان ثمة أمر واحد فقط ما كانت لتقْدم عليه من بعد من أجلي، وما كانت فعلته إلا في وقت كان بدا لي الأمر فيه غير ذي بال، وكانت فعلته بيسر لهذا السبب عينه، وهو بالضبط الإقرار. وبلغ بي الحال على مدى الأيام أن استخلص، كما هي حال القاضي، نتائج غير مؤكدة من تهورات كلامية ربما لم تكن عاصية على التفسير، بدون اللجوء إلى واقع الجرم. وسوف تحسني على الدوام غيوراً وقاضياً.

وأخذت خطوبتنا ترتدي هيئة الدعوى وتوليها خجل المذنبة. كانت الآن تُغيِّر الحدث إن تناول أشخاصاً، من رجال أو نساء، ما كانوا مسنين. وإنما كان يجدر بي، حين لم تكن بعد ترتاب بأني أغار عليها، أن أسألها ما كنت أبغي معرفته. لا بد من استغلال ذلك الوقت، فحينذاك تروي لنا صديقتنا عن ملذاتها وحتى عن الوسائل التي تتوسل بها لإخفائها عن عيون الآخرين. ما كانت الآن لتقرّ لي من بعد، كما سبق أن فعلت في «باليبك»، في النصف لأن ذلك حقيقي، والنصف الثاني لتعتذر عن أنها لا تبدي محبتها لي أكثر مما تفعل، فإني كنت أتعبها مذ ذاك وقد تبينت مما أبدي لها من لطف أنها لا حاجة بها لأن تبدي لي منها بمقدار ما تفعل للآخرين كيما تحصل مني على أكثر مما تحصل منهم، لعلها ما كانت لتقر

لي الآن كما تفعل بالأمس: «أرى من الغباء أن نكشف عمن نحب، أما أنا فبعكس ذلك: حالما يروقني شخص أبدو كأنما لا أعيره اهتمامي، وهكذا لا يدري أحد شيئاً». «عجباً! لقد كانت ألبيرتين» اليوم ذاتها بمزاعمها في الصراحة وأنها غير آبهة بالجميع هي التي قالت لي ذلك! فلعلها ما كانت الآن لتذكر لي هذه القاعدة من بعد! كانت تكتفي وهي تتحدث وإياي بتطبيقها بقولها عن هذا الشخص أو ذاك ممن يمكن أن يثيروا قلقي: «آه! لست أدري، لم أنظر إليه، وهو تافه بما يجاوز الحد». وكانت بين الحين والحين، وكيما تستبق أموراً يمكن أن أعلمها، تدلي باعترافات من نمط تلك التي تفضحها لهجتها بأنها أكاذيب قبل أن نعرف الحقيقة التي كلّفت بتشويهها، بتبرئتها.

وكنت فيما أصغي إلى خطى «ألبيرتين» وبي الغبطة الهانئة الناجمة عن التفكير بأنها لن تخرج من بعد هذا المساء، كنت أعجب أن تكون العودة اليومية إلى منزلها في نظر هذه الفتاة التي ظننت فيما مضى أنني لن أستطيع التعرف إليها في يوم إنما هي بالضبط العودة إلى منزلي، وإن الغبطة التي كلها أسرار وشهوانية والتي أحسست بها متهربة مجزأة في «بالبيك» في المساء الذي جاءت تنام فيه في الفندق كانت قد اكتملت وتوطدّت وأخذت تملأ مسكني الفارغ بالأمس مؤونة دائمة من عذوبة بيتية وتكاد تكون عائلية تشرق حتى داخل الممرات وكانت كل حواسي تتغذى هانئة بها، تارة بالفعل وطوراً بالخيال وبانتظار العودة في الفترات التي أكون فيها وحدي. وحينما كان يوافي مسمعي إغلاق باب غرفة «ألبيرتين» كنت أسارع، إن كان برفقتي صديق، إلى إخراجه ولا أتركه إلا بعدما أتيقن تماماً أنه على الدرج الذي كنت أنزل بعض درجاته إن اقتضى الأمر.

كانت «ألبيرتين» تأتي لملاقاتي في الممر. «هيا، إني أبعث إليك «أندريه» فيما أنزع حوائجي، فقد صعدت مقدار ثانية لتسلم عليك». وإذ لا يزال من حولها الحجاب الرمادي الواسع الذي يتدلى من قبعة من فرو الشنشيلة، وكنت قدّمته لها في «بالبيك»، كانت تنسحب وتعود إلى غرفتها

كما لو أنها حزرت أن «أندريه» التي كلّفتها أنا رعايتها سوف تحمل معها، إذ تزوّدني بعدد من التفصيلات وتذكر لي لقاءهما كليهما لأحد معارفهما، بعض التحديد للمناطق المبهمة التي جرت فيها النزهة التي قامتا بها طوال النهار والتي ما وسعني تصورها.

كانت عيوب «أندريه» قد برزت خطوطها، ولم تعد بمثل إمتاعها حينما عرفتها. كان لديها الآن، يضطرب رقيقاً، نوع من القلق الحاد على أهبة التجمع كما في البحر عصف مفاجئ، إن أقدمت فحسب على التحدث في أمر يحمل المتعة لـ«ألبيرتين» ولي. وما كان ذلك يحول دون أن تكون «أندريه» ربما أفضل بحقي، وأن تحبني - وكثيراً ما توافر لي برهان ذلك - أكثر من أناس أوفر أنساً. لكن أدنى ما يبدو عليك من سعادة، إن لم تكن هي مبعثها، كان يولّد لديها انطباعاً عصبياً مزعجاً كصفقة باب تغلقه بقوة تتجاوز الحد. كانت تسلم بالآلام التي لا نصيب لها فيه، لا بالمتع: فكانت إن رأتني مريضاً تغتم وترثي لحالي، وربما اعتنت بي. فإن لقيت ارتياحاً بمثل تفاهة أن أتمطى بمظهر المغتبط وأنا أطوي كتاباً وأقول: «آه! لقد أمضيت تواً ساعتين حلوتين في قراءة كتاب مسلّ»، كانت هذه الكلمات التي ربما أشاعت السرور في صدر والدتي و«ألبيرتين» و«سان لو»، كانت تثير لدى «أندريه» ضرباً من الاستنكار وربما ضيقاً عصبياً فحسب. كانت صنوف ارتياحي تسبب لها انزعاجاً لا تقوى على إخفائه. كانت تلك العيوب تكتمل بأخرى أكثر خطورة: فإن «أندريه»، في يوم كنت أتحدث فيه عن ذاك الشاب الكثير الإحاطة بأمور السباقات والألعاب والغولف والكثير الجهل في كل ما تبقى وكنت التقيته مع الجماعة الصغيرة في «بالبيك»، أخذت تقهقه: «تعلم أن والده قد سرق وأوشكت تقام عليه الدعوى. وهم يريدون الظهور مظهر اللامبالين فوق ذلك، ولكني أتلهى بقول ذلكللجميع. وددت لو يقاضونني بتهمة البلاغ الكاذب، فما أجملها شهادة سأدلي بها!» وكان الشرر يتطاير من عينيها. لكني علمت أن الوالد لم يرتكب أي أمر غير لائق وأن «أندريه» تعلم ذلك

بقدر ما يعلمه غيرها. بيد أنها ظنت نفسها مزدراة من جانب الابن فبحثت عن أمر يمكن أن يربكه ويخجله وابتدعت رواية كاملة من شهادات كانت مدعوة في خيالها للإدلاء بها وكانت هي ذاتها ربما تجهل، لكثرة ما تردد لنفسها تفاصيلها، إن أتت غير صحيحة.

وهكذا ما كنت لأرغب في لقائها بالصورة التي أصبحت عليها (حتى بدون أحقادها القصيرة المجنونة)، إن لم يكن لشيء فبسبب ذاك النزق المؤذي الذي كان يمنطق بنطاق خشن شديد البرودة طبيعتها الحقة وهي أكثر دفئاً وأفضل. لكن المعلومات التي كانت تستطيع وحدها تزويدي بها حول صديقتي كانت تهمني أكثر من أن أفوّت فرصة نادرة إلى هذا الحد للاطلاع عليها. تدخل «أندريه» وتغلق الباب وراءها. لقد التقينا صديقة ولم يسبق أن كلمتني «ألبيرتين» البتة عنها. «وماذا قالتا؟» - «لست أدري، فقد أفدتُ من أن «ألبيرتين» لم تكن وحدها لأمضي لشراء أصواف». «تشترين صوفاً؟» - «أجل، وهي «ألبيرتين» من كانت سألتني ذلك». - «ذاك سبب إضافي كي لا تذهبي، فربما كان ذلك بقصد إبعادك». - «لكنها سبق أن سألتني ذلك قبل أن تلتقي صديقتها». وأجيب وقد استعدت أنفاسي: «آه!». وكان ارتيابي يعاودني في الحال: «ولكن من ذا يعلم إن لم تكن ضربت سلفاً موعداً لصديقتها ولم تتدبر ذريعة كي تكون وحدها متى شاءت ذلك؟» هل كنت إلى ذلك على يقين تام بأن لم تكن الفرضية القديمة (تلك التي ما كانت «أندريه» تقول لي بموجبها الحقيقة فحسب) هي الصالحة؟ فربما كانت «أندريه» على اتفاق مع «ألبيرتين». كنت أقول في نفسي في «بالبيك» إننا نكن الحب لشخص تبدو غيرتنا عليه وكأنما اتخذت أعماله بالأحرى موضوعاً لها. ونحس أنها لو قالت عنها جميعاً فربما تيسر شفاؤنا من الحب. وعبثاً يجرى التستر بحذاقة على الغيرة من جانب من يكابدها فسرعان ما تكتشفها تلك التي توحي بها والتي تستخدم المهارة بدورها. فهي تحاول أن تخدعنا حول ما يمكن أن يجعلنا تعساء وتقدمه لنا، إذ لماذا تكشف جملة لا عبرة فيها الأكاذيب التي تخفيها

بالنسبة لمن لم يكن مطلعاً على بواطن الأمور؟ إننا لا نميّزها عن الأخريات: فإن قيلت بلهجة مذعورة جرى الاستماع إليها دون انتباه. سوف نعود إلى هذه الجملة فيما بعد حينما نكون وحدنا ولن يبدو لنا أنها تلائم الواقع. ولكن أترانا نتذكرها تماماً تلك الجملة؟ إنه ليولد تلقائياً في داخلنا فيما يبدو شك إزاءها وإزاء صحة تذكرنا، شك من نمط تلك التي تجعلك لا تستطيع البتة في أثناء بعض الحالات العصبية أن تتذكر إن كنت أغلقت بابك ولا يتم لك ذلك في المرة الخمسين أكثر من المرة الأولى: لكأنما يمكنك إعادة الكرة إلى ما لا نهاية دون أن تترافق الإعادة مرة بتذكر دقيق مُنقِذ. لكننا على الأقل نستطيع إغلاق الباب للمرة الحادية والخمسين. فيما الجملة المقلقة في الماضي وجاءت عبر عملية استماع غامضة لا نملك أن نكررها. حينئذ نصرف انتباهنا إلى أخرى لا تخبئ شيئاً، ولعل الدواء الوحيد الذي لا نقبل به يكمن في تجاهل كل شيء كي لا تداخلنا الرغبة في معرفة أفضل. وما إن تُكتشف الغيرة حتى تعدّها من كانت موضوعها بمثابة ارتياب يسمح بالخداع. ونحن على أي حال من اتخذ. بغية الاطلاع على أمر ما، مبادرة الكذب والخداع. صحيح أن «أندريه» و«إيميه» يعداننا بألا يقولا شيئاً، ولكن أتراهما يفعلان؟ لم يستطع «بلوك» أن يعد بشيء لأنه ما كان يعلم، و«ألبيرتين» سوف تعلم، إما تحدثت إلى كل من الثلاثة وبوساطة ما كان دعاه «سان لو» بـ«التقاطعات» أننا نكذب عليها حينما ندّعي أننا لا نكترث بأفعالها وأننا عاجزون أخلاقياً عن مراقبتها. وهكذا فإن الإجابة المقتضبة التي جاءتني بها «أندريه» كانت، إذ تعقب (في ما كانت تفعله «ألبيرتين») شكّي المعتاد اللانهائي، وهو مفرط الإيهام كي لا يلبث غير مؤلم، وكان بالنسبة إلى الغيرة ما هي بالنسبة إلى الغمّ بدايات النسيان، حيث تولد السكينة من الغموض، كانت تثير في الحال أسئلة جديدة. فلم أكن أفلحت، وأنا أستكشف قطعة من المنطقة الكبيرة التي تمتد من حولي، إلا في أن أدفع إلى الوراء حدود هذا المجهول الذي تؤلفه عندناالحياة الحقيقية التي يحياها شخص ما حينما

نحاول فعلاً تصوّرها. كنت أوالي مساءلة «أندريه» فيما تطيل «ألبيرتين»، بداعي التحفظ وكي تدع لي (تراها كانت عارفة بالأمر؟) كامل الوقت لمساءلتها، في نزع ثيابها في غرفتها.

كنت أقول لـ«أندريه»: «في اعتقادي أن عم «ألبيرتين» وعمتها يودانني كثيراً، أقول دونما تردد ودون أن أفكر بطباعها. فأرى في الحال وجهها اللزج يتشوّه مثلما شراب يفسد ويبدو كأنه تشوّش أبداً. ويلتوي خطّ فمها حزناً. لم يظل شيء لـ«أندريه» من ذلك المرح الفتي الذي كانت تنشره، كمثل كامل الجماعة الصغيرة وعلى الرغم من طبيعتها السقيمة، في السنة الأولى لإقامتي في «بالبيك» والذي أخذ الآن (وصحيح أن «أندريه» كبرت مذ ذاك بضع سنوات) يغيب عنها بسرعة كبيرة. لكني سأبعثه مجدداً على نحو غير مقصود، قبلما تكون «أندريه» فارقتني لتناول العشاء في منزلها. كنت أقول لها: «هنالك واحد أشاد أمامي اليوم إشادة عظيمة بك». وفي الحال يشرق في عينيها شعاع فرح ويبدو عليها أنها تحبني حقاً. كانت تتجنّب النظر إليّ، ولكنها تضحك في الفراغ بعينين استدارتا فجأة استدارة تامة. وتسأل باهتمام ساذج نهم: «ومن عساه يكون؟» وأقول لها عنه فتبدو سعيدة كائناً من كان.

ثم تحل ساعة الرحيل فتفارقني، وتعود «ألبيرتين» بالقرب مني. لقد خلعت ثيابها. وهي ترتدي واحداً من تلك المآزر الجميلة التي من قماش الكريب الصيني أو من الفساتين اليابانية التي سبق أن سألت السيدة «دو غيرمانت» وصفاً لها وزودتني السيدة «سوان» بالنسبة إلى بعض منها بإيضاحات إضافية في رسالة تستهلها بهذه الكلمات: «بعد احتجاجك الطويل، ظننت وأنا أقرأ رسالتك بخصوص جلابيب الشاي التي أرتديها أني أتبلّغ أخباراً من عائد من القبر». كانت «ألبيرتين» تحتذي حذاء أسود تزينه ماسات، وكانت «فرانسواز» تسميّها بحنق «سوكات»، وهي شبيهة بتلك التي رأت السيدة «دو غيرمانت» من نافذة الصالة تلبسها في منزلها مساءً، كما أن «ألبيرتين» حصلت بعد ذلك على خفاف بعضها من جلد

الجداء المذهب والأخرى من فراء الشنشيلة وكنت أستعذب رؤيتها إذ كانت هذه وتلك بمثابة علامات (لعل أحذية غيرها لم تكنها) تشير إلى سكناها عندي. كانت تملك أيضاً حاجات لم أكن مصدرها، كخاتم جميل من الذهب، ويعجبني فيه جناحا نسر منشوران. وقالت لي: «إنها عمتي من أعطتني إياه، وهي لطيفة أحياناً على الرغم من كل شيء. إن ذلك يزيد في سنيّ عمري، فقد أعطتني إياه بمناسبة بلوغي العشرين».

كانت «ألبيرتين» تحسّ ميلاً إلى سائر هذه الأشياء الجميلة أشد من الدوقة لأن الفقر، شأن كل عقبة تعترض سبيل الامتلاك (كما هو المرض عندي، فالرحلات جراءه كم كانت تشق عليّ وكم أشتهيها)، الفقر أكثر كرماً من الثراء، إنما يمنح النساء أكثر من الأثواب التي لا يسعهن شراؤها، عنينا الرغبة في هذه الأثواب، وهي معرفتها الحقة المفصلة المعمقة. وكنا، هي لأنه لم يسعها أن توفر لنفسها هذه الأشياء، وأنا لأنني كنت أبحث، إذ أوصي على صنعها لها، عن إدخال السرور على قلبها، كنا كحال هؤلاء الطلبة الذين يعرفون سلفاً كل شيء عن اللوحات التي يتلهفون إلى الذهاب لرؤيتها في دريسدن أو فيينا؛ فيما تبدو النساء الثريات بين وفرة قبعاتهن وفساتينهن كمثل أولئك الزوار الذين لا يوليهم التنقل داخل متحف، بما أنه لم تسبقه أية رغبة، سوى إحساس بالدوار والتعب والملل، كانت هذه القبعة، وذاك المعطف الذي من فراء الزيبلين وذلك المئزر من أعمال «دوسيه» ذو الأكمام المبطنة بالزهر، كانت تتخذ في نظر «ألبيرتين» التي سبق أن شاهدتها واشتهتها وقامت، بفضل الطابع الحصري والدقّة اللذين يميزان الرغبة، بفصلها عما عداها في فراغ تبرز عليه بروزاً رائعاً البطانة أو الوشاح، وتعرفها في الآن نفسه في جميع أجزائها (وفي نظري أنا الذي مضى إلى بيت السيدة «دو غيرمانت» يحاول استيضاح الأمر الذي تقوم عليه خصوصية وتفوّق وأناقة الشيء وطريقة الصانع العظيم التي لا تضاهى)، أهمية وسحراً لا تتخذهما بالتأكيد في نظر الدقة، وهي شبعى حتى قبل أن تداخلها الشهية، أو حتى في نظري إن

سبق لي أن رأيتها قبل بضع سنوات في مرافقتي لهذه المرأة الأنيقة أو تلك في واحدة من جولاتها المملة على الخيّاطات. صحيح أن «ألبيرتين» أخذت تضحي، شيئاً فشيئاً، واحدة من هذا القبيل. فإنه إن كان كل شيء أوصي بصنعه لها على هذا النحو هو الأجمل في طرازه، إلى جانب سائر المنمقات التي لعل السيدة «دو غيرمانت» أو السيدة «سوان» كانت تضيفها إليه، فقد أخذت تملك من هذه الأشياء الكثير. لكن لا أهمية لذلك ما دامت أحبتها بادئ الأمر وكلاً على انفراد. حينما نهيم برسّام، ثم بآخر، يمكن أن يدخلنا في النهاية إزاء المتحف بكامله إعجاب لا يكون بارداً لأنه تشكّل من صنوف من العشق متعاقبة، كل واحد حصري في وقته، ثم هي اجتمعت في نهاية المطاف الواحد إلى جانب الآخر وتوافقت.

لم تكن طائشة على أي حال، وكانت تقرأ كثيراً إن كانت وحدها وتقرأ لي حين تكون برفقتي. لقد أضحت في غاية الذكاء. وكانت تقول، وهي مخطئة على كل حال: «يتملكني الهلع حينما أفكر أني لبثت غبيّة لولاك. هيا، لا تنكر ذلك فقد فتحت لي دنيا من الأفكار ما كنت أرتاب بها وإني لا أدين إلا لك بالقليل الذي أضحيت عليه».

نحن نعلم أنها قالت كلاماً مماثلاً عن تأثر «أندريه» بي. فهل كان لهذه أو تلك مشاعر نحوي؟ وما عسى كانت «ألبيرتين» و«أندريه» في حدّ ذاتهما؟ لا بد لمعرفة ذلك من تجميدكن وأن لا نعيش من بعد في انتظار، وكيما نثبتكن أن لا نعرف من بعد مجيئكن الذي لا ينتهي والمحير على الدوام أيتها الفتيات، يا شعاعاً متوالياً في الزوبعة التي يخفق فيها فؤادنا أن نراكن تطلعن من جديد، ونكاد لا نتعرفكن، في سرعة الضوء المدوِّخة. والسرعة هذه ربما لم ندركها، وبدا لنا كل شيء جامداً لو لم يدفعنا إليكن جاذب جنسي، يا قطرات من ذهب مختلفات أبداً ويجاوزن دوماً توقّعنا. والفتاة قليلة الشبه في كل مرة بما كانت عليه في المرة السابقة (فتمزّق إرباً حالما نراها الذكرى التي حفظناها عنها والرغبة التي كنا نرمي إليها) على حد يبدو معه أن الطبيعة المستقرة التي نوليها إياها

محض وهم ولسهولة التعبير. لقد قيل لنا إن الفتاة الجميلة رقيقة محبة تفيض مشاعر من أكثرها نعومة. ويصدق خيالنا الأمر لمجرد القول وحينما تظهر لنا أول مرة تحت نطاق شعرها الأشقر الجعد دائرة محياها الوردي نكاد نخشى أن تشبع هذه الشقيقة المفرطة في فضيلتها البرودة في أوصالنا من جراء هذه الفضيلة نفسها وألا يسعها في يوم أن تكون بالنسبة إلينا العشيقة التي تمنيناها. كم من الأسرار نستودعها على أية حال منذ الساعة الأولى. وبالاعتماد على نبل الفؤاد هذا كم من المشروعات صيغت سوياً! لكننا بعد انقضاء بضعة أيام نأسف أن نكون كشفنا إلى هذا الحد عن مكنونات نفسنا لأن الفتاة الموردة التي التقيناها تحدّثنا في المرة الثانية حديث جنية متهتكة. وفي الوجوه المتعاقبة التي يقدّمها لنا، بعد تذبذب دام بضعة أيام، النور الوردي المحتجز، ليس حتى أكيداً أن لم تبدل حركة من خارج هاتيك الفتيات مظهرهن ومن الممكن أن يكون ذلك وقع لفتياتي في «بالبيك». يمتدحون أمامنا وداعة ونقاء عذراء. لكننا نشعر بعد ذلك أن شيئاً أوفر «بهارات» ربما راقنا أكثر فنشور عليها بإبداء جرأة أكبر. فهل كانت في حدّ ذاتها هذه بالأحرى أو تلك؟ قد لا يكون ذلك، ولكنها قادرة أن تبلغ الكثير من الإمكانات المختلفة في بحر الحياة المدوّخ. وبالنسبة لأخرى كان قوام كل الجاذب فيها شيئاً من قسوة لا ترحم (كنا ننوي تلبيتها على طريقتنا)، كما هي حال القافزة المريعة في «بالبيك» التي كانت تلامس في وثباتها رؤوس الشيوخ المذعورين، أية خيبة أمل حينما كنا نسمعها، في الجانب الجديد الذي يوفره هذا المحيا لحظة كنا نقول لها كلمات رقيقة استثارها تذكّر هذا الحجم من القسوة على الآخرين، تقول لنا منذ البداية إنها خجولة وإنها ما عرفت يوماً أن تقول شيئاً معقولاً لأحدهم في المرة الأولى لفرط ما ينتابها من خوف وإنها لن تستطيع التحدث وإيانا بهدوء مطمئن إلا بعد انقضاء خمسة عشر يوماً! لقد أصبح الفولاذ قطناً، وربما لم يبق لنا من بعد شيء نحاول تحطيمه بما أنها أخذت تفقد ذاتها بذاتها أية صلابة بذاتها، ولكن ربما كان الذنب ذنبنا لأن الكلمات الرقيقة

التي كنا وجهناها إلى «القسوة» ربما أوحت لها أن تكون رقيقة حتى دون أن تكون حسبت أي حساب مغرض. (والأمر كان يغمنا ولكنما لم يكن إلا نصف أخرق لأن الامتنان لهذا القدر من الوداعة سوف يضطرنا ربما إلى ما كان أكثر من الافتتان إزاء القسوة المقهورة). ولست أقول إنه لن يجيء يوم نخصّ فيه حتى تلك الفتيات المشرقات بطباع متميّزة تماماً؛ لكنما الأمر أنهن يكن كففن عن إثارة اهتمامنا وأن دخولهن لن يكون لفؤادنا، من بعد التجلي الذي كان يتوقعه مختلفاً والذي يخلّفه كل مرة مشوشاً جراء تجسدات جديدة. وسوف ينجم جمودهن عن لا مبالاتنا التي ستسلمهن إلى محاكمة فكرية. ولن يبت هذا الأخير على أية حال بصورة أوفر جزماً لأنه سوف يتبين، بعدما يكون قد حكم أن هذا العيب الغالب لدى إحداهن كان لحسن الحظ غائباً لدى الأخرى، أن ذاك العيب إنما تقابله صفة ثمينة. وهكذا تصدر عن حكم العقل الخاطئ، والعقل لا يتدخل إلا حينما نكفّ عن الاهتمام، تصدر محددة الخطوط طباع ثابتة للفتيات لن تخبرنا بأكثر مما فعلت الوجوه المذهلة التي طلعت في كل يوم حينما كانت تبرز إلينا صديقاتنا، في سرعة انتظارنا المدوّخة، حينما يبرزن كل يوم وكل أسبوع أكثر اختلافاً من أن يسمح لنا ذلك، إذ الجري لا يتوقف، بأن نصنف ونحدد مراتب. أما بشأن عواطفنا، وقد تحدثنا عنها أكثر من أن نكرر القول، فكثيراً ما لا يكون الحب سوى الترابط بين صورة فتاة (لعلها سرعان ما كانت بدت لنا لولا ذاك غير محتملة) وخفقات القلب التي لا تنفصل عن انتظار لا ينتهي ولا يجدي؛ وتخلف الآنسة في وعدها. وليس كل ذلك صحيحاً فقط بالنسبة إلى الفتيان الواسعي الخيال أمام الفتيات المتقلبات. فمنذ الوقت الذي وقعت فيه قصتنا يبدو أن ابنة شقيق «جوبيان» وقد عرفت الأمر مذ ذاك، غيرت رأيها بخصوص «موريل» وبخصوص السيد «دو شارلوس». وهبّ عاملي الميكانيكي، هبّ إلى نجدة الحب الذي كانت تكنّه لـ«موريل» فامتدح لديه ألطافاً لا تنتهي على أنها موجودة لدى عازف الكمان، وما كانت إلا ميالة إلى تصديقها. وكان

«موريل» من جانب آخر لا يفتأ يحكي لها عن دور الجلاد الذي يمارسه السيد «دو شارلوس» عليه والذي كانت تعزوه للخبث، إذ هي لا تستشف الحب فيه. أضف أنها كانت مضطرة أن تلاحظ أن السيد «دو شارلوس» كان يحضر مستبداً للقاءاتهما كافة. ويجيء سنداً لذاك أنها كانت تسمع نساء المجتمع الراقي يتكلمن عن خبث البارون الرهيب، إلا أن حكمها هذا انقلب منذ وقت يسير انقلاباً كاملاً. فقد اكتشفت لدى «موريل» (دون أن تتوقف عن حبه لذلك) أغواراً من الخبث والغدر توازنها على أية حال عذوبة تغلب عنده ورقّة إحساس حقيقية، ولدى السيد «دو شارلوس» طيبة لا يشك فيها ولا حدّ لها تختلط بها صنوف من القسوة ما كانت تعرفها. وهكذا لم تفلح في الحكم حكماً أكثر تحديداً حول ما كان عليه عازف الكمان وراعيه، كلّ في ما يخصه، مني حول «أندريه»، مع أني ألتقيها كل يوم، و«ألبيرتين» التي تعيش تحت سقفي.

في العشيات التي لم تكن هذه تقرأ لي بصوت جهوري ما كانت تسمعني موسيقى أو تباشر معي لعبات «الدامه» أو أحاديث فأقطع هذه وتلك لأعانقها. وكانت علاقاتنا تتسم ببساطة تكسبها جواً من الراحة. كان فراغ حياتها ذاته يولي «ألبيرتين» نوعاً من المسارعة إلى اللطف والطاعة في الأشياء التي أطالبها بها فقط. ومن وراء هذه الفتاة، كما من وراء الضوء الأرجواني الذي ينهمر على حضيض ستائري في «بالبيك»، كانت تموجات البحر الضاربة إلى الزرقة تكتسي بياضاً. أفلم تكن (هي التي تسكن أعماقها بصورة معتادة فكرة عني أليفة إلى حد ربما كنت معه، بعد عمتها، الشخص الذي تميّزه أقل ما تميز عن ذاتها) الفتاة التي شاهدتها أول مرة في «بالبيك» بقميصها الرياضي الذي لا بروز فيه وعينيها الملحاحتين الضحوكتين، وهي بعد مجهولة هيفاء مثلما ارتسام طيف على الأمواج؟ وهذه الرسوم المنقوشة المحفوظة في الذاكرة سليمة لم تمسّ، إنما يداخلنا العجب، حين نعود فنلقاها، من اختلافها عن الشخص الذي نعرفه. وإننا ندرك أي عمل صياغي تنجزه العادة يومياً. كان لا يزال

يداخل السحر الذي تتمتع به «ألبيرتين» في باريس في ركن مدفأة بيتي، الرغبة التي بعثها في نفسي الموكب الوقح الربيعي الذي كان يتجلى للناظرين على طول الشاطئ، ومثلما كانت «راحيل» تحتفظ لـ«سان لو» بمهابة حياة المسارح، حتى بعدما حملها على هجرها، كان لا يزال يداخل «ألبيرتين» هذه المحتبسة في منزلي، بعيداً عن «بالبيك» التي اصطحبتها منها على عجل، الاضطراب والضياع الاجتماعي والغرور القلق والرغبات الشاردة التي تميّز الحياة في حمامات البحر. لقد أُحسِن سَجنُها إلى حد أني، في بعض العشيات، ما كنت حتى أرسل في طلبها لتنتقل من غرفتها إلى غرفتي هي التي كان الجميع بالأمس يسعون في إثرها، والتي كم كان يشق عليّ اللحاق بها وهي تمضي سريعة على دراجتها والتي ما كان عامل المصعد نفسه يستطيع العودة بها إليّ ولا يدع لي، أو يكاد، آملاً بمجيئها وكنت أنتظرها مع ذلك طوال الليل. أفلم تكن «ألبيرتين» أمام الفندق بمثابة ممثلة كبيرة على الشاطئ الملتهب تثير مشاعر الغيرة حينما تتقدم فوق مسرح الطبيعة هذا لا تكلم أحداً. وتدفع عنها روّاده وترتفع فوق صديقاتها، تلك الممثلة المشتهاة أما كانت هي التي أضحت، بعدما انتزعتُها عن خشبة المسرح وسجنتها في بيتي، في منأى عن رغبات الجميع، وكانوا يستطيعون مذ ذاك البحث عنها دون جدوى، تارة في غرفتي وطوراً في غرفتها حيث تنصرف إلى أي عمل في نطاق الرسم والنقش؟

ليس من شك أن «ألبيرتين» كانت تبدو في أول أيام «بالبيك» في خط موازٍ لذاك الذي كنت أعيش فيه، ولكنه اقترب منه (حينما ذهبت إلى منزل «إيلستير») ثم لحق به على إيقاع علاقاتي وإياها في «بالبيك» و«باريس» ثم في «بالبيك» مرة أخرى. ولكن يا للفارق بين لوحتي «بالبيك» في الإقامة الأولى والثانية واللتين تؤلفهما الدارات نفسها التي كانت تخرج منها الفتيات نفسها أمام البحر نفسه! فهل كان بوسعي أن ألقى في صديقات «ألبيرتين» من الإقامة الثانية، وهنّ معروفات تماماً عندي ومزاياهن

ومعايبهن منقوشة بوضوح في محياهن، هاتيك المجهولات النضرات الغامضات اللواتي ما كن يستطعن، دون أن يخفق فؤادي، جعل باب دارتهن يصر على الرمال ويلوي في دورته أغصان التماري المرتجفة؟ لقد تقلّصت عيونهن الواسعة مذ ذاك لأنهن دونما شك لم يعدن طفلات، بل كذلك لأن هاتيك المجهولات الفاتنات ممثلات السنة الأولى الخيالية واللواتي لم أكف عن جمع المعلومات حولهن، لم يعدن يملكن سراً بالنسبة إليّ. فقد أضحين في نظري، هن الممتثلات لنزواتي، محض فتيات متفتحات وما كنت قليل الاعتزاز بأني قطفت من بينهن، وسرقت من الجميع أجمل وردة.

كان ثمة بين المنظرين، وما أشد اختلافهما الواحد عن الآخر في «بالبيك»، فاصل من عدة سنوات في باريس وقع على مسارها الطويل الكثير من زيارات «ألبيرتين». فقد كنت أشاهدها في مختلف سنيّ حياتي تشغل بالنسبة إليّ مواقع مختلفة تشعرني بجمال المساحات المُدْخَلة، هذا الزمن الطويل المنصرم الذي لبثت لا أراها فيه، المساحات التي كانت تتشكل على عمقه الشفاف الفتاة الوردية التي تقف أمامي، تتشكل بظلال زاخرة بالأسرار وبروز خطوط عظيم، وكان ناجماً على أية حال لا عن تناضد الصور المتعاقبة التي شكلتها «ألبيرتين» بالنسبة إليّ فحسب، بل كذلك عن المزايا الفكرية والقلبية العظيمة والعيوب الخلقية، وما كنت أرتاب بوجود هذه وتلك، والتي أضافتها «ألبيرتين»، عبر عملية إنبات، عبر تكثير لذاتها وإزهار شحيم عاتم الألوان، إلى جِبِلَّة كادت تكون معدومة بالأمس وهي الآن صعب تقصيّها. ذلك لأن الكائنات، حتى منها تلك التي لم تعد تبدو لنا لفرط ما حلمنا بها سوى صورة، سوى وجه من وجوه «بينوتزو غوتزولي» يبرز على خلفية ضاربة إلى الخضرة. والتي كنا نجنح إلى الظن بأن تغيراتها الوحيدة مردّها النقطة التي نقيم فيها لمشاهدتها والمسافة التي تفصلها عنا والإنارة، تلك الكائنات إنما تتغير أيضاً في حدّ ذاتها فيما تتغير بالنسبة إلينا؛ لقد كان ثمة إثراء وتصلّب وتنامٍ

في حجم الوجه الذي ارتسمت خطوطه بالأمس مجرد ارتسام على صفحة البحر. وما كان البحر وحده في أواخر النهار هو الذي يعيش في نظري داخل «ألبيرتين»، بل إغفاءة البحر أحياناً فوق الرمال في الليالي المقمرة. فأحياناً حينما كنت أنهض للمبادرة إلى البحث عن كتاب في مكتب والدي كانت صديقتي، بعدما استأذنت بالاستلقاء في هذه الأثناء، قد أتعبتها أشد التعب الجولة الطويلة في الصباح وبعد الظهر في الهواء الطلق إلى حد أني حتى لو لم أمكث سوى برهة وجيزة خارج غرفتي كنت ألقى «ألبيرتين» نائمة حينما أعود فلا أوقظها. كنت أنظر إليها، وهي مستلقية من رأسها إلى أخمص قدميها فوق سريري في وضع يتسم بتلقائية ما كان يمكن اصطناعها، هيئة ساق طويلة مزهرة جُعلت هنا. كانت الأمور بالفعل على هذا المنوال: فقد كنت أعود فألقى بالقرب منها في تلك اللحظات القدرة على الحلم التي لا أملكها إلا في غيابها، كما لو أنها في نومها أضحت نبتة. وبذلك كان نومها يحقق إلى حد ما إمكان الحب، إذ كنت أستطيع في وحدتي أن أفكّر فيها ولكني أفتقدها ولا أمتلكها. كنت في حضورها أتحدث إليها ولكني غائب عن ذاتي بما يتجاوز قدرتي على التفكير. أما حينما تنام فلا يقع عليّ من بعد أن أتكلم وأعلم أنها لا تنظر إليّ من بعد ولا حاجة بي والحالة هذه إلى العيش على صفحة ذاتي. كانت «ألبيرتين» إذ تطبق عينيها وتفقد الوعي قد انتزعت الواحدة تلو الأخرى سماتها الإنسانية المختلفة التي سبق أن خيبت آمالي منذ اليوم الذي تعرفت فيه إليها. لم تعد تدبّ فيها سوى حياة النباتات اللاواعية، حياة الأشجار. حياة شديدة الاختلاف عن حياتي وأكثر غرابة، لكنها أقرب أن تكون لي. فما كانت «أناها» تهرب في كل لحظة، كحالها حين كنا نتحدث، عبر منافذ الفكر الذي لا يباح به ومنافذ العين. فقد كانت استدعت إلى ذاتها كل ما كان منها في الخارج فاتخذت ملاذاً لها وسجنت واختصرت ذاتها داخل جسدها. وإذ أُمسِكُ بها تحت ناظري وبين يدي، كان يتولد لديّ انطباع بأني أملكها بكليتها وما كان ذلك انطباعي حين تكون مستيقظة.

كانت حياتها خاضعة لي وتنفث صوبي أنفاسها الخفيفة. كنت أصغي إلى هذا الانبعاث الهامس الغامض. العذب عذوبة نسيم البحر الأخاذ كما هو ضياء القمر هذا، والذي يمثله نومها. كان بوسعي أن أحلم بها وأنظر إليها مع ذلك ما دام مستمراً. وأن ألمسها وأقبلها حينما يصبح ذاك النوم عميقاً. ما كنت أحس به آنذاك إنما كان حباً في مواجهة شيء نقي لا مادي غامض بقدر ما يكون لو أنني كنت في مواجهة المخلوقات الجامدة التي تمثلها جمالات الطبيعة. فإنها ما إن كانت تنام بشيء من العمق حتى تكف عن كونها فقط النبتة التي سبق أن كانتها ويضحي نومها الذي كنت أحلم على حافته بتلذذ ندي لعلني ما كنت مللته في يوم ووسعني تذوقه إلى ما لا نهاية، يضحي في نظري مشهداً متكاملاً. كان نومها يضع إلى جانبي شيئاً هادئاً شهياً مثيراً كتلك الليالي التي يغمرها ضياء البدر في خليج «باليبك» وقد أضحى هادئاً هدوء البحيرات حيث تكاد الأغصان لا تتحرك، وحيث ربما أصغيت، وأنت مستلقٍ على الرمال، إلى تكسر للموج لا ينتهي.

وفيما كنت داخلاً إلى الغرفة لبثت واقفاً على العتبة لا أجرؤ على إحداث أي صوت ولا أسمع آخر غيره سوى صوت أنفاسها يقبل ليزفر بين شفتيها على فترات متقطعة منتظمة كأنه ارتداد الموج ولكنه أكثر خفوتاً ورقّة. وكان يبدو لي لحظة تلتقط أذني ذاك الصوت الإلهي أن قد تجمع فيه كامل شخص وحياة السجينة الفاتنة المستلقية هنا تحت ناظري. وتمر سيارات تضج في الشارع فيظل جبينها بمثل جموده، بمثل نقائه، وأنفاسها بمثل خفتها وقد استحالت مجرد زفرة الهواء الضرورية. ثم كنت أتقدم بحذر، وقد تبينتُ أن نومها لن يضطرب، وأجلس على الكرسي الذي إلى جانب السرير ثم على السرير نفسه. لقد أمضيت عشيات رائعة في التحدث إلى «ألبيرتين» واللعب وإياها، لكنها لم تكن في يوم بمثل عذوبتها حين أنظر إليها في نومها. وعبثاً تبدي في ثرثرتها وفي لعب الورق تلك الفطرة التي ما كانت ممثلة تستطيع تقليدها فقد كانت تلك التي يزودني بها نومها من تلقائية أكثر عمقاً، تلقائية من الدرجة الثانية. كان شعرها المنسدل على

امتداد وجهها الوردي ملقى إلى جانبها في السرير فيما توليك أحياناً خصلة مفردة مستقيمة ذات الأثر المنظوري الذي تخلّفه تلك الشجرات القمرية الناحلة الشاحبة التي تشاهدها تنتصب مستقيمة في الركن القصي من لوحات «إيلستير» الرافائيلية الطابع. ولئن كانت شفتا «ألبيرتين» مطبقتين فقد كانت أجفانها في المقابل، جراء الطريقة التي اتخذ مكاني بها، تبدو قليلة الإطباق حتى كاد يسعني أن أتساءل إن كانت تنام حقاً. كانت تلك الأجفان المرخية مع ذلك تخلّف في وجهها استمرارية في الخطوط لا تقطعها العينان. فثمة أشخاص يتخذ وجههم جمالاً وجلالاً غير مألوفين إن هو فقد نظرته. كنت أقيس بالعين «ألبيرتين» المستلقية عند قدمي. كان يسري فيها بين الحين والحين ارتعاش خفيف لا تفسير له مثل أوراق تختلج على مدى لحظات جراء نسائم غير متوقعة. وكانت تلامس شعرها ثم هي ترفع يدها، إذ لم ترتبه على نحو ما تشاء، ترفع يدها إليه بحركات متتالية بادية التصميم إلى حدّ أوقن معه أنها توشك أن تستيقظ. ما كان شيء من ذلك إذ هي تعاود هدوءها في الغفوة التي لم تبرحها، وتلبث مذ ذاك لا حراك بها. لقد وضعت يدها على صدرها في تراخٍ للذراع طفولي حتى لأراني مضطراً وأنا أنظر إليها أن أكتم الابتسامة التي يبعثها فينا الأولاد الصغار بجديّتهم وبراءتهم وظرافتهم. كان يبدو لي، أنا الذي يعرف عدة «ألبيرتينات» في واحدة، أني أرى كثيرات غيرها يرقدن بالقرب مني. وحاجباها المعقوفان كما لم يتفق أن رأيتهما من قبل كانا يحيطان بعقدتي جفنيها على هيئة عش ناعم لطائر الآلسيون، وتستريح فوق محيّاها أعراق ووراثيات وعيوب. وكانت في كل مرة تبدل فيها موضوع رأسها تبتدع امرأة جديدة ما كنت في الغالب أتوقعها، ويبدو لي أني لا أملك فتاة واحدة بل عدداً لا يحصى من الفتيات. كانت أنفاسها، وهي الآن شيئاً فشيئاً تزداد عمقاً، ترفع بانتظام صدرها، ومن فوقه يديها المشبوكتين ولآلئها التي تبددها الحركة نفسها مطارح مختلفة، كما هو شأن تلك القوارب وسلاسل الكبول التي يؤرجحها خفق الموج. حينئذ، وساعة

أحسّ أن النوم أخذ منها كل مأخذ وأنني لن أصطدم بصخور للوعي تغمرها الآن أعالي بحار النوم العميق كنت أقفز بكامل الوعي ودونما ضجة إلى السرير وأستلقي على امتداد جسمها وألفّ خصرها بإحدى ذراعي وأطبع شفتيّ على خدها، وعلى قلبها ثم على سائر أجزاء جسمها أضع يدي الوحيدة التي لبثت طليقة، وكانت ترتفع بدورها كحال الآلئ جراء تنفس «ألبيرتين»؛ وكنت أنا أنزاح قليلاً جراء حركتها المنتظمة. لقد أبحرتُ يحملني نوم «ألبيرتين».

كانت تذيقني أحياناً لذة أقل طهراً ولا أحتاج لذلك أية حركة، إذ كنت أدع ساقي تتدلى على ساقها مثل مجذاف ندعه سائباً ونبعث فيه بين الحين والحين تأرجحاً طفيفاً يشبه خفق الجناح المتقطع الذي للطيور التي تنام في الجو. كنت أختار للنظر إليها هذا الجانب من وجهها الذي لا يشاهد قط والذي كان غاية في الجمال. نحن ندرك، في حدود المعقول، أن تكون الرسائل التي يوجهها إلينا أحدهم متشابهة تقريباً فيما بينها وترسم صورة مختلفة إلى حد ما عن الشخص الذي نعرفه كيما تؤلف شخصية ثانية. ولكن كم يبدو أكثر غرابة أن تلتصق امرأة، على نحو ما كانت «روزيتا» بـ«دوديكا»[1]، بامرأة أخرى يحملك جمالها المختلف على أن تستخلص منه سمة أخرى وأنه ينبغي لك كي ترى هذه أن تنظر إليها جانبياً، ووجهاً لوجه كي ترى تلك. كان يمكن لصوت تنفسها وهو آخذ في الارتفاع أن تتوهم فيه لهاث اللذة وحينما تبلغ نشوتي حدّها كنت أستطيع تقبيلها دون أن أكون قطعت عليها نومها. كان يبدو لي في تلك اللحظات أنني قمت بامتلاكها بصورة أوفى وكأنما شيء غير واعٍ عديم المقاومة من الطبيعة الخرساء. وما كنت أبالي بالكلمات التي كانت تطلقها أحياناً في نومها فقد كان مدلولها يغيب عني، وأياً كان على أي حال

---

(١) هما بالحقيقة الشقيقتان السياميتان «راديكا» و«دوديكا» اللتان جرى فصلهما على يد الدكتور «دوايان» عام ١٩٠٢.

الشخص الذي ربما عنته فإن يدها إنما كانت، وقد هزتها أحياناً رعشة طفيفة، تضغط لحظة على يدي أنا، على وجنتي. كنت أتذوق نومها بحب خالي الغرض مهدئ مثلما كنت ألبث ساعات أصغي إلى تدافع الموج. وربما انبغى أن يكون الناس قادرين على أن يسوموك عذاباً مراً كي يوفروا لك في ساعات الصفاء ذات السكينة المهدئة التي توفرها الطبيعة. لم يكن عليّ أن أجيبها كما هي الحال حينما كنّا نتحدث، وحتى لو استطعت أن أصمت، مثلما كنت أفعل أيضاً حينما تتكلم، لما نزلت مع ذلك، وأنا أسمعها تتحدث، إلى مثل ذاك العمق في ذاتها. كان ثمة، وأنا ماضٍ من لحظة إلى أخرى في سماع وجمع الهمسة المهدئة، كما النسيم الأوفر رقة، لأنفاسها الطاهرة، حياة فيزيولوجية كاملة ماثلة أمامي وهي ملكي. ولعلني كنت بقيت هنا أنظر وأصغي إليها مقدار ما كنت أظلّ فيما مضى مستلقياً على الشاطئ في ضياء القمر. وأحياناً كان يخيل إليك أن البحر إلى هياج وأن العاصفة قد وصلت آثارها حتى الخليج فكنت أتصرف مثله إلى سماع صوت عصفها الهادر.

وكانت حينما تحسّ أحياناً بالحر الشديد تنزع، وقد أخذها النوم تقريباً، «الكيمونو» الذي تلقي به فوق مقعد. وكنت أقول في نفسي، في أثناء نومها، إن جميع رسائلها في جيب الكيمونو الداخلي حيث تضعها على الدوام. ولعل موعداً كان كافياً ليقيم البرهان على كذبة أو ليبدد شكاً. وحينما كنت أحس أن نوم «ألبيرتين» عميق جداً كنت أغادر جانب السرير الذي كنت أتأملها منه منذ فترة طويلة دونما حراك، فأجازف بخطوة وقد تملكني فضول شديد وأحسست بسرّ هذه الحياة مبذولاً في ذلك المقعد مهلهلاً أعزل. ولعلني كنت إلى ذلك أقوم بتلك الخطوة لأن النظر إلى أحدهم دونما حركة في نومه إنما يصبح في نهاية المطاف متعباً. وهكذا كنت أنسل حتى المقعد على أطراف قدميّ وأستدير دون توقف لأرى إن لم تكن «ألبيرتين» تستفيق. وأتوقف هناك وألبث فترة طويلة أنظر إلى الكيمونو كما لبثت فترة طويلة أنظر إلى «ألبيرتين». لكني (وربما كنت

على خطأ) لم أمسّ الكيمونو في يوم. ولا وضعت يدي في الجيب ولا نظرت في الرسائل. وكنت في النهاية أنثني راجعاً، وقد تبينت أني لن أحزم أمري، فأعود بالقرب من سرير «ألبيرتين» وأنشئ أتأملها ثانية في نومها هي التي ما كانت تنبئني بشيء، فيما كنت أبصر على ساعد المقعد ذاك الكيمونو الذي ربما كان أنبأني بأمور كثيرة. ومثلما يستأجر قوم مقابل مئة فرنك في اليوم غرفة في فندق «بالبيك» ليستنشقوا هواء البحر، كنت أرى من الطبيعي أن أنفق أكثر من ذلك من أجلها بما أني أملك أنفاسها بالقرب من خدي وفي فمها الذي كنت أفرّجه على فمي ومن حيث تنطلق حياتها على لساني.

لكن متعة أخرى وهي أن أبصرها تستفيق كانت تضع حداً لمتعة تأملها في نومها وهي بمثل حلاوة أن تحسّها تعيش. والمتعة تلك كانت بدرجة أكثر عمقاً وأوفر غموضاً ذات المتعة التي قوامها أن تسكن عندي. كان يحلو لي دونما شك في العصر حينما تنزل من السيارة أن تكون العودة إلى شقتي، ويفوق ذلك حلاوة حينما كانت تعود من أعماق النوم فتصعد الدرجات الأخيرة من سلم الأحلام، أن تكون عودتها إلى الوعي والحياة في غرفتي وأن تتساءل على مدى لحظة "في أي مكان أنا؟» وأن يسعها، إذ تبصر الأغراض التي تحيط بها والمصباح الذي تكاد عيناها لا ترفّان لنوره، أن تردّ أنها في بيتها حينما تتبين أنها تستيقظ في بيتي. كان يبدو لي، في لحظة الشك اللذيذة الأولى تلك، أني أمتلكها ثانية على نحو أكثر اكتمالاً لأنها عوضاً عن أن تدخل إلى غرفتها، بعدما خرجت منها إنما كانت غرفتي، بعدما تكون «ألبيرتين» تعرفتها هي التي ستضمها وتحتويها دون أن تبدي عينا صديقتي أي اضطراب إذ تطلان بمثل هدوئهما لو أنها لم تنم. وتردد اليقظة الذي يكشفه سكوتها ما كانت تكشفه نظرتها.

وتستعيد الكلام فتقول: «يا صغيري» أو «يا حبيبي» وتُتبع هذا أو ذاك باسمي، الأمر الذي كان يفضي، إن أطلقنا على الراوي اسم مؤلف هذا الكتاب، إلى: «صغيري مارسيل»، « مارسيل الحبيب» ولم أعد أسمح مذ

ذاك أن يقوم ذويّ داخل الأسرة، إذ يدعونني أيضاً «حبيبي»، بتجريد الكلمات اللذيذة التي كانت تقولها «ألبيرتين» من ميزة أنها فريدة. وكانت فيما تسمعني إياها تقوم بتكشيرة هيّنة تبدلها من تلقاء ذاتها قبلة. وبالسرعة التي أغفت بها منذ قليل بذات السرعة استيقظت.

لم يكن هذا الثراء الحقيقي وهذا التقدم المستقل لـ«ألبيرتين» السبب المهم للفارق القائم بين الطريقة التي أراها بها الآن وبالطريقة التي كانت لي في النظر إليها بادئ الأمر في «باليبك» أكثر مما كان انتقالي عبر الزمان ونظرتي إلى فتاة تجلس بالقرب مني تحت المصباح الذي يرسل عليها نوره على نحو يختلف عن الشمس حينما كانت تتقدم منتصبة بمحاذاة البحر. كان يمكن أن تفصل بين الصورتين سنوات أكثر دون أن تأتي بتغيّر تام إلى هذا الحد، فقد كان جرى أساسياً مفاجئاً حينما بلغني أن صديقتي قد تربت تقريباً على يد صديقة الآنسة «فانتوي». ولئن هزّتني الحماسة فيما مضى لدى الظن بأني أرى سراً في عيني «ألبيرتين» فما كنت أسعد الآن إلا في الفترات التي أستطيع فيها أن أبعد فيها أي سر عن تينك العينين، عن تينك الوجنتين ذاتهما، العاكستين كما هما العينان، وهما شديدتا العذوبة طوراً وسرعان ما تخشنان. إن الصورة التي كنت أبحث عنها وأرتاح إليها وودت لو أموت وأنا أستند إليها، لم تعد هي «ألبيرتين» ذات الحياة المجهولة، بل «ألبيرتين» المعروفة عندي قدر المستطاع (ولهذا ما كان يمكن لهذا الحب أن يدوم ما لم يظل تعيساً لأنه تحديداً لم يكن يلبي الحاجة إلى السر). بل كانت «ألبيرتين» لا تعكس صورة عالم بعيد ولكنها لا ترغب في شيء سوى أن تكون معي - كان ثمة فترات يبدو فيها الأمر حقاً على هذا النحو - مماثلة لي تماماً. «ألبيرتين» تكون صورة لما كان بالضبط خاصتي لا صورة المجهول. وحينما يولد الحب على هذا النحو من ساعة يعمرها القلق بالنسبة لشخص ما، حينما يولد من شكّنا إن كنا نستطيع الاحتفاظ به أم هو سيفلت منا فإن هذا الحب يحمل طابع هذه الثورة التي أنتجته وقلما يذكّر بما سبق أن رأيناه حتى ذاك حينما كنا نفكر

بذاك الشخص عينه. كان يمكن لانطباعاتي الأولى أمام «ألبيرتين» على شاطئ البحر أن تبقى في جزء صغير في حبي لها. والحقيقة أن هذه الانطباعات السابقة لا تشغل سوى مكان صغير في حب من هذا النوع في زخمه، في عذابه. في حاجته إلى الرقة والتجائه إلى ذكرى هادئة مهدئة نودّ أن نقيم فيها وألا نعلم شيئاً من بعد عن تلك التي نحبها حتى وإن كان ثمة أمر شنيع علينا أن نعرفه - بل وأكثر من ذلك، إن مثل هذا الحب، حتى إن لم تنظر إلا في هذه الانطباعات السابقة، مصنوع من شيء آخر تماماً! كنت أطفئ النور أحياناً قبل دخولها، فكانت تستلقي إلى جانبي في العتمة يقود خطاها ولا يكاد الضوءُ المنبعث من جمرة. وحدهما يداي، وجنتاي كانتا تتعرفانها دون أن تبصرها عيناي، وغالباً ما كان يعتريهما من أن يلقياها تغيّرت، حتى إنها ربما كانت تحس، بفضل هذا الحب الأعمى، بقسط من الحنان أوفر من المعتاد يغمرها.

كنت أنزع ثيابي وأرقد ونعاود، و«ألبيرتين» تجلس في ركن من السرير، لعبتنا أو حديثنا الذي تقطعه القبلات؛ وإننا نظل، داخل الرغبة التي تثير وحدها اهتمامنا بحياة وطباع شخص ما، شديدي الإخلاص لطبيعتنا، إن كنا في المقابل نهجر الواحد تلو الآخر الأشخاص الذين أحببناهم على التوالي، إلى حد أن جعلتني إذ رأيت نفسي ذات مرة في المرآة لحظة كنت أعانق «ألبيرتين» وأنا أدعوها «فتاتي الصغيرة»، جعلتني التعابير الحزينة الولهى التي تعلو وجهي، وهو مماثل لما لعله كان فيما مضى بالقرب من «جيلبيرت» التي لم أعد أتذكرها، ولما ربما سيكون ذات يوم بالقرب من أخرى إن انبغى أن أنسى «ألبيرتين» في يوم، جعلتني أعتقد أنني كنت، فوق حدود الاعتبارات الشخصية (إذ تقضي الغريزة بأن نعتبر أن الشخص الحالي هو وحده الحقيقي)، أقوم بمناسك عبادة مشبوبة ومؤلمة أرفعها بمثابة قربان لشباب المرأة وجمالها. ولكنما كان يمتزج بتلك الرغبة التي تهدى تمجيداً للشباب، كما بذكريات «بالبيك»، وفي الحاجة التي بي إلى الاحتفاظ بـ«ألبيرتين» على هذا النحو كل مساء بالقرب

مني، شيء ما كان غريباً حتى ذاك عن حياتي الغرامية على الأقل، إن لم يكن جديداً تماماً في حياتي. لقد كان طاقة تهدئة من نمط لم أشعر بمثله منذ العشيّات البعيدة في «كومبريه» التي كانت تقبل فيها أمي وتنحني فوق سريري لتحمل إليّ السكينة في قبلة، وكنت بالتأكيد دهشت أيما دهشة في ذلك الزمان لو قيل لي إني لست في غاية الطيبة وإني على وجه الخصوص ربما أحاول في يوم حرمان أحدهم متعة. وليس من شك أني ما كنت أعرف ذاتي حينذاك كما ينبغي، ذلك لأن متعتي بأن تكون «ألبيرتين» في بيتي بشكل دائم كانت متعة إيجابية تقل كثيراً عن المتعة التي قوامها أن أكون انتزعت من المجتمع، حيث يستطيع كلّ أن يتذوقها بدوره. الفتاة الندية التي إن كانت على أي حال لا توليني مسرة كبيرة فقد كانت تحرم منها الآخرين. ولعل الطموح والعزة كانا خلّياني غير مبالٍ. بل كنت أكثر من ذلك عاجزاً عن الشعور بالضغينة. لكن الحب الجسدي لدي كان مع ذلك بالنسبة إليّ التمتع بنصر على هذه الكثرة من المنافسين. ولن آمل البتة قولي بأنه كان تهدئة أكثر من أي شيء آخر.

وعبثاً كنت قبل عودة «ألبيرتين» قد ارتبت بها وتصورتها في غرفة «مونجوفان» فقد كنت، ما إن تجلس قبالة مقعدي بقميص الحمام أو إن كنت لبثت كما هو حالي في الأغلب مستلقياً على حضيض سريري، أودع فيها شكوكي وأسلّمها إياها كي تريحني منها. وذلك في استسلام مؤمن يؤدي صلاته. لقد استطاعت العشية بطولها، وقد تكورت بخبث فوق سريري، أن تلعب وإياي لعب هرّة كبيرة وكان وسع أنفها الوردي، وهي تقلص منه بعد في أطرافه بنظرة مغناج توليها النعومة المميزة التي لبعض أشخاص على شيء من السمنة، أن يكسبها سيماء ثائرة لاهية، وكان أمكنها أن ترسل خصلة من شعرها الطويل الأسود على وجنتها التي من شمع مورّد وأن تظهر، قد أطبقت عينيها نصف إطباقة وصالبت ذراعيها، بمظهر من يقول لي: «افعل بي ما تشاء». وحين كانت تقترب، لحظة فراقي، لتودعني فإنما كنت ألثم عذوبته التي أصبحت شبه عائلية على

جانبي جيدها المكتنز الذي ما كنت ألقاه البتة آنذاك لا على سمرة كافية ولا مُباعد المسام بما يكفي كما لو كان لهذه الصفات الصلبة صلة بشيء من الطيبة الصادقة لدى «ألبيرتين».

كانت تسألني قبل فراقي قائلة: «هل تأتي معنا في الغد أيها الخبيث الكبير؟» - «وأين تذهبون؟» - «الأمر رهن بالطقس وبك. أفتراك على الأقل كتبت شيئاً عن قريب أيها العزيز الصغير؟ لا؟ فما أكثر ما كسبت إذاً من أنك لم تجيء معنا. بالمناسبة قل لي، حينما عدت منذ قليل، تراك تعرفت وقع خطوتي وحزرت أني أنا من تجيء؟» - «بالطبع. وهل ثمة إمكان للخطأ؟ أترانا لن نتعرف بين ألف خطى «هَبّولتنا» الصغيرة؟ فلتأذن لي بنزع حذائها قبل أن تذهب للنوم فإن ذلك يوليني أعظم السرور. فما أشد لطفكِ وتورّدكِ وسط كل هذا البياض من الدانتيلا».

ذاك كان جوابي. وسوف يتعرف المرء ضمن العبارات الشهوانية عبارات أخرى كانت خاصة بأمي وبجدّتي. ذلك أني أخذت أشبه شيئاً فشيئاً ذويّ جميعهم، والدي الذي كان يبدي - بطريقة تغاير تماماً طريقتي دون شك، فإنه إن تكررت الأشياء فإنما بتغيرات كبيرة - أعظم الاهتمام بالطقس السائد. وليس والدي فحسب، بل أكثر فأكثر عمتي «ليوني». ولعل «ألبيرتين» ما كان يمكن، لولا ذلك، إلا أن تكون بالنسبة إليّ مدعاة للخروج كي لا أدعها وحدها، بعيداً عن رقابتي. عمتي «ليوني» المغلّفة بالتقى والتي لعلني كنت أقسمت أن ليس تجمعني وإياها نقطة واحدة أنا الشغوف جداً بالملذات والمختلف جداً في الظاهر عن تلك المهووسة التي لم تخبر في يوم إحداها وكانت تتلو طوال النهار سُبحتها[1]، أنا الذي كان يعاني من عجزه عن تحقيق وجود أدبي في حين كانت الشخص الوحيد في العائلة الذي ما استطاع ربما أن يدرك أن القراءة كانت أمراً مختلفاً عن تمضية الوقت واللهو، الأمر الذي كان يجعل القراءة، حتى في الزمن

---

(١) سبحة الصلاة لدى المسيحيين.

الفصحي، مسموحاً بها يوم الأحد حيث يُمنع أي شغل جديّ كيما يتقدس بالصلاة وحدها. على أن ما كان يحملني على المكوث كثيراً في سريري، مع أني كنت أجد سبباً يومياً له في وعكة خاصة، إنما كان شخصاً، لا هو «ألبيرتين» ولا هو شخص كنت أحبه، بل شخص أكثر سلطاناً عليّ من كائن محبوب، لقد كان عمتي «ليوني» وقد هاجرت إلى داخلي مستبدة حتى لتسكت أحياناً شكوك غيرتي أو على الأقل تمضي للتأكد من أنها تقوم أو لا تقوم على أساس. أكان كفاني أن أشبه إلى حد المبالغة والذي فيبلغ بي أن لا أكتفي باستشارة ميزان الضغط الجوي كحاله هو بل أضحي أنا ميزاناً حياً، وهل كان كفاني أن أترك القياد لعمتي «ليوني» لأظل أراقب الطقس، ولكن من غرفتي أو حتى من سريري؟ وها إني كذلك أتحدث الآن إلى «ألبيرتين» تارة حديث الطفل الذي سبق أن كنته في «كومبريه» وأنا أتحدث إلى أمي، وطوراً مثلما كانت جدتي تتحدث إليّ، فحين نكون جاوزنا سناً معيناً تقبل روح الطفل الذي كناه وأرواح الأموات الذين صدرنا عنهم لتلقي إلينا بملء اليدين بثرواتهم وأذِيّات سحرهم وتطالب بالمساهمة في المشاعر الجديدة التي نحسّ بها. والتي نعيد صهرها فيها، وقد طمسنا صورتها القديمة، في عملية خلق جديدة. هكذا كان كل ماضي منذ أقدم سنيّ، ومن ورائها ماضي ذويّ، يمزج بحبيّ الدنس لـ«ألبيرتين» عذوبة حنان بنويّ وأموميّ. ينبغي لنا أن نستقبل، بدءاً من ساعة معينة، سائر ذوينا الذين وفدوا من بعيد جداً وتجمعوا من حولنا.

وقبل أن تكون استجابت «ألبيرتين» لطلبي وخلعت حذاءها كنت أشق قميصها. كان النهدان الصغيران المرفوعان عالياً شديدي الاستدارة حتى ليبدو أقل ما يبدو أنهما يؤلفان جزءاً لا يتجزأ من جسدها وأكثره أنهما نضجا فيه على غرار ثمرتين: وكان بطنها (إذ يخفي المكان الذي يقبح لدى الرجل وكأنما جراء مخلب تثبيت ظل منشياً في تمثال نُزع من مكانه) ينغلق في التقاء الفخذين بفلقتين يبدو خط انحناءتهما ناعساً مريحاً محبسياً كما هو خط انحناءة الأفق بعد أن توارت الشمس.

فيا لوقفات «الرجل» و«المرأة» العظيمة التي يحاول الالتقاء فيها، ببراءة الأيام الأولى واتضاع الطين، ما فَصَلتْه عمليةُ الخلق، وحيث تبدو حواء ذاهلة طائعة أمام الرجل الذي تستفيق إلى جانبه كحاله هو، ولا يزال وحيداً، أمام الله الذي كوّنه، وكانت «ألبيرتين» تعقد ذراعيها خلف شعرها الأسود والخصر منها منفخ والساق متهاوية كانثناءة عنق ثم يتطاول وينحني من جديد ليرتد على ذاته. لم يكن ثمة، حينما تكون على جنبها تماماً، سوى جانب معين من وجهها (المحبب جداً والجميل جداً مواجهة) ما كنت أطيق احتماله وهو معقوف كما في بعض رسوم «ليوناردو» الكاريكاتورية، ويبدو كأنما يكشف عن الخبث والجشع في الكسب ومكر جاسوسة لعلني كنت أشمئز لوجودها في بيتي وتبدو بهذه الصور الجانبية كمن نزع قناعها. فكنت آخذ في الحال بين يدي وجه «ألبيرتين» وأعيده في مواجهتي.

كانت صديقتي تقول لي وهي تعود فترتدي قميصها: «كن لطيفاً وعدني بأنك ستعمل إن لم تجيء في الغد». - «أجل، ولكن لا تلبسي مئزر الحمام بعد».

وكان يبلغ بي في النهاية أن أغفو إلى جانبها، والغرفة ابتردت ولا بد من الحطب. فكنت أحاول العثور على الجرس خلف ظهري ولا أفلح وأنا أتلمس سائر القضبان النحاسية التي لم تكن تلك التي يتدلى بينها، وأقول لـ«ألبيرتين» التي قفزت من السرير كي لا تشاهدنا «فرانسواز» الواحد إلى جانب الآخر: «لا، عودي فاصعدي مقدار ثانية، إني لا أستطيع العثور على الجرس».

إنها لحظات حلوة مرحة بريئة في ظاهرها ولكنما تتجمع فيها إمكانية الكارثة، الأمر الذي يجعل الحياة الغرامية من أكثرها جميعاً تناقضاً فيها ينهمر مطر الكبريت والزفت اللامتوقع في أعقاب اللحظات الزاهية كأكثر ما تكون، كما نعود بعدها، دون أن تحالفنا الشجاعة في استخلاص العبرة من المصيبة، فنبني في الحال على سفوح فوهة البركان التي لا يمكن أن

يطلع منها سوى الكارثة. كان لدي لا مبالاة الذين يظنون سعادتهم دائمة. ولأن تلك الحلاوة كانت بالضبط ضرورية لولادة الألم - وسوف تعود على أية حال لتسكينه بين حين وحين - يستطيع البشر أن يكونوا صادقين مع الغير، بل حتى مع أنفسهم حينما يفاخرون بما تبدي لهم امرأة من طيبة على الرغم مما يسري باستمرار داخل علاقتهم، إنْ اعتبرنا كل شيء، وذلك على نحو سرّي ولا يعترف به للآخرين أو هو ينكشف عن غير قصد بأسئلة وتحقيقات، ما يسري من قلق مؤلم. بيد أنه ما كان لهذا القلق أن يرى النور لولا الحلاوة التي سبقته. وإن الحلاوة المتقطعة لتبدو حتى فيما بعد ضرورية لتجعل العذاب محتملاً وتحول دون القطيعات، كما أن التستر على الوضع الجهنمي الخفي الذي يشكله العيش المشترك مع هذه المرأة إلى حد التباهي بأنه يزعم أنها حلوة إنما يعبّر عن وجهة نظر صحيحة، عن علاقة عامة بين المعلول والعلة، عن واحدة من الصيغ التي يُضْحي بموجبها توليد الألم ممكناً.

لم أعد أستغرب أن تكون «ألبيرتين» هنا وأنه يجدر بها أن لا تخرج في الغد إلا برفقتي أو بحماية «أندريه». كانت تلك العادات في العيش المشترك، تلك الخطوط العريضة التي كانت تحدد حياتي ولا يستطيع أحد العبور إلى داخلها فيما عدا «ألبيرتين»، وكذلك (في الخطة المستقبلية. وهي بعد مجهولة لدي، لحياتي المقبلة، على غرار الخطة التي يضعها مهندس معماري للأبنية التي لن تشاد إلا بعد ذلك بكثير)الخطوط البعيدة الموازية لتلك والأوسع منها والتي كانت ترسُم في داخلي، وكأنما في بيت ريفي منعزل، الصيغ القاسية بعض الشيء والرتيبة لغرامياتي المستقبلية، كانت بالحقيقة قد خُطت في تلك الليلة في «بالبيك» التي أردت فيها، بعدما كشفت لي «ألبيرتين» في الحافلة الصغيرة عمن رباها، أن أضعها مهما كلف الثمن في مأمن من بعض التأثيرات وأن أحول دون أن تكون بعيدة عن عيني على مدى بضعة أيام. ثم إن الأيام أعقبت الأيام وأصبحت تلك العادات آلية، ولكن، على غرار تلك، الطقوس التي يحاول «التاريخ»

أن يجد دلالتها، ربما وسعني أن أقول، (وما وددت أن أقول)، لمن سألني عما تعنيه حياة العزلة هذه التي كنت أسجن نفسي فيها حتى ليبلغ بي أ

لا أذهب إلى المسرح من بعد. إن منشأها قلقي ذات مساء وحاجتي إلى أن أبرهن لذاتي في الأيام التي ستعقبه أن التي عرفت عن طفولتها المحزنة لن تتوافر لها الإمكانية، لو أنها شاءت ذلك، في التعرّض للإغراءات نفسها. لم أعد أفكر إلا فيما ندر بتلك الإمكانات، إلا أنها لا بد مع ذلك ظلت حاضرة في وجداني حضوراً مبهماً. وأن عملية القضاء عليها - أو محاولة ذلك - يوماً فيوماً كانت دونما شك السبب الذي من أجله كان يحلو لي أكثر ما يحلو أن ألثم تلكما الوجنتين اللتين ما كانتا أجمل من الكثير غيرها. هناك خلف كل حلاوة جسدية على شيء من العمق خطر مستدام.

*

كنت وعدت «ألبيرتين» أني سوف أباشر العمل إن لم أخرج معها. ولكني في الغد، وكأنما استغل المنزل نومنا فارتحل بصورة عجائبية، كنت أستيقظ في طقس مختلف ومناخ غير المناخ. وليس يعمل المرء حينما يحلّ في بلد جديد ينبغي له التأقلم مع شروطه. وكان كل يوم بالنسبة إليّ بلداً مختلفاً. وخمولي ذاته كيف عساني عرفته خلف الأشكال الجديدة التي كان يرتديها؟ فتارة يقولون في الأيام التي ساء الطقس فيها إلى أبعد الحدود، إن لمحض الإقامة في البيت الواقع وسط مطر متساوي الوقع لا ينقطع انسياب العذوبة والسكون المهدئ والإثارة التي للإبحار. وفي مرة أخرى. وفي يوم صافٍ، كان البقاء في سريري ولا حراك بي إنما يعني الإفساح للأخيلة لتدور من حولي وكأنما حول جذع شجرة. وفي مرات غيرها أيضاً، ولدى أول رنّات أجراس تنطلق من دير مجاور كنت قد تبينت واحداً من تلك النهارات العاصفة المشوشة اللذيذة، وهي نادرة ندرة المتعبدات المبكرات وتكاد لا تبيض السماء القاتمة من زخات بردها المترددة التي تذيبها الريح الدافئة وتذريها، وفيها تدحرج السطوح

التي بللتها همرة منقطعة تجففها هبة ريح أو شعاع شمس، تدحرج قطرة مطر تهدل في انزلاقها، وهي، بانتظار أن تعيد الريح دورتها، تصقل ألواحها الاردوازية المتغيرة الألوان تحت أشعة الشمس المؤقتة التي تقزّحها؛ واحداً من تلك النهارات التي تفيض بالكثير الكثير من تقلبات الطقس والأعراض الجوية والعواصف إلى حد أن الكسلان لا يعتقد أنه ضيّعها لأنه صرف اهتمامه إلى النشاط الذي بذله عوضاً عنه الجو المحيط وكأنما ينشط بطريقة ما مكانه؛ النهارات الشبيهة بفترات الاصطخاب أو الحرب التي لا تبدو فارغة في نظر التلميذ الذي هجر صفّه لأنه يتوهم في جوار القصر العدلي أو في قراءة الصحف أنه واجد في الأحداث التي وقعت، بدلاً من العمل الذي لم ينجزه، مكسباً لفكره وعذراً لبطالته؛ هذه النهارات أخيراً التي نستطيع أن نشبّه بها تلك التي يجري فيها في بحر حياتنا أزمة استثنائية يعتقد ذاك الذي لم يفعل شيئاً في يوم أنه سيستخلص منها، إن لقيت حلاً سعيداً، عادات في الكدّ والعمل: إنه على سبيل المثال المصباح الذي يخرج فيه إلى مبارزة ستجري ضمن شروط تكتنفها مخاطر خاصة؛ حينئذ يتبدى له فجأة ثمن الحياة في اللحظة التي تزمع ربما أن تؤخذ منه، حياة كان يمكن أن يفيد منها في مباشرة عمل أو تذوق متع فحسب، ولم يفلح في التمتع بشيء منها. يقول في نفسه: «إن اتفق لي أن لا أقتل فكم لعلّي أسارع إلى مباشرة العمل في الحال. كم سأستمتع بذلك!» لقد اكتسبت الحياة فجأة في نظره قيمة أكثر لأنه يضع في الحياة كل ما يبدو أنها تستطيع تقديمه وليس القليل الذي يحملها على تقديمه عادة. وإنه يراها بما يوافق رغبته وليس مثلما علمته تجربته أنه يستطيع أن يحيلها، يعني على قدر كبير من الضحالة. لقد امتلأت تواً بالمشاغل والأسفار والنزهات في الجبال وبسائر الأشياء التي يقول إن النتيجة المشؤومة لهذه المبارزة يمكن أن تجعلها مستحيلة دون أن يفكر أن تلك كانت حالها قبل أن يرد ذكر المبارزة بسبب عادات سيئة ربما استمرت حتى دون مبارزة. ويعود إلى بيته حتى دون أن يكون جُرِح.

ولكنه يلقى العقبات نفسها في وجه المتع والرحلات والأسفار وكل ما خشي للحظة أن يجرده منه الموت إلى الأبد؛ والحياة كافية لذلك. فأما بشأن العمل - والظروف الاستثنائية إنما ينجم عنها مضاعفة ما كان في السابق لدى الإنسان، الجِدّ لدى المُجِدّ ولدى البطال الكسل - فإنه يذهب في إجازة.

كنت أفعل مثله ومثلما فعلت على الدوام منذ قراري القديم بالشروع في الكتابة والذي سبق أن اتخذته في غابر الزمان ولكنه يبدو لي كأنما يعود إلى أمس البارحة لأنني اعتبرت الأيام كلها الواحد بعد الآخر، وكأنها لم تكن. كنت أفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى هذا الأخير فأدع لوابل أمطاره ولانقشاعاته أن تمر دون أن أفعل شيئاً وأعقد العزم على مباشرة العمل في الغد. ولكني لا أظل فيه الشخص نفسه تحت سماء خالية من السحب؛ فلم يكن صوت الأجراس المذهب يحتوي، كما هو حال العسل، ضياءً فحسب، بل حس الضياء (وكذلك طعم المربيات التفه لأنه كثيراً ما تخلّف في «كومبريه» مثل زرقطة على طاولتنا بعدما رفعوا الطعام عنها). ففي هذا اليوم الذي تسطع شمسه كان المكوث طوال النهار والعينان مغمضتان أمراً مسموحاً به ومألوفاً وصحياً وممتعاً وموسمياً، مثل الإبقاء على مغالق النوافذ مرخية لمكافحة الحر. في مثل هذا الطقس كنت أستمع في بداية إقامتي الثانية في «بالبيك» إلى كمنجات الأوركسترا بين دفقات المد الضاربة إلى الزرقة. وكم كان مقدار امتلاكي لـ«ألبيرتين» اليوم أكبر! كان ثمة أيام تُلقي فيها رنة جرس يدق الساعة، تُلقي على كرة ترجمة موسيقية لسحر المطر أو سحر الشمس. حتى إني كنت أقول في نفسي في تلك اللحظة، والعينان مغمضتان في سريري إن كل شيء يمكن نقله من مستوى إلى آخر وأن عالماً من السمعيات فحسب يمكن أن يكون بمثل تنوّع الآخر. كنت إذ أعود القهقرى منتقلاً من يوم إلى يوم في الزمان بخطى متكاسلة وكأنما على متن قارب، وإذ أشاهد ذكريات جديدة مسحورة تطلع أمامي على الدوام، وما كنت أنتقيها وكانت للحظة خلت خافية على عيني

وتقدمها لي ذاكراتي الواحدة تلو الأخرى دون أن يمكنني اختبارها، كنت أوالي على هذه المساحات المستوية نزهتي الكسلى تحت الشمس.

لم تكن تلك الحفلات الموسيقية الصباحية في «بالبيك» قديمة. وكنت مع ذلك في هذه الفترة القريبة نسبياً قليل الاهتمام بـ«ألبيرتين»، بل ما كنت حتى عرفت وجودها في «بالبيك» في أول أيام وصولنا. فمن ذا إذاً أعلمني به؟ آه! أجل، «إيميه». كان الطقس جميلاً، مشمساً كهذا. يا لـ«إيميه» الطيب! لقد سرّه أن يعود فيلقاني. ولكنه لا يحب «ألبيرتين». وليس يستطيع كل الناس أن يحبوها. أجل، هو من نقل إليّ أنها كانت في «بالبيك» فكيف كان يعلم ذلك إذاً؟ آه! لقد سبق أن التقاها ورأى أنها تفتقر إلى اللياقة. وينفجر فكري في تلك اللحظة، وهو يتصدى لرواية «إيميه» من جانب غير الجانب الذي أبرزه لي أن روى روايته، ينفجر فجأة وهو كان حتى ذاك أبحر باسم الثغر في تلك المياه السعيدة، كما لو أنه اصطدم بلغم خفي خطِر وُضعَ بصورة ماكرة في هذه النقطة من ذاكرتي. لقد قال لي إنه سبق أن التقاها ورأى أنها تفتقر إلى اللياقة. فما الذي قصد إليه بقوله إنها تفتقر إلى اللياقة؟ لقد فهمت من ذلك أنها عامية لأنني صرّحت بغية نقض ذلك مسبقاً أنها كانت على لباقة كبيرة. ولكن لا، ربما ابتغى أن يقول إنها من النوع «العاموري»[1]. لقد كانت برفقة صديقة وربما كانتا تتخاصران وتنظران إلى نساء أخريات وأنهما بالفعل من «نوع لم ألحظه البتة لدى «ألبيرتين» في حضرتي. فمن كانت الصديقة؟ وأين التقاها «إيميه»، التقى «ألبيرتين» المقيتة تلك؟ كنت أحاول أن أتذكر بالضبط ما قاله لي «إيميه» لأتبين إن كان يمكن أن يكون ذا صلة بما كنت أتصوره أو هو ابتغى التكلم عن تصرفات عامية فحسب. ولكن عبثاً كنت أطرح السؤال على ذاتي فالشخص الذي يطرح السؤال والشخص الذي يسعه أن يقدم الذكرى ما كانا للأسف سوى شخص واحد هو أنا كان يزدوج مؤقتاً ولكن دون أن

---

(١) من جماعة مدينة «عامورة» ويعني سحاقية.

يضيف شيئاً إلى ذاته. عبثاً كنت أسأل فما من مجيب إلا أنا فلا أضيف إلى ما أعلم شيئاً. ولم أعد أفكّر بالآنسة «فانتوي». كانت نوبة الغيرة التي أعاني منها، وقد نجمت عن شك جديد، كانت جديدة بدورها أو هي كانت بالأحرى امتداداً واتساعاً لذلك الشك. كانت تجري على المسرح نفسه، وما كان «مونجوفان» من بعد بل الطريق الذي التقى فيه «إيميه» «ألبيرتين»؛ أما موضوعاته فبضع صديقات يمكن لهذه أو تلك أن تكون هي من رافقت «ألبيرتين» في ذلك اليوم. ربما كانت واحدة باسم «إليزابيث» أو ربما تلكما الفتاتين اللتين نظرت إليهما «ألبيرتين» في الكازينو عبر المرآة حينما كانت تبدو وكأنها لا تراهما. كانت دونما شك على علاقة بهما، كما من جانب آخر بـ«إيستير» ابنة عم «بلوك». ولعل مثل تلك العلاقات، لو أن آخر كشفها لي، كانت كافية لتوردني نصف حتفي، لكنما كان همي، وأنا من كان يتخيلها، أن أضيف إليها ما يكفي من الشك بغية تخفيف الألم. فإنه يتأتى لك أن تبتلع يومياً، على شكل ارتيابات، كميات هائلة من الفكرة نفسها التي قوامها أنك خُدعت، فيما يمكن لكمية هينة جداً منها، إما بثتها لدغة كلمة جارحة، أن تكون قاتلة. ولهذا السبب دون شك، ومن جراء أحد مشتقات غريزة البقاء، لا يتردد الغيران ذاته في ابتداع شكوك مريعة في معرض وقائع بريئة بشرط أن يمتنع عن الإقرار بالواقع لدى أول برهان يؤتى به. والحب على أي حال مرض لا شفاء منه كتلك الاستهيامات التي لا تدع لك الرثية فيها شيئاً من الراحة إلا لتفسح في المكان لصنوف من الشقيقة صرعية الشكل. فإن هدأ شك الغيرة كنت أحقد على «ألبيرتين» لأنها لم تكن رفيقة بي وربما لكونها سخرت مني مع «أندريه». وكنت أفكر بهلع في الفكرة التي لا بد تكونت لديها إن كانت «أندريه» قد أعادت عليها كل أحاديثنا، وكان المستقبل يتبدى لي فظيعاً. وما كانت تلك الغموم تفارقني إلا إذا قذف بي ارتياب غيرة جديدة في تحريات أخرى أو إن جعلتُ صنوف وداد «ألبيرتين»، إن جعلت سعادتي على العكس غير ذات شأن في نظري. فمن عساها كانت تلك الفتاة؟ لا

بد أن أكتب إلى «إيميه»، أن أحاول التقاءه ثم أدقق في أقواله بالتحدث إلى «ألبيرتين» وبحملها على الإقرار. وبانتظار ذلك، وإذ خطر لي أنها لا بد كانت ابنة عم «بلوك»، سألت هذا الأخير، الذي لم يفهم البتة هدفي من السؤال، أن يريني فحسب صورة لها أو أكثر من ذلك أن ييسر لي الالتقاء بها لدى الحاجة.

كم شخص ومدينة ودرب تجعلنا الغيرة نتلهف لمعرفتها؛ إنها عطش إلى المعرفة نملك بفضله في نهاية المطاف وعلى التوالي كل الأفكار الممكنة حول نقاط معزول بعضها عن بعض، فيما عدا الفكرة التي نرغب فيها. وليس يعمل المرء قطّ أن لن يتولد شك ما فإنه يتذكر فجأة جملة لم تكن واضحة وعذراً لم يكن تقديمه خالي الغرض. ومع أننا لم نلتق الشخص ثانية، لكن ثمة غيرة بعد الأوان لا تنشأ إلا بعدما نفارقه، غيرة الأدراج. ربما كانت العادة التي سبق أن اتخذتها في أن أستبقي في أعماقي بعض الرغبات، الرغبة في فتاة من المجتمع الراقي من مثل اللائي كنت أبصرهن من نافذتي يخطرن وتتبعهن معلمتهن، وعلى وجه الخصوص في تلك التي حدثني عنها «سان لو»، وكانت تمضي إلى بيوت الدعارة، والرغبة في وصيفات جميلات وعلى وجه الخصوص وصيفة السيدة «بوتبوس»، والرغبة في الذهاب إلى الريف في أول الربيع لأشهد شجيرات الزعرور وأشجار التفاح المزهرة والعواطف، وتوقي إلى البندقية وتوقي إلى مباشرة العمل، والرغبة في أن أعيش حياة سائر الناس، ربما تلك العادة التي قوامها الاحتفاظ في داخلي بكل هذه الرغبات دون إشباع مكتفياً بالوعد الذي قطعته لنفسي بأن لا يفوتني إشباعها ذات يوم، ربما أصبحت تلك العادة القديمة العهد في التأجيل الدائم، وما كان السيد «دو شارلوس» يندد به تحت عنوان «الإرجائية»، شائعة لدي إلى حد كانت تستولي معه على شكوك غيرتي أيضاً، وحملتني، فيما تدفعني إلى أن أسجل ذهنياً أنه لن يفوتني ذات يوم أن أطلب من «ألبيرتين» تفسيراً حول الفتاة (وربما الفتيات، فقد كان هذا الجزء من القصة مبهماً ممحياً، يعني

لا يمكن فك رموزه، في ذاكرتي) التي، أو اللواتي صادفهنّ «إيميه» معها، على تأجيل ذاك التفسير، ولعلي لن أكلم صديقتي بهذا الأمر في هذا المساء كي لا أجازف بالظهور أمامها مظهر الغيران فأغضبها. لكني سارعت مع ذلك، بعدما أرسل إليّ «بلوك» في الغد صورة ابنة عمه «إستير» إلى إيصالها إلى «إيميه». وتذكرت في الدقيقة عينها أن «ألبيرتين» سبق أن حجبت عني في الصباح متعة كان يمكن بالفعل أن تتعبها. أفكان ذلك لتخصّ بها آخر سواي، ربما بعد الظهر هذا؟ ومن ذا يكون؟ هكذا تبدو الغيرة لا نهاية لها، فإنه يتفق، حتى إن لم يعد الشخص المحبوب، وقد مات على سبيل المثال، قادراً على بعثها من جراء أفعاله، أن تتصرف بعض الذكريات في أعقاب أي حدث، تصرفاً مفاجئاً في ذاكرتنا وكأنما هي أحداث بدورها، ذكريات لم نكن سلّطنا عليها الضوء حتى ذاك وبدت لنا عديمة الشأن ويكفيها تفكيرنا الخاص فيها دون أي واقعة خارجية كي تزودنا بمعنى جديد ومخيف. ولسنا بحاجة إلى أن نكون اثنين ويكفي أن نكون نعمل الفكر وحدنا داخل غرفتنا كي ما تقع خيانات جديدة لعشيقتنا وإن كانت ميتة. لذلك ينبغي ألا نقصر خشيتنا في نطاق الحبّ، كما في نطاق الحياة المعتادة، على المستقبل فقط بل حتى على الماضي الذي نُبلَغه بعد الأوان فحسب، بل كذلك الماضي الذي احتفظنا به منذ فترة طويلة في داخلنا نتعلم فجأة كيف نقرأه.

وما همّ، لقد كنت سعيداً جداً في أواخر بعد الظهر أن لا تتأخر الساعة التي سيسعني فيها أن أسأل حضور «ألبيرتين» السكينةَ التي أحتاجها. إلا أن العشية التي أقبلت كانت لسوء الحظ واحدة من تلك التي لم تحمل إليّ فيها تلك السكينة، والتي لن تهدئني فيها القبلة التي ستمنحني إياها «ألبيرتين» وهي تفارقني، قبلة شديدة الاختلاف عن القبلة المعتادة، أكثر مما هي بالأمس حال قبلة والدتي حينما كانت غاضبة حين لا أجرؤ على استرجاعها ولكني أحس أنني لا أقوى على النوم. كانت تلك العشيات الآن هي تلك التي أعدّت فيها «ألبيرتين» لمشروع في الغد لا تودّ

أن أعرفه. ولو أنها استودعتني سرّه لكنت أبديت في سبيل تأمين إنجازه حماسة ما كان استطاع أحد أن يلهمني إياها بقدر ما تفعل «ألبيرتين». ولكنها لم تكن تقول لي شيئاً وما كان بها حاجة على أية حال لأن تقول شيئاً: فقد كنت شاهدت فور عودتها، وعلى باب غرفتي، وإذ لا تزال تعتمر قبعتها أو قلنسوتها، شاهدت الشوق المجهول الجامح العنيد الذي لا يقهر. وكان ذلك في الغالب في العشيات التي انتظرت فيها عودتها وبي من الأفكار أرقها وأعتزم فيها أن أعانقها بحرارة وبأعظم قدر من الحنان. صنوف سوء التفاهم تلك من مثل ما اتفق لي كثيراً مع ذويّ الذين كنت أجدهم فاترين أو حانقين أن أسارع بالقرب منهم وأنا أفيض تحناناً. ما كانت للأسف شيئاً في مقابل تلك التي تقوم بين عشيقين. فالعذاب هنا يرتدي طابعاً أقل سطحية وهو أعسر احتمالاً ومركزه طبقة في القلب أعمق. لكن «ألبيرتين» في ذاك المساء اضطرت أن تقول لي كلمة عن المشروع الذي خططت له، وفهمت في الحال أنها تعتزم الذهاب في الغد لتقوم بزيارة للسيدة «فيردوران»، ولم تكن الزيارة تزعجني في شيء. ولكن الأمر بالتأكيد توخّي لقاء، أي لقاء، هناك، لتعد فيها لمتعة ما. ما كانت لولا ذاك لتحرص كل هذا الحرص على تلك الزيارة. أقصد أن أقول إنها ما كانت لتكرر لي أنها غير حريصة على ذلك. وكنت تبعت في حياتي مسيرة معاكسة لمسيرة الشعوب التي لا تستخدم الكتابة الصوتية إلا بعد اعتبارها الحروف مجرد متتالية رموز؛ فقد بلغ بي، أنا الذي لم يبحث على مدى سنين كثيرة عن حياة الناس وفكرهم الحقيقيين إلا في البيان المباشر الذي يزودونني به عنهما طوعاً، بلغ بي، والذنب ذنبهم، أن لا أعلق من بعد أهمية، على العكس، إلا على الشهادات التي ليست تعبيراً عن الحقيقة عقلانياً وتحليلياً: والأقوال نفسها ما كانت تزودني بمعلومات إلا بشرط أن تفسر على نحو ما تفسر به دفقة الدم في وجه شخص يداخله الاضطراب، وكذلك على نحو ما يفسر به صمت مفاجئ في هذا الظرف (الذي استخدمه على سبيل المثال السيد «دو كامبرمير» حينما كان يظن

أنني «كاتب» فاستدار صوبي، وهو بعد لم يكلمني، يريد أن يحكي لي عن زيارة سبق أن قام بها لآل «فيردوران»، وقال لي: «كان ثمة بالضبط «دو بوريللي») الذي انبثق من ثوران عام جراء تقارب غير مقصود وخطر أحياناً بين فكرتين لم يكن المحدث بعيد عنهما وكان يسعني استخلاصهما منه بطريقة أو بأخرى من التحليل أو الحل الكهربائي المناسب، هذا الظرف كان يفيدني أكثر من خطاب. وكانت «ألبيرتين» تدع أحياناً في سياق أقوالها هذا أو ذاك من الأخلاط الثمينة التي كنت أسارع إلى «معالجتها» لأحيلها أفكاراً واضحة.

وإنه على أية حال لمن أكثر الأمور قسوة على المحب أن الحقيقة، إن كانت الوقائع الخاصة - التي قد تكشفها فقط التجربة والجاسوسية من بين الكثير من الإنجازات الممكنة - عسيرة الاكتشاف إلى هذا الحد إنما يتيسر إلى حد بعيد في المقابل كشفها أو توقعها فحسب، فكثيراً ما رأيتها في «بالبيك» تسمّر على فتيات يخطرن في الطريق نظرة مفاجئة متطاولة شبيهة بمداعبة باليد تقول لي بعدها، إن كنت أعرفهن: «هل تأتي بهن؟ فإني وددت أن أشتُمهن». ومنذ بعض الوقت، منذ أن، نفذت إلى أعماقي دون شك، لم يعد ثمة أي سؤال لدعوة أحد، لم تعد كلمة ولا حتى صرف نظرات هي الآن لا غرض لها وصامتة، وكان مع الهيئة الساهية الفارغة التي ترافقها، كشافاً مثلما بالأمس برق مغناطيسها. على أنه كان يستحيل عليّ أن أنحي عليها باللائمة أو أن أطرح عليها أسئلة بصدد أمور لعلها كانت أعلنت أنها زهيدة جداً ولا شأن لها على الإطلاق وقد أستبقيتها للاستمتاع «بالبحث عن أقل الأخطاء». من الصعب أن نقول: «لماذا نظرتِ إلى عابرة السبيل هذه؟ لا بل «لماذا لم تنظري إليها؟» مع أني كنت أعرف تماماً أو كنت عرفت على الأقل لو لم أشأ أن أصدق توكيدات «ألبيرتين» أكثر من سائر الأمور الزهيدة المتضمنة والمثبتة فيها وهذا التناقض أو ذاك في الأقوال، تناقض ما كنت أتبينه في الغالب إلا بعد فترة طويلة من فراقي لها. وكان يعذبني طوال الليل ولا أجرؤ من بعد على

التحدث عنه ثانية، ولكنه ما كان يقلل لذلك من شرف زياراته الدورية لذاكرتي بين الحين والحين. كنت في الغالب أستطيع، في ما يخص هذه النظرات البسيطة المختلسة المشاح بها على شاطئ «بالبيك» أو في شوارع باريس، أن أتساءل إن كان الشخص الذي يبعثها ليس مجرد موضوع رغبات، إن كان يمر فحسب، بل إحدى المعارف القدامى أو فتاة حدثوها عنها فقط وكنت أذهل، حين يبلغني الأمر، أن يكون وجّه الحديث إليها لفرط ما كانت خارج نطاق معارف «ألبيرتين» المحتملين تخميناً. لكن «عامورة» الحديثة «بزل» (Puzzle) مؤلف من قطع تأتيك من حيث أقل انتظارك، من ذلك أني شهدت ذات مرة في «ريفبيل» حفل عشاء كبير أعرف مصادفة بالاسم على الأقل مدعواته العشر، وهن مختلفات ما أمكن الاختلاف ومتلاقيات مع ذلك تماماً إلى حد أني لم أشهد قط عشاء متجانساً بهذا القدر ومتعدد العناصر إلى هذا الحد.

لعل «ألبيرتين»، إن عدنا إلى عابرات السبيل الشابات، ما كانت نظرت في يوم إلى سيدة مسنة أو شيخ عجوز بهذا القدر من التحديق أو من التحفظ على العكس وكأنها لا تبصر. إن الأزواج المخدوعين الذين لا يعلمون شيئاً إنما يعرفون مع ذلك كل شيء، ولكن لا بد من ملف أوفر توثيقاً على الصعيد المادي لنبني عليه فصلاً من فصول الغيرة. ولئن أعانتنا الغيرة على أية حال على اكتشاف ميل إلى الكذب لدى المرأة التي نحبها فإنها تضاعف مئة مرة هذا الميل بعدما تكتشف المرأة أننا غيارى. إنها تكذب (بمقادير لم يسبق أن كذبتنا بها في يوم) إما إشفاقاً أو خشية أو تهرباً غريزياً في هروب يتوازى وتحرياتنا. ثمة بالتأكيد صنوف من الحب طرحت فيها امرأة طائشة نفسها وكأنها الفضيلة في عيني الرجل الذي يحبها. ولكن كم ثمة أخرى غيرها تتضمن فترتين متعاكستين بالتمام؛ في الفترة الأولى تتحدث المرأة بسهولة تقريباً، مع شيء من التلطيف البسيط، عن ميلها إلى المتعة وعن الحياة الغرامية التي وفرها لها، هذه الأمور جميعاً التي ستنكرها فيما بعد بأقصى الشدة أمام الرجل

نفسه بعدما أحست أنه غيران يترصدها. ويبلغ به أن يتحسر على زمن تلك المسارات الأولى التي تعذبه ذكراها مع ذلك. ولو أسرت المرأة أيضاً إليه بما كان من ذلك القبيل فسوف توفر له من تلقاء ذاتها تقريباً سرّ الزلات الذي يتعقبها كل يوم دون جدوى. وبعد، فعلى أي تسليم كان دلّ ذلك، وأية ثقة وأي وداد؛ فإن هي لا تستطيع العيش دون أن تخدعه، فإنها ستخدعه على الأقل كصديقة وهي تروي له عن متعها وتشركه فيها. وإنه ليتأسف على مثل تلك الحياة التي كان يتراءى له أن بدايات حبه كانت ترسم خطوطها الأولى، وجعلها التالي منه مستحيلة إذ صنع من ذلك الحب شيئاً يقطر ألماً مبرحاً وسوف يجعل الهجر أمراً لا مفرّ منه أو مستحيلاً بحسب الحالات.

كان أسلوب الكتابة الذي أكشف فيه كذبات «ألبيرتين» يحتاج فقط، دون أن يكون مرمزاً، إلى قراءة بالمقلوب. من ذلك أنها ألقت إلي هذا المساء بلهجة لا مبالية بالرسالة التالية ابتغاء أن تمر دون أن تثير الانتباه تقريباً: «يحتمل أن أذهب غداً إلى منزل آل «فيردوران»، ولست أعلم البتة إن كنت سأذهب وكدت لا أرغب في ذلك». وهي جناس تصحيف صبياني للتصريح التالي: «سأذهب في غد إلى منزل آل «فيردوران». والأمر أكيد بالتمام فإني أوليه أهمية قصوى». فقد كان ذاك التردد الظاهر يعني عزماً قاطعاً، وكان هدفه التقليل من أهمية الزيارة فيما تعلن لي عنها. كانت «ألبيرتين» تستخدم دوماً اللهجة التشكيكية للقرارات التي لا رجعة عنها. ولم يكن قراري أقل حزماً؛ فسوف أتدبر أمري كي لا تتم هذه الزيارة للسيدة «فيردوران». فليست الغيرة في الغالب سوى حاجة حائرة إلى الاستبداد مطبقة على أمور العشق. وكنت دونما شك ورثت عن والدي تلك الرغبة المفاجئة الاعتباطية في تهديد أكثر من أحبهم من الناس في الآمال التي يهدهدون النفس بها بطمأنينة أبغي أن تبدو لهم خادعة؛ فحينما كنت أتبين أن «ألبيرتين» قد دبّرت، على غير علم مني، وهي تخفي عني مقصدها، خطة طلعة لعلي كنت فعلت أي شيء لأزيد من سهولتها عليها

وإمتاعها لها لو أنها أسرّت إلي بالأمر، كنت أقول غير مبالٍ وكيما ترتعد فرائصها إني عازم على الخروج في ذلك اليوم.

وطفقت أقترح على «ألبيرتين» مطارح نزهات أخرى كانت جعلت زيارة آل «فيردوران» مستحيلة، وذلك بعبارات تتسم بلامبالاة أتصنّعها محاولاً بها إخفاء ثورة أعصابي. ولكنها كانت قد كشفتها، فقد كانت تلتقي لديها بالقوة الكهربائية المنبعثة من إرادة مضادة تدفع بها بقوة وأبصر في عيني «ألبيرتين» تطاير شررها. وماذا يجدي على أي حال التمسك بما كانت تقوله الحدقتان في تلك الفترة؟ وكيف لم ألاحظ منذ وقت طويل أن عيني «ألبيرتين» كانتا تنتميان إلى أسرة تلك العيون التي تبدو (حتى لدى شخص ضحل السوية) وكأنما جعلت من عدة قطع بسبب كل الأمكنة التي يبغي الشخص أن يكون فيها - وأن يخفي أنه يبغي أن يكون فيها - في ذلك اليوم؟ عينان - جامدتان مستسلمتان كذباً على الدوام - ولكنهما ديناميكيتان يمكن قياسهما بالأمتار أو الكيلومترات الواجب اجتيازها للوصول إلى الموعد المبتغى، المبتغى بعناد شديد، عينان هما حتى أقل ابتساماً للمتعة التي تغريهما مما يلفهما الحزن ووهن العزيمة من صعوبة ربما تعترض سبيلهما للذهاب إلى الموعد. هؤلاء الأشخاص هم، حتى بين يديك، كائنات هروب. ولا بد كيما ندرك الانفعالات التي يورثونها. ولا يورثها آخرون وإن كانوا أجمل منهم. لا بد أن نحسب أنهم غير جامدين، بل هم متحركون، وأن نضيف إلى شخصيتهم رمزاً يقابل ما هو الرمز الذي يعني السرعة في الفيزياء.

فإن أفسدتَ عليهم نهارهم باحوا لك بالمتعة التي كانوا كتموها عنك: «كم كنت أودّ الذهاب لتناول العصرونية في الساعة الخامسة مع فلان من الناس أحبه!» ولكن إن أفلحتَ بعد ستة أشهر في معرفة الشخص المعني فسوف تعلم أن الفتاة التي أفسدت عليها مقاصدها والتي أقرّت لك، وقد وقعت في الفخ، أقرّت بغية أن تدعها وشأنها بالعصرونية التي كانت تتناولها بصحبة شخص حبيب كل يوم في الساعة التي لا تشاهدها فيها،

سوف تعلم أن ذاك الشخص لم يستقبلها في يوم وأنهما لم يتناولا في يوم طعام العصرونية سوية، إذ تقول الفتاة إنها مشغولة جداً وإنك بالضبط من يشغلها.

وهكذا فالشخص الذي أقرّت لك أنها تزمع تناول العصرونية برفقته، والذي رجتك أن تفسح لها في تناول العصرونية وإياه، ذاك الشخص، هو سبب جرى الكشف عنه للضرورة، لم يكن هي بل كان آخر غيرها، وكان الأمر كذلك أمراً آخر وأي آخر غيرها؟ لكن العينين المجزأتين البعيدتي المدى الحزينتين ربما سمحتا بقياس المسافات ولكنهما لا تشيران إلى الاتجاهات. إن حقل الممكنات اللامتناهي آخذ في الامتداد. فإن اتفق للواقع أن يبرز أمامنا فسوف يكون خارج نطاق الممكنات إلى حد أننا قد نتقلب على ظهورنا في دوار مفاجئ وقد رحنا نصطدم بذلك الجدار الذي برز فجأة. وليست الحركة والهروب المشاهدان، ليسا حتى أمراً لا غنى عنه، إذ يكفي أن نستنتجهما. لقد سبق أن وعدتنا برسالة وهدأت نفسنا وما عدنا نحب. ولم تصل الرسالة وليس من بريد يحمل أياً منها. «فما الذي يجري؟» وينبعث القلق من جديد والحب بعثاً لأسانا. ذلك أن كل قلق جديد نعاني منه بسببهم إنما يَقتطع من شخصيتهم في نظرنا. وكنا استسلمنا للعذاب ظناً منا أنا نحب خارج ذاتنا، ونتبين أن حبنا رهن بحزننا، أن حبنا ربما كان حزننا وأن موضوعه ليس إلا في جزء يسير منه الفتاة ذات الشعر الاسود. ولكن مثل هؤلاء الأشخاص في النهاية هم على وجه الخصوص الذين يلهموننا الحب. وليس يتخذ الحب في الأغلب من جسم ما موضوعه إلا إذا امتزج به انفعال ما وخشية فقدانه والشك في العثور عليه ثانية. وإنما يتسم هذا النوع من القلق بانجذاب كبير إلى الأجساد. فإنه يضيف إليها صفة تفوق الجمال نفسه، وذلك أحد الأسباب التي نلقي رجالاً لا يبالون من جرائها بأكثر النساء جمالاً ويحبون بعضهن ممن يبدون لنا قبيحات. تلك الكائنات. كائنات الهروب تلك، إنما تثبت لها طبيعتها وقلقنا أجنحة. وتبدو نظرتها، حتى بالقرب منا، كأنما تقول لنا إنها تزمع

أن تطير. والبرهان على هذا الجمال الذي يفوق الجمال والذي تضيفه الأجنحة أن الكائن نفسه كثيراً ما يبدو لنا على التوالي مجنحاً وبدون أجنحة. فإن خشينا أن نفقده نسينا الآخرين جميعهم. وإن تيقّنا من الاحتفاظ به شبّهناه بهؤلاء الآخرين الذين نفضّلهم عليه في الحال. وبما أن تلك الانفعالات وصنوف اليقين تلك يمكن أن تتعاقب بين أسبوع وآخر فإنه يمكن لأحد الأشخاص أن يشهد أنه يضحي لأجله في أسبوع بكل ما يُمتع وأن يُضحي به في الأسبوع التالي وهكذا دواليك لفترة طويلة جداً. والأمر كان يستحيل إدراكه لو لم نعلم، بالخبرة التي يحوزها كل إنسان من أنه توقف مرة على الأقل في حياته عن الحب ونسي امرأة، القليل الذي يساويه شخص في حدّ ذاته حين لم يعد أو هو ليس بعد مستجيباً لانفعالاتنا، طبعاً حينما نقول: كائنات الهروب فإنما يصحّ ذلك أيضاً بالنسبة إلى كائنات في السجن، إلى نساء أسيرات نظن أننا لن نتمكن من الحصول عليهن في يوم. ولذلك يمقت الرجال القوادات لأنهن يسهلن الهرب ويضفين على التجربة بريقاً، ولكنهم إن أحبوا على العكس امرأة حبيسة بحثوا راضين عن القوادات لإخراجهن من سجنهن وحملهن إلينا. باعتبار أن الاقتران بالنساء واللواتي تختطفهن أقل ديمومة من سواه، وسبب ذلك أن خشيتنا ألا نفلح في الحصول عليهن أو خوفنا من أن نشهد هروبهن إنما يشكلان كل حبنا وأنهن ما إن يؤخذن من زوجهن وينتزعن من مسرح نشاطهن ويشفين من رغبة هجرنا ويفصلن باختصار القول عن انفعالنا، أياً كان الانفعال، حتى يضحين مجرد ذواتهن، يعني لا شيء تقريباً، ويهجرهنّ، بعد طول اشتهاء، ذاك نفسه الذي ما أكثر ما خشي أن يهجرنه.

لقد قلت: «كيف اتفق ألا أحزر؟» ولكن ألم أحزر ذلك منذ اليوم الأول في «بالبيك»؟ أفلم أحزر في شخص «ألبيرتين» واحدة من تلك الفتيات اللواتي يختلج خلف غلاف جسدهن عدد من الكائنات الخفية أكبر، لا أقول منه في مجموعة ورق لعب لا تزال في علبتها أو منه في

كاتدرائية[1] مغلقة أو منه في مسرح قبلما يدخله الناس، بل منه في الجمهور الهائل والمتجدد؟ وليس هذا العدد من الكائنات فحسب. بل الرغبة والذكرى التي تنضج شهوة والبحث القلق عن هذا العدد من الناس. وإني في «بالبيك» لم يداخلني اضطراب لأنني حتى ما افترضت أني سأقتفي ذات يوم حتى آثاراً مضللة. وما هم، فقد أكسب ذلك «ألبيرتين» في نظري اكتمال كائن امتلأ حتى الحواف بتراكم هذا العدد من الكائنات، هذا العدد من الرغبات وذكريات أشخاص تقطر شهوة. أما الآن وقد قالت في ذات يوم: «الآنسة فانتوي»، لقد وددت لا أن أنتزع فستانها كي أشاهد جسدها، بل أن أبصر عبر جسدها كل هذه المدونات لذكرياتها ومواعيدها المقبلة اللاهبة.

كم تكتسب الأمور الأكثر تفاهة على الأرجح، كم ترتدي فجأة قيمة عظيمة حينما يُقدم شخص نحبّه (أو هو لم يكن ينقصه سوى ذاك الرياء كيما نحبه) على حجبها عنا! إن العذاب في حد ذاته لا يولينا بالضرورة مشاعر حبّ أو كراهية للشخص الذي يسببه: فإن جرحاً يؤلمنا إنما نظلّ غير مبالين به. لكن امرأة يسرّنا أن نلتقيها ونعانقها ونجلسها على ركبتينا، إنما يدهشنا إن أحسسنا مجرد إحساس لدى مقاومة مفاجئة لديها أنها ليست ملك يدينا. حينذاك توقظ خيبة الأمل فينا أحياناً الذكرى المنسية لضيق نفسي قديم نعلم مع ذلك أنه لم تسببه امرأة بل آخرون ممن، تتوزع خياناتهم على صفحة ماضينا. وكيف تؤتى الشجاعة من جانب آخر، كي تتمنى العيش، كيف يمكنك القيام بتحرك لتتقي الموت في عالم لا يبتعث الحب فيه سوى الكذب وقوامه مقصور على حاجتنا إلى رؤية عذاباتنا تسكّن على يد الشخص الذي عذّبنا؟ وفي سبيل أن نخرج من الضنى الذي نعاني منه لدى اكتشافنا تلك الكذبة وتلك المقاومة هناك الدواء المشؤوم الذي قوامه محاولة التأثير، بوساطة أشخاص نحسّ أنهم أكثر امتزاجاً

---

(١) الكنيسة التي تتبع الأساقفة أو تلك الواسعة الضخمة.

بحياتها منا، التأثير رغماً عنها على تلك التي تقاومنا وتكذب علينا، واللجوء بدورنا إلى الخدعة وحملها على كراهيتنا. لكن معاناة مثل هذا الحب هي من تلك التي تدفع المريض على نحو لا يرد إلى البحث عن هنا، وهمي في تبديل للموقع. وليست تنقصنا للأسف وسائل التأثير تلك. وإنما مرد بشاعة تلك الألوان من الحب التي ولدها القلق وحده أننا نقلب ونعيد دون توقف في قفصنا أقوالاً لا معنى لها. وندع جانباً أن يندر أن يعجبنا الأشخاص الذين يبعثون فينا لواعجه إعجاباً تاماً على الصعيد الجسدي فليس ميلنا الواعي هو الذي اختار لنا بل المصادفة، في لحظة من الضيق النفسي، لحظة نمدّدها إلى ما لا حدود من جرّاء ضعف في الطباع لدينا يعاود في كل مساء تجاربه وينحدر إلى مستوى المسكّنات، هي التي اختارت لنا. ليس من شك أن لم يكن حبي لـ«ألبيرتين» الأكثر إملاقاً من بين تلك التي يمكن أن نهبط إليها لقصور في الإرادة، لأنه لم يكن أفلاطونياً بالتمام، فقد كانت توفّر لي مسرات جسدية، ثم إنها كانت ذكية، لكن ذلك كله كان من قبيل نافل القول. فما كان يشغل بالي ما أمكن أن تقوله من أمر ذكيّ، بل تلك الكلمة التي توقظ لدي شكاً حول أفعالها. فكنت أحاول أن أتذكر إن هي قالت هذا الشيء أو ذاك وبأية لهجة وفي أية لحظة وجواباً عن أية أقوال، وأن أعيد تأليف كامل مشهد حوارها معي وفي أية فترة ابتغت الذهاب إلى منزل آل «فيردوران» وأية كلمة مني طبعت محيّاها بهيئة غاضبة، ولو أن الأمور دارت حول الحدث الأكثر أهمية لما كنت تحملت كل هذه المشقة لرد الحقيقة وإعادة الجو واللون الصحيح. وألوان القلق هذه لا شك أننا نفلح، بعدما تكون بلغت حداً أصبحت فيه غير محتملة، في تسكينها كلياً لأمسية واحدة، فالحفلة التي تزمع الصديقة التي نحبها الذهاب إليها والتي انشغل فكرنا منذ أيام بطبيعتها الحقيقية إنما دُعينا إليها بدورنا، ولا تبدي صديقتنا فيها اعتباراً أو توجه كلاماً إلا لنا، ونعود بها وتنعم حينذاك، وقد تبددت مخاوفنا براحة كاملة مرممة بقدر ما هي الراحة التي تنعم بها في هذا النوم العميق الذي

يلي المسيرات الطويلة. بيد أننا كثيراً ما نبدل فحسب من قلقنا. فإن إحدى كلمات الجملة التي كان من شأنها أن تشيع الهدوء في نفسنا تنقل شكوكنا في اتجاه آخر. ومثل تلك الراحة تستحق دون شك أن ندفع مقابلها ثمناً غالياً. ولكن أما كان أكثر بساطة ألا نعمد بأنفسنا وطوعاً على شراء القلق، وبثمن أكثر ارتفاعاً بعد؟ ونحن نعلم على أي حال تمام العلم أن القلق سوف يكون هو الأقوى مهما أمكن أن تكون حالات الاستراحة المؤقتة تلك عميقة. بل غالباً ما يتجدد جراء الجملة التي كان هدفها أن تجلب لنا الراحة. إن متطلبات غيرتنا والغباوة التي تطبع سذاجتنا أكبر مما كان يمكن أن تخمنه المرأة التي نحبها. فحينما تقسم لنا عفوياً أن ليس ذلك الرجل سوى صديق بالنسبة إليها، وفيما تروي لنا، كيما تظهر سلامة نيتها، كيف احتسيا الشاي سوية في عصر هذا اليوم بالذات يتشكل أمامنا لدى كل كلمة تقولها اللامرئي والذي لا يخطر ببال. إنها تقرّ بأنه سألها أن تكون عشيقته فنعاني عذاب الشهداء من أنها استطاعت أن تصغي لعروضه. وتقول إنها رفضتها لكننا بعد قليل سوف نتساءل، فيما نتذكر روايتها، إن كان الرفض حقيقياً، لأن ثمة بين الأمور المختلفة اتي سردتْها لنا غياب الرابط المنطقي واللازم الذي هو علامة الحقيقة أكثر من الوقائع التي نقلها. ثم إنه كان لها تلك اللهجة المريعة التي تنضح ازدراء: «لقد قلت له لا، وكان القول قاطعاً»، والتي نلقاها في سائر طبقات المجتمع حينما تكذب امرأة. ولا بد مع ذلك من توجيه الشكر لها لأنها رفضت وتشجيعها بما نبدي من عطف على أن تودعنا مجدداً في المستقبل أسراراً قاسية إلى هذا الحد. وأكثر ما يبلغ بنا أن نبدي الملاحظة التالية: «ولكن إن سبق أن قدم لك عروضاً فلم ارتضيت أن تتناولي الشاي برفقته؟» - «كي لا يسعه أن يحقد عليّ ويقول إني لم أكن لطيفة». ولا نجرؤ أن نجيبها بأنها ربما كانت بدت برفضها أوفر لطفاً إزاءنا.

كانت «ألبيرتين» على أية حال تخيفني إذ تقول لي إني على حق إذ أقول لها، بغية أن لا أضرّ بسمعتها، إني لست عشيقها، «فالحقيقة، في

جميع الأحوال» تضيف قولها، «إنك لست كذلك». ربما لم أكن أفعل بالتمام كذلك، ولكن أكان ينبغي الاعتقاد آنذاك بأن كل الأمور التي كنا نفعلها سوية إنما كانت تأتيها أيضاً مع سائر الرجال الذين تقسم لي أنها لم تكن عشيقتهم؟ كم كان غريباً أن أضحّي بكل شيء في سبيل تلك الحاجة التي قوامها التصميم على أن أعرف بأي ثمن بما تفكر «ألبيرتين» ومن تلتقي ومن تحب بما أنه سبق لي أن أحسست بالحاجة نفسها إلى أن أعرف، في ما يخص «جيلبيرت»، أسماء أشخاص وواقعات أصبحت الآن غير ذات بال في نظري! كنت أتبين تماماً أن أعمال «ألبيرتين» ما كانت في حد ذاتها تثير اهتماماً أكبر. والعجيب أن الحب الأول، إن هو يمهد الطريق، بالهشاشة التي يخلّفها في فؤادنا، لصنوف الحق التالية، العجيب أنه لا يوفر لنا، على الأقل من جراء تماثل الأعراض والعذابات، وسيلة شفائها. من ناحية أخرى، هل ثمة حاجة إلى معرفة واقعة ما؟ أفلسنا نعلم بادئ الأمر وبصورة عامة كذب وتكتم هاتيك النساء اللواتي يرين أن لديهن ما ينبغي إخفاؤه؟

هل ثمة إمكان لوقوع خطأ؟ فإذا بهن يجعلن من الصمت فضيلة في حين نودّ أكثر ما يكون أن نحملهن على الكلام. ونحس أنهن أكدن لشريكهن في الجرم قائلات: «لست أقول قط شيئاً، وهم لن يعلموا شيئاً مني أنا، فلست أقول قط شيئاً».

إننا نبذل ثروتنا وحياتنا في سبيل شخص، لكننا نعلم تمام العلم أننا بعد مرور عشر سنوات، أو قبل ذلك أو بعده، سوف نحجب عنه تلك الثروة ونفضّل الإبقاء على حياتنا. ذلك لأن الشخص يكون حينذاك قد فُصل عنا وأصبح وحيداً، يعني لا شيء. إنّ ما يشدنا إلى الناس إنما هي تلك الجذور الألف، تلك الخيوط التي لا تحصى التي تؤلفها ذكريات أمسية البارحة وآمال صبيحة الغد. إنها تلك الملحمة اللامنقطعة من العادات التي لا نستطيع التحرر منها. ومثلما هناك بخلاء يكدّسون من كرم فإننا نحن مبذرون ينفقون من بخل، وإننا أقل تضحية بحياتنا في سبيل

شخص منا في سبيل كل ما أمكن أن يعلق حوله من ساعاتنا، من أيامنا، من ذاك الذي تبدو لنا الحياة التي لم تعشها بعد. الحياة الآتية نسبياً، تبدو لنا مقارنة به، أكثر بعداً، أكثر انفصالاً عنا وأقل حميمية وأقل ملكاً لنا. ما ينبغي أن يكون هو أن نتحرر من تلك الروابط التي اكتسبت أهمية تفوقه مراحل، ولكن من شأنها أن تخلق فينا واجبات مؤقتة تجاهه، واجبات تجعلنا لا نجرؤ على هجره مخافة أن يسيء الظن بنا. في حين يمكن أن تحالفنا الجرأة فيما بعد لأنه بعد ما يُستخلص منا لن يكون نحن من بعد، وأننا في الحقيقة لا ننشئ لنفسنا واجبات (حتى إن انبغى في تناقض ظاهر أن تفضي إلى الانتحار) إلا تجاه ذواتنا.

إن كنت لا أحب «ألبيرتين» (وما كان ذلك عندي بالأمر اليقين) فالمكانة التي كانت تشغلها بالقرب مني لم تكن على شيء من الغرابة، فإننا لا نعيش إلا برفقة ما لا نحب والذي لم ندعه يعيش معنا إلا لقتل الحب الذي لا يطاق سواء أكان الأمر أمر امرأة أو بلد أو حتى امرأة تحتوي بلداً. بل ربما ساورنا خوف عظيم أن نعود إلى الحب ثانية لو وقع الغياب مرة أخرى. ولم أكن بلغت هذه النقطة في ما يخص «ألبيرتين». فقد كانت كذباتها وإقراراتها تدع لي مهمة جلاء الحقيقة. كذباتها وما أكثرها، لأنها لم تكن تكتفي بالكذب كأيّ شخص يخال أنه محبوب، بل لأنها خارج هذا النطاق كانت بطبيعتها كذّابة وكثيرة التقلب على كل حال إلى حدّ أنها حتى حينما تقول لي في كل مرة الحقيقة حول ما تظنّه في الناس على سبيل المثال فلعلها كانت قالت في كل مرة أشياء مختلفة، وإقراراتها، إذ هي شديدة الندرة مقصرة إلى حد بعيد، كانت تخلي بينها، بما أنها تتعلق بالماضي، فواصل كبيرة كلها بياض وينبغي لي أن أعيد على كامل طولها رسم حياتها وأن أطلع لهذا الشأن عليها بادئ الأمر. أما في ما يخص الواقع، وبقدر ما كنت أفلح في تفسير أقوال «فرانسواز» الغامضة، فما كانت «ألبيرتين» تكذب عليّ حول نقاط خاصة فحسب بل حول مجموعة متكاملة من الأمور، وقد أتبين «في يوم من الأيام» ما كانت تتظاهر

«فرانسواز» بأنها تعرفه، ما لا تريد الإفصاح عنه، ما لا أجرؤ على سؤالها حوله. وليس من شك على كل حال أن «فرانسواز» إنما كانت تتكلم، تدفعها الغيرة نفسها التي سبق أن داخلتها تجاه «أولالي»، عن الأمور الأكثر بعداً عن الحقيقة والغامضة إلى حد كنت تستطيع معه على الأكثر أن تفترض فيها الإلماح المستبعد تماماً إلى أن الأسيرة المسكينة (التي كانت تحب النساء) تفضل زواجاً تعقده على واحد ما كان يبدو بالتمام أنه أنا. ولو كان الأمر كذلك، على الرغم من تخاطراتها اللاسلكية، فكيف تكون «فرانسواز» عرفت ذلك؟ وحكايات «ألبيرتين» بالتأكيد ما كان بوسعها البتة أن توفر لي رأياً ثابتاً حول هذا الأمر، فقد كانت كل يوم بمثل تضادّ ألوان خذروف متوقف تقريباً. كان يبدو على أية حال أن الحقد هو الذي كان على وجه الخصوص يُنطق «فرانسواز». فما كان يوم إلا وتقول لي فيه، وأتحمل فيه في غياب أمي، أقوالاً من هذا القبيل: «إنك لطيف بالتأكيد، ولن أنسى في يوم الجميل الذي أدين به لك (وذلك على الأرجح كي أنشئ لنفسي مبررات لامتنانها). ولكنّ البيت أنتَنَ منذ أن أسكن اللطفُ ههنا المكرَ، وصان الذكاء من كانت الأكثر غباء في يوم، وارتضت الرهافة واللياقة والظرف والكرامة في كل شيء والأمارة مظهراً وواقعاً أن تفرض عليها الأمور وتخدع وأن يجري إذلالي، أنا التي هنا منذ أربعين عاماً في هذه الأسرة، من جانب الرذيلة وما كان الأكثر سوقية وسفالة».

كانت «فرانسواز» تحقد على «ألبيرتين» من جراء أنها تؤمر على وجه الخصوص من جانب آخر غيرنا وزيادة في شغل المنزل وتعب لعله إذ يفسد صحة خادمتنا العجوز (التي ما كانت تود مع ذلك أن تُعان في عملها إذ ليست ممن «لا يصلحون لشيء»)، لعله كان كافياً لتفسير تلك الفورة العصبية وصنوف الغضب الحاقدة تلك. لقد ودت بالتأكيد أن تبعد «ألبيرتين» - إستير»[1]. كانت تلك أمنية «فرانسواز». ولعل خادمتنا

(١) إستير بطلة مسرحية دينية كتبها راسين في أواخر إنتاجه المسرحي.

العجوز كانت وجدت الراحة في مؤاساتها. لكن الأمر حسبما أرى لم يكن ذلك فحسب، فمثل ذلك الحقد ما كان ليولد إلا في جسد مرهق، كانت «فرانسواز» أكثر حاجة إلى النوم منها إلى صنوف المراعاة.

وفيما كانت «ألبيرتين» تمضي لنزع حاجاتها، وبغية التفكير بأكثر الأشياء استعجالاً أمسكتُ بسماعة الهاتف وتوسّلت إلى الإلهات القاسيات القلوب ولكني استثرت فحسب حنقهن الذي برز واضحاً في الكلمات التالية: «الخط مشغول». وكانت «أندريه» بالفعل تتحدث إلى أحدهم. وتساءلت بانتظار أن تكون أنهت مكالمتها. وبما أن الكثيرين من الرسامين يحاولون تجديد الصور الأنثوية في القرن الثامن عشر حيث يبدو الإخراج الذكي بمثابة حجة للتعبير عن الانتظار والحرد والاهتمام وأحلام اليقظة، كيف لم يرسم أي من أمثال «بوشيه» أو «فراغونار» من المحدثين لدينا بدلاً من «**الرسالة**»، بدلاً من «**الكلافسان**»[1] إلخ. هذا المشهد الذي يمكن أن نسمّيه: «**أمام الهاتف**» والذي ربما ارتسمت تلقائياً فيه على شفتي المستمعة ابتسامة تتزايد حقيقتها بمقدار ما تعلم أن ليس من يراها. وأخيراً سمعتني «أندريه»: «هل تأتين غداً لاصطحاب «ألبيرتين»؟ «ولدى نطقي باسم «ألبيرتين» أخذت أفكر بالغيرة التي بعثها «سوان» في صدري حينما قال لي يوم الحفلة في منزل الأميرة «دو غيرمانت»: «هلم للقاء «أوديت»، وفكرت فيما كان من زخم على الرغم من كل شيء داخل اسم ما كان يملك، في نظر كل الناس وفي نظر «أوديت» نفسها، ذاك المعنى التملّكي تماماً إلا في فم «سوان». وكم بدا لي أن مثل ذلك السلطان - الذي تختصره كلمة - على حياة بكاملها، كم بدا لي في كل مرة كنت فيها مغرماً أنه لا بد أن يكون بتلك العذوبة؛ لكننا في الحقيقة حينما نستطيع أن نفصح عنه، فإما أن يكون ذلك قد أضحى غير ذي بال أو أن العادة لم تضعف الحنان ولكنها بدّلت صنوف حلاوته آلاماً. إن الكذب هين أمره، ونحن

(١) نوع من البيانو القديم.

نعيش فيه دون أن نقوم بغير التبسّم إزاءه ونمارسه دون ظنّ منا أننا نتسبب بإيلام أحد، ولكن الغيرة تعاني منه وترى أكثر مما يخفي (فغالباً ما ترفض صديقتنا قضاء الأمسية برفقتنا وتمضي إلى المسرح لمحض ألا ترى أنها منحرفة الصحة)، مثلما تظن في الغالب عمياء إزاء ما تخفي الحقيقة. ولكنها لا تستطيع الحصول على شيء لأن اللواتي يقسمن بأنهن لا يكذبن، ربما رفضن تحت تهديد السكين أن يفصحن عن طباعهن. كنت أعلم أنني وحدي أستطيع أن أقول «ألبيرتين» بهذه الطريقة لـ«أندريه». ومع ذلك فقد كنت، في نظر «ألبيرتين» و«أندريه» ونظري أنا، أحسني لا شيء. وكنت أدرك الاستحالة التي يصطدم بها الحب. فإننا نتصور إلى سائر نقاط المكان والزمان التي شغلها وسوف يشغلها ذاك الكائن. فإن لم نملك نقطة التماس بهذا المكان وتلك الساعة فإننا لا نملكه. والحقيقة أننا لا نستطيع الوصول إلى كل هذه النقاط. ولو أنها عُينت لنا لأمكننا ربما الامتداد إليها، ولكننا نتلمس المكان دون أن نعثر عليها. ومن هنا تجيء الريبة والغيرة وألوان الاضطهاد. إننا نضيّع وقتاً ثميناً في اقتفاء أثر مستحيل ونمرّ إلى جانب الحقيقة دون أن نرتاب بها.

لكن إحدى الإلهات السريعات الغضب ذوات الخادمات المدوخات في سرعتهن أخذ منها الحنق لا لأني أتحدث، بل لأني لا أقول شيئاً. «ولكن الخط سالك ويحك! ومنذ أن بدأت اتصالك، سوف أقطع عليك الخط». ولكنها لم تفعل، وفيما تيسر بذلك حضور «أندريه» غَمَرتها، فعل الشاعر الكبير الذي تمثله دوماً آنسة الهاتف، بالجو الخاص بمنزل صديقة «ألبيرتين» وحبّها وحياتها ذاتها. وقالت لي «أندريه»: «أهذا أنت» وكان صوتها مدفوعاً إلي بسرعة خاطفة على يد الإلهة التي تملك موهبة جعل الأصوات أكثر سرعة من البرق. فأجبت قائلاً: «اسمعي. اذهبا حيثما تشاءان، إلى أي مكان ما عدا منزل السيدة «فيردوران». لا بد من إبعاد «ألبيرتين» عنه في الغد بأي ثمن». - «ولكنها بالضبط عازمة على الذهاب إليه في الغد». - «آه!».

ولكني كنت مضطراً إلى الانقطاع لحظة والقيام بحركات متوعدة، فإنه إن كانت «فرانسواز» توالي رفضها - وكأنما الأمر يمثل كراهة لقاح الجدري وخطورة الطائرة -، رفضها أن تتعلم استخدام الهاتف، وهو ما كان رفع عن كاهلنا الاتصالات التي يمكن أن تطلع عليها دونما ضرر، فقد كانت في المقابل تدخل على الفور إلى غرفتي حالما أقوم باتصالات سرية بما يكفي كي أحرص حرصاً خاصاً على إخفائها عنها. وبعدما خرجت في نهاية المطاف من غرفتي، ولم تفعل دون أن تتأخر لحمل حاجات مختلفة كانت فيها منذ البارحة وربما أمكن أن تبقى دون أن تكون البتة مصدر إزعاج على مدى ساعة أخرى، وكي تلقي في النار حطبة أصبحت غير ذات فائدة من جراء الحرارة الخانقة التي يخلّفها لدي وجود الفضولية وخشيتي أن تقدم الآنسة على قطع الخط عليّ. وقلت لـ«أندريه»: «عذراً منك، فقد وقعت لي مضايقة، أنت متيقنة تمام اليقين أنها تنوي الذهاب في الغد إلى منزل آل «فيردوران»؟» - «تماماً، ولكن يمكن أن أقول لها إن الأمر يبعث فيك الضيق». - «كلا، على العكس، ما يمكن فعله هو أن أجيء معكما». وقالت «أندريه»: «آه!» بصوت بادي الضيق وكأنما بها هلع من جرأتي التي إنما تعززت بذلك على أي حال - «ها أنا ذا أتركك إذن، ومعذرة لأني أزعجتك لغير ما سبب». وقالت «أندريه»: «لا، لا» وأضافت تقول (إذ أضحى استخدام الهاتف الآن شائعاً فتنامى من حوله زخرف جمل خاصة كما كانت الحال فيما مضى حول «جلسات الشاي»): «لقد سرّني أعظم السرور سماع صوتك».

كان باستطاعتي أن أقول القول نفسه وعلى نحو ألصق بالواقع مما هي حال «أندريه»، ذلك أنني تأثرت تأثراً لا حدّ له بصوتها، إذ لم يسبق لي قط أن لاحظت أنه يختلف إلى هذا الحد عن غيره. حينئذ تذكرت أصواتاً أخرى غيره، ولا سيما أصوات نساء، منها ما بطأت فيه دقة السؤال وانشغال الفكر، ومنها ما لهث أو تقطع جراء دفق الحماسة في ما تروي عنه، تذكرت واحداً واحداً فواحداً صوت كل من الفتيات اللائي عرفتهن

في «بالبيك»، ثم صوت «جيلبيرت»، ثم جدتي، ثم السيدة «دو غيرمانت» فألفيتها مختلفة جميعها ومقولبة حول لغة خاصة بكل واحدة والكل يعزف على آلة مختلفة، وقلت في نفسي أي عزف هزيل لا بد يقوم به في الفردوس الملائكة الموسيقيون الثلاثة أو الأربعة لدى قدامى الرسامين حينما أرى السلام المتساوق المتعدد النغمات ترفعه إلى الله كل الأصوات بالعشرات، بالمئات، بالآلاف. ولم أدع الهاتف دون أن أشكر ببضع كلمات مستعطفة تلك التي تمدّ سلطانها على سرعة الأصوات لأنها تلطفت واستخدمت في سبيل أقوالي المتواضعة طاقة تجعلها مئة مرة أكثر سرعة من الرعد. لكن ضروب شكري لبثت لا جواب لها سوى أن تُقطع.

حينما رجعت «ألبيرتين» إلى غرفتي كانت ترتدي فستاناً من الساتين الأسود يسهم في زيادة شحوبها ويجعل منها الباريسية الممتقعة اللون المتقدة الذابلة لنقص الهواء وجوّ الجماهير وربما لتعود الرذيلة، والعينان منها تبدوان أكثر اضطراباً إذ لا تشبع فيهما حمرة الوجنتين بهجة، وقلت لها: «احزري لمن هتفت منذ قليل: لـ«أندريه». - لـ«أندريه»؟ تقول «ألبيرتين» صائحة بلهجة صاخبة مستعجبة منفعلة ما كان خبر بمثل تلك البساطة يحتويها. «آمل أن يكون خطر لها أن تقول لك إننا التقينا السيدة «فيردوران» في ذلك اليوم» - «السيدة «فيردوران»؟ لست أذكر». هكذا أجبتُ فيما أبدي أنني أفكر بأمر آخر كيما يبدو أنني لا أبالي بذلك اللقاء وكي لا أخون «أندريه» التي سبق أن قالت لي أين تذهب «ألبيرتين» في الغد. ولكن من ذا يعلم إن كانت «أندريه» نفسها لا تخونني وإن كانت لن تروي لـ«ألبيرتين» في الغد أني سألتها أن تمنعها من الذهاب إلى منزل عائلة «فيردوران» بالغاً ما بلغ الثمن، وإن لم تكن كشفت لها أني أوصيتها عدة مرات بأشياء مشابهة؟ وكانت أكدت لي أنها لم ترددها في يوم، لكنما كان يوازي قيمة ذاك التوكيد في ذهني أن قد هجرت وجه «ألبيرتين» منذ وقت قليل الثقة التي أولتني إياها منذ زمن طويل.

إن الألم في الحب يتوقف بين حين وحين ولكن كي يعاود بطريقة

مختلفة. فإننا نبكي لرؤيتنا من نحب أنها لا تبدي لنا من بعد اندفاعات الودّ ودعوات بدايات الغرام، ويزيد من عذابنا أيضاً أنها بعدما فقدتها بالنسبة إلينا تعود فنلقاها بالنسبة إلى سوانا. ثم يصرفنا عن هذا العذاب داء جديد ألدّ وأدهى هو الشك بأنها كذبت علينا حول أمسيتها في الليلة البارحة التي خانتنا فيها دون شك. وهذا الارتياب يتلاشى كذلك، ويسكّننا اللطف الذي تبديه لنا صديقتنا، ولكن كلمة منسية تعود الى الذهن، فقد قيل لنا إنها مضطرمة الهوى في حين لم نعهدها إلا هادئة، ونحاول أن نتصور ما كانت عليه صنوف هيجانها مع سوانا ونحسّ بالأمر الزهيد الذي نمثله في نظرها. ونلاحظ ملامح تضجّر وحنين وحزن في أثناء حديثنا، نلاحظ ملاحظتنا لسماء قاتمة، الفساتين التي يطبعها الإهمال والتي ترتديها حينما تكون بصحبتنا فيما تحتفظ للآخرين بتلك التي كانت تحاول إبهارنا بها في البداية. فإن أبدت على العكس رقة فأي فرحة على مدى لحظة! لكننا حين نرى هذا اللسان الصغير الممدود، وكأنما لنداء بالعينين فإنما نفكر بسائر اللواتي كان يوجه إليهن مرات كثيرة إلى حد لبث معه، ربما حتى بالقرب مني، ودون أن تفكر بهن «ألبيرتين»، إشارة آلية من جراء عادة قديمة جداً. ثم «يعاودنا الشعور بأننا نسبب لها السأم». لكن هذا العذاب ينقلب فجأة إلى أقل القليل حينما نفكر بالمجهول المؤذي في حياتها والأماكن التي لا سبيل إلى معرفتها والتي ارتادتها، التي ربما لا تزال بعد فيها في الساعات التي لسنا فيها بالقرب منها. وإن كانت حتى لا تنوي الإقامة نهائياً في تلك الأمكنة التي هي فيها بعيدة عنا وليست ملك يدينا وهي فيها أكثر سعادة منها برفقتنا. تلك هي متواليات الغيرة التي لا تنتهي.

والغيرة إلى ذلك شيطان لا يمكن طرده ويعود دوماً إلى الظهور، وقد تجسد في شكل جديد. فإن أفلحنا في القضاء عليها جميعاً قضاء مبرماً وفي الحفاظ أبداً على الشكل الذي نحبّه، اتخذ روح الشر آنذاك شكلاً آخر أكثر شجى بعد، وهو يأسانا إن لم نحصل على الإخلاص إلا عنوة، يأسانا إن لم نظفر بالحب.

كان بيني وبين «ألبيرتين» في الغالب عقبة صمت قوامه دون شك مآخذ كانت تكتمها إذ تحكم أنها متعذر إصلاحها، ومهما كانت «ألبيرتين» رقيقة في بعض الأمسيات فإنها ما عادت تملك تلك الحركات العفوية التي سبق أن عرفتها لديها في «بالبيك» حينما كانت تقول لي: «ما أكثر ما أنت لطيف أنت!»، وتبدو أعماق فؤادها كأنما تقبل إليّ دونما تحفظ من أي من المآخذ التي لديها الآن والتي تكتمها لأنها تحكم أنها دون شك متعذر إصلاحها مستحيل نسيانها لا يباح بها، ولكنها تضع مع ذلك بيني وبينها حذر أقوالها البليغ أو فاصل صمت يستحيل اجتيازه.

- «وهل يمكن أن نعلم لماذا اتصلتَ هاتفياً بـ«أندريه»! - «لكي أسألها إن لم يكن يضايقها أن أنضم إليكما في الغد وأن أقوم هكذا بالزيارة التي أعدهم بها منذ لقاء، «لا راسبليير». - «كما تشاء، ولكني أحذرك أن ثمة ضباباً مريعاً هذا المساء وسوف يتوافر بالتأكيد في الغد أيضاً. أقول لك ذلك لأني لا أود أن يصيبك منه أذى. تعلم تماماً أني أفضل، في ما يخصني، أن تجيء وإيانا». وأضافت تقول بهيئة المهتم: «لست أعلم البتة على أي حال إن كنت سأذهب إلى منزل عائلة «فيردوران». لقد أحاطوني بالكثير من صنوف اللطف إلى حد يجدر بي معه أن أفعل، فلا يزالون بعدك من كانوا أفضل الناس بالنسبة إليّ، لكن ثمة هنات تسوءني لديهم. ينبغي حتماً أن أذهب إلى مخزن «بون مارشيه» أو «تروا كارتييه» لأبتاع وشاحاً أبيض مطرزاً. فهذا الفستان مفرط السواد».

أن أدع «ألبيرتين» تمضي وحيدة إلى مخزن كبير يطوف فيه عدد كبير من الناس الذين تحتكّ بهم، وهو مجهز بمخارج كثيرة إلى حد يمكنك معه القول إنك لم تفلح ساعة الخروج في العثور على سيارتك التي كانت تنتظر في مكان أبعد، ذلك ما كنت عاقداً العزم على رفض القبول به، لكني كنت قبل كل شيء تعيساً. بيد أني ما كنت أتبين أنه كان يجدر بي من مدة طويلة أن أكف عن لقاء «ألبيرتين»، ذلك لأنها دخلت بالنسبة إليّ في تلك الفترة المؤسفة التي لا يظل فيها كائن، وقد تبعثر في المكان وفي الزمان، لا

يظل من بعد امرأة في نظرنا بل متوالية أحداث لا نستطيع إلقاء الضوء عليها وتعاقب من المشكلات التي تستعصي على الحل، بحر نحاول بصورة مضحكة أن نضربه لمعاقبته على ما ابتلع، مثلما فعل «كزيركسيس»[1]. فما إن تبدأ تلك الفترة حتى ترانا مغلوبين حتماً. فطوبى للذين يدركون ذلك ويبكّرون في الأمر كفايته كي لا يطيلوا بما يجاوز الحد صراعاً غير مجدٍ ومنهكاً وتضيق عليه من كل جانب حدود الخيال حيث تتلجلج الغيرة على نحو مخجل حتى ليقبل ذات الرجل الذي كان بالأمس، لمجرد أن تحط ألحاظ تلك التي كانت تقف دوماً إلى جانبه لحظة واحدة على آخر غيره، يتخيل دسيسة ويكابد عذابات ما أكثرها، يقبل فيما بعد صاغراً بأن يدعها تخرج وحدها وأحياناً برفقة من يعلم أنه عشيقها مفضلاً على ما لا يستطيع معرفته هذا العذاب المعروف على الأقل! إنها مسألة إيقاع علينا اتخاذه ونتبعه فيما بعد بحكم العادة. فعصبيون قد لا يقوون على تفويت عشاء وينصرفون بعدها إلى إخلادات إلى الراحة قلما تبدو طويلة في يوم، وتعيش نسوة هنّ إلى حين بعد طائشات في أجواء التوبة. وغيارى كانوا يقصرون في نومهم وفترة راحتهم بغية مراقبة من يحبونها يدعونها، إذ يحسون أن رغباتها هي والعالم الشديد الاتساع البالغ السرية والزمن إنما تفوقهم قوة، يدعونها تخرج بدونهم ثم تسافر ثم هم ينفصلون. وإنما تبلغ الغيرة نهايتها على هذا النحو لفقدان الغذاء وهي لم تدم إلى هذا الحد إلا لأنها طالبت به دون توقف. وكنت بعيداً جداً عن مثل هذه الحالة.

لا شك أن وقت «ألبيرتين» كان ملك يدي بمساحات تفوق كثيراً مثيلاتها في «بالبيك». لقد أصبحت الآن حراً في القيام بنزهات برفقتها قدر ما أشاء. ولما لم ينقض الكثير حتى قامت حول باريس عنابر للطيران، وهي للطائرات ما هي المرافئ للسفن، ومنذ اليوم الذي شكلت

(١) من ملوك فارس، انتقم فيما يقولون لهزيمة أسطوله بأن أمر بجلد البحر، واسمه الفارسي «خشايرشا».

فيه، بالقرب من «لا راسبليير» المصادفة التي تقرب أن تكون خرافية مع طيار أدى طيرانه إلى جموح حصاني، كأنما صورة للحريّة، كثيراً ما كان يحلو لي أن يكون هدف طلعاتنا في آخر النهار - والهدف يمتع «ألبيرتين» من جانب آخر، هي المغرمة بالرياضات جميعها - واحداً من تلك المطارات. كنا نذهب إليه، هي وأنا، تستهوينا هذه الحياة التي تضجّ دون انقطاع بحركتي الإقلاع والوصول اللتين تضفيان الكثير من السحر على النزهات فوق الأرصفة أو الرمال فحسب بالنسبة إلى عاشقي البحر، وعلى التسكع حول مركز طيران بالنسبة إلى من يحبون السماء. كنا نرى في كل لحظة، وسط استراحة الطائرات الجامدة وكأنما ألقت المرساة، كنا نرى طائرة يجرها بشق الأنفس عدة ميكانيكيين مثلما يجر فوق الرمال قارب طلبه سائح يبغي القيام بجولة في البحر. ثم يدار المحرك وتجري الطائرة وتندفع بقوة وفي النهاية ترتفع فجأة بزاوية قائمة، ترتفع الهوينى في ذهول متصلّب، وكأنما تجمد، لسرعة أفقية تنقلب فجأة صعوداً عمودياً مهيباً، كانت «ألبيرتين» لا تقوى على كتم فرحها وتمضي تستوضح الميكانيكيين العائدين الآن وقد أصبحت الطائرة «تمخر عباب الماء». وسرعان ما كان يقطع المسافر كيلومترات في حين لم يعد الزورق الذي ما انفككنا نحدّق إليه سوى نقطة في زرقة السماء تكاد لا تميّزها وسوف تستعيد على أي حال شيئاً فشيئاً ماديتها والقياس والحجم ساعة تقترب النزهة من نهايتها ويحين موعد الرجوع إلى المرفأ. وكنّا أنا و«أليرتين» ننظر بلهفةإلى المتنزّه عندمايقفز أرضاً، وكان مضى هكذا يتذوق في «عرض اللجة» وفي عزلة الآفاق تلك هدوء المساء وصفاؤه، ثم كنا نعود سوية لطعام العشاء إما من المطار وإما من أحد المتاحف أو من كنيسة ذهبنا لزيارتها. لكني لم أكن أعود مهدّأ النفس كما كنته في «بالبيك» بفعل نزهات أكثر ندرة أفخر أن أراها تمتدّ على عصر يوم كامل وأتأملها فيما بعد تبرز كتلاً جميلة من الزهر على الباقي من حياة «أليرتين» وكأنما على صفحة سماء خالية تحكم قبالتها أحلاماً هادئة والفكر معطل. آنذاك لم يكن وقت «ألبيرتين» ملك

يدي بكميات تساوي حجمها اليوم. ولكن كان يبدو لي آنذاك أني أكثر امتلاكاً له لأني ما كنت آخذ في اعتباري سوى الساعات التي تقضيها برفقتي - إذ يغتبط بها حبي وكأنما بمنّة أعطاها -: والآن مجرد الساعات التي تقضيها بدوني - إذ تبحث غيرتي فيها قلقة عن إمكان خيانة - وهي بالفعل ربما رغبت غداً أن يتسع لها مثلها. فلا بد من الاختيار بين التوقف عن العذاب والإمساك عن الحب. فإنه، مثلما يتشكل الحب في البداية من الشوق، لا يستمر بعدها إلا بالقلق المؤلم. كنت أحسّ أن قسماً من حياة «ألبيرتين» يفلت مني. وإنما الحب في القلق المؤلم وسعادة الشوق على السواء حاجة إلى الكل، وهو لا ينشأ ولا يدوم إلا إن بقي ثمة جزء علينا الاستيلاء عليه. فلسنا نحب إلا ما لا نملكه بكليته. كانت «ألبيرتين» تكذب عليّ إذ تقول إنها لن تذهب دون شك لزيارة آل «فيردوران» كما كنت أكذب إذ أقول إني أبغي الذهاب إلى منزلهم. كانت تحاول فقط أن تمنعني من الخروج وإياها، أما أنا فلأصيب لديها، بالإعلان المفاجئ عن ذاك المشروع الذي ما كنت أنوي البتة تنفيذه، النقطة التي أحسها الأكثر حساسية، ولملاحقة الرغبة التي تكتمها وحملها عنوة على الإقرار بأن وجودي في الغد إلى جانبها سوف يحول دون تلبيتها. وقد فعلت ذلك بإجمال القول بتوقفها المفاجئ عن تصميمها الذهاب إلى منزل آل «فيردوران».

وقلت لها: «إن كنت لا تبغين الذهاب إلى منزل آل «فيردوران» فثمة في «التروكاديرو» مسرح رائع ذو طابع خيري». فأصغت إلى نصحي بالذهاب بهيئة شاكية. وأخذتُ من جديد أبدي القسوة إزاءها كما في «بالبيك» في زمن غيرتي الأولى. كان وجهها يعبّر عن خيبة أمل وكنت أستخدم في لوم صديقتي الأسباب نفسها التي كثيراً ما قوبلت بها من جانب والديّ عندما كنت صغيراً وبدت غير ذكية وقاسية في نظر طفولتي غير المقدرة حق قدرها. فكنت أقول لـ«ألبيرتين»: «لا، لست أستطيع، على الرغم من مظهرك الحزين، أن أرثي لحالك، وكنت فعلت لو أنك

مريضة، لو حلّت بك مصيبة، لو فقدت أحد أقربائك، الأمر الذي ربما لم يخلّف لديك أي غم إنْ نظرنا إلى ما تقومين به من هدر في المشاعر الكاذبة التي لا طائل تحتها. وإني على أي حال لا أقدّر مشاعر الناس الذين ما أكثر ما يدعون حبنا دون أن يستطيعوا إسداء أقل خدمة إلينا والذين يجعلنا فكرهم المصروف إلينا ساهين إلى الحد الذي ينسون معه حمل الرسالة التي عهدنا بها إليهم والتي يرتبط بها مستقبلنا».

هذه الأقوال، وليس جزء كبير مما نقول سوى استظهار، كنت سمعتها كلها تنطق بها أميّ التي بلغ بها، (إذ تشرح لي من تلقاء ذاتها أنه ينبغي ألا نخلط بين الحساسية الحقيقية وما كان الألمان يدعونه - الألمان الذين كانت معجبة جداً بلغتهم على الرغم من الكره الذي يكنّه والدي لتلك الأمة - Empfindung والحساسية الكاذبة (Empfindelei) ذات مرة كنت أبكي فيها، أن تقول لي إن «نيرون» ربما كان سريع الانفعال ولم يكن لذاك السبب أفضل. والحقيقة، وكما هو حال تلك النباتات التي تتضاعف في نموها، فقد كان الآن، في مقابل الولد الحساس الذي سبق أن كنته فحسب، رجل يناقضه، يفيض حساً سليماً وقسوة على حساسية الآخرين المرَضية، رجل يشبه ما سبق أن كانه ذويّ، بالنسبة إلي. وإذ يقع على كل منا أن يجعل حياة ذويه تستمر داخله فإن الرجل الرزين المتهكم الذي لم يكن موجوداً داخلي في البداية قد لحق بالرجل الحساس وأضحى من الطبيعي أن أكون بدوري مثلما سبق أن كان ذويّ. أضف أن هذا الأنا الجديد كان بجد لحظة يتشكل، لغته جاهزة تماماً في تذكر اللغة الساخرة المؤنبة التي وجهت إلي بالأمس والتي يعود إليّ الآن أن أوجهها إلى الآخرين وكانت تنطلق من فمي على نحو طبيعي تماماً، سواء أستذكرتها بداعي التقليد وتداعي الذكريات أو أن معشقات القدرة الإنسالية الدقيقة والمبهمة قد رسمت في داخلي دون علم مني، وكأنما على أوراق نبتة، ذات النبرات وذات الحركات وذات الوقفات التي كانت لمن تحدّرت منهم. فقد كان يبدو لي أحياناً، وأنا أقوم بدور الرجل الحكيم في حديثي

إلى «ألبيرتين»، أني أسمع جدتي، أفلم يتفق لوالدتي على أية حال (وما أكثر التيارات الغامضة اللاواعية التي كانت تعدل داخلي في مسار حتى أدنى حركات لأصابعي نفسها لتدفع بها في ذات أطوار ذويّ) أن تظن والدي هو الذي يدخل لكثرة ما استخدم في نقر الباب ذات طريقته. ثم إن اقتران العناصر المتضادة قانون الحياة ومبدأ الإخصاب، وعلة الكثير من المصائب، كما سنرى. والمرء يمقت عادة ما كان شبيهاً له. ونقائصنا نفسها إما شوهدت من الخارج تُثير سخطنا وكم يزداد كره النقائص نفسها لدى من تجاوز السن الذي يعبر فيه عنها بسذاجة ومن صنع لنفسه على سبيل المثال في الفترات اللاهية أكثر ما تكون وجهاً من جليد إن كان من يعبر عنها آخر غيره أكثر شباباً، أو أوفر سذاجة أو أشد حمقاً؛ فثمة حسّاسون يثير حنقهم مشهد الدموع في عيون الآخرين في حين يحتبسونها هم. وإنما التشابه المفرط هو الذي يجعل الفرقة تسود الأسر على الرغم من الوداد وأحياناً كلما تعاظم الوداد. وربما كان لدي ولدى الكثيرين، ربما كان الرجل الثاني الذي أضحيته مجرّد وجه من الأول، فهو مندفع سريع التأثر من جانبه هو ومرشد حكيم في ما يخصّ الآخرين. وربما كان الأمر كذلك من جانب ذوي حسبما ينظر إليهم بالنسبة إليّ أو في حد ذاتهم. وفي ما يخصّ جدتي وأمي، كان أكثر من جلي أن قسوتهما عليّ مقصودة بل تصعب عليهما، ولكن ربما كان الفتور لدى والدي محض جانب خارجي لحساسيته. فربما كانت الحقيقة الإنسانية الكامنة في هذا المظهر المزدوج، المظهر الذي من جانب الحياة الباطنية والمظهر الذي من جانب العلاقات الاجتماعية، هي التي تعبر عنها هذه الكلمات التي كانت تبدو لي فيما مضى زائفة في مضمونها بقدر ما تفيض تفاهة في شكلها حينما يقولون في حديثهم عن والدي، «إنه يخفي خلف فتوره الذي يجمّدك حساسيةً فائقة. وما به على وجه الخصوص إن هو إلا استحياء من رقة شعوره». أفما كان يخفي في الأساس عواصف دفينة لا تنقطع، يخفي ذاك الهدوء الذي يمتلئ لدى الاقتضاء بالأفكار الوقورة والسخرية من

تجليات الإحساس الخرقاء، والذي كان هدوءه، لكنني كنت أنا الآن أتصنّعه أيضاً إزاء الجميع وما كنت على وجه الخصوص أتخلى عنه في بعض الظروف إزاء «ألبيرتين»؟.

أعتقد أني كنت بالحقيقة عازماً في ذلك اليوم على تقرير انفصالنا والذهاب إلى البندقية. أما ما عاد فقيّدني بعلاقتي فمردّه منطقة النورماندي، لا لأنها كشفت عن أية نية في الذهاب إلى تلك المنطقة التي سبق أن أحسست فيها بالغيرة عليها (إذ حالفني الحظ أن لم تلامس مشاريعها البتة النقاط المؤلمة في مجال تذكري)، بل لأنها أجابت إذ قلت لها: «ذلك كما لو كنت أكلمك عن صديقة عمتك التي تقطن «إنفرفيل»، أجابت بغضب وهي سعيدة سعادة أي شخص يجادل ويريد أن يخصّ نفسه بأكبر قدر ممكن من الحجج، بأن تبين لي أني أسير في الدرب الخاطئ وهي في الصحيح: «ولكن عمتي لم تعرف في يوم أحداً في «أنفرفيل» ولا أنا ذهبت إلى هناك». وكانت قد نسيت الكذبة التي كذبتها عليّ ذات مساء بشأن السيدة السريعة الغضب التي كان لا بدّ من الذهاب حتماً إلى منزلها لتناول الشاي حتى إن انبغى بذهابها للقاء تلك السيدة أن تفقد صداقتي وتقتل نفسها. ولم أذكّرها بكذبتها ولكن الكذبة أثقلت عليّ: وأرجأت إلى مرة أخرى أيضاً القطيعة بيننا. وليس من حاجة إلى الصدق ولا حتى إلى الحذاقة في الكذب كيما تُحَبّ. وما أدعوه بالحب هنا هو عذاب متبادل. وما كنت أجد في ذلك المساء ما يستوجب اللوم في توجيه الكلام إليها مثلما سبق أن فعلت بي جدتي، هي التي لا عيب فيها، ولا في أني تبنيت، كيما أقول لها إني سوف أرافقها إلى منزل آل «فيردوران»، طريقة والدي المجافية، ولم يكن يبلغنا في يوم قراراً إلا بالطريقة التي يمكن أن تسبب لنا أقصى الاضطراب الذي لا يتناسب في مستواه هذا وذلك القرار نفسه. وهكذا كان يسيراً عليه أن يجد أننا حمقى لأننا نبدي لأمر زهيد إلى هذا الحد مثل هذا الأسى الذي كان يتناسب بالفعل والصدمة التي سببها لنا. ولو أن مشيئات والدي المترددة الجزافية تلك - كما هي حال حكمة

جدتي التي لا تلين - لو أنها جاءت تكمل لدي الطبيعة الحساسة التي لبثت زمناً طويلاً خارج حدودها التي ما أكثر ما عذّبتها طوال طفولتي كلها، فإن هذه الطبيعة الحساسة كانت تطلعها بصورة صحيحة تماماً على النقاط التي يجدر أن تصوّب إليها بشكل ناجع: فإنه ليس من مخبر أفضل من سارق سابق أو من أحد رعايا الأمة التي تقاتلها. وإن أخاً جاءه في بعض الأسر الكذّابة، ليلقى أخاه دونما سبب ظاهر ويسأله، بعبارة عارضة على عتبة بيته وهو يهتم بالانصراف، خبراً يبدو وكأنه حتى لا يصغي إليه، إنما يعني بذلك لأخيه أن ذاك الخبر كان يشكل هدف زيارته، لأن الأخ يعرف تماماً هذه المظاهر اللامبالية، هذه الكلمات التي تقال كأنما بين قوسين وفي الثانية الأخيرة إذ كثيراً ما لجأ إليها بدوره. والحقيقة أن هنالك أيضاً أسراً ذات أدواء وحساسيات متقاربة وأمزجة متآخية دربت على هذه اللغة المضمرة التي مؤداها أن يتفاهم الناس داخل الأسرة دون أن يتحادثوا. ومن ذا يستطيع تبعاً لذلك أن يثير الأعصاب أكثر من العصبي؟ أضف أنه ربما كان لسلوكي في تلك الحالات سبب أكثر شيوعاً وأوفر عمقاً. ذلك أننا في تلك الفترات القصيرة والمحتومة التي نمقت فيها فرداً نحبّه - تلك الفترات التي تدوم أحياناً طوال الحياة مع الناس الذين لا نحبهم - لا نود أن نبدو طيبين كي لا يرثى لحالنا بل الأكثر أذية والأشد سعادة كيما تكون سعادتنا حقاً موضع كراهية وتحزّ في نفس العدو العارض أو الدائم. فكم افتريت على نفسي كاذباً أمام كثيرين لمحض أن تبدو لهم «نجاحاتي» منافية للأخلاق وتزيد من حنقهم! أما ما يجدر فعله فاتّباع الخط المعاكس، وأن نبدي دون اعتزاز أن مشاعرنا طيّبة بدلاً من التستر عليها بهذه القوة. ولعل الأمر يسير لو عرفنا كيف لا نكره في يوم، كيف نحب على الدوام. ذلك أننا نسعد آنذاك إلى أبعد حد ألا نقول سوى الأمور التي يمكن أن تُسعد الآخرين وتثير عطفهم وتحملهم على حبك!

كنت أشعر بالتأكيد بشيء من الندامة لمّا أستثير سخط «أليبرتين» عليّ إلى هذا الحد وأقول في نفسي: «لو كنت لا أحبها لأبدت لي امتناناً أعظم

إذ ما كنت لأبدي قسوة عليها. ولكن لا، فالأمور ستتوازن لأني سوف أكون أقل لطفاً». ولعلني كنت أستطيع، بغية تبرير نفسي أن أقول لها إني أحبها. ولكن الإقرار بهذا الحب، بالإضافة إلى أنه ما كان أطلع «ألبيرتين» على شيء، ربما كان أولاها فتوراً تجاهي أعظم من صنوف القسوة والمكر التي كان الحب بالضبط عذرها الوحيد. وكم هو طبيعي أن تكون قاسياً وماكراً تجاه من تحب! فإن لم يحلُ الاهتمام الذي نظهره للآخرين دون أن نكون لطفاء معهم ومتساهلين مع ما يرغبون فيه، فلأن ذاك الاهتمام كاذب. فالغير موضع لا مبالاتنا، واللامبالاة لا تدعو إلى الإساءة.

كانت الأمسية تمر ولم يعد ثمة، قبل أن تذهب «ألبيرتين» إلى النوم، وقت كثير نضيّعه إن كنا نبغي إحلال السلام بيننا والعودة ثانية إلى العناق ولم يكن أيّ منا اتخذ بعد المبادرة إلى ذلك.

وإذ شعرت بأنها مغتاظة كائنة ما كانت الحال، فقد أفدت من ذلك كي أحدثها عن «إستير ليفي». «لقد قال لي «بلوك» (وما كان الأمر صحيحاً) إنك عرفت تمام المعرفة ابنة عمّه «إستير». فقالت «ألبيرتين» بلهجة مبهمة: «لعلني حتى لا أتعرفها». فأضفت غاضباً: «لقد رأيت صورتها». وما كنت أنظر إلى «ألبيرتين» وأنا أقول ما أقول، وهكذا لم أبصر ملامح وجهها ولعلها كانت جوابها الوحيد إذ لم تقل شيئاً.

ما كنت أشعر به بالقرب من «ألبيرتين» في تلك الأمسيات لم يعد الهدوء الذي كانت توليني إياه قبلة أمي في «كومبريه»، بل على العكس قلق الأمسيات التي تكاد لا تقول لي فيها «طاب مساؤك» أو حتى لا تصعد إلى غرفتي إما لأنها غاضبة مني أو لانشغالها بمدعوين. ذلك القلق، لا صورته المنقولة إلى نطاق الحب، لا، بل ذلك القلق نفسه الذي اختص إلى حين بالحب وعندما وقع اقتسام الأهواء وقسمتها كان وقفاً عليه وحده إنما كان يبدو الآن من جديد وكأنه يمتد إليها جميعها، وقد عاد فأضحى مشاعاً كحاله في طفولتي، كما لو أن مشاعري كلها، وكانت ترتجف مخافة ألا تستطيع الاحتفاظ بـ«ألبيرتين» بالقرب من سريري كعشيقة وأخت وابنة

وكذلك كأم عدتُ أحس بالحاجة الصبيانية إلى تحيتها المسائية اليومية، أخذت تتجمّع وتتوحّد في مساء حياتي المبكر، حياتي التي بدا أنها لا بد ستكون قصيرة قصر يوم شتوي، ولئن كنت أحس بقلق طفولتي فإن تبدل الشخص الذي كان يشعرني به واختلاف العاطفة التي يوحي بها والتحول في طباعي ذاتها كانت كلها تجعل من المستحيل عليّ أن أطالب «ألبيرتين» بتهدئته كما أطالب والدتي بالأمس. ما عدت أعرف من بعد أن أقول: «إني حزين». كنت أجتزئ، والغم يقتلني، بالحديث عن أمور لا شأن لها ولا تيسر لي إحراز أي تقدم باتجاه حل سعيد. كنت أراوح مكاني في إطار تفاهات مؤلمة. وكنت، بتلك الأنانية الفكرية التي إن تعلقت حقيقة لا طائل تحتها أقل ما تتعلق بحبنا جعلتنا نكرم تكريماً عظيماً ذاك الذي وجدها ربما بمثل المصادفة التي اتفقت لقارئة «الورق» التي أعلنت لنا عن أمر تافه تحقق مذ ذاك، كنت قريب الاعتقاد بأن «فرانسواز» تفوق «بيرغوت» و«إيلستير» لأنها سبق أن قالت لي في «بالبيك»: «لن يصيبك من هذه الفتاة غير الغم».

كانت كل دقيقة تقرّبني من تحية «ألبيرتين» المسائية التي تلقيها عليّ في النهاية. لكن قبلتها هذا المساء، التي غابت هي عنها والتي لم تكن تلتقيني خلّفت لدي قلقاً شديداً إلى حد أني أخذت أنظر إليها، خافق الفؤاد، وهي تمضي حتى الباب وأنا أفكر قائلاً: «إن شئتُ أن ألقى حجة لاسترجاعها والإمساك بها ومصالحتها فلا بد من العجلة، فليس إلا بضع خطوات بعد وتكون خرجت من الغرفة، ليس سوى خطوتين، سوى واحدة، إنها تدير القبضة وتفتح، لقد فات الأوان وأغلقت الباب!». ومع ذلك، ربما لم يفت الوقت بعد كثيراً. كنت أريد، كحالي بالأمس في «كومبريه» بعدما فارقتني أمي دون أن تكون هدّأت من روعي بقبلتها، الانطلاق في إثر «ألبيرتين»، وأحس أن لن يحالفني الهدوء من بعد قبل أن أعود فألتقيها، وأن هذا اللقاء الثاني سوف يضحي شيئاً مترامياً لم يسبق أن كانه بعد إلى اليوم، وأنني، إن لم أستطع بمفردي التخلص من هذا الحزن،

ربما اتخذت العادة المخزية في الذهاب لاستجداء «ألبيرتين». وقفزت من السرير حين كانت هي داخل غرفتها، وأخذت أذرع الممر جيئة ورواحاً أملاً أن تخرج وتدعوني: وأظل لا حراك بي أمام بابها كي لا يتفق لي أن لا أسمع نداء ضعيفاً، وأعود مقدار لحظة إلى غرفتي أتطلع إن لم تكن صديقتي نسيت لحسن حظي منديلاً، حقيبة، شيئاً ما يمكن أن يبدو أن أخشى أن تفتقده وكان وفّر لي حجة الذهاب إلى غرفتها. لا، لا شيء. وأعود للوقوف أمام بابها، ولكن ليس في شق الباب نور من بعد، لقد أطفأت «ألبيرتين» الضوء ونامت: وأظل هناك لا حراك بي أملاً ما لست أدري من حظّ لا يقبل إلي: وأعود بعد فترة طويلة مجمد الأطراف لأستلقي تحت أغطيتي وأبكي ما بقي لي من الليل.

لذلك لجأت أحياناً في مثل تلك المساءات إلى حيلة توفر لي قبلة «ألبيرتين». فإذا كنت أعلم كم كان يعجّل عليها النعاس حالما تستلقي (وتعلم ذلك أيضاً إذ كانت تنزع غريزياً حالما تستلقي الخف الذي أعطيتها إياه وخاتمها الذي تضعه بالقرب منها مثلما تفعل في غرفتها قبلما تنام)، وإذ أعلم كم كان نومها عميقاً واستيقاظها رقيقاً كنت أتخذ حجة لأمضي في جلب حاجة ما وأحملها على الاستلقاء على سريري. فإذا هي نائمة حينما أعود، وأبصر أمامي هذه المرأة الثانية التي تنقلب إليها حالما تكون بمواجهتي تماماً. لكنها سرعان ما تبدل شخصيتها! كنت أتمدد بالقرب منها وأعود فأراها جانبياً. كان بوسعي أن أضع يدي في يدها وعلى كتفها وعلى وجنتها، وتوالي «ألبيرتين» نومها. كان بوسعي أن أمسك برأسها وأقلبه وأطبع عليه شفتي وأطوّق عنقي بذراعيها، وتوالي النوم مثل ساعة لا تتوقف، مثل حيوان يستمر في العيش أية كانت الوضعية التي يعطاها وكنبتةٍ عارشة، كدودية أرجوانية تستمر في دفع أغصانها أياً كان السند الذي تُسند إليه. وحدها أنفاسها كانت تبدل فيها كل من ملامساتي كما لو أنها كانت آلة أعزف عليها فأجعلها تبعث تنغيمات إذ أستخلص بالنقر على هذا ثم على ذاك من أوتارها أنغاماً مختلفة. كانت غيرتي تهدأ إذ أحس أن

«ألبيرتين» أضحت كائناً يتنفس وليس شيئاً آخر كما كانت تدل على ذلك الأنفاس المنتظمة التي هي التعبير عن هذه الوظيفة الفيزيولوجية البحتة التي لا تملك، وهي متهربة تماماً. لا سماكة الكلام ولا سماكة الصمت وكانت، في جهلها للشر أياً كان، وهي الأنفاس المستخلصة من قصب مجوّف أكثر منها من كائن بشري، ومن دنيا النعيم حقاً بالنسبة إليّ أنا الذي يحسّ «ألبيرتين» في تلك اللحظات في مأمن من كل شيء، لا على الصعيد المادي فحسب، بل على الصعيد الأخلاقي أيضاً، كانت نشيد الملائكة الخالص. وكنت أقول في نفسي فجأة إنه لا بد ربما لأسماء بشرية كثيرة تحملها الذاكرة من التردد داخل هذه الأنفاس.

وأحياناً كان ينضاف إلى تلك الموسيقى الصوت البشري. كانت «ألبيرتين» تتلفظ ببضع كلمات. وكم وددت لو أدرك معناها! كان يتفق أن يرد على شفتيها اسم شخص سبق أن تكلمنا عنه وكان يُثير غيرتي، ولكن دون أن يوليني ذلك تعاسة لأن الذكرى التي تجيء به كانت تبدو وكأنها ليست سوى ذكرى الأحاديث التي سبق أن جرت بينها وبيني بهذا الشأن. لكنها مع ذلك قالت ذات مساء كانت فيه نصف مستيقظة والعينان مطبقتان. قالت برقة وهي تخاطبني: «أندريه». وكتمتُ انفعالي وقلت لها ضاحكاً: «أنت تحلمين، فلست «أندريه». وابتسمت بدورها: «ويحك، لا، أردت أن أسألك عما قالته لك «أندريه منذ قليل».

- «عساني ظننت بالأحرى أنك كنت مستلقية على هذا النحو بالقرب منها». فقالت لي: «ويحك، لا، إطلاقاً». لكنها كانت قبل أن تجيبني بذلك قد أخفت مقدار لحظة وجهها بين يديها. ما كانت فترات صمتها إذن سوى حجاب وضروب حنانها السطحية كانت مهمتها أن تحجب في القعر ألفاً من الذكريات لعلها كانت مزقت فؤادي - وحياتها إذن كانت ملأى بتلك الواقعات التي تشكّل حكايتها الساخرة وأخبارها الضاحكة ثرثراتنا اليومية حول الآخرين، حول من لا نبالي بهم، ولكنها تبدو لنا، ما دام ثمة كائن لا يزال تائهاً في حنايا فؤادنا، توضيحاً ثميناً لحياته حتى لنهب

طوعاً في سبيل معرفة هذا العالم الخفي حياتنا كلها. حينذاك كان نومها يبدو لي بمثابة عالم عجيب مسحور يرتفع فيه بين الحين والحين من أعماق المادة، وتكاد لا تستشف ما وراءها، الإقرارَ بسر لن نفهمه. لكن «أليبرتين» كانت تبدو عادة حين هي نائمة وكأنما استعادت براءتها. كانت تبدو، في الوضع الذي أعطيتها إياه والذي سرعان ما جعلت منه في نومها وضعها، وكأنما تستودعني ذاتها. لقد فقد وجهها أي ملمح من ملامح الحيلة أو السوقية وبدا كأنما بينها وبيني، أنا الذي ترفع صوبه ذراعها وتضع يدها عليه، تسليم كامل وعلاقة لا تنفصم عراها. لم يكن نومها على أي حال بفصلها عني وكان يبقي فيها فكرة تودّنا. كان من شأنه بالأحرى أن يزيل ما عداه. فكنت أعانقها وأقوال إني أزمع القيام ببضع خطوات في الخارج فتنفرج عيناها وتقول لي بهيئة مستعجبة - والليل كان فعلاً قد حل -: «ولكن أين أنت ذاهب هكذا يا حبيبي؟» تقول وهي تعلن عن اسمي، وتعود إلى النوم في الحال. وما كان نومها سوى ضرب من الانزواء عن باقي الحياة، سوى صمت مستوي الصفحة تقلع منه بين حين وآخر أقوال رقيقة مألوفة. ولعلي كنت ألفت بتقريبها بعضها من بعض حديثاً لا مزيج فيه والمودة الخفية لحب خالص. كان هذا النوم الشديد الهدوء يفتنني كما يفتن الأم نوم طفلها الهني فتجعل منه مزيّة له. وكان نومها بالفعل نوم طفل. واستيقاظها كان كذلك طبيعياً رقيقاً، حتى قبلما تكون عرفت أين هي، إلى حدّ أتساءل معه أحياناً، وقد تملكني الذعر، إن كانت تعودت قبل أن تفطن عندي أن لا تنام وحدها وأن تجد أحدهم إلى جانبها أن تفتح عينيها. لكن غنجها الطفولي كان أقوى. وكنت على غرار الأم أيضاً أنذهل من أنها تستفيق دوماً صافية المزاج إلى هذا الحد. وكانت تستعيد وعيها بعد انقضاء بضع لحظات وترد على لسانها كلمات حلوة لا يرتبط بعضها ببعض وهي محض زقزقات.

لقد اتخذ عنقها، بنوع من التبديل، وقلما تلاحظه عادة، فإذا هو الآن مفرط الجمال أو يكاد، اتخذ الأهمية الضخمة التي فقدتها عيناها اللتان

أطبقهما النوم، عيناها، وهما محاوري المعتاد، ولا يسعني من بعد مخاطبتهما منذ انسدال الجفنين. ومثلما تهب العينان المغمضتان الوجه جمالاً بريئاً ورزيناً بحذفهما كل ما تبالغ النظرات في التعبير عنه، كان ثمة في الأقوال التي ترد «ألبيرتين» في استيقاظها، وما كانت غير ذات دلالة ولكنما تقطعها فترات صمت، جمال خالص لا تشوبه في كل لحظة، كما هي حال الحديث، عادات كلامية ولازمات تردد وآثار عيوب. على أني حينما عقدت العزم على إيقاظ «ألبيرتين» إنما وسعني أن أفعل ذلك دون تخوّف، إذ كنت أعلم أن استيقاظها لن تكون له إطلاقاً صلة بالأمسية التي قضيناها منذ قليل بل سيخرج من نومها مثلما الصبح من الليل، فما إن تتفتح عيناها وهي تبتسم حتى تمد لي فمها فإذا بي، قبل أن تكون قالت بعد شيئاً، قد تذوقت نداوته مهدئةً كما هي نداوة حديقة لا يزال يلفّها الصمت قبل مطلع النهار.

في غد تلك الأمسية التي قالت لي «ألبيرتين» فيها إنها قد تذهب. ثم إنها لن تذهب إلى منزل آل «فيردوران» استيقظتُ باكراً وأعلمني ابتهاجي، ولا أزال بعد نصف نائم، أن ثمة يوماً ربيعياً أُقحِمَ في الشتاء. فقد كان ثمة افكار شعبية سطرت بذكاء لآلات متنوعة، بدءاً من صور مرمم البورسلين أو بوق مقشش الكراسي وانتهاء بناي راعي الماعز الذي كان يبدو في يوم صاحٍ وكأنه راعٍ من صقلية، وكانت تنظم الأجواء الصباحية تنظيماً طفيفاً على هيئة «افتتاحية ليوم عيد». إن السمع، هذه الحاسة الرائعة، إنما يحمل إلينا زحام الشارع الذي يعرض لنا خطوطه جميعها ويرسم سائر الأشكال التي تمر عبره فيرينا ألوانها. كانت الستارات المعدنية لكل من الخبّاز واللبّان، وقد أنزلت مساء البارحة على سائر احتمالات السعادة الأنثوية، كانت ترتفع الآن مثل البكرات الخفيفة في سفينة تقلع وسوف تنزلق مسرعة في اجتيازها البحر الشفيف على حلم مستخدمات في مقتبل العمر. ولعل صوت الستار المعدني ذاك الذي يرفعونه، لعله كان ألف متعتي الوحيدة في حي مختلف. لكنما كان مئة

غيره تثير بهجتي وما كان بودّي أن أضيّع واحداً منها جراء مبالغتي في التأخر في النوم. وإنه لسحر الأحياء القديمة الأرستقراطية أن تكون إلى جانب صفتها هذه شعبية. ومثلما توافر للكاتدرائيات أحياناً في مكان غير بعيد عن بوابتها (التي اتفق لها أن تحتفظ حتى بالاسم، كحال بوابة كاتدرائية «روان» التي دعوها بوابة «الورّاقين» لأن هؤلاء كانوا يعرضون بضاعتهم في الهواء الطلق أمامها)، كان ثمة أصحاب مهن صغيرة مختلفة، لكنهم جوالون، يمرون أمام فندق آل «غيرمانت» الرفيع المظهر، ويذكرونك بين الحين والحين بفرنسا الأمس الكنسية. ذلك لأن النداء الذي كانوا يطلقونه باتجاه البيوت الصغيرة المجاورة لم يكن فيه شيء من الأغنية فيما عدا استثناءات نادرة يسيرة. وكان يختلف عنها قدر اختلاف إنشاد «**بوريس غودونوف**» و«**بيللياس**»[1] - تلوّنه أو لا تكاد تبدلات طفيفة جداً: - لكنه كان يذكّر من ناحية أخرى بتنغيم الكاهن الرتيب في أثناء طقوس دينية لا تشكل مشاهد الشارع هذه سوى صورتها المقابلة الساذجة السوقية، مع أنها نصف طقسية. ولم أصب منها في يومٍ هذا المقدارَ من المتعة إلا منذ سكنت «ألبيرتين» معي، وكانت تبدو لي بمثابة علامة سارّة لاستيقاظها وتوفّر لي، إذ تصرف اهتمامي إلى الحياة في الخارج، إحساساً أفضل بالميزة المهدّئة لحضور عزيز عليّ ومستمر بقدر ما أشتهي. كانت بعض أصناف الطعام التي ينادون عليها في الشارع، والتي كنت شخصياً أكرهها، كانت محببة جداً لـ«ألبيرتين» إلى حدّ أن «فرانسواز» كانت ترسل فتبتاع منها على يد خادمها الشاب الذي ربما أحس بشيء من الإذلال لاختلاطه بجمهور العامة. وفي هذا الحي الشديد الهدوء (الذي لم تعد الأصوات فيه مبعث كآبة لـ«فرانسواز» وأصبحت في ما يخصني من دواعي الاستعذاب) كانت تبلغ مسامعي، كل بتنغيمه

---

(١) بوريس غودونوف أوبرا من أعمال الموسيقار «موسورغسكي Moussorgsky» وبيللياس وميليزاند من أعمال «دوبوسي ».

المختلف، ضروب من الإلقاء المنشد من جانب عامة الناس مثلما ربما وقع ذلك في موسيقى «بوريس» الشديدة الرواج حيث النبرة الأولية تكاد لا تغير فيها عطفة علامة موسيقية تميل على أخرى غيرها، الموسيقى الجماهيرية هذه التي هي لغة أكثر منها موسيقى. كانت من قبيل: «آه! السندانية، السندانية بفلسين» التي تسبب تدافعاً إلى القموع التي تباع فيها هذه المحارات الصغيرة المنفرة التي كانت لولا وجود «ألبيرتين» أثارت اشمئزازي وما كنت فعلت على أية حال أقل من الحلزون الذي أسمعهم ينادون عليه في ذات الساعة.

ههنا أيضاً كان البائع إنما يذكّر بالإلقاء الذي تكاد لا تلوّنه الغنائية لدى «موسورغسكي»، وليس بذاك الإلقاء فحسب. ذلك أن بائع الحلزون، بعدما «قال» على وجه التقريب: «الحلزون، إنه طازج، وجميل»، إنما كان يضيف، بكآبة «ميترلنك» Maeterlinck وجوّه الغامض، وقد نقلهما «دوبوسي» على الصعيد الموسيقي، يضيف في واحدة من تلك الخواتيم الحزينة التي يقترب فيها مؤلف «بيللياس» من «رامو» (Rameau) («إن انبغى أن أقهر أفينبغي أن تكون أنت قاهري؟») وبتنغيم كئيب: «نبيعها بستّة فلوس للدزينة الواحدة».

لقد صعب دائماً عليّ أن أدرك لماذا كانت تلك الكلمات البالغة الوضوح يهمسُ بها بلهجة لا تلائمها إلى هذا الحد وغامضة كالسر الذي يُكسب الجميع مظهراً حزيناً في القصر القديم الذي لم تفلح «ميليزاند» في إشاعة الفرح في ربوعه، وعميقة كفكرة للعجوز «أركيل»[١] الذي يحاول أن يعلن بكلمات بسيطة جداً عن كامل الحكمة وعن القدر. كانت العلامات الموسيقية نفسها التي يرتفع بها بعذوبة متعاظمة صوت ملك «ألمند» العجوز أو «غولو»[٢] ليعلن: «لسنا ندري ما هو قائم هنا. يمكن أن يبدو

(١) هو ملك «ألمند» في أوبرا «بللباس وميليزاند» لـ«دوبوسي».
(٢) ابن «أركيل».

ذلك غريباً. فقد لا يكون ثمة أحداث عديمة الجدوى»، أو «ينبغي ألا نرتاع... لقد كان مخلوقاً صغيراً مسكيناً وغامضاً كسائر الناس»، كانت تلك التي يستخدمها بائع الحلزون ليعيد في غنوة لا تنتهي: «نبيعها بستة فلوس للدزينة الواحدة...». لكن لم يكن يتسع الوقت لذاك الانتخاب الماورائي ليلفظ أنفاسه على حافة اللانهاية إذ كان يقطعها بوق نزق. لم يكن الأمر في هذه المرة أمر مآكل، إذ تلك كانت أقوال كرأس المغنّاة: «جزّ الكلاب وأخصِ الهررة واقطع الأذناب والآذان».

صحيح أن خيال وروح كل بائع أو بائعة كانا يُدخلان في الغالب بدائل في كلمات سائر هذه الألحان التي كنت أسمعها من سريري. لكن وقفة طقوسية تضع ساكناً في وسط كلمة ما ولا سيما إن هي كررت مرتين كانت تذكر باستمرار بالكنائس القديمة. كان بائع الثياب بسوطه الذي يحمله يرتل في عربته الصغيرة التي تجرّها حمارة يوقفها أمام كل منزل ليدخل إلى الباحات: «ثياب، بائع ثياب، ثي..ياب» معتمداً ذات الوقفة بين المقطعين الأخيرين لكلمة ثياب كما لو أنه كان باشر في الترتيل الكنسي: «الآن في دهر الدا... هرين» أو «فلير..قدْ بسلام» على الرغم من أنه لا بد ما كان يؤمن بأزليّة ثيابه وما كان كذلك يهديها أكفاناً للراحة الكبرى بسلام. ولما كانت اللازمات الموسيقية آخذة في التداخل منذ هذه الساعة الباكرة، كذلك كانت بائعة الفصول الأربعة تدفع عربتها وتستخدم في لائحة «طلباتها» التقسيم الغريغوري(١):

**إلى الغضاضة، إلى الخضرة**
**أرضي شوكي غضّ وحلو**
**أرضي شوكي**

مع أنها كانت على الأرجح جاهلة بكتاب ألحان القداس وبالألحان

(١) إشارة إلى الألحان السبعة في الموسيقا الغريغورية.

السبعة التي يرمز أربعة منها إلى رباعية العلوم وثلاثة إلى ثلاثيتها[1].

وثمة رجل يستنبط من ناي من قصب، من مزمار قرب ألحاناً من بلاده الجنوبية التي يتوافق نورها تماماً وأيام الصحو، ويحمل بيده سوطاً ويعتمر طاقية جماعة الباسك، ويتوقف أمام المنازل. إنه راعي الماعز يصحبه كلبان وأمامه قطيع الماعز. وكان إذ يجيء من مكان بعيد يمرّ في حيّنا متأخراً بعض الشيء. وتهرع النساء بقصعة لجمع الحليب الذي سيوفر القوة لصغارهنّ. لكنما أخذ يمتزج مذ ذاك بألحان «جبال البيرينيه» التي يطلقها هذا الراعي المحسن إلينا صوت جرس المجلّخ الذي كان يصيح قائلاً: «سكاكين، مقصات، أمواس». وما كان مشحّذ المناشير بقادر على مقارعته إذ كانت تعوزه الأداة فيكتفي بالنداء «هل لديكم مناشير بحاجة للشحذ، هو ذا الشحّاذ»، فيما كان المبيّض، وهو أشد مرحاً، وبعد عدّ القدور والطناجر وكل ما يبيّضه، كان يرفع صوته باللازمة:

**تام، تام، تام**
**أنا أنا من يبيّض**
**حتى حصباء الطرق المرصوفة**
**أنا من يضع قعوراً في كل مكان**
**ويسد كل الثقوب**
**قوب، قوب، قوب؛**

وإيطاليون قصار القامة يحملون علباً حديدية كبيرة مطليّة باللون الأحمر سُجلت عليها الأرقام الخاسرة والرابحة كانوا يعرضون قائلين وهم يهزون مخشخشات: «هيا إلى اللهو سيداتي، فها هي المتعة».

وجاءتني «فرانسواز» بصحيفة «**الفيغارو**». وسمحت لي نظرة واحدة

(١) رباعية العلوم لدى القدماء هي علوم الحساب والفلك والهندسة والموسيقا. أما الثلاثية فالقواعد والبلاغة والجدلية.

خاطفة أن أتبين أن مقالتي لم تكن بعد مرت. قالت لي إن «ألبيرتين» تسأل إن لم يكن باستطاعتها الدخول إلى غرفتي وقد أرسلت تقول لي إنها في جميع الأحوال عدلت عن القيام بزيارة لأسرة «فيردوران» وإنها تنوي الذهاب حسبما أشرت عليها إلى حفلة «التروكاديرو» المسائية «الاستثنائية» (وهي ما ربما دعوناها اليوم، ولكن بقدر من الأهمية أقل كثيراً، حفلة مسائية احتفالية) بعد نزهة قصيرة على ظهور الخيل ينبغي أن تقوم بها برفقة «أندريه». أما وقد عرفت الآن أنها عدلت عن رغبتها الخبيثة ربما في الذهاب للقاء السيدة «فيردوران» فقد قلت ضاحكاً: «فلتأت»، وقلت في نفسي إنها تستطيع الذهاب حيثما شاءت وإن الأمر واحد عندي. كنت أعلم أني في أواخر بعد الظهر وحينما يحل الغسق سوف أصبح دون شك رجلاً آخر حزيناً يعلّق على أقل حركات «ألبيرتين» من جيئة ورواح أهمية ما كانت تملكها في هذه الساعة الصباحية وحين الطقس جميل إلى هذا الحد، ذلك أن لا مبالاتي كانت تعقبها فكرة سببها الواضحة ولكن دون أن تفسدها. «لقد أكدت لي «فرانسواز» أنك مستيقظ وأني لن أكون مصدر إزعاج لك»، تقول «ألبيرتين» وهي داخلة. ولما كانت أعظم خشية لـ«ألبيرتين»، إلى جانب خشيتها أن تتسبب لي بالبرد يفتح نافذتها في فترة غير ملائمة، أن تدخل إلى غرفتي في أثناء نومي أضافت تقول: «آمل أني لم أكن مخطئة، فقد كنت أخشى أن تقول لي:

**أي امرئ وقح جاء يبحث عن حتفه؟**

وضحكت تلك الضحكة التي كانت تشيع فيّ اضطراباً عظيماً. وأجبتها باللهجة المازحة نفسها:

**وهل يعنيك أنت هذا الترتيب البالغ القسوة؟**

وأضفت قولي، مخافة أن تخرقه ذات مرة: «على أني ربما استشطت غيظاً إن أنت أيقظتني». فقالت «ألبيرتين»: «أدري، أدري، فلا تخف».

وأضفت: بغية التلطيف، وأنا أوالي معها تمثيل مشهد «إستير»، فيما تتوالى في الشارع الصيحات التي جعلها حديثنا مشوشة تماماً:

**وما أجد إلا لديك ما لست أدري من سحر يفتنني**
**على الدوام ولا أمله في يوم**

(وكنت أفكر في نفسي قائلاً: «بلى، إنها كثيراً ما تورثني الملل»). وإذ تذكرت ما سبق أن قالته البارحة قلت وأنا أبالغ في شكرها أن تخلت عن آل «فيردوران» وبغية أن تطيعني الطاعة نفسها في مرة ثانية في هذا الأمر أو ذاك: «ترتابين مني يا «ألبيرتين» أنا الذي يحبك وتثقين بأناس لا يحبونك» (كما لو لم يكن طبيعياً أن ترتاب بمن يحبونك والذين لهم وحدهم مصلحة في الكذب عليك ليعرفوا، ليحولوا دون أمر ما)، وأضفت هذه الأقوال الكاذبة: «لست تصدقين في الأساس أني أحبك، والأمر غريب. وإني بالفعل لا «أعبدك». وكذبت بدورها إذ قالت إنها لا تثق إلا بي، وكانت صادقة بعدها إذ أكدت أنها تعلم أني أحبها. لكن لم يكن يبدو أن ذلك التوكيد يقتضي أنها لا تصدق أني كذاب وأني أرقبها. وكان يبدو أنها تغفر لي كما لو أنها أبصرت في ذاك النتيجة التي لا تطاق لحب كبير أو كما لو أنها ألفت نفسها أقل طيبة.

«رجوتكِ يا صغيرتي العزيزة، لا بهلوانيات من مثل ما فعلت ذلك اليوم. فكري يا «ألبيرتين»، إن وقع لك مكروه!» وما كنت أتمنى لها بالطبع أية أذية. ولكن يا لها متعة لو خطرت لها مع أحصنتها خاطرة طيبة فتذهب إلى حيث لا أدري وحيث تكون أصابت متعة وأن لا تعود من بعد في يوم إلى المنزل! وكم لعل ذلك كان بسّط كل شيء، عنيت أن تمضي للعيش سعيدةً في مكان آخر، وما كنت أهتم حتى أن أعلم أين! «آه! أعلم تمام العلم أنكَ لن تعيش من بعدي ثماني وأربعين ساعة وأنك ربما قتلتَ نفسك».

وهكذا تبادلنا أقوالاً كاذبة. إلا أن حقيقة أكثر عمقاً من تلك التي

ربما جهرنا بها لو كنا صادقين يمكن التعبير عنها والتنبؤ بها أحياناً بوسيلة أخرى غير وسيلة الصدق.

وسألتني قائلة: «أليست تزعجك كل هذه الأصوات في الخارج؟ أما أنا فأعشقها، ولكن أنت على ما أنت من نوم خفيف؟» كان نومي على العكس عميقاً جداً أحياناً (مثلما سبق أن قلت، ولكن مثلما يضطرني الحادث الذي سيلي إلى التذكير به) ولا سيما حين كنت أغفي في الصبّاح فقط. ولما اتفق أن يكون مثل هذا النوم - وسطياً - أربع مرات أوفر راحة فإنه يبدو لمن نام تواً أنه كان أربع مرات أطول فيما هو أربع مرات أقصر. فما أروعه خطأً لعملية ضرب بستة عشر تولي الاستيقاظ هذا القدر من البهاء وتدخل في الحياة تجديداً حقيقياً يشبه تلك التغييرات الكبيرة في الإيقاع التي من شأنها في الموسيقى أن تحمل ذات السن في الإيقاع المعتدل (أندانتيه) زمناً يساوي البيضاء في الإيقاع السريع جداً (بريستيسيمو)[1] والتي لا تعرفها اليقظة. فالحياة فيها تقرب أن تكون ذاتها على الدوام، ومن هنا تنجم خيبات السفر. مع أنه يبدو تماماً أن الحلم مصنوع أحياناً من مادة الحياة الأكثر بدائية، ولكن هذه المادة تعالج فيه وتعجن إلى حد أنك، بالمطّ الناجم عن أنه ليس يحول حدّ من الحدود الساعية في حال اليقظة دون أن تنسحب حتى ارتفاعات شاهقة، لا تتعرفها. وفي الصباحات التي حل بي فيها ذاك القدر، ومسح النوم فيها من دماغي علامات المشاغل اليومية المختطة فيه وكأنما على لوح أسود، كان لا بد لي من إذكاء ذاكرتي: والمرء يستطيع بوتائر إرادية عالية أن يتعلم ما أنساه إياه غياب الذاكرة في النوم أو أية نكسةوما يعود فينبعث شيئاً فشيئاً كلما انفتحت العينان أو زال الشلل. وكنت قد عشت في غضون بضع دقائق عدداً كبيراً من الساعات إلى حد أنني حين أردت أن أوجّه إلى «فرانسواز»، وكنت أنادي عليها، كلاماً يتفق والواقع ويطابق الساعة كنت

---

(1) Andante. Prestissmo

أراني مضطراً لاستخدام كامل طاقة الضغط الداخلية لديّ كي لا أقول: «ويحك يا «فرانسواز»، ها إننا في الساعة الخامسة مساء ولم أرك منذ عصر البارحة» وكيما أطرد أحلامي. وكنت أقول، بما يناقضها وأنا أكذب على نفسي، كنت أقول بوقاحة، وأنا أصمت نفسي بكامل قواي، أقوالاً مناقضة: «فرانسواز»، إنها العاشرة بالتأكيد!» وما كنت حتى أقول العاشرة صباحاً، بل العاشرة فحسب كي يبدو أن هذه الساعة العاشرة الصعبة التصديق إنما يتلفظ بها بلهجة أكثر تلقائية. على أن الإدلاء بهذه الأقوال بدلاً من تلك التي كان يوالي التفكير بها النائم الذي كنته بعد، وكدت لم أستيقظ، كان يقتضيني ذات الجهد في التوازن الواجب على من يقفز من القطار أثناء سيره فيجري لحظة على امتداد السكة ويفلح مع ذلك في تفادي السقوط. إنه يجري لحظة لأن الوسط الذي يغادره كان وسطاً تحركه سرعة كبيرة ويختلف اختلافاً عظيماً عن الأرض الساكنة التي تصادف قدماه بعض الصعوبة في تعوّدها. وليس ينجم عن أن عالم الحلم ليس عالم اليقظة أقل حقيقة، بل على العكس. فإن إحساساتنا في عالم النوم مثقلة، كل يمسك بآخر فوقه يضاعفه ويعميه دونما طائل، إلى حد لا نعرف معه حتى أن نميز ما يجري في ذهول الاستيقاظ: أتراها «فرانسواز» التي جاءت أم أنا من مضى إليها بعدما مللت مناداتها؟

والصمت في تلك اللحظة كان الوسيلة الوحيدة نكشف عن أي شيء مثلما هو الأمر حين يوقفك قاضٍ أحيط علماً بظروف تتعلق بك ولكنك لم توضع أنت في سرّها. أهي «فرانسواز» التي جاءت أم أنا من نادى؟ بل أما كانت «فرانسواز» هي النائمة وأنا من أيقظها تواً؟ وأكثر من ذلك. ألم تكن «فرانسواز» مسجونة داخل صدري، بما أنه لا وجود تقريباً لتمييز الأشخاص وتفاعلهم في هذه العتمة المبهمة حيث الحقيقة. بمثل قلة شفافيتها في جسم الشيهم وحيث الإدراك الحسي المعدوم تقريباً ربما استطاع تزويدنا بفكرة عن إدراك بعض الحيوانات؟ ولئن طفت، على أي حال، حتى على صفحة الجنون الصافية التي تسبق النوم تلك الأكثر ثقلاً،

لئن طفت بجلاء قطع من التعقل، ولم يكن اسما «تين» (Taine) و«جورج إيليوت» (Geroge Eliot) مجهولين فيها فليس يقلل ذلك من تفوق عالم اليقظة بأنه يمكن استمراره كل صباح ولا يستطيع الحلم ذلك كل مساء. ولكن ربما كان ثمة عوالم أخرى أكثر حقيقة من عالم اليقظة. ثم إننا رأينا، حتى في ما يخص هذا الأخير، أن كل ثورة في الفنون إنما تبدّله، أضيف إلى ذلك في الوقت نفسه درجة الكفاءة أو الثقافة التي تميز الفنان عن الأحمق الجاهل.

وغالباً ما تكون ساعة نوم زائدة نوبة شلل ينبغي بعدها أن نستعيد استخدام أعضائنا وأن نتعلم الكلام ثانية. وقد لا تفلح الإرادة في ذلك: لقد بالغنا في النوم فما عاد لنا وجود. واليقظة نكاد لا نحسّها آلياً، ودونما وعي، مثلما يمكن أن يكون أمر إغلاق صنبور داخل قسطل. وتعقب ذلك حياة أقل وعياً من حياة قنديل البحربما خيّل للمرء فيها أنه يستخرج من قاع البحار أو يعود من الأشغال الشاقة لو تيسر له فقط أن يفكر في شيء. ولكن إلهة الذاكرة تنحني إذاً من علياء سمائها وتمد لنا أمل القيامة على شكل «تعوّد المرء طلب القهوة بالحليب». ثم إن هبة الذاكرة المفاجئة ليست دائماً بمثل هذه البساطة. فكثيراً ما يتوفر للمرء بالقرب منه في هذه الدقائق الأولى التي ينزلق فيها في اليقظة تشكيلة من حقائق مختلفة يظن المرء أنه قادر على الاختيار منها كما هو الحال في لعبة ورق. فالوقت صباح الجمعة ونحن عائدون من نزهة، أو هي ساعة تناول الشاي على شاطئ البحر. ويغلب أن تكون فكرة النوم وأننا نرقد بقميص النوم آخر ما يوافيك. والانبعاث لا يجيء في الحال، فإنه يخيل إلينا أننا قرعنا الجرس فيما لم نفعل، وتنازعنا أقوال مجنونة. والحركة وحدها هي التي ترجع لنا التفكير، وبعدما ضغطنا بالفعل على الإجاصة الكهربائية أمكننا أن نقول ببطء ولكن بوضوح: «إنها العاشرة بالفعل، فإليّ بالقهوة بالحليب يا «فرانسواز»».

فيا لها أعجوبة! لم تستطع «فرانسواز» أن ترتاب بخضمّ الأوهام الذي كان يغمرني كلياً والذي توافر لي العزم لتمرير سؤالي الغريب عبره. فقد

ردت عليّ قائلة: «إنها العاشرة وعشر دقائق»، الأمر الذي كان يُكسبني مظهراً معقولاً ويسمح لي بأن أحول دون تبيّن الأحاديث الغريبة التي أخذتني دوّامتها طويلاً جداً (في الأيام التي لم يستلّ حياتي مني جبل من العدم). لقد عدت، بفرط العزيمة فانخرطت في الواقع. كنت ما أزال أتمتع ببقايا النوم، وأعني بها الاختراع الوحيد والتجديد الوحيد الكائن في طريقة الرواية فإن صنوف السرد جميعاً في حال اليقظة، وإن جمّلتها الآداب، لا تتضمن هذه الاختلافات الغامضة التي يُستمد منها الجمال. من اليسير التحدث عن الجمال الذي ينشئه الأفيون. لكن ساعة هي متوقعة من النوم الطبيعي سوف تكشف لرجل تعوّد ألا ينام إلا بالعقاقير المساحة الصباحية الشاسعة لمنظر يتّسم بالغموض نفسه وأوفر برودة. وإننا بتغيير الساعة والمكان اللذين ننام فيهما وبإحداث النوم بصورة مصطنعة أو على العكس بالعودة يوماً واحداً على النوم الطبيعي - وهو الأوفر غرابة منها جميعاً بالنسبة لمن تعوّد النوم باللجوء إلى المنوّمات - نستطيع الحصول على أنواع من النوم ألف مرة أكثر عدداً مما قد يتوافر لنا، كبستانيين، من أنواع القرنفل أو الورد. والبستانيون يحصلون على أزهار هي أحلام عذبة، وعلى أخرى غيرها أيضاً تشبه الكوابيس. وحينما كنت أغفي بطريقة ما كنت أستفيق وأنا أرتجف برداً وأظن أني مريض بالحصبة أو أن جدتي، والأمر أشدّ إيلاماً (جدتي التي ما عدت أفكر بها البتة). كانت تتألم إذ سبق لي أن سخرت منها يوم أرادت في «بالبيك»، وتظن المنية وافتها، أن يكون لدي صورة شمسية لها. وسرعان ما كنت أود، مع أنني مستيقظ، أن أمضي لأبين لها أنها لم تفهمني. ولكنني كنت مذ ذاك أستعيد الدفء، وتخمين الحصبة قد استُبعد، وأصبحت جدتي بعيدة عني إلى حد لم تعدّ معه تبعث الألم في فؤادي.

وأحياناً تحل ظلمة مفاجئة على صنوف النوم المختلفة تلك. فكان يعتريني الخوف إذ أطيل في نزهتي في شارع عريض مظلم كله أسمع فيه خطى متسكعين. ويرتفع على نحو مفاجئ صوت جدال بين شرطي وواحدة

من تلك النساء اللاتي كثيراً ما كن يمارسن مهنة القيادة وتظنهن من بعيد من الحوذيين الشباب. وما كنت أبصرها فوق مقعدها الذي تحيق به العتمة، لكنها كانت تتكلم وكنت أقرأ في صوتها كمالات وجهها وصبا جسدها. وأمضي إليها في الظلام كي أستقل عربتها قبل أن تقلع ثانية. والمسافة بعيدة؛ لكن الجدال لحسن الحظ كان يتطاول مع رجل الشرطة، فألحق بالسيارة ولا تزال واقفة. ويضاء هذا القسم من الشارع بمصابيح، وتضحي السائقة واضحة للعين. لقد كانت بالضبط امرأة. ولكنها عجوز مديدة القامة قوية البنية ولها شعور بيضاء تندفع من تحت قبعتها وبثور حمراء تحفر وجهها. ووليت الأدبار وأنا أفكر قائلاً: «أفهكذا هو أمر صبا النساء؟ واللواتي التقيناهن هل أضحين، إن نحن رغبنا فجأة في لقائهن ثانية، مسنّات؟ هل المرأة التي نشتهيها هي على غرار الأدوار المتشابهة في المسرح حيث يضطرنا تغيّب واضعات الدور إلى أن نعهد به إلى نجمات جديدات؟ ولكنها لم تعد ذاتها آنذاك».

ثم يجتاحني جو من الكآبة. وهكذا يتوافر لنا في النوم نماذج كثيرة من «الشفقة»، على غرار لوحات «المنتحبة» (Pietà)[1] في عصر النهضة، لكنها ليست منفذة مثلها في المرمر، بل هي على العكس لا قوام لها. لكنما لها جدواها وهي حملنا على تذكر رؤية للأشياء أكثر رقة وأوفر إنسانية، وكثيراً ما تسول لنا النفس أن ننساها في تعقل اليقظة البارد الذي يفيض عداء في بعض الأحيان. من هذا القبيل كانت تردني ذكرى العهد الذي قطعته على نفسي في «بالبيك» بأن أحافظ دائماً على ملاطفة ة «فرانسواز». وسأعلم كيف أجهد على مدى كامل هذا الصباح أن لا أغتاظ من مشاحنات «فرانسواز» ورئيس الخدم وأن أكون رفيقاً بـ«فرانسواز» هي التي يخصها الآخرون بالقليل القليل من الرفق. في هذا الصباح فقط؛ وينبغي لي أن

---

(١) لوحات وتماثيل لفنانين إيطاليين في عصر النهضة تمثل انتحاب السيدة العذراء على ولدها بعد إنزاله عن الصليب.

أسعى إلى وضع نظام يكون أكثر استقراراً بعض الشيء. فإنه مثلما لا تحكم الشعوب طويلاً سياسة قوامها العاطفة البحتة كذلك لا يُحكم الناس بذكرى أحلامهم. وحلمي الأخير أخذ مذ ذاك يتوارى. وكنت في سعيي إلى استرجاعه لأغراض الوصف أحمله على الهرب بسرعة أكبر. فلم يعد جفناي يحكمان إغلاق عيني بتلك القوة ذاتها، وإن حاولت استعادة حلمي فسوف تنفتحان تماماً. لا بد في كل حين من الاختيار بين الصحة والتعقل من جهة والمتع الروحية من جهة أخرى. وقد جبنت دوماً فاخترت الجانب الأول. والسلطان الخطر الذي كنت أتخلى عنه كان بعد على أية حال أكثر خطراً مما يظنون. فصنوف الشفقة والأحلام لا تتلاشى وحدها فليست الأحلام وحدها، إنْ غيّرنا على هذا النحو الظروف التي يجري النوم فيها، هي التي تتبدد، بل كذلك، وعلى مدى أيام طويلة وأحياناً على مدى سنوات، القدرةُ لا على الحلم فحسب بل على النوم أيضاً. إن النوم إلهي ولكنه قليل الاستقرار وأقل صدمة تجعله يتبخّرَ. وإذ هو صديق العادات فإنها تمسك به كل مساء، إذ هي أكثر ثباتاً منه، في مكانه المكرس، وتقيه أية صدمة. ولكن إن بدلتَ مكاناً ولم يعد هو تحت سيطرتها فإنه يتبدد كالدخان. إنه يشبه الشباب والحب ولستَ تجده من بعد.

وإنما تزايد أو تناقص الفواصل الزمنية هو الذي كان يخلق الجمال في أنواع النوم المختلفة هذه كما هي الحال في الموسيقى أيضاً. كنت أنعم بذاك الجمال بيد أني كنت فقدت في المقابل في هذا النوم، وإن يك قصيراً، جزءاً لا يستهان به من الأصوات التي تحمل إلينا الإحساس بحياة المهن الجوالة والأغذية في باريس. لذلك كنت أجهد عادةً (دون أن أتوقع للأسف المأساة التي لا بد ستجرها عليّ مثل هذه الإفاقات المتأخرة والقوانين الصارمة الفارسية التي لأحشورش «الراسيني»[1] الذي كنته) في

(١) أحشورش ملك الفرس على نحو ما ورد في مسرحية «إيستير» للمسرحي الفرنسي الكبير «جان راسين» لا في الرواية التاريخية.

الاستيقاظ باكراً كي لا أضيّع شيئاً من تلك الأصوات. فإني، إلى جانب متعة معرفتي بالميل الذي تبديه لها «ألبيرتين» وخروجي بنفسي خارجاً فيما أظل مستلقياً، كنت أسمع فيها ما يشبه رمز الجو في الخارج والحياة المضطربة الخطرة التي ما كنت أدع لها أن تطوف أرجاءها إلا تحت وصايتي، في امتداد خارجي للاحتجاز، والتي كنت أخرجها منها ساعة أشاء لأعيدها بالقرب مني.

لذلك وسعني أن أجيب «ألبيرتين» أصدق ما تكون الإجابة: «إنها على العكس تروقني لأني أعلم أنك تحبيّنها». «هيا الى القارب، هيا الى المحار، هيا الى القارب». - «آه! المحار، كم أشتهيه!» كانت «ألبيرتين» لحسن الحظ سرعان ما تنسى ما سبق أن اشتهته، فنصف جرّاء التقلّب والنصف جراء لين العريكة، وقبلما يتسنى لي الوقت لأقول لها إنها قد تحصل على أفضل منه لدى «برونييه»، كانت تريد على التوالي كل ما كانت تسمع بائعة السمك تنادي عليه: «إلى القريدس، إلى القريدس الطيب، عندي شفتين بحري لا يزال حياً، هو حي بعد». - «غُبر للقلي». - «ها قد وصل الاسقمري، الاسقمري الطازج، الاسقمري الجديد. والطيب، يا بلح البحر!» كان الإعلان التالي: «ها قد وصل الاسقمري» يبعث الرعدة في أوصالي على الرغم مني [1]. ولكن لما كان هذا الإعلان لا يمكن فيما يبدو لي أن ينطبق على سائقي فما كنت أفكر إلا في السمكة التي كنت أكرهها ولا يستمر قلقي. وقالت «ألبيرتين»: «بلح البحر، كم أودّ أكل بلح البحر». - «يا حبيبتي، كان ذلك في «بالبيك» أما هنا فلا يساوي شيئاً. وعلى أي حال تذكري، رجوتك، ما قاله لك «كوتار» بخصوص بلح البحر». لكنما كان يزيد من سوء وقع ملاحظتي أن بائعة الخضار الجوالة التالية كانت تعلن عن شيء يحرمه «كوتار» بعد أكثر ما يكون:

---

(١) اسقمري في الفرنسية تعني كذلك القوّاد، وهو ما يثير مخاوفه.

الخس البلدي، الخس البلدي!
لا نبيعه بل نجول به.

وتوافقني «ألبيرتين» مع ذلك على التضحية بالخس البلدي بشرط أن أعدها بالمبادرة بعد بضعة أيام إلى الشراء من البائعة التي تعلن صائحة: «لدي «هليون أرجنتوي» ظريف، لدي الهليون الظريف». وكان صوت غامض، ربما كان يتوقع منه عروض أكثر غرابة، يلمّح صائحاً: «براميل، براميل!» وكان لزاماً أن لا تبرح خيبة أملك من أن يقتصر الأمر على البراميل لأن هذه الكلمة كانت تغطيها تغطية كاملة تقريباً الدعوة التالية: «بائع الزجاج، بائع الزجاج، هو ذا بائع الزجاج، بائع الزجاج». والتقسيم غريغوري[1] ذكّرني مع ذلك بالقداس أقل مما فعل نداء بائع الخرق وهو يقلّد دون علم منه واحداً من تلك الانقطاعات المفاجئة في التصويت في أثناء بعض الصلوات، وهي كثيرة الورود إلى حد ما في طقوس الكنيسة: *Prasceptis salutaribus moniti et divina institutione formati*» «*audemus dicere* (بعدما تعلمنا أوامره الخلاصيّة وتهذبنا بتعاليمه الإلهية نتجرأ أن نقول) [2]، يقول الكاهن وهو ينهي كلامه بنزق بكلمة «*dicere*». ومثلما كان الشعب النقي في العصر الوسيط يمثل في باحة الكنيسة نفسها مشاهد التهريج أو النقد اللاذع، فإنما تذكر «*dicere*» (قال) هذه، ودون مقصد وقح، ببائع الخرق حينما يقول المقطع الأخير، بعدما تباطأ على الكلمات، بنزق خليق بالنبر الذي وضع قواعده البابا الكبير في القرن السابع: «خرق، خردةللبيع (والكل مرتل ببطء كما هو أمر المقاطع التالية، في حين يقطع الأخير بنزق أكثر من «*dicere*»)، جلود أرانب». «بانسيا، بالنسيا الظريفة، البرتقال الطازج»، والكرّاث المتواضع هو أيضاً: «إليكم

---

(١) إشارة إلى قواعد الترتيل الكنسي التي وضعها البابا غريغوريوس الكبير الذي تولى البابوية بين ٥٩٠ و٦٠٤. لكن الترتيل الغريغوري جاء في الحقيقة بعد هذه الفترة.
(٢) الكلمات التي تسبق الصلاة الربانية: «أبانا الذي في السماوات...».

الكراث الظريف»، والبصل: «البصل عندي بثمانية فلوس»، كلها كانت تتلاطم بالنسبة إليّ تلاطم صدى لأمواج لعل «ألبيرتين» كان يمكن أن تضلّ فيها لو كانت طليقة، وتتخذ بذلك عذوبة «*Suave mari magno*» (كم يحلو حين تهب الرياح على البحر الشاسع...).




إليكم الجزَر
والجزرة بفلسين.

وصاحت «ألبيرتين» قائلة: «آه! ملفوف وجزر وبرتقال. ليس ثمة إلا أشياء أشتهي أن آكلها، فمُرْ أن تشتريها «فرانسواز» سوف تحضّر الجزر بالكريما. ثم ما ألطف أن نأكل هذا كله معاً. وسيكون الطبق هذه الأصوات التي نسمعها وقد استحالت وجبة طيبة. هيا اسأل «فرانسواز»، رجوتك، أن تعدّ بالأحرى شفنين بحر بالزبدة المحروقة. فما ألذّه!» - «اتفقنا يا حبيبتي الصغيرة. لا تمكثي هنا، وإلا طلبت كل ما يدفع به أمامهم باعة الخضار الجوّالون». - «وافقت: إني ذاهبة، لكن لا أريد من بعد البتة لأعشيتنا إلا أموراً سمعنا من ينادي عليها. ما أعظمها تسلية. وتصوّر أنه لا بد من الانتظار بعد شهرين كي توافي أسماعنا: «فاصولياء خضراء، فاصولياء طريّة، إليكم الفاصوليا الخضراء». وما أحسن القول: فاصولياء طرية! تعلم أني أريدها فاخرة رهيفة المذاق تقطر مرقة خلّ، يخيّل لك أنك لا تأكلها فإنها غضة كالندى. لكن شأنها للأسف شأن الجبنة بالكريما التي على شكل قلب، إنها لا تزال بعيدة جداً، «الجبنة الطيبة بالكريد، الجبنة بالكريد، طيبة الجبنة!» وعنب «فونتينبلو» الأبيض: «عندي الأبيض الحلو». وكنت أفكر برعدة في كل هذا الوقت الذي ينبغي لي أن البثة وإياها إلى حين العنب الأبيض. «اسمع، قلت إني لا أبغي من بعد سوى الأشياء التي نسمع من ينادي عليها. لكني بالطبع أقوم باستثناءات. فليس يستحيل إطلاقاً أن أمرّ بـ«روباتيه» لأوصي على مثلجات لكلينا. ستقول لي إنه لم يحن موسمها بعد ولكن كم أشتهيها!» وهزني

مشروع «روباتيه» الذي صار مؤكداً أكثر ومشبوهاً في نظري بسبب هذه الكلمات: «ليس يستحيل إطلاقاً». كان ذلك يوم استقبال آل «فيردوران»، ومنذ أعلمهم «سوان»، أنه أفضل البيوتات فإنهم كانوا يوصون على مثلجاتهم ومحمّصاتهم لدى «روباتيه». «لست أعترض البتة على المثلجات يا عزيزتي «ألبيرتين»، ولكن دعيني أوصي لك عليها، ولست أعرف أنا إن كنت سأفعل لدى «بواريه بلانش» أو «روباتيه» أو في الـ«ريتز»، سأرى على أي حال». فقالت بلهجة محاذرة: «فأنت خارج إذن؟» كانت تزعم دائماً أنه يغبطها أن أخرج أكثر مما أفعل، ولكن إن استطاعت كلمة مني أن تحملها على افتراض أني لن أمكث في المنزل فإن هيئتها القلقة كانت تحمل على الظن بأن المسرة التي تصيبها من مشاهدتي أخرج دون انقطاع ربما لم تكن صادقة جداً. «ربما خرجت وربما لا، تعلمين تماماً أني لا أعد قط مشروعات سلفاً. والمثلجات في جميع الأحوال ليست شيئاً ينادى عليه ويدفع في الشوارع، فلماذا تبغينها؟» حينئذ ردّت عليّ بهذه الأقوال التي أرتني بالفعل كم تنامى لديها فجأة منذ «بالبيك» من ذكاء وذوق دفين، بهذه الأقوال التي من صنف تلك التي تزعم أنها ناجمة فقط عن تأثيري ومساكنتها المستمرة لي، هذه الكلمات التي ما كنت مع ذلك لأقولها البتة، كما لو أن ثمة حظراً فرضه عليّ مجهول أن أستخدم يوماً في حديثي صيغاً أدبية. ربما لن يكون المستقبل واحداً بالنسبة إلى «ألبيرتين» وإليّ. لقد وافاني ما يشبه الشعور المسبّق بذلك إذ رأيتها تسارع إلى استخدام صور كتابية الصيغة إلى حد بعيد في حديثها وتبدو كأنما خصصت لاستعمال آخر أكثر قدسية وما أزال أجهله. لقد قالت لي (ووجدتني ترقّ نفسي مع ذلك الى حدّ كبير إذ فكرت قائلاً: «صحيح انني لا أتكلم كما تفعل، لكنها ما كانت مع ذلك لتتكلم على هذا النحو لولاي وقد تأثرت بي تأثراً عميقاً ولا يسعها والحالة هذه ألا تحبني فإنها من صنيعي»): «ما أحبّه في الأطعمة المنادى عليها أن الشيء المسموع، كالرابسوديا[1] مثلاً،

---

(١) Rhapsodie: مقطوعة موسيقية تتميّز بحرية التأليف.

إنما تتبدل طبيعته على المائدة ويتوجّه إلى سقف فمي. أما المثلجات (لأني آمل ألا توصي لي عليها إلا مشكلة في تلك القوالب المتقادمة الزي التي اتخذت جميع الأشكال المعمارية الممكنة) فإني في كل مرة أتناولها معابد أو كنائس أو مسلات أو صخوراً إنما أنظر أولاً إلى ما يشبه الجغرافية الرائعة والتي أحوّل أوابدها التي من توت العلّيق أو الفانيليا، أحوّلها فيما بعد برودة في حلقي». «ورأيت أنها تجاوزت قليلاً جودة القول، ولكنها أحست أني أجدها من جيّد القول وتابعت، وهي تتوقف لحظة حينما تفلح في التشبيه لتضحك ضحكتها الحلوة التي كانت شديدة القسوة عليّ لأنها تقطر شهوة: «يا إلهي، أخشى أنك واجد في فندق «ريتز» أعمدة «فاندوم»[1] من المثلجات، من مثلجات بالشوكولا أو توت العلّيق، وحينئذ ينبغي عدّة منها كي يبدو أنها أعمدة نذور أو عُمد مرفوعة في ممر تمجيداً «للبرودة». هم يصنعون أيضاً مسلّات من توت العليق ستنتصب بين مكان وآخر في صحراء عطشي الحارقة وسوف أذيب غرانيتها الوردي في أعماق حلقي فترويه أفضل مما تفعل الواحات، وهنا انطلقت الضحكة العميقة إما اغتباطاً لكلام تحسنه إلى هذا الحد، وإما هزءاً من نفسها لأنها تتكلم بصور متلاحقة إلى هذا الحد. وإما، للأسف بداعي التلذذ الجسدي لما تحس داخل ذاتها شيئاً لذيذاً إلى هذا الحد ورطباً إلى هذا الحد يسبب لها ما يساوي المتعة. إن جبال مثلجات الريتز هذه تبدو أحياناً وكأنها «الجبل الوردي». ولست أكره، حتى لو كانت المثلجات بالليمون، أن لا يكون لها شكل مذهل وأن تكون غير منتظمة شديدة الانحدار كأحد جبال «إيلستير». وينبغي حينذاك ألا تكون مفرطة البياض بل على قليل من الصفرة وبهذا المظهر الأبيض المتسخ الشاحب الذي لجبال «إيلستير». ومع أن المثلجة لا تبدو ضخمة، وليست سوى نصف مثلّجة إن شئت فإن هذه المثلجات بالليمون جبال مصغّرة مع ذلك، بمقياس صغير جداً. ولكن المخيّلة تصحح النسب، كما هو أمر تلك الأشجار اليابانية الصغيرة القزمة

(١) من طراز عمود ساحة فاندوم في باريس.

التي تحسّ مع ذلك تماماً أنها أشجار أرز وسنديان وأشجار سم، حتى أني إن جعلت بعضاً منها على امتداد «سويقية» في غرفتي توافرت لديّ غابة مترامية تنحدر صوب النهر وقد يضيع فيها الأولاد الصغار. ومثلما أرى أفضل الرؤية على حضيض نصف مثلجتي الصفراء بالليمون حوذيين ومسافرين ومحفات يتولى لساني أن يدحرج فوقها انهيارات ثلجية سوف تذهب بها (وأثارت غيرتي اللهجة الشهوانية القاسية التي قالت بها ما تقول). وأضافت قولها: «كذلك أتولى بشفتيّ أمر تهديم هذه الكنائس «البندقيانية» عموداً فعموداً، وهي من لون سماقيّ هو لون توت الأرض، وإلقاء ما أكون تركته جانباً على رؤوس المؤمنين. أجل، سوف تنتقل كل هذه الصروح من مقامها الحجري إلى صدري حيث تخفق منذ الآن برودتها الذائبة، لكن اسمع، ليس ما يهيج، حتى دون مثلجات، وما يبعث الظمأ مثلما تفعل إعلانات المياه المعدنية. لم يكن في «مونجوفان»، في منزل الآنسة «فانتوي»، لم يكن من صانع مثلجات معروف في الجوار، ولكننا كنا نقوم في الحديقة بجولتنا في «فرنسا» وذلك باحتسائنا كل يوم مياهاً معدنية غازية جديدة على غرار مياه «فيشي» التي ما إن تسكبها حتى تبعث من أسفل الكأس سحابة بيضاء تقبل ناعسة وتتلاشى إن لم تشرب بسرعة كافية». لكن سماع الحديث عن «مونجوفان» كان يشق عليّ كثيراً، فكنت أقاطعها. «إني أضجرك، فوداعا يا عزيزي». أي تبدّل منذ «بالبيك» أتحدى فيه «إيلستير» نفسه إن استطاع أن يستشف لدى «ألبرتين» هذا الثراء الشعري، والشعر فيها أقل غرابة وأقل سمة شخصية من شعر «سيليست ألباريه»، على سبيل المثال، التي جاءت بالأمس للقائي، ولما وجدتني أستلقي في سريري قالت لي: «يا عظمة السماء الملقاة على سرير!» - «ولماذا السماء يا «سيليست»؟ - «آه! لأنك لا تشبه أحداً وأنت على خطأ مبين إن ظننت فيك شيئاً ممن يرتحلون فوق أرضنا الحقيرة». - «وفي جميع الأحوال لماذا «ملقى»؟ - «لأنه ليس فيك شيء من الرجل المستلقي، ولست فوق سرير، وإنك لا تتحرك، لكأنما نزل ملائكة فألقوا

بك هنا». ما كانت «ألبيرتين» لتجد ذلك في يوم، لكن الحب منحاز حتى حينما يبدو على شفا أن ينتهي. كنت أفضل «جغرافية» الأشربة الطريفة التي كان يبدو لي تطرفها السهل سبباً لحب «ألبيرتين» وبرهاناً على أن لي سلطاناً عليها وأنها تحبني.

وما إن خرجت «ألبيرتين» حتى أحسست أي تعب كان يسببه لي هذا الحضور المستمر الذي به نهم إلى الحركة والحياة والذي كان يعكر نومي بتحركاته ويعيّشني في برد دائم جراء الأبواب التي تدعها مفتوحة ويضطرني - بغية إيجاد حجج تبرر عدولي عن مرافقتها دون أن أبدو مع ذلك شديد المرض، وبغية توفير من يرافقها من جانب آخر - أن أبذل كل يوم أكثر ما بذلت شهرزاد من حذق. ولئن كانت الرواية الفارسية بمقدار الحذق نفسه تؤخر موتها، فقد كنت لسوء حظي أعجل في موتي. وهكذا فإن في الحياة بعض المواقف، وليست كلها ناجمة مثل ذاك عن الغيرة في الحب وصحة واهنة لا تمكّن من مشاطرة شخص نشيط وفتي حياته، لكنما تُطرح فيها مع ذلك على نحو يكاد يكون طبياً مسألة متابعة الحياة المشتركة أو العودة إلى العيش المنفصل الذي كان: فلأي من الراحتين ينبغي أن تكرّس النفس (بمتابعة الإرهاق اليومي أو بالعودة إلى قلق الغياب) - راحة الدماغ أم راحة القلب؟

كنت في جميع الأحوال راضياً تماماً أن ترافق «أندريه» «ألبيرتين» إلى التروكاديرو، ذلك لأن حوادث قريبة وهيّنة من ناحية أخرى كان مؤدّاها أن يقظة السائق أو على الأقل ما يداخل يقظته من فطنة، لم تعد تبدو لي بمثل قوّتها فيما مضى، مع أن ثقتي بنزاهته ظلّت واحدة. من ذلك أنّ «ألبيرتين» منذ فترة قريبة جداً كنت أرسلتها فيها إلى «فيرساي» برفقته، قالت لي إنها تناولت غداءها في «الخزانات»، ولما كان السائق كلمني عن مطعم «فاتيل» يوم لاحظت ذلك التناقض فقد اتخذت من ذلك حجة للنزول والتحدث إلى الميكانيكي (وهو نفسه دائماً ذاك الذي رأيناه في «بالبيك») في أثناء ما كانت «ألبيرتين» ترتدي ثيابها. «قلت لي إنك تناولت غداءك في

مطعم «فاتيل»، وتحدثني «ألبيرتين» عن «الخزانات»، فما عسى يعني ذلك؟» وأجابني الميكانيكي: «آه! قلت إني تغذيت في الـ«فاتيل»، لكنما لا يسعني أن أعلم أين تغذّت الآنسة. لقد فارقتني لدى وصولها إلى «فيرساي» لتستقل عربة بحصان، وهذا ما تفضّله حين لا يتطلب الأمر قطع المسافات. لقد أخذ الحنق مذ ذاك يتملكني وأنا أفكر أنها كانت وحدها: لكنما لم يكن ذلك إلا وقت الغداء في النهاية، وقلت بمظهر الملاطف (إذ لا أريد أن أبدي بصورة أكيدة أني أكلّف من يراقب «ألبيرتين» فلعل ذلك كان بدا مذلاً لي وبصورة مضاعفة لأن الأمر ربما عنى أنها كانت تخفي عني أعمالها): «كان بوسعك أن تتغدى. لست أقول معها، بل في المطعم نفسه». - «لكنها كانت سألتني أن أكون في السادسة مساء فحسب في «ساحة السلاح». وما كان عليّ أن أذهب لاصطحابها لدى خروجها من الغداء».

- «آه! قلت مستعجباً وأنا أحاول إخفاء وضعي المضني. وعدت إلى فوق. وهكذا لبثت «ألبيرتين» وحدها على مدى نيّف وسبع ساعات متتالية، وتركت لنفسها. صحيح أني كنت أعلم أن العربة لم تكن مجرد ذريعة للتخلص من رقابة السائق. فقد كانت «ألبيرتين» في المدينة تفضل التسكع في عربة، فهي تقول إنها ترى بصورة أفضل وإن الهواء أكثر عذوبة. لكنها على الرغم من ذلك أمضت سبع ساعات لن أعلم شيئاً عنها في يوم. وما كنت أجرؤ على التفكير في الطريقة التي لا بدّ تصرفت بها أثناءها. ورأيت أن الميكانيكي كان غير بارع إلى حد بعيد ولكن ثقتي به أضحت مذ ذاك كاملة. فإنه لو كان متواطئاً أقل ما يكون التواطؤ مع «ألبيرتين» لما أقرّ لي البتة بأنه تركها حرّة من الحادية عشرة حتى السادسة مساءً. ولما كان ثمة سوى تفسير آخر لإقرار السائق ذاك، ولكنه يجانب المنطق. وقوامه أن يكون اختصام بينه وبين «ألبيرتين» بعث لديه الرغبة في أن يظهر لصديقتي، إذ يكشف لي أمراً زهيداً، أنه من قوم يتكلمون وإن لم تَسِرْ، بعد هذا التنبيه الأولي اليسير جداً، بالاستقامة التي يريدها فسوف

يبوح بكل شيء. لكن هذا التفسير كان مستحيلاً، إذ كان ينبغي بادئ الأمر افتراض خصام لا وجود له بين «ألبيرتين» وبينه، ثم إكساب طبيعة المبتزّ لهذا الميكانيكي الجميل الذي بدا على الدوام كثير الدماثة وولداً طيباً جداً. ورأيت منذ بعد الغد على أي حال أنه كان يعلم، أكثر مما ظننته مقدار لحظة في شكوكي المجنونة، كيف يمارس على «ألبيرتين» رقابة متكتمة متبصرة. ذلك أني إذ استطعت أن أنتحي به ناحية وأن أكلمه حول ما قاله لي عن «فيرساي» كنت أقول له بلهجة ودودة طليقة: «هذه النزهة إلى «فيرساي» التي كنت تحدثني عنها قبل البارحة، لقد كان أمرها عظيماً على نحو ما جرت، ولقد كنت عظيماً شأنك دائماً، لكن، وعلى سبيل الإلماح البسيط، وهو لا أهمية له على أي حال، أرى لي، منذ أن وضعت السيدة «بونتان» ابنة أخيها في حمايتي، مسؤولية عظيمة كما أن بي خشية من الحوادث وألوم نفسي أعظم اللوم على مرافقتي إياها إلى حدّ أفضل معه أن تكون أنت، أنت الموثوق إلى أبعد حدّ، الحاذق إلى حد رائع والذي لا يمكن أن يقع له حادث، أن تكون أنت من يرافق الآنسة «ألبيرتين» إلى أي مكان. هكذا تراني لا أخشى شيئاً». وابتسم الميكانيكي الرسولي اللطيف ابتسامة رقيقة ويده موضوعة على مقوده الذي يشكل صليب التقديس. ثم قال لي هذه الكلمات التي بعثت في نفسي الرغبة (وقد طردت المخاوف من فؤادي فحلّ الفرح مكانها في الحال) في المسارعة إلى عناقه. وقال: «لا تخف. لا يمكن أن يصيبها شيء، فإن لم يرتحل بها مقودي فإن عيني تتعقبها في كل مكان، في «فيرساي»، ودون أن يبدو عليّ من ذلك شيء. زرت المدينة إن جاز القول برفقتها. فمن «الخزانات» ذهبت إلى القصر، ومن القصر إلى مبنى «التريانون»، وأنا دوماً على إثرها دون أن يبدو أني أراها، والأدهى من ذلك أنها لم ترني. آه! لو أبصرتني لكانت مصيبة المصائب. كان من الطبيعي، وأنا لا شيء لدي أفعله طوال النهار، أن أزور القصر بدوري ولا سيما أن الآنسة لم يفتها بالتأكيد أن تلاحظ أني على شيء من الثقافة وأني أهتم بكل التحف

القديمة النادرة (كان ذلك صحيحاً، ولعلي كنت دهشت لو علمت أنه صديق «موريل» لكثرة ما يفوق عازف الكمان رهافة وذوقاً). لكنها لم تبصرني في نهاية المطاف». - «لا بد من ناحية أخرى أنها التقت صديقات لها، فإنها تملك منهن في «فيرساي». - لا، كانت وحدها على الدوام». - «لا بد حينذاك أن ينظروا إليها، إلى الفتاة الباهرة الجمال والوحيدة تماماً!» - «هم بالتأكيد ينظرون إليها، لكنها تكاد لا تعلم شيئاً عن ذلك فعيناها منصرفتان طوال الوقت إلى دليلها ثم ترتفعان إلى اللوحات». وبدا لي أن رواية السائق صحيحة، يزيد من صحتها أن «ألبيرتين» كانت أرسلت لي بالفعل في يوم نزهتها بطاقة تمثل القصر وأخرى تمثل مباني «التريانون». وقد تأثرت كثيراً للعناية التي تابع بها السائق اللطيف كل خطوة فيها. فكيف كنت سأفترض أن هذا التصويب - الذي جاء بصورة تتمة وافية لمقالته قبل البارحة - مردّه أن «ألبيرتين»، وقد أقلقها أن يكون السائق كلمني، أبدت بين هذين اليومين خضوعاً وتصالحت وإياه؟ ذلك الشك لم يراود حتى مخيلتي. مكتبة سُر مَن قرأ

والأكيد أن رواية الميكانيكي تلك، إذ نزعت مني أي خشية من أن تكون «ألبيرتين» خانتني، إنما هدّأت على نحو طبيعي تماماً من عاطفتي تجاه صديقتي وجعلت اليوم الذي قضته في «فيرساي» أقل إثارة لاهتمامي لكني أعتقد مع ذلك أن إيضاحات السائق التي كانت، إذ تبرئ «ألبيرتين»، تجعلها بعد أكثر إزعاجاً لي ما، كانت ربما تكفي لتهدئتي بهذه السرعة. وربما أفلحت بثرتان صغيرتان غشيتا على مدى بضعة أيام جبين صديقتي، ربما أفلحتا بعد أكثر في تغيير مشاعر فؤادي. وأخيراً انصرفت هذه المشاعر عنها إلى حد أني ما كنت أتذكر وجودها إلا حينما أراها وذلك جراء السر الغريب الذي استودعتني إياه وصيفة «جيلبيرت» التي التقيتها مصادفة. فقد علمتُ أن «جيلبيرت» حينما كنت أذهب كل يوم إلى منزلها كانت تحب شاباً تلتقيه كثيراً أكثر مني. وقد راودني لفترة شك بذلك في تلك الآونة، بل ساءلت آنذاك الوصيفة نفسها. لكنها لما كانت تعلم أني

مغرم بـ«جيلبيرت» أنكرت وأقسمت أن الآنسة «سوان» ما رأت ذاك الشاب في يوم. أما الآن وقد علمت أن حبي زال منذ زمن طويل وأني منذ سنوات تركت رسائلها جميعاً دونما جواب - وربما لأنها لم تعد تخدم لدى الفتاة - فقد روت لي من تلقاء ذاتها الواقعة الغرامية التي لم أعرفها، روتها بحذافيرها. وكان الأمر يبدو لها طبيعياً تماماً. وظننت إذ تذكرت أيمانها آنذاك أنها لم تكن على اطلاع. ولم يكن شيء من ذلك، فهي نفسها بأمر من السيدة «سوان» كانت تمضي لتخطر الشاب حالما تضحي من كنت أحب وحيدة؛ من كنت أحبّ آنذاك... ولكني تساءلت حيناً إن كان حبي بالأمس قد مات بقدر ما كنت أظن لأن هذه الرواية شقت عليّ. ويما أني لا أعتقد أن الغيرة يمكن أن توقظ حباً ميتاً فقد افترضت أن انطباعي الحزين ناجم جزئياً على الأقل عن اعتزاز بالذات مجروح، ذلك لأن عدة أشخاص ما كنت أحبهم وكانوا يقفون مني في تلك الفترة، وحتى بعد ذلك بقليل - والأمر تغيّر كثيراً مذ ذاك-، موقف المزدري، كانوا يعلمون تمام العلم في أثناء ما كنت مغرماً جداً بـ«جيلبيرت» أني كنت مخدوعاً. وحملني ذلك حتى على التساؤل بالعودة إلى فترة ماضية إن لم يكن في حبي لـ«جيلبيرت» شيء من الاعتزاز بالذات بما أني أعاني الآن الكثير إذ أتبين أن ساعات التودد جميعها التي سبق أن أولتني سعادة عظيمة كانت معروفة لدى أناس ما كنت أحبهم على أنها خداع تقوم به صديقتي تجاهي. كانت «جيلبيرت» في جميع الأحوال. أكان حباً أو اعتزازاً بالنفس، قد ماتت تقريباً في داخلي، لا كلياً مع ذلك. وقد بلغ بهذا الهمّ أن يحول بيني وبين اهتمامي إلى حدّ بعيد بـ«ألبيرتين» التي كانت تشغل حيزاً ضيقاً جداً في فؤادي. ومع ذلك، وفي عودة إليها (بعد هذا الاستطراد الطويل جداً) وإلى نزهتها في «فيرساي»، فإن بطاقات «فيرساي» البريدية (وهل يمكن أن يعتلج داخل فؤادك في ذات الوقت غيرتان متشابكتان تعود كلّ منهما إلى شخص مختلف؟) كانت تخلّف لدي انطباعاً مزعجاً في كل مرة تقع عليها عيناي وأنا أرتب أوراقاً لي. وكنت أفكّر أنه

لو لم يكن الميكانيكي رجلاً طيب القلب إلى حد بعيد فإن تطابق روايته الثانية وبطاقات «ألبيرتين» ما كان ليعني الكثير، إذ ما الذي يرسله الناس بادئ الأمر من «فيرساي» إن لم يكن القصر وأبنية «التربانون»، إلا إذا جرى اختيار البطاقة على يد ذوّاقة عاشق لتمثال ما، أو مخبول اختار بمثابة منظر موقف الحافلات التي تجرّها الخيول أو محطة الورشات؟

ثم إني مخطئ بقولي مخبول، إذ لم يجر شراء مثل تلك البطاقات البريدية دائماً من جانب أحدهم مصادفة ولفائدة أنها تجيء من «فيرساي». لقد وجد الأذكياء والفنانون على مدى سنتين «سيينّا» والبندقية وغرناطة من الأمور المملة، فيما يقولون عن أقل عربة عامة وعن سائر عربات القطار: «هاك شيئاً جميلاً». ثم زال هذا الميل مثلما زال غيره. ولست حتى أعلم إن هم لم يعودوا إلى تدنيس المقدسات» المتمثل في «إتلاف أشياء الماضي الأصيلة». وفي جميع الأحوال فقد كفوا عن عدّ عربة قطار من الدرجة الأولى قبلياً على أنها أجمل من القديس مرقص[1] في البندقية. ومع ذلك كانوا يقولون: «إنما الحياة هنا والعودة إلى الوراء أمر مصطنع». ولكن دون استخلاص نتيجة واضحة. وتحسباً لأي طارئ وفيما ظللت أولي السائق ثقتي الكاملة وبغية أن لا يسع «ألبيرتين» أن تتركه دون أن يجسر على الرفض مخافة أن يُعدّ جاسوساً لم أدعها تخرج من بعد إلا بدعم من «أندريه» في حين سبق أن اكتفيت بالسائق لفترة. وكنت حتى تركتها آنذاك تغيب ثلاثة أيام (وما كنت لأجرؤ على فعل شيء من هذا القبيل مذ ذاك) برفقة السائق وتذهب على مقربة من «باليبك» لكثرة ما كانت ترغب في قطع المسافات على محض هيكل سيّارة بسرعة كبيرة. ثلاثة أيام كنت في أثنائها هادئ البال مع أن سيل البطاقات التي بعثتها إليّ لم تصلني بسبب سير البُرُد البريتانية المقيت (وهي جيدة في الصيف ولكنما يختل نظامها دون شك في الشتاء) إلا بعد انقضاء ثمانية أيام على عودة

---

(١) الكنيسة وساحتها من أجمل الآثار في البندقية.

«ألبيرتين» والسائق وهما على قدر من الشجاعة كبير إلى حد أنهما عاودا في صباح عودتهما ذاته نزهتهما اليومية وكأن شيئاً لم يكن. لكنني تغيرت منذ حادثة «فيرساي». فقد كانت غبطتي شديدة أن تمضي «ألبيرتين» اليوم إلى «التروكاديرو» في هذه الصباحية «الرائعة» ولكنما يطمئنني على وجه الخصوص أن لها رفيقة هناك هي «أندريه».

أما وقد خرجت «ألبيرتين» الآن، فقد تركت هذه الأفكار جانباً وذهبت لأقف لحظة إلى النافذة. وكان بادئ الأمر صمت ودوت فيه صافرة بائع الكروش وبوق الحافلة في الهواء بطبقتين مختلفتين وكأنما مدوزن بيانو كفيف. ثم أخذت الاشكال الموسيقية المتشابكة تتميز واحدتها عن الأخرى وتنضاف إليها أخرى جديدة. كان ثمة أيضاً صافرة أخرى، نداء بائع ما عرفت في يوم أي شيء يبيع، صافرة كانت تشبه تماماً صافرة الحافلة، ولما لم تكن تدفعها السرعة فقد كان يخيل إليك أنها حافلة واحدة لا تتمتع بالحركة أو هي معطلة مسمّرة تطلق على فترات قصيرة صيحات حيوان يلفظ أنفاسه.

وكان يبدو لي، إن انبغى في يوم أن أغادر هذا الحي الأرستقراطي - ما لم يكن إلى آخر شعبي تماماً -، أن جادّات وشوارع المركز (حيث كانت محال الفاكهة والأسماك إلخ. التي استقرت في بيوتات كبيرة لتجارة الأغذية تجعل صيحات الباعة غير مجدية، وما كانوا أفلحوا على أية حال في إسماع أصواتهم) وسوف تبدو لي كئيبة جداً وغير قابلة للسكن وقد سلبت وجُردت من سائر ابتهالات المهن الصغيرة والأطعمة الجوالة وحُرمت الأوركسترا التي فتنتني تواً منذ الصباح. ومرت على الرصيف امرأة قليلة الأناقة (أو هي انصاعت لزي قبيح) ذات لون فاتح مفرط ومعطف على صورة كيس من شعر الماعز: ولكن لا، ما كانت امرأة، بل بائع يعود سيراً على الأقدام إلى مرآبه، وقد تدثر بجلد الماعز. وكان صِبية الفنادق المجنحّون ذوو الألوان المتبدلة يسرعون هاربين من الفنادق الكبرى صوب المحطات على صفحة درّاجاتهم للحاق بالمسافرين في

قطار الصباح. كان تهدار كمان ينجم أحياناً عن مرور سيارة وأحياناً عن أني لم أضع ما يكفي من الماء في دفاءتي الكهربائية. ثم يرتفع نشازاً وسط السمفونية «الحن» متقادم العهد: فهذا بائع الدمى الذي حلّ محل بائعة السكاكر، وكان من عادتها أن ترفق بلحنها ناقوساً خشبياً، بائع الدمى الذي يعلّق بزمارته دمية يحركها في كل اتجاه كان ينقل دمى أخرى متحركة ويطلق بملء صوته، هو النصير المتأخر للنغم الخالص، يطلق غير آبه بالإنشاد الطقسي الذي وضعه غريغوربوس الكبير[1] وبإنشاد «باليسترينا» المعدَّل وإنشاد المحدثين الغنائي:

**هيا أيها الآباء، هيا أيتها الأمهات**
**أرضوا أولادكم الصغار:**
**فأنا من يصنعها، وأنا من يبيعها**
**وأنا من يزدرد المال**
**ترالا لا لا ترالا لا لا لير**
**ترا لالالا لالالا**
**هيا يا صغار!**

كان ثمة إيطاليون صغار يعتمرون «البيريات» لا يحاولون منافسة هذا «اللحن السريع»، فكانوا يعرضون تماثيل صغيرة دون أن يقولوا شيئاً. وفي أثناء ذلك كان عازف ناي صغير يرغم بائع الدمى إلى الابتعاد وإلى الإنشاد على نحو أكثر غموضاً وإن بنغمة سريعة: «هيا أيها الآباء، هيا أيتها الأمهات». فهل كان عازف الناي الصغير واحداً من هؤلاء الجنود الخيّالة الذين كنت أسمعهم صباحاً في «دونسيير»؟ لا، لأن ما كان يلي إنما هذه الكلمات: «هو ذا مصلح الخزف والبورسلين، أرمم الزجاج والرخام والكريستال والعظم والعاج والقطع الأثرية. هو ذا المصلّح». وفي ملحمة

(١) البابا الذي وضع أسس الترتيل والترنيم الكنسيين في أوائل القرن السابع.

تعمر الجانب الأيسر منها هالة من نور الشمس والجانب الأيمن نور عُلّق بأكمله، كان أجير لحّام طويل جداً ونحيف جداً بشعور شقراء وعنق ينطلق من قبة زرقاء وفاتحة يقوم بسرعة مدوّخة وإتقان رهباني بوضع فتائل البقر اللذيذة في جانب وفي الجانب الآخر لحم أوراك من أردأ صنف ويصففها في موازين رائعة يعلوها صليب تتدلى منه سلاسل جميلة، وكان يوليك في الحقيقة - مع أنه ما كان يقوم بعدها إلا بترتيب الكلى والشرائح والضلعيّات وذلك لأغراض العرض - انطباعاً أقرب أن يكون إلى ملاك جميل يعدّ لله في يوم الدينونة، طبقاً لنوعياتهم الفصل بين الصالحين والأشرار ووزْنة النفوس، ثم ينطلق ثانية في الفضاء صوت المزمار المرتجف الحاد يؤذن لا بالدمار الذي كانت «فرانسواز» تخشى منه في كل مرة يمر فوج من الخيالة، بل بالإصلاحات التي يعد بها «تاجر عاديات» ساذج أو مستهزئ وهو في جميع الأحوال اصطفائي إلى حد كبير، لكنما يتناول فنّه، بعيداً عن أي تخصص، المواد الأكثر تنوعاً. وكانت حاملات الخبز الصغيرات يسارعن إلى تكديس الأرغفة الطويلة المعدة لطعام الغداء في سلالهن، وتنشط بائعات الحليب بتعليق زجاجات الحليب بكلّاب يحملنه. والنظرة المشتاقة التي احتفظ بها لتلك البنيّات، أكان بوسعي أن أظنها صحيحة تماماً؟ أما كانت بدت غيرها لو أمكنني أن أحتفظ بضع لحظات بالقرب مني، مجمدة لا حراك بها، بواحدة من اللواتي ما كنت أبصرهن من نافذتي العالية إلا في الدكان او هاربات؟ ولعله كان انبغى، كي أخمن الخسارة التي تلحقها بي عزلتي المفروضة، يعني الثراء الذي يقدمه لي النهار، أن أحتجز في السلسلة الطويلة للإفريز المتحرك بنية تحمل الغسيل أو الحليب وأن أمرها لحظة، مثل طيف في زخارف متحركة، بين قائمتي بابي، في إطاره وأن أمسك بها تحت ناظري، ولا يفوتني أن آخذ عنها معلومات تمكنني من العثور عليها ذات يوم وتكون شبيهة بتلك البطاقة التوصيفية التي يربطها علماء الطير والسمك تحت بطون الطيور أو الأسماك التي يودون أن يتمكنوا من التعرف إلى هجرانها قبل أن يطلقوا سراحها.

لذلك قلت لـ«فرانسواز» أن تتفضل وترسل إليّ. من أجل مشوار أودّ أن أرسل من يقوم به، هذه أو تلك من هاتيك الصغيرات، إن اتفق أن تجيء واحدة منهن وكن يجئن دون انقطاع لأخذ الغسيل أو الخبز أو زجاجات الحليب ثم يعدنها، وكثيراً ما كانت تكلفهنّ بخدمات. كنت في ذلك شبيهاً بـ«إيلستير» الذي كان يضطر أن يمكث سجين مشغله في بعض أيام الربيع التي تثير لديه معرفته بأن الإخراج مليئة فيها بأزهار البنفسج رغبةً شديدة في النظر إليها فيرسل البوابة لتبتاع له باقة منها؛ حينئذ ما كان يخيل لـ«إيلستير» الذي رقّ قلبه وثارت هواجسه أنه يبصر الطاولة التي وضع فيها نموذجه النباتي بل كامل البساط الحراجي النباتي الذي سبق أن شاهد فيه فيما مضى بالآلاف السوق اللولبية التي تنوء بحمل منقارها الأزرق، يبصرها مثل منطقة خالية تحيط بها في مشغله الرائحة الصافية التي تنبعث من الزهرة المنيرة للذكريات.

أما الغسالة في يوم الأحد فما كان ينبغي الاعتقاد بأنها تجيء. وأما موزعة الخبز فقد كانت لسوء الحظ قرعت الباب حين لم تكن «فرانسواز» هناك فتركت أرغفتها المستطيلة في السلة على فسحة الدرج وهربت. ولن تأتي بائعة الفواكه إلا كثيراً بعد ذلك. وكنت دخلت ذات مرة لأوصي على قالب جبن لدى بائع الألبان ولاحظت بين العاملات الصغيرات واحدة هي شقراء غريبة حقاً مديدة القامة مع أنها طفولية القوام وكانت تبدو وسط البائعات الأخريات كأنما تحلم، في وقفة تتسم ببعض الاعتزاز. وما كنت رأيتها إلا من بعيد وفي مرة سريعة إلى حد ما كنت أستطيع معه أن أقول كيف كانت فيما عدا أنها لا بد نمت بسرعة مفرطة وأن رأسها تكلله جزة توليك انطباعاً هو عن الميزات الشعرية أقل منه كثيراً عن نحت متمم للتعرجات المعزولة لثلوج حبيبيّة متوازية. كان ذلك كل ما ميزته إلى جانب أنف رسم بإتقان كبير (وهو أمر نادر لدى الأطفال) في وجه ناحل، وكان يُذكر بمنقار النسور. ولم يكن تجمع رفاقها من حولها، من جانب آخر، قد حال وحده دون أن أراها تماماً بل يضاف إليه التشكك في أمر المشاعر

التي كان يمكن للوهلة الأولى وفيما بعد أن أوحي إليها بها سواء أكانت نابعة من اعتزاز نفور أو من استهزاء أو ازدراء أفصحت عنه فيما بعد لصديقاتها. كانت هذه الافتراضات المتناوبة التي خطرت لي بشأنها على مدى ثانية قد كثفت من حولها الجو المشوش الذي تتخفى داخله كحال إلهة في الغيمة التي تهزها الصاعقة. ذلك أن التشكك الفكري يؤلف سبباً لعسر في الإدراك البصري الصحيح أكبر مما هو أمر عيب مادي في العين.

كان فرط ما لعل آخر غيري كان دعاه مفاتن لدى هذه الفتاة المفرطة التحول التي كانت كذلك تثير الاهتمام بإفراط، كان بالضبط ما لا يروق لي ولكنما كان من شأنه أن يحول دون أن أرى شيئاً، ومن باب أولى أن لا أتذكر شيئاً عن بائعات الحليب الأخريات الصغيرات اللواتي أغرقهن أنفها المعقوف جاز أن نقول «تذكر» بشأن وجه أسأنا النظر إليه إلى حد أن نطابق عشر مرات بين لاوجود الوجه وأنف مختلف)، لم أتذكر سوى الصغيرة التي لم تحسن في عيني. وذلك كافٍ لتوفير بداية للحب. ولعلني مع ذلك كنت نسيت الشقراء الغريبة وما تمنيت البتة لقاءها ثانية لو لم تقل لي «فرانسواز» إن هذه البنية، وإن تكن صغيرة السن تماماً، مثيرة وسوف تهجر «معلمتها» لأنها لفرط بهرجتها كانت تدين بمبالغ في الحيّ. لقد قيل إن الجمال وعد بالسعادة. أما المتعة الممكنة فبوسعها، عكسياً، أن تكون بداية جمال.

وأخذت أقرأ رسالة أمي. كنت أحس عبر استشهادات أمي بالسيدة «سيفينيه» («إن لم تكن أفكاري سوداء تماماً في «كومبريه» فإنها على الأقل رمادية داكنة، إني أفكر فيك في كل لحظة أتمناك، وصحتك وأشياؤك وبُعدك، ما تظنين كل ذلك بفعل لدى حلول الظلام؟»)، إن أمي كان يزعجها أن ترى مقام «ألبيرتين» في البيت يطول وأن مقاصدي في الزواج مع أنها لم يصرح بها بعد للخطيبة، تتوطد، وما كانت تقول لي ذلك بصورة أكثر مباشرة لأنها تخشى أن أهمل رسائلها. ثم إنها كانت تلومني، مهما جاءت مستورة المعاني، على أني لا أخطرها في الحال بعد كل

رسالة أني تسلمتها: «تعلم أحسن العلم أن السيدة «دو سفينييه» كانت تقول: «حينما يكون المرء بعيداً فإنه لا يسخر من بعد من الرسائل التي تستهل بـ«تسلمت رسالتك». ودون أن تتكلم عما كان يشغل بالها أكثر ما يشغل كانت تقول إنها غاضبة من صنوف إنفاقي الكثيرة: «أين يمكن أن يذهب كل مالك؟ إنما يقلقني إلى حد بعيد أنك، على غرار «شارل دو سفينييه»، لا تعلم ما تريد وأنك «رجلان أو ثلاثة في الآن نفسه»، ولكن حاول على الأقل ألا تكون مثله في الإنفاق وألا يسعني أن أقول عنك: «لقد أفلح في الإنفاق دونما شهرة، وفي الخسارة دونما لعب وفي الدفع دونما وفاء». وكنت قد أنهيت قراءة كلمة والدتي حينما رجعت «فرانسواز» تقول لي إن لديها بالضبط هنا بائعة الحليب الصغيرة المفرطة الجرأة إلى حد ما والتي كانت حدثتني عنها. «سوف يسعها تماماً حمل رسالة سيدي والقيام بشراء الحاجات وإن لم يكن المكان بعيداً جداً. سوف يرى سيدي إنها تبدو وكأنها فتاة الطاقية الحمراء الصغيرة». وذهبت «فرانسواز» لاصطحابها وسمعتها ترشدها إلى الطريق قائلة لها: «هيا ويحك، أنت خائفة لأن ثمة ممراً أيتها البلهاء. وكنت أظنك أقل ارتباكاً. أفينبغي أن أقودك بيدي؟» وكانت «فرانسواز» قد أحاطت نفسها، فعل الخادمة الجيدة والنزيهة العاملة على فرض احترام سيدها مثلما تحترمه هي، بذاك الجلال الذي يكسب القوادات نبلاً في لوحات المعلمين القدامى حيث تكاد تطمس إلى جانبهن العشيقة والعشيق في جو من انعدام الشأن.

لم يكن على «إيلستير» أن يهتم بما تفعل أزهار البنفسج حينما كان ينظر إليها. لكن دخول بائعة الحليب الصغيرة أفقدني في الحال هدوء المتأمل، وما عدت أفكر إلا في إضفاء ظاهر الحقيقة على حكاية الرسالة التي سأحملها إياها وشرعت أكتب بسرعة دون أن أجرؤ على النظر إليها إلا لماماً كي لا يبدو أن طلبت دخولها لهذه الغاية. لقد كان يزينها في نظري سحر المجهول ذاك الذي ما كان لينضاف في ما يخصني إلى فتاة جميلة نلقاها في تلك البيوت التي تنتظرك فيها. لم تكن عارية ولا متنكرة،

بل بائعة حليب حقيقية، واحدة من اللائي نتخيلهن بالغات الجمال حين لا يسعف الوقت في الاقتراب منهن، لقد كانت بعضاً يسيراً مما يؤلف الرغبة الأزلية في الحياة والأسف الأبدي عليها. الحياة التي يتحول تيارها المزدوج في النهاية ويحمل بالقرب منا. وهو مزدوج لأنه إن كان الأمر أمر المجهول، أمر شخص يخمن أن ينبغي أن يكون إلهاً بناء على قوامه وتناسب جسمه ونظرته اللامبالية وهدوئه المستكبر، فإننا من جهة أخرى نبغي هذه المرأة المتخصصة تماماً في مهنتها والتي تسمح لنا بالهرب إلى هذا العالم الذي تحملنا بزة خاصة على الظن توهماً بأنه مختلف. وإن نحن حاولنا إلى ذلك أن نضمن في عبارة قانون غراباتنا الغرامية فينبغي البحث عنها في أقصى الفارق القائم بين امرأة نشاهدها وامرأة نقترب منها ونداعبها. ولئن كانت النساء في ما كان يدعى بالأمس مواخير، لئن كانت العاهرات أنفسهن (بشرط أن نعلم أنهن عاهرات) قليلات الاجتذاب لنا إلى هذا الحد فما ذلك لأنهن أقل جمالاً من غيرهن، بل لأنهن جاهزات تماماً وأنهن يقدمن لنا ما نحاول بالضبط بلوغه وأنهن لسن أمراً نفوز به. والفارق هنا في حده الأدنى. إن بغياً تبتسم لنا في الشارع ستفعل ذلك بالقرب منا. وأما نحن فنحاتون. إننا نبغي الحصول من المرأة على تمثال يختلف عن التمثال الذي قدمتْه لنا. لقد شاهدنا فتاة لا مبالية وقحة على شاطئ البحر، وشاهدنا بائعة جدية نشيطة في متجرها وتجيبنا بلهجة جافة إن لم يكن الأمر فلكيلا تكون موضع استهزاء رفيقاتها، وبائعة فواكه تكاد لا ترد علينا. حسن! إننا لا نبرح حتى يسعنا أن نتحقق إن لم تكن الفتاة المستكبرة على شاطئ البحر، والبائعة المتمسكة بالقيل والقال، وبائعة الفاكهة الساهية قادرات، في أعقاب خدع بارعة نقوم بها، على ثني موقفهن المستقيم وعلى إحاطة عنقنا بتينك الذراعين اللتين كانتا تحملان الفواكه وعلى أن يملن إلى فمنا بابتسامة راضية عينين كانتا حتى ذاك باردتين أو ساهيتين - فيالجمال العينين الصارمتين في ساعات العمل التي كانت العاملة تخشى فيها إلى حد بعيد نميمة رفيقاتها، عينين كانتا تتهربان

من نظراتنا الملحاحة وهما الآن وقد التقيناها على انفراد تثنيان الأحداق تحت وطأة الضحكة المشرقة حينما نتحدث عن المضاجعة! إن الفارق في حده الأقصى بين البائعة والغسالة المهتمة بكيها وبائعة الفواكه وبائعة الألبان - وهذه البنيّة التي ستصبح عشيقتنا قد بُلغ إليه، ولا يزال مشدوداً إلى حدوده القصوى ومنوعاً، من جانب هذه الحركات المعتادة في المهنة التي تجعل الذراعين على امتداد العمل شيئاً مختلفاً ما أمكن الاختلاف على صعيد الخطوط الزخرفية عن تلك الأغلال اللينة التي تتشابك كل مساء حول عنقنا فيما يستعد الفم للقبلة. لذلك ترانا نقضي كامل حياتنا في مساعٍ مضطربة تتجدد دون انقطاع خلف الفتيات الجديات اللواتي يبدو أن مهنتهن تبعدهن عنا. وما إن يضحين بين ذراعينا حتى لا يعدن ما سبق أن كنّ والمسافة التي كنا نحلم باجتيازها أزيلت. لكننا نعيد الكرة مع نساء أخريات، ونخص هذه المحاولات بكامل وقتنا وكامل مالنا وكل قوانا وتنفجر سخطاً على الحوذيّ البطيء جداً والذي ربما فوت علينا أول موعد، وتصيبنا الحمى. ولكننا نعلم أن هذا الموعد الأول سوف ينجز زوال الوهم. وما هم، فإننا نبغي، ما دام الوهم قائماً، أن نرى إن كان يمكن أن نحيله واقعاً. وحينذاك نفكر بالغسالة التي لاحظنا فتورها. إن الفضول الغرامي شبيه بالفضول الذي تثيره فينا أسماء البلدان، فهو مخيب على الدوام لكنه يبعث من جديد.

لكن بائعة الحليب الشقراء ذات الخصل المحززة قَصُرت للأسف على ذاتها حالما أصبحت بالقرب مني وجردت من هذا الخيال الواسع والرغبات التي استيقظت في داخلي. فلم تعد سحابة افتراضاتي المرتعشة تغلفها بنشوة مدوخة. وأخذت تبدو شديدة الخجل أن لا يتوافر لها من بعد سوى أنف واحد (بدلاً من عشرة، من عشرين كنت أتذكرها تباعاً دون أن يمكنني تحديد تذكري)، أنف أكثر استدارة مما ظننت يخلف لديك فكرة الغباء، وكان قد فقد في جميع الأحوال القدرة على التكاثر. وهذا التحليق المأسور الهامد المسحوق العاجز عن إضافة أي شيء إلى واقعه البائس لم

يعد يحظى بخيالي ليتعاون وإياه. وحاولت وقد سقطت في الواقع اللا متحرك أن أرتد إلى فوق. وبدت لي الوجنتان اللتان لم أشاهدهما في الدكان جميلتين إلى حد تملكتني الرهبة فقلت، بغية أن أتمالك نفسي، لبائعة الألبان الصغيرة: «هل تتلطفين وتعطيني صحيفة **«الفيغارو»** الموجودة هنا، ينبغي أن أرى اسم المكان الذي أريد إرسالك إليه». وكشفت في الحال وهي تأخذ الصحيفة، كشفت إلى المرفق كمّ جاكتتها الأحمر، ومدت إليّ الصحيفة المحافظة بحركة بارعة لطيفة، راقتني سرعتها المألوفة ومظهرها الناعم ولونها القرمزي. وفيما كنت أفتح صحيفتي سألت الصغيرة كيما أقول شيئاً ودون أن أرفع ناظري: «ما اسم هذا الذي ترتدينه على شكل حبيكة حمراء؟ إنه لجميل جداً». فأجابت تقول لي: «إنه ثوب الرياضة». سنوات خلت وكأنها وقف على العالم الأنيق نسبياً الذي تؤلفه صديقات «ألبيرتين»، أصبحت الآن من نصيب العاملات. وقلت وأنا أتظاهر بالبحث في صحيفة **«الفيغارو»**: «ألن يزعجك حقاً أكثر من المتوقع أن أرسلك حتى بعيداً بعض الشيء؟» وحالما بدا هكذا أني أجد مشقة في الخدمة التي ستؤديها لي بقيامها بمهمة، بدأت في الحال ترى أن الأمر مصدر ضيق لها. «ذلك أن عليّ القيام عما قليل بنزهة على دراجتي، فليس لنا، ترى، سوى الأحد». - «ولكن ألا تبردين وأنت هكذا حاسرة الرأس؟» - «آه! لن أكون حاسرة الرأس، فسأكون بعمرة «البولو» وربما كنت في غنى عنها مع شعري هذا كله». ورفعت عيني إلى الخصل الذهبية الجعدة وأحسست بزوبعتها تحملني خافق الفؤاد في ضياء وعصفات إعصار من الجمال. وواليت النظر إلى صحيفتي ومع أن الأمر كان لمجرد أن أتمالك نفسي وأكسب متسعاً من الوقت، ومع أني أتظاهر بالقراءة فحسب فقد كنت أدرك مع ذلك معاني الكلمات الواقعة تحت ناظري وكانت تذهلني: «يجب أن نضيف إلى برنامج حفلة العصر التي أعلنا عنها والتي ستقام عصر هذا اليوم في قاعة الاحتفالات في «التروكاديرو» اسم الآنسة «ليا» التي وافقت على المشاركة فيها في مسرحية **«مقالب نيرين»**.

سوف تؤدي بالطبع دور «نيرين» حيث تبدو مدوخة في قريحتها ساحرة الفكاهة». وبدا ذلك كأنما ينزعون بفظاظة عن فؤادي الضماد الذي أخذ يلتئم تحته منذ رجوعي من «بالبيك». وأفلتت ضروب قلقي النفسي كدفع السيل. فـ«ليا» هي الممثلة صديقة الفتاتين اللتين كانت «ألبيرتين» قد نظرت إليهما في المرآة عصر أحد الأيام في الكازينو دون أن يبدو أنها تبصرهما. صحيح أن «ألبيرتين» كانت قد اتخذت في «بالبيك» لدى سماع اسم «ليا» لهجة مرصّنة خاصة لتقول لي، وقد صدمها تقريباً أن أمكن الاشتباه بعنوان للفضيلة مثلها: «لا، لا، ليست على الإطلاق امرأة من هذا القبيل، إنها امرأة من خيارهن». أما في ما يخصني لسوء الحظ فما كان الأمر، حين تصدر «ألبيرتين» توكيداً من هذا النوع، ما كان البتة سوى المرحلة الأولى. لتوكيدات مختلفة، إذ كان الثاني يجيئك بعد الأول بقليل: «لست أعرفها». ثالثاً، كانت «ألبيرتين»، بعدما حدثتني عن مثل تلك المرأة «التي لا يرقى إليها الشك» والتي «لا تعرفها» (ثانياً)، كانت تنسى شيئاً فشيئاً أولاً أنها قالت لي إنها لا تعرفها فتروي، في جملة تناقض فيها نفسها دون أن تدري، أنها تعرفها. وما إن ينجز النسيان الأول ويكون التوكيد الثاني قد صدر حتى يبدأ نسيان ثانٍ هو الذي كان الشخص بموجبه «لا يرقى الشك إليه». وسألت قائلاً: «أليس لمثل هذه مثل تلك الأخلاق؟» - «بالطبع ويحك، هذا أمر معروف تماماً!» وكانت اللهجة المرصنة تعود في توكيد كان صدى غامضاً مخففاً للتوكيد الأول: «يجدر بي أن أقول إنها كانت معي دوماً لائقة تماماً. فقد كانت تعلم بالطبع أني كنت زجرتها وبالطريقة التي تعجب. على أنه لا أهمية لذلك في النهاية. وأنا مضطرة أن أكون ممتنة لها للاحترام الحقيقي الذي أبدته لي على الدوام. واضح أنها كانت تعلم من هي غريمتها». أنت تتذكر الحقيقة لأنها تملك اسماً وجذوراً قديمة، لكن الكذبة المرتجلة سرعان ما تنسى. كانت «ألبيرتين» تنسى هذه الكذبة الأخيرة، الرابعة، وذات يوم كانت راغبة في كسب ثقتي بأسرار تبوح بها كانت تنساق إلى أن تقول لي عن المرأة ذاتها، وكانت في البداية

من أكثرهن لياقة ووداً. كانت تعرفها: «لقد أغرمت بي. وسألتني ثلاث بل أربع مرات مرافقتها حتى منزلها والصعود للقائها. أما مرافقتها، فما كنت أرى في الأمر سوءاً، أمام كل الناس، في وضح النهار وفي الهواء الطلق، لكني فور وصولي أمام بابها كنت أجد دوماً حجة ولم أصعد في يوم». وبعد انقضاء بعض الوقت كانت «ألبيرتين» تلمح إلى جمال الحاجات التي تشاهدها في منزل السيدة ذاتها. ولعلك كنت أفلحت دون شك بين تقريب وآخر في حملها على قول الحقيقة، حقيقة ربما كانت أقل خطورة مما أميل إلى اعتقاده، فربما كانت، إذ هي سهلة مع النساء، تفضل عاشقاً، وما كانت، وأنا الآن عشيقها، لتفكر في «ليا». وكان كفاني مذ ذاك، بالنسبة إلى كثير من النساء على أي حال، أن أجمع أمام صديقتي في نوع من التأليف توكيداتها المتناقضة لأثبت عليها أخطاءها (أخطاء هي، شأن القوانين الفلكية، أكثر يسراً في استخلاصها بالعقل منها في ملاحظتها، في ضبطها في الواقع). لكنها ايضاً كانت فضلت أن تقول إنها كذبت حين صدر عنها واحد من تلك التوكيدات (فإن سحبه والحالة هذه سوف يقوض كامل المنظومة التي وضعتها)، على أن تقر بأن كل ما سبق أن روت عنه منذ البداية كان محض سلسلة من الحكايات الكاذبة. وهنالك ما يشبهها في **ألف ليلة وليلة** وإنها لتفتتنا. فهي تعذبنا في شخص نحبه وتمكننا بسبب ذلك أن نغوص أكثر قليلاً في معرفة الطبيعة الإنسانية عوضاً عن أن نكتفي باللهو على صفحتها. إن الغم ينفذ فينا ويرغمنا بالفضول المؤلم أن ننفذ بدورنا. وينجم عن ذلك حقائق لا حق لنا في إخفائها، حتى إن ملحداً على فراش الموت اكتشفها يقوم، وهو متحقق من العدم وغير مكترث بالمجد، يقوم مع ذلك باستخدام ساعاته الأخيرة في محاولة التعرف عليها.

ليس من شك أني كنت فقط في الأول من تلك التوكيدات بالنسبة إلى «ليا». كنت حتى أجهل إن كانت «ألبيرتين» تعرفها أم لا. وما هم فالأمر واحد. كان لا بد من الحؤول دون أن يمكنها في التروكاديرو التقاء تلك

الصديقة أو التعرف إلى تلك المجهولة، قلت إني لا أعلم إن كانت تعرف «ليا» أم لا، مع أنه لا بد سبق لي أن عرفت ذلك في «بالبيك» ومن «ألبيرتين» نفسها. ذلك أن النسيان كان يقضي لدي ولدى «ألبيرتين» على حد سواء على قسم كبير من الأمور التي سبق أن أكدتها لي. فإنما الذاكرة، بدلاً من أن تكون نسخة ثانية لمختلف وقائع حياتنا ماثلة دوماً أمام أعيننا، هي بالأحرى عدم يسمح لنا تماثل حالي، بين آن وآخر، أن نستخلص منه ذكريات ميتة وقد بعثت حية؛ على أن ثمة ألفاً من الوقائع الصغيرة لم تقع ضمن احتمالية الذاكرة هذه وسوف تمكث إلى الأبد خارج دائرة تحكمنا. فكل ما نجهل أنه يتعلق بالحياة الحقيقية العائدة للشخص الذي نحبه لا نعيره أي اهتمام وننسى في الحال ما قاله لنا بشأن هذه الواقعة أو هؤلاء الناس الذين لا نعرفهم والمظهر الذي اتخذته وهي تقول لنا ذلك. لذلك حينما تستثار غيرتنا فيما بعد من جانب هؤلاء الناس أنفسهم فإن غيرتنا، بغية أن تعلم إن كانت غير مخطئة وإن كان ينبغي أن نرد إليهم بالضبط هذه العجلة التي تبديها عشيقتنا في الخروج وذاك الاستياء من أننا حرمناها إياه بعودتنا المبكرة، وإذ هي تنقب في الماضي لتستخلص منه استدلالات، لا تلقى فيه شيئاً. إنها دوماً استذكارية تشبه مؤرخاً يقع عليه أن يقدم تاريخاً لا يملك له أية وثيقة. وهي تنقض، إذ هي دائمة التأخير، انقضاض ثور هائج إلى حيث لا يوجد الشخص الفخور اللامع الذي يهيجه بوخزاته والذي يعجب الجمهور القاسي بجلاله وحيلته. الغيرة تتخبّط في الفراغ حائرة كما هي حالنا في تلك الأحلام حيث نعاني من أننا لا نلقى شخصاً في منزله الفارغ، وكنا عرفناه تمام المعرفة في الحياة لكنه ربما كان آخر هنا واتخذ فحسب ملامح شخصية أخرى؛ وهي حائرة كما يتفق لنا أكثر من ذلك بعدما نستيقظ وحين نحاول التعرف إلى هذا أو ذاك من تفاصيل حلمنا. كيف كانت تبدو صديقتنا وهي تقول لنا ذلك؟ أما كانت تبدو سعيدة، أما كانت حتى تصفر، ولا تفعل ذلك إلا حينما تجول في خاطرها فكرة غرامية ويزعجها وجودنا ويغضبها؟

ألم تقل لنا شيئاً يتناقض وما تؤكده لنا الآن من أنها تعرف أو لا تعرف فلاناً؟ لسنا نعرف ذلك ولن نعرفه في يوم، وننصرف بضراوة إلى البحث عن بقايا حلم لا تماسك بينها، وتستمر في أثناء ذلك حياتنا إلى جانب عشيقتنا، حياتنا الساهية عما نجهل أنه مهم لنا، المتنبهة لما ربما كان غير مهم، التي يسكنها هاجس كائنات لا صلات حقيقة لها بنا، حياتنا المليئة بالنسيان والثغرات والهموم الوهمية، حياتنا الشبيهة بالحلم.

وانتبهت إلى أن بائعة الألبان لا تزال هنا، فقلت لها إن المكان بعيد جداً وإني لست بحاجة إليها. ورأت كذلك في الحال أن الأمر سيكون مزعجاً: «ثمة مباراة حلوة بعد قليل وبودي ألا تفوتني». وأحسست أنها لا بد مذ ذاك أن تقول بحب الرياضة وأنها ستقول بعد بضع سنوات بالرغبة في أن تحيا حياتها. وقلت لها إني بالحقيقة لا حاجة لي بها ونقدتها خمسة فرنكات. وإذ كانت قليلاً ما تتوقع ذلك وتقول في نفسها إنها إن نالت خمسة فرنكات في مقابل القيام بلا شيء فسوف تنال الكثير في مقابل مهمتي وأخذت تحكم أن مباراتها لم تكن مهمة. «لعلي كنت قمت بمهمتك، إذ يمكن دوماً تدبر الأمور». لكني دفعت بها إلى الباب إذ كنت بحاجة إلى البقاء وحيداً. كان لا بد، مهما كلف الثمن، من الحؤول دون أن تستطيع «ألبيرتين» التقاء صديقات «ليا» في التروكاديرو. كان لا بد من ذلك ولا بد من النجاح: ما كنت أعرف، والحق يقال، كيف سيتم ذلك وفي اللحظات الأولى كنت أفتح يديّ وأنظر إليهما وأفرقع مفاصل أصابعي، إما لأن الفكر الذي لا يستطيع العثور على ما يريد يفسح لذاته، وقد أخذ منه الكسل، أن يتوقف على مدى لحظة تبدو له فيها الأشياء الأقل إثارة بصورة مميزة وواضحة كمثل رؤوس عشب التلاع التي تراها من العربة ترتجف في هبة الريح حينما يتوقف القطار في أرض مكشوفة - وهو انعدام حركة ليس دوماً أوفر خصوبة من انعدام حركة الحيوان الواقع في قبضتك والذي ينظر دون حراك وقد شل من الخوف أو خلب لبه - وإما لأني أمسكت بجسمي على أتم الاستعداد - إلى جانب عقلي في الداخل،

وضمن هذا الأخير وسائل التأثير على هذا الشخص أو ذاك - وكأنه لم يعد سوى سلاح سوف تنطلق منه الطلقة التي ستفصل «ألبيرتين» عن «ليا» وصديقتيها. أجل، لقد سبق أن قلت في نفسي في الصباح حينما جاءت «فرانسواز» تقول لي إن «ألبيرتين» سوف تذهب إلى التروكاديرو: «تستطيع «ألبيرتين» أن تفعل ما يحلو لها، وظننت أن أفعالها سوف تلبث حتى المساء في هذا الطقس الرائع دون أهمية ملموسة بالنسبة إلي. لكنما لم تكن شمس الصباح وحدها، مثلما كنت ظننت، هي التي جعلتني غير مبالٍ إلى هذا الحد؛ بل لأني كنت أعلم، بعدما أرغمت «ألبيرتين» على التخلي عن المشروعات التي ربما أمكن أن تباشرها أو حتى تنجزها في منزل آل «فيردوان» واضطررتها أن تمضي إلى حفلة في العصر كنت اخترتها بنفسي وما استطاعت بشأنها أن تعد لأي شيء، كنت أعلم أن ما ستفعله سوف يكون حتماً بريئاً. وإن كانت «ألبيرتين» كذلك قد قالت بعد بضع لحظات: «إني إن قتلتُ نفسي فالأمر واحد عندي»، ذلك لأنها كانت متيقنة أنها لن تقتل نفسها. لقد توافر أمامي وأمام «ألبيرتين» في هذا الصباح (أكثر كثيراً من إشماس النهار) هذا الوسط الذي لا نراه ولكننا كنا نبصر بوساطته الشفافة المتغيرة: أفعالها في ما يخصني وأهمية حياتها في ما يخصها، يعني تلك الظنون التي لا ندركها ولكنها لا يمكن تشبيهها بالفراغ الخالص أكثر مما ينطبق ذلك على الهواء الذي يحيط بنا. وهي إذ تؤلف من حولنا جواً متبدلاً، ممتازاً أحياناً وأكثر الأحيان خانقاً. ربما كانت جديرة بأن تلحظ وتسجل بمقدار العناية التي تولي لتسجيل الحرارة والضغط الجوي والفصول لأن لأيامنا أصالتها المادية والمعنوية. إن الاعتقاد الذي لا يُلحَظ من جانبي والذي غمرني مع ذلك بجو من البهجة حتى اللحظة التي عدت ففتحت فيها صحيفة «**الفيغارو**» والذي مفاده أن «ألبيرتين» لن تفعل إلا ما كان غير مؤذٍ، إن الاعتقاد هذا زال منذ قليل، فلم أعد أعيش داخل النهار الجميل، بل في نهار أنشأه داخل الأول خوفي أن تعيد «ألبيرتين» صلاتها بـ«ليا» وبسهولة أكبر بالفتاتين إن كن ذهبن، كما كان ذلك مرجحاً،

ليصفقن للممثلة في «التروكاديرو» حيث لن يصعب عليهن التقاء «ألبيرتين» في فترة استراحة. لم أعد أفكر بالآنسة «فانتوي» فقد كان اسم «ليا» عاد، كيما يثير غيرتي، فأراني صورة «ألبيرتين» في الكازينو بالقرب من الفتاتين. ذلك أني ما كنت أملك في ذاكرتي سوى مجموعات لـ«ألبيرتين» مفصول بعضها عن بعض وغير تامة: صور جانبية ولقطات خاطفة. وكانت غيرتي لذلك تقتصر على تعبير متقطع، متهرب وثابت في آن، وعلى الأشخاص الذين بعثوه على محيا «ألبيرتين». كنت أتذكره حينما كانت الفتاتان في «بالبيك» تطيلان النظر إليها أو تفعل نسوة من هذا القبيل. كنت أتذكر العذاب الذي أعاينه من جراء رؤيتي نظرات نشطة، كما هي نظرات رسام يود أن يضع رسماً تخطيطياً، تجري على الوجه الذي تغطيه تماماً والذي كان، بسبب وجودي دونما شك، يخضع لتلك الملامسة دون أن يبدو أنه يلاحظها وبجمود ربما كان في الخفاء شهوانياً. كان ثمة، قبل أن تستعيد «ألبيرتين» رباطة جأشها وتكلمني، ثانية لا تتحرك في أثنائها وتبتسم في الفراغ بذات المظهر الطبيعي المتكلف واللذة المتخفية كما لو يجري تصويرها شمسياً. بل كانت من أجل أن تختار أمام العدسة وقفة أكثر إثارة - تلك التي سبق أن اتخذتها في «دونسيير» حينما كنا في نزهة برفقة «سان لو»: تضحك وتمر لسانها على شفتيها، كانت تتظاهر بأنها تستفز كلياً. صحيح أنها لم تكن في تلك الفترات إطلاقاً ما كانت عليه حينما كانت هي مهتمة بفتيات عابرات. كانت نظرتها الضيقة المخملية في هذه الحالة الأخيرة تتركز على عابرة السبيل وتلتصق بها دبقة فتاكة إلى حد تبدو معه وكأنما كان ينبغي أن تقتلع الجلد معها في انسحابها. لكن هذه النظرة في تلك الفترة، والتي كانت توليها على الأقل شيئاً من الجدية إلى حد تظهر معه متألمة، كانت بدت لي عذبة في مقابل النظرة الباهتة السعيدة التي اتخذتها بالقرب من الفتاتين، ولعلني كنت فضلت التعبير القائم عن الرغبة التي ربما تحسها أحياناً على التعبير المشرق وليد الرغبة التي توحي بها. وعبثاً كانت تحاول حجب الشعور الذي يعتريها منها فقد كان يغمرها

ويغلفها رقيقاً شهوانياً ويبرز محياها مورداً تماماً. على أن كل ما كانت «ألبيرتين» تمسك به معلقاً في داخلها، وكان يشع من حولها ويسومني عذاباً عظيماً، من ذا يعلم إن كانت ستوالي كتمه في أثناء غيابي وإن كانت لن تستجيب بجرأة لمحاولات تودد الفتاتين إذ أنا الآن غائب؟ صحيح ان تلك الذكريات كانت تسبب لي بالتأكيد ألماً عظيماً. لكأنما هي إقرار كامل بميول «ألبيرتين» واعتراف شامل بخيانتها، وما كانت أيمان «ألبيرتين» الخاصة التي أود تصديقها والنتائج السلبية لتقصياتي الناقصة وتوكيدات «أندريه»، وربما جرت بالتواطؤ مع «ألبيرتين» ما كانت كلها لتقوى عليها. كان بوسع «ألبيرتين» أن تنكر أمامي خياناتها الخاصة، لكنها كانت، بكلمات تفلت منها، وهي أقوى من التصريحات المناقضة، كانت بتلك النظرات وحدها قد أقرت بما لعلها ودت أن تخفيه أكثر كثيراً من الوقائع الخاصة، بما لعلها كانت قتلت نفسها على أن تعترف به، عنيت ميلها. فإنه ليس من امرئ يود الكشف عن مكنونات نفسه. وعلى الرغم من الألم الذي تسببه لي هذه الذكريات، هل كان بوسعي أن أنكر أن برنامج حفلة التروكاديرو المسائية هو الذي أيقظ في النفس حاجتي إلى «ألبيرتين»؟ لقد كانت من صنف تلك النساء اللواتي تستطيع ذنوبهن لدى الضرورة أن تقوم مقام المفاتن، وبمقدار ذنوبهن، طيبتهن التي تعقبها وتعيد إلينا تلك الحلاوة التي نضطر دون انقطاع معهن، كما هي حال مريض لا يبدو البتة في تمام العافية على مدى يومين متعاقبين، أن نستردها. بل ثمة من جانب آخر ما كان أكثر من ذنوبهن في أثناء حبنا لهن، هي ذنوبهن قبل أن نعرفهن وأولها جميعها طبيعتهن. فإن ما يجعل صنوف الحب هذه مؤلمة أن نوعاً من الخطيئة الأصلية للمرأة يسبقها وجوداً، خطيئة تجعلنا نحبهن حتى إننا حين ننسى ذلك نضحي أقل حاجة إليها ولا بد بغية معاودة الحب من معاودة الألم. كان ما يشغل بالي أكثر ما يشغله في هذه الآونة ألا تلتقي الفتاتين، وأن أعلم إن كانت تعرف «ليا» أم لا، مع أنه ربما كان جديراً بالمرء ألا يهتم في الوقائع الخاصة بما كان غير دلالتها العامة، وعلى

الرغم من الصبيانية، التي بمثل حجم صبيانية السفر أو الرغبة في التعرف إلى النساء، والتي قوامها تجزيء فضولنا حول ما تبلور فجأة في فكرنا من سيل الحقائق القاسية اللامرئي، الحقائق التي ستبقى دوماً مجهولة لدينا. وإن نحن أفلحنا على أي حال في القضاء عليه فسرعان ما يحل آخر محله. كنت أخشى البارحة أن تذهب «ألبيرتين» إلى منزل السيدة «فيردوران»، والآن لم أعد مشغولاً إلا بـ«ليا». والغيرة المعصوبة العينين ليست عاجزة فحسب عن اكتشاف أي شيء في الظلمات التي تكتنفها بل هي إلى ذلك واحد من تلك العذابات التي لا بد فيها من إعادة المهمة دون توقف، كما هي مهمة بنات «دوناووس»[١] أو «إيكسيون»[٢]. وحتى إن لم تكن الفتاتان هناك، أي انطباع كان يمكن أن تخلف «ليا» في نفسها، وهي يزيد في بهائها لباسها التنكري، ويجملها النجاح، وأية أحلام تطلق لها العنان لدى «ألبيرتين» وأية رغبات، وإن تم كبح جماحها عندي، تثير قرفها من عيشة لا يمكنها إشباعها فيها؟ ومن ذا يعلم على أية حال إن لم تكن «ليا» وأنها لن تذهب للقائها في مقصورتها، وحتى إن لم تكن «ليا» تعرفها، من ذا يؤكد لي أنها، وقد لمحتها في جميع الأحوال في «بالبيك»، لن تتعرفها ولن توافيها من فوق خشبة المسرح بإشارة تجيز لـ«ألبيرتين» أن يوعَز بفتح باب الكواليس لها؟ إن الخطر ليبدو سهلاً تجنبه إلى حد بعيد حينما نتحاشاه. ولم يكن بعد جرى تحاشيه. وكنت أخشى أن لا يكون ذلك ممكناً فيزداد بذاك المقدار هولاً في نظري. ومع ذلك فإن هذا الحب لـ«ألبيرتين» الذي كنت أحسه يتلاشى تقريباً حينما أحاول تحقيقه إنما بدا عنف ألمي في هذه الآونة وكأنما يقيم إلى حد ما البرهان عليه. فلم يعد لدي من هم سواه وما كنت أفكر إلا بالوسائل التي تحول

---

(١) هن بنات ملك «أرغوس» اللواتي قتلن أزواجهن، فكان عقابهن في جهنم أن يملأن إلى الأبد برميلاً لا قعر له.

(٢) بطل يوناني أسطوري وملك «اللابيثيين» أمر «زيوس» رئيس الآلهة أن يربط إلى دولاب ملتهب يدور به إلى الأبد.

دون بقائها في التروكاديرو وكنت قدمت أي مبلغ لـ«ليا» مقابل ألا تذهب إليه. فإن كنا نبرهن عن تفضيلنا بالعمل الذي ننجزه أكثر منا بالفكرة التي تكونها فلعلي أحببت مثل إلهة تظل غير مرئية، فأجهد بألف من التخمينات في تدارك عذابي دون أن أحقق بذلك حبي.

كان لا بد بادئ الأمر من التيقن بأن «ليا» ذاهبة حقاً إلى التروكاديرو. وبعدما صرفت بائعة الحليب ناقداً إياها فرنكين اتصلت هاتفياً بـ«بلوك»، وكان بدوره على ارتباط بـ«ليا» لأسأله عن ذلك. لم يكن يعلم عن الأمر شيئاً وبدا مستعجباً أن يستطيع إثارة اهتمامي. وفكرت أنه لا بد لي من الإسراع وأن «فرانسواز» بكامل ثيابها أما أنا فلا، فسألت أمي أن تدعها لي طوال النهار، وحملتها فيما كنت أنهض من سريري على استئجار سيارة. كان عليها الذهاب إلى التروكاديرو وشراء بطاقة والبحث عن «ألبيرتين» في كل مكان في القاعة وتسليمها كلمة مني. كنت أقول لها في تلك الكلمة إنني مشوش البال جراء رسالة وصلتني تواً من ذات السيدة التي تعلم أني سبق لي أن كنت تعيساً جداً بسببها ذات ليلة في «بالبيك». وأخذت أذكّرها بأنها لامتني في الغد على أنني لم أرسل في طلبها. ولذلك أذنت لنفسي. أقول لها، أن أسألها التضحية لي بصبيحتها والمجيء لاصطحابي لنقوم سوية بنزهة في الهواء الطلق كيما أحاول تهدئة روعي. ولما كان سيمضي وقت طويل إلى حد ما قبل أن أكون ارتديت ثيابي وجهزت فسوف يسعدني أن تغتنم وجود «فرانسواز» للذهاب إلى مخزن «تروا كارتييه» (الأحياء الثلاثة) - وكان هذا المخزن، بما هو أصغر، أقل إقلاقاً لي من مخزن «بون مارشيه» (الرخيص الثمن) - وشراء قميص التول الأبيض المطرز الذي كانت بحاجة إليه.

لم تكن رسالتي على الأرجح عديمة الجدوى. وحقيقة القول إني ما كنت أعلم شيئاً فعلته «ألبيرتين» مذ عرفتها، بل حتى قبل ذلك. لكنما كان في حديثها (وكان وسع «ألبيرتين» لو أنني كلمتها عنه أن تقول إني أسأت السماع) بعض التناقضات، بعض اللمسات التي تبدو لي حاسمة بمقدار ما

هو الجرم المشهود، ولكنها أقل صلاحية للاستخدام ضد «ألبيرتين» التي كانت، إذ تؤخذ في التزوير كما يؤخذ الطفل، كانت في الغالب، بفضل هذا التصحيح المفاجئ الاستراتيجي، قد أبطلت في كل مرة حملاتي القاسية وأعادت الأمور إلى نصابها. فقد كانت تستخدم، لا بداعي التنميق الأسلوبي، بل لتصلح صنوف تهورها، هذه التبدلات القواعدية المفاجئة التي تشبه قليلاً ما يسميه علماء القواعد الفصل البلاغي أو ما لست أدري. فإذا انساقت في حديثها عن النساء إلى القول: «أتذكر أنني في الفترة الأخيرة» كانت «أنني» تضحي فجأة بعد «ربع شهقة» «أنها»، وكان أمراً أبصرته إبصار متنزهة بريئة، ولم تنجزه البتة. لم تكن هي فاعل الفعل. وددت لو أتذكر بالضبط بداية الجملة كي أستخلص بنفسي، بما أنها كانت تتهرب، ما عسى كانت الخاتمة. ولما كنت قد انتظرت تلك الخاتمة فقد كنت لا أحس تذكر البداية التي ربما جعلتها هيئتي المهتمة تحرفها عن مسارها فألبث قلقاً بشأن فكرتها الحقيقية وذكرها المطابق للواقع. وإنما أمر بدايات الكذبة لدى عشيقتنا يطابق لسوء الحظ بدايات حبنا ذاته أو بدايات نزعة ما لدينا. فإنها تتشكل وتتجمع وتمر دون أن يلاحظها انتباهنا. وحين نبغي تذكر الطريقة التي بدأنا بها أن نحب امرأة فإننا مذ ذاك قد أحببنا. أما الأحلام التي تسبقها فما كنا نقول في نفسنا: إنها التمهيد للحب، فلنحذر؛ وما كانت تتقدم على نحو مباغت ونكاد لا نلاحظها. وإني إلى ذلك، فيما عدا حالات نادرة إلى حد ما نسبياً، كثيراً ما قابلت، لمحض إسلاس الرواية، بين قولة كاذبة لـ«ألبيرتين» وتوكيدها الأول (حول الموضوع نفسه). والتوكيد الأول هذا غالباً ما انسل لا يسترعي اهتمامي، إذ أنا لا أقرأ المستقبل ولا أخمن أي توكيد مناقض يمكن أن يقابله، وقد طرق مسامعي بالتأكيد ولكن دون أن أفصله عن السلسلة المستمرة لأقوال «ألبيرتين». كان بودي بعد ذلك، في مواجهة الكذب الواضح أو حينما يداخلني شك مقلق، أن أتذكر: وعبثاً أفعل؛ إن ذاكرتي لم تخطر في الوقت المناسب وظنت من غير المجدي أن تحتفظ بنسخة.

وأوصيت «فرانسواز» أن تقوم، بعدما تكون أخرجت «ألبيرتين» من القاعة، بإبلاغي الأمر هاتفياً. وأن تعود بها، رضيت أم لم ترض. وأجابت «فرانسواز» تقول: «لا ينقصنا إلا ألا تكون راضية بالمجيء للقاء سيدي». - «لكني لا أدري إن كانت إلى هذا الحد راغبة في لقائي». فأردفت «فرانسواز» تقول، وقد بعثت «ألبيرتين» في صدرها من جديد، بعد هذه السنوات الكثيرة، ذات عذاب الغيرة الحاسدة التي سبق أن أثارتها بالأمس «أولالي» في جوار خالتي: «ينبغي أن تكون كافرة بالنعمة». وإذ كانت تجهل أن وضع «ألبيرتين» لديّ لم تجد هي وراءه بل رغبت فيه أنا (وهو ما أود إخفاءه عنها يدفعني الاعتزاز بالنفس وكيما أثير حنق «فرانسواز») فقد كانت معجبة بحذاقتها وكارهة لها وتدعوها حينما تحدث عنها الخدام الآخرين بـ«الممثلة» و«المخادعة» التي تفعل بي ما تشاء. ما كانت بعد تجرؤ على الدخول معها في حرب وكانت تبش لها وتفخر لديّ بالخدمات التي تؤديها لي في علاقاتها بي ظناً منها بأن ليس يجديها أن تقول لي شيئاً وأنها لن تدرك شيئاً من ذلك، ولكنها تقف بالمرصاد لأية فرصة؛ فإن كشفت مرة صدعاً في وضع «ألبيرتين» فقد كانت عازمة على تكبيره وعلى الفصل بيننا فصلاً تاماً. - «كافرة بالنعمة إلى أبعد حد؟ لا، يا «فرانسواز»، فأنا من يلقى نفسه كافراً بالنعمة، فلست تعرفين كم هي طيبة معي. (فكم كان يحلو لي أن أبدو محبوباً!) هيا أسرعي في الذهاب».

- «ها أنا ذا أطير، وبسرعة».

لقد شرع تأثير ابنة «فرانسواز» يفسد قليلاً مفرداتها. وعلى هذا النحو تفقد سائر اللغات نقاءها بإضافة مصطلحات جديدة إليها. وانحطاط لغة «فرانسواز» التي عرفتها في عهودها الزاهية إنما كنت على أي حال أتحمل مسؤوليته غير المباشرة. فما كانت ابنة «فرانسواز» لتنحدر بلغة أمها الكلاسيكية إلى أسفل درجات الرطانة لو أنها اكتفت بالتحدث إليها بالدارجة المحلية. على أنها لم تمتنع عنها في يوم، فحينما كانت الاثنتان على مقربة مني كانتا، إن اتفق لهما أمور سرية تقولانها، وبدلاً من

المبادرة إلى الانزواء في المطبخ، كانتا تقيمان لهما في قلب غرفتي حاجزاً أكثر مناعة من أفضل الأبواب إغلاقاً بتحدثهما بالدارجة المحلية. كنت أفترض فقط أن الوالدة والابنة ما كانتا تعيشان دوماً إن حكمت على ذلك بالتواتر الذي تعود به الكلمة الوحيدة التي أمكنني تمييزها: «تفلقينني» (ما لم أكن أنا موضوع ذاك الضيق). لكن اللغة المجهولة أكثر ما تكون إنما يجرى تعلمها في نهاية المطاف حينما تسمع دوماً من يتحدث بها. وأسفت أن كانت تلك اللغة الدارجة المحلية، إذ أفلحت في معرفتها وما كان ليقل تعلمي لو أن «فرانسواز» تعودت التحدث بالفارسية. وعبثاً ضاعفت «فرانسواز»، حينما تبينت أوجه تقدمي، من سرعة كلامها وكذلك فعلت ابنتها، فلم تفلحا. واغتمت الأم من أني أفهم المحلية الدارجة ثم ابتهجت لسماعها إياي أتحدث بها. كان ذلك الابتهاج والحق يقال من باب السخرية، فمع أني قد بلغ بي في نهاية المطاف أن أنطق بها على نحو ما تفعل تقريباً كانت تجد بين طريقتينا في التلفظ هاويات تخلب لبها، وأخذت تأسف أن لا تلتقي من بعد أناساً من بلدها لم يخطروا البتة في بالها منذ سنوات كثيرة وربما تلووا فيما بعد من ضحكات، ودت لو أنها تسمعها، حينما يسمعونني أتكلم الدارجة المحلية بهذا المقدار من السوء. كانت تلك الفكرة وحدها تملؤها حبوراً وأسفاً وكانت تعدد هذا أو ذاك من الفلاحين الذين ربما فاضت عيونهم بدموع مبعثها الضحك. ولم يخالط في جميع الأحوال أي فرح الحزن الناجم عن أني أفهمها تماماً وإن كنت أسيء لفظها. إن المفاتيح لا فائدة تجنى منها إن استطاع من نريد منعه من الدخول أن يستخدم مفتاحاً عمومياً أو كلابة لصوص. ولما أصبحت الدارجة المحلية حصناً لا قيمة له أخذت تتكلم مع ابنتها فرنسية سرعان ما أضحت فرنسية أحط العهود.

كنت على أتم الاستعداد، و«فرانسواز» لم تكن بعد هتفت. فهل كان ينبغي الذهاب دونما انتظار؟ ولكن من ذا يعلم إن كانت ستجد «ألبيرتين»؟ وإن لم تكن هذه في الكواليس؟ بل إن كانت، وقد التقتها «فرانسواز»،

ستسلّم بالعودة؟ ودوى رنين الهاتف بعد نصف ساعة فيما يخفق الأمل والخشية في فؤادي ويصطخبان. وكانت، بأمر من عامل الهاتف، كوكبة طيارة من الأصوات تحمل إليّ بسرعة آنية أقوال رجل الهاتف لا أقوال «فرانسواز» التي يحول وجل وكآبة مستمدان من الجدود، يحولان، إن أُلصِقا بحاجة لم يعرفها آباؤها، دون اقترابها من سماعة هاتف، فيما يحتمل أن تزور مصابين بعدوى. وكانت قد وجدت «ألبيرتين» وحدها في الردهة وهي لحقت في الحال بـ«فرانسواز» بعدما ذهبت فقط لتخطر «أندريه» بأنها لن تبقى. «ألم تكن غاضبة؟ آه! عفوك! سأل هذه السيدة إن لم تكن الآنسة غاضبة» . - «تقول لي هذه السيدة أن أقول لك أن لا ، على الإطلاق، وأن الأمر نقيض ذلك تماماً. وفي جميع الأحوال ما كان يعرف إن لم تكن راضية. سوف تمضيان الآن إلى مخزن «الأحياء الثلاثة» وتكونان عادتا في الساعة الثانية». وفهمت أن الساعة الثانية إنما تعني الثالثة إذ الوقت جاوز الثانية. لكنما كان ذلك لدى «فرانسواز» واحداً من تلك العيوب الخاصة الدائمة التي لا شفاء منها والتي ندعوها مَرَضية، وقوامه عجزها عن النظر نظرة صحيحة إلى الساعة في يوم والإعلان عن الوقت بالضبط. وما استطعت قط أن أدرك ما كان يجول في رأس «فرانسواز» حينما تقول، بعدما تنظر على ذاك النحو إلى الساعة، إن كانت الثانية: إنها الساعة الواحدة أو هي الثالثة، وما استطعت أن أدرك قط إن كانت الظاهرة الجارية آنذاك اتخذت مركزها في بصر «فرانسواز» أو فكرها أو لغتها. أما الشيء المؤكد فإن تلك الظاهرة واقعة على الدوام. إن البشرية مغرقة في القدم. وقد وفرت الوراثة وصنوف التزاوج قوة لا تقهر للعادات السيئة والارتكاسات العائبة. ثمة شخص يعطش ويحشرج لمروره على مقربة من شجرة ورد، وآخر يصيبه طفح من رائحة دهان قريب العهد، ويصاب كثيرون بضروب من القولنج إن انبغى أن يسافروا، ولا يستطيع أحفاد لصوص وأصحاب ملايين وكرماء حجب النفس عن سلبنا خمسين فرنكاً. فأما أن أعلم علام يقوم العجز الذي تعاني منه «فرانسواز» في أن

تقول كم هي الساعة بالضبط فما هي من وفرت لي في يوم أي إيضاح بهذا الشأن. لم تكن «فرانسواز» تحاول، على الرغم من الغيظ الذي تثيره لديّ عادة تلك الإجابات غير الصحيحة، لا الاعتذار عن خطتها ولا تفسيره. كانت تلبث ساكتة ويبدو كأنها لا تسمعني، وهو ما كان يثير سخطي في النهاية. كنت أود أن أسمع كلمة تبرير إن لم يكن لشيء فلأفتح على الأقل ثغرة، ولكن لا شيء، بل صمت اللامبالي. أما ما كان من أمر اليوم فليس في جميع الأحوال شك، سوف تعاد «ألبيرتين» برفقة «فرانسواز» في الساعة الثالثة، ولن تلتقي «ألبيرتين» لا «ليا» ولا صديقاتها. ولما كان خطر أن ترتبط مجدداً بعلاقات صداقة معهن قد جرى تحاشيه، فقد فَقَدَ في الحال من أهميته في نظري، وعجبت، وأنا أبصر بأية سهولة جرى ذلك، أن أكون ظننت أنني لن أفلح في تحاشيه. وأحسست بميل إلى الامتنان شديد نحو «ألبيرتين» التي لم تذهب، كما كان واضحاً، إلى التروكاديرو من أجل صديقات «ليا»، والتي كانت تقيم لي البرهان، بتركها حفلة المساء وعودتها بإشارة مني، على أنها ملك يدي حتى مستقبلاً أكثر مما كنت أتصور. وتعاظم الميل أيضاً حينما حمل إليّ دراج كلمة منها كي أتحلى بالصبر وفيها بعض من تلك العبارات اللطيفة التي كانت مألوفة لديها: «عزيزي الغالي «مارسيل»، إني أقل سرعة في سيري من هذا الدراج الذي وددت أن آخذ دراجته لأبكر في وجودي بالقرب منك. كيف يمكنك الظن بأني أستطيع أن أغضب أو أن شيئاً يمكن أن يبهجني بقدر ما يفعل وجودي معك؟ لطيف أن نخرج كلانا وألطف منه أن لا نخرج في يوم إلا سوية. فأية أفكار تعتمل في رأسك إذن؟ يا له «مارسيل» يا له «مارسيل»! أنا كلي لك، «ألبيرتين»».

إن الفساتين التي كنت أشتريها لها، واليخت الذي سبق أن حدثتها عنه ومباذل «فورتوني»، كل ذلك الذي يجد في طاعة «ألبيرتين» هذه لا مقابله بل تتمته كان يبدو لي بمثابة عدد من الامتيازات أمارسه؛ ذلك لأن واجبات وأعباء السيد جزء من سيطرته وهي تحددها وتثبتها بقدر ما تفعل

حقوقه. وهذه الحقوق التي تقر لي بها كانت تكسب أعبائي بالضبط طابعها الحقيقي؛ كانت لي امرأة تطلب لدى أول كلمة أبعث بها إليها على نحو مفاجئ، أن يتصل بي هاتفياً من يقول لي باحترام إنها عائدة وإنها راضية أن يعودوا بها في الحال. لقد كنت سيداً أكثر مما ظننت. سيداً أكثر يعني عبداً أكثر. ولم يعد صبري ينفد لرؤية «ألبيرتين». وإن يقيني بأنها تقوم بجولة في الأسواق برفقة «فرانسواز» وأنها ستعود برفقتها في وقت قريب، وكنت ربما أطلت في مدته راضياً كان ينير مثل نجم ساطع هادئ وقتاً كنت أصبت متعة أكبر في قضائه وحدي. كان حبي لـ«ألبيرتين» قد أنهضني وجعلني أستعد للخروج ولكنه قد يحول دون تمتعي بالخروج. وكنت أعتقد أنه لا بد في يوم الأحد هذا أن تقوم عاملات صغيرات وفتيات طائشات وعاهرات بالتنزّه في الغابة. وكنت أصنع بكلمات الطائشات والعاملات الصغيرات هذه (مثلما سبق أن وقع لي ذلك كثيراً باسم علم، باسم فتاة قرأته في محضر حفلة راقصة) وبصورة صدار أزرق وتنورة قصيرة. لأنني كنت أضع خلف كل هذا امرأة مجهولة يمكن أن تحبني، كنت أصنع وحدي نساء مشتهيات وأقول في نفسي: «كم ينبغي أن يكن حلوات!» ولكن ما عسى يفيدني أن يكن كذلك بما أنني لن أخرج بمفردي؟

وأفدت من أنني كنت بعد وحدي وأرخيت الستائر إلى نصف مداها كي لا تمنعني الشمس من قراءة النوطة وجلست إلى البيانو وفتحت كيفما تيسر سوناتا «فانتوي» التي كانت موضوعة فوقه وأخذت أعزف إذ كنت أنعم بمتسع من الوقت وبراحة البال بما أن مجيء «ألبيرتين» لا يزال بعيداً ولكنه في المقابل مؤكد تماماً. كان بوسعي، إذ تكتنفني أجواء الانتظار الذي يفيض أماناً لعودتها بصحبة «فرانسواز» والثقة بطاعتها وكأنما أجواء الغبطة المنبعثة من نور داخلي بمثل دفء الضياء في الخارج، كان بوسعي التصرّف بتفكيري وسلخه فترة عن «ألبيرتين» وصرفه إلى «السوناتا». ولم أحرص حتى في هذه الأخيرة على أن ألاحظ كم كان تآلف الفكرة

الشهوانية والفكرة المهمومة أكثر مطابقة الآن لحبي لـ«ألبيرتين» الذي غابت عنه الغيرة فترة طويلة إلى حد أني استطعت أن أقر لـ«سوان» بجهلي لهذا الشعور، لا، فإني إذ كنت آخذ السوناتا من وجهة نظر ثانية وأنظر إليها على أنها في حد ذاتها من أعمال فنان كبير، كان يردّني دفق اللحن إلى أيام «كومبريه» - ولست أقصد «مونجوفان» وجانب «ميزيغليز»، بل النزهات في جانب «غيرمانت» - التي داخلتني فيها الرغبة في أن أكون فناناً. فهل تخليت، بعدولي في الواقع عن ذاك الطموح، عن شيء حقيقي؟ وهل كان بوسع الحياة أن تكون لي سلوى عن الفن، وهل في الفن حقيقة أعمق تلقى فيها شخصيتنا الحقيقية تعبيراً لا تمنحها إياه أفعال الحياة؟ فإن كل فنان كبير يبدو شديد الاختلاف عن الآخرين ويخلف فينا إلى حد بعيد هذا الشعور بالتفرد الذي نبحث عنه عبثاً في الحياة اليومية! وقد أثار انتباهي لحظة كنت أفكر في ذلك فاصل موسيقي من السوناتا، مع أني كنت أعرفه تمام المعرفة، لكن الانتباه يلقي أحياناً ضوءاً مختلفاً على أشياء معروفة لدينا مع ذلك منذ زمن طويل ونلاحظ فيها ما لم يسبق أن رأيناه مرة فيها. ولم أملك وأنا أعزف ذاك الفاصل، ومع أن «فانتوي» كان يعبر عن حلم لعله كان لبث غريباً تماماً على «فاغنر»، لم أملك النفس عن أن أهمس قائلاً: «تريستان!» بالابتسامة التي توافي صديق الأسرة حين يلقى شيئاً من الجد في نبرة، في حركة من الحفيد الذي لم يعرفه. ومثلما يتطلع المرء حينذاك إلى صورة تسمح بإيضاح وجه الشبه فقد وضعت فوق سوناتا «فانتوي» على المقرأ موسيقى «تريستان» التي كان يقدم منها مقاطع في هذا العصر بالضبط في فرقة «لامورو». ولم يكن لديّ في ما أبدي من إعجاب يسيد «بايروت» أي من الوساوس التي تنتاب من يملي عليهم الواجب، مثل «نيتشه»، أن يتجنبوا في الفن كما في الحياة الجمال الذي يغريهم والذين يبتعدون عن «تريستان» مثلما ينكرون «بارسيفال» ويفلحون، عن طريق الزهد الروحي ومن إماتة إلى إماتة وبسلوك درب الصليب الأكثر دموية، في الارتفاع حتى المعرفة المحضة والعبادة التامة لـ«حوذي

**لونجومو»**[1]. وأخذت أتبين كل ما تحمله أعمال «فاغنر» من حقيقة وأنا أرى من جديد هذه الفكرة الملحاحة المتهربة التي تخطر في فصل ولا تبتعد إلا لتعود، وهي أحياناً بعيدة ناعسة ويقرب أن تكون متجردة، وفي فترات أخرى تبدو، فيما تظل مبهمة، شديدة الإلحاح شديدة القرب باللغة الجوانية باللغة العضوية شديدة العمق حتى لكأنها معاودة ألم عصبي أكثر منها معاودة فكرة موسيقية.

كانت الموسيقى، وهي في ذلك مختلفة جداً عن مخالطة «ألبيرتين»، تساعدني على النزول داخل ذاتي وعلى اكتشاف الجديد فيها: هذا التنوع الذي بحثت عنه عبثاً في الحياة وفي السفر الذي يوليني الحنين إليه هذا الدفق الداوي الذي تحتضر بالقرب مني أمواجه المشمسة. والاختلاف مزدوج. فمثلما يبرز الطيف بالنسبة إلينا تركيب الضوء يمكننا تآلف الأنغام لدى «فاغنر» واللون لدى «إيلستير» من معرفة تلك الماهية النوعية لأحاسيس أخرى لا يدخلنا فيها الحب الذي نكنه لآخر غيره، ثم «تنوع» داخل العمل ذاته بالوسيلة الوحيدة المتاحة ليكون المرء متنوعاً بالفعل: وهي جمع شخصيات مختلفة. فحيثما يدعي موسيقي صغيرأنه يصور مروض جياد وفارساً في حين يحملهما على إنشاد الموسيقى نفسها فإن «فاغنر» يضع بالعكس خلف كل تسمية حقيقة مختلفة، وفي كل مرة يظهر فيها مروض الجياد نرى هيئة خاصة معقدة ومبسطة في الآن نفسه تندرج، بتصادم بين السطور متهلل إقطاعي، في اللحن المترامي الأطراف. من هنا جاءت صفة التمام في موسيقى تملؤها بالفعل طائفة من صنوف الموسيقى الأخرى التي يشكل كل منها كياناً. كيان أو انطباع يخلفه فينا وجه مؤقت من وجوه الطبيعة. وإنما يحتفظ، حتى ما كان الأكثر استقلالاً عن الشعور الذي يثيره فيها، بحقيقته الخارجية المحددة تماماً، فغناء الطائر وصوت بوق الصياد واللحن الذي يعزفه راع على قصبته إنما تحفر في الأفق خطوط إنشادها.

---

(١) Longjumean: مدينة صغيرة شهدت في القرن السادس عشر اتفاقاً بين الكاثوليك والبروتستانت. و«حوذي لونجومو» من أعمال فاغنر.

أجل كان «فاغنر» سيقرب بينها ويضع يده عليها ويدخلها في أوركسترا ويخضعها لأرفع الفكر الموسيقية ولكنه سيحترم في الوقت نفسه أصالتها الأولية مثلما يحترم صانع صناديق الخبز الألياف والجوهر الخاص للخشب الذي يحفره.

ولكن على الرغم من ثراء هذه الأعمال التي يحتلّ فيها تأمل الطبيعة مكانة إلى جانب العمل، إلى جانب أفراد ليسوا مجرد أسماء أشخاص، كنت أفكّر إلى أي حد تشارك فيه هذه الأعمال مع ذلك بهذه الميزة – وما أروعها – التي قوامها أنها دوماً غير مكتملة، وهي السمة التي تميز سائر الأعمال الكبيرة في القرن التاسع عشر، القرن التاسع عشر الذي أخفق فيه أعظم الكتاب في كتبهم، ولكنهم إذ نظروا على ذواتهم في طور العمل وكأنما هم العامل والقاضي في آن فقد استخلصوا من هذا التأمل الذاتي جمالاً جديداً خارجاً عن العمل وأرفع منه يفرض فيه على نحو رجعي وحدة وعظمة لا يملكهما. ودون التوقف إزاء من رأي في رواياته بعد الأوان «**كوميديا إنسانية**»، ولا إزاء الذين أطلقوا قصائد أو مقالات متباينة اسم «**أسطورة القرون**» و«**كتاب الإنسانية المقدس**»، ألا يسعنا مع ذلك أن نقول عن هذا الأخير إنه يجسد القرن التاسع عشر على أحسن وجه حتى لينبغي أن نبحث عن أعظم مواطن الجمال لدى «ميشليه» (Michelet) لا في أعماله ذاتها بل في المواقف التي يتخذها في مواجهة أعماله. لا في كتابه «**تاريخ فرنسا**» أو كتابه «**تاريخ الثورة**» بل في مقدماته لهذين الكتابين؟ والمقدمات إنما تعني صفحات كتبت بعدهما وهو ينظر عبرها إليهما ولا بد أن نضيف إليها هنا وهناك بعض الجمل التي تستهل عادة بعبارة «أقولها؟» وليست احتياط عالم بل إيقاع موسيقى. ولا بد أن الموسيقي الآخر، ذاك الذي كان يفتنني في هذه الفترة «فاغنر»، إذ يسحب من دروجه مقطوعة رائعة ليدخلها على أنها فكرة ضرورية من الناحية الاستعادية في عمل لم يكن يفكر فيه لحظة آلفه، ثم إذ لا بد أحسّ بعدما ألّف أول «أوبرا» ميثولوجية ثم ثانية ثم غيرها أيضاً وتبيّن فجأة أنه قام

بوضع رباعية، لا بد أحس بشيء من النشوة التي أحس بها «بلزاك» حينما ألقى على مؤلفاته نظرة غريب ووالد في آن، وألفى في هذا نقاء «رفائيل» وفي ذاك بساطة الإنجيل، فتبين فجأة وهو يلقي عليها ضوءاً راجعاً أنها ربما أصبحت أكثر جمالاً إنْ جمعت في حلقة واحدة يعود فيها الشخوص أنفسهم إلى الظهور وأضاف إلى أعماله في هذه الوصلة ضربة ريشة كانت الأخيرة والأكثر عظمة. وحدة لاحقة غير مصطنعة، ولولا ذاك لكانت هباء منثوراً مثل كثير من المنهجيات التي قام بها كتاب ضحلون يتظاهرون، بوابل من العناوين والعناوين الفرعية، بأنهم لاحقوا مقصداً واحداً متعالياً على غيره. غير مصطنعة، بل ربما أكثر حقيقية بما هي لاحقة وأنها صادرة عن لحظة حماس اكتشفت فيها بين قطع ليس لها من بعد سوى التلاقي، وحدة كانت تجهل ذاتها، فهي حيوية إذاً وليست منطقية، ولم تستبعد التنوع ولا أبردت التنفيذ. إنها (ولكنما تنطبق هذه المرة على الجموع) كمثل تلك المقطوعة التي ألفت بمعزل عن سواها وصدرت عن إلهام معيّن ولا يتطلبها العرض المصطنع لأطروحة ما، فتقبل لتتكامل مع الباقي. وإنما العمل نفسه الذي اجتذب إليه، قبل حركة الأوركسترا الكبيرة التي تسبق عودة «إيزولدا»، نغم الشبابة نصف المنسي الذي يجود به راعٍ. وليس من شك أنه، بقدر ما يفعل تدرج الأوركسترا لدى الاقتراب من صحن الكنيسة، حينما تضع يدها على نغمات الشبابة هذه وتحولها وتشركها بنشوتها وتحطم إيقاعها وتلقي الضوء على نغميتها وتسرع حركتها وتضاعف من آلات عزفها، بقدر ذلك دونما شك سر «فاغنر» حينما عثر في ذاكرته على لحن الراعي فجمعه إلى عمله الفني وأولاه كامل دلالته. وذلك الفرح على أي حال لا يفارقه البتة. فأياً كان حزن الشاعر لديه فإنما يواسيه بل يتجاوزه - يعني يقضي عليه لسوء الحظ بعض الشيء - الصانع. لكن كانت تثير اضطرابي حينذاك هذه المهارة الفلكانوسية[1] بقدر ما يفعل

---

(١) نسبة إلى «فولكانوس» (Vulcanus) إله النار الذي كان يصنع أفضل الأسلحة لأبطال الميثولوجيا اليونانية.

التماثل الذي لاحظته منذ قليل بين جملة «فانتوي» وجملة «فاغنر». فهل هي التي توليك لدى كبار الفنانين وهم فرادة أساسية لا يمكن ردها إلى غيرها هي في الظاهر انعكاس لواقع أكثر من إنساني وفي الحقيقة نتاج كدّ ومهارة؟ فإن لم يكن الفن سوى هذا فليس أكثر حقيقة من الحياة ولم يكن عليّ أن آسف إلى هذا الحد. فكنت أوالي عزف «تريستان». وكنت إذ يفصلني عن «فاغنر» الحاجز الصوتي، كنت أسمعه يتهلل فرحاً ويدعوني لمشاطرته سروره، وأسمع ضحكة «زيغفريد» ذات الشباب الدائم تتضاعف وكذلك تفعل ضربات مطرقته التي ما كانت تفيد مهارة العامل التقنية فيها على أي حال، كلما ازدادت هذه الجمل وضوحاً رائعاً، إلا في دفعها لمغادرة الأرض بصورة أكثر حرية، هذه الطيور الشبيهة لا ببجع «لوهانغرين» بل بتلك الطائرة التي سبق لي أن رأيتها في «بالبيك» تحيل طاقتها ارتفاعاً وتحلق فوق الماء وتغيب في السماء. وكما أن الطيور التي ترتفع أقصى ما يكون الارتفاع وتطير أسرع ما يكون الطيران تملك الجناح الأكثر قوة، ربما انبغى أن يكون ثمة من هذه الأجهزة المادية حقاً لاكتشاف اللانهاية، من تلك المئة والعشرين حصاناً من ماركة «ميستير» (السر) حيث يمتنع عليك مع ذلك، مهما طرت عالياً، أن تتذوق صمت الأجواء العليا بسبب هدير المحرك الجبار!

لست أعلم لماذا انعطف مجرى أحلامي، الذي كان حتى ذاك سعى خلف ذكريات عن الموسيقى، إلى من كانوا في عصرنا أفضل عازفيها وكنت أجعل بينهم «موريل» بعدما أغالي في قدره قليلاً. وفي الحال قام فكري بعطفة مفاجئة وشرعت أفكر بطبع «موريل» وببعض غرابات ذلك الطبع. كان من عادة «موريل» على أي حال - وهذا أمر يمكن أن يقترن بالوهن العصبي الذي يتآكله لا أن يختلط به - أن يتكلم عن حياته ولكنما يقدم عنها صورة شديدة الإظلام إلى حد يصعب معه جداً تمييز أي شيء. كان يضع نفسه على سبيل المثال بتصرف السيد «دو شارلوس» التام على أن يحتفظ بأمسياته لنفسه لأنه يرغب أن يسعه الذهاب بعد العشاء لمتابعة

دروس في الجبر. كان السيد «دو شارلوس» يأذن بها ولكنه يطلب لقاءه بعدها. «مستحيل، فهذا رسم إيطالي قديم» (والمزاح هذا لا يحمل أي معنى، منقولاً على هذا النحو)، لكن السيد «دو شارلوس» كان أقرأ «موريل» كتاب «**التربية العاطفية**»[1] الذي يقول فيه «مورو» هذه الجملة في الفصل ما قبل الأخير، وكان «موريل» لا ينطق البتة بكلمة «مستحيل» إلا ويتبعها بالكلمات التالية بداعي المزاح: «إنه رسم إيطالي قديم»، «فالدرس كثيراً ما يستمر حتى ساعة متأخرة وذلك في حد ذاته إزعاج كبير للأستاذ الذي ربما استاء...» ويجيب السيد «دو شارلوس»: «لكنما لا حاجة حتى للدرس، فليس الجبر السباحة ولا حتى الإنكليزية ويجزى تعلمه بالمستوى نفسه في كتاب»، يجيب وقد استشف في الحال في درس الجبر واحدة من تلك الصور التي لا يمكن أن يتضح له فيها أي شيء إطلاقاً. فربما كان الأمر أمر مضاجعة امرأة، أو غزوة مع عناصر أمنية إن سعى «موريل» إلى كسب المال بوسائل مشبوهة فانخرط في الشرطة السرية، بل وأسوأ من ذلك، من ذا يعلم؟ انتظار شاب متعهد يمكن أن تدعو الحاجة إليه في أحد بيوت الدعارة. وكان «موريل» يجيب السيد «دو شارلوس» قائلاً: «بل وأسهل من ذلك في كتاب، فإنك لا تفهم شيئاً في درس الجبر». ولعل السيد «دو شارلوس» كان يمكن أن يجيب: «فلماذا لا تدرسه إذاً في بيتي حيث تتوافر أفضل سبل الراحة؟»، ولكنه كان يحترس تماماً من الأمر إذ هو يعلم أن درس الجبر المتخيل كان انقلب في الحال، مع الاحتفاظ فقط بذات طابع الضرورة في استبقاء ساعات المساء حرة، درساً إلزامياً في الرقص أو الرسم. وقد وسع السيد «دو شارلوس» في هذا الشأن أن يتبيّن أنه مخطئ جزئياً على الأقل: فغالباً ما كان ينصرف «موريل» في منزل البارون إلى حل معادلات. لقد اعترض السيد «دو شارلوس» بالتأكيد بأن

---

(١) *L'Education Sentimentale* للكاتب الفرنسي الشهير «فلوبير» وفي قسمها الرابع، الفصل السادس تقول السيدة «آرنو» لـ«فريدريك مورو» عن لوحة معلقة على الجدار: «يبدو لي أني أعرف المرأة» فيجيب: «مستحيل، فالرسم إيطالي قديم».

الجبر قلما يمكن أن يفيد عازف كمان، فرد «موريل» بأنها تسلية لقضاء الوقت ومقاومة الوهن العصبي. كان وسع السيد «دو شارلوس» دون شك أن يحاول الاستعلام ومعرفة ما كانت في الحقيقة دروس الجبر الغامضة المحتومة تلك التي لا تعطى إلا ليلاً. لكن السيد «دو شارلوس» كان عميق الانخراط في مشاغل العالم كيما يهتم بحل المتشابك من مشاغل «موريل». فالزيارات التي يستقبلها أو يقوم بها، والوقت الذي يقضيه في الندوة والأعشية في المدينة والأمسيات في المسرح كانت تحول دون أن يفكر في الأمر كما في ذلك الخبث العنيف والماكر في أن الذي سبق لـ«موريل» فيما يقال إن كان يدعه ينفجر ويخفيه في الأوساط المتعاقبة والمدن المختلفة التي مر بها وحيث لا يتحدثون عنه إلا برعدة والصوت خفيض ودون أن يجرؤوا على رواية أي شيء. وكان لسوء الحظ واحد من انفجارات العصبية الشريرة تلك تسنى لي سماعه في ذلك اليوم حينما انحدرت بعدما أقلعت عن البيانو إلى الباحة لأذهب لملاقاة «ألبيرتين» التي طال مجيئها. ولدى مروري أمام دكان «جوبيان» حيث كان «موريل» ومن ظننتها تزمع أن تضحي قريباً زوجته وحدهما، وكان «موريل» يصرخ بأعلى صوته فيبعث ذلك منه نبرة ما كنت أعرفها عنده، لهجة فلاحية يكبتها عادة وكانت غريبة بالغة الغرابة. وما كانت الأقوال بأقل منها وهي مغلوطة على صعيد الفرنسية، ولكنه كان يعرف كل شيء معرفة ناقصة. «هلا خرجت أيتها العاهرة المريعة، أيتها العاهرة المريعة»[1]، هكذا كان يكرر القول للصغيرة المسكينة التي لم تفهم بالتأكيد في البداية ما كان يقصد قوله وتظل على الأثر مرتجفة عزيزة الجانب لا حراك بها أمامه. «قلت لك أن اخرجي أيتها العاهرة المريعة وهيا أحضري خالك كي أقول له ما أنت، مومس».

---

(١) كلمة grue تعني طائر الكركي وفي معناها المجازي تعني المومس التي تقف في انتظار طويل لزبائنها كما يفعل الكركي الذي يقف على قائمة واحدة. ولذلك يقول لها pied - de - grue التي تعني الانتظار وليس ما يتوهم، وهذا ما يفسر أن الفتاة لم تفهم بداية.

في هذه اللحظة بالضبط تناهى إلى الباحة صوت «جوبيان» الذي كان عائداً يتحدث مع أحد أصدقائه، ولما كنت أعرف أن «موريل» جبان إلى أبعد حد فقد وجدت من غير المجدي أن أقرن قواي بقوى «جوبيان» وصديقه اللذين سيصلان إلى الدكان بعد لحظة، وعدت على فوق لتجنب «موريل» الذي سارع، مع أنه كان رغب كثيراً (بغية إخافة الصغيرة والسيطرة عليها على الأرجح بابتزاز لا يرتكز ربما على شيء) في إحضار «جوبيان»، سارع إلى الخروج ما إن سمعه في الباحة. إن الأقوال المنقولة ليست شيئاً ولعلها لا تفسر خفقان القلب الذي عدت به إلي فوق. وإن هذه المشاهد التي تحضرها في الحياة إنما تلقى عنصر قوة لا حصر لها في ما يدعوه العسكريون على صعيد الهجوم المكسب الناجم عن المفاجأة، وعبثاً أحسّ بمزيدمن الهدوء العذب لعلمي أن «ألبيرتين» سوف تعود بالقرب مني بدلاً من المكوث في التروكاديرو، فما كان ذلك يقلل من تواتر نبرة هذه الكلمات تردد عشر مرات في أذني: «أيتها العاهرة المريعة، أيتها العاهرة المريعة»، والتي بلبلت أفكاري.

وهدأ اضطرابي شيئاً فشيئاً، فـ«ألبيرتين» تزمع العودة. سوف أسمعها تقرع جرس الباب بعد لحظة. كنت أحسّ أن حياتي لم تعد حتى مثلما كان يمكن أن تكون، وأن وجود امرأة على هذا النحو ينبغي لي بالطبع الخروج وإياها بعدما تكون عادت وسوف يجرى أكثر فأكثر تحويل قوى ونشاط كياني باتجاه تجميلها، كان يجعل مني كأنما ساقاً مزيدة ولكنها مثقلة بالثمرة المكتنزة التي تنتقل إليها جميع مدخراتها. كان الهدوء الذي يبعثه في نفسي. بعكس القلق الذي كان لا يزال بي منذ ساعة مضت رجوع «ألبيرتين» أكثر اتساعاً من ذاك الذي سبق أن أحسست به في الصباح قبل ذهابها. وفي استباق للمستقبل الذي كان خضوع صديقتي يجعله تقريباً ملك يدي، وفي وفرة مقاومة لديّ وكأنما يملؤني ويرسخني الحضور الوشيك المزعج المحتم العذب، إذاً بالهدوء (الذي يعفينا من البحث عن السعادة في ذواتنا) والذي يصدر من شعور عائلي وسعادة بيتية. عائلي

وبيتي: هكذا كان أيضاً الشعور الذي انتابني فيما بعد وأنا أتنزه مع «ألبيرتين»، وليس يقل عن ذاك الذي حمل معه هذا القدر من السكينة في نفسي فيما كنت أنتظرها. ونزعت مقدار لحظة قفازها. إما لتلمس يدي أو لتبهرني حينما تفسح لي أن أشاهد في إصبعها الصغير، إلى جانب الخاتم الذي أعطته السيدة «بونتان» خاتماً تمتد فوقه الطبقة الواسعة السائلة لورقة صافية من الياقوت الأحمر: «وهذا أيضاً خاتم جديد، يا «ألبيرتين»، فبالكرم خالتك!» فقالت ضاحكة: «لا، هذا ليس من خالتي، فإني أنا اشتريته بما أني بفضلك أستطيع توفير الكثير. ولست حتى أعلم من كان صاحبه. لقد تركه مسافر أعوزه المال لصاحب فندق كنت حللت فيه في «مانس» وما كان يدري ما عسى يفعل به وربما كان باعه دون قيمته بكثير. لكنه كان لا يزال شديد الغلاء بالنسبة إليّ. أما وقد أصبحت الآن بفضلك سيدة أنيقة فقد بعثت أساله إن كان لا يزال لديه. وهذا هو». - «هذا كثير من الخواتم يا «ألبيرتين»، فأين تضعين الخاتم الذي سأعطيك إياه؟ على أن هذا في جميع الأحوال جميل جداً. لست أستطيع تمييز النقوش حول الياقوتة، لكأنما رأس رجل مكشر. لكني لا أملك نظراً حاداً يكفيني». - «حتى لو ملكت أفضل منه لما أفدت الكثير، فإني لا أميز بدوري».

كثيراً ما اتفق لي فيما مضى، لدى قراءة مذكرات أو رواية يخرج فيها رجل على الدوام بصحبة امرأة ويتناول «العصرونية» معها، أن أتمنى إمكان القيام بمثل ذلك. وظنتني أحياناً أفلح في الأمر لدى اصطحابي على سبيل المثال عشيقة «سان لو»، وحين أمضي لتناول العشاء وإياها. لكنما عبثاً كنت أستعين بالفكرة التي قوامها أني أجيد في ذلك الحين تمثيل الشخصية التي رغبت فيها في الرواية، فإن تلك الفكرة كانت تقنعني بأن لا بد لي من أن أصيب متعة بالقرب من «راحيل» وما كانت توليني إياها. ذلك لأننا في كل مرة نبغي فيها تقليد شيء كان واقعياً حقاً إنما ننسى أن هذا الشيء أنتجته، لا إرادة التقليد، بل قوة لا واعية وحقيقية بدورها. غير أن ذلك الانطباع الخاص الذي لم تستطع أن توليني إياه كل رغبتي في الإحساس

بمتعة رقيقة في التنزه برفقة «راحيل» أراني الآن أحسّ به دون أن أكون بحثت عنه أقل ما يكون البحث وإنما لأسباب مختلفة تماماً وصادقة وعميقة - وكيما أذكر مثالاً - لهذا السبب الذي قوامه أن غيرتي كانت تمنعني من البقاء بعيداً عن «ألبيرتين»، وما دمت أستطيع الخروج، أن أدعها تمضي في نزهة بدوني. ما كنت أحس إلا الآن به لأن المعرفة تصدر لا من الأشياء الخارجية التي نبغي ملاحظتها بل من الأحاسيس اللاإرادية؛ فعبثاً كانت امرأة فيما مضى في ذات السيارة التي أنا فيها لم تكن «في الواقع» إلى جانبي ما دامت لا تعيد خلقها فيها في كل لحظة حاجة إليها كمثل التي بي إلى «ألبيرتين»، وما دامت مداعبة عيني المستمرة لا ترد إليها دون انقطاع هذه الظلال اللونية التي لا بد من تجديدها باستمرار، وما دامت الحواس لا تضع، حتى إن هدأت ولكنها تتذكر، خلف هذه الألوان الطعم والقوام، وما دامت الغيرة المتحدة بالحواس والخيال الذي يهيجها لا تبقي تلك المرأة في حالة توازن بالقرب منا بفعل جاذب مستعاض بمثل قوة قانون الجاذبية.

كانت سيارتنا تنحدر بسرعة في الشوارع والجادات المشجرة التي كانت فنادقها المصفوفة، وهي تجمدٌ وردي من شمس وبرد، تذكرني بزياراتي في منزل السيدة «سوان» التي كانت الأقاحي ترسل عليها نورها الهادئ بانتظار ساعة المصابيح. وكان الوقت يكاد لا يتسع لي لألمح بائعة فاكهة شابة، بائعة ألبان، يفصلني عنهما خلف زجاج السيارة ما قد يفصلني خلف نافذة غرفتي، وتقف واحدتهما أمام بابها ينورها الطقس الجميل مثل بطلة كانت رغبتي كافية لزجها في مغامرات لذيذة على عتبة رواية لن أعرفها. فما كان بوسعي سؤال «ألبيرتين» أن توقفني، ومذ ذاك كانت المرأتان الشابتان قد توارتا وما كادت عيناي ميزتا قسماتهما ونضارتهما عبر الأبخرة الشقراء التي تغمرهما. كان الانفعال الذي أحسه يطبق عليّ حين أبصر ابنة تاجر خمور خلف صندوقها أو غسالة تتحدث في الشارع الانفعال الذي يصيبك في التعرف إلى آلهات. فمنذ لم يعد

«الأوليمبوس»[1] موجوداً أخذ ساكنوه يعيشون على الأرض، وحينما بادر الرسامون، في تنفيذ لوحة ميثولوجية، إلى اتخاذ جليسات يمثلن «فينوس» أو «سيريس»[2] من بنات العامة ممن يمارسن أكثر المهن سوقية، فهيهات أن يكونوا دنسوا المقدسات وإن هم إلا أضافوا إليهن وأعادوا إليهن النوعية والصفات الإلهية التي جردن منها. «وكيف بدا لك التروكاديرو أيتها المجنونة الصغيرة؟» - «إني شديدة السرور أن غادرته للمجيء معك. إنه فيما أعتقد من أعمال «دافيود». - «لكم تتثقف صغيرتي «ألبيرتين»! إنه بالفعل من أعمال «دافيود» ولكني كنت قد نسيته». - «إني أقرأ كتبك أثناء ما تنام أيها الكسول الكبير. إنه قبيح على صعيد البناء، أليس كذلك؟» - «هاك أيتها الصغيرة، إنك تتغيرين بسرعة كبيرة وتضحين عظيمة الذكاء (كان الأمر صحيحاً، ولكني إلى ذلك ما كان يغضبني أن أصابت، فيما أصابت، سروراً أن تقول في ذاتها إن الوقت الذي كانت تقضيه لديّ لم يكن على الأقل خسارة تامة في ما يخصها) إلى حد أني سأقول لك لدى الحاجة أشياء ربما أخذت بعامة على أنها خاطئة وهي توافق حقيقة أبحث عنها. هل تتعلمين ما عسى تكون الانطباعية؟» - «تمام العلم». - «حسن، هاك ما أبغي أن أقوله: تتذكرين كنيسة «مركوفيل المستكبرة» التي ما كان يحبها[3] لأنها جديدة؟ أفليس يناقض إلى حد ما انطباعيته ذاتها حينما يخرج هذه الأوابد من الانطباع العام الذي يحتويها ويحملها خارج الضياء الذي تنحل فيه ويتفحص تفحص عالم آثار قيمتها الذاتية؟ وحينما يرسم، أليس المستشفى والمدرسة والإعلان فوق جدار، أليست تملك كلها ذات قيمة الكاتدرائية التي لا تقدر بثمن والقائمة إلى جانبها في صورة لا تتجزأ؟ تذكري كيف كانت الواجهة تشوبها أشعة الشمس وكيف كانت النقوش لقديسي «ماركوفيل» تسبح على صفحة الضياء. ما همَّ أن يكون

---

(١) الجبل الذي تسكنه الآلهة في الميثولوجيا اليونانية.

(٢) هما على التوالي إلهة الحب وإلهة الخصب لدى الرومان.

(٣) الكلام من «إيلستير».

الصرح جديداً إن بدا قديماً، وحتى إن لم يبد كذلك! إن ما تتضمنه الأحياء القديمة من شعر قد اعتصر حتى النقطة الأخيرة، ولكن ألا تمزق بعض البيوت المبنية حديثاً لصالح بورجوازيين صغار موسرين وفي أحياء جديدة يبدو فيها الحجر المفرط بياضاً حديث النشر، ألا تمزق جو الظهيرة اللاهبة في تموز، ساعة يعود التجار لتناول الغداء في الضاحية، بصرخة فجة كما هي رائحة ثمار الكرز وهي تنتظر تقديم الغداء في قاعة الطعام المظلمة حيث تلقي المواشير الزجاجية التي توضع فوقها السكاكين أضواء متعددة الألوان بمثل جمال مزججات «شارتر»[1]؟» - «شد ما أنت لطيف! إن أصبح ذكية في يوم فالفضل يكون لك». - «لمَ نصرف النظر في نهار جميل عن التروكاديرو الذي تذكّر أبراجُه التي كعنق الزرافة بحبيسه «بافيا»؟ - «لقد ذكرني أيضاً، هو المشرف على هذا النحو من فوق تلته، بنسخة عن «مانتينيا» تملكها، أظن أنها لوحة «القديس سيبستيانوس»[2] حيث تقوم في الخلف مدينة بُنيت على شكل مدرج وربما أقسمت أن التروكاديرو قائم هناك». - «ها إنك ترين! ولكن كيف رأيت نسخة لوحة «مانتينيا»؟ إنك لمذهلة».

وكنا وصلنا إلى أحياء أكثر شعبية، وكان انتصاب «فينوس» من فئة القيان خلف كل طاولة عرض يجعل منها كأنما هيكلاً في ضاحية وددت لا أقضي حياتي على حضيضه. ومثلما تفعل عشية وفاة مبكرة أخذت أحصي المتع التي تحرمني منها النقطة النهائية التي تنهي بها «ألبيرتين» حريتي. أما في «باسي» فقد أذهلتني ببسمتهن فتيات يتخاصرن على قارعة الطريق بسبب الازدحام. ولم يتسع لي الوقت لتمييزها تماماً لكنما لم يكن من المرجح كثيراً أنني أبالغ فيها، فليس يندر أن نصادف في كل جمهور، في كل جمهور فتي، نقش صورة جانبية تنضح نبلاً. وهكذا فإن هذه الجمهرات

---

(١) من الكنائس الذائعة الصيت في فرنسا.

(٢) لوحة «استشهاد القديس سيبستيانوس» للرسام الإيطالي «مانتينيا» من القرن الخامس عشر.

الشعبية في أيام الأعياد تبدو ثمينة في نظر الشهواني كما هي في نظر عالم الآثار الفوضى في أرض يكشف فيها التنقيب عن ميداليات أثرية. ووصلنا إلى الغابة. كنت أفكر أنني ربما استطعت في هذه اللحظة، لو لم تكن «ألبيرتين» خرجت برفقتي، أن أسمع في مدرج «الشانزيليزيه» العاصفة «الفاغنرية» تطلق أنين سائر حبال الأوركسترا وتجتذب إليها على صورة زبد خفيف لحن المزمار الذي عزفته تواً وتطيره وتعجنه وتبدل شكله وتقسّمه وتجرفه في زوبعة متعاظمة. أردت على أي حال أن تكون نزهتنا قصيرة وأن نعود باكراً، فقد كنت قررت أن أذهب في المساء إلى منزل آل «فيردوران» دون أن أحدث عن ذلك «ألبيرتين». وكانوا بعثوا إلي مؤخراً دعوة ألقيت بها في السلة مع الأخريات جميعها. لكني عدلت عن رأيي لهذا المساء لأنني أودّ أن أحاول معرفة الأشخاص الذين أمكن أن تتمنى «ألبيرتين» لقياهم بعد الظهر في منزلهم. لقد بلغت في أمري مع «ألبيرتين»، والحق يقال، تلك اللحظة التي لا تفيدنا امرأة فيها من بعد (إن استمر كل شيء على ذات المنوال وتمت الأمور بصورة طبيعية) إلا بمثابة جسر ينقلنا إلى امرأة أخرى. إنها لا تزال تهمنا، ولكن أقل القليل، فنحن معجلون لمبادرة في كل مساء إلى لقاء مجهولات، ولا سيما مجهولات معروفات لديها يستطعن أن يروين لنا حياتها. فإننا قد امتلكنا واستفدنا في ما يخصها كل ما ارتضت أن تهبه لنا من ذاتها. وحياتها هي بعد ذاتها، لكنها بالضبط الجزء الذي لا نعرفه، الأشياء التي ساءلناها عبثاً عنها ويمكن أن نجمعها من شفاه جديدة.

وإن كانت حياتي إلى جانب «ألبيرتين» ستحول دون ذهابي إلى البندقية، دون سفري، فلعلي على الأقل كنت استطعت منذ قليل، لو كنت وحدي، أن أتعرف البائعات الشابات المنتشرات في إشماسة هذا الأحد الجميل واللواتي كنت أُدخل في جمالهن إلى حد كبير الحياةَ المجهولة التي تعتمل في صدورهن، أليست العينان اللتان تراهما مشبعتين تماماً بنظرة لا نعرف الصور والذكريات والتوقعات والازدراءات التي تحملها

والتي لا يمكن فصلها عنها؟ وهذه الحياة التي هي حياة الكائن الذي يعبر طريقه ألن تولي تقطيبَ الحاجبين وتوسع المنخرين، وفق ما هي عليه من حال، قيمةً متغيرة؟ كان وجود «ألبيرتين» يحرمني المضي إليهن وربما التوقف والحالة هذه عن اشتهائهن. ومن شاء أن يحافظ في ذاته على رغبة الاستمرار في الحياة والاعتقاد بشيء أكثر عذوبة من الأمور المعتادة فعليه أن يتنزه، لأن الجادات والشوارع مليئة بالآلهات. لكن الآلهات لا يسمحن بالاقتراب منهن. فههنا وهناك، بين الأشجار وعلى مداخل مقهى، تسهر خادمة كأنها حورية على أطراف غابة مقدسة، فيما تجلس في المؤخرة ثلاث فتيات إلى جانب القوس الهائل لدراجاتهن الموضوعة إلى جانبهن وكأنهن ثلاث آلهات يتكئن على الغيمة أو الجواد الخرافي اللذين يقمن على متنهما برحلاتهن الأسطورية. كنت ألاحظ أن «ألبيرتين» كانت في كل مرة تنظر إلى تلك الفتيات جميعاً مقدار لحظة بانتباه عميق وتلتفت إليّ في الحال. لكنني ما كنت مفرط الاضطراب لا من جراء شدة ذاك التأمل ولا من جراء قصره الذي تعوضه الشدة. فإنه كثيراً ما كان يتفق، في ما يخص هذا التأمل، أن تنظر «ألبيرتين»، إما تعباً أو لطريقة في التطلع يتفرد بها الشخص المنتبه، أن تنظر هكذا بما يشبه التأمل حتى إلى والدي أو «فرانسواز»: فأما سرعة التفاتها إليّ فيمكن أن يكون الدافع إليها أن «ألبيرتين»، وهي عارفة بشكوكي، كان يمكن أن تبغي تجنب إلصاقها بها حتى إن لم يكن ثمة ما يبررها. ولعل ذاك الانتباه الذي كان بدا لي على أية حال إجرامياً من جانب «ألبيرتين» (وبالقدر نفسه لو كان موضوعه فتياناً) إنما كنت أصرفه إلى كافة الفتيات الطائشات دون أن أخالني مذنباً مقدار لحظة - فيما أكاد أرى «ألبيرتين» مذنبة إذ يحول وجودها دون أن أتوقف وأنزل. فإننا نرى اشتهاءنا بريئاً واشتهاء سوانا فظيعاً. وهذا التناقض بين ما يخصنا نحن أو ما يخص التي نحبها لا يتعلق بالرغبة فحسب، بل بالكذب أيضاً. فأي أمر مألوف أكثر منه إن كان على سبيل المثال لحجب أوهان يومية لصحة نريد أن يظنها الناس قوية، أو لإخفاء

عيب أو للمبادرة إلى ما نفضله دون أن نغضب سوانا؟ إنه وسيلة البقاء الأكثر ضرورة والأكثر استخداماً. ولكنه هو الذي نعقد العزم على استبعاده من حياة تلك التي نحبها، وهو الذي نترصده ونستشعره ونمقته أينما كان. إنه يبلبل أفكارنا ويكفي ليدفعنا إلى الهجران ويبدو لنا كأنه يخفي أعظم الذنوب، ما لم نحسن إخفاءها إلى حد لا نرتاب معه بأمرها. إنها لحالة غريبة تلك التي نجدنا نتأثر إلى هذا الحد بعامل مرضي يجعله تكاثره الشامل عديم الأذى للآخرين وشديد الخطورة على التعيس الذي يتفق له أن لا يملك من بعد الحصانة ضده! كانت حياة تلك البنات الجميلات، إذ يندر جداً أن أصادف بعضهن - بسبب فترات انحباسي الطويلة - كانت تبدو لي، كما لسائر الذين لم تضعف لديهم سهولة الإنجازات القدرة على التصور، أمراً مختلفاً عما كنت أعرف، ومشتهى بقدر ما هي المدن الأكثر روعة والتي يبشر بها السفر.

وما كانت خيبة الأمل التي أصبتها لدى نساء سبق أن عرفتهن أو في مدن ذهبت إليها لتحول دون وقوعي في فخ جاذبية الجديدات وتصديقي حقيقتهن. وكما لم تكن رؤية البندقية - البندقية التي كان هذا الطقس الربيعي يبعث فيّ كذلك الحنين إليها والتي كان زواجي من «ألبيرتين» سيحول دون معرفتي إياها - رؤية البندقية في منظر عام ربما كان «سكي» صرّح أنه أجمل ألواناً من المدينة الحقيقية، لتحل لديّ محل السفر إلى البندقية، سفر كان يبدو لي أن طوله المحدد، دون أن تكون لي يد في ذلك، لا بد من اجتيازه، كذلك ما كانت الفتاة الطائشة التي ربما وفرتها لي قوادة بصورة مصطنعة، ما كانت لتستطيع البتة، مهما بلغت من الجمال، أن تحل في نظري محل تلك المخلعة القامة التي كانت تمر في هذه الفترة تحت الأشجار وهي تضحك مع صديقة لها. فتلك التي ربما لقيتها في بيت دعارة ما كانت لتبدو الشيء نفسه، وإن كانت أجمل من ذلك، لأننا لا ننظر إلى عيني فتاة لا نعرفها كما ربما فعلنا برصيعة صغيرة من حجر عين الهر أو العقيق. فإننا نعلم أن الشعاع الصغير الذي يقزحهما

وحبات الألماس التي تتلألآن بها هي كل ما تستطيع تبينه من فكر، من إرادة، من ذاكرة يقيم فيها البيت العائلي الذي لا نعرفه والأصدقاء الغالين الذين نحسدهم. وإن التمكن من الاستيلاء على كل ذلك، والأمر بالغ الصعوبة عسر القياد وهو ما يولي النظرة قيمتها بما يفوق كثيراً محض جمالها المادي (الذي يمكن أن نفسر به أن يوقظ الشاب نفسه رواية كاملة في مخيلة امرأة سمعت من يقول إنه أمر «غالٍ» فلا تعيره اهتماماً من بعد حينما تعلم أنها أخطأت)، والعثور على الفتاة الطائشة في بيت للدعارة إنما يعني العثور عليها وقد أفرغت من هذه الحياة المجهولة التي تداخلها والتي نطمع في الظفر بها جانبها، وإنما يعني اقترابنا من العيون التي أصبحت بالفعل مجرد حجارة كريمة، ومن أنف يخلو تغضنه من أي مدلول بقدر ما يخلو تغضن الزهرة. لا، بل هذه الفتاة المجهولة التي كانت تمر من هنا والتي كان يبدو من المحتم عليّ، إن أردت مواصلة الاعتقاد بحقيقتها، حتمية قطع مسافة طويلة في السكة الحديدية إن ابتغت الاعتقاد بحقيقة رائعة «بيزا» التي سأشاهدها فلا تكون مجرد منظر في معرض عام، أن أتحمل صنوف مقاومتها بملاءمة اتجاهاتي معها ومواجهة الإهانة وإعادة الكرة والحصول على موعد وانتظارها ساعة انصراف المشاغل ومعرفة ما يشكل حياة هذه الصغيرة حلقة فحلقة واجتياز ما كان يلف في نظرها المتعة التي أبحث عنها وكذلك المسافة التي تقيمها عاداتها المختلفة وحياتها الخاصة بيني وبين الانتباه والمنة التي أريد أن أبلغهما وأحوزهما. لكن هذه التماثلات عينها بين الرغبة والسفر جعلتني أعاهد النفس على أن أقترب ذات يوم أكثر قليلاً من طبيعة تلك القوة الخفية، لكنها بمثل قدرة المعتقدات أو الضغط الجوي في عالم المادة، القوة التي كانت تعلي شأن المدن والنساء ما دمت لا أعرفهن وتروغ من تحتهن ما إن اقتربتُ منهن وتلقي بهن في الحال في المبتذل من أتفه صنوف الواقع. وفي مكان أبعد كانت فتاة أخرى تجثو أمام دراجة لها تصلحها. وحالما تم الإصلاح امتطت الدارجة الشابة دراجتها ولكن دون أن تفرشخ كما يفعل الرجال.

وترجحت الدراجة على مدى لحظة وبدا الجسد الشاب وكأنما تزايد شراعاً، جناحاً هائلاً ورأينا بعد قليل المخلوقة الفتية تبتعد بأقصى سرعة نصفها بشري والنصف مجنح، توالي رحلتها ملاكاً أو جنية.

هذا ما كان وجود «ألبيرتين»، هذا ما كانت حياتي مع «ألبيرتين» تحرمني إياه. تحرمني إياه؟ أما كان خليقاً بي أن أفكر قائلاً: ماذا كانت تهبني إياه بالعكس؟ فقد كنت تصورت وبحق، لو لم تعش «ألبيرتين» وإياي وكانت حرة، هاتيك النساء جميعاً على أنهن المطارح الممكنة، المحتملة، لرغبتها ومتعتها. وكن بَدَوْنَ لي مثل تلك الراقصات اللواتي يمثلن، في رقصة «باليه» شيطانية، الإغراءات بالنسبة إلى شخص ويرسلن سهامهن إلى قلب شخص آخر. فالعاملات والفتيات والممثلات كم كنت كرهتهن! فإنهن، وهن موضع كراهية، كن استثنين عندي من جمال العالم. فإذا عبودية «ألبيرتين»، حين تفسح لي بأن لا أتعذب من بعد على يدهن، تردهن إلى جمال العالم، لقد أضحى من المباح لي، إذ هن مسالمات فقدن المهماز الذي يضع الغيرة في القلب، أن أعجب بهن وأداعبهن بالنظرة وربما أفعل بحميمية أوفر في يوم آخر. فإني باحتجاز «ألبيرتين» قد رددت للعالم في الآن ذاته سائر هذه الأجنحة البراقة التي تدوي في النزهات، في الحفلات الراقصة، في المسارح والتي كانت تعود فتصبح موضع غواية لي لأنها لم يعد بمقدورها هي أن تقع ضحية إغرائها. كانت تؤلف جمال العالم وسبق أن ألفت فيما مضى جمال «ألبيرتين». فلأنني كنت رأيتها على هيئة عصفور غامض، ثم ممثلة عظيمة على الشاطئ، مشتهاة وربما ظُفر بها، ألفيتها رائعة. وما إن احتُجز لدي العصفور الذي رأيته ذات مساء يسير ببطء شديد فوق السد تحيط به جمهرة الفتيات الأخريات الشبيهات بنوارس جاءت من حيث لا ندري، حتى فقدت «ألبيرتين» ألوانها كافة إلى جانب سائر فرص الآخرين في أن يحوزوا عليها. لقد فقدت شيئاً فشيئاً جمالها. كان لا بد من نزهات كهذه، أتخيلها فيها بدوني وقد دنت منها هذه المرأة أو ذاك الشاب، كيما أعود فأراها في

بهاء الشاطئ، مع أن غيرتي كانت قائمة على صعيد غير صعيد أفول متع خيالي. غير أني، على الرغم من هذه الانتفاضات المفاجئة التي كانت تعود، إذ يشتهيها آخرون فتضحي بها جميلة، كنت أستطيع تماماً تقسيم إقامتي في منزلي إلى فترتين: الأولى التي كانت لا تزال فيها، وإن تناقصت في كل يوم، ممثلة الشاطئ المتلألئة، والثانية التي كان لا بد لها فيها، وقد أصبحت السجينة الكئيبة التي رُدّت إلى الكامد من ذاتها، من هذه البروق التي أعود فأتذكر فيها الماضي لأعيد لها بعض الألوان.

كانت تعاودني «أحياناً، في الساعات التي كنت فيها أكثر ما أكون غير مبالٍ بها، ذكرى هنيهة بعيدة كانت فيها على الشاطئ حين لم أكن بعد أعرفها، وهي غير بعيدة عن سيدة كنت على أسوأ حال معها وأضحيت شبه متيقن الآن من أنها أقامت علاقات معها، كانت تنفجر ضاحكة وهي تنظر إليّ بصورة وقحة. كان البحر الصقيل الأزرق يضج من حولنا، وكانت «ألبيرتين»، وسط صديقاتها وتحت شمس الشاطئ، الأكثر جمالاً. كانت فتاة رائعة ألحقت بي، في ذاك الإطار المعتاد من المياه المترامية، هي العزيزة على فؤاد السيدة التي كانت تتأملها بإعجاب، تلك الإهانة، وكانت قاطعة، فالسيدة ربما كانت تعود إلى «بالبيك» وربما كانت تكتشف على الشاطئ المشرق المدمدم غياب «ألبيرتين». لكنها كانت تجهل أن الفتاة تعيش في بيتي ولي وحدي فقط. أما المياه المترامية الزرقاء ونسيان الإيثار الذي كانت تخص به تلك الفتاة وأخذ يتجه إلى سواها، فقد انصبّت على الإهانة التي ألحقتها بي «ألبيرتين» محتجزة إياها في علبة باهرة لا يطاولها العطب. حينئذ كان الحقد على هذه المرأة يتأكّل فؤادي: وعلى «ألبيرتين» أيضاً، ولكنه حقد يمتزج بالإعجاب بالفتاة الجميلة المدللة ذات الشعر الرائع والتي كانت قهقهتها على الشاطئ إهانة. لقد عادت المهانة والغيرة تذكر الأشواق الأولى والإطار البديع فأسبغت على «ألبيرتين» جمالها وقيمتها بالأمس. وهكذا كان ثمة تناوب بين هذا الضجر الثقيل إلى حد ما الذي أحسه بالقرب منها ورغبة راعشة تملؤها صور بديعة

وضروب أسف حسبما تكون بالقرب مني في غرفتي أو أرد لها حريتها في ذاكرتي فوق السد وهي ترتدي بزات الشاطئ الزاهية، على صوت آلات البحر الموسيقية، هي «ألبيرتين» أخرجت تارة من هذا الوسط وامتُلكتْ فإذا هي على قدر غير كبير، وطوراً أعيدت إليه فتفلت مني عبر ماضٍ لن يسعني أن أعرفه وتهينني بالقرب من السيدة ومن صديقاتها بقدر ما يفعل رشاش الموجة أو دُوار الشمس، «ألبيرتين» أعيدت إلى الشاطئ أو أدخلت غرفتي، في نوع من الغرام ذي الطبيعة المزدوجة.

كانت ثمة في مكان آخر زمرة كبيرة تلعب الكرة. فقد ودت تلك الفتيات جميعاً استغلال الشمس لأن نهارات شباط هذه، وإن كانت رائعة إلى هذا الحد، لا تدوم طويلاً ولا تؤخر روعة ضيائها ساعة أفولها. وقد تيسر لنا قبل قرب حلوله بعض فترة من بقايا ضياء لأننا، بعدما مضينا حتى نهر «السين» حيث تأملت «ألبيرتين»، وحالت بوجودها دون أن أتأمل، انعكاسات أشرعة حمراء على المياه الشتوية الزرقاء وبيتاً بسقف قرميدي يقبع في البعيد كزهرة خشخاش وحيدة في الأفق النير الذي كانت «سان كلو» تبدو على مسافة أبعد وكأنها تَحَجُّره المتشظر المتفتت المضلع، نزلنا من السيارة وسرنا طويلاً. بل إني تأبطت على مدى لحظات ذراعها وبدا لي أن هذه الحلقة التي تشكلها ذراعها تحت ذراعي كانت توحد في كيان واحد شخصينا وتربط مصيرينا الواحد بالآخر. وكان ظلانا المتوازيان ثم المتقاربان فالمتلاصقان يخطان أمام أقدامنا رسماً بديعاً. وليس من شك أني كنت مذ ذاك أجد روعة في البيت أن تسكن «ألبيرتين» معي وأن تكون هي التي تتمدد فوق سريري. لكن لكأنما ما يشبه نقلها إلى الخارج، إلى أحضان الطبيعة، أن كان، أمام بحيرة الغابة، وما أكثر ما أحبها، وعلى حضيض الأشجار، إذ كان بالضبط ظلها، الظل الخالص المبسط لساقها وصدرها هو الذي انبغى للشمس أن تخطه بالألوان المائية إلى جانب ظلي على رمل الممر المشجر. وكنت أرى لاتحاد ظلينا سحراً أكثر روحانية دون شك ولكنه لا يقل حميمية عن تقارب، عن اتحاد جسدينا. ثم صعدنا

إلى السيارة ثانية، فسلكت للعودة ممرات صغيرة متعرجة تبدو فيها الأشجار الشتوية التي ألبست اللبلاب والعليق على غرار الخرائب وكأنها تقود إلى منزل ساحر. وما كدنا نخرج من الظلة القاتمة حتى التقينا مجدداً للخروج من الغابة ضياء النهار ولا يزال شديداً حتى ليخيل إليّ أن الوقت يتسع لي للقيام بكل ما أود فعله قبل العشاء حين اتفق لي بعد بضع لحظات فحسب، أن كانت سيارتنا تقترب من قوس النصر، أن أبصرت، بحركة مفاجئة من الاستغراب والذعر، تمام البدر المبكر فوق باريس وكأنه ميناء ساعة متوقفة تحملنا على الظن بأنا تأخّرنا. وكنا قلنا للحوذيّ أن يعود أدراجه. أما بالنسبة إليها فكان ذلك يعني أيضاً العودة إلى منزلي. إن وجود النساء، مهما يكن محبوبات، النساء اللواتي ينبغي لهن مفارقتنا للعودة إلى منازلهن، لا يولي ذلك الهدوء الذي كنت أنعم به بوجود «ألبيرتين» الجالسة إلى جانبي في الركن القصي من السيارة، الوجود الذي كان يمضي بنا لا إلى فراغ الساعات التي نكون فيها منفصلين، بل إلى الاجتماع الأوفر استقراراً بعد والأفضل احتباساً في منزلي الذي كان أيضاً منزلها، وهو الرمز المادي لامتلاكي لها. أجل، لا بد كيما نمتلك أن نكون اشتهينا؛ وإننا لا نملك خطاً أو مساحة أو حجماً إلا إذا شغلها حبنا. لكن «ألبيرتين» لم تكن بالنسبة إليّ في أثناء نزهتنا مثلما سبق أن كانت «راحيل» بالأمس، هباء من لحم وقماش لا طائل تحته. فإن خيال عيني وشفتي ويدي كان في «بالبيك» قد بنى جسمها بناء متيناً وصقله صقلاً رقيقاً إلى حد لم تكن لي معه الآن داخل هذه السيارة حاجة، كيما ألمس هذا الجسم، كيما أحتويه، إلى الالتصاق بـ«ألبيرتين» ولا حتى إلى رؤيتها، وكان يكفيني أن أسمعها، وإن صمتت أن أعلم أنها بالقرب مني. كانت حواسي قد جدلت معاً، تحيط بها إحاطة تامة، وحينما وصلت أمام البيت ونزلت بصورة طبيعية تامة توقفت لحظة لأقول للسائق أن يعود ليأخذني، لكن نظراتي كانت لا تزال تلفها فيما تختفي أمامي تحت القبة ويحل بي على الدوام ذات الهدوء الساكن «البيتوتي» الذي يداخلني إذ أبصرها على

هذا النحو متثاقلة موردة مكتنزة أسيرة تعود كما هو طبيعي تماماً برفقتي وكأنها امرأة اتخذتها لي وتغيب، تحميها الجدران، في بيتنا.

كان يبدو لسوء الحظ أنها داخل سجن، وأنها ترى رأي هذه السيدة «دو لاروشفوكو» التي أجابت، فيما كانوا يسألونها إن لم يغبطها أن تكون في مسكن بمثل جمال «ليانكور»، أن «ليس من سجن جميل»، إن حكمت في ذلك من المظهر الحزين المتعب الذي اتخذته في ذلك المساء في أثناء عشائنا الانفرادي في غرفتها. ولم ألاحظ الأمر أولاً، بل أنا من كان يؤسيه التفكير بأنه لو لم تكن «ألبيرتين» موجودة (فلعلني كنت برفقتها عانيت كثيراً من الغيرة في فندق ربما تعرضت فيه طوال النهار للتماس مع الكثير من الناس)، لوسعني في هذا الوقت تناول العشاء في البندقية في واحدة من قاعات الطعام الصغيرة تلك المخفوضة السقف على غرار قعر سفينة ومن حيث تشاهد القناة الكبرى عبر نوافذ صغيرة مقوسة تؤطرها ناتئات عربية إسلامية.

ويجدر بي أن أضيف أن «ألبيرتين» كانت تعجب فيها كثيراً بإناء كبير من الشبه من أعمال «باربوديين» كان «بلوك» وبحق يجده غاية في القبح. وربما كان أقل صواباً أن يُعجَب من أني احتفظت به. ولم أكن حاولت البتة مثله اقتناء أثاث فني وتنظيم قاعات، فقد كنت كثير الكسل لذلك وشديد اللامبالاة بما تعودت أن تقع عليه عيني. ولما كان ذوقي لا يهتم لذلك فقد كان من حقي ألا أنوّع في أثاثي الداخلي. ومع ذلك ربما كان وسعني نزع الإناءالبرونزي . لكن الحاجات القبيحة الفاخرة كبيرة الفائدة لأنها تكتسب لدى الأشخاص الذين لا يفهموننا وليس لهم ذوقنا ويمكن أن نغرم بهم مهابة قد لا تكتسبها حاجة مرموقة لا تكشف عن جمالها. والأشخاص الذين لا يفهموننا هم وحدهم الذين يمكن أن نفيد معهم من استخدام مهابة يبدو ذكاؤنا كافياً لتوفيرها لنا لدى أناس رفيعي المستوى. وعبثاً أخذت «ألبيرتين» تتمتع بجانب من الذوق إذ كانت لا تزال تكنّ شيئاً من الاحترام لهذا الإناء البرونزي، وكان هذا الاحترام ينعكس عليّ تقديراً

كان، إذ يأتيني من «ألبيرتين»، يكتسب أهمية عندي (أكثر كثيراً مما يفعل احتفاظي بإناء برونزي يعيبني إلى حد ما) بما أني أحب «ألبيرتين».

لكن فكرة عبوديتي كانت تكف فجأة عن إزعاجي فأتمنى إطالتها بعد أن بدا لي أني ألمح «ألبيرتين» في معاناة قاسية لعبوديتها. صحيح أنها كانت تجيبني دوماً، في كل مرة سألتها إن لم تكن ضجرة في بيتي، أنها لا تعرف أين يمكن أن تحوز سعادة أعظم. لكنما كان يكذب تلك الأقوال في الغالب مسحة من الحنين وتوتر الأعصاب. والأكيد، إنْ كانت بها الميول التي ظننتها لديها، فان هذا الحؤول دون أن تشبعها في يوم كان لا بد يغيظها بقدر ما يبعث فيّ الهدوء، هدوءاً يبلغ حد أن افتراضي أن أكون اتهمتها زوراً ربما كان بدا الأقرب إلى الحقيقة لو لم أصادف فيه عنتاً كبيراً لتفسير هذا الاجتهاد الخارق الذي تبديه «ألبيرتين» في الامتناع عن أن تكون وحيدة في يوم. أن تكون حرة في يوم، أن تتوقف لحظة أمام الباب حينما تعود، مثلما تعمل على أن يرافقها بصورة معلنة ظاهرة في كل مرة تتوجه فيها إلى الهاتف واحد يكون بمقدوره أن يردد على مسامعي أقوالها، «فرانسواز» أو «أندريه»، وأن تدعني دوماً وحدي مع هذه الأخيرة، بعدما تكونان خرجتا سوية كي يمكنني أن أطلب تقريراً مفصلاً عن نزهتهما. وكان يناقض هذا الانقياد الرائع بعض حركات لنفاد الصبر سرعان ما تُكتم وتجعلني أتساءل إن لم تكن «ألبيرتين» عقدت العزم على كسر سلاسلها.

ثمة وقائع إضافية كانت تدعم افتراضي، من ذلك أننا في يوم خرجت فيه وحدي والتقيت فيه «جيزيل» على مقربة من «باسي» تحدثنا عن أمور أخرى. وقلت لها بعد قليل، وأنا شديد السعادة أن يمكنني إبلاغها أنني كنت ألتقي «ألبيرتين» باستمرار، وسألتني «جيزيل» أين تستطيع لقاءها إذ كان لديها «بالضبط» شيء تقوله لها. «وما عساه يكون؟» - «أمور تتعلق برفيقات صغيرات لها». - «أية رفيقات؟ ربما استطعت أن أفيدك، ولن يمنعك ذلك من رؤيتها». وأجابت «جيزيل»: «آه! رفيقات لها بالأمس، لست أذكر الأسماء»، أجابت بلهجة غامضة وهي تعدل عن مقصدها.

وفارقتني وفي ظنها أنها تكلمت بحذر كبير حتى لا يمكن أن يبدو لي أي شيء إلا شديد الوضوح. لكن الكذب قليل التشدد إلى حد بعيد وما أقل ما يحتاج من أمر لينكشف! فلو أن الأمر أمر رفيقات لها بالأمس ما كانت حتى تعرف أسماءهن فلماذا تكون بها «بالضبط» حاجة إلى التحدث عن ذلك لـ«ألبيرتين»؟ وهذا التركيب الظرفي، وهو شديد القربى من عبارة عزيزة على قلب السيدة «كوتار»: «جاءت في الوقت المناسب»، ما كان لينطبق إلا على أمر خاص جاء في وقته وربما كان مستعجلاً ويتعلق بأشخاص محددين. وحدها، على أي حال، طريقة فتح فيها، على نحو ما نفعل حين نزمع التثاؤب، وهي تقول بهيئة غامضة (ويقرب أن تتراجع بجسمها مثلما كانت ترتد إلى الوراء منذ هذه اللحظة في حديثها): «آه! لست أدري، لست أذكر الأسماء»، كانت تجعل هيئتها، وبالتوافق معها من صوتها، هيئة كذب بقدر ما كانت لهجة «بالضبط»، وهي مختلفة تماماً مشدودة نشطة ماضية إلى الأمام، تدل على حقيقة. ولم أسائل «جيزيل»، فما عساني كنت أفدت من ذلك؟ صحيح أنها ما كانت تكذب بالطريقة نفسها التي تفعل بها «ألبيرتين». وصحيح أن كذبات «ألبيرتين» كانت أكثر إيلاماً لي. لكنهما كان بينهما في البداية نقطةٌ مشتركة هي واقعة الكذب نفسها، وهي في بعض الحالات أمر جلي. وليس ذلك أمر الحقيقة التي تختبئ خلف هذا الكذب. فإننا نعلم أن القتلة في النهاية يؤخذون على الدوام تقريباً مع أن كل قاتل بمفرده يتصور أنه دبر الأمور أحسن تدبير بما يكفل أنه لن يؤخذ. أما الكذابون فهم على العكس نادراً ما يؤخذون، ولا سيما النساء اللواتي نحبهن. إننا نجهل أين ذهبت، وما فعلت هناك، لكن في ذات اللحظة التي تتحدث فيها، والتي تتحدث فيها عن أمر آخر يختفي خلفه هذا الذي لا تقوله، يتم في الحال إدراك الكذب، وتتضاعف الغيرة بما أننا نحس بالكذب ولا نفلح في معرفة الحقيقة. كان الإحساس بالكذب توليه، لدى «ألبيرتين»، خصائص سبق أن رأيناها في سياق هذه القصة، ولكن بصورة رئيسية أن سردها، حينما تكذب، كان يشكو إما من

النقص والإغفال واللامنطقية، وإما على العكس من الإفراط في وقائع صغيرة من شأنها أن تكسبه شكل الحقيقة. وشكل الحقيقة ليس الحقيقة مطلقاً على الرغم من الفكرة التي يكوّنها الكذاب. فما إن نسمع، ونحن نصغي إلى شيء حقيقي، شيئاً محتملاً فحسب، وربما كان أكثر احتمالاً من الحقيقي الذي ربما كان مفرطاً في حقيقته، حتى تشعر الأذن التي على شيء من الموسيقى أن ليس الأمر كذلك كما هو شأن بيت شعر مكسور أو كلمة قرئت بصوت جهوري مكان أخرى. إن الأذن تحس ذلك والقلب، إن كنا نحب، ليجزع. فما بنا لا نفكر حينئذ، يوم نغير كامل حياتنا لأننا لا ندري إن مرت امرأة في شارع «بيري» أو شارع «واشنطن»، ما بنا لا نفكر أن بضعة أمتار الفارق هذه، وأن المرأة نفسها سوف يتناقصون إلى واحد من مئة مليون (يعني إلى حجم لا يمكننا إدراكه حسياً) إن توافرت لنا الفطنة فقط فلبثنا بضع سنوات دون التقاء تلك المرأة، وأن من كانت «غوليفير»، وبحجم يفوقه كثيراً، سوف تضحي واحدة من سكان «ليليبوت»، لن يستطيع مجهر من بعد أن يكشفه - مجهر القلب على الأقل، لأن مجهر الذاكرة اللامبالية أكثر قوة وأقل هشاشة -! ومهما يكن من أمر، ولئن كان ثمة نقطة مشتركة - هي الكذب ذاته - بين كذبات «ألبيرتين» و«جيزيل»، فما كانت «جيزيل» تكذب بذات طريقة «ألبيرتين»، ولا بذات طريقة «أندريه» كذلك، لكن كذبات كل واحدة منهن كانت تتداخل بعضها مع بعضها الآخر، فيما تبدي تنوعاً كبيراً، إلى حد أن الجماعة الصغيرة كانت تملك الصلابة التي لا يمكن اختراقها والتي تميز بعض بيوتات التجارة أو المكتبات أو الطباعة على سبيل المثال حيث لن يفلح المؤلف التعيس في يوم، وعلى الرغم من تنوع الشخصيات التي تؤلفها، في أن يعلم إن كان ضحية الغش أم لا. يكذب مدير الصحيفة أو المجلة بمظهر من الصدق يزداد أبهة بقدر ما يحتاج أن يخفي في مناسبات عدة أنه يفعل بالضبط الشيء نفسه وينصرف إلى ذات الممارسات التجارية البشعة التي ندد بها لدى مديري الصحف أو المسارح الآخرين ولدى

الناشرين الآخرين حين اتخذ الصدق راية ورفع في وجههم لواءه. فإن تكن أعلنت (بصفتك رئيساً لحزب سياسي، بصفتك أي شيء) أن الكذب أمر فظيع إنما يضطرك في الكثير الغالب أن تكذب أكثر من الآخرين دون أن تهجر لذلك القناع الرسمي ودون أن تخلع تاج الصدق المهيب. أما شريك «الرجل الصادق» فيكذب بصورة أخرى وبطريقة أكثر براءة. فهو يخدع مؤلفه مثلما يخدع امرأته بحيل مأخوذة من المسرح الهزلي. وأما أمين التحرير، وهو رجل شريف وفظ، فيكذب بكل بساطة مثل مهندس يعدك بأن بيتك سيكون جاهزاً في حين لا يكون بعد قد بوشر به. وأما رئيس التحرير، تلك الروح الملائكية، فيرفرف وسط الثلاثة الآخرين، ودون أن يعلم ما الأمر يسدي إليهم بدافع الاهتمام الأخوي والتضامن الرقيق العون الثمين الصادر عن عبارة لا يرقى إليها الشك. هؤلاء الأشخاص الأربعة يعيشون في جو من الخلافات الدائمة التي يوقفها مجيء المؤلف. ويتذكر كل منهم، متجاوزاً بذلك النزاعات الخاصة، واجبه العسكري الكبير بأن يهب لمساعدة «الهيئة» المهددة. وكنت منذ زمن طويل، ودون أن أتبين ذلك، قد نهضت بدور هذا المؤلف إزاء «المجموعة الصغيرة». فلو فكرت «جيزيل»، حينما قالت «بالضبط»، في هذه الرفيقة أو تلك لـ«ألبيرتين» ممن هن على استعداد للسفر حالما تكون صديقتي هجرتني لهذا السبب أو ذاك ولإخطار «ألبيرتين» بأن الساعة أزفت أو هي قريبة الحلول لفضلت «جيزيل» أن تقطع أرباً على أن تقول لي ذلك. فما كان يجدي إذن أن أطرح عليها أسئلة.

واللقاءات التي من قبيل لقاءاتي و«جيزيل» لم تكن الوحيدة التي تزيد من شكوكي. فقد كنت على سبيل المثال معجباً برسوم «ألبيرتين» الزيتية. وقد كان لرسوم «ألبيرتين»، وهي تسليات مؤثرة لامرأة سجينة، تأثير عظيم عليّ إلى حد أني هنأتها عليها. «لا، إنها سيئة جداً، ولكني لم آخذ درساً واحداً في الرسم». - «ولكنك أرسلت ذات مساء تقولين لي في «بالبيك» إنك ظللت تتلقين درساً في الرسم». وذكرتها باليوم وقلت لها إني أدركت

في الحال تمام الإدراك أن دروس الرسم لا تعطى في مثل تلك الساعة، فاحمرت «ألبيرتين» خجلاً وقالت: «صحيح، ما كنت آخذ درساً في الرسم، لقد كذبتك القول كثيراً في البداية. لكني لا أكذبك البتة من بعد». لكم وددت أن أعلم أية كانت الكذبات الكثيرة في البداية! لكني كنت أعلم مسبقاً أن إقراراتها سوف تكون كذبات جديدة. واكتفيت لذلك بضمها وتقبيلها. وسألتها واحدة فقط من تلك الكذبات، فأجابت: «أجل، ويحك! إن هواء البحر مثلاً كان يؤذيني». وكففت عن الإلحاح إزاء هذه النية السيئة.

كل شخص محبوب، بل كل شخص إلى حد ما، هو في ما يخصنا نظير «يانوس»[1]، فهو يعرض لنا الجبين الذي يروقنا إن يهجرنا هذا الشخص، والجبين الكئيب إن علمنا أنه بتصرفنا الدائم. أما في ما يخص «ألبيرتين» فقد كان يطبع الرفقة الدائمة معها شيء من المشقة على نحو مغاير لما يمكن أن أروي عنه في هذه القصة. فإنه لفظيع أن ترتبط بحياة المرء حياة شخص آخر على غرار قنبلة يمسك بها دون أن يمكنه إفلاتها دون جريمة. لكن دعنا نأخذ على سبيل المقارنة حالات اليسر والعسر، والمخاطر والقلق والخشية من أن يجري فيما بعد تصديق أمور كاذبة ومحتملة لن يسعنا تفسيرها فيما بعد، وهي مشاعر تنتابنا إن كنا في عشرة مجنون. كنت على سبيل المثال أرثي لحال السيد «دو شارلوس» لعيشه مع «موريل» (وجعلني تذكر ما جرى بعد الظهر من خصام أشعر في الحال أن الجانب اليساري من صدري كان أشد ضخامة من الآخر): إن تركنا جانباً العلاقات التي قامت أو لم تقم بينهما، فلا بد أن السيد «دو شارلوس» قد جهل في البداية أن «موريل» مجنون. ولا بد أن جمال «موريل» وخسته واعتزازه، لا بد أنها صرفت البارون عن البحث بعيداً إلى هذا الحد، حتى

(١) Janus: من آلهة روما، كان يمثل بوجهين متعاكسين وهو إله الأبواب ينظر إلى الأمام وخلف، ومعبده في روما مفتوح أبداً فيما عدا أيام السلم.

أيام الكآبات التي كان «موريل» يتهم فيها السيد «دو شارلوس» بغمه دون أن يسعه تقديم تفسيرات، وينعى عليه سوء ظنه باللجوء إلى استدلالات زائفة ولكنها حاذقة جداً، ويهدده بمقاصد يائسة يقيم بينها على الدوام الاهتمام الأكثر مراوغة للمصلحة الأكثر مباشرة. وليس كل ذلك سوى مقارنة، فـ«ألبيرتين» لم تكن مجنونة.

وبدا لي من الحذاقة بمكان، بغية أن تبدو لها أصفادها أقل ثقلاً، أن أحملها على الظن بأنني أزمع شخصياً تحطيمها. وما كنت أستطيع في جميع الأحوال أن أستودعها في هذا الوقت ذاك المشروع الكاذب، فقد عادت تواً من التروكاديرو بفيض من اللطف؛ ما كان بوسعي أن أفعله، وما أبعد أن يكون إشاع الحزن في نفسها بالتهديد بالقطيعة، إنما كان على الأكثر كتم أحلام العيش المشترك الدائم التي كان يصوغها فؤادي المقر بالجميل. كنت أصادف مشقة، وأنا أنظر إليها، في حجب النفس عن إبداعها إياها وربما كانت تتبين ذلك. لكن التعبير عنها ليس معدياً لسوء الحظ. أما حالة المرأة العجوز المتصنعة، كما هو السيد «دو شارلوس» الذي يظن لكثرة ما لا يرى في خياله سوى شاب جميل الطلعة، أنه أضحى هو شاباً جميل الطلعة ويتزايد الأمر بقدر ما يزداد تصنعاً ويزداد سخفاً، والحالة هذه أكثر شيوعاً، وإنه لمن سوء طالع العاشق المغرم ألا يتبين أن عشيقته، فيما يرى هو وجهاً جميلاً أمامه، إنما ترى وجهه الذي لا يضحي أكثر جمالاً، بل العكس صحيح، حينما تشوهه المتعة الناجمة عن مرأى الجمال. والحب لا يستنفد حتى كامل شمولية هذه الحالة، فإننا لا نبصر جسمنا الذي يبصره الآخرون، و«نتابع» فكرنا، هذا الشيء الخفي على الآخرين، وهو أمامنا. وهذا الشيء يبرزه الفنان أحياناً في آثاره، ومن هنا أن المعجبين بهذه الآثار إنما يخيب ظنهم بالمؤلف الذي انعكس ذاك الجمال الباطن على وجهه بصورة بعيدة الكمال.

ولما لم أعد أحتفظ من حلمي بالبندقية إلا بما كان يمكن أن يتعلق بـ«ألبيرتين» ويهون عليها الوقت الذي تقضيه في مسكني فقد حدثتها عن

فستان لـ«فورتوني» كان لا بد أن نبادر إلى التوصية عليه في هذه الأيام. كنت أبحث عن المتع الجديدة التي يمكنني بها أن أروّح عنها. وددت لو يتسع لي أن أوفر لها مفاجأة إعطائها قطعاً من الفضيات الفرنسية القديمة إن أمكن العثور على بعض منها. ذلك أننا حينما خططنا لمشروع اقتناء يخت، وهو مشروع حكمت «ألبيرتين» أنه غير قابل للتحقيق - وحكمت أنا في كل مرة كنت أظنها فاضلة وأخذت الحياة معها تبدو لي في الحال مجلبة للخراب بقدر ما يبدو الزواج منها مستحيلاً - كنا طلبنا النصح من «إيلستير» ولكن دون أن تصدق أني سأبتاع واحداً منها.

لقد أعلمت أن وفاة وقعت في ذلك اليوم شقت عليّ كثيراً هي وفاة «بيرغوت». تعلم أن مرضه كان حل به منذ فترة طويلة، لا ذاك الذي كان ألم به في البداية بالطبع، وكان من عمل الطبيعة، والطبيعة تكاد لا تبدو قادرة على نشر أمراض إلا قصيرة إلى حد. لكن الطب خصّ نفسه بفن إطالتها فالأدوية والهدوء الذي توفره والإزعاج الذي يبعثه من جديد التوقف عنها إنما تؤلف شبهاً للمرض يخلص تعود المريض إلى إكسابه الاستقرار والأسلوب مثلما يسعل الأطفال بانتظام بطريقة النوبات بعد مضي زمن طويل على شفائهم من السعال الديكي. ثم تصبح الأدوية أقل فاعلية فتزداد، ولا تأتي بأية فائدة من بعد. لكنها شرعت تسيء بفضل هذا الانزعاج الدائم، وما كانت الطبيعة لتوفر لها مدة طويلة إلى هذا الحد. وإنها لمعجزة عظيمة أن يستطيع الطب إذ يساوي الطبيعة تقريباً إرغام المرء على ملازمة سريره وعلى الاستمرار في استعمال الدواء تحت طائلة الموت. لقد مد المرض المضاف اصطناعياً مذ ذاك جذوره وأصبح ثانوياً ولكنه حقيقي بفارق وحيد قوامه أن الأمراض الطبيعية تشفى، ولا تشفى البتة تلك التي يسببها الطب لأنه يجهل سر الشفاء.

لقد مضت سنوات و«بيرغوت» لا يغادر منزله من بعد. لم يكن على أي حال قد أحب الدنيا في يوم، أو هو أحبها يوماً واحداً كي يزدريها شأن كل ما تبقّى وبذات الطريقة التي كان ينتهجها ونعني لا أن يزدري

المرء لأنه يعجز عن الحصول على أمر، بل حالما يكون حصل عليه. كان بسيط العيش إلى حد لا يرتابون معه كم كان غنياً، ولعلهم كانوا أخطأوا حتى لو عرفوا إذ يظنونه حينذاك بخيلاً فيما لم يكن أحد قط بمثل كرمه. كان كريماً على وجه الخصوص مع نساء، والأصح أن نقول مع فتيات يعتريهن الخجل من أن يحصلن على هذا المقدار في مقابل ما كان زهيداً إلى هذا الحد. وكان يجد لنفسه العذر في ذلك إذ يعلم أن ليس يستطيع في يوم أن ينتج بمثل تلك الجودة إلا في جو يحس فيه أنه عاشق. فالحب، وفي القول مبالغة، بل المتعة المنغرسة قليلاً في الجسد تعين في صناعة الأدب لأنها تقضي على المتع الأخرى، متع المخالطة التي هي واحدة لكل الناس. والحب هذا، وإن حمل معه الخيبات، إنما يحرك بهذه الطريقة أيضاً صفحة النفس التي ربما أصابها لولا ذاك الركود. فليست الرغبة إذن عديمة الجدوى للكاتب بغية إبعاده بادئ الأمر عن باقي الناس وعن التقيد بهم، وكيما تعيد فيما بعد بعض الحركة إلى آلة فكرية تنزع إلى جمود بعد تجاوز سن معينة. والمرء لا يفلح في أن يكون سعيداً ولكنه يدلي بملاحظات حول الأسباب التي تحول دون أن يكون سعيداً والتي ربما ظلت خفية علينا لولا خروقات الخيبة المفاجئة تلك. والأحلام ليست بالطبع قابلة للتحقيق، ونحن نعلم ذلك؛ وما كنا ربما صغنا أحلاماً لولا الرغبة من المفيد أن نصوغها كي نشهد فشلها ونتعظ من ذلك الفشل. لذلك كان «بيرغوت» يقول في نفسه: «إنني أنفق أكثر من أصحاب الملايين الكثيرة في سبيل فتيات، لكن المتع أو الخيبات التي يوفرنها لي تدفعني إلى تأليف كتاب يدر عليّ المال». كانت تلك المحاكمة منافية للمنطق من الناحية الاقتصادية، لكنه كان دون شك واجداً بعض المتعة في قلب الذهب على هذا النحو مداعبات والمداعبات ذهباً. ثم إننا رأينا في فترة وفاة جدتي أن شيخوخته المتعبة كانت تحب الإخلاد إلى الراحة. هذا، وليس في المجتمع سوى المحادثة، وهي فيه تتسم بالغباء، ولكن لها سلطاناً على حذف النساء اللواتي لسن من بعد سوى أسئلة وأجوبة. أما

خارج المجتمع فتضحي النساء من جديد ما هو مريح جداً في نظر العجوز المتعب، عنينا موضوع التأمل.

وأما الآن فلم يعد أي شيء من كل ذلك وارداً في جميع الأحوال. لقد قلت إن «بيرغوت» لم يعد يغادر منزله، وحينما كان ينهض ساعة داخل غرفته فإنما وهو يلف نفسه كلياً بشالات وأغطية وبكل ما يدثر به المرء ساعة بالقرب منه ويقول جذلان وهو يدل على أقمشة التوتر والأغطية لديه: «ما في اليد حيلة أيها العزيز، فالحياة رحلة كما قال «أناكزاغوراس»[1]. هكذا كان يمضي متبرداً بالتدرج، كوكباً صغيراً يقدم صورة مسبقة عن آخر أيام الكوكب الكبير حينما تنحسر الحرارة شيئاً فشيئاً عن الأرض، ثم تنحسر الحياة. حينئذ تكون القيامة قد انتهت، فإنه مهما ذهبت آثار الناس بعيداً في بريقها عبر الأجيال القادمة فلا بد في جميع الأحوال أن يكون ثمة أناس. فإن قاومت بعض أصناف الحيوان غزوات البرد فترة أطول عندما لا يعود ثمة بشر وبافتراض أن يكون مجد «بيرغوت» قد امتد حتى ذاك فسوف ينطفئ فجأة إلى الأبد. فليست آخر الحيوانات هي التي ستقرؤه لأنه من غير المرجح أن تستطيع، كحال الرسل في العنصرة[2]، فهم لغة مختلف شعوب البشر دون أن تكون تعلمتها.

كان «بيرغوت» في الشهور التي سبقت وفاته يعاني من الأرق ومما كان أدهى من ذلك حينما ينام، من الكوابيس التي كانت تدفعه إن أفاق إلى تجنب معاودة النوم. وكان على مدى فترة طويلة قد أحب الأحلام، حتى الأحلام المزعجة لأنها تقدم لنا، بفضلها وبفضل التناقض الذي توفره مع الواقع الذي أمامنا في حال اليقظة، منذ الاستيقاظ على أبعد حد إحساساً عميقاً بأننا نمنا. لكن كوابيس «بيرغوت» لم تكن من هذا القبيل. فحينما كان يتحدث عن الكوابيس كان فيما مضى يعني أموراً مزعجة

---

(١) فيلسوف يوناني من القرن الخامس قبل الميلاد. وكان حريّاً به أن يذكر «سينيكا» الروماني، فهو أشهر منه على صعيد المواقف التجلدية.

(٢) ذكرى حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح فأضحوا ينطقون بألسنة الأمم.

تجري في عقله. أما الآن فإنما كان يحس، وكأنما جاءت من خارج ذاته، يداً مزودة بممسحة مبللة تجهد، إذ تمررها على وجهه امرأة شريرة، أن توقظه، ومداعبات لا تطاق على الوركين وحنقاً لحوذيّ - لأن «بيرغوت» كان قد همس في نومه أنه سيء القيادة - حوذي جنّ جنونه كان يرتمي على الكاتب ويعضّ أصابعه وينشرها. وكانت الطبيعة أخيراً، حالما يصبح الظلام في نومه كافياً، كانت تقوم بنوع من التدريب بدون ألبسة مسرحية على النوبة القلبية التي ستودي به: فكان «بيرغوت» دخل وهو في العربة داخل بوابة فندق عائلة «سوان» الجديد وهم بالنزول. فسمره دوار صاعق على مقعده، وحاول البواب مساعدته على النزول. فظل جالساً لا يقوى على النهوض والانتصاب واقفاً على قدميه. كان يحاول التشبث بالعمود الحجري القائم أمامه ولكنه لا يلقى فيه سنداً كافياً يعينه على الوقوف. واستشار الأطباء الذين أعجبهم استدعاؤه لهم فرأوا في مزاياه ككادح كثير الشغل (وكان مضى عشرون عاماً لم يقم فيها بأي عمل) وفي إرهاقه سبباً لوعكاته. وأشاروا عليه ألا يقرأ حكايات مرعبة (وما كان يقرأ شيئاً) وأن يفيد أكثر من الشمس «التي لا غنى عنها للحياة» (وما كان يدين ببضع سنوات من التحسن النسبي إلا لاحتجابه في بيته) وأن يتغذى فوق ما يفعل (الأمر الذي أهزله وغذّى على وجه الخصوص كوابيسه). ولما كان أحد أطباء «بيرغوت» يتمتع بموهبة المعارضة والتنكيد، فما إن كان يعرض عليه، إذ يلتقيه في غياب الآخرين كي لا يغضبه، ما سبق أن أشار به الآخرون على أنه أفكار صادرة عنه حتى كان الطبيب المعارض، وفي ظنه أن «بيرغوت» يحاول أن يحصل على وصف حاجة تروق له، يمنعه عنها في الحال ويفعل في الغالب انطلاقاً من أسباب اصطنعت لحاجة في نفس يعقوب وبسرعة كبيرة إلى حد أن الطبيب المعارض كان يضطر، في مواجهة بداهة الاعتراضات المادية التي يقدمها «بيرغوت»، أن يعارض نفسه في الجملة ذاتها، ولكنه لأسباب جديدة كان يشدد المنع ذاته. وكان «بيرغوت» يعود إلى واحد من أوائل الأطباء، وهو رجل كان يباهي بالنباهة

ولا سيما في حضرة أحد أسياد القلم وكان، إن لمح «بيرغوت» قائلاً: «يبدو لي مع ذلك أن الدكتور س سبق أن قال لي - فيما مضى بالطبع - أن ذلك يمكن أن يسبب لي احتقاناً في الكلية والدماغ...» كان يبتسم ابتسامة خبيثة ويرفع إصبعه ويلقي بهذه الكلمات: «لقد قلت بالاستعمال ولم أقل بالإفراط. فطبيعي أن كل دواء، إن نحن بالغنا، إنما يصبح سلاحاً ذا حدين». إن في جسمنا ميلاً فطرياً إلى ما يلائمنا مثلما في فؤادنا إلى ما هو الواجب الأخلاقي ولا يمكن لأي إجازة دكتور في الطب أو اللاهوت أن تحل محله. نعلم أن الحمامات الباردة تلحق بنا الأذى ونحبها وسوف نلقى دوماً طبيباً ليشور بها علينا لا ليحول دون أن تلحق بنا الأذى. وأخذ «بيرغوت» من كل من أطبائه ما سبق أن منع النفس عنه منذ سنوات من قبيل التعقل. وعادت أعراض الأمس إلى الظهور في ختام بضعة أسابيع، أما القريبة فقد ازدادت سوءاً. ولم يعمل «بيرغوت» من بعد، وقد ذهب عقله جراء ألم يمتد على كل دقيقة وينضاف إليه أرق تقطعه كوابيس قصيرة؛ لم يعمل من بعد على استحضار أي طبيب وجرب بنجاح، ولكن بإفراط، مخدرات مختلفة وهو يقرأ بثقة النشرة المرافقة لكل منها، النشرة التي تعلن ضرورة النوم ولكنها تلمّح إلى أن جميع المنتجات التي تجيء به سامة (فيما عدا ذلك الكائن في القارورة التي تغلفها والتي لا تؤدي البتة إلى التسمم) وتجعل الدواء بذلك أسوأ من المرض. وقد جربها «بيرغوت» جميعاً، وينتمي بعضها إلى فصيلة غير تلك التي تعودناها وهو مشتق مثلاً من الأميل والأيتيل. والمرء لا يبتلع المنتج الجديد الذي يختلف تركيبه كلياً إلا وتداخله عذوبة انتظار المجهول. ويخفق القلب كما في أول موعد، فإلى أية أنواع مجهولة من النوم والأحلام سوف يقودنا الوافد الجديد؟ إنه الآن في داخلنا وقد تولّى قيادة فكرنا. فبأية طريقة تزمع أن تنام؟ وحالما نكون نمنا، على أية دروب عجيبة، وفوق أية قمم، وفي أية هاويات غير مكتشفة سيقودنا المعلم الكلي الاقتدار؟ وأية مجموعة جديدة من الأحاسيس تزمع تعرفها في هذه الرحلة؟ وهل تقودنا إلى

الضيق؟ إلى الغبطة؟ إلى الموت؟ أما وفاة «بيرغوت» فقد وقعت عشية ذلك اليوم الذي كان استودع فيه نفسه واحداً من أولئك الأصدقاء (أهو صديق؟ أم عدو؟) فائق الاقتدار.

وقد توفي في الظروف التالية: لقد أودت نوبة تسمم بولي طفيف إلى أن وصفوا له الراحة. ولما كان أحد النقاد قد كتب أن رقعة جدار صغيرة صفراء في لوحة «منظر من مدينة ديلفت» من أعمال «فيرمير» (وقد أعارها متحف لاهاي لصالح معرض هولندي)، وهي لوحة كان يعشقها ويظن أنه يعرفها خير معرفة، أن تلك الرقعة (وما كان يتذكرها) قد أحسن رسمها إلى حد تبدو معه، إن نظرنا إليها وحدها، كأنها عمل فني صيني رائع ذو جمال يكفي نفسه بنفسه، فقد أكل «بيرغوت» بضع حبات من البطاطا وخرج خارجاً ودخل المعرض. ومنذ الدرجات الأولى التي كان عليه أن يرتقيها أخذ منه الدوار. ومر أمام عدة لوحات وداخله انطباع بجفاف ولا جدوى فن مصطنع إلى هذا الحد وما كان ليساوي مجاري الهواء الشمس في قصر من البندقية أو محض بيت على شاطئ البحر. ووقف أخيراً أمام لوحة «فيرمير» التي كان يذكرها أكثر ألقاً وأشد اختلافاً عن كل ما كان يعرفه، بيد أنه لاحظ فيها للمرة الأولى، بفضل مقالة الناقد، شخوصاً صغيرة بالأزرق وأن الرمل وردي، ولاحظ أخيراً المادة الثمينة التي لرقعة الجدار الصغيرة الصفراء. كانت صنوف دواره آخذة في الازدياد وكان يثبّت نظره على رقعة الجدار الصغيرة الثمينة مثل طفل على فراشة صفراء يود الإمساك بها. وكان يقول: «هكذا كان جديراً بي أن أكتب، فإن كتبي الأخيرة بالغة الجفاف وكان انبغى لي وضع عدة طبقات لونية وجعل جملتي ثمينة في حد ذاتها على غرار رقعة الجدار الصغيرة الصفراء هذه». بيد أن خطورة دواره ما كانت لتفوته. كان يتجلى أمامه في ميزان سماوي حياته ذاتها تثقل إحدى كفتيه فيما تحتوي في مقابل الثانية. وقال في نفسه: «لست أودّ مع ذلك أن أكون في صحف المساء بنداً في باب المتفرقات في هذا المعرض». وكان يردد في نفسه قائلاً: «رقعة جدار صغيرة صفراء بإفريز،

رقعة جدار صغيرة صفراء». وانهار في هذه الأثناء على أريكة دائرية. وكف بالصورة المفاجئة نفسها عن التفكير بأن حياته في خطر وقال في رجعة إلى تفاؤله: «إنه مجرد سوء هضم أولتني إياه حبات البطاطا غير المستوية ولا بأس عليّ». وأسقطته نوبة ثانية فتدحرج عن الأريكة أرضاً حيث سارع الزوار والحراس جميعاً. وكان قد مات. مات دون رجعة؟ من يسعه قول ذلك؟ أجل، إن تجارب استحضار الأرواح لا تقيم البرهان، أكثر مما تفعل العقائد الدينية، على أن النفس باقية. ما يمكن أن تقوله إن كل شيء يجري في حياتنا كما لو أننا ندخلها تثقلنا التزامات عقدناها في حياة سابقة. ليس من سبب في ظروف حياتنا على هذه الأرض كي نعتقد أننا ملزمون بصنع الخير وأن نكون رقيقي المعاملة، بل أن نكون مهذبين، ولا سبب كذلك كي يظن الفنان الملحد أنه ملزم أن يعيد عشرين مرة مقطوعة سيكون الإعجاب الذي تثيره قليل الجدوى لجسده الذي أكلته الديدان، كحال رقعة الجدار الصفراء التي رسمها بكثير من الدراية والرهافة فنان مجهول أبداً كدت لا تتعرفه باسم «فيرمير». هذه الالتزامات جميعها التي لا تلقى جزاءها في الحياة الحاضرة تبدو كأنما تنتمي إلى عالم مختلف قائم على الطيبة ورقة الوجدان والتضحية، عالم يختلف تمام الاختلاف عن هذا ونصدر عنه لنولد على هذه الأرض لنعيش مجدداً، ربما قبل انثنائنا إليه، تحت سلطان تلك القوانين المجهولة التي أذعنّا لها لأننا كنا نحمل تعاليمها في ذواتنا دون أن نعلم من سبق أن خطها فينا، تلك القوانين التي يقربنا منها أي نشاط عميق للعقل وهي خفية - إن خفيت!- على البلهاء فحسب. وهكذا فإن الفكرة التي قوامها أن «بيرغوت» لم يمت ميتة لا رجعة فيها ليست من باب اللامحتمل.

وجرى دفنه، لكن كتبه كانت طوال الليلة المأتمية تسهر في الواجهات المضادة، وقد صفت ثلاثة ثلاثة، تسهر كملائكة مبسوطة الأجنحة وتبدو بالنسبة إلى من فارق الدنيا كأنها رمز قيامته.

لقد أعلمت، كما قلت، أن «بيرغوت» قضى في ذلك اليوم. وعجبت

لانتفاء دقة الصحف التي تقول - وهذه وتلك تكرر ذات التعليق - إنه مات عشية ذلك اليوم. لكن «أليرتين» كانت قد التقته الليلة البارحة، كما روت لي في المساء نفسه، بل هي تأخرت قليلاً جراء ذلك لأنه تحدث إليها طويلاً، وليس من شك أنه أجرى معها آخر حديث. لقد كانت تعرفه على يدي أنا الذي ما عاد يراه منذ فترة طويلة، على أني لما دفعها الفضول إلى التعرف إليه بادرت فكتبت قبل عام إلى المعلم العجوز كي آتيه بها. وقد منحني ما سبق أن سألته إياه فيما عانى قليلاً، باعتقادي، من أني لم ألتقه ثانية إلا لأسعِد بذلك شخصاً آخر، وهو ما كان يؤكد لا مبالاتي تجاهه. تلك حالات كثيرة الحدوث. وأحياناً يرفض هذا أو تلك ممن نتوسل إليهم لا في سبيل متعة التحدث وإياهم ثانية، بل من أجل شخص ثالث، يرفض بإصرار عظيم حتى لتظن التي تعيش في كنفنا أننا فاخرنا بسلطان مزيف؛ وفي الكثير الغالب يقبل النابغة أو الجميلة المشهورة ولكنهما لا يحتفظان لنا من بعد، وقد أذلا في كبرهما وجرحا في ودهما، إلا بعاطفة مقلصة مؤلمة يلونها شيء من الازدراء. وتبينت فترة طويلة بعد ذلك أني اتهمت الصحف زوراً بعدم الدقة لأن «أليرتين» لم تلتق «بيرغوت» البتة في ذلك اليوم. لكنني لم أرتب بالأمر لحظة واحدة لشدة ما روت عنه بلهجة طبيعية ولم أعلم إلا بعد فترة طويلة الفن الرائع الذي تبديه في الكذب ببساطة. فقد كان لما تقوله ولما تقر به ذات سمات أشكال البداهة - وهي ما نراه ونعلمه علماً لا يدحض - إلى حد أنها كانت هكذا تنشر في أثناء الحياة وقائع حياة أخرى ما كنت أرتاب حينذاك بزيفها. وربما كان علينا، بأية حال، أن نناقش كثيراً كلمة الزيف هذه. فإن الكون صحيح بالنسبة إلينا جميعاً ومتباين بالنسبة إلى كل منا. ولعل شهادة حواسي كانت ربما أعلمتني، لو كنت في تلك الفترة خارجاً، أن السيدة لم تسر بضع خطوات برفقة «أليرتين». ولئن عرفت العكس فإنما بواحد من تسلسلات المحاكمة العقلية (حيث تدخل أقوال من نثق بهم حلقات قوية) لا بشهادة الحواس. وكان انبغى كيما أستند إلى شهادة الحواس هذه أن أكون خارجاً، وهذا لم

يقع. يمكننا مع ذلك أن نتصور أن مثل هذه الفرضية لا تجافي المنطق؛ وكنت علمت حينذاك أن «ألبيرتين» كذبت. وهل الأمر بعد مؤكد تماماً؟ فإن شهادة الحواس بدورها عملية فكرية تصنع القناعة فيها البداهة. لقد لاحظنا مرات كثيرة حاسة السمع تحمل لـ«فرانسواز» لا الكلمة التي قيلت، بل تلك التي كانت تظنها الحقيقية، وكان ذلك كافياً كي لا تسمع التصويب الضمني الكائن في تلفظ أفضل. لم يكن رئيس خدمنا على تقويم مختلف. فقد كان السيد «دو شارلوس» يرتدي في ذلك الوقت - إذ يبدل كثيراً في ملابسه - بناطيل فاتحة جداً تتعرفها بين ألف. وإن رئيس خدمنا، الذي كان يظن أن لفظة «مبولة» (وهي اللفظة التي تعني ما سبق أن غضب له السيد «دورامبوتو» إذ سمع الدوق «دو غيرمانت» يدعوه ملحق «رامبوتو») كانت «مبيلة»، لم يسمع قط طوال حياته شخصاً واحداً يقول «مبولة» على الرغم من أنهم كانوا في الكثير الغالب يلفظونها على تلك الصورة في حضرته. لكن الخطأ أشد عناداً من الإيمان ولا يتقصى معتقداته. فقد كان رئيس الخدم يقول باستمرار: «إن السيد البارون «دو شارلوس» يعاني بالتأكيد من مرض كي يلبث كل هذا الوقت في «المبيلة». فانظر ماذا يعني أن يكون المرء زير نساء عتيقاً. وإن له بناطيلهن. لقد أرسلتني سيدتي في هذا الصباح للقيام بمشتريات في «نويي». ورأيت السيد البارون «دو شارلوس» يدخل في «مبيلة» شارع «بورغوني». ولدى عودتي من «نويي»، بعد ساعة كاملة، رأيت بناطيله الصفراء في «المبيلة» ذاتها وفي ذات المكان، في الوسط، حيث يقف دوماً كي لا يُشاهد. ثم إني ما كنت أعرف ما كان أجمل وأنبل وأوفر شباباً من ابنة أخ للسيدة «دو غيرمانت». لكني كنت أسمع بواب مطعم كنت أتردد عليه أحياناً يقول لدى مرورها: «هيا انظر إلى هذه العجوز المدعية، يا لها من هيئة، وهي على الأقل في الثمانين من عمرها». أما بخصوص السن فيبدو لي من العسير أنه يصدقه. لكن المراسلين الفتيان المتجمعين حوله الذين قهقهوا في كل مرة كانت تمر فيها أمام الفندق لتذهب للقاء شقيقتين لجدتها، السيدتين «دو فزنساك»

و«دو بالروا»، شاهدوا على وجه تلك الجميلة الشابة الثمانين عاماً التي وهبها البواب، ممازحاً أو غير ممازح، «للمدعية العجوز». ولعلكَ كنت أضحكتهم بقولك إنها أكثر أناقة من إحدى عاملتي الصندوق في الفندق التي كانت تبدو لهم، والإكزيما تتآكلها وسمنتها تثير الاستهزاء، امرأة ذات جمال. وحدها الشهوة الجنسية كانت ربما استطاعت الحؤول دون تشكل خطتهم لو أنها عملت لدى مرور المدعية العجوز المزعومة ولو أن المراسلين اشتهوا الغانية الشابة. لكن تلك الرغبة لم تعمل لأسباب مجهولة لا بد كانت على الأرجح من النوع الاجتماعي.

لكن كان يمكن في نهاية المطاف أن أكون خرجت وأن أمر في الشارع ساعة قالت لي «ألبيرتين» في ذاك المساء (إذ هي لم تشاهدني) إنها تناولت والسيدة بضع خطوات. ولعل ظلاماً مقدساً كان استولى على فكري وكنت شككت بأن أكون رأيتها وحيدة وكدت حتى لا أحاول أن أفهم بأية خدعة بصرية لم أبصر السيدة، وما كنت لأعجب أكثر من ذلك أن أكون أخطأت، فإن عالَم الكواكب أيسر معرفة من أعمال الأشخاص الحقيقية، ولا سيما الأشخاص الذين نحبهم إذ يستقوون على شكنا بحكايات أعدت لتحميهم. فكم سنة يمكنها أن تدع لحبنا اللامبالي أن يعتقد أن المرأة المحبوبة تملك في الغربة شقيقة أو شقيقاً أو زوجة أخ ما كان لهم وجود في يوم! ولو لم نكن فضلاً عن ذلك ملزمين من أجل تسلسل القصة بالاكتفاء بأسباب غير جدية، فكم من أسباب أكثر جدية ربما مكّنتنا من إبراز الهزالة الكاذبة لبداية هذا المجلد حيث أسمع من سريري العالَمَ يستفيق تارة من طقس معين وطوراً من آخر! أجل، لقد اضطررت أن أقلل الأمر وأنحو منحى الكذب، فليس عالم، بل ملايين، ما يساوي تقريباً ما يوجد من أحداق وعقول بشرية، هي التي تستيقظ كل صباح.

ولنعد إلى «ألبيرتين»، فإني لم أعرف في يوم نساء حبتهن الطبيعة أكثر منها قابليات مؤاتية للكذب الحيّ الذي بألوان الحياة نفسها، ما لم تكن

واحدة من صديقاتها، واحدة من فتياتي اليانعات أيضاً، موردة مثل «ألبيرتين» ولكن هيئتها الجانبية غير المنتظمة، الغائرة، ثم البارزة، ثم الغائرة من جديد كانت تشبه تماماً بعض عناقيد أزهار وردية نسيت اسمها ولها على هذا النحو غوائر طويلة متعرجة. كانت تلك الفتاة، على صعيد الحكاية، تفوق «ألبيرتين» لأنها ما كانت تمزج بها أية من الفترات المؤلمة أو المضمرات الساخطة التي كانت كثيرة لدى صديقتي. بيد أني قلت إنها كانت تفتنك حينما كانت تبتدع قصة لا تدع مجالاً للشك لأنك كنت حينذاك ترى أمامك الأمر الذي تقوله - مع أنه متخيل - باستخدام كلامها على أنه منظر، وكان ذلك إدراكي الحقيقي.

وأضفت قولي: «حينما كانت تُقِرّ»، وإليكم السبب، كانت بعض المقاربات الغريبة توليني بشأنها أحياناً شكوكاً غيري يظهر فيها بالقرب منها في الماضي، في المستقبل وا أسفي، شخص آخر، وكي يبدو أني متيقن مما أقدم كنت أقول الاسم فتسارع «ألبيرتين» إلى القول: «أجل لقد التقيتها منذ ثمانية أيام على خطوات من البيت. ورددت تحيتها تأدباً. وقد خطوت معها خطوتين. لكننا لم يقع شيء البتة بيننا ولن يكون شيء البتة». ولم تكن «ألبيرتين» حتى التقت تلك المرأة لسبب بسيط قوامه أنها لم تجيء إلى باريس منذ عشرة أشهر. بيد أن صديقتي كانت ترى أن الإنكار التام كان قليل القرب من المنطق. فكان هذا اللقاء القصير الوهمي، ساقته ببساطة كبيرة حتى لأرى السيدة تتوقف وتسلم عليها وتقوم ببضع خطوات وإياها. كانت المعقولية وحدها هي التي ألهمت «ألبيرتين» وليس الرغبة في إيقاظ غيرتي. فـ«ألبيرتين» كانت تودّ، ربما دون أن تسعى إلى ذلك، أن تحاط بالملاطفات. ولئن توافر وسيتوافر لي على مدى هذا الكتاب الكثير من الفرص لأبرز كيف تضاعف الغيرة الحب فإنما انطلقت من وجهة نظر العاشق. لكن إن يتوافر له شيء من الأنفة فلن يرد على خيانة مفترضة، وإن انبغى أن يموت بفعل الهجران، بلفتة لطيفة، بل ينتحي جانباً أو يفرض على نفسه، دون أن يبتعد، التظاهر بالفتور. ولذلك فإن

من باب الخسارة البحتة لعشيقته أن تعذبه هذا العذاب. فإن بددت بالعكس بكلمة حاذقة، بمداعبات رقيقة الشكوك التي كانت تعذبه على الرغم مما زعم من لا مبالاة فلا شك أن العاشق لا يعاني من هذا التنامي اليائس للحب الذي تدفعه الغيرة إلى قمته بل هو لا يعرف، وقد توقف فجأة عن العذاب سعيداً مرقق العاطفة متفرج النفس كحال المرء في أعقاب عاصفة بعدما تساقط المطر وحين تكاد لا تحس بعد تحت أشجار الكستناء الضخمة بالقطرات المتأرجحة التي لونتها الشمس العائدة تقطر على فترات متباعدة، لا يعرف كيف يعبر عن امتنانه لتلك التي شفته. كانت «ألبيرتين» تعلم أني أحب مكافأتها على ألطافها، وربما كان ذلك هو التفسير لاستنباطها، بغية تبرئة نفسها إقرارات خالية من الصنعة من مثل قصصها التي ما كنت أرتاب بها، وكانت إحداها لقاء «بيرغوت» حين كان قد مات. وما كنت علمت حتى ذاك من كذبات «ألبيرتين» غير تلك التي نقلتها إلى «فرانسواز» على سبيل المثال في «بالبيك» والتي فاتني أن أقولها مع أنها آلمتني أشد الألم: «لما كانت لا تود المجيء فقد قالت لي: «ألا يمكن أن تقولي للسيد إنك لم تلتقي بي وإنني كنت قد خرجت؟». لكن «الأدْنَين» الذي يحبوننا، كما كانت «فرانسواز» تحبني، إنما يمتعهم أن يجرحونا في اعتزازنا بنفسنا.

قلت لـ«ألبيرتين» بعد العشاء إني راغب في الإفادة من أني نهضت من فراشي لأذهب للقاء أصدقاء، السيدة «دو فيلباريسيس»، السيدة «دو غيرمانت»، آل «كامبرمير»، لست أدري بالتمام، من ربما وجدتهم لديهم. لقد كتمت فقط اسم الذين كنت عازماً على الذهاب إلى بيتهم، آل «فيردوران». وسألت «ألبيرتين» إن لم تكن تريد المجيء معي. فاحتجت بأن ليس لديها فستان. «ثم إن شعري مشعث فهل تحرص على أن ألبث على تصفيفة الشعر هذه؟» وكيما تودعني مدت لي يدها بتلك الطريقة النزقة، ممدودة الذراع مرتدة المنكبين، الطريقة التي كانت تتبعها فيما مضى على شاطئ «بالبيك» وما عادت اعتمدتها مرة مذ ذاك. وجعلت تلك

الحركة المنسية، جعلت ثانية من الجسم الذي بعثت فيه الحياة جسم «ألبيرتين» التي كانت بعد لا تعرفني أو تكاد. لقد أعادت لـ«ألبيرتين»، وهي خلف مظهرها النزق كثيرة الاحتفاء، جِدّتها الأولى وطابعها المجهول وحتى الإطار الذي من حولها. فقد رأيت البحر خلف هذه الفتاة التي لم أكن أبصرتها قط تسلم عليّ بهذه الطريقة منذ أن لم أعد على شاطئ البحر. وأضافت متجهمة: «ترى عمتي أن ذلك يزيدني سناً». وفكرتُ قائلاً: «ليت عمتها تقول الحقيقة! فأن تجعل «ألبيرتين» بما تبدو طفلة، أن تجعل السيدة «بونتان» تبدو أكثر شباباً، ذلك كل ما تتمناه هذه الأخيرة وأن لا تكلفها «ألبيرتين» شيئاً بانتظار اليوم الذي تعود عليها بالمال بزواجها مني». فأما أن تبدو «ألبيرتين» أقل شباباً وأقل جمالاً وأن تجعل الرؤوس أقل متابعة لها في الشارع فذلك ما كنت بالعكس أتمناه أنا. لأن شيخوخة مربية عجوز لا تطمئن العاشق الغيران بقدر ما تفعل شيخوخة وجهِ تلك التي يحبها. كنت أشكو فقط من إمكان أن تبدو التصفيفة التي سألت «ألبيرتين» أن تتبناها حجزاً إضافياً لحريتها. وكان هذا الشعور العائلي الجديد نفسه هو الذي لم ينفك يربطني بـ«ألبيرتين» حتى وأنا بعيد عنها.

قلت لـ«ألبيرتين» وهي قليلة الاستعداد، قالت، لمرافقتي إلى منزل آل «غيرمانت» أو آل «كامبرمير»، إني لا أدري تماماً إلى أين أذهب، ومضيت إلى منزل آل «فيردوران». وآن كنت ماضياً للذهاب إلى منزل آل «فيردوران» وذكرتني فكرة الحفل الموسيقي الذي سأستمع إليه هناك بمشهد خصام بعد الظهيرة: «أيتها العاهرة المريعة، أيتها العاهرة المريعة»، وهو مشهد للحب المخيب، للحب الغيران ربما، لكنه آنذاك بمثل بهيمية المشاحنة التي يمكن، بفارق الكلام أن تقع لـ«أورانغ أوتانغ»[1] مع امرأة أغرم بها، إن جاز القول، آن كنت ماضياً في الشارع لاستدعاء عربة،

---

(١) نوع من القردة الضخمة، وهو قريب الشبه بالإنسان.

سمعت نحيباً يحاول رجل جالس على صخرة مغالبته، واقتربت، وكان الرجل الذي يضع رأسه بين يديه يبدو فتى شاباً وفوجئت أنه يبدو، وهو أنيق الملبس، جراء البياض الذي ينطلق من المعطف، أنه بلباس رسمي وربطة عنق بيضاء. وإذ سمعني كشف عن وجهه الغارق في الدموع ولكنه أداره في الحال بعدما تعرفني. وكان «موريل» وأدرك أني عرفته فقال لي وهو يجهد في وقف دموعه إنه توقف لحظة لشدة ما كان يعاني. وقال لي: «لقد وجهت في هذا اليوم ذاته إهانة فظة إلى امرأة حملتُ لها مشاعر عميقة جداً. وتلك فعلة جبان، فإنها تحبني». وأجبت: «ربما نسيت مع مرور الزمن»، دون أن يخطر لي أنه يبدو من حديثي هذا أني سمعت الخصام الذي كان بعد الظهر. لكنه كان مأخوذاً بغمة إلى الحد الذي لم يخطر له معه أن بوسعي أن أعلم شيئاً. فقال لي: «ربما نسيت، أما أنا فلن يمكنني أن أنسى، إن بي إحساساً بعاري وبي قرفاً من نفسي! لكن الأمر في النهاية قيل وليس ما يمكن أن يجعله وكأنه ما قيل. حينما يثيرون غضبي لا أعلم من بعد ما أنا فاعل. الأمر ما أشد ضرره عليّ فأعصابي كلها متشابك بعضها مع بعض»، إذ هو شديد الاهتمام بصحته كمثل المصابين بالوهن العصبي جميعاً. ولئن كنت شاهدت بعد الظهر الغرام الغاضب لدى حيوان ثائر، فقد انقضت هذا المساء قرون في بضع ساعات وأخذ إحساس جديد، إحساس بالعار والأسف والأسى، أخذ يُظهر للعيان أن مرحلة كبيرة قد اجتيزت في تطور الحيوان الذي سينقلب مخلوقاً بشرياً. ومع ذلك كنت أسمع على الدوام «أيتها العاهرة المريعة» وأخشى عودة قريبة إلى حال التوحش. وكنت على أي حال لا أدرك تمام الإدراك ما جرى، والأمر طبيعي يزيد منه أن السيد «دو شارلوس» نفسه يجهل جهلاً تاماً أن «موريل» كان يعاوده الوهن العصبي منذ عدة أيام، وعلى وجه الخصوص في ذلك اليوم، حتى قبل الواقعة المخجلة التي لم تكن تتعلّق مباشرة بحالة عازف الكمان. فقد كان دفع في الشهر الماضي بما أمكنه من السرعة، وببطء أكبر مما لعله كان رغب، عملية إغواء ابنة شقيق «جوبيان» التي كان

يستطيع الخروج برفقتها على هواه بما هو خطيبها. ولكن ما إن مضى بعيداً بعض الشيء في مساعيه إلى الاغتصاب، ولا سيما حين كلم خطيبته لتقوم بالارتباط بفتيات أخريات توفرهن له، حتى لاقى مقاومات أثارت حفيظته. وفي الحال تهاوت رغبته (إما لأنها كانت مفرطة في عفافها أو لأنها بالعكس سلمت نفسها). وقرر قطع علاقته لكنه كان يخشى، إذ يحس البارون ألصق بالأخلاق مع أنه فاسق، أن يطرده السيد «دو شارلوس» فور القطيعة، لذلك كان قد قرر منذ خمسة عشر يوماً أن لا يلتقي الفتاة من بعد وأن يدع للسيد «دو شارلوس» و«جوبيان» أن يتدبرا أمورهما (وكان يستعمل لفظة أكثر غرابة) وأن يولي الأدبار إلى جهة مجهولة قبل إعلان القطيعة. والحب هذا كانت خاتمته تخلف في نفسه شيئاً من الحزن. وهكذا، وعلى الرغم من أن المسلك الذي سلكه تجاه ابنة شقيق «جوبيان» كان يطابق تماماً في أدق تفاصيله المسلك الذي سبق أن عرض فكرته في حضرة البارون حينما كانا يتعشيان في «سان مارس لو فيتو»، فالأرجح أن المسلكين كانا شديدي الاختلاف وأن مشاعر أقل شناعة، ولم يكن توقعها في مسلكه النظري، قد جعلت مسلكه الحقيقي وجعلته عاطفياً. والنقطة الوحيدة التي كان فيها الواقع، على العكس، أسوأ من المشروع أنه ما كان يبدو له البقاء في باريس ممكناً بعد مثل تلك الخيانة. أما الآن «فإطلاق ساقيه للريح» كان يبدو له باهظاً في مقابل أمر بسيط إلى هذا الحد. فذلك يعني فراقَه البارون، الذي ستثور ثائرته دون شك، وتحطيمَ مركزه، سوف يفقد كل المال الذي كان البارون يقدمه له. وكانت فكرة أن الأمر لا مفر منه تبعث لديه نوبات عصبية. كان يلبث ساعات يغالب دموعه، ويأخذ المورفين كي لا يفكر في الأمر، ولكن بحذر. ثم اتفق فجأة أن قامت في خاطره فكرة كانت دونما شك تكتسي فيه حياة وشكلاً منذ بعض الوقت. والفكرة قوامها أن الحل البديل، أن الخيار بين الانفصال والخصام التام مع السيد «دو شارلوس» ربما لم يكن اضطرارياً، وخسارة كل مال البارون أمر باهظ. وغرق «موريل» الحائر على مدى بضعة أيام في لج أفكار سوداء

كتلك التي كانت تبعثها في صدره رؤية «بلوك». ثم قرر أن «جوبيان» وابنة أخيه حاولا إيقاعه في الفخ وأنه ينبغي أن يحسا بالسعادة لخلاصهما مقابل ثمن زهيد إلى هذا الحد. كان يرى بمجمل القول أن الفتاة أخطأت إذ كانت قليلة التدبير حتى إنها لم تفلح في الحفاظ عليه عن طريق الحواس، والتضحية بمركزه لدى السيد «دو شارلوس» كانت تبدو له لا معقولة، وليس ذلك فحسب، بل كان نادماً حتى على الأعشية الباهظة الثمن التي قدمها للفتاة منذ أن أصبحا مخطوبين، ولعله كان استطاع أن يقول عنها وهو ابن فَرّاش كان يقبل كل شهر حاملاً إلى عمي «كتاب حسابه»، فالكتاب، الذي يعني بصيغة المفرد مؤلفاً طبع لعامة الناس، إنما يفقد هذا المعنى بالنسبة إلى أصحاب السمو والفراشين. فهو في نظر هؤلاء «دفتر الحساب» وفي نظر أولئك السجل الذي يدرج المرء اسمه فيه. (أوشكتُ في «باليك»، ذات يوم قالت لي فيه الأميرة «دو لوكسمبور» إنها لم تحمل معها «كتاباً» أن أعيرها «صياد إيسلندا» و«ترتاران دو تراسكون» حينما أدركت ما ودت أن تقوله: فما ذلك لأنها ستكون أقل استمتاعاً بالوقت الذي ستقضيه، بل لأنني سأصادف صعوبة أكبر في إدراج اسمي لديها).

وعلى الرغم من تبدل وجهة نظر «موريل» بخصوص نتائج سلوكه ومع أن هذا السلوك كان بدا له فظيعاً منذ شهرين حينما كان يحب ابنة شقيق «جوبيان» بشغف وأنه لم يكف منذ خمسة عشر يوماً يردد لنفسه أن ذاك السلوك نفسه كان طبيعياً وحميداً فإنه ما انفك يزيد عنده الحال العصبية التي أعلن أثناءها الانفصال منذ قليل، وكان على أتم الاستعداد لصب جام غضبه، إن لم يكن (فيما عدا أثناء نوبة مؤقتة) على الفتاة التي كان يحتفظ تجاهها ببقية الخوف هذه التي هي آخر أثر للحب، فعلى الأقل على البارون، لكنه احترس من أن يقول لها شيئاً قبل العشاء فقد كان يضع فوق كل شيء مهارته المهنية الخاصة فيتجنب، ساعة لديه مقطوعات يصعب عزفها (كحاله هذا المساء في منزل آل «فيردوران»)، يتجنب (قدر المستطاع، فحتى الشاحنة بعد الظهر كانت أمراً تجاوز الحد) كل ما يمكن

أن يولي حركاته شيئاً من التقطع، كذلك يتوقف جراح شغوف بالسيارات عن القيادة حين ينبغي له إجراء عمليات. وهذا ما أوضح لي أنه، فيما كان يحدثني، كان يحرك أصابعه الواحد تلو الآخر كي يتبين إن كانت استعادت مرونتها. ولاح تقطيب للحاجبين بدا يعني أنه لا يزال هناك شيء من التصلب العصبي. وكان كي لا يزيد منه يبسط وجهه، مثلما يحول المرء دون أن تثور أعصابه من أنه لا ينام أو لا يمتلك امرأة بسهولة لخشيته أن يؤخر الخوف نفسه لحظة النوم أو اللذة، لذلك بدا له، إذ هو راغب في استعادة هدوئه كي ينصرف كلياً كعادته، إلى ما سيعزفه في منزل آل «فيردوران»، أثناء عزفه، كما هو راغب كذلك، ما دمت أراه، أن يمكنني من مشاهدة ألمه، بدا أن الأبسط لديه أن يتوسل إليّ بالمغادرة في الحال. وكان التوسل عديم الجدوى والمغادرة فرجاً. وكنت ارتعدت خوفاً أن يسألني، وأنا ذاهب إلى البيت نفسه بفاصل بضع دقائق، أن أصطحبه وكنت أتذكر بوضوح مخاصمة بعد الظهر كي لا يداخلني شيء من القرف بأن يكون «موريل» إلى جانبي طوال الطريق. من الممكن تماماً أن يكون حب «موريل» ثم لا مبالاته أو كرهه لابنة شقيق «جوبيان» عواطف صادقة. بيد أنها لم تكن المرة الأولى (وقد لا تكون الأخيرة) التي يتصرف فيها هذا التصرف ويهجر فيها فجأة فتاة أقسم لها أن يحبها دوماً وبلغ به أن يريها مسدساً محشواً وهو يقول إنه سوف «يطير» دماغه إن بلغ به الجبن أن يهجرها. ولا يحول ذلك دون أن يهجرها فيما بعد ويحس بدلاً من عذاب الضمير نوعاً من الضغينة. لم تكن تلك المرة الأولى التي يتصرف فيها على هذه الصورة ولن تكون الأخيرة لا محالة، بحيث إن رؤوس فتيات كثيرة - فتيات أقل نسياناً له مما كان نساء لهن - عانت - كما عانت بعد طويلاً ابنة شقيق «جوبيان»، وهي باقية على حب «موريل» فيما تزدريه - عانت، وتوشك أن تنفجر بفعل اندفاعة ألم باطن - ففي كل واحد منها كان محتبساً في دماغهن، وكأنما قطعة من منحوتة يونانية، جانب من وجه «موريل»، وبه صلابة المرمر وجمال القديم، بشعره المزهر وعينيه النبيهتين

وأنفه المستقيم الذي يشكّل نتوءاً بالنسبة إلى جمجمة غير معدة لاستقباله وما كان يمكن إجراء جراحة له. لكن هذه الأجزاء القاسية يبلغ بها على مر الأيام أن تنزلق أخيراً إلى مكان لا تتسبب فيه بالكثير من الانشقاقات ولا تبرحه من بعد ولا يشعر المرء من بعد بوجودها ويطويها النسيان أو التذكر اللامبالي.

كنت أحمل في داخلي منتجين لنهاري. فمن جانب إمكان وبالتالي قرار الانفصال عنها بفضل الهدوء الذي جاءني به انقياد «ألبيرتين». ومن جانب آخر الفكرة الناجمة عن تأملاتي في أثناء الوقت الذي انتظرتها فيه، فكرة أن الفن الذي سأجهد في تكريس حريتي المستعادة له، لم يكن شيئاً يساوي ما تضحي به من أجله، شيئاً من خارج الحياة لا يقاسمها بطلانها وعدمها، إذ إن ظاهر السمة الفردية الحقيقية المكتسبة في المؤلفات إنما ينجم عن خدعة بصرية توفرها المهارة الفنية. ولئن خلفت في فترة العصر بقايا أخرى أكثر عمقاً ربما، فما كانت لتدخل حيز معرفتي إلا بعد مضي فترة طويلة. أما البقيتان اللتان كنت أزورهما بوضوح فما كان سيطول بهما الأمد. فمنذ تلك الأمسية عينها كانت أفكاري حول الفن ستشهد نهوضاً من النقصان الذي عانته بعد الظهر، وفي المقابل كان الهدوء، وبالتالي الحرية التي ستمكّنني من الانصراف إليه، سوف يؤخذ مني مجدداً.

فيما كانت سيارتي تقترب، وهي تحاذي رصيف النهر، من منزل آل «فيردوران»، أمرت بإيقافها. ذلك أني أبصرت تواً «بريشو» يغادر الحافلة في زاوية شارع «بونابرت» ويمسح حذاءه بصحيفة قديمة ويضع قفازين بلون رمادي لؤلؤي. ومضيت إليه. لقد كان زود منذ فترة، بعدما تفاقمت إصابته العينية - زود بما يماثل ثراء مَخبر - بنظارتين جديدتين تبدوان، وهما قويتان معقدتان كأدوات فلكية، وكأنما شدتا ببراغي إلى عينيه، وسدد إليّ أضواءهما المفرطة وتعرفني. كانتا على أحسن حال. لكني أبصرت نظرة بعيدة زهيدة الحجم شاحبة مختلجة محتضرة، نظرة وضعت تحت هذا الجهاز الجبار مثلما يضعون في المخابر التي بولغ في توفير دعم

مفرط لها في مقابل المشاغل التي تجرى فيها دويبة ضئيلة تحتضر خلف الأجهزة الأكثر إتقاناً. ومددت ذراعي إلى نصف الأعمى لأؤمن سيره وقال لي: «لسنا نلتقي هذه المرة قرب «شيربور» الكبير[1] بل بالقرب من مخزن «دانكيرك الصغير»، والجملة بدت لي شديدة الإضجار لأنني لم أفهم ما عساها تعني؛ بيد أني لم أجسر على سؤال «بريشو» عن الأمر مخافة إيضاحاته أكثر مني مخافة ازدرائه. وأجبته أن بي فضولاً أن أشاهد الصالة التي كان «سوان» في غابر الأيام يلتقي فيها «أوديت» في كل مساء. وقال لي: «عجباً، تعرف هذه الحكايات القديمة؟».

كان موت «سوان» في ذلك الوقت قد بلبل أفكاري. موت «سوان» و«سوان» لا ينهض في هذه الجملة بدور محض مضاف إليه. فإني أقصد بذلك الموت الخاص، الموت الذي أوفدته الأقدار لخدمة «سوان». ذلك أننا نقول الموت بغية التبسيط، ولكن ثمة منه بمقدار ما هنالك أفراد. ونحن لا نملك حساً يسمح لنا بأن نرى الميتات تجري بأقصى سرعة وفي كل الاتجاهات، الميتات الناشطة التي توجهها الأقدار إلى هذا وذاك، وغالباً ما تكون ميتات لن تفرغ تماماً من مهمتها إلا بعد سنتين أو ثلاث. فهي تجري سراعاً لتضع سرطاناً في خاصرة أمثال «سوان»، ثم هي تمضي ثانية إلى مشاغل جديدة ولا تعود إلا حينما ينبغي، وقد أجريت عملية الجراحين، وضع السرطان مجدداً. ثم يحل الوقت الذي تقرأ فيه في صحيفة «لو غولوا» أن صحة «سوان» أوحت بالمخاوف، ولكن وعكته الصحية في طريقها إلى شفاء تام. حينئذ يقبل الموت بضع دقائق قبل النفس الأخير، مثل راهبة تكون قد عنيت بك بدلاً من القضاء عليك، ليشهد آخر رمق لك ويتوج بهالة أخيرة رأس من سكنته البرودة أبداً وتوقف قلبه عن الخفقان. وإنما تنوع الميتات هذا وغموض مساراتها ولون

---

(١) هو فندق «لا راسبلير» على شاطئ النورماندي، أما «دانكيرك» وهي مدينة، فإنما تشير هنا إلى «مخزن» في باريس قريب من مسكن آل «فيردوران» وعنوانه التجاري «دانكيرك الصغير».

وشاحها المشؤوم هي التي تكسب سطور الصحف مسحة مؤثرة إلى هذا الحد: «علمنا ببالغ الأسى أن السيد «شارل سوان» قضى البارحة في فندقه في باريس على إثر مرض أليم. وسوف يفتقده الجميع، وهو الباريسي الذي كان ظرفه موضع تقدير الجميع وكذلك سداد علاقاته المنتقاة التي يطبعها الإخلاص مع ذلك، سواء أكان ذلك في الأوساط الفنية والأدبية حيث كانت رهافة ذوقه المتبصرة تجعله منشرح الفؤاد يسعى إليه الجميع، أم في نادي الفروسية الذي كان أحد أعضائه الأكثر قدماً والأكثر استحواذاً على مسامع الناس. كان ينتمي أيضاً إلى نادي الوحدة والنادي الزراعي. وكان قدم استقالته منذ فترة وجيزة من عضوية نادي شارع «رويال». كانت هيئته الذكية وشهرته البارزة على حد سواء لا تتوقفان عن إثارة فضول الجمهور في كل تظاهرة كبيرة للموسيقى والرسم، ولا سيما حفلات تدشين المعارض الفنية التي سبق أن كان أحد روادها المخلصين حتى هذه السنوات الأخيرة التي لم يغادر فيها مسكنه من بعد إلا فيما ندر. ستقام مراسم الدفن، إلخ...».

ومن وجهة النظر هذه، إن لم يكن المرء «شخصية مرموقة» فإن غياب اللقب المعروف إنما يسرع أيضاً الانحلال الناجم عن الوفاة. صحيح أن المرء إنما يلبث الدوق «دو زيس» بصورة مغفلة ودون تمييز لشخصية الفرد. لكن التاج الدوقي يجمع بعض الوقت عناصرها بعضها إلى بعض كعناصر هذه المثلجات ذات الأشكال المحددة الخطوط التي كانت «ألبيرتين» معجبة بها، في حين تتفكك وتذوب وقد «فقدت قالبها» أسماء بورجوازيين من أسياد المجتمع حالما وافتهم المنية، لقد شاهدنا السيدة «دو غيرمانت» تتحدث عن «كارتييه» وكأنما عن أفضل صديق للدوق «دو لا تريمواي»، كأنما عن رجل مرغوب جداً في الأوساط الأرستقراطية، فأضحى «كارتييه» في نظر الجيل التالي شيئاً عديم الشكل حتى لتكاد ترفع من قدره إن نسبته إلى الجواهري «كارتييه». ولعله كان ابتسم أن يستطيع جهال الخلط بينهما! أما «سوان» فكان على العكس

شخصية فكرية وفنية مرموقة، وقد حالفه الحظ، مع أنه لم «ينتج» شيئاً، أن يدوم أكثر قليلاً. ومع ذلك، أيها العزيز «شارل سوان» الذي كانت معرفتي به هينة جداً حينما كنت لا أزال في مقتبل شبابي وكنت أنت قريباً من القبر، فإنما يعودون إلى الحديث عنك وربما حييت لأن الذي كنت لا بد تعتبره غبياً عظيم الغباء جعل منك بطل إحدى رواياته. ولئن يجر الحديث عنك إلى هذا الحد في لوحة «تيسو» التي تمثل مقصورة نادي شارع «رويال» حيث تجلس بين «غاليفيه» و«ادمون دو بولينياك» و«سان موريس» فلأنهم يرون بعض قسمات لك في شخصية «سوان».

دعنا نعود إلى حقائق أكثر عمومية، فإني سمعت «سوان» يتحدث بنفسه في منزل السيدة «دو غيرمانت» في المساء الذي أقيم فيه الاحتفال لدى ابنة عمها، عن وفاته هذه المتكهن بها واللا متوقعة مع ذلك. إنها ذات الوفاة التي عدت فلقيت غرابتها النوعية المذهلة ذات مساء تصفحت فيه الجريدة واستوقفني في الحال نبأها وكأنما خطت بسطور خفية دست في غير مكانها. وكانت كافية لتجعل من أحد الأحياء شخصاً لا يستطيع الإجابة من بعد عما يقال له: اسماً، اسماً مكتوباً انتقل فجأة من العالم الحقيقي إلى مملكة الصمت. وهي التي كانت توليني الآن أيضاً الرغبة في معرفة أفضل للمسكن الذي سبق أن أقام فيه فيما مضى آل «فيردوران» وحيث سبق لـ«سوان»، الذي لم يكن حينئذ مجرد بضعة حروف خطت في صحيفة، أن تناول عشاءه كثيراً برفقة «أوديت». وينبغي أن أضيف إلى ذلك أنني لم أذهب للقاء «جيلبيرت» مثلما وعدته في منزل الأميرة «دو غيرمانت» (وقد جعل ذلك موت «سوان» أكثر إيلاماً من سواه فترة طويلة، مع أن هذه الأسباب لا علاقة لها بالطابع الفردي الغريب لموته)؛ وأنه لم يطلعني على ذلك «السبب الآخر» الذي لمح إليه في ذلك المساء والذي اختارني لأجله مؤتمناً على سرّ حديثه مع الأمير، وأن ألفاً من الأسئلة كانت تتوارد إلى ذهني (وكأنما فقاعات تتصاعد من قاع الماء) وكنت أبغي أن أطرحها عليه حول الموضوعات الأكثر تبايناً: حول «فيرمير»، حول السيد «دو موشي»،

حوله هو، حول سجادة من أعمال «بوشيه»، حول «كومبريه»، وكلها أسئلة لا تلحّ كثيراً دون شك بما أنني أجلتها من يوم إلى يوم، ولكنها أخذت تبدو لي رئيسية منذ أن ختمت شفتاه ولن يوافيني الجواب من بعد. إن موت الآخرين شبيه برحلة تقوم بها بذاتك وتتذكر، وقد أصبحت على مئة كيلومتر من باريس، أنك نسيت دزينتي مناديل وأن تترك مفتاحاً للطباخة وأن تودع عمك وتسأل عن اسم المدينة التي تضم عين الماء القديمة التي تود مشاهدتها. في حين أن لسائر صنوف النسيان هذه التي تحاصرك والتي تقولها بصوت عالٍ ولمحض الشكل فقط للصديق الذي يسافر وإياك رداً واحداً إن هو إلا الدفع بعدم القبول الذي يبديه المقعد واسم المحطة الذي يطلقه المستخدم والذي إنما يبعدك أكثر فأكثر عن منجزات أصبحت منذ الآن مستحيلة حتى إنك لتتخلى عن التفكير بالأمور التي تركت جانباً دون رجعة فتحل صرة زادك وتتبادل الصحف والمجلات المصورة.

وأردف «بريشو» يقول: «ويحك، لا، فما كان «سوان» يلتقي هنا زوجة المستقبل أو هو على الأقل لم يلتق بها هنا إلا في الفترة الأخيرة تماماً، بعد الكارثة التي قضت جزئياً على مسكن السيدة «فيردوران» الأول».

وكنت لسوء الحظ، مخافة أن أكشف لناظري «بريشو» عن بذخ يبدو لي في غير محله بما أن الأستاذ الجامعي لا حصة له فيه، نزلت بسرعة مفرطة من العربة ولم يفهم الحوذي ما ألقيت إليه بأقصى سرعة كي يتسع لي أن أبتعد عنه قبل أن يبصرني «بريشو». وكانت النتيجة أن جاء الحوذي ليقف بالقرب منا وسألني إن انبغى له أن يجيء لينقلني ثانية. فقلت على عجل أن نعم وضاعفت أكثر فأكثر من احترامي تجاه الجامعي الذي جاء في الحافلة العامة. وقال لي بوقار: «آه! لقد كنت تستقل عربة». - «يا إلهي، بطريق الصدفة البحتة، والأمر لا يتفق لي مطلقاً، فإني دائماً في الحافلة العامة أو أسير على قدمي. لكن ذلك ربما أولاني عظيم السعادة في اصطحابك لدى عودتك هذا المساء إن قبلت من أجلي الدخول في

هذه العربة القديمة؛ وسوف يضيق بنا المكان، لكنك شديد التسامح معي». بيد أني لا أحرم نفسي شيئاً حين أعرض عليه الأمر، أقول في نفسي، بما أنني سأضطر دوماً للعودة بسبب «ألبيرتين». إن وجودها في منزلي في ساعة لا يستطيع أحد المجيء فيها للقائها كان يدع لي حرية التصرف بوقتي بمقدار حريتي بعد الظهر حينما كنت أعلم أنها تزمع العودة من التروكاديرو وما كنت على عجلة من أمري للقياها. لكني في نهاية المطاف كنت أحس، كحالي بعد الظهر أيضاً، أن لي امرأة ولن أعرف لدى عودتي الإثارة المنشطة التي توليها العزلة. وأجابني «بريشو» قائلاً: «إني أقبل بكل طيبة خاطر. لقد كان أصدقاؤنا في الفترة التي تشير إليها يقطنون في شارع «مونتاليفيه» طابقاً أرضياً رائعاً بنصيّة تطل على حديقة، وهو بالطبع أقل فخامة ولكني أفضله على فندق «السفراء» في البندقية». وأعلمني «بريشو» أنه أقيم في ذلك المساء في «رصيف كونتي» (هكذا كان الخلص يقولون حينما يتكلمون عن صالون «فيردوران» منذ أن نقل إلى هنا) «همرجة» موسيقية كبرى نظمها السيد «دو شارلوس». وأضاف أن النواة الصغيرة كانت في الزمن الغابر الذي كنت أتحدث عنه مختلفة تماماً والأسلوب غيره الآن، وما ذلك لمحض أن الخلص كانوا أكثر شباباً. وحكى لي عن مقالب «إيلستير» (وما كان يدعوه بالتهريج الصرف)، كحاله ذات يوم تظاهر فيه أنه مفارق في آخر لحظة ثم عاد متنكراً بلباس رئيس خدم إضافي وهمس فيما يقدم الأطباق بعبارات سفيهة في أذن البارونة «بوتبوس» الشديدة الاحتشام والتي احمرت هلعاً وحنقاً؛ ثم اختفى قبل نهاية العشاء وأمر أن يؤتى إلى الصالة بمغطس مليء بالماء طلع منه، بعدما غادروا طاولة الطعام، وهو في عري تام يجدف عالياً؛ وأعشيات كذلك كانوا يرتادونها في ثياب من الورق رسمها وقصها ولونها «إيلستير» وكانت من الروائع، وقد ارتدى «بريشو» ذات مرة لباس سيد عظيم من بلاط شارل السابع وحذاء حيزومياً، وفي مرة أخرى ثياب نابليون الأول وكان «إيلستير» قد وضع فوقها الوشاح الأكبر لجوقة الشرف مصنوعاً من شمع

الأختام. وقصارى القول إن «بريشو» إذ عاد يرى في فكره صالة ذلك الحين بنوافذها الكبيرة وكنباتها الواطية التي تآكلتها شمس الظهيرة واضطروا أن يغيروها، كان يعلن مع ذلك أنه يفضلها على صالة اليوم. أجل كنت أدرك تماماً أن «بريشو» إنما كان يقصد بالصالة - مثلما هي لفظة الكنيسة لا تعني البناء الديني فحسب بل مجموعة المؤمنين - لا النصية فحسب وإنما الناس الذين يرتادونها والمتع الخاصة التي كانوا يجيئون للبحث عنها هناك والتي أولتها تلك الكنبات في ذاكرته شكلها، وكانوا ينتظرون فوقها، حينما يجيئون بعد الظهر للقاء السيدة «فيردوران»، أن تكون جهزت، فيما أزهار الكستناء الوردية في الخارج، وأزهار القرنفل في أصص فوق الموقد، كانت تبدو، في لفتة من الودّ الرقيق تخص بها الزائر ويترجمها ترحيب ألوانها الوردية المتهللة، كأنما تترصد ثابتة النظرة مجيء سيدة البيت المتأخر. ولئن بدا له أن ذاك الصالون يفوق الحالي فذلك ربما لأن فكرنا هو «بروتيوس»[1] العتيق ولا يمكنه أن يلبث عبداً لأية صيغة وهو حتى في نطاق المجتمع الراقي يتخلص فجأة من صالة بلغت ببطء وصعوبة قمة الكمال ليفضل عليها صالة أقل ألقاً. كالصور التي أدخلت عليها بعض اللمسات والتي كانت أوصت عليها «أوديت» لدى «أوتو»، وكانت ترتدي فيها فستاناً ضيقاً وواسع الحاشية وقد موج شعرها «لانتيريك»، فإنها ما كانت تروق «سوان» بمقدار صورة صغيرة على هيئة بطاقة أخذت في «نيس»، وكانت تبدو فيها، بشأنها الذي من القماش وشعرها السيء التصفيف الفالت من قبعة قش مطرزة بأزهار بنفسج الثالوث وعقدة من المخمل الأسود (والنساء يبدون بعامة أكبر سناً بقدر ما تكون الصور الشمسية أكثر قدماً)، تبدو، هي الأنيقة التي تصغرها عشرين عاماً، كأنها خادمة صغيرة تكبرها عشرين عاماً. وربما كان يحلو له أيضاً أن

(١) من آلهة قدماء اليونان ويرمز إلى الشخص المتقلب الذي لا يثبت على رأي وينهض بأدوار متباينة.

يباهي أمامي بما لن أعرفه وأن يريني أنه تذوق متعاً لن يسعني أن أنالها. وكان يفلح في ذلك على أي حال، فإني لمحض ذكره أسماء شخصين أو ثلاثة لم يعودوا على قيد الحياة وكان يولي سحرهم شيئاً من عالم الأسرار بالطريقة التي يتحدث بها عنهم وعن تلك الحميميات اللذيذة كنت أسائل النفس عما أمكن أن يكون وأحس أن كل ما روي لي عن آل «فيردوران» كان مفرطاً في فظاظته. حتى «سوان» الذي عرفته كنت ألوم نفسي أن لم أعره انتباهاً كافياً، أن لم أهتم به بشيء من التجرد، وأن لم أصغ إليه تماماً حينما كان يستقبلني بانتظار أن تعود زوجته للغداء ويريني أشياء جميلة، الآن وقد علمت أنه يمكن مقارنته بأحد أبرع محدّثي الزمن الغابر.

لحظة وصولي إلى منزل السيدة «فيردوران» أبصرت السيد «دو شارلوس» يتهادى إلينا بكامل جثته الضخمة وهو يجر دونما قصد على إثره واحداً من هؤلاء الأوباش أو المتسولين الذين كانوا يطلعون الآن حتماً لدى مروره حتى من الزوايا الأكثر إقفاراً في ظاهرها وكانوا يواكبون على الدوام هذا الوحش الجبار رغماً عنه، وإن على مسافة منه، مثلما سمكة القرش تواكبها سمكة «الريمورا»، ويختلف في النهاية عن الغريب المتعالي في السنة الأولى في «بالبيك» بهيئته الصارمة وتصنعه الفحولة، إلى حد بدا لي معه أني أكتشف كوكباً يواكبه تابعه، وفي فترة من دورته مغايرة تماماً، وقد شرع يبرز في تمامه، أو مريضاً اجتاحه المرض الآن وما كان لسنوات خلت سوى بشرة طفيفة يخفيها بيسر ولا يرتاب أحد بخطورتها. ومع أن «بريشو» أجريت له عملية أعادت له شيئاً يسيراً من البصر الذي ظن أنه فقده إلى غير رجعة، فلست أدري إن كان شاهد الوغد الذي كان يلاحق البارون على الأثر. والأمر بأية حال قليل الأهمية، فمنذ عهد «لا راسبليير» وعلى الرغم من الود الذي كان الجامعي يكنّه للسيد «دو شارلوس»، كان وجود هذا الأخير يسبب له بعض الإزعاج. لا شك أن حياة الآخر أياً كان إنما تمد في الظلام بالنسبة لأي إنسان دروباً لا نرتاب بوجودها. فإن الكذب، مع أنه كثيراً ما يضلل، إنما يخفي عاطفة عدائية

أو نفعية، أو زيادة نود أن يبدو أننا لم نقم بها، أو مغامرة مع عشيقة يوم واحد ونود إخفاءها عن الزوجة، بصورة أقل إحكاماً مما تغطي السمعة الطيبة عادات سيئة حتى إنها لا تسمح بأن تستشف. وقد تظل مجهولة طوال الحياة فيكشفها مصادفة لقاء في المساء فوق مكسر أمواج، ثم إنها كثيراً ما يساء فهمها ولا بد من شخص ثالث مطلع ليزودك بالكلمة الهاربة التي يجهلها الجميع. لكنها تشيع الرعب، إنْ عرفت، بما تحسّ فيها من تدافع الجنون أكثر منها جراء إحساس خلقي. لم يكن لدى السيدة «دو سورجيس لو دوك» حس أخلاقي من أقلها تطوراً ولعلها كانت ارتضت من ولديها أي أمر تحط من قدره وتفسره المصلحة، وهو يسير الفهم على كل الناس. لكنها منعتهما من موالاة التردد على السيد «دو شارلوس» حينما علمت أنه كانت تدفعه حتماً في كل زيارة ما يشبه آلة قياس متكررة إلى قَرْص ذقن كل منهما وإلى أن يقرص كل منهما ذقن الآخر. لقد عانت ذاك الشعور القلق حيال هذا السر الجسدي الذي يجعلك تتساءل إن كان الجار الذي تربطك به علاقات طيبة غير مصاب بآفة أكل لحوم البشر، وردت على أسئلة البارون المتكررة: «ألن ألقى الشابين عما قليل؟»، ردت وهي على علم بما تراكم عليها من الصواعق، أنهما مأخوذان إلى أبعد الحدود بدروسهما والإعداد لرحلة، إلخ. . . إن اللامسؤولية تفاقم الأخطاء وحتى الجرائم، مهما قيل في ذلك. «لاندرو» (بافتراض أنه حقاً قتل نساء)، إن فعل ذلك ابتغاء لمنفعة، وهو ما يمكن مقاومته، يمكن أن يعفى عنه، ولا يتم ذلك إن فعل تدفعه سادية لا تقاوم. كانت مزحات «بريشو» الثقيلة في بداية صداقته مع البارون قد أخلت المكان لديه. حالما تعلق الأمر لا بإلقاء الأمور المبتذلة بل بالإدراك، لشعور مرير يحجبه المرح. كان يطمئن النفس بإلقاء صفحات لأفلاطون وإنشاد أشعار لفيرجيليوس لأنه، وهو أعمى البصيرة أيضاً، ما كان يدرك أن عشق فتى آنذاك كان كالإنفاق على راقصة في يومنا وإتباعه بخطبة (ومزحات سقراط تبرز ذلك أفضل من نظريات أفلاطون). وما كان السيد «دو شارلوس» نفسه ليدرك الأمر، هو

الذي كان يخلط بين هوسه والصداقة التي لا تشبهه في شيء، بين أبطال «براكسيتيليس»[1] وملاكمين ليني العريكة. ما كان بوده أن يتبين أن كامل اللواطية المعتادة - لواطية فتيان أفلاطون ورعاة فيرجيليوس على السواء - اختفت منذ تسعة عشر قرناً (قال «لابروبير»[2]: «لعل رجل البلاط التقى في عهد أمير تقي كان ملحداً في عهد أمير ملحد»)، وأن الوحيدة التي تطفو على السطح وتتكاثر هي اللاإرادية، العصبية، تلك التي نخفيها عن الآخرين ونبدل لبوسها بالنسبة إلينا. ولعل السيد «دو شارلوس» كان أخطأ في الامتناع عن أن ينكر صراحة النسابة الوثنية. وذلك،مقابل قليل من جمال الشكل كم من السمو الأخلاقي! إن راعي «ثيوكريتوس» الذي يتنهد في عشق شاب لن يتوافر له فيما بعد أي سبب ليكون أقل قسوة قلب وأكثر رهافة فكر من الراعي الآخر الذي يصدح نايه لـ«أماريلليس»[3]. ذلك أن الأول غير مصاب بمرض وهو ينصاع لما درج في زمانه. وإنما اللواطية التي بقيت على الرغم من العقبات، الذليلة المستهجنة، هي وحدها الحقيقية، وهي الوحيدة التي يمكن أن يقابلها لدى الشخص نفسه إرهاف للمزايا الروحية، ويرتعد المرء للصلة التي يمكن أن تكون للجسد مع هذه المزايا حينما تفكر بالانزياح الطفيف في الذوق وهو محض مادي، وبالعاهة اليسيرة في أحد الحواس، وهما يوضحان كيف تنفتح دنيا الشعراء والموسيقيين للسيد «دو شارلوس»، وهي منغلقة إلى هذا الحد على الدوق «دو غيرمانت». أما أن يكون لذاك ذوق في منزله الخاص هو ذوق مدبرة منزل جامعة تحف فليس ذلك مستغرباً؛ ولكنها الثغرة الضيقة التي تنفتح على «بيتهوفن» وعلى «فيرونيز»! بيد أن ذلك لا يعفي الأصحاء من الخوف

---

(١) أشهر نحاتي ومثالي اليونان القديمة في القرن الخامس قبل الميلاد. أفضل روائعه «رامي القرص».

(٢) كاتب من القرن السابع عشر اشتهر بكتاب «**الطبائع**» ويمتاز أسلوبه بالجزالة والإيجاز.

(٣) Amarylis: هي راعية أنشد فيها الشعر شاعر الرومان الأكبر «فيرجيليوس».

حينما يخلص مجنون ألف قصيدة رائعة، بعدما أوضح لهم بالأدلة الأكثر سداداً أنه احتُجِزَ خطأً ولسوء طوية زوجته. وتوسل إليهم أن يتدخلوا لدى مدير مشفى المجانين وتأوه من المخالطات التي تفرض عليه، حينما يخلص قائلاً: «خذوا مثلاً، هذا الذي سيأتي للتحدث وإياي في الباحة والذي أضطر لتحمل اتصاله بي يظن أنه يسوع المسيح. وهذا وحده كافٍ ليبرهن لي مع أي المجانين يحتجزونني، فلا يمكن أن يكون يسوع المسيح بما أني أنا يسوع المسيح!» كنت للحظة سبقت عازماً على المبادرة إلى التنديد بالخطأ أمام طبيب المجانين، لكنك فور الإدلاء بهذه الكلمات الأخيرة وحتى إن فكرت بالقصيدة الرائعة التي ينكب عليها الرجل نفسه في كل يوم إنما تبتعد كما كان يبتعد ابنا السيدة «دو سورجيس» عن السيد «دو شارلوس»، لا لأنه ألحق بهما أي نوع من الأذى بل بسبب فيض الدعوات التي تنتهي بأن يقرص ذقنهما. وإنما يرثى لحال الشاعر، وهو لا يرشده أي من أمثال «فيرجيليوس»، لأنه يقع عليه اجتياز دوائر جهنم التي صنعت من كبريت وزفت والارتماء في النار التي تنهمر من السماء ليستعيد منها بعضاً من سكان سادوم. إنه لا سحر في مؤلفاته، وفي حياته ذات الصرامة التي للمتخلين عن ثوب الرهبنة الذين يلتزمون قاعدة العزوبة الأكثر طهارة كي لا يمكن أن نعزو إلى غير فقدان الإيمان لهم أنهم خلعوا ثوب الرهبان. على أن الأمر ليس دوماً على هذه الشاكلة في ما يخص هؤلاء الكتاب. فأي طبيب للمجانين لم يعانِ، لكثرة مخالطتهم، نوبة جنون أصابته؟ ويا سعده إن استطاع أن يؤكد أن ما حكم عليه بالاهتمام بهم ليس جنوناً سابقاً وكافياً. إن موضوع دراسات الطبيب النفساني غالباً ما ينعكس عليه. ولكن أي ميل غامض قبل ذلك، وأي رعب ساحر جعله يختار ذاك الموضوع؟

كان البارون يتظاهر بأنه لا يرى الشخص المريب الذي تعقّب خطاه (وحينما كان يجازف بنفسه في الشوارع الكبيرة أو يجتاز جيئة ورواحاً قاعة الانتظار في محطة «سان لازار»، كان متعقبوه يعدون بالدزينات ولا يبتعدون قيد أنملة أملاً في الحصول على خمسة سنتيمات)، وكان مخافة

أن يتجرأ على التحدث إليه يخفض بورع رموشه المسودة التي تتعارض ووجنتيه المبودرتين فتجعلانه يشبه كبير مفتشين من رسم «إل غريكو». لكن هذا الكاهن كان مخيفاً ويظهر مظهر كاهن محروم، إذ كان من نتيجة مختلف الشبهات التي دفعته إليها ضرورة ممارسة ميله والحفاظ على سره أن دفعت بالضبط إلى صفحة وجه البارون ما كان يجهد في إخفائه: حياة فاسقة يرويها الانحطاط الخلقي. وإنما يقرأ هذا بيسر وأياً تكن أسبابه لأنه لا يلبث أن يتجسد ويتكاثر في الوجه، وبخاصة على الوجنتين وحول العينين وبالمقدار المادي الذي تتراكم به الألوان الصفراء الترابية في أحد أمراض الكبد أو الاحمرار المقزز في أحد أمراض الجلد. على أي حال لم يكن العيب الذي سبق أن دفع به السيد «دو شارلوس» بالأمس على نحو حميمي إلى أعمق أعماق ذاته، لم يكن الآن يطفو فحسب، وهو يمتد كبقعة الزيت، في الوجنتين، أو أسفل الوجنتين بالأحرى في هذا الوجه المخضب، وفي الصدر الأنثوي الضخم والعجز النافر في هذا الجسم المتروك نهب الإهمال والذي يجتاحه الكرش. لقد كان يفيض الآن في أقواله.

فقد قال وهو يقترب منا فيما كان الغلام الفاسق يبتعد مخيب الرجاء: «هكذا إذن يا «بريشو»، تتنزه ليلاً برفقة فتى جميل؟ شيء عظيم! سوف ننقل ذلك لتلاميذك الأعزاء في السوربون بأنك لست على درجة أعلى من الجدية. إن صحبة الشباب على أية حال توافقك يا سيادة الأستاذ، فإنك بمثل ندوة وردة صغيرة». وقال لي وهو يقلع عن لهجة المزاح: «وأنت كيف حالك يا عزيزي؟ لسنا نراك كثيراً في «رصيف كونتي» أيها الشاب الجميل، هات، وابنة عمك كيف حالها؟ إنها لم تصحبك، وإننا نأسف لذلك إذ هي فاتنة. فهل نرى ابنة عمك هذا المساء؟ آه! إنها بالغة الجمال. وربما ازدادت جمالاً لو أنها عنيت أكثر بهذا الفن الشديد الندرة الذي تملكه بطبيعتها، فن أناقة الملبس». لا بد أن أقول هنا إن السيد «دو شارلوس» كان «يملك» موهبة الملاحظة الدقيقة وتمييز التفاصيل سواء في

الملبس أو في لوحة، أي ما كان يجعل منه عكسي تماماً ويضعه مني على طرفي نقيض، ستقول بعض ألسنة السوء، أو بعض المنظرين ممن يبالغون في الجزم في ما يخص الفساتين والقبعات، إن الميل لدى الرجل إلى مفاتن الرجولة إنما يلقى تعويضه في الذوق الفطري ودراسة وعلم الملبس النسائي. وإن ذلك ليتفق وقوعه أحياناً كما لو أن الجنس الآخر، بعدما احتكر الرجال كامل الرغبة الجسدية وكامل الحنان العميق لدى أمثال «دو شارلوس»، قد وهب في المقابل كل ما كان من قبيل الذوق «الأفلاطوني» (والصفة في غير موضعها إطلاقاً) أو باختصار القول كل ما كان من قبيل الذوق إلى جانب الرهافات الأكثر براعة وسلامة. ولعل السيد «دو شارلوس» كان استحق بهذا الشأن اللقب الذي أُطلق عليه فيما بعد، لقب «الخياطة». بيد أن ذوقه، حس الملاحظة لديه كان يشمل أشياء أخرى كثيرة. لقد رأينا في المساء الذي مضيت فيه للقائه بعد عشاء في منزل الدوقة «دو غيرمانت» أني لم أنتبه للروائع التي كانت في منزله إلا بعد ان دلني عليها على التوالي. كان يتعرف في الحال ما لم يكن أحد تنبه له في يوم، وذلك في الأعمال الفنية وفي أطباق عشاء يقام على حد سواء (ويشمل ذلك كل ما كان بين الرسم والطبخ). لقد أسفت دوماً أن لا يكون السيد «دو شارلوس»، بدلاً من قصر مواهبه الفنية على رسم مروحة يدوية هدية لزوجة أخيه (وقد رأينا الدوقة «دو غيرمانت» تمسك بيدها وتفتحها لتباهي بها أكثر منها للتهوية ولتعلن على الملأ وتفاخر بصداقة «بالاميد») وإتقان عزفه على البيانو لمرافقة «سحبات» كمان «موريل» دون الوقوف في أخطاء، قلت إني أسفت دوماً ولا يزال بي أسف أن لا يكون السيد «دو شارلوس» كتب شيئاً. لا أستطيع دون شك أن أستخلص من فصاحة حديثه وحتى من رسائله أنه ربما كان كاتباً موهوباً. فليست هذه المؤهلات على ذات الخط؛ فقد رأينا قوالي تفاهات مملين يكتبون روائع الأعمال، وملوك الكلام أدنى من أكثرهم ضحالة حالما يحاولون الكتابة. بيد أني أعتقد أن لو جرب السيد «دو شارلوس» النثر، وبداية حول تلك

الموضوعات الفنية التي يعرفها تمام المعرفة لانطلقت النار والتمع البرق وأضحى رجل المجتمعات كاتباً مجلياً. وقد أفصحت له كثيراً عن ذلك فلم يشأ أن يجرب نفسه مرة في هذا المضمار، ربما بداعي الكسل المحض، أو الوقت الموقوف على الحفلات الباهرة والتسليات الدنيئة، أو الحاجة التي تطبع آل «غيرمانت» إلى إطالة الثرثرة إلى ما لا حدود. ويزداد أسفي بقدر ما لم يكن الفكر، في حديثه الأكثر تألقاً، لينفصل البتة عن الطبع، وألاقي الأول عن وقاحة الثاني. لو أنه وضع كتباً، فبدلاً من أن تكرهه وتعجب به في آن مثلما كانوا يفعلون في صالة كان فيها في فتراته الأكثر غرابة على صعيد الذكاء يدوس الضعاف ويثأر ممن لم يشتمه ويقوم بمحاولات دنيئة لإشاعة الخلاف بين الأصدقاء في الآن نفسه - لو أنه وضع كتباً لأمكن الحصول على قيمته الروحية معزولة مصفاة من شوائب الشر، وما كان لشيء أن يحول دون الإعجاب به وثمة الكثير من الملامح كانت عملت على بعث المودة.

ولعله في جميع الأحوال، وإن كنت على ضلال حول ما أمكن أن يحققه في أصغر صفحة عنده، لعله كان أدى خدمة نادرة في الكتابة لأنه إن كان يميز كل شيء فقد كان يعرف اسم كل من كان يميزه. أجل، إن لم أتعلم في حديثي معه كيف أبصر (كان اتجاه فكري وشعوري في مكان آخر)، فقد أبصرت على الأقل أشياء كانت لبثت غير مرئية في ما يخصني، لكن اسمها الذي كان أعانني ربما على العثور على رسمها ولونها، اسمها ذاك نسيته دوماً بسرعة كبيرة. لو أنه وضع كتباً، وإن سيئة، وهي صفة لا أظنها كانت تكتسبها، فأي معجم رائع وأية ذخيرة لا نفاد لها؛ وبعد، من ذا يعلم؟ فربما كان، بدلاً من استخدام معرفته وذوقه، وبفعل هذا الشيطان الذي يعاكس أقدارنا، ربما كان كتب روايات مسلسلة تافهة وقصص رحلات ومغامرات لا طائل تحتها.

وأردف السيد «دو شارلوس» يقول بشأن «ألبيرتين»: «أجل، هي تعرف كيف ترتدي ملابسها أو بكلمة أدق كيف تختار أثوابها. وشكي

الوحيد إن كانت تختار أثوابها بما يتفق وجمالها الخاص، وربما كنت على أي حال أحمل شيئاً من مسؤولية ذلك بفعل نصائح لا تتصف بالتعقل الكافي. إن ما قلته لها مرات كثيرة ونحن في الطريق إلى قصر «لا راسبليير»، والذي كان يمليه - وإني نادم على ذلك - طابع المنطقة وقربها من الشواطئ أكثر منه الطابع الفردي للنمط الذي تمثله ابنة عمك، إنما جعلها تفرط قليلاً في الانزلاق إلى النمط الخفيف. لقد رأيتها ترتدي، وأقر بذلك أقمشة جميلة من الشاش الشفاف وشالات رائعة من الشف وقلنسوة وردية ما كانت تشوهها ريشة وردية صغيرة. بيد أني أعتقد أن جمالها، وهو حقيقي مصمت الكتلة، يتطلب أكثر من هذه الخرق اللطيفة. وهل تناسب القلنسوة تماماً هذا الشعر الهائل الذي لن يسهم التاج الصغير إلا بمحض إبرازه؟ ثمة قلة من النساء تناسبها الفساتين القديمة التي توحي باللباس الرسمي والمرح. لكن جمال هذه الفتاة، وهي منذ الآن امرأة، يشكل استثناء وقد يستحق فستاناً قديماً من مخمل «جنوى» (وفكرت في الحال بـ«إيلستير» وبفساتين «فورتوني») لن أخشى إثقالها بتنزيلات أو بذوائب لأحجار رائعة متقادمة الزي (وهو أجمل مديح يمكن أن نقوله فيها) من نوع الزبرجد والمرقشيتا واللابرادور الذي لا مثيل له. ويبدو على أي حال أنها تملك بالسليقة المقابل الذي يستدعيه جمال على شيء من الثقالة. هيا تذكر كل تلك الأحمال من العلب الجميلة وحقائب اليد الثقيلة للذهاب لتناول العشاء في «لا راسبليير»، الحقائب التي سيسعها بعد أن تزوجت أن تضع فيها أكثر من بياض البودرة أو الحمرة القرمزية، بل تضع - ضمن صندوقة لازوردية غير مفرطة الزرقة - بياض وحمرة اللآلئ والياقوت التي لم يعد تركيبها فيما أظن إذ يمكن أن ترتبط بزوج ثري».

وقطع «بريشو» عليه حديثه، وقد خشي أن أغتم لهذه الكلمات الأخيرة إذ كانت تساوره الشكوك حول براءة علاقاتي وصحة قرابتي مع «ألبيرتين»: «عجباً أيها البارون! هكذا إذن تهتم بالآنسات!» فقهقه السيد «دو شارلوس» يقول: «هلا صمت في حضرة هذا الصغير، أيها الجرب

الشرير»، يقول، وهو يخفض في حركة من يفرض على «بريشو» أن يصمت، يداً لم يفته أن يستقر بها على كتفي.

«لقد أزعجتكما، وبدا أنكما كنتما تلهوان كمجنونتين صغيرتين وما كانت بكما حاجة إلى جدة عجوز تنكد صفوكما كحالي أنا. لن أمضي إلى كرسي الاعتراف لذلك بما أنكما كنتما قد وصلتما تقريباً. «كان مزاج البارون يزداد مرحه بقدر ما كان يجهل جهلاً تاماً خصام بعد الظهر، إذ رأى «جوبيان» أن حماية ابنة أخيه من كرّة هجومية أخرى أجدى من المبادرة إلى إخطار السيد «دو شارلوس». لذلك كان هذا الأخير ماضياً في اعتقاده بالزواج ويبتهج للأمر. لكأنما ذلك عزاء لأولئك المتوحدين الكبار أن يولوا عزوبيتهم المأساوية الهدأة الناجمة عن أبوة وهمية. وأضاف وهو يتوجه إلينا ضاحكاً: «وشرفي يا «بريشو» إني أتحير وأنا أراك بهذه الصحبة الرقيقة. تهيأ لي أنكما عاشقان. ويتأبط كل منكما ذراع الآخر، يا لك يا «بريشو»، تتصرف غير مبال بما تفعل!» أكان ينبغي أن نعزو مثل تلك الأقوال إلى تشيّخ فكر أقل تحكماً من الأمس بردود فعله ويسمح في لحظات تتسم بالآلية بإفلات سر دفن بهذا القدر من العناية على مدى أربعين عاماً؟ أم إلى ذاك الازدراء لرأي العامة من الناس الذي يبديه في الأساس آل «غيرمانت» جميعاً والذي كان الدوق، شقيق السيد «دو شارلوس»، يقدم شكلاً آخر منه حينما كان لا يأبه البتة بأن تستطيع أمي أن تراه، فيهتم بحلاقة ذقنه أمام النافذة وقد حلت أزرار قميص نومه؟ هل اتخذ السيد «دو شارلوس» في أثناء المشاوير الحارقة من «دونسيير» إلى «دوفيل» العادة الخطرة التي قوامها أن يأخذ راحته وأن يخفف، مثلما كان يردّ إلى الخلف قبعته التي من قش لترطيب جبهته الهائلة، من إحكام القناع، على مدى لحظات فحسب في البداية، القناع الذي أحكم لصقه منذ فترة طويلة جداً على وجهه الحقيقي؟ ولعل تصرفات السيد «دو شارلوس» الزوجية مع «موريل» كانت أدهشت وبحق من علم. أنه لم يعد يحبه. لكنما اتفق للسيد «دو شارلوس» أن أضجرته رتابة الملذات التي

توفرها نزعته الشريرة. وقد بادر غريزياً إلى البحث عن مآثر جديدة، وبعد أن أعياه المجهولون الذين كان يصادفهم انتقل إلى القطب المعاكس، وما كان ظن أنه كارهه أبداً، إلى تقليد «العائلة» أو «الأبوة». وما كان ذلك حتى يكفيه أحياناً فكان لا بد من جديد يتوافر له، فإذا به يمضي لقضاء الليل مع امرأة، تماماً مثلما يمكن أن يكون ابتغى رجل طبيعي مرة في حياته مضاجعة صبي، يدفعه فضول مماثل ومعاكس وفي كلا الحالين غير سليم ههنا وهناك. إن حياة البارون «مخلصاً» لا يعيش بسبب «شارلي»[1]، إلا داخل العشيرة الصغيرة كان لها، لتحطيم الجهود التي بذلها زمناً طويلاً للحفاظ على مظاهر كاذبة، ذات التأثير الذي لرحلة استكشافية أو إقامة في المستعمرات على بعض الأوروبيين الذين يفقدون فيها المبادئ الموجهة التي كانت تقود خطاهم في فرنسا. ومع ذلك كانت الثورة الداخلية لفكر جهل في البداية الشذوذ الذي يحمله في ذاته، ثم ارتاع إزاءه بعدما تعرفه وألفه في نهاية المطاف حتى لا يتبين من بعد أنه لا يسع المرء دون مخاطرة أن يقر للآخرين بما خلص إلى الإقرار به دون وجل لذاته، كانت بعدُ أكثر نجاعة لفصل السيد «دو شارلوس» عن آخر القيود الاجتماعية من الوقت الذي أمضاه لدى آل «فيردوران». ذلك أنه ليس من منفى في القطب الجنوبي أو على قمة «الجبل الأبيض» «مون بلان» يبعدنا عن الآخرين بقدر ما تفعل إقامة مطولة داخل رذيلة جوانية، يعني فكراً مختلفاً عن فكرهم، رذيلة (وتلك كانت الصفة التي كان السيد «دو شارلوس» ينعتها بها فيما مضى)، كان البارون يلبسها الآن الهيئة الطيبة السمحة التي لعيب بسيط كثير الشيوع هو بالأحرى قريب من القلب ويكاد يكون ممتعاً، كالكسل أو اللهو أو الشراهة. كان السيد «دو شارلوس» إذ يحس بضروب الفضول التي تثيرها خصوصية شخصيته يشعر بشيء من المتعة في إرضائها واستثارتها وتغذيتها. ومثلما ينصّب هذا الصحفي اليهودي من نفسه كل

---

(١) أي «شارل موريل».

يوم مدافعاً عن الكاثوليكية دونما أمل منه على الأرجح في أن يؤخذ على محمل الجد وإنما بغية أن لا يخيّب آمال المتهكمين المتسامحين، كان السيد «دو شارلوس» يندد بصورة طريفة بمساوئ الأخلاق، داخل العشيرة الصغيرة، كما لعله كان قلد الإنكليزية أو حاكى «مونيه سوللي»[1] دون انتظار من يرجوه في ذلك وكيما يدلي بدلوه راضياً وهو يمارس في المجتمع موهبة هاو؛ وهكذا كان السيد «دو شارلوس» يهدد «بريشو» بأن يبلغ السوربون أنه يتجول الآن بصحبة شبان بالطريقة نفسها التي يتكلم بها مؤرخ اليوميات المختون في كل لحظة عن «ابنة الكنيسة البكر»[2] و«قلب يسوع المقدس»، أي دون ذرة من نفاق وإنما بشيء من التظارف. ثم إنه ليس من الطريف أن نبحث عن تفسير تبدل الكلمات ذاتها فحسب، وهي كبيرة الاختلاف عن تلك التي كان يجيزها لنفسه فيما مضى، بل كذلك التبدل الذي حل في النبرات والحركات، وكانت هذه وتلك تشبه الآن إلى حد غريب ما كان السيد «دو شارلوس» يندد به أعنف التنديد فيما مضى. كان يطلق الآن لا إرادياً ما يقرب أن يكون الصيحات الصغيرة - وهي لا إرادية لديه - وتزداد عمقاً بذاك المقدار -التي يطلقها الشاذون، ويفعلون قاصدين في ما يخصهم، وهم يتنادون داعين بعضهم «يا عزيزي»؛ كما لو لم تكن هذه البهرجة المقصودة، التي سبق أن اتخذ السيد «دو شارلوس» على مدى فترة طويلة جداً النقيض منها، سوى محاكاة عبقرية أمينة للتصرفات التي يفلح في اتخاذها أمثال السيد «دو شارلوس» بعدما يبلغون مرحلة معينة من عاهتهم، مثلما يبلغ حتماً بالمصاب بشلل عام أو بالاختلاجي أن يبرز للعيان بعض الأعراض، وفي الواقع لم يكن بين «شارلوس» الصارم الذي يلتحف السواد والقصير الشعر الذي سبق أن عرفته، لم يكن بينه - وهو ما كانت تكشف عنه تلك البهرجة الداخلية

---

(١) Mounet - sully ممثل فرنسي من أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

(٢) اللقب الذي يطلقونه في الأوساط الكاثوليكية على «فرنسا».

البحتة - وبين الفتيان المخضبين المثقلين بالمجوهرات سوى هذه الفارق الظاهري الخالص الكائن بين شخص مضطرب يتحدّث بسرعة ويتحرك طوال الوقت ومصاب بمرض عصبي يتحدث ببطء ويحافظ على برودة دائمة ولكنه مصاب بالوهن العصبي نفسه في نظر الطبيب السريري الذي يعلم أن هذا وذاك على السواء تتآكلهما الكروب نفسها ويعانيان من ذات العاهات. كان يبرز للعيان على أية حال أن السيد «دو شارلوس» قد شاخ من علامات مختلفة تمام الاختلاف، من مثل المساحة الغريبة التي شغلتها في حديثه بعض العبارات التي تكاثرت وتتردد الآن في كل لحظة («تسلسل الظروف» على سبيل المثال) والتي كان كلام البارون يستند إليها من جملة إلى جملة كأنما إلى وصي لا بد منه. وسأل «بريشو» السيد «دو شارلوس» فيما كنا نزمع أن نقرع جرس باب الفندق: «هل وصل «شارلي»؟ «فقال البارون» «آه! لست أدري»، قال وهو يرفع يديه في الهواء والعين منه نصف مطبقة بمظهر من لا يريد أن يتهم بالتطفل ولا سيما أنه وجهت إليه على الأرجح صنوف من اللوم من جانب «موريل» على أشياء كان البارون قالها (وكان «موريل»، وهو خواف بقدر ما هو مغرور، ومنكر للسيد «دو شارلوس» بمثل ما يبدي من رضي إذ يتباهى به، قد ظنها خطيرة - مع أنها تافهة). «تعلم أني لا أعرف شيئاً مما يفعله. ولست أعلم مع من يخونني، فإنني أكاد لا أراه». ولئن عجّت أحاديث شخصين يقيمان علاقة بينهما بالأكاذيب فإن هذه لا تنشأ بصورة أقل تلقائية في الأحاديث التي يعقدها شخص ثالث مع عشيق حول الشخص الذي يحبه هذا الأخير، وأياً كان على أي حال جنس هذا الشخص.

وسألت السيد «دو شارلوس»: «وهل رأيته منذ زمن طويل؟» كي يبدو أني في ذات الآن لا أخشى محادثته عن «موريل» ولا أعتقد أنه يعيش تماماً وإياه. «لقد جاء مصادفة هذا الصباح مدة خمس دقائق فيما كنت بعد نصف نائماً، جاء ليجلس في زاوية سريري كما لو يبغي اغتصابي». وخطرت لي في الحال فكرة قوامها أن السيد «دو شارلوس» قد التقى

«شارلي» لساعة خلت، فإنك حين تسأل عشيقة متى رأت الرجل الذي يعلم الناس - وتفترض هي ربما أنهم يعتقدون - أنه عشيقها تجيبك، إن هي تناولت العصرونية وإياه: «لقد ألتقيته لحظة قبل طعام الغداء». والفارق الوحيد بين هاتين الواقعتين أن الواحدة كاذبة والأخرى صحيحة، ولكن الواحدة بمقدار براءة، أو إن شئت، بمقدار ذنب تلك. وقد لا نفهم لذلك لماذا تختار العشيقة دوماً (والسيد «دو شارلوس» هنا) الواقعة الكاذبة إن لم نعلم أن هذه الإجابات إنما يحددها، دون علم الشخص الذي يقدمها، عدد من العوامل يبدو غير متناسب وضآلة الواقعة إلى حد أننا نعتذر عن ذكرها. لكن المكان الذي تشغله أصغر حبة بيلسان إنما يفسره فعل أو نزاع أو توازن قوانين جذب ونبذ تحكم عوالم أكبر كثيراً. عنا لا نشير هنا إلا بقصد التذكير إلى الرغبة في الظهور مظهراً طبيعياً جسوراً، والمبادرة الغريزية إلى إخفاء موعد سري، وخليط من الاحتشام والتباهي، والرغبة في الإقرار بما يروقك إلى أبعد حد وأن تبدي أنك محبوب، واختراق ما يعلم أو يفترض - ولا يقول - محادثك، اختراق يتجاوز أو يقصر عن اختراقه فيرفع أو يحط من قدره، والتوق اللاإرادي إلى اللعب بالنار والعزم على خسارة شيء كي لا يضيع كل شيء. والمقدار نفسه من القوانين المختلفة التي تعمل في اتجاه عكسي بملء الأجوبة الأكثر عمومية المتعلقة بالبراءة وبالأفلاطونية، أو خلافاً لذلك بالواقع الجسدي وبعلاقات نقيمها مع الشخص الذي نقول إنا رأيناه في الصباح حينما نكون رأيناه في المساء. ولكن فلنقل بشكل عام إن السيد «دو شارلوس»، على الرغم من تفاقم دائه، وكان يدفعه على الدوام إلى أن يكشف، أن يلمح وأحياناً أن يبتدع فحسب تفاصيل تعرضه للشبهات، كان يحاول في هذه الفترة من حياته أن يؤكد أن «شارلي» لم يكن من ذات طينته، هو «شارلوس»، وأن لم يكن بينهما سوى الصداقة. وما كان ذلك يحول (ومع أن الأمر ربما كان صحيحاً) دون أن يناقض نفسه أحياناً (كما هو شأن الساعة التي التقاه فيها آخر مرة)، كأن يقول الحقيقة حينئذ وقد نسي نفسه، أو يطلع بكذبة

للتبجح أو تصنعاً للعاطفة أو لأنه يرى الظرف أن يضيع محدثه. واستطرد البارون قائلاً: «تعلم أنه بالنسبة إليّ رفيق طيب عزيز أكنّ له أعظم المودة مثلما أنا متيقن أنه يكنّ لي (فهل كان يخامره الشك حتى يحس بحاجة أن يقول إنه متيقن من ذلك؟)، ولكن ليس بيننا شيء آخر، لا شيء من ذلك، تفهمني تماماً، لا شيء من ذلك»، يقول البارون بلهجة طبيعية كما لو أنه تحدث عن سيدة. «أجل لقد جاء هذا الصباح يجرّني من قدمي. مع أنه يعلم أني أكره أن يراني الناس مستلقياً. ألست تكره أنت؟ آه! يالفظاعة الأمر، ذلك مزعج، وإنك لقبيح حتى لتثير الرعب. أعلم أني لم أعد في الخامسة والعشرين ولست أتصنع موقف الفتاة الفاضلة ولكن المرء يحتفظ مع ذلك بشيء من الغنج والدلال».

من الممكن أن يكون البارون صادقاً حينما كان يتكلم عن «موريل» وكأنما عن رفيق طيب عزيز، وأن يقول الحقيقة ربما وفي ظنه أنه يكذب حين كان يقول: «لست أعلم ما يفعل وإني جاهل بأمور حياته». وبالفعل هيا نقل (كيما نستبق بضعة أسابيع القصة التي ستعود إليها في الحال بعد هذا القوس الذي نفتحه في أثناء توجهنا أنا والسيد «دو شارلوس» والسيد «بريشو» صوب مسكن السيدة «فيردوران»)، هيا نقل إن البارون غرق بعد هذه الأمسية بوقت قليل في بحر من الألم والذهول جراء رسالة فتحها خطأً وكانت موجهة إلى «موريل». كانت تلك الرسالة التي ستسبب لي بصورة غير مباشرة غموماً مريرة قد خطتها الممثلة «ليا» المشهورة بالميل الحصري الذي بها إلى النساء. على أن رسالتها إلى «موريل» (وما كان السيد «دو شارلوس» يرتاب حتى بمعرفتها) كانت مكتوبة باللهجة الأشد هياماً. هذا، وإن بذاءتها لتحول دون استعادتها هنا، ولكنما يسعنا أن نذكر أن «ليا» كانت تخاطبه بصيغة المؤنث حصراً فتقول له: «يا لك قذرة مريعة!»، «يا حبيبتي الجميلة، أنت منهن على الأقل، إلخ.». كانت الرسالة تتناول عدة نساء أخريات ما كان يبدو أنهن أقل صداقة لـ«موريل» منهن لـ«ليا». ثم إن هزء «موريل» من السيد «دو شارلوس»، و«ليا» من

ضابط كان ينفق عليها وتقول عنه: «إنه يتوسل إليّ في رسائله أن أكون متعقلة! صدق إن شئت! يا هري الأبيض العزيز»، لم يكن ليكشف للسيد «دو شارلوس» حقيقة هي أقل توقعاً لديه مما هي العلاقات الخاصة جداً بين «موريل» و«ليا». كان البارون مشوشاً على وجه الخصوص جراء هذه الكلمات: «كان من الجماعة». فبعدما جهل ذلك بادئ الأمر، بلغه في نهاية المطاف، منذ فترة أصبحت طويلة، أنه هو أيضاً «من الجماعة». وإذا بهذا المفهوم الذي اكتسبه يعاد النظر فيه. فإنه حينما اكتشف أنه «من الجماعة» ظن أنه يعلم بذلك أن ميله، كان يقول «سان سيمون»، لم يكن ميلاً إلى النساء. وإذا بعبارة «كان من الجماعة» تتخذ في ما يخص «موريل» مساحة لم يسبق أن عرفها السيد «دو شارلوس» إلى حد أن كان «موريل» وفقاً لهذه الرسالة يقيم البرهان على أنه «من الجماعة»، وهو يحمل ذات الميل الذي للنساء إلى النساء. ولم يعد من داع، والحالة هذه، أن تقتصر غيرة السيد «دو شارلوس» على الرجال الذين يعرفهم «موريل»، بل هي ستشمل النساء أنفسهن. وهكذا لم يكن الأشخاص «الذين من الجماعة» أولئك الذين كانوا موضع اعتقاده فحسب، بل قسم كامل وضخم من الكوكب يضم على حد سواء نساء ورجالاً لا يحبون الرجال فحسب بل النساء، وأخذ البارون يحس، إزاء المدلول الجديد لكلمة كانت مألوفة جداً لديه، عذاباً يبعثه فيه العقل والقلب على حد سواء قبالة هذا السر المزدوج الذي يشتمل في ذات الوقت على تعاظم نطاق غيرته والقصور المفاجئ لأحد التعاريف. 

لم يكن السيد «دو شارلوس» في الحياة يوماً إلا هاوياً. وذلك يعني أن حوادث من هذا القبيل ما كان يمكن أن تفيده في شيء البتة، فقد كان يحول الانطباع المكدر الذي يمكن أن يحس به جراءها إلى شجارات عنيفة يعرف كيف يكون بليغاً فيها، أو إلى دسائس ماكرة. ولعلها كان يمكن أن تكون ثمينة في نظر شخص له قدر «بيرغوت» على سبيل المثال، بل ربما كان ذلك ما يفسر جزئياً (بما أننا نتحرك على غير هدى ولكنما نختار على غرار

الحيوانات النبات الذي يواتينا) أن يعيش أفراد مثل «بيرغوت»، أن يعيشوا بعامة بصحبة نساء ضحلات زائفات وشريرات. فإن جمالهن يكفي خيال الكاتب ويستثير طيبته ولكنه لا يغير في شيء طبيعة رفيقته التي تبرز بين الحين والآخر. كخطف بروق، حياتها الواقعة على آلاف الأمتار تحتها، وعلاقاتها العجيبة وأكاذيبها المتمادية إلى ما كان أبعد مما نعتقده، بل على وجه الخصوص في غير الاتجاه الذي كان يمكن أن نعتقده. إن الكذب، الكذب الكامل حول الناس الذين نعرفهم والعلاقات التي أقمناها معهم، والدافع إلى هذا العمل أو ذاك والذي نعلن عنه بطريقة مختلفة تمام الاختلاف، الكذب حول ما نحن عليه وحول ما نحب وحول ما نحس به إزاء الشخص الذي يحبنا والذي يظن أنه صاغنا على مثاله لأنه يعانقنا طوال النهار، ذاك الكذب هو واحد من الأشياء الوحيدة في العالم التي يمكن أن تفتح أمامنا آفاقاً على الجديد والمجهول، التي يمكن أن تفتح في داخلنا حواس غافية من أجل تأمل أكوان ما كنا لنعرفها في يوم. ولا بد أن نقول في ما يخص السيد «دو شارلوس» إنه إن أذهله أن يطلع بخصوص «موريل» على عدد من الأمور سبق أن أخفاها عنه بعناية فقد أخطأ في استخلاصه منها أن من الضلال مصادفة جماعة من العامة وأن إنشاءات قاسية إلى هذا الحد[1] (وكان أقساها ذاك الذي كشف عن رحلة كان قام بها «موريل» بصحبة «ليا» فيما أكد للسيد «دو شارلوس» أنه كان في ذلك الوقت يقوم بدراسة الموسيقى في ألمانيا. وكان قد استخدم لبناء كذبته متطوعين أرسل لهم رسائله إلى ألمانيا فأعيد إرسالها من هناك إلى السيد «دو شارلوس» الذي كان على أشد اليقين بأن «موريل» كان هناك إلى حد أنه لم ينظر حتى إلى الطابع البريدي). وسوف نرى بالفعل في آخر جزء من هذا المؤلف السيد «دو شارلوس» يقوم بأمور لعلها كانت أذهلت أفراد عائلته وأصدقاءه أكثر بعد مما أمكن أن تفعل به الحياة التي أماطت «ليا» اللثام عنها.

---

(١) وردت الجملة ناقصة في متن النص.

لكن آن الآوان للحاق بالبارون الذي يتقدم مصحوباً بي وبـ«بريشو» باتجاه باب آل «فيردوران». وأردف يقول وهو يتوجه إليّ: «وما الذي حل بصديقك العبراني الشاب الذي كنا نراه في «دوفيل»؟ فقد خطر لي أنه ربما أمكن أن ندعوه ذات مساء إن سركم ذلك». فما كان السيد «دو شارلوس»، وهو يكتفي بطلب التجسس دون حياء على حركات وسكتات «موريل» من جانب وكالة بوليسية تماماً كما هو أمر زوج أو عشيق، ما كان ينفك ينتبه للشبان الآخرين. كانت الرقابة التي يكلف خادماً عجوزاً بطلب ممارستها من جانب إحدى الوكالات على «موريل» قليلة التكتم إلى حد يظن الندل معه أنهم متعقبون، ولا تعيش معه وصيفة من بعد ولا تجرؤ على الخروج من بعد في الشارع إذ تظن دوماً أن شرطياً يتعقبها. وكان الخادم العجوز يصرخ بلهجة ساخرة: «بوسعها أن تفعل ما تشاء! وقد تضيع وقتك ومالك في تعقبها! وكأنما يهمنا سلوكها في كثير أو قليل!» إذ كان شديد الشغف في تعلقه بسيده إلى حد أنه كان في نهاية المطاف يتحدث عن ميول البارون وكأنما هي ميوله لكثرة ما يبدي من اندفاع حماسي في خدمتها، مع أنه لا يشاطر البتة ميول البارون تلك. وكان السيد «دو شارلوس» يقول عن ذاك الخادم العجوز: «إنه زبدة الطيبين»، لأنك لا تقدر البتة شخصياً بقدر ما تفعل إزاء الذين يجمعون إلى فضائل عظيمة مزية أنهم يضعونها دون حساب في تصرف معايبنا. كان بوسع السيد «دو شارلوس» على أية حال أن يحس بالغيرة من الرجال فحسب في ما يتعلق بـ«موريل». أما النساء فما كن يوحين بشيء منها. وتلك في جميع الأحوال هي القاعدة العامة تقريباً بالنسبة إلى أمثال «شارلوس». إن حب الرجل الذي يحبونه لامرأة أمر مختلف، أمر يجري في جنس حيواني آخر، (فالأسد يدع النمور وشأنها)، ولا يزعجهم بل يطمئنهم بالأحرى. صحيح أن هذا الحب يثير أحياناً قرف الذين يجعلون من الشذوذ كهنوتاً. حينذاك تراهم يحقدون على صديقهم لأنه انصرف إليه. لا بما هو خيانة، بل بما هو انحطاط خلقي. ولعل واحداً من أمثال «شارلوس» ومن غير

نوعية البارون، لعله كان اغتاظ لرؤيته «موريل» يقيم علاقات مع امرأة كما لعله كان اغتاظ لقراءته في إعلان أنه مقبل، هو مؤدي أعمال «باخ» و«هاندل» على عزف أعمال «بوتشيني». ولهذا السبب على أية حال نرى الشبان الذين يتنازلون بداعي المصلحة لحب أمثال «شارلوس»، نراهم يؤكدون لهم أن الاتصالات الجنسية لا تثير فيهم سوى الاشمئزاز كما قد يقولون للطبيب إنهم لا يتعاطون الكحول إطلاقاً ولا يحبون سوى الماء القراح، على أن السيد «دو شارلوس» كان في هذه النقطة يحيد قليلاً عن القاعدة المعتادة، كان معجباً بكل شيء لدى «موريل» فتبعث في نفسه نجاحاته النسائية، إذ هي لا تقلقه، ذات المسرة التي تبعثها نجاحاته في الأداء الجماعي أو العزف الانفرادي. «ولكن، تدري يا عزيزي، إنه ينصرف إلى النساء»، يقول قول من يفشيء، من يستنكر أمراً، قول حاسد ربما، ومعجب على وجه الخصوص. ويضيف قائلاً: «إنه عجيب، فهو في كل مكان محط أنظار أبرز بنات الهوى، وهو يسترعي الانتباه في كل مكان، في «الميترو» والمسرح على السواء. وذلك مصدر إزعاج! فلست أستطيع مرافقته إلى المطعم دون أن يحمل إليه النادل وريقات غزلية من نسوة ثلاث على الأقل. ودوماً من الجميلات بعد. وليس الأمر خارقاً على أية حال. لقد كنت أنظر إليه بالأمس، وإني أفهمهن، فقد أصبح عظيم الجمال، كأني به ما كان من قبيل «برونزينو»[1]، حقاً إنه رائع». لكن كان يحلو للسيد «دو شارلوس» أن يبدي أنه يحب «موريل» وأن يقنع الآخرين، وربما أن يقنع نفسه، بأنه موضع حبه. كان يبدي في الاحتفاظ به طوال الوقت إلى جانبه، وعلى الرغم من الأذى الذي يمكن أن يلحقه هذا الفتى الصغير بمكانة البارون الاجتماعية، ما يشبه الاعتزاز بالنفس. ذلك أنه كان قد بلغ تلك النقطة (والحالة هذه كثيرة الحدوث، حالة أناس على رصانة كبيرة وحذلقة يحطمون من زهو كامل علاقاتهم كي يشاهدوا

(١) رسام من فلورنسا في بلاط آل «ميديتشي» في القرن السادس عشر.

أنهم كانوا برفقة عشيقة، هي داعرة أو سيدة شوهاء لا تلقى الترحاب ويبدو لهم مع ذلك أن الارتباط بصداقتها يرفع من شأنهم)، النقطة التي يضع فيها الاعتزاز بالنفس كل دابة في تهديم الأهداف التي بلغها. إما لأننا نلقى بفعل الحب سحراً ندرك وحدنا في علاقات متباهية مع من نحب، وإما لأن هذه العلاقات بفعل تراجع الطموحات المجتمعية التي بلغت مبتغاها وتصاعد موج صنوف الفضول الذي تثيره الخادمات، وهو يستحوذ عليك على نحو يتزايد بقدر ما هو أكثر أفلاطونية، لم تبلغ فحسب، بل هي تجاوزت المستوى الذي تصادف العلاقات الأخرى مشقة في المكوث فيه.

أما بخصوص الفتيان الآخرين فقد كان السيد «دو شارلوس» يرى أن وجود «موريل» لم يكن عائقاً لميله إليهم، بل يمكن أن يشكل صيته الباهر كعازف كمان أو شهرته الوليدة كمؤلف وكصحفي طعماً لهم في بعض الأحوال. فإن قدموا للبارون مؤلفاً شاباً تروق هيئته فإنما كان يبحث في نطاق مواهب «موريل» عن فرصة القيام بمجاملة للوافد الجديد. كان يقول له: «يجدر بك أن تأتيني بمقطوعاتك الموسيقية كي يعزفها «موريل» في الحفل الموسيقي أو في جولاته. فما أقل الموسيقى الممتعة التي كتبت من أجل الكمان! ومن حسن الحظ أن تلقى الجديد منها! وأن الأجانب يقدرون ذلك كثيراً. ثمة حتى خارج العاصمة دوائر موسيقية صغيرة يحبون فيها الموسيقى بحماسة ودراية رائعتين». ودون أن يكون أكثر صدقاً (فما كان كل ذلك إلا بمثابة طعم ونادراً ما كان «موريل» يرتضي القيام بإنجازات) قال لي السيد «دو شارلوس»، بعدما قال «بلوك» إنه شاعر بعض الشيء وأضاف قوله «حسب التجليات»، بتلك الضحكة المتهكمة الجارحة التي يرفقها بقول تافه حين لا يستطيع العثور على كلمة طريفة: «هيا قل لهذا الفتى الإسرائيلي[1] إنه يجدر به، بما أنه يقرظ الشعر، أن يجيئني بشيء منه لـ«موريل»، فتلك هي العقبة دوماً بالنسبة للمؤلف، أن يعثر على

(١) بالمعنى الديني القديم.

شيء جميل يضع موسيقاه. بل ربما أمكن التفكير بكراس موسيقي. وقد لا يكون ذلك خلواً من الإثارة وربما اكتسب بعض القيمة بسبب جدارة الشاعر وحمايتي وجملة من الظروف المساعدة المترابطة التي تشغل موهبة «موريل» الموقع الأول بينها. فإنه يؤلف كثيراً الآن ويكتب أيضاً وبأسلوب جميل جداً. وسأحدثك عن ذلك. فأما موهبته كعازف (وهنا تعلم أنه أصبح أستاذاً بالتمام والكمال) فسترى هذا المساء كيف يجيد هذا الصبي عزف موسيقى «فانتوي». إنه يذهلني، في سنه ويملك فهماً كهذا فيما يظل صغيراً إلى هذا الحد، تلميذاً إلى هذا الحد. آه! إنها في هذا المساء محض تجربة صغيرة. أما الحفلة الكبرى فستقام بعد بضعة أيام. لكن الأمر سيكون أكثر أناقة اليوم. لذلك ترانا في أشد الغبطة أن تكون أتيت»، يقول وهو يستعمل صيغة الجمع دونما شك لأن الملك يقول: نريد. «وسبب هذا البرنامج الرائع أشرت على السيدة «فيردوران» أن تقيم احتفالين، أحدهما بعد بضعة أيام يكون فيه سائر معارفها، والآخر هذا المساء حيث «المعلمة» لم تعد «مكلفة» بالدعوى كما يقال في لغة القضاء. أنا من وجه الدعوات وقد دعوت بعض أناس ظرفاء من وسط آخر يمكن أن يفيدوا «شارلي» ويروق لآل «فيردوران» أن يتعرفوا إليهم. أليس أنه من أحسن الأمور أن تعمل على عزف أجمل الأشياء على يد أعظم الفنانين. ولكن التظاهرة تبقى مكتومة الأنفاس وكأنما في القطن إن كان الجمهور مؤلفاً من السمّانة التي قبالتنا والبقال الذي في الزاوية. تعلم ما هي فكرتي عن المستوى الفكري لأهل المجتمع، لكن بوسعهم أن يلعبوا بعض أدوار على قدر من الأهمية، ومن بينها الدور المخصص للصحافة في ما يخص الأحداث العامة وهو أن تكون هيئة ذيوع وانتشار. أنت تدرك ما أود قوله، فقد دعوت مثلاً زوجة أخي «أوريان». ليس أكيداً أنها ستأتي، بيد أن الأكيد في المقابل أنها لن تفهم شيئاً البتة إن هي أتت. ولكن لا يُطلب منها أن تفهم، فإن ذلك يفوق إمكاناتها، بل أن تتكلم. وذلك يناسبها بصورة رائعة ولن يفوتها أن تقوم به. والنتيجة: «منذ الغد، وبدلاً من

سكوت السمانة والبقال، تراه حديثاً حامياً في منزل آل «مورتمار» حيث تحكي «أوريان» أنها سمعت أشياء رائعة وأن واحداً يدعى «موريل» إلخ...، ثم هو حنق لا يوصف يعتري غير المدعوين الذين سيقولون: «لقد حكم «بالاميد» دون شك أننا غير جديرين؛ وعلى أي حال، من عساهم يكونون، أولئك الناس الذين جرى ذلك في منزلهم»؛ وهذا المقابل مفيد بقدر مدائح «أوريان» لأن اسم «موريل» يتكرر دون انقطاع وينحفر في النهاية في الذاكرة مثل درس تقرؤه عشر مرات على التوالي: كل ذلك يؤلف سلسلة من الظروف يمكن أن تكون ثمينة بالنسبة إلى الفنان وإلى سيدة البيت وأن تفيد على نحو ما كمضخم للصوت بالنسبة إلى تظاهرة سيمكن سماعها من جانب جمهور بعيد. الأمر جدير بأن تحضره، حقاً. وسترى ما أحرز من تقدم. لقد عثروا له على أية حال على موهبة جديدة يا عزيزي، فهو يكتب كالملاك، قلت لك كالملاك».

«أنت يا من تعرف «بيرغوت»، لقد ظننت أنه ربما وسعك، إذ تنشط ذاكرته حول مقطوعات هذا الشاب النثرية، أن تسهم معي في النهاية، أن تعينني على إنشاء ترابط ظروف قادرة على تشجيع موهبة مزدوجة، موهبة موسيقي وكاتب يمكن أن يكتسب ذات يوم مهابة ما تمتع بها «برليوز»، ترى تماماً ما يستحسن أن تقوله لـ«بيرغوت». تدري، غالباً ما يتفق للمشاهير أمر آخر يفكرون فيه، فهم مدللون ويكادون لا يهتمون إلا بذواتهم. لكن «بيرغوت» وهو حقاً بسيط وخدوم، لا بد سيمرر هذه الأخبار الصغيرة، ونصفها لصاحب دعابة وموسيقى، وهي بالحقيقة حلوة جداً، في صحيفة «لو غولوا» أو حيث لم أعد أدري، وسوف يسرني سروراً بالغاً أن يضيف «شارلي» إلى كمانه هذا النزر اليسير من هواية الكتابة لديه. أعلم تمام العلم أني أستسهل المغالاة حينما يتعلق الأمر به على غرار سائر الأمهات المسنات المتساهلات في المعهد الموسيقي، عجباً، أما كنت تعرف ذلك يا عزيزي؟ ذلك أنك لا تعرف الجانب الساذج لديّ إني أنتظر طويلاً لا حراك بي على مدى ساعات على باب اللجان

الفاحصة. إنني ألهو لهو الملكة. أما «بيرغوت» فقد أكد لي أن الأمر بالحقيقة على أحسن ما يرام».

كان السيد «دو شارلوس»، وهو يعرفه منذ فترة طويلة عن طريق «سوان»، فقد ذهب بالفعل للقائه وليسأله أن يحصل لـ«موريل» على أي يدبج في جريدة ما يشبه أخباراً صغيرة نصفها دعابي حول الموسيقى. وكان السيد «دو شارلوس» في ذهابه يحس ببعض تبكيت الضمير إذ كان يتبين، وهو المعجب الكبير بـ«بيرغوت»، أنه ما كان قط يذهب للقائه من أجله هو، بل ليستطيع القيام بلفتة ذات بال تجاه «موريل» والسيدة «موليه» وأخريات من هذا القبيل، بفضل التقدير الذي كان يكنه له «بيرغوت»، ونصفه فكري والنصف اجتماعي. ما كان يصدم السيد «دو شارلوس» أن لا يستخدم المجتمع الراقي إلا لذاك الغرض، أما أن يستخدم «بيرغوت» فقد كان ذلك يبدو أكثر سوءاً إذ كان يحس أن «بيرغوت» لم يكن نفعياً كما هم أهل المجتمع الراقي وكان يستحق أفضل من ذلك. لكنما كانت حياته كثيرة المشاغل فلا يجد متسعاً من الوقت إلا حينما تعصف به الرغبة في أمر ما، إن كان مثلاً يتعلق بـ«موريل». ثم إنه. وهو شديد الذكاء، ما كان يأبه إلا قليلاً لحديث رجل ذكي، ولا سيما حديث «بيرغوت» الذي كان أديباً فوق ما ينبغي حسب رأيه ومن جماعة أخرى لا تقف موقفه. أما «بيرغوت» فقد كان يتبين تماماً تلك النفعية في زيارات السيد «دو شارلوس» ولكنه لا يحقد عليه لذلك. فقد كان عاجزاً عن موالاة الطيبة ولكنه راغب في إشاعة السرور، متفهم، عاجز عن أن يسعد بوعظ غيره. وأما بخصوص نقيصة السيد «دو شارلوس» فما كان يقاسمه إياها في اية من درجاتها، لكنما يجد فيها بالأحرى عنصراً لونياً في الشخصية إذ لا يقوم المشروع واللامشروع، في نظر الفنان، في أمثلة أخلاقية بل في ذكريات من أفلاطون أو «سودوما»[1].

---

(١) لقب الفنان الإيطالي «جوفاني أنطونيو بازي» من القرن السادس عشر، واللقب يذكّر بسادوم.

كان السيد «دو شارلوس» يفوته أن يقول إنه أخذ منذ حين يحمل «موريل» شأن هؤلاء الأسياد الكبار في القرن السابع عشر الذين كانوا يترفعون عن توقيع، بل عن كتابة أهاجيهم، على صياغة نبذات صغيرة كلها افتراء سافل وموجهة ضد الكونتيسة «موليه». وكم كانت، وهي تبدو مذ ذاك وقحة في نظر من كانوا يقرؤونها، كم كانت أشد قسوة على المرأة الشابة التي كانت تلقي فيها مقاطع من رسائل لها دست بمهارة عظيمة إلى حد لا يفهم معه أحد غيرها شيئاً فيها، مقاطع نقلت بالحرف ولكنها أخذت بمعنى كان يمكن أن يثير جنونها كأقسى عملية انتقام، وقد ماتت المرأة الشابة من جراء ذلك. لكنما ينشأ كل يوم في باريس، كما قال «بلزاك»، ما يشبه الصحيفة الناطقة وهي أفظع من تلك، وسوف نرى فيما بعد أن هذه الصحافة الناطقة قد أودت بقوة «شارلوس» تقادم زيه وشادت فوقه على ارتفاع كبير «موريل» الذي لا يساوي جزءاً من مليون من حاميه القديم. وهذا الطراز الفكري ساذج على الأقل ويعتقد صادقاً بلا وجود لـ«شارلوس» عبقري وبسلطان أكيد لـ«موريل» أحمق. كان البارون أقل سذاجة في صنوف ثأره التي لا ترحم. ومن هنا دون شك ذاك السم الزعاف في الفم الذي يبدو طغيانه وكأنما يولي الوجنتين اليرقان حينما يجتاحه الغضب.

«وددت كثيراً لو جاء هذا المساء. فقد كان سمع «شارلوس» في الأشياء التي يعزفها حقاً أفضل ما يعزف. ولكنه لا يغادر المنزل فيما أعتقد، ولا يريد أن يزعجه الناس وإنه لمحق. ولكن أنت، أيها الشباب الرائع، لسنا نراك كثيراً في منطقة رصيف «كونتي»، ولا تفرط في الأمر!» فقلت إني أخرج بوجه الخصوص وابنة عمي. وقال السيد «دو شارلوس» لـ«بريشو»: «هلا رأيت! هم يخرجون وابنة عمهم، يا لطهر المسلك!» والتفت إليّ من جديد: «ولكننا لا نسألك حساباً بشأن ما تفعل يا ولدي، فإنك حر في القيام بما يحلو لك، إنما يؤسفنا فحسب أن لا يكون لنا نصيب فيه. ثم إنك على ذوق رفيع فهي فاتنة، ابنة عمك، إسأل «بريشو»،

فقد امتلأ رأسه بها في «دوفيل». سوف نفتقدها هذا المساء. لكنك ربما أحسنت أن لم تصطحبها. إن موسيقى «فانتوي» رائعة. لكن أعلمني «شارلي» هذا الصباح أن ابنة المؤلف وصديقتها ستحضران، وهما فتاتان لهما سمعة مخيفة، والأمر مزعج دائماً في ما يخص الفتاة، بل هو يسبب لي بعض الضيق بالنسبة إلى مدعويَّ . ولما كان جميعهم تقريباً قد بلغ السن القانونية[1] فلا عقبى لذلك عليهم. سوف تحضران. إلا إن لم تستطع هاتان الآنستان المجيء. فقد كان عليهما حتماً أن تكونا طوال العصر في فترة تدريب على مقطوعات موسيقية تقيمها السيدة «فيردوران» بعد الظهر ولم تدع إليها إلا المبرمين والأسرة والذين ينبغي أن لا يستضافوا في هذا المساء. لكن «شارلي» قال لي تواً قبل العشاء «إن ما ندعوهما بالآنستين «فانتوي» المحتم حضورهما لم تجيئا». وحافظت، على الرغم من الألم المريع الذي انتابني في مقاربتي المفاجئة (وكأنما بين النتيجة المعروفة وحدها في البداية وسببها المكتشف أخيراً) بين رغبة «ألبيرتين» في المجيء بعد الظهر وما أعلن عنه (وكنت أجهله) من حضور الآنسة «فانتوي» وصديقتها، حافظت على طلاقة ذهن لاحظت بها أن السيد «دو شارلوس» الذي سبق أن قال لنا لدقائق خلت إنه لم يرَ «شارلي» منذ الصباح قد اعترف طائشاً بأنه التقاه قبل العشاء. لكن ألمي أخذ يظهر للعيان؛ وقال لي البارون: «ولكن ما الذي حل بك، فإنك كمد لونك؛ هيا ندخل، فأنت مقرور وقد ساءت حالك. «ما كان ذلك أول ارتياب لي بخصوص عفة «ألبيرتين»، ذلك الذي أيقظته في نفسي كلمات السيد «دو شارلوس»، فقد كان داخلني كثير غيره من قبل. ويظن المرء لدى كل جديد أن الكيل قد طفح وأنه لن يطبق احتماله، ثم إنه يجد له مع ذلك مكاناً، وما إن ندخله في وسطنا الحيوي حتى يدخل في منافسة مع رهط من رغبات التصديق وجوقة من أسباب النسيان كثيرة حتى لترتاح سريعاً إليه

(١) تجاوز الأربعين لمن يبغي الانخراط في سلك الخدمة الكنسية.

ويبلغ بك ألا تهتم به من بعد. ويظل فقط ما يشبه ألماً شفى نصفه، محض إنذار بالألم هو قفا الرغبة ومن ذات طرازها وأضحى مثلها مركز أفكارنا فيشيع فيها على مسافات لا نهائية أحزاناً مثلما تشيع هي مسرات مجهولة المصدر حيثما يمكن أن يقترن شيء ما بفكرة تلك التي نحبها. لكن الألم يستيقظ حينما يداخلنا ارتياب جديد كامل غير منقسم: وعبثاً نقول في الحال تقريباً: «سوف أتدبر الأمر، سيكون ثمة طريقة لتفادي العذاب، لا بد أن الأمر غير صحيح». لكنما كان ثمة لحظة أولى عانينا فيها كما لو أننا كنا نصدق. ولو لم يكن لدينا سوى أعضاء من نوع الساقين والذراعين لكانت الحياة ممكنة الاحتمال. لكننا نحمل في داخلنا لسوء الحظ هذا العضو الصغير الذي نسميه قلباً، وهو عرضة لبعض الأمراض التي يتأثر في أثنائها إلى ما لا حدود بكل ما يتعلق بحياة شخص ما تصيب فيها كذبة – هذا الأمر غير المؤذي إلى حد بعيد والذي نعيش داخله بمرح عظيم، سواء صدر عنا أو عن الآخرين – صدرت عن هذا الشخص ذاك القلب الصغير، الذي كان ينبغي أن يسعهم نزعه من صدرنا جراحياً، بنوبات لا تحتمل. ولندع الدماغ جانباً، فعبثاً يعمل فكرنا دون حدود في أثناء هذه النوبات فإنه لا يبدل فيها أكثر مما يفعل انتباهنا بألم أسنان. صحيح أن هذه المرأة اقترفت ذنب الكذب علينا مع انهاأقسمت لنا أن نقول الحقيقة دائماً. لكننا نعرف ما تساويه هذه الأيمان بالنسبة إلينا وبالنسبة إلى الآخرين. وعزمنا أن نصدقها حينما كانت تصدر عنها هي التي كان من مصلحتها أن تكذب علينا ولم تخترها من جهة أخرى لفضائلها. وصحيح أنه لن تكون بها حاجة تقريباً لتكذب علينا فيما بعد – حينما يكون اللقب قد أضحى غير آبه للكذبة – لأننا لن نهتم من بعد بحياتها. إننا نعلم ذلك. ونضحي بحياتنا راضين مع ذلك، فإما أن نقتل نفسنا في سبيل تلك المرأة، وإما أن نسعى إلى حكم بالإعدام باغتيالها. وإما أن ننفق فحسب على مدى سنوات كامل ثرواتنا من أجلها. وهو ما يضطرنا فيما بعد إلى قتل نفسنا لأنه لم يتبق لنا شيء. ومهما ظننا على أية حال أننا مطمئنو البال حينما نحب فإننا نحمل

الحب دوماً في فؤادنا في توازن غير مستقر، ويكفيه نزر يسير ليضعه في مقام السعادة فيشرق فينا الفرح ونغمر بصنوف الحنان لا تلك التي نحبها، بل أولئك الذين رفعوا من شأننا في عينيها والذين حفظوها من كل تجربة شريرة؛ تظننا هادئ البال، وتكفي كلمة: «لن تجيء «جيلبيرت»، «الآنسة «فانتوي» مدعوة»، كي تنهار كل السعادة المُعَدّة التي كنا نسرع إليها، كي تختفي الشمس، كي تتبدل دوارة الرياح وتثور العاصفة الداخلية التي لن تقوى ذات يوم على مقاومتها من بعد. وفي ذلك اليوم، اليوم الذي أضحى فيه الفؤاد واهناً جداً، يتألم أصدقاء يمحضوننا إعجابهم أن يستطيع معدمون مثلهم، أن يستطيع بعض الأفراد إلحاق الأذى بنا وإيرادنا حتفنا. ولكن ما عساهم يستطيعون إزاء ذلك؟ فإن يحتضر شاعر جراء التهاب رئة انتاني فهل نتصور أصدقاءه يوضحون للمكورة الرئوية أن هذا الشاعر موهوب ويجدر بها أن تدعه يشفى؟ لم يكن الشك بما هو مرتبط بالآنسة «فانتوي»، جديداً تماماً. على أن غيرتي التي بعثتها في العصر «ليا» وأصدقاؤها قد قضت عليه حتى ضمن هذا المقياس. فقد شعرت وظننت، حالما انزاح خطر «التروكاديرو» ذاك، أنني استعدت نهائياً سكينة كاملة. لكن ما كان جديداً على وجه الخصوص في نظري إنما هو نزهة قالت لي «أندريه» في أثنائها: «ذهبنا إلى هنا وهناك ولم نلتق أحداً»، في حين كانت الآنسة «فانتوي» على العكس ضربت بالطبع موعداً لـ«ألبيرتين» في منزل السيدة «فيردوران» ولعلي كنت تركت الآن «ألبيرتين» تخرج وحدها، بطيبة خاطر، وتذهب حيثما تشاء شرط أن يكون وسعني احتجاز الآنسة «فانتوي» وصديقتها في مكان ما والتيقن من أن «ألبيرتين» لن تراهما. ذلك أن الغيرة جزئية بعامة وذات تموضعات متقلبة إما لأنها امتداد أليم لحالة ضيق مبعثها تارة هذا الشخص وطوراً ذاك ممن قد تحبهم صديقتنا، وإما لضيق فكرنا الذي لا يستطيع أن يستوعب إلا ما يتصوره ويدع الباقي في إبهام لا يمكننا نسبياً أن نعاني منه.

لحظة كنا نهم بدخول باحة الفندق لحق بنا «سانييت» الذي لم يكن قد

تعرفنا في الحال. فقال لنا بصوت لاهث: «مع أنني كنت أتفرس في وجوهكم منذ حين. أما هو غريب أن أكون ترددت؟» ولعل «أليس غريباً» كانت بدت له مغلوطة وقد أخذ يبدي ألفة مغيظة مع صيغ اللغة القديمة. «فأنتم قوم يمكن أن يعلنكم المرء أصدقاء له». كان محياه الباهت كأنما ينوره التماع عاصفة رصاصي. ولهاثه الذي ما كان يحدث في هذا الصيف أيضاً إلا حينما يعنفه السيد «فيردوران» أصبح الآن دائماً. «أعلم أن عملاً لـ«فانتوي» لم يسبق نشره سوف يجري تنفيذه على يد فنانين مجلين، و«بشكل غريب» على يد «موريل»، وسأل البارون: «لماذا بشكل غريب؟» وقد رأى في هذه العبارة الظرفيةنقداً. فسارع «بريشو» الذي نهض بدور المفسر، سارع يوضح: «إنه صديقنا «سانييت» يميل تلقائياً، بما هو مثقف ممتاز، إلى التحدث بلغة عصر تساوي فيه «بشكل غريب» عبارتنا نحن «على وجه الخصوص»».

وفيما كنا ندخل ردهة (السيدة «فيردوران») سألني السيد «دو شارلوس» إن كنت أعمل، وإذ كنت أقول له أن لا ولكنني أهتم كثيراً في هذه الفترة بأطقم الأواني الفضية القديمة وأطقم البورسلان، قال لي إنه لن يسعني أن أرى ما كان أجمل مما هي لدى آل «فيردوران» وإنني يمكن أن أكون رأيتها على أية حال في قصر «لا راسبليير» بما أنهم كان يأخذ بهم الجنون فيحملون معهم، بحجة أن الأشياء أيضاً من الأصدقاء، يحملون معهم كل شيء، وإن إخراج كل شيء أمامي في يوم أمسية ربما كان أقل يسراً ولكنه سوف يطلب إليهم أن يروني ما أرغب في رؤيته. ورجوته ألّا يفعل شيئاً من ذلك. وفك السيد «دو شارلوس» أزرار معطفه ونزع قبعته، فأبصرت أن قمة رأسه أخذت تكتسي شيباً في بعض المواضع. لكن السيد «دو شارلوس»، مثله في ذلك مثل شجيرة ثمينة لا يلوّنها الخريف فحسب بل تجرى المحافظة على بعض أوراقها بأغلفة من القطن أو طبقات من الجبس، ما كان يأخذ من بضع الشعرات البيض هذه القائمة في قمة رأسه سوى ترقيش إضافي ينضاف إلى ترقيشات الوجه. على أن وجه السيد

«دو شارلوس» كان يوالي، حتى خلف طبقات التعابير المخلفة والمساحيق والرياء التي كانت تموهه أسوأ تمويه، كتم السر الذي يبدو أنه يجهر به عالياً، على جميع الناس تقريباً. كنت أضيق تقريباً بعينيه اللتين كنت أخشى أن يفاجئني بهما وأنا أقرأه فيهما قراءة الكتاب المفتوح، وبصوته الذي يبدو لي أنه يردده بجميع الوجوه وبقلة احتشام لا تكلّ ولا تملّ. لكن الأسرار إنما يحفظها الناس على أحسن وجه لأن سائر الذين يقربونهم صم وعميان. أما الذين كانوا يعلمون الحقيقة من هذا أو ذاك، من آل «فيردوران» على سبيل المثال، فقد كانوا يصدقونها، ولكن ما داموا لا يعرفون السيد «دو شارلوس». فقد كان وجهه يبدد شائعات السوء بدلاً من نشرها. ذلك لأننا نكوّن عن بعض الشخصيات فكرة عظيمة إلى حد أننا لا نستطيع مماثلتها بالقسمات المألوفة لشخص من معارفنا. وإنه ليصعب علينا أن نصدّق عيوب شخص كنا البارحة أيضاً برفقته في الأوبرا مثلما لن نصدق في يوم نبوغه.

كان السيد «دو شارلوس» يهم بتسليم معطفه ويرفق بذلك توصيات من تعود ارتياد المكان. لكن الخادم الخاص الذي كان يمده له كان جديداً وحديث السن. والحقيقة أن السيد «دو شارلوس» كثيراً ما كان الآن يضيع دليله كما يقال ولا يتبيّن من بعد ما يمكن فعله وما لا يمكن. والرغبة الحميدة التي كانت رغبته في «بالبيك» في إبداء أن بعض الموضوعات لا تخيفه. وفي أن لا يخشى الإعلان بشأن أحدهم فيقول: «إنه لفتى جميل»، في أن يصرح، باختصار القول، بذات الأشياء التي كان يمكن أن يقولها من لم يكن مثله، إنما كان يتفق له الآن أن يترجم تلك الرغبة بقوله على عكس ذلك أشياء ما كان وسع من لم يكن مثله أن يقولها في يوم، أشياء كان فكره دائم الانشغال إزاءها حتى لينسى أنها ليست جزءاً من الاهتمام المعتاد للناس جميعاً. لذلك رفع البارون، وهو ينظر إلى الخادم الخاص الجديد، سبابته في الهواء بهيئة المتوعّد وقال في اعتقاده أنه يقوم بمزحة رائعة: «أما أنت فإني أمنعك أن تغمز لي بعينك على هذا النحو»، ثم

التفت إلى «بريشو» قائلاً: «هذا الصغير له وجه على شيء من الغرابة وله أنف طريف»! ثم أتم دعابته أو هو انصاع لرغبة فانحدر بسبابته أفقياً وتردد لحظة ثم دفع بها، إذ لا يستطيع من بعد تمالك نفسه، دفع بها على نحو لا يقاوم إلى الخادم الخاص مباشرة ولمس طرف أنفه وهو يقول: «بيف!» ثم دخل الصالون يتبعه «برشو» وأنا و«سانيت» الذي أعلمنا أن الأميرة «شيرباتوف» توفيت في الساعة السادسة. وقال الخادم الخاص في نفسه: «ما أغربه من بيت!»، وسأل رفاقه إن كان البارون صاحب فكاهة أو به بعض الجنون، وأجابه رئيس الخدم (الذي كان يظنه على قليل من الجنون، وعلى قليل من البلاهة): «إنها تصرفات لديه من هذا القبيل ولكنه أحد أصدقاء سيدتي الأكثر تقديراً على الدوام عندي، إنه طيب القلب».

وفي هذه اللحظة جاء السيد «فيردوران» لملاقاتنا. وحده «سانييت» كان ينتظر بهيئة مستسلمة أن تؤخذ أشياؤه منه، دون أن تفارقه خشية أن يصاب ببرد لأن الباب الخارجي كان يفتح باستمرار وسأله السيد «فيردوران»: ما الذي تفعله هنا في وقفة الكلب الذليل هذه؟» - «إني أنتظر أن يستطيع أحد الأشخاص الذين «يراقبون على الملابس» أن يأخذ معطفي ويعطيني رقماً. وسأل السيد «فيردوران» بلهجة صارمة: «ما الذي تقوله؟ «الذين يراقبون الملابس». هل أصبحت خرفاً؟ يقولون: «راقب الملابس». لئن انبغى أن نعلمك الفرنسية من جديد كما نفعل بالذين أصيبوا بسكتة دماغية!» وهمس «سانييت» بصوت متقطع: «راقب على الشيء هي الصيغة الصحيحة، فإن الأب «لو باتو»[1]...». وصرخ السيد «فيردوران» بصوت رهيب: «إنك تغيظني أنت. وكم ذا تلهث! هل قمت تواً بصعود ستة أدوار؟» ونتج عن فظاظة السيد «فيردوران» أن الرجال القائمين على قاعة الملابس أمروا أشخاصاً آخرين قبل «سانييت» وأجابوه حينما أراد أن يمد حاجاته: «كل بدوره يا سيد، فلا تكن معجلاً إلى هذا

---

(١) من الأكاديمية الفرنسية (١٧١٣-١٧٨٠) وصاحب كتاب «في تدريس الآداب».

الحد». - «ذلكم رجال منظمون، وتلكم هي الكفاءات، حسن جداً يا رجالي الطيبين»، يقول السيد «فيردوران» بابتسامة تتسم بالعطف من أجل تشجيعهم في اتجاههم على أن يمرروا «سانييت» بعد كل الناس. وقال لنا: «هلموا، فذلكم الحيوان يود أن يوردنا حتفنا في تبارد الهوا العزيز عليه. سنتدفأ قليلاً في الصالة». وعاد يقول حينما أصبحنا في الصالة: «راقب على الملابس! يا له من معتوه!» وقال «بريشو»: «إنه يميل إلى تكلف القول، وليس فتى سيّئاً». ورد السيد «فيردوران» بحدة: «لم أقل إنه فتى سيئ، بل قلت إنه معتوه».

وسألني «بريشو»: «هل تعود في هذا العام إلى «أنكرفيل»؟ فإني أعتقد أن «المعلمة» قد استأجرت «لا راسبليير» مرة أخرى مع أنها وقعت في منازعة مع مالكيه. لكن ذلك لا طائل تحته، فهي غيوم تتبدد»، يضيف قوله باللهجة المتفائلة نفسها التي تتخذها الصحف في قولها: «ثمة أخطاء ارتكبت، ذلك مفهوم، ولكن من ذا لا يرتكب أخطاء؟» على أني كنت أذكر بأي حال من العذاب غادرت «بالبيك» وما كنت راغباً البتة في العودة إليها. كنت أرجئ دوماً إلى الغد مشروعاتي مع «ألبيرتين». وأعلن السيد «دو شارلوس» بأنانية التلطف المتسلطة اللامتفهمة: «سيعود بالتأكيد، فنحن نريد ذلك ولسنا في غنى عنه».

أما السيد «فيردوران» الذي قدمنا له التعازي بالأميرة «شيرباتوف» فقد قال لنا: «أجل، أعلم أنها في أسوأ حال». وصاح «سانييت» قائلاً: «لا، لقد فارقت الحياة في الساعة السادسة». وقال السيد «فيردوران» بفظاظة لـ«سانييت»: «أما أنت فتبالغ دائماً، إذ كان يفضل، والأمسية لم تلغ، فرضية المرض، ولكن كانت السيدة «فيردوران» في مداولة كبيرة مع «كوتار» و«سكي». لقد رفض «موريل»، منذ قليل، دعوة للذهاب إلى منزل أصدقاء سبق أن وعدتهم بمشاركة عازف الكمان، لأن السيد «دو شارلوس» لا يستطيع الذهاب إلى هناك. كان يمكن لسبب رفض «موريل» العزف في أمسية أصدقاء آل «فيردوران»، ذاك السبب الذي سنشهد بعد

قليل أسباباً أخرى أشد خطراً تنضاف إليه، أن يستمد قوته من عادة تميز بعامة الأوساط العاطلة عن العمل، والنواة الصغيرة على وجه الخصوص. ولا جرم أن المعلمة، إن ضبطت السيدة «فيردوران» كلمة قيلت بصوت خفيض بين مدعو جديد وأحد الخلص ويمكن أن تحمل على افتراض أنهما يعرف أحدهما الآخر، أو بهما رغبة في التصادق («إذاً إلى يوم الجمعة في منزل آل كذا» أو: «تعال إلى المشغل في أي يوم تبغيه، فإني دائماً فيه حتى الساعة الخامسة، وسأغتبط حقاً بذلك»)، لا جرم أنها، في اضطرابها وافتراضها «مقاماً» للوافد الجديد يمكن أن يجعل منه منسياً جديداً لامعاً بالنسبة إلى العشيرة الصغيرة، وفيما تتظاهر بأنها لم تسمع شيئاً وتحتفظ لنظرتها الجميلة، التي حوطها بالزرقة، تعوُّد «دوبوسي» أكثر مما كان فعل تعوُّد الكوكايين، بالمسحة المضناة التي تكسبها إياها نشوات الموسيقى وحدها، كانت تتنازعها مع ذلك، خلف جبينها الجميل المحدب جراء الرباعيات الكثيرة وآلام الشقيقة المتعاقبة، أفكار لم تكن من قبيل تعدد الأصوات حصراً: فكانت، وقد عيل صبرها، ولا تطيق من بعد انتظار جرعتها ثانيةً واحدة، ترتمي على المتحاورين وتنتحي بهما جانباً وتقول للوافد الجديد وهي تشير إلى المخْلص: «ألا تود المجيء لتناول العشاء بمعيته، يوم السبت مثلاً، أو في اليوم الذي تريده، بصحبة أناس لطفاء؟ لا تتحدث في ذلك بصوت عالٍ لأنني لن أدعو كل هؤلاء الرعاع (واللفظة تعني على مدى خمس دقائق النواة الصغيرة المزدراة مؤقتاً تجاه الجديد الذي تعقد عليه أمالاً عريضة).

لكنما كان لحاجة التولع تلك، كما للقيام بعمليات التقريب، مقابلها. فقد كانت المثابرة على أيام الأربعاء، تبعث في نفوس آل «فيردوران» ميلاً مضاداً، إن هو إلا الرغبة في إفساد العلاقات والإبعاد. وكانت قد تعززت وجنت حنقاً تقريباً جراء الشهور التي قضوها في «لا راسبليير» حيث يلتقي الناس من الصباح حتى المساء. فكان السيد «فيردوران» يتفنن في ضبط الناس متلبسين، وفي مد نسيج يمكنه أن ينقل فيها إلى رفيقته العنكبوت

ذبابة بريئة. وفي غياب التهم تستنبط السخريات. فما إن يكون أحد الخلص خرج نصف ساعة حتى يُسخَر منه أمام الآخرين ويتظاهرون بالدهشة أن لا يكونوا لاحظوا كم كانت أسنانه وسخة على الدوام. أو هو يفرشيها على العكس عشرين مرة في اليوم لهوس به. وإن أذن أحد لنفسه أن يفتح النافذة فقد كانت قلة التربية هذه تدفع المعلم والمعلمة إلى تبادل نظرة ناقمة، وبعد لحظة تطلب السيدة «فيردوران» شالاً، وهو ما يوفر للسيد «فيردوران» الحجة كي يقول بلهجة حانقة: «لا، لا، سأغلق النافذة، وأتساءل من ذا سمح لنفسه بفتحها»، أمام المذنب الذي تكسوه الحمرة حتى أذنيه. كانوا يعيبون عليك بصورة غير مباشرة كمية الخمرة التي شربتها. «أليس يضرك ذلك؟ إنه يصلح لأحد العمال». وكان ينجم عن النزهات المشتركة لاثنين من الخلص لم يلتمسا سلفاً إذن المعلمة تعليقات لا تنتهي مهما كانت تلك النزهات بريئة. وما كانت نزهات السيد «دو شارلوس» برفقة «موريل» كذلك. وحدها لا سكنى البارون في «لا راسبليير» (بسبب حياة «موريل» في الثكنة) أخرت فترة الامتلاء والقرف والتقيؤ، ولكنها كانت جاهزة للقدوم.

لقد كانت حانقة ومصممة على «تنوير» «موريل» حول الدور المثير للسخرية والمقيت الذي يدفعه السيد «دو شارلوس» إلى النهوض به. وأردفت السيدة «فيردوران» (التي كانت على أية حال حتى حينما تحس أنها تدين لأحدهم بمنة سوف تثقل عليها ولا تستطيع أن تقتله، كانت تبحث له، مقابل المشقة، عن نقيصة خطيرة تغني بكل أمانة عن أن تقر له بها)، أردفت تقول: «أضيف إلى ذلك أنه يتخذ في منزلي مظاهر متكلفة لا تروقني». ذلك أن السيدة «فيردوران» كان لديها بالتأكيد سبب آخر أكثر خطورة من تخلي «موريل» عن أمسية أصدقائها لتحقد على السيد «دو شارلوس». فإن هذا الأخير كان قد أعلن، وهو مقتنع تماماً بالشرف الذي يوليه المعلمة باستقدام أناس إلى «رصيف كونتي» ما كانوا بالفعل قدموا إلى هناك من أجلها، أعلن، منذ أول أسماء اقترحتها السيدة «فيردوران»

على أنها لأشخاص يمكن دعوتهم، استبعاداً جازماً كأكثر ما يكون وبلهجة قاطعة يمتزج فيها الحقد المستكبر الذي يعتمل في صدر السيد العظيم الغريب الأطوار بدغمائية الفنان الخبير في أمور الحفلات والذي ربما سحب مسرحيته ورفض مشاركته على أن ينجر إلى تنازلات تهدد حسبما يرى النتيجة الإجمالية. ولم يمنح السيد «دو شارلوس» موافقته، وقد أحاطها بتحفظات، إلا لـ«سانتين» الذي كانت السيدة «غيرمانت» قد انتقلت تجاهه، كي لا تربك نفسها بزوجته، من الألفة اليومية إلى إقلاع تام عن الصلات، ولكن السيد «دو شارلوس» كان يلتقيه دائماً إذ يراه ذكياً، أجل، إنما مضى «سانتين»، وهو بالأمس صفوة وسط آل «غيرمانت»، يبحث عن الثروة وعن سند له فيما يعتقد في وسط بورجوازي مخلط بطبقة من صغار النبلاء فحسب حيث الجميع على ثراء عظيم وينتمي إلى أرستقراطية لا تعرفها الأرستقراطية الكبيرة. لكن السيدة «فيردوران» ظنت، وهي تعرف الطموحات الأشرافية في محيط المرأة ولا تتبين موقع الزوج، فإن ما كان مباشرة فوقنا تقريباً هو الذي يولينا الإحساس بالعلو لا ما كان تقريباً خافياً على أبصارنا لشدة ما يذهب بعيداً في السماء، ظنت من واجبها تبرير دعوة «سانتين» بإبرازها أنه يعرف الكثير من الناس «لزواجه من الآنسة ***». وقد جعل الجهل الذي ينم عنه هذا التوكيد، وهو مناقض تماماً للواقع، لدى السيدة «فيردوران»، جعل شفتي البارون المصبوغتين تفترّان عن ضحكة جبلت من ازدراء متسامح وسعة فهم، وأنف أن يجيب مباشرة، ولكنه قال، إذ كان يبني بيسر على صعيد المجتمعات الراقية نظرات يلتقي فيها خصب ذكائه وارتفاع كبريائه بعبث مشاغله الموروث: «كان على «سانتين» أن يستشيرني قبل الإقدام على الزواج، فثمة تحسين نسل اجتماعي مثلما هناك تحسين نسل فيزيولوجي وربما كنت طبيبه الوحيد. إن حالة «سانتين» ما كانت تثير أي نقاش، فقد كان واضحاً أنه بما أقدم عليه من زواج كان يتحزم بوزن نعطل ويجعل مصباحه تحت المكيال. لقد قضى على حياته الاجتماعية. ولعلني كنت أوضحت له الأمر وكان فهمني إذ هو

ذكي. كان ثمة على عكس ذلك شخص يتمتع بكل ما ينبغي ليحصل على مكانة رفيعة غالية عالمية، لكن حبلاً رهيباً يغله إلى الأرض. وقد وفرت له عوناً نصفه بالضغط والنصف بالقوة لكسر أغلاله والآن فزت، تغمرني نشوة المنتصرين، بالحرية والاقتدار الكلي الذي يدين لي به. ربما انبغى له شيء من العزيمة، ولكن يا لها مكافأة حصل عليها! وهكذا يصبح المرء ذاته خالق قدره حين يعرف كيف يصغي إليّ». كان أكثر من بدهي أن السيد «دو شارلوس» لم يحسن التأثير على قدره، فالفعل أمر يغاير الكلام وإن جاء فصيحاً، والتفكير وإن كان مبتكراً. «لكني في ما يخصني فيلسوف يشهد بفضولٍ الارتكاساتِ الاجتماعيةَ التي تنبأ بها، غير أني لا أساعد فيها، لذلك واليت التردد على «سانتين» الذي أحاطني دوماً بالاحترام الودود اللائق؛ بل تناولت العشاء عنده في مسكنه الجديد حيث تُزهَق وسط أرفع أصناف البذخ بقدر ما كنت تجد سلوى فيما مضى حينما كان يجمع أفضل الجلساء في هري صغير فيما هو في أتعس حال. بإمكانكم دعوته إذن، إني أصرح بذلك. لكني أعترض على سائر الأسماء الأخرى التي تعرضونها عليّ. وسوف تشكرونني على ذلك، فإني إن كنت خبيراً في أمور الزواج فلست أقل خبرة في أمر الحفلات، إني عليم بالشخصيات النافذة التي ترفع من شأن اجتماع وتكسبه انطلاقاً وعلواً، مثلما أعلم الاسم الذي يعيدك أرضاً ويقود إلى فشل أكيد». ولم تكن صنوف الاستبعاد هذه من جانب السيد «دو شارلوس»، لم تكن قائمة على الدوام على ضغائن مختل أو تنميقات فنان، بل على مهارات ممثل. فحينما كان يقول في أحدهم، في أي شيء، مقطعاً ناجحاً بالتمام كان يرغب في إسماعه أكبر عدد ممكن من الناس، ولكنما يتحاشى أن يقبل في الدفعة الثانية مدعوين من الأولى ربما أمكنهم ملاحظة أن المقطوعة لم تتبدل. كان يعيد تكوين قاعته لأنه بالضبط لم يكن يجدد في عناوين مسرحه، ولعله كان نظم لدى الضرورة، يوم يصيب نجاحاً في الحديث، جولات في مقاطعات الريف وأقام عروضاً تمثيلية. ومهما يكن من أمر الدوافع

المتنوعة لتلك الاستبعادات، فإن استبعادات السيد «دو شارلوس» لم تكن تقتصر على إغاظة السيدة «فيردوران» التي تحس بانتقاص سلطتها كمعلمة بل كانت تلحق بها ضرراً عظيماً في دنيا المجتمعات وذلك لسببين اثنين. أولهما أن السيد «دو شارلوس» وهو بعد أشد نزقاً من «جوبيان»، كان يختصم، دون أن يعلم أحد حتى السبب، مع الأشخاص الأفضل استعداداً ليكونوا في عداد أصدقائه. وطبيعي أن من أولى العقوبات التي يمكن أن تفرض عليهم أن يحال دون دعوتهم إلى حفلة يقيمها لدى آل «فيردوران». وغالباً ما كان هؤلاء المنبوذون أناساً يحتلون الصدارة ولكنهم في نظر السيد «دو شارلوس» توقفوا عن احتلالها منذ اليوم الذي اختصم فيه وإياهم. ذلك أن خياله كان بارعاً بذات المقدار في افتراض أخطاء للناس بغية الاختصام وإياهم في سلبهم أية أهمية حالما يكفّون عن كونهم أصدقاءه. فإن كان المذنب مثلاً رجلاً من عائلة عريقة جداً ولكن دوقيتها لا تعود إلا إلى القرن التاسع عشر، كأسرة «مونتسكيو» Montesquiou على سبيل المثال، كان ما يحسب حسابه في نظر السيد «دو شارلوس» يضحي بين ليلة وضحاها عراقة الدوقية، أما الأسرة فما كانت شيئاً، وكان يصرخ قائلاً: «ليسوا حتى من الدوقيين، فإن لقب الأب «دو مونتسكيو» هو الذي انتقل دون وجه حق إلى أحد ذويه منذ ما لا يبلغ حتى ثمانين عاماً. والدوق الحالي، إن ثبتت الدوقية، هو الثالث. ولكن هيا حدثني عن أناس من أمثال آل «أوزيس» وآل «لا تريمواي» وآل «لوين»، وهم العاشر والرابع عشر في تسلسل الدوقية مثلما شقيقي هو دوق «غيرمانت» الثاني عشر وأمير «كوندوم» السابع عشر. ينحدر آل «مونتسكيو» من أسرة قديمة، فما الذي يثبته ذلك، حتى إن كان ذلك مثبتاً! إنهم ينحدرون وينحدرون إلى حد أضحوا معه في الطبقة الدنيا الرابعة عشرة». فإن كان، بعكس ذلك، على خصام مع واحد من النبلاء يملك دوقية قديمة يرتبط بألمع المصاهرات وينتمي إلى الأسرة المالكة، ولكنما وافاه ذاك الألق العظيم بسرعة كبيرة جداً دون أن تكون الأسرة بعيدة الجذور في الزمان، كواحد من آل «لوين»

على سبيل المثال، تبدل كل شيء، والأسرة وحدها تؤخذ في الحسبان. «دعني أسأل أنا. هذا السيد «ألبيرتي» الذي لا تزهو ثيابه إلا في عهد لويس الثالث عشر، ما الذي يمكن أن يهمنا أن تكون بعض الخطوات في البلاط قد مكّنتهم من تكديس دوقيات ما كان لهم أي حق فيها؟» أضف أن السقوط لدى السيد «دو شارلوس» كان يعقب الحظوة على الأثر بسبب هذا الميل الذي يميز آل «غيرمانت» إلى مطالبة المحادثة، إلى مطالبة الصداقة بما لا يسعها أن تقدمه، إلى جانب خشية ذات دلالات من أن يكونوا موضع اغتياب. وكان السقوط يزداد عمقاً بقدر ما كانت الحظوة أعظم حجماً. والحقيقة أنه لم ينعم أحد لدى البارون بحظوة شبيهة بتلك التي خص بها علانية الكونتيسة موليه». فبأي دليل لا مبالاة أبرزت ذات يوم أنها لم تكن أهلاً لها؟ لقد صرحت الكونتيسة نفسها على الدوام أنها لم تفلح يوماً في الكشف عنه، وأياً كان الأمر فإن مجرد اسمها كان يُثير لدى البارون أعنف صنوف الغضب وأكثر الخطب بلاغة، بل أكثرها عنفاً. أما السيدة «فيردوران» التي سبق أن كانت السيدة «موليه» لطيفة جداً إزاءها والتي كانت تعقد، كما سوف نرى، آمالاً كبيرة عليها فقد اغتبطت سلفاً بفكرة أن الكونتيسة سوف تلتقي في منزلها الأناس الأكرم محتداً «في فرنسا وبلاد نافار»، كما كانت المعلمة تقول، فعرضت حالاً دعوة «السيدة دو موليه». فأجاب السيد «دو شارلوس» قائلاً: «آه! يا إلهي، الأذواق جميعها في الطبيعة وإن كنت تميلين يا سيدتي إلى محادثة السيدة «بيبليه» والسيدة «جيبو» والسيدة «جوزيف برودوم» فلست أرى ما كان أفضل، ولكن ليكن ذلك ذات مساء لا أكون فيه هنا. فإني أرى منذ كلماتنا الأولى أننا لا نتكلم اللغة نفسها، فقد كنت أتكلم عن أسماء من الطبقة الأرستقراطية وتذكرين لي أحد الأسماء الأقل شهرة في سلك القضاء ومن صغار العامة المكارين النمامين المسيئين ومن سيدات هينات يخلن أنهن من حماة الفنون لأنهن يستعدن في مقام أدنى تصرفات زوجة شقيقي «الغيرمانتية» على غرار «أبي زريق» الذي يظن أنه يقلد الطاووس. وأضيف

أنه قد يكون ثمة ضرب من الفجور أن ندخل في حفلة شئت راضياً إقامتها في منزل السيدة «فيردوران» امرأة أسقطتُها عن علم ودراية من نطاق الآفي، بلهاء ينقصها كرم المحتد والأمانة والظرف وتجن فتعتقد أنها قادرة على التشبه بأمثال دوقيات «غيرمانت» وأميرات «غيرمانت»، والجمع بينهما حماقة في حد ذاتها بما أن الدوقة «دو غيرمانت» والأميرة «دو غيرمانت» هما بالضبط على طرفي نقيض. فأمرها أمر امرأة تنوي أن تكون «رايشنبيرغ» و«ساره بيرنار»[1] في آن معاً. وفي كل الأحوال، وحتى إن لم يكن الأمر متناقضاً فسوف يكون مثار سخرية كبيرة. فإن يكن بوسعي أنا أن أبتسم أحياناً لمبالغات هذه وأغتم لمحدودية تلك فذلك حق لي. أما هذه الضفدعة البورجوازية الصغيرة التي تبغي الانتفاخ لتساوي تينك السيدتين العظيمتين اللتين تفسحان المجال دوماً على أية حال لبروز أناقة العرق التي لا تضاهى، فذلك ما يضحك الحجر كما يقولون. «مدام موليه»! ذلك اسم ينبغي أن لا ينطق به من بعد، أو لا مجال لي إلا بالانسحاب»، يضيف قوله بابتسامة وبلهجة طبيب يبغي الخير لمريضه على الرغم من هذا المريض نفسه وهو عازم أن لا يسمح بأن تفرض عليه مساعدة طبيب تجانسي. ثم إن بعض الأشخاص الذين حكم السيد «دو شارلوس» أنهم لا أهمية لهم كان يمكن بالفعل أن يكونوا كذلك في نظره، لا في نظر السيدة «فيردوران». كان بوسع السيد «دو شارلوس» أن يكون، من عالي كرم محتده، في غنى عن القوم الأكثر أناقة الذين لعل تجمعهم كان جعل من صالون السيدة «فيردوران» واحداً من أوائل صالونات باريس. على أن هذه شرعت تجد أن القطار فاتها مرات كثيرة، هذا إن تركنا جانباً التأخر الكبير الذي أصابها جراء الخطأ المجتمعي الناجم عن مسألة «دريفوس». مع أنها أدت لها خدمات أيضاً. وربما أمكنني أن أسأل القارئ كما نفعل

---

(١) ممثلتان شهيرتان من أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين مختلفتان أدواراً وأسلوباً.

بصديق لا نتذكر من بعد، في أعقاب هذا العدد من الأحاديث، إن نحن فكرنا أو توافرت لنا فرصة إطلاعه على أمر ما: «لست أعلم إن كنت قلت لك إلى أي حد من الانزعاج شاهدتْ الدوقة «دو غيرمانت» جماعة من عالمها يقصون، وقد أخضعوا كل شيء للقضية، نساء أنيقات ويستقبلون من كن غير ذلك بداعي المطالبة بإعادة المحاكمة أو مناهضة المطالبة بالإعادة، فيما انتقدت هي بدورها من جانب أولئك السيدات أنفسهن على أنها فاترة غير سديدة الرأي وتخضع مصالح الوطن للمراسم الاجتماعية. وسواء فعلت ذلك أم لا فإن موقف الدوقة «دو غيرمانت» في ذلك الحين يمكن تصوره بسهولة، بل يمكن أن يبدو، إن رجعنا فيما بعد إلى فترة لاحقة، صحيحاً تماماً من وجهة نظر المجتمع الراقي. فقد كان السيد «دو كامبرمير» يعتبر أن قضية «دريفوس» آلة أجنبية مهمتها تقويض دائرة الاستخبارات وتحطيم النظام وإضعاف الجيش وإشاعة الفرقة بين الفرنسيين والإعداد للغزو. ولما كان الأدب، باستثناء بعض أمثال لـ«لافونتين»، غريباً على المركيز فقد كان يدع لزوجته أن تثبت أن الأدب المنصرف بقسوة إلى الملاحظة قد قام، بإنشائه اللااحترام، بانقلاب مواز. كانت تقول: «السيد «ريناك» والسيد «إيرفيو»[1] ضالعان في العمل نفسه». لن نتهم قضية «دريفوس» بأنها خططت لمقاصد بمثل هذا السواد ضد المجتمع الراقي؛ لكنها ههنا حطمت الأطر بالتأكيد. إن رجال المجتمع الذين لا يريدون أن يدعوا للسياسة أن تلج المجتمع الراقي يبدون ما يبديه نبهاء العسكريين الذين لا يريدون أن يسمحوا للسياسة بولوج الجيش. وأمر المجتمع الراقي كأمر الميل الجنسي حيث لا تعلم إلى أية صنوف من الفساد يمكن أن تصل حينما تركت مرة أسباباً جمالية تملي عليك خياراتك. لقد اكتسبت ضاحية «سان جيرمان» عادة استقبال سيدات من مجتمع آخر لسبب أنهن كنا قوميات النزعة، وزوال السبب بزوال

(١) Reinach وHervieu الأول من مناصري «دريفوس» والآخر من مناهضيه.

النزعة القومية وظلت العادة. كانت السيدة «فيردوران» قد أفادت من الحركة المناصرة لـ«دريفوس» فاجتذبت إليها كتّاباً قيمين لم يوفروا لها مؤقتاً أي خدمة اجتماعية لكونهم من مناصري «دريفوس». لكن الأهواء السياسية كغيرها، إنها لا تدوم. فإن أجيالاً جديدة تجيء ممن لا يفهمونها من بعد، حتى الجيل الذي خبرها بتغير وتعتمل في صدره أهواء سياسية تردّ، بما هي لم تنسخ بالضبط عن سابقتها، الاعتبارَ لقسم من المستبعدين إذ تغير سبب الاستبعاد. ولم يعد الملكيون يهتمون أثناء قضية «دريفوس» إن كان أحدهم جمهورياً، بل راديكالياً، بل مناهضاً لرجال الدين إن كان معادياً للسامية وقومي النزعة. وإن اتفق أن تقوم حرب في يوم، اتخذت الوطنية شكلاً آخر وما عدت حتى تهتم، بشأن كاتب متطرف في وطنيته، إن كان من أنصار «دريفوس» أم لا. وهكذا كانت السيدة «فيردوران» قد انتزعت، لدى كل أزمة سياسية وكل تجديد فني، انتزعت شيئاً فشيئاً، مثلما يبني العصفور عشه، النتف المتعاقبة، وهي غير قابلة للاستعمال مؤقتاً، لما سيضحي ذات يوم صالتها. لقد ذهبت قضية «دريفوس». أما «أناتول فرانس» فقد بقي، وقوة السيدة «فيردوران» إنما كان قوامها الحب الصادق الذي تكنّه للفن والمشقة التي تتكبدها في سبيل الخلّص والأعشية الرائعة التي كانت تقيمها من أجلهم وحدهم دون أن يكون ثمة مدعوون من جماعة المجتمع الراقي. لقد عومل كل منهم كما سبق أن عومل «بيرغوت» في منزل السيدة «سوان»، وحينما يصبح واحد من الآلاف من هذا القبيل، حينما يصبح ذات يوم شهيراً ويرغب المجتمع الراقي في المجيء للقائه فإن وجوده لدى السيدة «فيردوران» لا يتسم بشيء من هذا الجانب المصطنع المذاق الذي من قبيل أطباق المآدب الرسمية أو احتفال «شارلماني» التي تعدها «بوتيل» أو «شابو»، بل من الأطباق المألوفة اللذيذة التي ربما كنا ألفناها بمثل كمالها في يوم لا يكون فيه جماعة من المجتمع الراقي. لقد كانت الفرقة لدى السيدة «فيردوران» ممتازة مدربة ومجموعتها المسرحية من الطراز الأول ولا ينقصها سوى الجمهور. ومنذ أن شرع ذوقه ينصرف

عن الفن العقلاني الفرنسي لأمثال «بيرغوت» ويعشق على وجه الخصوص صنوفاً من الموسيقى الغريبة فإن السيدة «فيردوران»، وهي نوع من المراسل المعتمد في باريس لسائر الفنانين الأجانب، تزمع أن تقوم بعد قليل، إلى جانب الأميرة الرائعة «يوربلتييف»، مقام الجنية العجوز «كارابوس»، لكنها كلية الاقتدار، بالنسبة إلى الراقصين الروس. وقد حمل هذا الاجتياح الساحر الذي لم يحتجّ على إغراءاته سوى النقاد الذين يعوزهم الذوق، حمل معه إلى باريس، كما نعلم، حمى من الفضول أقل عنفاً وأقرب إلى الجمالية المحضة ولكنها ربما كانت تساوي في الحماسة قضية «دريفوس». هنا أيضاً سوف تشغل السيدة «فيردوران» المقام الأول، إنما من جراء نتيجة مجتمعية مختلفة تماماً. فمثلما سبق أن رأوها إلى جانب السيدة «زولا» أمام قوس المحكمة في جلسات محكمة الجنايات، كانوا، حينما تزاحمت البشرية الجديدة في الأوبرا هاتفة للباليهات الروسية وقد تزينت بقنزعات مجهولة، كانوا يرون دوماً السيدة «فيردوران» إلى جانب الأميرة «يوربلتييف» في إحدى المقصورات الأولى. ومثلما راحوا في المساء، في أعقاب انفعالات قصر العدل، إلى منزل السيدة «فيردوران» ليشاهدوا عن كثب «بيكار» أو «لابوري»[1] وليستطلعوا على وجه الخصوص آخر الأنباء ويعلموا ما يمكن أن يأملوه «زورليندن» و«لوبيه»، العقيد «جووست»، والنظام، كذلك كانوا يمضون، إذ هم غير مستعدين أن يبادروا إلى النوم في أعقاب الحماسة التي أثارتها في النفوس «شهرزاد»[2] أو رقصات «الأمير إيغور»[3]، يمضون إلى منزل السيدة «فيردوران» حيث تجمع في كل مساء أعشية لذيذة تترأسها الأميرة «يوربلتييف» والمعلمة الراقصين الذين لم يتناولوا عشاءهم ليكونوا أكثر رشاقة ومديرهم

---

(١) العميد Picquor شهد في صالح «دريفوس»، أما «Labori» فكان محامي الدفاع عن «دريفوس» و«إميل زولا».

(٢) من أعمال «ريمسكي كورساكوف»

(٣) أوبرا من أعمال «بورودين».

والمشرفين على الديكورات والمؤلفين الكبيرين «إيغور سترافنسكي» و«ريشار شتراوس»، وهي نواة صغيرة لا تتبدل ولم يأنف من الاختلاط بها، كما كانت الحال في أعشية السيد والسيدة «هلفيسيوس»، كبريات سيدات باريس وأصحاب سمو أجانب. حتى من كانوا من بين الناس يفاخرون بأنهم أصحاب ذوق ويقيمون بين الباليهات الروسية ضروباً من الاختلاف لا طائل تحتها، فيجدون أن إخراج «**جنيات الهواء**»[1] شيء أكثر رقة من إخراج «**شهرزاد**»، وما كان يستبعد أن يردّوه إلى الفن الزنجي، كانوا يغتبطون لرؤيتهم عن كثب هؤلاء المجددين العظام في الذوق والمسرح الذين قاموا في نطاق فن ربما كان أكثر اصطناعاً من الرسم الزيتي بثورة بمثل عمق المدرسة الانطباعية.

نعود إلى السيد «دو شارلوس» لنقول إن السيدة «فيردوران» ما كانت عانت فوق ما تطيق لو أنه لم يلق الحرم إلا على السيدة «بونتان» التي لفتت انتباه السيدة «فيردوران» في منزل «أوديت» بسبب حبها للفنون والتي سبق لها، في أثناء قضية «دريفوس»، أن جاءت أحياناً لتناول العشاء برفقة زوجها الذي كانت السيدة «فيردوران» تدعوه بالفاتر لأنه لم يكن يطلب استئناف النظر في الدعوى ولكنه كان، وهو شديد الذكاء ويسعده أن ينشئ لنفسه صلات خفية بسائر الأحزاب، كان يغبطه أن يبرز استقلاليته بتناول العشاء مع «لابوري» الذي كان يصغي إليه دون أن يقول أي شيء محرج ولكنه يهمس في المكان المناسب بتحية إكبار لإخلاص «جوريس» الذي تقرّ به سائر الأحزاب. لكن البارون كان قد أقصى كذلك بعض سيدات من الأرستقراطية كانت السيدة «فيردوران» قد ارتبطت معهن مؤخراً بعلاقات بمناسبة احتفالات موسيقية وعرض مجموعات وحفلات خيرية، ولعله كان من الممكن أن يصبحن، ومهما أمكن السيد «دو شارلوس» أن يعتقد بشأنهن، عناصر أساسية ليشكلن لدى السيدة «فيردوران» نواة جديدة. هي

(١) باليه من إعداد «سترافنسكي».

هذه المرة أرستقراطية، وكانت السيدة «فيردوران» قد اعتمدت بالضبط على هذه الحفلة التي سيأتيها فيها السيد «دو شارلوس» بسيدات من العالم نفسه لتضم إليهن صديقاتها الجديدات، ونعمت سلفاً بالدهشة التي ستصيبهن جراء التقائهن في محلة رصيف «كونتي» صديقاتهن أو قريباتهن اللواتي دعاهن البارون. لقد كانت مخيبة الأمل حانقة للخطر الصادر عنه. بقي أن نعلم إن كانت الأمسية ستؤول في هذه الظروف إلى ربح أو إلى خسارة في ما يخصها والخسارة هذه قد لا تكون مفرطة الخطورة إن أقبلت مدعوات السيد «دو شارلوس» على الأقل يحملن للسيدة «فيردوران» مشاعر كثيرة الودّ حتى ليضحين بالنسبة إليها صديقات المستقبل. ولن يكون ثمة في هذه الحال سوى نصف ضرر، وفي يوم قريب سوف يجمع نصفا علية القوم اللذان أراد البارون أن يفصل بينهما، على أن لا يكون هو في عداد الحاضرين في ذلك المساء. كانت السيدة «فيردوران» إذن تنتظر مدعوات البارون بشيء من الانفعال. وما كان سيطول به الوقت لتعرف الذهنية التي يجئن بها والعلاقات التي يمكن أن تأمل المعلمة إقامتها معهن. وبانتظار ذلك كانت السيدة «فيردوران» تتشاور والخلص لديها، لكنها توقفت تماماً إذ أبصرت «شارلوس» يدخل برفقة «بريشو» ورفقتي.

وحينما أفصح لها «بريشو» عن أساه لعلمه بأن صديقتها الحميمة كانت سيئة الحال إلى هذا الحد، أجابت السيدة «فيردوران»، وكانت دهشتنا بذلك كبيرة: «اسمع، أراني مضطرة أن أقر بأني لا يداخلني حزن البتة، فليس يجدي التظاهر بمشاعر لا تحس بها...» لا شك أنها كانت تقول ما تقول لفقدان الهمة لديها لأنها إنما كانت ترهقها فكرة أن تصطنع لذاتها وجهاً حزيناً طوال فترة استقبالها. واستكباراً كي لا يبدو أنها تبحث عن أعذار لأنها لم تلغه، واستحياء مع ذلك ولفتة بارعة لأن غياب الحزن الذي تبديه أحفظ للكرامة، إن انبغى أن ترده إلى نفور خاص من الأميرة برز فجأة، مما لو عزته إلى فقد شامل للإحساس، ولأنه لا يمكن للمرء أن يستسلم جراء صراحة لا سبيل إلى وضعها موضع شك: أفلعل السيدة

«فيردوران»، لو لم تكن حقاً غير مبالية بموت الأميرة، ألعلها كانت راحت، بغية تفسير أن تكون أقامت استقبالاً، تتهم نفسها بذنب أكثر أكثر خطورة؟ لقد كنا ننسى بذلك أن السيدة «فيردوران» ربما كانت أقرت، إلى جانب حزنها، أن الشجاعة لم تحالفها في التخلي عن إحدى المتع؛ على أن قسوة الصديقة أمر أشد حرجاً للمشاعر وأكثر لا أخلاقية، ولكنه أقل إذلالاً وبالتالي أيسر إقراراً من طيش سيدة البيت. وإنما المصلحة، على صعيد الجريمة وحيثما يكمن الخطر بالنسبة إلى المتهم، هي التي تملي الاعترافات. أما بالنسبة إلى الذنوب التي لا عقاب عليها فالكبرياء. بيد أن السيدة «فيردوران»، إما أن تكون وجدت دون شك على ابتذال شديد حجة الناس الذين يروحون، بغية أن لا يدعوا للأتراح أن توقف حياة الملذات لديهم، يرددون أن ليس يجديهم نفعاً، فيما يبدو، أن يبرزوا على الملأ حداداً يحملونه في الفؤاد ففضلت تقليد هؤلاء الجناة الأذكياء الذين ينفرون من مكررات البراءة ويقوم دفاعهم - وهو نصف إقرار دون أن يرتابوا للأمر - على الجهر بأنهم ما كانوا ليجدوا أي سوء في اقتراف ما يتهمون به وما لم يؤتوا، بالمصادفة على أية حال، فرصة القيام به، وإما أنها وجدت، بعدما تبنت مقولة اللامبالاة سبيلاً لتفسير سلوكها وهوت على منحدر شعورها الشرير، أن ثمة شيئاً من الفرادة في الإحساس به ونفاذ بصيرة نادراً في الإفلاح في تبينه وبعض الجسارة في الجهر به على هذا النحو، السيدة «فيردوران» هذه حرصت على الإلحاح على غياب الحزن لديها، ولا تفعل دون شيء من الرضى المستكبر بحس به عالم نفس مفارق الرأي ومسرحي جسور، «أجل، تقول، هذا غريب جداً، لم أحس بشيء تقريباً، يا الله، لا أستطيع أن أقول إني ما كنت فضلت أن تعيش، فما كانت امرأة سيئة». وقاطعها السيد «فيردوران» قائلاً: «بلى». - «آه! إنه لا يحبها فقد كان يجد أن استقبالها يلحق بي الأذى، وإنما ذلك يعميه». وقال السيد «فيردوران»: «هيا أنصفيني بأني لم أقرّ في يوم هذه العشرة. قلت لك دوماً إنها سيئة السمعة». واحتج «سانييت» قائلاً:

«ولكني لم أسمع البتة من يقول ذلك». فصاحت السيدة «فيردوران» قائلة: «كيف ذلك؟ كان الأمر معروفاً على أوسع نطاق، لم تكن سيئة، لكنما مخجلة، معيبة، لا، ليس بسبب ذلك، قد لا أفلح شخصياً في تفسير شعوري. ما كنت أمقتها، لكنها كانت لا تعني لي شيئاً إلى حد أن زوجي نفسه، حينما علمنا أنها في أسوأ حال، أخذته الدهشة، وقال لي: «لكأنما الأمر لا يعنيك في شيء». ولكن اسمع. لقد سبق أن عرض عليّ في هذا المساء إلغاء الحفلة التجريبية وحرصت على العكس على إقامتها فقد كنت ألفيتها مهزلة أن أبدي حزناً لا أكابده». كانت تقول لأنها تراه من نوع «المسرح الحر» إلى حد غريب، وأنه ميسر إلى حد بعيد، ذلك لأن فقدان الشعور أو غياب الأخلاق المعلن إنما يولي الحياة بساطة بقدر ما تفعل الأخلاق السهلة، وهو يجعل من الأعمال الذميمة، والتي لا حاجة من بعد إلى البحث عن عذر لها، صراحة واجبة. وكان الخلص يصغون إلى أقوال السيدة «فيردوران» بهذا الخليط من الإعجاب وعدم الارتياح الذي كانت سببه فيما مضى بعض المسرحيات القاسية في واقعيتها والمؤلمة في مشاهداتها. وكان كثير منهم، فيما يعجب بأن تقوم المعلمة العزيزة بإكساب استقامتها واستقلاليتها شكلاً جديداً، يفكر في موته، فيما يقول في نفسه إن الأمر في نهاية المطاف لن يكون مثله الآن، ويتساءل إن كانوا سيبكون يوم تقع الواقعة أم هم سيقيمون حفلة في رصيف «كونتي». وقال السيد «دو شارلوس»: «إني مسرور جداً أن لم تلغ الأمسية، وذلك بسبب مدعوي». دون أن يتبين أنه يسيء إلى السيدة «فيردوران» بالتحدث على هذه الصورة.

في تلك الأثناء كانت قد لفتت انتباهي، شأن كل من اقترب فيذاك المساء من السيدة «فيردوران»، رائحة مطهّر أنفي غير مستحبة إلى حد ما. وإليك مردّ ذلك. نعلم أن السيدة «فيردوران» لم تكن تعبر عن انفعالاتها الفنية في يوم بطريقة روحية بل مادية كي تبدو أكثر حتمية وأشد عمقاً، فإن اتفق أن حدثوها عن موسيقى «فانتوي»، وهي المفضلة لديها، كانت تلبث

غير مبالية وكأنما لا تتوقع منها أي انفعال لكنها كانت تجيبك، في أعقاب بضع دقائق من نظرة ثابتة تكاد تكون ساهية، تجيبك بلهجة واضحة واقعية تكاد تكون قليلة التأدب. كما لو كانت قالت لك: «سيان عندي أن تدخن، ولكنما ذلك بسبب السجادة فهي جميلة جداً. ولعل الأمر بعد لا يهمني، ولكنها سريعة الاشتعال وخشيتي من النار عظيمة ولست أود إحراقكم جميعاً بسبب عقب سيكارة غير مطفأة تماماً ربما أسقطموها أرضاً». والأمر واحد بخصوص «فانتوي»؛ فإن جرى الحديث عنه لم تجهر بأي إعجاب ولكنها كانت تعبر بعد لحظة، عن أسفها أن تُعزَف موسيقاه في هذا المساء، بلهجة فاترة: «لست أكنّ لـ«فانتوي» أي عداء، وهو حسبما أرى أعظم موسيقي في هذا القرن، ولكني لا استطيع سماع هذه الآلات دون أن أكف عن البكاء لحظة (وما كانت تنطق كلمة «البكاء» بلهجة مأساوية ولعلها كانت نطقت بذات اللهجة الطبيعية كلمة «النوم»، بل ربما زعمت بعض ألسنة السوء أن هذا المصدر الأخير ربما كان أكثر صحة، ذلك أنه لم يكن بمقدور أحد على أي حال أن يجزم في الأمر فقد كانت تستمع إلى تلك الموسيقى ورأسها بين يديها وكان يمكن أن تبدو بعض أصوات الشخير في نهاية المطاف وكأنها زفرات)، والبكاء لا يؤذيني، قدر ما يشاؤون، لكنما يورثني ذلك رشوحات «الله مولاها»، ويؤدي بي إلى احتقان الغشاء المخاطي وأبدو بعد ثمانٍ وأربعين ساعة وكأني عجوز سكيرة ولا بد لي كيما تعمل حبالي الصوتية من قضاء أيام أنشق نشوقاً. ثم إن أحد تلاميذ «كوتار» في النهاية...» - «أوه! ولكني بهذه المناسبة لم أقدم لك تعازيّ فما أسرع ما غيبه الموت، ذاك الأستاذ المسكين!» - «أجل، وما باليد حيلة، لقد مات، مثله مثل الناس جميعاً، وكان قتل كفايته من الناس كيما يجيء دوره فيوجه ضرباته إلى نفسه. كنت أقول لك إذن إن أحد تلامذته، وهو أستاذ رائع، كان قد عالجني بهذا الشأن. وهو يجهر بمسلمة طريفة إلى حد ما: «الوقاية خير من العلاج». ويدهن أنفي قبلما تبدأ الموسيقى. والأمر حاسم، بوسعي أن أبكي بقدر ما

لست أدري من أمهات فقدن أولادهن، ولا رشح البتة. شيء من التهاب الملتحمة أحياناً، هذا كل شيء. فالنجاعة مطلقة. ولولا ذلك لما أمكنني مواصلة سماع موسيقى «فانتوي». فما كنت أقوم إلا بالانتقال من نزلة شُعَبية إلى أخرى».

ولم يعد بوسعي أن أمسك عن التحدث عن الآنسة «فانتوي». فسألت السيدة «فيردوران»: «أليست ابنة المؤلف هنا، وكذلك إحدى صديقاتها؟» فقالت لي السيدة «فيردوران» مراوغة: «لا، لقد تسلمت في الحال برقية؛ وهما اضطرتا إلى البقاء في الريف». وداخلني على مدى لحظة أمل أن ربما لم تطرح حتى البتة مسألة مجيئهما وأن السيدة «فيردوران» لم تعلن عن ممثلتي المؤلف إلا للتأثير تأثيراً إيجابياً على المؤدين والجمهور. «عجباً، هما إذن لم تجيئا حتى إلى حفلة العرض الأول منذ قليل؟»، يقول باستغراب كاذب البارون الذي أراد أن يبدو وكأنه لم يبصر «شارلي». وأقبل هذا يسلم عليّ. وسألته همساً في ما يخص اعتذار الآنسة «فانتوي». وبدا أنه قليل الاطلاع إلى حد بعيد. وأشرت إليه أن لا يتحدث بصوت عالٍ ونبّهته إلى أننا سوف نعيد الكلام في ذلك. وانحنى وهو يعدني بأنه سيكون في غاية السعادة أن يكون بتصرفي التام. ولاحظت أنه أشد أدباً وأكثر احتراماً بما يجاوز الأمس كثيراً. وأثنيت عليه - هو الذي ربما استطاع أن يجلو شكوكي - أمام السيد «دو شارلوس» الذي أجابني قائلاً: «ليس يفعل إلا ما يجدر به أن يفعل، وقد لا تكون به حاجة للعيش بصحبة أناس من خيرة الناس كيما يكتسب عادات سيئة». فأما الجيدة، حسبما يرى السيد «دو شارلوس»، فالعادات الفرنسية القديمة التي لا ظل فيها لجفاء بريطاني. من ذلك أن البارون، حينما كان «شارلي» يلقي عصا الترحال، عائداً من جولة قام بها في الأقاليم أو البلدان الأجنبية. في منزل البارون وهو بحلة السفر، كان يقبّله دون كلفة، إن لم يكن هنالك عدد كبير من الناس، على الوجنتين ربما ليبعد إلى حد ما، بهذا القدر من الرقة المعلنة على الملأ، أية فكرة من إمكان أن تكون آثمة، وربما كي لا يحرم

نفسه متعة، ولكن فوق ذلك دون شك من منطلق أدبي وللمحافظة على العادات القديمة في فرنسا وبغية إيضاحها، وكما لعله كان احتج على طراز «مونيخ» أو الطراز الحديث بالاحتفاظ بكنبات قديمة لجدة جدته، فيضع قبالة البرودة البريطانية حنان أب حساس من القرن الثامن عشر لا يخفي فرحه في لقاء ابن له، وأخيراً هل كان ثمة، في هذا الحنان الأبوي، ظل من علاقة المحارم؟ والأرجح أن الطريقة التي تعوّد السيد «دو شارلوس» أن يشبع بها عيبه والتي سيردنا لاحقاً بعض الإيضاحات بشأنها لم تكن لتكفي حاجاته العاطفية التي لبثت شاغرة منذ وفاة زوجته؛ ومهما يكن من أمر فقد كان يتنازعه الآن، بعدما راودته مرات عدة فكرة زواج ثانٍ، ميل مهووس إلى التبني وخشي نفر من حوله أن ينصبّ على «شارلي». وليس ذلك بالأمر الغريب. فإن الشاذ الذي لم يستطع تغذية هواه إلا بأدبيات كتبت من أجل الرجال الميالين إلى النساء، والذي كان يفكر بالرجال وهو يقرأ «ليالي» الشاعر «دو موسيه»، إنما يحسّ بالحاجة إلى أن يباشر كذلك سائر الوظائف الاجتماعية للرجل غير الشاذ، وأن ينفق على أحدهم على غرار عشيق للراقصات وعجوز من رواد الأوبرا، وكذلك أن يعقل وأن يتزوج أو يلازم رجلاً وأن يصبح والداً.

وانتحى بعيداً بصحبة «موريل» بحجة أن يوضح له ما سوف يجري عزفه فيرى على وجه الخصوص عذوبة كبيرة، فيما يعرض عليه «شارلي» موسيقاه، أن ينشر هكذا على الملأ ألفتهما الخفية. وفي هذه الأثناء كنت مفتوناً. فعلى الرغم من أن العشيرة الصغيرة كانت تحوي القليل من الفتيات كانوا يدعون عدداً لا بأس به على سبيل التعويض في أيام الأمسيات الكبيرة. كان ثمة عدة منهن ومن أكثرهن جمالاً ممن أعرفهن. وكن يبعثن إليّ من بعيد بابتسامة مرحبة. فكانت الأجواء تزدان هكذا بين الحين والحين بابتسامة فتاة جميلة، وتلك هي الزينة المتعددة المبثوثة في الأماسي والأيام على حد سواء. والمرء يتذكر جواً من الأجواء لأن فتيات ابتسمن فيه.

ولعل المرء من جانب آخر يدهش أشد الدهشة لو أنه لاحظ الأقوال المختلسة التي تبادلها السيد «دو شارلوس» وعدة رجال ذوي شأن في هذه الأمسية. كان هؤلاء الرجال دوقين وجنرالاً بارزاً وكاتباً كبيراً وطبيباً كبيراً ومحامياً كبيراً. وكانت الأقوال هي الآتية: «بالمناسبة، هل رأيت إن كان الخادم الخاص، لا، إني أتحدث عن الصغير الذي يصعد فوق العربة... ولدى ابنة عمك «الغيرمانتية» ألست تعرف أحداً؟» - «في الوقت الحاضر، لا». - «هيا قل لي، كان ثمة أمام باب المدخل، باب العربات، شخص فتي أشقر ببنطال قصير، وقد بدا لي خفيف الظل تماماً. لقد استدعى لي عربتي بصورة لطيفة جداً، وكنت بطيبة خاطر أطلت في الحديث». - «أجل، ولكني أظنه عدائياً تماماً، ثم إنه يتصنع الأمور، وأنت من يحب أن تنجح الأمور من أول مرة ربما وافاك قرف من ذلك على أي حال لا سبيل إلى ذلك، فقد جرب واحد من أصدقائي». - «ذلك مؤسف، فإني وجدت صورته الجانبية ناعمة جداً والشعر رائعاً». - «حقاً، ترى ذلك حسناً إلى هذا الحد؟ عندي أنك لو رأيته أكثر قليلاً لعدت عن أوهامك. لا، فإنما كنت رأيت في المقصف منذ شهرين فقط شيئاً رائعاً حقاً، رجلاً قوياً يبلغ المترين، له بشرة مثالية، ثم إنه مغرم بذلك. ولكنه رحل إلى بولونيا». - «آه! المكان بعيد بعض الشيء». - «من ذا يدري؟ ربما عاد، فالناس تتلاقى دوماً في الحياة». ليس من أمسية مجتمعية كبيرة، إن عرفنا، بغية أخذ مقطع منها، كيف نأخذه على عمق كاف، لا تكون شبيهة بتلك الأمسيات التي يدعو الأطباء مرضاهم إليها فتجري على ألسنتهم أقوال تفيض رصانة ويسلكون أحسن السلوك وربما لا يبدون أنهم مجانين لو لم يهمسوا في أذنك وهم يدلونك على رجل عجوز يمر بطريقه: «هذه جان دارك».

وقالت السيدة «فيردوران» لـ«بريشو»: «أرى أنه ربما كان من واجبنا أن ننوره. ما أفعله ليس موجهاً ضد «شارلوس»، على العكس. إنه لطيف المعشر، فأما سمعته فأقول لك إنها من صنف لا يمكن أن يلحق بي

الأذى! حتى أنا التي تكره المغازلات من أجل عشيرتنا الصغيرة. من أجل أعشية لنا قائمة على تداول الحديث، إذ يقول الرجال سخافات لامرأة في زاوية بدلاً من الخوض في موضوعات مفيدة. فما كان عليّ أن أخشى مع «شارلوس» ما وقع مع «سوان» و«إيلستير» وكثيرين سواهم. كنت مطمئنة معه فقد كان يفد إلى أعشيتي ويمكن أن يكون ثمة نساء العالم كافة فتراك متيقناً أن الحديث العام لا تعكره المغازلات والتهامسات. «شارلوس» نسيج وحده، والمرء معه في طمأنينة، لكأنما الأمر أمر كاهن. بيد أنه ينبغي ألا يسمح لنفسه بالتحكم بالشبان الذين يأتون إلى هنا وإشاعة الاضطراب في نواتنا الصغيرة وإلا أصبح الأمر أسوأ مما هو أمر رجل زير نساء». وكانت السيدة «فيردوران» صادقة إذ اعلنت على هذا النحو تسامحها إزاء نزعة «شارلوس». كانت تحكم، شأنها في ذلك شأن كل سلطة كنسية، مظاهر الضعف البشري أقل خطراً مما يمكن أن يضعف مبدأ السلطة ويلحق الأذى باستقامة الإيمان وبغير قانون الإيمان القديم في كنسيتها الصغيرة. «وإلا كشرت عن أنيابي أنا. هو ذا سيد منع «شارلي» من المجيء إلى عرض تجريبي لأنه لم يكن مدعواً إليه. وسينال لذلك إنذاراً جدياً وأملي أن هذا سيكفيه وإلا فما عليه سوى «استلام» الباب. إنه وشرفي يحتجزه». واستعملت بالضبط ذات التعابير مثلما ربما كان فعل الجميع تقريباً، إذ ثمة تعابير قليلة الشيوع يجعلها هذا الموضوع الخاص وذلك الظرف المحدد تتدفق بالضرورة تقريباً في ذاكرة المتحدث الذي يخيل إليه أنه يعبّر بحرية عن فكره وليس يفعل سوى ترداد آلي للدرس العام، فأضافت تقول: «لست تستطيع رؤيته من بعد دون أن يجرجر خلفه هذا «العتعيت» الضخم وما يشبه الحارس الشخصي». وعرض السيد «فيردوران» أن يصطحب «شارلي» لحظة ليكلمه بحجة سؤاله أمراً ما. وخشيت السيدة «فيردوران» أن يضطرب فيما بعد ويسوء عزفه. «قد يكون من الأفضل إرجاء تنفيذ ذلك إلى ما بعد تنفيذ المقطوعات، بل ربما إلى مرة أخرى». فعبثاً تحرص السيدة «فيردوران» على الانفعال اللذيذ الذي

ستحس به حينما تعلم أن زوجها أخذ في تنوير «شارلي» في غرفة مجاورة، إلا أنها كانت تخشى، إن طاش السهم، أن يغضب ويتخلى عن يوم الـ ١٦.

ما فضح أمر السيد «دو شارلوس» في ذلك المساء كان سوء التربية – وما أكثره في هذا العالم – لدى اللواتي سبق أن دعاهن واللواتي أخذن بالتوافد. وإذ جئن تدفعهن المودة للسيد «دو شارلوس» والفضول لدخولهن إلى مكان كهذا، كانت كل دوقة تمضي رأساً إلى البارون كما لو كان هو صاحب الاستقبال، وتقول لي وهي على خطوة بالضبط من عائلة «فيردوران» التي كانت تسمع كل ما يقال: «دلني أين هي الخالة «فيردوران»، وهل تظن أن لا بد من أن يجري التعريف بي؟ آمل على الأقل أنها لن تطلب إدراج اسمي في صحيفة الغد ففي ذلك ما قد يوقعني في خصام مع ذويّ كافة. عجباً، أهي هذه المرأة ذات الشعر الأبيض؟ لكنها لا تبدو سيئة المسلك إلى هذا الحد». وكثيرات كن يقلن إذ يسمعن من يتحدث عن الآنسة «فانتوي». وهي غائبة على أي حال: «آه! ابنة السوناتا؟ دلني عليها»، وإذ يلتقين صديقات لهن كثيرات، كن يتنحين جانباً ويترصدن، متوقدات فضولاً ساخراً. وقود الخلص وأكثر ما يجدن أن يدل بعضهن بعضاً بالإصبع على تصفيفة غريبة بعض الشيء لامرأة سوف تجعل منها بعد بضع سنوات الزي الشائع في أعلى طبقات المجتمع، ويأسفن بإجمال القول ألا يلفين هذا الصالون على قدر ما أملن من اختلاف عن الصالونات التي يعرفنها ويشعرن بخيبة أرباب المجتمع الذين يرون، بعد أن ذهبوا إلى حانة «بروبان»[1]. وأملهم أن يقذفهم القوال بالشتائم، أنهم استقبلوا لدى دخولهم بتحية لائقة بدلاً من اللازمة المنتظرة: «هيا انظروا إلى هذا الشدق، إلى هذا الوجه. هيا انظروا إلى هذا الشدق الذي لها».

كان السيد «دو شارلوس» قد وجّه في «بالبيك» أمامي نقداً مرهفاً إلى

---

(١) Aristid Bruant أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين من القوالين الشهيرين الذين دأبوا على تشهير محبب برواد المقاهي أو المسارح (ولا يزالون).

السيدة «دو فوغوبير» التي سببت، على الرغم من ذكائها العظيم، نكسةلا مرد لها لحظوة زوجها في أعقاب نجاح فاق الآمال. فإنه لما عاد العاهلان اللذان كان السيد «دو فوغوبير» معتمداً لديهما، عنينا الملك «ثيودوز» والملكة «أودوكسي»، إلى باريس ولكن لإقامة طويلة بعض الشيء هذه المرة، أقيمت احتفالات يومية على شرفهما بادرت الملكة في أثنائها، وهي تربطها عرى الصداقة بالسيدة «دو فوغوبير» التي كانت تلقاها منذ عشر سنوات في عاصمتها، وإذ هي لا تعرف لا زوجة رئيس الجمهورية ولا زوجات الوزراء، بالانصراف عنهن منتحية بزوجة السفير جانباً. وإذ اعتقدت هذه الأخيرة أن مركزها في مأمن من أي أذى، بما أن السيد «دو فوغوبير» هو صانع التحالف بين الملك «ثيودوز» وفرنسا، فقد استخلصت من الإيثار الذي أبدته لها الملكة شعوراً بالرضى والكبرياء، ولكن دون أن تبالي مطلقاً بالخطر الذي كان يتهددها والذي تحقق بعد بضعة أشهر، بالحدث الذي حكم الزوجان الواثقان بإفراط، فلم يصيبا، أنه مستحيل، حدث إحالة السيد «دو فوغوبير» الفظة على المعاش. وكان السيد «دو شارلوس» يعجب، وهو يعلق في القطار الصغير على سقوط صديق طفولته، أن لا تكون امرأة ذكية وضعت في مثل هذا الظرف كامل نفوذها لدى العاهلين في أن تحصل منهما على أن تبدو وكأنها لا تملك أي نفوذ وأن تحملهما على أن يحيلا إلى زوجة رئيس الجمهورية وزوجات الوزراء لطفاً كن ازددن اعتزازاً به، أي كن ازددن به، في غمرة بهجتهن، اقتراباً من الإقرار بجميل عائلة «فوغوبير»، بقدر ما كن اعتقدن أن ذاك اللطف تلقائي وغير مملى من جانبهما. لكن من يتبين خطأ الآخرين كثيراً لا يقع فيه لأقل ما ينتشي بالظروف. والسيد «دو شارلوس» لم يخطر بباله، فيما كان مدعووه يشقون طريقهم ليبادروا على تهنئته وإسداء الشكر له كما لو كان رب المنزل، أن يطلب إليهم وجيه بضع كلمات للسيدة «فيردوران». وحدها ملكة «نابولي»، وكان يملأ عروقها ذات الدم النبيل الذي يجري في عروق شقيقتيها الإمبراطورة «إليزابيث» والدوقة

«دالنسون»، أخذت تتحدث إلى السيدة «فيردوران» كما لو أنها جاءت لمتعة لقاء السيدة «فيردوران» أكثر منها للموسيقى والسيد «دو شارلوس» وأسمعت «المعلمة ألفاً من التصريحات، ولم ينضب معين كلامها عن التوق الذي اعتمل في صدرها منذ فترة طويلة إلى التعرف بها، وأثنت على منزلها وكلمتها عن الموضوعات الأكثر اختلافاً كما لو كانت في زيارة. لكم ودت أن تصطحب ابنة شقيقتها «إليزابيث»، تقول، «تلك التي كانت ستتزوج قليلاً بعد ذلك «ألبير» أمير بلجيكا»، وما أكثر ما ستأسف لذلك! وسكتت وهي تبصر الموسيقيين يتخذون مقاعدهم على المنصة وطلبت أن يدلوها على «موريل». ولا بد أنها ما كانت تساورها الأوهام حول الدوافع التي تحمل السيد «دو شارلوس» على ابتغاء إحاطة الموسيقار الشاب بهذا القدر من المجد. لكن فطنتها العريقة كعاهلة كان يجري في عروقها أحد الدماء الأكثر نبلاً في أوروبا والأثرى تجربة وارتياباً وكبراً كانت تحملها على محض العاهات المحتومة لدى من تحبهم أكثر ما تحب من الناس، مثل ابن عمها «شارلوس» (وهو كحالها ابن إحدى دوقات «بافيير»). على أنها حظوظ عاثرة تجعل الدعم الذي يمكن أن يلقوه لديها أوفر ثمناً وتوفر لها بالتالي إحساساً بالمتعة أكبر بعد في توفيره لهم. كانت تعلم أن السيد «دو شارلوس» سوف يتأثر تأثيراً مزدوجاً من أن تكون كلّفت نفسها في مثل هذه المناسبة. على أن هذه المرأة، وهي طيبة بقدر ما أبدت بالأمس شجاعة، هذه المرأة البطلة التي قامت بنفسها، هي الملكة الجندية، بإطلاق النار على أسوار «غاييت»[1]، وكانت دائمة الاستعداد للمبادرة إلى جانب الضعفاء بروح من الفروسية، حاولت إذ رأت السيدة «فيردوران» وحيدة مهملة وكانت تجهل على أي حال أنه ما كان لها أن تترك الملكة، حاولت أن تتظاهر بأن مركز هذه الأمسية بالنسبة إليها، هي، ملكة نابولي،

---

(١) موقع محصن شاركت فيه ملكة نابولي فعلاً في إطلاق النار عام ١٨٦٠ قبل ذهابها إلى المنفى في باريس.

وبأن نقطة الجذب التي حملتها على المجيء إنما كانت السيدة «فيردوران». واعتذرت وأطالت عن أنها لن تستطيع البقاء حتى النهاية إذ ينبغي لها، مع أنها لا تخرج البتة، الذهاب إلى أمسية أخرى وتطالب على وجه الخصوص ألا يكلفوا أنفسهم حينما تذهب فتعفيهم هكذا من صنوف تكريم ما كانت السيدة «فيردوران» على أية حال تعلم أنه يقع عليهم تأديتها لها.

على أنه لا بد أن ننصف السيد «دو شارلوس» بقولنا إنه إن نسي السيدة «فيردوران» كلياً وجعل ناس «مجتمعه» الخاص به الذين دعاهم ينسونها بما يبلغ حد الفضيحة، فقد أدرك في المقابل أنه يجدر به ألا يدع لهم أن يحتفظوا إزاء «التظاهرة الموسيقية» ذاتها بالتصرفات السيئة التي كانوا يقومون بها تجاه المعلمة. كان «موريل» قد صعد مذ ذاك إلى المنصة والفنانون يتجمعون ولا تزال تسمع أحاديث وحتى ضحكات، من مثل «يبدو أنه لا بد أن يكون المرء على اطلاع كي يفهم»، واتخذ السيد «دو شارلوس» في الحال، وقد رد قامته إلى الوراء وكأنما دخل جسماً آخر غير ذاك الذي سبق أن رأيته منذ قليل يصل وهو يجرجر الخطو إلى منزل السيدة «فيردوران»، اتخذ هيئة نبوية ونظر إلى الحفل بجدية تعني أن الوقت لم يكن وقت ضحك وراح يحمّر منها فجأة محيا أكثر من واحدة من المدعوات وقد أخذت متلبسة شأن طالب من جانب أستاذه في قلب الصف. كانت هيئة السيد «دو شارلوس» ترتدي في نظري، وهي من جانب آخر تنضح نبلاً، مسحة هزلية، فقد كان تارة يصعق مدعويه بلهيب نظراته، وطوراً، وبغية أن يدلهم، وكأنما في «دليل جيب» على الصمت الورع الذي يجدر بهم التزامه والتجرد عن أي اهتمام دنيوي، كان يقدم بنفسه، وهو يرفع إلى جبينه الجميل يديه بقفازيهما الأبيضين، نموذجاً (يجدر الالتزام به) من الرزانة، بل مما يقارب الانخطاف دون أن يرد على تحيات المتخلفين، وبهم شيء من اللااحتشام أن لا يدركوا أن الساعة الآن ساعة الفن الرفيع. فقد افتتن الجميع ولم يجرؤ أحد من بعد على

إصدار صوت، على تحريك كرسي، فقد رسخ احترام الموسيقى فجأة - جراء المهابة التي يتمتع بها «بالاميد» - في أذهان قوم بتساوي سوء تربيتهم وأناقتهم.

وظننت وأنا أبصر لا «موريل» وعازف البيانو فحسب، بل عازفي آلات أخرى يصطفون على المنصة الصغيرة، أنهم يباشرون بعزف أعمال موسيقيين آخرين غير «فانتوي». فقد كنت أعتقد أنهم لا يملكون منه سوى «سوناتا» له للبيانو والكمان.

جلست السيدة «فيردوران» جانباً، ونصفا جبينها الأبيض المورد قليلاً يتحدبان تحدباً رائعاً، مفردة الشعر، فنصف تقليداً لرسم من القرن الثامن عشر، والنصف لحاجة إلى التبرد لدى محمومة يحول الخفر دون أن تبوح بحالتها، متوحدة، إلهة تشرف على الاحتفالات الموسيقية، ربة «الفاغنيرية» والشقيقة، وما يشبه «نورنا»[1] تكاد تكون مأساوية، استحضرتها العبقرية وسط هؤلاء المبرمين الذين ستأنف بعد أكثر من المعتاد أن تعرب أمامهم عن انطباعات تردها وهي تستمع إلى موسيقى كانت تعزفها أفضل منهم. وبدأت الحفلة الموسيقية، وما كنت أعلم ما كانوا يعزفون وكنت أجدني في بلاد مجهولة. فأين أحدد موقعها؟ وفي أعمال أي مؤلف كنت أقف؟ وددت لو أعرف، ولما لم يكن أحد بالقرب مني أسأله عن ذلك فقد وددت لو كنت واحداً من أشخاص **ألف ليلة وليلة** التي كنت أقرؤها دون انقطاع والتي يطلع فيها فجأة في فترات الحيرة والشك جني أو فتاة يافعة فاتنة الجمال تخفي على الآخرين لا على البطل المرتبك الذي تكشف له بالضبط ما يرغب في معرفته. وقد حبيت في تلك اللحظة بالضبط بمثل ذلك الظهور السحري، وكما هي الحال حينما تجد نفسك فجأة، في منطقة تظن أنك لا تعرفها وقد جئتها بالفعل من جانب جديد، تجد نفسك، بعدما انعطفت في درب، تدخل في درب آخر أقل

---

(١) «النورنات» هن إلهات القدر في الأساطير الاسكندنافية والجيرمانية.

زواياه مألوفة لديك ولكنك لم تكن تعودت الوصول من هناك، تقول في نفسك فجأة: «عجباً، إنه الدرب الصغير الذي يقودك إلى باب حديقة أصدقائي الصغير، وأنا على بعد دقيقتين من منزلهم»؛ وابنتهم هنا بالفعل وقد جاءت تقرئك سلاماً عابراً، هكذا تعرفت نفسي فجأة وسط هذه الموسيقى الجديدة عليّ، في قلب «سوناتا» «فانتوي»: والجملة الصغيرة أقبلت إليّ أكثر روعة من فتاة يافعة، مغلفة مدثرة بالفضة تتدفق على جنباتها رئات متلألئة، خفيفة ناعمة كالشالات، أقبلت واضحة المعالم في أثوابها الجديدة. كانت مسرتي بأن عدت فلقيتها تزداد بالنبرة المعروفة البالغة الود التي تتخذها لمخاطبتي شديدة الإقناع شديدة البساطة ولا يفوتها مع ذلك أن تسمح بأن يتفجر ذلك الجمال البراق الذي تشرق به. وما كان لها من دلالة هذه المرة على أية حال سوى أن تدلني على الدرب، ولم يكن درب السوناتا إذ كانت عملاً لـ«فانتوي» لم يسبق نشره وقد تلهى فيه فحسب، بإلماحة تبررها في هذا المكان كلمة في البرنامج الذي كان ينبغي أن يكون في الوقت نفسه أمام أعيننا، بأن يدفع الجملة الصغيرة إلى الظهور لحظة. وما كادت تستعاد على هذا النحو حتى اختفت وألفيتني ثانية في عالم مجهول، ولكني كنت أعلم الآن، ولم يكف كل شيء من بعد عن أن يثبت لي أن ذاك العالم كان واحداً من تلك التي لم يمكن حتى بمقدوري أن أتصور أن يكون «فانتوي» قد أبدعها، ذلك لأني حينما كنت أحاول، وقد تعبت من السوناتا التي كانت عالماً مستنفداً بالنسبة إليّ، أن أتخيل عوالم أخرى بمثل جماله ولكنها مختلفة، فقد كنت أفعل فحسب فعل هؤلاء الشعراء الذين يملؤون جنتهم المزعومة بالمروج والأزهار والسواقي وهي نُفَلُ تلك الموجودة على الأرض. إن ما كان أمامي كان يوليني مقدار السرور الذي كانت أولتني إياه السوناتا لو لم أعرفها، وكان بالتالي، إذ هو بمثل جمالها، مختلفاً عنها. ففيما كانت السوناتا تتفتح على فجر زنبقي ريفي يقسم بياضها الخفيف لكن ليتعلق بالمشبك الخفيف المتماسك مع ذلك لمعرّش قروي من زهر العسل على

زهر الجيرانيوم الأبيض، كان العمل الجديد يبدأ فوق مساحات موحدة مستوية كسطوح البحر، في صباح عاصف وسط صمت لاذع وفي فراغ لا متناهٍ، وإنما كان هذا العالم المجهول يستخلص من الصمت والليل في تورد الفجر كي يتشكّل شيئاً فشيئاً أمامي. كانت تلك الحمرة الجديدة تماماً، الغائبة تماماً عن السوناتا الرقيقة الريفية الساذجة، تصبغ السماء كلها، مثلما الفجر، بأمل يزخر بالأسرار. وإذا شدو يخترق الجو، شدو من سبع نوطات، لكنه المجهول كأكثر ما يكون، المختلف كأكثر ما يكون عن كل ما كنت تصورت في يوم، ممتنع على القول وصداح في أن، ليس من هديل الحمام شأنه في السوناتا بل يمزق الهواء، بمثل حدة المسحة القرمزية التي كانت البداية غارقة فيها. وما يشبه صباحاً صوفياً للديك ونداء للصبح الأبدي يمتنع على القول ولكنه زائد الحدة. كان الجو البارد الذي غسله المطر والحماس - وهو من نوعية شديدة الاختلاف وضغوط غير الضغوط وفي عالم ما أبعده عن عالم السوناتا البتولي الذي تعمره النباتات - كان يتبدل في كل لحظة طامساً وعد الفجر الذي بلون الأرجوان، بيد أنه كان يبدو في الظهر، عبر إشماس حارق عابر، وكأنه يتحقق عبر سعادة ثقيلة قروية تكاد تكون فظة يبدو فيها ترنح أجراس صداحة هائجة (شبيهة بتلك التي كانت تحرق بحراراتها ساحة الكنيسة في «كومبريه» والتي ربما سبق لـ«فانتوي». الذي لا بد سمعها كثيراً، أن وجدها في تلك الفترة في ذاكرته مثل لون يكون في متناول يدك على ممزجة ألوان) وكأنه يجسّد الفرح الأكثر كثافة. لم تكن لازمة الفرح تلك، والحق يقال، تروقني على الصعيد الجمالي، وكنت أجدها قبيحة أو تكاد، وكان إيقاعها يجر الخطو بمشقة عظيمة حتى تستطيعأن تقلد ما كان أساسياً فيها تقريباً بمحض أصوات، كأن تضرب بطريقة ما أعواداً على طاولة. كان يبدو لي أن «فانتوي» قد خانه الإلهام هنا وخانتني كذلك قليلاً آنها قوة التركيز.

ونظرت إلى المعلمة. وكان جمودها القاسي يبدو وكأنه يحتج على

الحركات الإيقاعية التي تؤديها رؤوس سيدات «الضاحية» الجاهلة. ما كانت السيدة «فيردوران» تقول: «تدركون أني عارفة قليلاً بهذه الموسيقى، وقليلاً بشق النفس! ولو انبغى أن أعرب عن كل ما أحسه لما كنتم تبلغون حدوده!» ما كانت تقول ذلك. لكن قامتها المنتصبة الجامدة وعيناها الخاليتان من أي تعبير وخصل شعرها المتهربة كانت تقوله عنها. كانت تروي إلى ذلك عن شجاعتها وأن العازفين يمكن أن يذهبوا قدماً وأن لا يراعوا أعصابها فلن تخور عزائمها في حركة الـ«أندانتيه» ولن تصرخ في حركة الـ«أليغرو»[1]. ونظرتُ إلى هؤلاء الموسيقيين. كان عازف «الفيولونسيل» يملك آلته التي يشد عليها بين ركبتيه وهو يحني رأسه الذي توليه بعض القسمات العامية في لحظات التصنع ملامح قرف لا إرادية، كان ينحني فوق آلة الـ«كونترباس» ويجسها بذات التصبر المنزلي كما لو يقشر الملفوف، فيما عازفة «القيثار» بالقرب منه، ولا تزال طفلة بتنورة قصيرة تتجاوزها من كل الجوانب الأشعة الأفقية لرباعي الأضلاع الذهبي الذي يشبه تلك التي ربما مثلت الأثير جزافاً في غرفة مسحورة لإحدى العرافات، طبق الأشكال المكرسة، كانت تبدو وكأنما تذهب باحثة فيه ههنا وهناك، وفي النقطة المعينة، عن نغمة عذبة بالطريقة نفسها التي ربما قامت بها، بصورة إلهة صغيرة رمزية تنصب أمام عريش القبة السماوية المذهب، بقطف الأنجم واحداً واحداً. فأما «موريل» فإن خصلة حتى ذاك غير مرئية وقد اختلطت بشعره انفصلت تواً وشكلت خصلة فوق جبينه.

وأدرت رأسي بصورة غير ملحوظة صوب الجمهور كي أتبين ما كان يبدو أن السيد «دو شارلوس» يفكر به حول هذه الخصلة. بيد أن عيني لم تلتقيا إلا وجه السيدة «فيردوران»، أو بالأحرى يديها لأن الوجه كان مدفوناً كله فيهما. فهل كانت المعلمة تبغي، من خلال هذه الوقفة الخاشعة، أن تبدي أنها تحسب نفسها كأنما في الكنيسة ولا ترى هذه

---

(١) Andante وAllegro الحركتان: البطيئة والسريعة على التوالي.

الموسيقى مختلفة عن أسمى الصلوات؛ وهل كانت تبغي كما هو شأن بعض الأفراد في الكنيسة أن تبعد عن أعين الفضوليين إما احتشاماً لورعهم المفترض أو استحياءً للهوهم الأثيم أو نعاساً لا يقهر؟ كانت هذه الفرضية الأخيرة هي الفرضية التي دفعني صوت منتظم لم يكن موسيقياً إلى الاعتقاد لحظة أنها هي الصحيحة، لكني تبيّنت فيما بعد أنه ناجم عن شخير صادر لا عن السيدة «فيردوران» بل عن كلبتها.

ولكن سرعان ما تملكتني تلك الموسيقى، ثانية بعدما أُقصيَت وشُتّتت لازمة الأجراس الظافرة من جانب لازمات أخرى. وأخذت أتبين أنه إن كان ثمة، داخل هذه السباعية، عناصر مختلفة تطلع بالتناوب لتأتلف في النهاية، كذلك لم تكن «سوناتته»، وكما علمت فيما بعد أعماله الأخرى، لم تكن جميعها إما قيست بهذه السباعية سوى محاولات خجولة، عذبة ولكنها بالغة الهزال إذا ما قيست بالرائعة المظفرة المتكاملة التي كانت تنكشف لي في هذه الساعة. وما كان بمقدوري أن أمنع نفسي عن أن أتذكر، بالمقارنة، أني إلى ذلك كنت قد فكرت بالعوالم الأخرى التي أمكن أن يبدعها «فانتوي»، وكأنما بعوالم مغلقة مثلما سبق أن كان كل واحد من صنوف عشقي. ولكن كان لا بد في الواقع أن أقر لنفسي، مثلما هي داخل هذا الحب الأخير -حبي لـ«أليبرتين» - أن نواياي الأولى في أن أحبها (بادئ ذي بدء في «بالبيك»، ثم في أعقاب لعبة «التمريرة»، ثم في الليلة التي أمضتها في الفندق، ثم عشية عيد آل «غيرمانت»، وأخيراً في باريس حيث ارتبطت حياتي بحياتها ارتباطاً وثيقاً)، إن أمعنتُ الآن النظر لا في حبي لـ«أليبرتين» بل في حياتي كلها، فإن صنوف عشقي الأخرى ما كانت فيها كذلك سوى محاولات زهيدة خجولة تعد لهذا الحب الفسيح. . . حب «أليبرتين» ونداءات تطالب به فسيحاً. وكففت عن متابعة الموسيقى لأسائل النفس ثانية إن كانت «أليبرتين» التقت أم لم تلتق الآنسة «فانتوي» هذه الأيام، مثلما نسائل من جديد ألماً باطنياً أنسانا إياه الشرود فترة. ذلك أن أفعال «أليبرتين» الممكنة كانت تنقضي في داخلي،

فإننا نملك لكل من الأشخاص الذين نعرفهم صنوه، لكنه، وهو الواقع عادة على تخوم خيالنا وذاكرتنا، إنما يبقى نسبياً خارجاً عنا، وليس يتضمّن ما فعله أو أمكن أن يفعله عنصراً مؤلماً بالنسبة إلينا أكثر مما يفعل شيء موضوع على مسافة منا ولا يخلف فينا سوى أحاسيس الرؤية اللامؤلمة. إن ما يؤثر في هؤلاء الأشخاص إنما ندركه بطريقة تأملية وبمقدورنا أن نأسف له بعبارات مناسبة تولي الآخرين فكرة عن قلبنا الطيب، لكننا لا نحس به، لكنما كان صنو «ألبيرتين»، منذ جرحي في «بالبيك»، في قلبي وعلى عمق كبير يصعب استخراجه منه، وما كنت أراه منها يؤذيني كحال مريض جرت مناقلة حواسه بصورة مزعجة إلى حد أن رؤية لون قد يحسها في داخله \تشق في لحمه الحي. لم أكن لحسن حظي قد استسلمت بعد لرغبة قطع علاقتي بـ«ألبيرتين». لقد كان انزعاجي بوجوب التقائها بعد قليل لقاء امرأة حبيبة حينما أعود إلى المنزل شيئاً زهيداً جداً في مقابل الضيق الذي كنت أحسسته لو وقع الانفصال في هذا الوقت الذي يخامرني الشك فيه حولها وقبل أن يكون اتسع الوقت لتضحي غير ذات بال بالنسبة إليّ. ولحظة كنت أتصورها هكذا تنتظرني في المنزل وترى الوقت طويلاً، وربما أغفت قليلاً في غرفتها، داعبتني آنذاك جملة عائلية بيتية رقيقة تنبعث من السباعية. فربما أوحى بها لـ«فانتوي» - لشدة ما يتشابك ويتناضد كل شيء في حياتنا الداخلية - إغفاء ابنته - ابنته التي هي اليوم سبب صنوف اضطرابي جميعها - حينما كان يلف بعذوبته في الأمسيات الهادئة عمل الموسيقي. تلك الجملة التي هدأتني إلى حد كبير بخلفية الصمت الناعمة نفسها التي تهدئ بعض هواجس «شومان» التي يستشف في أثنائها أن «**الطفل يغفى**» حتى حينما «**يتكلم الشاعر**»[١]. سوف أعود فألقاها هذا المساء، غافية، مستيقظة، حينما يروقني ذلك، «ألبيرتين»، طفلتي الصغيرة. وقلت في نفسي: «كان يبدو مع ذلك أن شيئاً

---

(١) عنوانا مقطوعتين للبيانو للموسيقار «شومان».

ما أكثر خفاء من حب «ألبيرتين» جرى الوعد به في مستهل هذا العمل وفي صرخات الفجر الأولى هذه. وحاولت إقصاء فكرة صديقتي كي لا أفكر من بعد إلا بالموسيقى. وكان يبدو على أية حال أنه حاضر هنا. لكأنما كان المؤلف، بعدما تجسد ثانية، يعيش أبداً داخل موسيقاه؛ وكنتَ تحس الفرح الذي يختار به لون هذه الرنة أو تلك ويجانس بينه وبين الأخرى. ذلك أن «فانتوي» كان يجمع إلى مواهب أكثر عمقاً موهبة ملكتها قلة من الموسيقيين، بل قلة من الرسامين، في استعمال ألوان ليست ثابتة جداً فحسب، بل هي شخصية جداً إلى حد أن التلامذة الذين يقلدون ذاك الذي وجدها والأساتذة أنفسهم الذين يفوقونه لا يلقون ظلالاً على طابع الأصالة فيها أكثر مما يفسد الزمان نضارتها. والثورة التي أحدثها ظهورها لا تشهد نتائجها تتماثل والعهود اللاحقة بصورة لا طابع لها؛ إنها تهتاج وتنفجر من جديد ولا يفعل إلا حينما يُعاد عزف أعمال المجدد مدى الحياة فحسب. كانت كل رنة تبرز ذاتها بلون لا تقوى على محاكاته كل قواعد الدنيا التي تعلمها الموسيقيون الأرسخ علماً حتى إن «فانتوي» مع أنه جاء في زمانه وحدد مكانه في التطور الموسيقي، سوف يغادره دوماً ليمضي على احتلال المكان الأول ما إن يجري عزف أحد مؤلفاته الذي يدين، بما يبدو من أنه صدر بعد نتاج موسيقيين أحدث عهداً، لهذا الطابع من الجدة الدائمة المتناقض في الظاهر والمضلل بالفعل. إن صفحة سمفونية لـ«فانتوي» عرفت قبلاً على البيانو ويجرى سماعها من الأوركسترا كانت، على غرار شعاع يوم صيفي يحلله موشور النافذة قبل دخوله قاعة الطعام المظلمة، تكشف، وكأنما ذلك كنز غير متوقع ومتعدد الألوان، عن سائر الأحجار الكريمة في «**ألف ليلة وليلة**». ولكن كيف نشبه بهذا التألق اللامتحرك للنور ما كان حياة وحركة دائمة سعيدة؟ لقد كان «فانتوي» هذا الذي عرفته شديد الخجل، شديد الكآبة، يبدي، إن انبغى اختيار رنة خاصة وأن يجمع إليها أخرى، صنوفاً من الجرأة والسعادة، بكل ما للكلمة من معنى، سعادة لا يدع الاستماع إلى أي عمل له أي شك حولها. إن الفرح الذي بعثته في

نفسه مثل تلك الأصوات الرنانة والقوى المتزايدة التي أولته إياها لاكتشاف أخرى غيرها كانت تنقل المستمع من لقيا إلى لقيا، بل كان المبدع بالأحرى هو الذي يقوده بنفسه، يستقي من الألوان التي وجدها تواً فرحاً غامراً يزوده بالقدرة على الاكتشاف وعلى أن ينقض على تلك التي بدت وكأنها تستدعيها، مفتوناً مرتعشاً وكأنما نفضته شرارة حين كان العنصر السامي يولد من ذاته من تلاقي النحاسيات، لاهثاً منتشياً ذاهلاً مدوخاً فيما يرسم جداريته الموسيقية الواسعة كمثل «ميكيلانجلو» المشدود إلى سلمه وهو يسدد، ورأسه إلى أسفل، ضربات صاخبة من فرشاته إلى سقف كنيسة «السيكستين». لقد قضى «فانتوي» نحبه منذ عدة سنوات، ولكنه أعطى بين هذه الآلات التي أحبها أن يتابع إلى زمن غير محدود قسماً على الأقل من حياته. من حياته البشرية فقط؟ وإن لم يكن الفن بالحقيقة سوى امتداد للحياة، أفكان يساوي أن يضحي بشيء في سبيله، أوليس في مثل لا حقيقتها؟ ما كان بوسعي أن أعتقد ذلك حين أحسن الاستماع إلى هذه السباعية. لا شك أن السباعية المتقدة كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن السوناتا البيضاء، والسؤال الخجول الذي تجيب عنه الجملة الصغيرة عن التوسل اللاهث للتوصل إلى إنجاز الوعد الغريب والذي دوى حاداً جداً، خارقاً جداً، مقتضباً جداً، فتهتز به الحمرة التي لا حراك بها بعد، حمرة السماء الصباحية فوق البحر. مع أن تلك الجمل الشديدة الاختلاف إنما صنعت من العناصر نفسها، فإنه مثلما كان ثمة عالم يمكن لنا أن ندركه في هذه الأجزاء المشتتة ههنا وهناك، في هذه المساكن، في هذه المتاحف، هو عالم «إيلستير»، ذاك الذي كان يراه والذي كان يعيش فيه، كذلك كانت موسيقى «فانتوي» تمدّ، علاقات فعلامات ولمسات فلمسات، التلوينات المجهولة التي لا تقدر بثمن لعالم لا نرتاب بوجوده تجزئه الثغرات التي تخلفها فيما بينها فترات الاستماع إلى أعماله؛ فذانك التساؤلان المتباينان جداً واللذان يتحكمان بالحركة الشديدة الاختلاف في السوناتا والسباعية، إذ يقطع الأول خطاً مستمراً صافياً فيحيله نداءات

قصيرة، ويعيد الثاني تجميع أجزاء متناثرة في بنية لا انفصام فيها، ذاك الهادئ جداً الرجل المتجرد الذي يقرب أن يكون فلسفياً وهذا الملحاح المضطرب المتوسل، ذانك كانا مع ذلك الصلاة نفسها انطلقت أمام إشراقات داخلية مختلفة للشمس وتكسرت فحسب عبر الأوساط المتباينة لأفكار مختلفة وبحوث فنية في تطور في غضون سنوات عزم فيها على إبداع شيء جديد. وهي صلاة، هو رجاء كان في الأساس واحداً، تتعرفه خلف أقنعته في أعمال «فانتوي» المختلفة ولا تجده من جانب آخر إلا في أعمال «فانتوي». وتلك الجمل، ربما تمكن كتاب الموسيقى من العثور على انتمائها وتسلسل نسبها في أعمال موسيقيين آخرين كبار، ولكن لأسباب ثانوية فحسب، لتشابهات خارجية، لتماثلات وجدت ببراعة من جانب المحاكمة العقلية أكثر مما جرى الإحساس بها بالانطباع المباشر. كان الانطباع الذي تخلفه جمل «فانتوي» تلك مختلفاً عن أي انطباع آخر كما لو أن الفردي كان موجوداً على الرغم من النتائج التي يبدو أنها تستخلص من العلم. وإنما كنت بالضبط، حينما كان يحاول بقوة أن يبدو جديداً، تتعرّف خلف الاختلافات الظاهرة التماثلات العميقة والتشابهات المقصودة الكائنة داخل أحد الأعمال، حينما كان «فانتوي» يكرر مرات عدة ذات الجملة وينوع فيها ويتسلى بتغيير إيقاعها وإعادة إبرازها في شكلها الأول، تلك التشابهات المقصودة، التي من عمل العقل، السطحية حكماً، ما كانت تفلح البتة في أن تكون بمثل تأثير هذه التشابهات المخفاة اللاإرادية التي كانت تنطلق بألوان مختلفة بين الرائعتين المتميزتين؛ ذلك أن «فانتوي» كان حينئذ. وهو يحاول بقوة أن يكون جديداً، يسائل نفسه وبكامل طاقة جهده الخلاق كان يبلغ ماهيته ذاتها في تلك الأعماق التي دوماً تردّ، أياً كان السؤال الذي يطرح عليها، بالنبرة نفسها، نبرتها الخاصة، نبرة، هي نبرة «فانتوي»، منفصلة عن نبرة الموسيقيين الآخرين باختلاف يتجاوز كثيراً الاختلاف الذي ندركه بين صوت شخصين، بل بين خوار وصوت جنسين من الحيوانات؛ اختلاف حقيقي، ذاك القائم بين فكر

هذا أو ذاك من الموسيقيين وتقصيات «فانتوي» الدائمة، والسؤال الذي طرحه على نفسه بأشكال ما أكثرها، وتأمله المعتاد ولكنه مُخلى من أشكال المحاكمة العقلية التحليلية بقدر ما لو جرت في دنيا الملائكة بحيث يمكننا أن نقيس عمقه لكننا لا نقوى على ترجمته إلى لغة بشرية أكثر مما تستطيع أن تفعل الأرواح المفصولة عن أجسادنا حينما يستحضرها وسيط ويسألها عن أسرار الموت؛ وإنما لنبرة، إذ على الرغم من كل شيء، وحتى إن أخذنا في اعتبارنا تلك الأصالة المكتسبة التي أدهشتني بعد الظهر، تلك القرابة كذلك التي ربما استطاع أن يجدها مؤلفو الموسيقى بين الموسيقيين، إنها لنبرة وحيدة تلك التي يرقى إليها، التي يعود إليها على الرغم منهم أولئك المغنون العظام الذين هم الموسيقيون الأصليون، وإنها لبرهان على وجود النفس الفردي غير المنقوص، فإما حاول «فانتوي» أن يقدم ما كان أكثر آبهة وأوفر فخامة، أو أن يقدم ما يتسم بالحيوية والمرح، أن يقدم ما كان يراه ينعكس مظهراً جميلاً في أذهان الجمهور، كان يغمر كل ذلك على الرغم منه في موجة من الأعماق تجعل لحنه أبدياً ومعروفاً في الحال. وهذا اللحن المختلف عن لحن الآخرين المسائل لسائر ألحانه، أين تعلمه «فانتوي»، أين سمعه؟ إن كل فنان إنما يبدو على هذه الصورة وكأنه مواطن في وطن مجهول ومنسي لديه يختلف عن ذاك الذي سيجيء منه في إقلاعه عن الأرض فنان كبير آخر. وكان «فانتوي» في الأكثر يبدو وكأنه اقترب من أعماله الأخير من ذلك الوطن. فلم يعد الجو فيها ما كان في السوناتا. فقد أخذت الجمل الاستفهامية تبدو فيها أكثر إلحاحاً وأشد قلقاً، والأجوبة أوفر غموضاً؛ فيما يبدو فيها هواء الصباح والمساء المبلل كأنما يؤثر حتى على أوتار الآلات. فعبثاً كان «موريل» يعزف عزفاً رائعاً فقد بدت لي النغمات التي كان كمانه يطلقها حادة بصورة غريبة ويقرب أن تكون صارخة. كانت تلك الحِرافة تروق وتحس فيها، كما هو أمر بعض الأصوات، نوعاً من الجودة الخلقية والتفوق الفكري، لكن ذلك كان يمكن أن يصدم. فحين تتغير رؤية العالم

وتنتفي وتضحي أكثر مطابقة لذكرى الوطن الداخلي يبدو طبيعياً جداً أن يترجم ذلك بتحول عام للنغمات لدى الموسيقي مثلما اللون لدى الرسام. وليس يخطئ في ذلك الجمهور الأوفر ذكاء على أي حال إذ أعلن فيما بعد أن أعمال «فانتوي» الأخيرة هي الأكثر عمقاً. بيد أنه ما من برنامج وما من موضوع كان يحمل معه عنصراً فكرياً لرأي يصدر. كانوا يحزرون إذاً أن الأمر أمر نقل للعمق في فئة الصوت.

ذاك الوطن المفقود لا يتذكره الموسيقيون، لكنما يبقى كل منهم في حالة «دوزنة» لا واعية من التناغم يجمعه وإياه. فهو يجنّ فرحاً حينما يشدو وفق وطنه ويخونه أحياناً حباً بالمجد، لكنه حين يبحث عن المجد يبتعد عنه ولا يجده إلا حينما يزدريه، وحينما يبدأ الموسيقى، وأياً كان الموضوع الذي يعالجه، هذا النشيد الفريد الذي تقيم رتابته البرهان - إذ أياً كان الموضوع المعالج فإنه يظل مماثلاً لذاته - على ثبات العناصر المكونة لنفس الموسيقى. ولكن، أليس أن تلك العناصر إذاً، كل هذه المخلفات الحقيقية التي نضطر إلى الاحتفاظ بها لأنفسنا والتي لا تستطيع المحادثة نقلها حتى من الصديق إلى الصديق، من الأستاذ إلى التلميذ، من العشيق إلى العشيقة، هذا الممتنع على القول الذي يميز نوعياً ما أحس به كل فرد وهو مضطر أن يدعه على عتبة الجمل التي لا يستطيع التواصل بها مع الآخرين إلا بالاقتصار على نقاط خارجية مشتركة بين الجميع ولا فائدة منها، أليس أن الفن، فن أمثال «فانتوي» وأمثال «إيلستير» هو الذي يبرزه مجسداً بألوان الطيف التركيبية الحميمة لهذه العوالم التي ندعوها بالأفراد والتي ما كنا بدون الفن لنعرفها في يوم؟ وإن أجنحة وجهازاً تنفسياً آخر مما يمكننا من اجتياز المسافات الشاسعة قد لا تفيدنا في شيء. فإننا إن ذهبنا إلى المريخ والزهرة واحتفظنا بالحواس ذاتها فسوف تُلبِس كل ما يمكن أن نراه ذات المظهر الذي ترتديه أشباه الأرض. إن السفر الحقيقي الوحيد، إن ينبوع الشباب الوحيد ليس في الارتحال إلى مناظر ومشاهد جديدة بل في امتلاك عينين غير عينينا، في مشاهدة الكون بعيني آخر

سوانا، بعيون مئة آخرين سوانا، وبمشاهدة الأكوان المئة التي يشاهدها كل واحد منهم، التي يمثلها كل واحد منهم؛ وإنما تستطيع ذلك بمساعدة «إيلستير»، بمساعدة «فانتوي» وأمثالهما، ونطير حقاً من نجمات إلى نجمات.

كانت الحركة المتباطئة قد انتهت بجملة تفيض من حنان كنت انصرفت إليه بكليتي. حينئذ كانت قبل الحركة التالية هنيهة استراحة وضع فيها العازفون آلاتهم جانباً وتبادل المستمعون بعضاً من انطباعاتهم. فأعلن دوق، بغية أن يظهر أنه خبير بالأمر، قائلاً: «من الصعب جداً إجادة عزفها». وتحدث فترة إلى نفر أكثر إمتاعاً. ولكن ما عسى كانت تساوي أقوالهم التي خلفت لديّ هذا القدر من اللامبالاة، شأن أي قول بشري خارجي، في مقابل الجملة الموسيقية السماوية التي تحادثتُ تواً وإياها؟ لقد كنت حقاً كملاك جرّد من مسرات الفردوس وسقط في الواقع الأكثر تفاهة. ومثلما يتفق أن تكون بعض الكائنات آخر الشهود على شكل من الحياة هجرته الطبيعة، أخذت أسائل النفس إن لم تكن الموسيقى هي المثال الوحيد لما كان يمكن أن يكون عليه التواصل بين النفوس لو لم يتم اختراع اللغة وتشكل الكلمات وتحليل الأفكار. إنها ما يشبه الممكن الذي لم يخلّف آثاراً، فقد سلكت البشرية سبلاً أخرى، سبيل اللغة المحلية والمكتوبة. لكن هذه العودة إلى اللاشيء اللامحلل كانت مسكرة إلى حد بدا لي معه الاتصال، لدى خروجي من هذه الجنة، بأشخاص هيني الذكاء يتسم بتفاهة عجيبة. أما الأشخاص فقد وسعني أن أتذكرهم في أثناء الموسيقى وأن أقرنهم بها؛ أو لعلني بالأحرى لم أقرن بالموسيقى سوى ذكر شخص واحد هو شخص «ألبيرتين». وكانت الجملة التي تختتم الحركة البطيئة التي تبدو لي على درجة من السمو أقول معها في نفسي إنه من المحزن ألا تعلم «ألبيرتين» - وإن علمت ألا تكون أدركت - أي شرف ينالها أن تقرن بشيء عظيم إلى هذا الحد يجمعنا وبدا أنها تقتبس صوته المؤثر. لكن الأشخاص الحاضرين كانوا يجاوزون حد التفاهة

حالما تتوقف الموسيقى. وقدموا بعض المرطبات. وكان السيد «دو شارلوس» ينادي بين الحين والحين على خادم قائلاً: «كيف حالك؟ هل وصلتك عجالتي؟ وهل ستأتي؟» كان في تلك المساءلات دون شك حرية السيد الكبير الذي يعتقد أنه يلاطف وأنه أقرب إلى الشعب من البورجوازي، لكنما كان ثمة أيضاً مكر المذنب الذي يعتقد أن ما يجرى إبرازه على الملأ إنما يعد لهذا بالذات بريئاً. وكان يضيف قوله باللهجة «الغيرمانتية» التي للسيدة «دو فيلباريسيس»: «إنه فتى طيب القلب، وهو مفطور على الطيبة، وإني كثيراً ما أستخدمه في بيتي». لكن تحاذق البارون كان يرتد عليه إذ كانوا يرون صنوف رقته الحميمة البالغة هذه وعجالاته إلى خدمه الخاصين شديدة الغرابة. وكان هؤلاء على أي حال أقل مباهاة بذلك منهم ضيقاً به من أجل رفاقهم.

كانت السباعية إذ ذاك، وقد عادت فبدأت ثانية، تسير إلى نهايتها؛ وثمة جملة، هذه أو تلك من السوناتا، كانت تعود تكراراً، ولكنها مغيرة في كل مرة، بإيقاع وتآلف مختلفين، فهي ذاتها ومختلفة مع ذلك، مثلما تعود الأشياء في الحياة. وكانت واحدة من تلك الجمل التي، دون أن يمكننا أن ندرك أية صلة قربى تعين لها ماضي أحد الموسيقيين مسكناً وحيداً ولازماً، لا توجد إلا في أعماله وتظهر باستمرار في أعماله وهي جنياتها وحوريات غاباتها وآلهتها الألوفة. وكنت ميّزت في البداية في السباعية اثنين أو ثلاثاً تذكرني بالسوناتا. ولاحت لي بعد قليل جملة أخرى من السوناتا - غارقة في الضباب البنفسجي الذي كان يتصاعد بوجه الخصوص من الفترة الأخيرة من أعمال «فانتوي» إلى حد أنه حتى حينما كان يدخل إحدى الرقصات في مكان ما فقد كانت تلبث أسيرة داخل حجر كريم لبني اللون - وقد لبثت بعد بعيدة جداً حتى كدت لا أتعرفها. واقتربت مترددة واختفت كأنما دبّ فيها الذعر، ثم عادت وتشابكت مع أخريات غيرها جاءت كما علمت بعد ذلك من أعمال أخرى، ونادت جملاً أخرى كانت تضحي بدورها جذابة قادرة على الإقناع حالما يتم

تدجينها وتدخل دائرة الرقص، دائرة الرقص السماوية التي ظلت خافية على غالبية المستمعين الذين لم يكن أمامهم سوى ستار مبهم لا يبصرون من خلاله شيئاً؛ فكانوا يبرزون جزافاً، بصرخات استعجاب، مللاً مستديماً يكاد يقتلهم. ثم ابتعدت ما عدا واحدة رأيتها تعود حتى خمس وست مرات دون أن أتمكن من تبين وجهها، ولكنها شديدة نعومة الملمس شديدة الاختلاف - كما هي دون شك حال الجملة الصغيرة في السوناتا التي لـ«سوان» - عما لم تدفع امرأة في يوم إلى اشتهائه إلى حد أن هذه الجملة التي كانت تقدم لي بصوت ما أعذبه سعادة ربما كانت حقاً أهلاً لأن يحصل المرء عليها إنما هي ربما - ذاك المخلوق الخفي الذي ما كنت أعرف لغته وكنت أفهمه تماماً - المجهولة الوحيدة التي اتفق لي أن ألتقيها في يوم. ثم تفككت هذه الجملة وتحولت، كما كانت تفعل الجملة الصغيرة في السوناتا، فأضحت نداء البداية الغامض. وجابهته جملة ذات طابع أليم ولكنها من عمق وغموض وجوانية وتكاد تكون عضوية عميقة إلى حد لا تعلم معه في كل من معاودتها إن كانت معاودات فكرة أو ألم عصبي. بعد قليل تصارعت الفكرتان في التحام كانت إحداهما تختفي فيه تماماً فيما لا تبصر فيه بعد ذلك سوى قطعة من الأخرى. هو بالحقيقة التحام طاقات فحسب؛ فإن تواجهت هذه الكائنات فإنما بعد أن تخلصت من جسمها المادي ومظهرها واسمها ووجدت لديّ مشاهداً داخلياً - لا يهتم بدوره بالأسماء والشؤون الفردية - كي ينصرف إلى اقتتالها اللامادي النشيط ويلاحق بشغف أحداثها الصوتية. وأخيراً ظلّت الفكرة المرحة منتصرة، فلم تعد نداء أطلق خلف سماء خالية ويقرب أن يكون قلقاً، لقد كان فرحاً يمتنع على الوصف ويبدو كأنه يجيء من الفردوس، فرحاً مختلفاً عن فرح السوناتا بقدر ما يمكن أن يكون اختلاف رئيس ملائكة لـ«مانتينيا» يرتدي ثوباً قرمزياً وينفخ في البوق عن ملاك رقيق وقور لـ«بيلليني» ينقر على الصنج. كنت أعلم أن هذا اللون الجديد من الفرح، وهذه الدعوة إلى فرح فوق أرضي لن أنساها البتّة. ولكن أتراه ممكن

التحقيق يوماً في ما يخصني؟ كانت هذه المسألة تبدو لي متزايدة الأهمية بقدر ما كانت تلك الجملة ما ربما استطاع أن يسم أفضل ما يكون هذه الانطباعات - بوصفها تختلف جذرياً عن كامل باقي حياتي، عن العالم المرئي - التي كنت أعود فألقاها على فترات متباعدة داخل حياتي نقاط استدلال وبدايات لبناء حياة حقيقية: الانطباع الذي وافاني أمام قباب جرسيات «مارتنفيل»، وأمام صف من الأشجار بالقرب من «بالبيك».
ومهما يكن من أمر، وكيما نعود إلى النبرة الخاصة بتلك الجملة، فكم كان غريباً أن يكون الشعور المسبق الأكثر اختلافاً عما تقدمه الحياة المبتذلة، والتخمين الأكثر جرأة لمباهج الآخرة قد تجسد بالضبط في البورجوازي الصغير الحزين المتأدب الذي كنا نلتقيه في الشهر المريمي[1] في «كومبريه»! وكيف كان يتفق خصوصاً أن أكون استطعت أن أتسلم منه هذا الكشف عن نمط مجهول من الفرح، وهو الأغرب مما تسلمت حتى الآن بما أنه لم يخلف سوى سوناتته، فيما يقولون، بعدما مات، وأن الباقي لبث لا وجود له في تدوينات موسيقية عصية رموزها؟ عصية رموزها، لكنما انتهى بها الأمر، بمزيد من الصبر والذكاء والاحترام، إلى أن تفك رموزها من جانب الشخص الوحيد الذي عاش بالقرب من «فانتوي» فترة كافية ليحيط إحاطة تامة بطريقة عمله ويستشف تعليماته للأوركسترا، عنينا صديقة الآنسة «فانتوي» فقد كانت اطلعت، ولا يزال الموسيقي الكبير على قيد الحياة، اطلعت من ابنته على الإجلال الذي كانت تحيط به أباها. وبسبب هذا الإجلال استطاعت الفتاتان، أثناء هذه اللحظات التي يمضي فيها المرء عكس ميوله الحقيقية، أن تلقيا متعة مجنونة في انتهاك القدسيات التي جرى الحديث عنها. فقد كان إجلال الفتاة لوالدها الشرط الأكيد لرجس أفعالها. ولعله كان من الجدير بهما دون شك أن تحجبا النفس عن تلك الفعلة التدنيسية، لكن الفعلة تلك ما كانت تعبر عنهما تعبيراً كاملاً.

---

(١) شهر مخصص لتكريم العذراء لدى بعض الطوائف المسيحية.

وقد راحتا على أي حال تتناقصان حتى الزوال التام كلما أخلت هذه العلاقات الشهوانية المرضية، هذا الاضطراب العكر الغامض، المكان لدفء صداقة سامية طاهرة. فقد كان يمر في خاطر صديقة الآنسة «فانتوي» أحياناً الفكرة المزعجة التي قوامها أنها ربما عجّلت في موت «فانتوي». إن صديقة الآنسة «فانتوي»، إذ قضت سنوات في فك طلاسم التي لفها «فانتوي» وحددت الطريقة الأكيدة لقراءة تلك الحروف الهيروغليفية المجهولة، قد وجدت على أي حال العزاء في ضمان مجد خالد ومعوض للموسيقى التي عكّرت صفو سنيه الأخيرة. وإنما تنتج عن علاقات لم تكرسها القوانين روابط قربى بمثل تعدد وتعقد تلك التي تنشأ عن الزواج ولكنها أمتن فقط. ألسنا نشهد في كل يوم، حتى دون التوقف عند علاقات ذات طبيعة خاصة إلى هذا الحد، أن الزنا حينما يبنى على الحب الحقيقي لا يزعزع المشاعر العائلية وواجبات القربى، بل هو ينشطها. فإن الزنا حينئذ يدخل الروح في الحرف الذي غالباً ما تركهالزواج ميتاً. وإن فتاة بارّة ترتدي ثوب الحداد من باب اللياقة الصرفة على زوج أمها الثاني لن تستدر ما يكفي من دموع لتبكي الرجل الذي اختارته أمها من بين الجميع عشيقاً لها. والآنسة «فانتوي» على أي حال لم تفعل ما فعلت إلا من باب السادية، وما كان ذلك ليعذرها، لكنما صادفت فيما بعد بعض العذوبة في التفكير في ذلك. لا بد أنها كانت تتبين بالتأكيد، أقول في نفسي، لحظة كانت تدنس وصديقتها صورة والدها، ولم يكن كل ذلك سوى مرض وجنون ولم يكن الخبث الحقيقي المفرح الذي كانت تمنّته. كانت الفكرة التي قوامها أن الأمر تظاهر بالخبث تفسد متعتها. ولكن إن أمكن أن تعاودها هذه الفكرة فيما بعد فلا بد أنها أنقصت عذابها مثلما سبق أن أفسدت متعتها. ولا بد أنها قالت في نفسها: «ما كان ذاك أنا، لقد كنت مسلوبة العقل. فإني أنا ما زلت أستطيع أن أصلّي لأجل والدي وأن لا أيأس من طيبته». لكنما يمكن ألا تكون هذه الفكرة التي حضرتها بالتأكيد في غضون المتعة قد حضرتها في

أثناء العذاب. ووددتُ لو أستطيع إدخالها في خلدها. وإني لعلى يقين أني كنت أحسنت إليها وكنت استطعت أن أعيد بينها وبين ذكرى والدها تواصلاً على شيء من العذوبة.

كانت قد استخلصت[1]، كما هي الحال في المفكرات التي تستحيل قراءتها والتي دوّن فيها كيميائي عبقري لا يعلم أن الموت قريب إلى هذا الحد اكتشافات ربما ظلّت مجهولة أبداً، عن أوراق أعسر قراءة من مخطوطات بردية ترقطه كتابة مسمارية، صيغة هذا الفرح المجهول الصحيحة أبداً، الخصبة أبداً، والأمل الروحاني لملاك الصبح الأرجواني. أما أنا الذي كانت لي كذلك سبباً وربما أقل مما كانت «فانتوي»، وهي كانت للحال في هذا المساء نفسه أيضاً إذ أيقظت غيرتي على «ألبيرتين»، وسوف تكون مستقبلاً على وجه الخصوص، سبباً لعذابات ما أكثرها، فإنما أمكن بفضلها، ومن باب التعويض، أن يتناهى إليّ النداء الذي لم أكف البتة من بعد عن سماعه - بما يشبه الوعد أن ثمة شيئاً آخر، يمكن تحقيقه بالفن دون شك، غير العدم الذي لقيته في سائر الملذات وفي الحب نفسه، وأن حياتي إن كانت تبدو لي باطلة إلى هذا الحد فإنها على الأقل لم تنجز كل شيء.

لقد كان ما سمحت بفضل كدها أن يعرف من «فانتوي»، كان في الحقيقة كامل أعمال «فانتوي». كانت بعض جمل السوناتا التي لا يعرف الجمهور سواها، كانت، إلى هذه المقطوعة الموضوعة لعشر آلات، تبدو عادية جداً إلى حد لا يمكنك أن تدرك معه كيف وسعها أن تُثير هذا القدر من الإعجاب. ومع ذلك أننا دهشون أن استطاعت مقطوعات مثل تفاهة «أنشودة النجمة» و«صلاة إليزابيث»[2] أن تستثير على مدى سنين في الحفلات هواة متعصبين ينهكون أنفسهم في التصفيق والصراخ «أعد» حينما

---

(١) يقصد صديقة الآنسة «فانتوني».

(٢) من أوبرا «تآنهاوسر» من أعمال «فاغنر».

يبلغ النهاية ما لم يكن مع ذلك إلا فقراً فاقد الطعم بالنسبة إلينا نحن الذين نعرف «**تريستان**» و«**ذهب الراين**» و«**كبار المغنين** ». لا بد أن نفترض أن تلك الألحان التي لا طابع لها كانت تحتوي مذ ذاك بمقادير متناهية الصغر. وربما كانت بذلك عينه أقرب للفهم، شيئاً من أصالة الروائع التي تحتفظ وحدها بقيمة في نظرنا إنْ عدنا إلى الماضي، لكنما الكمال فيها ربما حال دون أن تفهم؛ وربما أعدت لها الطريق إلى القلوب. ومهما يكن من أمر، فإنها إن كانت تولي شعوراً مسبقاً غامضاً بجمالات آتية فقد كان تدعها في دائرة المجهول الكامل. والأمر سواء في ما يخص «فانتوي»، فلو لم يدع في مماته - باستثناء بعض أجزاء السوناتا - إلا ما استطاع أن ينهيه فربما كان ما عرفنا منه، إما قيس بعظمته الحقيقية، أمراً زهيداً مثلما هي الحال بالنسبة إلى «فيكتور هوغو» مثلاً لو أنه مات بعد «مشية الملك جان» و«الحربية» و«خطيبة ضارب الدف» و«اغتسال سارة» دون أن يكون كتب «**أسطورة القرون**» و«**التأملات**»؛ ولعل ما هو في نظرنا آثاره الحقيقية كان لبث احتمالياً بحتاً ومجهولاً كما هي تلك العوالم التي لا يصل إليها إدراكنا والتي لن نكوّن عنها فكرة في يوم.

كان ذاك التباين الظاهر وذاك الاتحاد العميق بين العبقرية (والموهبة، أيضاً وكذلك الفضيلة) ووعاء الرذائل الذي غالباً جداً ما تكون متضمنة فيه ومحفوظة، مثلما اتفق ذلك لـ«فانتوي»، كانا يُسْتَقْرآن، وكأنما في مرموزة مألوفة، في اجتماع المدعوين الذين وجدتني بينهم في نهاية العزف الموسيقي. فقد كان ذاك الاجتماع، على الرغم من اقتصاره هذه المرة على صالون السيدة «فيردوران»، شبيهاً باجتماعات كثيرة غيره يجهل معظم روادها المكونات التي تدخل فيها والتي يدعوها الصحافيون الفلاسفة - إن كانوا على اطلاع يسير - باريسية أو «بنمية»[1] أو «دريفوسية» دون أن يرتابوا بإمكان مشاهدتها في «بطرسبورغ» وفي برلين ومدريد وفي جميع

(١) للتذكير بالفضيحة السياسية المالية التي وقعت في أمور ذلك البلد عام ١٨٩٢.

الأزمان على حد سواء. فلئن اجتمع هذا المساء في منزل السيدة «فيردوران» أمين الدولة المساعد للفنون الجميلة، وهو رجل فنان رفيع التربية ومتحذلق، وبعض الدوقات وثلاثة سفراء بصحبة زوجاتهم فالسبب القريب والمباشر لهذا الحضور إنما كان جوهره العلاقات القائمة بين السيد «دو شارلوس» و«موريل»، وهي العلاقات التي كانت تبعث في صدر البارون الرغبة في إعطاء نجاحات معبوده الشاب أوسع الأصداء وفي الحصول له على صليب جوقة الشرف. أما السبب الأبعد الذي جعل هذا الاجتماع ممكناً فأن فتاة تقيم مع الآنسة «فانتوي» علاقات موازية لتلك التي بين «شارلي» والبارون قد وضعت في دائرة الضوء سلسلة من الأعمال العبقرية والتي شكّلت كشفاً عظيماً إلى حد لن يلبثوا معه أن يعلنوا عن اكتتاب تحت رعاية وزير التعليم العام من أجل إقامة تمثال لـ«فانتوي». وقد كانت علاقات البارون بـ«شارلي» على أية حال مفيدة لتلك الأعمال بقدر ما كانت علاقات الآنسة «فانتوي» بصديقتها. والأولى ضرب من الطريق العرضي، من «القادومية» التي كان العالم بفضلها سيدرك تلك الأعمال دون أن يلتف لبلوغها، إن لم يكن عن طريق لا فهم يدوم فترة طويلة فعلى الأقل عن طريق جهل كامل كان يمكن أن يستمر سنوات. ففي كل مرة تقع فيها حادثة في متناول الفكر المبتذل الذي للصحافي الفيلسوف، يعني بعامة حادثة سياسية، يوقن الصحافيون الفلاسفة أن ثمة شيئاً تغيّر في فرنسا وأن الناس لن يشهدوا ثانية بعد مثل هذه الأمسيات، ولن يعجبوا من بعد بـ«إبسن» و«رونان» و«دوستويفسكي» و«أنونزيو» و«تولستوي» و«فاغنر» و«شتراوس». ذلك أن الصحافيين الفلاسفة يتخذون من الخلفيات المشبوهة لتلك التظاهرات الرسمية حجة ليجدوا شيئاً من الانحطاط في الفن الذي تمجده والذي غالباً ما يكون من أكثرها جميعها تزمتاً. فإنه ما من اسم من بين أكثرها تجلة من جانب الصحافي الفيلسوف لم يفسح في المجال لمثل هذه الاحتفالات الغريبة بصورة طبيعية تماماً وإن تكن غرابتها أقل جلاء وأفضل تخفية. أما بالنسبة لهذه الحفلة فقد

كانت العناصر الفاسدة التي تتضافر فيها تثيرني من جهة نظر أخرى. كنت بالتأكيد أيضاً قادراً أكثر من أيّ آخر على التفريق بينها إذ تعلمت كيف أعرف كلاً منها بمفرده، ولا سيما أن بعضها، تلك التي تتعلق بالآنسة «فانتوي» وصديقتها، كانت حينما تحدثني عن «كومبريه» إنما تحدثني أيضاً عن «ألبيرتين» يعني عن «بالبيك» بما أنني أزمع، لأني سبق لي أن رأيت فيما مضى الآنسة «فانتوي» في «مونجوفان» وعرفت علاقة صديقتي الحميمة مع «ألبيرتين»، أن أجد عما قليل، في عودتي إلى مسكني، بدلاً من العزلة، «ألبيرتين» في انتظاري؛ وتلك التي تتعلق بـ«موريل» والسيد «دو شارلوس»، وكانت إذ تحدثني عن «بالبيك» حيث رأيت علاقاتهما تبدأ على رصيف «دونسيير»، تحدثني عن «كومبريه» وعن جانبيتها، ذلك لأن السيد «دو شارلوس» كان واحداً من أولئك «الغيرمانتيين» كونتات[١] «كومبريه» الذين يسكنون «كومبريه» دون أن يكون لهم مسكن فيها، ما بين سماء وأرض، على غرار «جيلبير لوموفيه» في نجميته الزجاجية، وكان «موريل» ابن ذاك الخادم العجوز الذي عرفني بالسيدة ذات الأثواب الوردية وسمح لي بعد سنوات كثيرة أن أتعرف فيها السيدة «سوان».

وسأل السيد «فيردوران» «سانييت» قائلاً: «لقد ردت على أحسن وجه، أليس كذلك؟» فأجاب متلعثماً: «أخشى فقط أن تسيء براعة «موريل» ذاتها قليلاً إلى الشعور العام للعمل الفني».

- «تسيء؟ وما عساك تقصد بذلك؟» يقول السيد «فيردوران» بأعلى صوته فيما يسارع مدعوون، وهم كما الأسود على استعداد لافتراس الرجل المجندل أرضاً: «آه! لست أرمي إليه فقط...»

- «ولكنه لم يعد يعلم ما يقول. يرمي إلى ماذا؟»

- «لا... بد... من الاستماع... مرة أخرى كي أصدر حكماً بالإحكام».

---

(١) جمع «كونت» وهو لقب في سلم النبلاء.

وقال السيد «فيردوران» وقد أخذ رأسه بين يديه: «بالإحكام! إنه مجنون! يجدر أن يحمل بعيداً».

- «ذلك يعني: بالدقة، وتقول أنت بنفسك بدقة محكمة. وأقول إني لا أستطيع إصدار حكم بالإحكام».

- «وأنا أقول لك بدوري أن اغرب عن وجهي»، يقول السيد «فيردوران» بأعلى صوته وقد انتشى بغيظه وهو يدله على الباب بإصبعه والعين منه متطايرة الشرر، «فلست أسمح أن يجرى الحديث على هذا النحو في بيتي!» ومضى «سانييت» وهو يخط دوائر بجسمه كما يفعل رجل مخمور. وظنّ بعض الناس أنه لم يكن مدعواً كيما يلقى به خارجاً بهذه الصورة. وإن سيدة وثيقة الصداقة معه حتى ذاك، وسبق له بالأمس أن أعارها كتاباً قيماً، ردّته له في الغد دونما كلمة ويكاد لا يغلفه غلاف ورقي جعلت عليه عنوان «سانييت»، ولا شيء غيره، بيد رئيس خدمها، فما كانت تريد «أن تدين بشيء لمن بدا واضحاً أنه بعيد عن أن يحسن في عين النواة الصغيرة». وقد لبث «سانييت» على أي حال في جهل دائم لهذه الوقاحة، فإنه لم تكن انقضت خمس دقائق على المشادة مع السيد «فيردوران» حتى أقبل خادم خاص يعلم المعلم أن «سانييت» صريع أزمة قلبية في باحة الفندق. لكن الأمسية لم تكن بلغت نهايتها. وقال: «اعملوا على إعادته إلى منزله»، قال المعلم الذي شبه فندقه «الخاص»، كما لعل مدير فندق «بالبيك» كان قال، شُبِّه والحالة هذه بتلك الفنادق الكبرى التي يسارعون فيها إلى إخفاء الوفيات المفاجئة كي لا يدب الرعب في قلوب الزبائن، والتي يخفون فيها المتوفى في خزانة الأطعمة مؤقتاً إلى حين يعمدون، وإن كان في حياته من ألمع الشخصيات وأكرمها، إلى إخراجه خفية من الباب المخصص لـ«الجلائين» ومحضري المرق. وما كان «سانييت» قد مات على أي حال. فقد عاش بضعة أسابيع بعد، ولكن دون أن يستعيد وعيه إلا بصورة عابرة.

كرر السيد «دو شارلوس»، ساعة استأذنه مدعووه بالانصراف بعدما

انتهت الموسيقى، ذات الخطأ الذي ارتكبه لدى مجيئهم. فلم يسألهم التوجه إلى المعلمة وإشراكهم هي وزوجها بعرفان الجميل الذي يبدونه له. وكان موكب طويل ولكنه موكب أمام البارون وحده، وما كان ذلك دون أن ينتبه هو للأمر، فإنه مثلما قال لي ذلك بعد بضع دقائق: «قد ارتدى شكل التظاهرة الفنية ذاته بعد ذلك جانباً تقوياً مضحكاً إلى حد ما». كانوا حتى يطيلون في عبارات الشكر بأقوال مختلفة كانت تخولهم البقاء لحظة إضافية بالقرب من البارون فيما كان الذين لم يهنئون بعد على نجاح حفلته يتوقفون ويراوحون مكانهم. (وكم من زوج رغب في الانصراف، لكن زوجته، وهي متحذلقة مع أنها دوقة، كانت تحتج قائلة: «لا، لا، ينبغي أن لا نذهب، حتى إن اضطررنا إلى الانتظار ساعة، دون أن نكون شكرنا «بالاميد» الذي كلف نفسه كل هذا العناء. فليس يستطيع سواه في الوقت الراهن أن يقدم حفلات كهذه». ولعل أحداً ما كان فكر أن يعرفوا به السيدة «فيردوران» أكثر مما يفعلون بعاملة مسرح اصطحبت إليه سيدة كبيرة لمساء واحد كامل الأرستقراطية). «هل كنت البارحة عند «إيليان دو مونمورانسي» يا ابن عمي؟» تقول السيدة «دو مورتمار» وبها رغبة في تطويل الحديث، - «آه! يا إلهي، لا. إني أحب «إيليان» ولكني لا أفهم معنى دعواتها. لا شك أني بليد الذهن»، يضيف قوله بابتسامة عريضة مشرقة فيما كانت السيدة «دو مورتمار» تحس أنها ستحصل على باكورة طرفة من «بالاميد» مثلما كان لها في الغالب من «أوريان».

- لقد تسلمت فعلاً منذ خمسة عشر يوماً بطاقة من «إيليان» الظريفة. وكان فوق اسم «مونمورانسي» المشكوك فيه هذه الدعوة اللطيفة: يا ابن العم، كن ذا فضل عليّ وفكّر بي يوم الجمعة المقبل في التاسعة والنصف. وكانت قد خُطّت تحتها هاتان الكلمتان الأقل ظرفاً: الرباعي التشيكي. وبدتا متعذرتي الفهم ودون أية علاقة في جميع الأحوال بالجملة السابقة أكثر مما هي تلك الرسائل التي نرى أن كاتب الرسالة قد خط على ظهرها

رسالة أخرى بدأها بالكلمتين التاليتين: «صديقي العزيز» دونما تتمة ولم يتخذ ورقة أخرى، إما سهواً وإما اقتصاداً في الورق. إني أحب «إيليان» بالتأكيد، ولذلك لم أحقد عليها واكتفيت بألا أحسب حساباً للكلمتين الغريبتين اللتين في غير موقعهما، أي الرباعي التشيكي؛ ولما كنت رجلاً منظماً فقد وضعت فوق مدخنتي الدعوة إلى التفكير بالسيدة «دو مونمورانسي» نهار الجمعة في الساعة التاسعة والنصف. ومع أنني مشهور بطبعي المطيع الدقيق اللين العريكة، كما يقول «بوفون» عن الجَمَل - وأشرق الضحك واتسعت دائرته من حول السيد «دو شارلوس» الذي كان يعلم أنهم يعدونه بالعكس الرجل الأصعب مراساً - فقد تأخرت بضع دقائق (الوقت اللازم لنزع ملابسي النهارية) ودون أن يوافيني إحساس مفرط بتأنيب الضمير ظناً مني أن التاسعة والنصف وضعت مكان العاشرة. وفي تمام العاشرة اتخذت مكاني، وأنا أرتدي مبذلاً جيداً وأضع رجلي في خفين سميكين، قرب نار الموقد وأخذت أفكر بـ«إيليان»، مثلما سبق أن طلبت مني ذلك، وبشدة لم تأخذ بالتناقص إلا في العاشرة والنصف. قولي لها، رجوتك، أني امتثلت امتثالاً دقيقاً لمطلبها الجريء. وفي اعتقادي أنها ستكون مسرورة».

وضحكت السيدة «دو مورتمار» حتى بلغت حد الإغماء، وكذلك فعل السيد «دو شارلوس» و«هل تذهب غداً إلى منزل أبناء عمومتنا «لا روشفوكو»؟» تضيف قولها دون أن يخطر لها أنها تجاوزت وأفرطت في الوقت الذي يمكن أن تخص به.

- «أوه! ذلك مستحيل، لقد دعوني مثلك فيما أرى إلى الأمر الذي يستحيل تصوره وتحقيقه كأكثر ما يكون والذي يدعى، إن صدقت بطاقة الدعوة: «حفلة شاي راقصة». كانوا يعدونني ماهراً جداً حينما كنت شاباً، ولكنني أشك أن كان باستطاعتي، دون أن أخل باللباقة، تناول الشاي وأنا أرقص. وإني ما أحببت في يوم أن آكل أو أشرب بطريقة قذرة. ستقولين لي إنه لم يعد عليّ اليوم أن أرقص، لكنني ربما خشيت، حتى إن كنت

جالساً جلسة مريحة أتناول فيها الشاي - الذي أرتاب على أي حال من نوعيته بما أنه يدعى راقصاً -، أن يسكب مدعوون أكثر شباباً مني وربما أقل مهارة مما كنت في سنهم أكوابهم على ثوبي، مما يقطع عليّ متعة إفراغ كوبي». ولم يكن السيد «دو شارلوس» حتى يكتفي بأن يغفل السيدة «فيردوران» في حديثه وأن يتكلم عن موضوعات من كل صنف (كان يبدو أنه يجد متعة في التوسع فيها وتنويعها في سبيل المتعة القاسية التي كانت على الدوام متعته في أن يلبث في وقفة لا تنتهي الأصدقاء الذين كانوا ينتظرون بصبر منهك أن يحين دورهم). كان يوجه حتى انتقادات حول كامل القسم الذي كانت السيدة «فيردوران» مسؤولة عنه: «ولكن ما دمنا بهذا الصدد، ما عسى تكون أنصاف القصعات هذه التي تشبه تلك التي كنا نجيء فيها حينما كنا شباباً بأشربة من محل «بواريه بلانش»؟ لقد قال لي أحدهم منذ قليل إنها للقهوة المثلجة». لكني لم أبصر في ما يخص القهوة المثلجة لا قهوة ولا مثلجات. فيا لها حاجات صغيرة غير واضحة الغاية!» كان السيد «دو شارلوس»، بغية أن يقول ما يقول، قد وضع بصورة عمودية على فمه يديه اللتين بقفازين أبيضين ودور بحذر نظرته الفاحصة كما لو خشي أن يسمعه وحتي أن يراه أرباب المنزل، لكنما ذلك كان مجرد خدعة، فهو سيوجه بعد لحظات ذات الانتقادات للمعلمة نفسها ويأمرها بوقاحة بعد ذلك بقليل: «خصوصاً لا أكواب قهوة مثلجة بعد الآن! قدّميها لمن ترغبين من بين صديقاتك أن تقبّحي بيتها. ولكن حاذري على وجه الخصوص ألا تضعيها في الصالة فقد يختلط عليك الأمر وتعتقدين أنك أخطأت القاعة، بما أنها بالضبط مباول».

«ولكن، يا ابن العم، إنها ربما لا تعرف بعد كل شيء على أفضل وجه...»، تقول المدعوة وهي تخفض بدورها الصوت وتنظر إلى السيد «دو شارلوس» نظرة المستفهم، لا مخافة إغضاب السيدة «فيردوران»، بل مخافة إغضابه هو.

- «نُعَلّمها ذلك».

وتضحك المدعوة قائلة: «لا يمكن أن تجد أستاذاً أفضل! إنها محظوظة! فالأكيد معك أن لن يكون ثمة نشاز».

- «وفي كل الأحوال لم يكن شيء من ذلك في الموسيقآ».

- «أوه! كانت رائعة. إنها من تلك المسرات التي لا تنسى. وبخصوص عازف الكمان العبقري ذاك»، تضيف قولها وتظن في سذاجتها أن السيد «دو شارلوس» يهتم بالكمان «في حد ذاته»، «هل تعرف واحداً سمعته ذاك اليوم يعزف سوناتا لـ«فوريه» عزفاً رائعاً، إنه يدعى «فرانك». - «أجل، يا للقباحة»، يجيب السيد «دو شارلوس» دون أن يهتم لفظاظة تكذيب مؤداه أن ابنة عمه تخلو من أي ذوق؛ «أنصحكِ في ما كان من أمر عازف الكمان أن تقتصري على عازفي أنا». كانت النظرات تزمع أن تعود سيرتها في التبادل بين السيد «دو شارلوس» وابنة عمه، وهي مخفوضة مترصدة في آن، فإن السيدة «مورتمار» كانت تزمع أن تقترح على السيد «دو شارلوس»، وهي تحمرّ خجلاً وتحاول باندفاعها تدارك هفوتها، أن يقيم أمسية لسماع «موريل». لكن لم يكن هدف تلك الأمسية في ما يخصها إبراز موهبة، ذلك الهدف الذي ستزعم مع ذلك أنه هدفها والذي كان - في الواقع - هدف السيد «دو شارلوس»، وما كانت ترى ثمة سوى فرصة لإقامة أمسية تتسم بأناقة خاصة، وكانت تحصي مذ ذاك من تراها تدعو ومن تدع جانباً. وهذا الانتقاء، وهو الانشغال الرئيسي لدى الذين يقيمون احتفالات (أولئك الذين تبلغ الوقاحة أو الغباء بالصحف المجتمعية أن تدعوهم «بالنخبة»)، إنما تفسد في الحال النظرة - والكتابة - بصورة أشد عمقاً مما ربما فعل إيحاء أحد المنومين. كانت السيد «دو مورتمار»، حتى قبلما فكرت بما سيعزفه «موريل» (والاهتمام يعدونه ثانوياً وبحق، فإنه حتى لو أبدى الجميع بسبب السيد «دو شارلوس» تأدباً فصمت في أثناء الموسيقى، ما كان ليخطر لأحد في المقابل أن يستمع إليه)، وبعدما قررت السيدة «دو فالكور» لن تكون في عداد «المختارات»، قد اتخذت لهذا السبب نفسه هيئة التآمر والدسيسة

التي تحطّ إلى حد بعيد من قدر نساء المجتمع أنفسهن اللواتي ربما وسعهن بأعظم اليسر أن يسخرن من القيل والقال. «أليس من سبيل إلى أن أقيم أمسية لنتمكن من سماع صديقك؟» تقول السيدة «دو مورتمار» بصوت خفيض، ولا تستطيع، فيما تخاطب السيد «دو شارلوس» وحده، أن تمتنع عن إلقاء نظرة، وكأنما خلب لبها، على السيدة «دو فالكور» (المستبعدة) كي تتأكد أن هذه الأخيرة على مسافة كافية كي لا تسمع. وقالت السيدة «دو مورتمار»: «لا، لا يمكنها أن تميز ما أقول»، مستخلصة ذلك في فكرها وقد طمأنتها للأمر نظرتها نفسها التي كان لها في المقابل على السيدة «دو فالكور» تأثير مختلف تماماً عن التأثير الذي كانت تهدف إليه. وقالت السيدة «دو فالكور» وهي تبصر تلك النظرة: «ويحي، إن «ماري تيريز» تعد مع «بالاميد» شيئاً لا بد أني لا أشارك فيه». وصحح السيد «دو شارلوس» الذي لم يكن أكثر إشفاقاً على معارف ابنة عمه القواعدية منه على مواهبها الموسيقية قائلاً: «قصدكِ أن تقولي من ينعم بحمايتي». ثم قال بصوت قوي يمكن أن يسمعه كل من في الصالة غير عابئ بتوسلاتها الصامتة: «بلى... مع أن ثمة خطراً دائماً في نقل من هذا القبيل لشخصية أخاذة إلى إطار يلحق بها حكماً ضياعاً لسلطانه المتعالي ويظل علينا في كل الأحوال أن نكيّفه». وقالت السيدة «دو مورتمار» إن الصوت الخافت الناعم جداً الذي ورد به سؤالها كان جهداً ضائعاً بعد «المضخم» الذي نقل الجواب. وكانت مخطئة. فالسيدة «دو فالكور» لم تسمع شيئاً لأنها لم تفهم كلمة واحدة. وتناست مخاوفها وسرعان ما كانت خمدت لو لم تعمد السيدة «دو مورتمار»، خشية منها أن ترى خطتها أحبطت ومخافة أن تضطر إلى دعوة السيدة «دو فالكور»، وهي وثيقة العلاقة بها كي تهملها إن هي عرفت «قبل ذلك»، إلى الارتفاع بجفنيها باتجاه «إيديت» وكأنما ابتغاء أن لا يغيب عن ناظريها خطر داهم، دون أن تغفل خفضهما بسرعة كي لا تتمادى في المضي في الأمر قدماً. كانت تنوي في اليوم الذي يلي الحفلة أن تكتب إليها واحدة من تلك

الرسائل تتمة للنظرة الكاشفة، وهي رسائل نظنها حاذقة وأشبه ما تكون بإقرار لا تحفّظ فيه ويحمل توقيعاً. مثال ذلك: «عزيزتي «إيديت»، إني أفتقدك، وما كنت أتوقع كثيراً حضورك مساء البارحة (ولعل «إيديت» كانت قالت: وكيف تنتظرني وهي لم يسبق أن دعتني؟) لأني أعلم أنك لا تحبين حباً شديداً هذا النوع من الاجتماعات التي تزعجك في الغالب. وما كنا إلا لنزداد شرفاً بوجودك بيننا (لم تكن السيدة «دو مورتمار» تستخدم البتة لفظة «تشرفنا» إلا في الرسائل التي تحاول فيها أن تكسب كذبة مظهر الحقيقة). تعلمين أنك دوماً في بيتك عندنا. لقد أحسنت فعلاً على أي حال لأن الحفلة فشلت تماماً كسائر الأمور التي ترتجل في ساعتين، إلخ...». لكن النظرة الجديدة المختلسة التي رُميت بها كانت قد أفهمت «إيديت» مذ ذاك كل ما كان يخفيه كلام السيد «دو شارلوس» المعقد. بل كانت تلك النظرة قوية إلى حد أن السر الواضح ومقصد التكتم الكامنين فيها ارتدا، بعدما صدما السيدة «دو فالكور»، على شاب من «البيرو» كانت السيدة «دو مورتمار» تنوي بالعكس دعوته. لكنه لما كان ظنوناً ورأى إلى حد البداهة صنوف التكتم التي يلجؤون إليها دون أن ينتبه أنها لم تكن موجهة إليه فقد داخله في الحال حقد فظيع على الآنسة «دو مورتمار» وأقسم أنه سيذيقها ألف «مقلب»، كأن يأمر بإرسال خمسين كوباً من القهوة المثلجة إلى منزلها في اليوم الذي لا تستقبل فيه وأن ينشر في اليوم الذي تستقبل فيه إشعاراً في الصحف مفاده أن الحفلة أجلت، وبيانات كاذبة عن الحفلات التالية تتضمن أسماء يعرفها الجميع عائدة لأشخاص يحرص الناس لأسباب مختلفة على استبعاد استقبالهم، وحتى التعرّف إليهم.

كانت السيدة «دو مورتمار» مخطئة بانشغالها بالسيدة «دو فالكور». فقد كان السيد «دو شارلوس» عازماً على أن يأخذ على عاتقه إفساد الحفلة المقررة بما يجاوز كثيراً ما كان فعلُ حضور هذه الأخيرة. وقالت جواباً عن جملة «الإطار» التي مكنها حال الحساسية المفرطة المؤقتة لديها من أن

تحزر معناها: «لكننا يا ابن العم سوف نجنّبك أية مشقة، فإني آخذ على نفسي تماماً أن أسأل «جيلبير» الاهتمام بكل شيء».

- «لا، بالطبع لا، ولا سيما أنه لن يدعى. لن يتم شيء إلا عن يدي. فالأمر قبل كل شيء استبعاد الأشخاص الذين يملكون آذاناً كي لا يسمعوا». وتحولت ابنة عم السيد «دو شارلوس» التي كانت اتكلت على جاذبية «موريل» لتقديم أمسية يمكنها أن تقول فيها إنها خلافاً للكثير من القريبات «ظفرت بحضور بالاميد»، تحولت فجأة فكرتها عن هيبة السيد «دو شارلوس» إلى الأشخاص الكثيرين الذين سيوقعها في خصام معهم إن تدخل في الاستبعاد والدعوة. كانت فكرة أن لن يكون الأمير «دو غيرمانت» (الذي كانت ترغب بسببه جزئياً استبعاد السيدة «دو فالكور» التي لا يستقبلها) مدعواً تبعث فيها الهلع. واتخذت عيناها مظهراً قلقاً. وسأل السيد «دو شارلوس» بجدية ظاهرة لم يدرك طابع السخرية الأساسي فيها: «هل يؤذيك النور القوي إلى حد ما؟» - «لا، إطلاقاً، كنت أفكر في الحرج الذي يمكن أن يسببه ذلك، لا بسببي بالطبع بل بسبب ذويّ، إن علم «جيلبير» أني أقمت أمسية دون أن أدعوه، هو الذي لا يستقبل أربعة قطط دون آن...» - «لكننا سنبدأ بالضبط بإلغاء القطط الأربعة التي لن تتمكن من المواء، وأظن أن ضجيج الأحاديث قد حال دون أن تدركي أن الأمر ليس أمر القيام بمجاملات بفضل أمسية تقام بل مباشرة الطقوس الشائعة في كل احتفال حقيقي. ثم إن السيد «دو شارلوس» إذ حكم، لا أن الشخص التالي طال انتظاره، بل إنه من غير اللائق أن يبالغ في صنوف الإكرام التي خصّ بها تلك التي فكّرت بـ«موريل» أقل كثيراً مما فعلت بلوائح دعواتها الخاصة، أوعز لابنة عمه، مثل طبيب يوقف استشارته حين يحكم أنه صرف الوقت الكافي، أن تنسحب، لا بتوديعها بل بالاتجاه إلى الشخص الذي يلي مباشرة. «مساء الخير سيدة «مونتسكيو». كان ذلك رائعاً. أليس كذلك؟ لم أشاهد «هيلينا»، فقولي لها إن كل امتناع عام، حتى الأكثر نبلاً، كما هو امتناعها، إنما يحتمل استثناءات، إن كانت هذه

باهرة كما كان حالها في هذا المساء، فأن يكون ظهورك نادراً أمر جيد، أما أن تقدم على النادر، وهو سلبي فحسب الثمين فذلك أفضل بعد. وفي ما يخص شقيقتك التي أقدر أكثر من أي شخص آخر «غيابها» المنتظم حيث لا يرقى ما ينتظرها إلى مستواها فإن حضورها في تظاهرة مشهورة كهذه ربما كان على العكس امتيازاً وكان أولى شقيقتك، وهي بالغة المهابة، مهابة إضافية». ثم انتقل إلى شخص ثالث.

ودهشت أيما دهشة أن أرى هنا السيد «دارجنكور»، لطيفاً ممالئاً للسيد «دو شارلوس» بقدر ما كان بالأمس مجافياً له ويطلب أن يعرفوه بـ«شارلي» ويقول إنه يأمل أن يجيء للقياه، ذاك الرجل الرهيب جداً بالنسبة إلى صنف الرجال الذين ينتمي إليهم السيد «دو شارلوس». لكنه كان يعيش الآن محاطاً بهم. وليس يعني ذلك بالتأكيد أنه أصبح من أشباه السيد «دو شارلوس». لكنه كان منذ بعض الوقت قد هجر زوجته إلى امرأة شابة من المجتمع الراقي كان يعبدها. وكانت، إذ هي ذكية، تشركه في ميلها إلى الناس الأذكياء وتتمنّى كثيراً أن تستقبل السيد «دو شارلوس» في بيتها. لكن السيد «دارجنكور» بالأخص، وهو شديد الغيرة وبه شيء من العجز، وإذ يحس أنه لا يرضي تماماً المرأة التي أغراها ويود المحافظة عليها وسلواها في آن واحد، ما كان بوسعه أن يفعل ذلك دون خطر إلا بإحاطتها برجال لا ضرر منهم كان يجعلهم هكذا يقومون بدور حراس الحريم. وقد أخذ هؤلاء يجدون أنه أصبح غاية في اللطف ويعلنون أنه أشد ذكاءً مما ظنوا، وكان هو وعشيقته يسعدان جداً بذلك.

وذهبت مدعوات السيد «دو شارلوس» بشيء من السرعة، وكثيرات كن يقلن: «لست أود الذهاب إلى السكرستيا[1] (وهي الصالة الصغيرة التي كان البارون يتقبل فيها التهاني وإلى جانبه «شارلي»)، ولا بد مع

(١) قاعة ملحقة بالكنيسة تحتوي الملابس والأدوات والأواني المستخدمة في الطقوس الدينية.

ذلك أن يشاهدني «بالاميد» كي يعلم أني مكثت حتى النهاية». ولم تكن واحدة تهتم بالسيدة «فيردوران». وتظاهرت جملة منهن بأنهن لم يتعرفنها وأن يستودعن السيدة «كوتار» خطأ فيما يقلن لي عن زوجة الدكتور: «هي بالتأكيد السيدة «فيردوران»، أليس كذلك؟» وسألتني السيدة «دارباجون» على مسامع ربة المنزل: «هل كان ثمة في يوم رجل يدعى السيد «فيردوران»؟» وكانت الدوقات اللواتي كن يتريثن، كن إذ لا يجدن شيئاً من الأمور الغريبة التي توقعنها في هذا المكان الذي أملنه مختلفاً عما كنّ يعرفن يستدركن أمورهن، لعدم توافر الأفضل، وذلك بكتم ضحكات لا تقاوم أمام لوحات «إيلستير»؛ أما بخصوص الباقي الذي كنّ يرينه أكثر مطابقة مما ظنن لما سبق أن عرفنه فقد كن يرددن الفضل فيه للسيد «دو شارلوس» بقولهن: «كم يحسن «بالاميد» تدبير الأمور! فقد يخرج غرائبية داخل مستودع أو مستراح فلا تكون لذلك أقل روعة». وأكرمهن نسباً كن أولئك اللائي يهنئن السيد «دو شارلوس» على نجاح أمسية ما كان بعضهن يجهل الدافع السري إليها دون أن يربكهن ذلك على أية حال إذ تذهب هذه الجماعة - ربما في تذكرها لبعض أزمنة في التاريخ كانت أسرتها قد أدركت فيها مذ ذاك هوية واعية تماماً - في ازدرائها لتحسبات الضمير مذهبها في التقيد باللياقة. ودعت عدة منهن «شارلي» في المكان نفسه إلى أمسيات يجيء فيها لعزف سباعية «فانتوي»، لكنما لم يخطر لأي منهن أن تدعو إليها السيدة «فيردوران». وكانت هذه قد بلغت أقصى درجات الحنق حينما أراد السيد «دو شارلوس»، وما كان بوسعه وهو محمول على متن سحابة أن يتبين الأمر، أن يدعو المعلمة تأدباً إلى مشاطرته فرحه. وإنما قال أستاذ مذاهب احتفالات الفن، ربما استسلاماً لميله إلى صنعة الأدب أكثر منه إلى فورة كبرياء، قال للسيدة «فيردوران»: «هيا، هل أنت راضية؟ أظن أن المرء ربما رضي بأقل من ذلك؛ ترين أني حينما أهتم بإقامة احتفال فليس ما أبلغ نصف نجاح. وما أدري إن كانت معلوماتك في دنيا الشعارات تمكنك من تقدير أهمية التظاهرة

تقديراً صحيحاً وكذلك الوزن الذي رفعته وحجم الهواء الذي أزحته من أجلك. فقد ضم منزلك ملكة نابولي، وشقيق ملك «بافيير» والأعيان الثلاثة الأكثر قدماً. إن كان «فانتوي» محمداً فيمكننا أن نقول إنا أزحنا من أجله الجبال الأكثر رسوخاً. فكري أن ملكة نابولي جاءت لحضور حفلتك في «نوبي»، وذلك أصعب عليها من مغادرة الصقليتين»، يقول وفي القول مقصد استهانة على الرغم من إعجابه بالملكة «إنه حدث تاريخي. فكري أنها لم تخرج ربما في يوم منذ احتلال «غاييت»[1]. ومن المرجح أنهم سيضعون في القواميس يوم احتلال «غاييت» ويوم أمسية آل «فيردوران» على أنها من تواريخ احتلت الأوج. وإن المروحة التي طرحتها جانباً لتحسن التصفيق لـ«فانتوي» لتستحق أن تلبث أكثر شهرة من المروحة التي حطمتها السيدة «دو ميترنيخ» لأن هناك من كان يندد بـ«فاغنر» بالتصفير». - «وهي حتى نسيتها، مروحتها تلك»، تقول السيدة «فيردوران» وقد هدأت مؤقتاً جراء تذكر الود الذي أبدته لها الملكة؛ وأرت السيد «دو شارلوس» المروحة فوق الكنبة. فصاح السيد «دو شارلوس» وهو يقترب بإجلال من الذخيرة الثمينة: «آه! كم هي مؤثرة! وهي تزداد تأثيراً في النفس بقدر ما هي شنيعة، والبنفسجة الصغيرة شيء لا يصدق!» وتهزه تشنجات من انفعال وسخرية بالتناوب: «يا إلهي، لست أرى إن كنتِ تحسّين هذه الأمور كما هي حالي. ولعل «سوان» كان بكل بساطة قضى تشنجاً لو أنه رأى ذلك. أعلم تمام العلم أني سأشتري تلك المروحة في السوق التي تقيمها الملكة مهما عظم الثمن. فإنها سوف تباع بما أنها لا تملك شروى نقير»، يضيف قوله إذ لا يني الاغتياب المرير لدى البارون يختلط بأصدق عاطفة الإجلال مع أنهما ينطلقان من طبيعتين مختلفتين لكنهما تجتمعان لديه.

---

(١) مرفأ على المتوسط في إيطاليا أدّى استسلامه عام ١٨٦١ إلى القضاء على مملكة الصقلين.

بل كان يمكن أن ينطبق كل منهما بالتناوب على الواقعة نفسها. ذلك أن السيد «دو شارلوس» الذي كان يسخر من إملاق الملكة، من أعماق رفاهه بوصفه رجلاً غنياً، كان هو نفسه الذي غالباً ما يمجد الفقر ويجيب حينما يجري الحديث عن الأميرة «مورا» ملكة الصقليتين بقوله: «لست أعلم عمن تبغون التحدث، فليس سوى ملكة واحدة لنابولي وهي عظيمة هذه، ولا تملك عربة، لكنها من الحافلة العامة التي تستقلها تحطم الطواقم جميعاً وقد تجثو في التراب على ركبتيك إن رأيتها تمر بطريقها».

«سوف أوصي بها لأحد المتاحف، ولا بد حتى ذاك من إعادتها إليها كي لا تضطر إلى استئجار عربة لترسل في طلبها. ولعل ما كان الأوفر ذكاء، بالنظر إلى الأهمية التاريخية لمثل هذه الحاجة، أن تُسرق هذه المروحة. لكن ذلك سوف يزعجها – إذ من المرجح أنها لا تملك غيرها!» يضيف قوله وهو ينفجر ضاحكاً. «على أي حال ترين أنها جاءت كرمى لي، وليست هذه المعجزة الوحيدة التي صنعتها. ولست أعتقد أن ثمة من يستطيع في الوقت الراهن تحريك القوم الذين جئت بهم. لا بد بأية حال من إعطاء كل واحد قسطه، فإن «شارلي» والموسيقيين الآخرين قد عزفوا عزف الآلهة. ثم أنت أيتها المعلمة العزيزة، يضيف قوله متنازلاً، كان لك نصيبك في الدور الذي تم في هذا الاحتفال، ولن يغيب اسمك عنه. لقد احتفظ التاريخ باسم الغلام الذي سلّح جان دارك حينما ذهبت؛ وكنت أنت بوجيز العبارة صلة الوصل ومكنت من الانصهار بين موسيقى «فانتوي» ومنفذها العبقري، وقد أسعفك ذكاؤك في إدراك الأهمية الأساسية لكامل ترابط الظروف الذي قد يمكّن المنفذ من الإفادة من كامل وزن شخصية ضخمة (لو لم يتعلق الأمر بي لقلت: وفرتها العناية الربانية) خطر لك أن تسألها ضمان هيبة الاجتماع، وأن يوفر لكمان «موريل» الآذانَ المولعة مباشرة باللغات الأكثر ذيوعاً. لا، لا، ليس ذلك بالشيء القليل، وليس من شيء زهيد في إنجاز متكامل كهذا. كل شيء يصب في

هذا المنحى. فقد كانت «دوراس» رائعة، وكان كل شيء في نهاية المطاف». وإذ هو يحب التأنيب ختم قائلاً: «لهذا السبب عارضت أن تدعي من أولئك الأشخاص المفرقين الذين قاموا في حضرة الأشخاص المتفوقين الذين كنت أجيئك بهم بدور الفواصل في عددٍ ما. فيما يقتصر الآخرون على أن يكونوا مجرد أعشار. إني أحس تماماً هذه الأمور. تدركين أنه لا بد من تفادي الأخطاء حينما نقيم احتفالاً ينبغي أن يكون خليقاً بـ«فانتوي» وبمؤديه العبقري وبك، وبي (وتحالفني الجرأة في قول ذلك). فلو أنك دعوت السيدة «موليه» لخاب كل شيء. ولكانت تلك النقطة المضادة المحيِّدة التي تجعل الشراب دون مفعول. وكانت انطفأت الكهرباء وما حصلت المحمصات في الوقت المحدد وأصاب شراب البرتقال بالمغص الناس جميعاً. فهي الشخص الذي ما كان ينبغي استقباله. فما كان صوت انطلق من النحاسيات، كما هي الحال في مسرحية غرائبية، لدى مجرد ذكر اسمها، ارتج فجأة على الناي والمزمار، و«موريل» نفسه، حتى إن هو استطاع إصدار بعض النغمات، ما كان ليسعه ذلك من بعد وكنت حصلت بدلاً من سباعية «فانتوي» على محاكاة لها ساخرة على يد «بيكميسير»[1] تنتهي بين صيحات الاستهزاء. لقد أحسست تماماً، أنا الذي يؤمن كثيراً بتأثير الأشخاص، أحسست في تفتح الحركة البطيئة الواسعة التي تنفتح حتى الأعماق على غرار زهرة، وفي فيض الانشراح في الحركة الختامية التي لم تكن سريعة فحسب بل خفيفة مرحة مرحاً لا يضاهى، أن غياب المدعوة «موليه» كان يلهم الموسيقيين وتتوسع به فرحاً حتى الآلات الموسيقية نفسها. والمرء على أية حال لا يدعو البوابة يوم يستقبل الملوك جميعهم. «كان السيد «دو شارلوس»، حينما يسميها المرأة «موليه» (مثلما كان يقول، بلهجة محببة تماماً على أي حال،

(١) Backmesser: أحد شخوص أوبرا لـ«فاغنر» يثير السخرية لتكلفه ما لا يستطيع من غناء.

المرأة «دوراس») إنما ينصفها. ذلك أن كل تلك النساء كن ممثلات في العالم، والصحيح أن الكونتيسة «موليه» حتى إن نظرنا إليها من وجهة النظر هذه لم تكن في مستوى سمعة الذكاء الخارقة التي يشيعونها عنها والتي كانت توفر مادة للتفكير لهؤلاء الممثلين أو الروائيين الضحلين الذين يحوزون في بعض الأزمنة مكانة يطبعها النبوغ إما بسبب ضحالة زملائهم الذين ليس من فنان رفيع المستوى بينهم يستطيع أن يظهر ما هي الموهبة الحقيقية، وإما بسبب ضحالة الجمهور الذي وإن توفرت شخصية خارقة سوف يعجز عن فهمها. والأفضل، في حالة السيدة «موليه»، إن لم يكن من الصحيح تماماً، أن نقتصر على التفسير الأول. ولما كانت الدنيا مملكة العدم فليس بين مزايا مختلف نساء العالم سوى درجات زهيدة تستطيع أحقاد أو خيالات السيد «دو شارلوس» وحدها أن تضخمها إلى حد غير معقول. ولئن تحدث مثلما فعل منذ قليل بهذه اللغة التي هي مزيج ثمين من أشياء الفن والعالم، فذلك بالتأكيد لأن غضبات المرأة العجوز لديه وثقافة رجل المجتمع ما كانت توفر للبلاغة الحقيقية لديه إلا موضوعات تافهة. ولما كان عالم الفوارق لا وجود له على وجه البسيطة بين جميع البلدان التي يسوى إدراكنا بينها فلا وجود له بالأحرى في دنيا المجتمعات. وهل له وجود في مكان ما على أي حال؟ لقد بدا أن سباعية «فانتوي» قالت لي أن نعم. ولكن أين؟

ولما كان السيد «دو شارلوس» يحب كذلك أن يكرر ويعيد من واحد إلى آخر ويزرع الخصام ويفرق ليسود فقد أضاف قوله: «لقد حرمتِ السيدة «موليه» حين لم توجهي الدعوة لها فرصةَ أن تقول: «لست أدري لماذا دعتني السيدة «فيردوران» هذه، ولست أعلم من عسى يكون هؤلاء الناس، فإني لا أعرفهم». لقد سبق أن قالت السنة الماضية إنك ترهقينها بصنوف توددك. إنها حمقاء فلا توجهي لها دعوة من بعد. وهي بالإجمال ليست شخصية خارقة إلى هذا الحد. وبوسعها بالطبع المجيء إلى منزلكم دون أن تبدي تكلفاً بما أني أجيء أنا». وخلص إلى القول: «يبدو لي بوجه

الإجمال أنك تستطيعين أن تشكريني، إذ الأمر بالمسيرة التي سارها قد بلغ الكمال. لم تجئ دوقة «غيرمانت»، لكننا لسنا نعلم فربما كان الأمر أفضل هكذا. لن نحقد عليها وسوف نتذكرها لمرة أخرى ولا يمكننا على أية حال أن لا نتذكرها فإن عينيها إنما تقولان لنا: «لا تنسني» بما أنهما زهرتا حب[١]». (وكنت أفكر في داخلي كم كان ينبغي أن تكون الروح «الغيرمانتية» - التصميم على الذهاب هنا وليس هناك - قوية كيما يتغلب لدى الدوقة على خشية «بالاميد»). «يغريك، إزاء نجاح كامل إلى هذا الحد، أن تبصر في كل مكان على غرار «بيرناردان دو سان بيير»[٢] يد العناية الإلهية. لقد افتتنت الدوقة «دو دوراس» وهي حتى كلفتني أن أقول لك ذلك»، يضيف السيد «دو شارلوس» وهو يشدد على الكلمات كما لو انبغى للسيدة «فيردوران» أن تعد ذلك شرفاً كافياً. كافياً بل يكاد لا يصدق إذ رأى من الضروري أن يقول كيما يصدق: «أجل»، وقد عصف به جنون من يريد «جوبيتير» أن يهلكه. «لقد دعت «موريل» إلى بيتها حيث سيقدم البرنامج ذاته، وأفكر حتى في طلب دعوة للسيد «فيردوران». كانت هذه المجاملة الموجهة للزوج وحده، ودون أن تكون الفكرة حتى راودت السيد «دو شارلوس»، الإهانة الأكثر إيلاماً للزوجة التي كانت عازمة تماماً، إذ تظن لها الحق إزاء العازف، بمقتضى نوع من مرسوم موسكوبي مطبق في العشيرة الصغيرة، أن تمنعه من العزف خارجاً دون إذنها الصريح، على أن تحول دون مشاركته في أمسية السيدة «دو دوراس».

كان السيد «دو شارلوس» لمحض تكلّمه بهذه الطلاقة يثير حنق السيدة «فيردوران» التي ما كانت تحب أن يشق أحد عصا الطاعة في العشيرة الصغيرة. فكم مرة، ومنذ فترة «لا راسبليير»، صاحت، وهي تسمع

(١) هي زهرة الـMyosotis في اليونانية وتعني آذان الفأر أو «لا تنسني» Ne m'ouliez pas, Vergissmeinicht

(٢) Bernardin de Saint-Pierre صاحب «بول وفرجيني».

البارون لا ينِي يكلم «شارلي» بدلاً من أن يكتفي بتنفيذ دوره في العزف الجماعي داخل النواة الصغيرة، صاحت وهي تدل على البارون: «يا له لسان يملكه، وأي ثرثار هو؛ آه! إن عدّ الثرثارون فهو ثرثار مرموق!» لكن الأمر كان أشد سوءاً هذه المرة. فلم يكن السيد «دو شارلوس» يدرك، وقد انتشى بأقواله، أنه بإقراره بدور السيدة «فيردوران» وبرسم حدود ضيقة له إنما يهيج ذاك الشعور الحاقد الذي لم يكن عندها سوى شكل خاص، سوى شكل اجتماعي للغيرة. كانت السيدة «فيردوران» تحب حقاً رواد المنزل والمخلصين للعشيرة الصغيرة وتريدهم لمعلمتهم كلياً. وإذ كانت تضحّي بشيء كي لا تخسر كل شيء، كهؤلاء الغيارى الذين يسمحون بأن تجري خيانتهم، ولكن تحت سقف بيتهم، بل تحت أنظارهم، يعني أنهم لا يكونون ضحية الخيانة، فقد كانت توافق للرجال على عشيقة، على عشيق بشرط ألا يكون لكل هذا أية ذيول اجتماعية خارج بيتها وأن تنعقد العلاقة وتستمر في ظل أيام الأربعاء. لقد سبق أن نهشت فؤادها ضحكة، أية ضحكة خفية لـ«أوديت» بالقرب من «سوان»، ومنذ بعض الوقت أي حديث على انفراد بين «موريل» والبارون كانت تلقى لغمومها عزاء وحيداً قوامه تخريب سعادة الآخرين. فما كانت لتتحمل طويلاً سعادة البارون. وها أن هذا المتهور يسرع الكارثة إذ يبدو أنه يقلص مكانة المعلمة داخل عشيرتها الصغيرة ذاتها. وأخذت ترى «موريل» يطوف مذ ذاك في المجتمع الراقي بدونها في ظل البارون. وما كان ثمة سوى دواء واحد: أن تخيّر «موريل» بينها وبين البارون وتفيد من السلطان الذي تهيأ لها على «موريل» إذ تبدى لناظريه نفاذ بصيرة خارقاً بفضل تقارير تستكتبها وكذبات تبتدعها وتقدمها له، هذه وتلك، على أنها تؤيد ما كان يميل هو إلى اعتقاده وما سوف يراه في الواقع بفضل الأحابيل التي تعدها والتي يروح البسطاء يسقطون فيها، تفيد من ذاك السلطان فتحمله على اختيارها هي، مؤثراً إياها على البارون. فأما نساء المجتمع اللواتي حضرن ولم يطلبن حتى التعرف بها فقد قالت حالما تبينت ترددهن أو لا مراعاتهن اللياقة: «آه! ها

إني أرى بوضوح، إنهن صنف من العجائز البلهاوات لا يناسبنا، وهن يشهدن هذه الصالة لآخر مرة». فلعلها كانت فضلت أن تقضي نحبها على أن تقول إنهم كانوا أقل تودداً لها مما أملت.

وصاح السيد «دو شارلوس» فجأة: «آه! أيها الجنرال العزيز»، صاح وهو يفارق السيدة «فيردوران» إذ كان يبصر الجنرال «ديلتور» أمين رئاسة الجمهورية الذي يمكن أن يكون عظيم الأهمية في ما يتعلق بوسام «شارلي»، وبعدما طلب النصح من «كوتار» توارى بسرعة. «مساء الخير أيها الصديق العزيز الرائع. ويحك، أهكذا تنسل هارباً دون أن تودعني؟» يقول البارون بابتسامة تطبعها السذاجة والغرور إذ كان يعلم تمام العلم أنهم يسرون دوماً بالتحدث إليه زمناً أطول. ولما كان في حال الحميا التي تملكته يصوغ بمفرده وبصوت زائد الحدة الأسئلة والأجوبة: «هيا، هل أنت راضٍ؟ ألم يكن ذلك غاية في الجمال؟ الحركة البطيئة، أليس كذلك؟ إنها أكثر ما كتب في يوم تأثيراً في النفس، وأتحدى أن يسمعها أحد حتى النهاية دون أن يترقرق الدمع في عينيه. رائع أن تكون أتيت. قل لي، لقد تسلمت هذا الصباح برقية ممتازة من «فروبيرفيل» يعلمني أن الصعوبات مهدت من جانب المستشارية الكبرى كما يقولون». كان صوت السيد «دو شارلوس» يوالي ارتفاعه ونبرته الحادة، صوت يختلف عن صوته المعتاد اختلاف صوت محامٍ يرافع بنبرة تفخيمية عن إلقائه المعتاد، وهي ظاهرة تضخيم صوتي لفرط هياج وحالة اغتباط عصبي شبيه بذاك الذي كان يرفع إلى سويّة عالية جداً صوت السيدة «دو غيرمانت» ونظرتها على حد سواء في الأعشية التي كانت تقيمها. وقال الجنرال: «كنت أنوي أن أبعث إليك في صباح الغد بكلمة على يد أحد الحراس لأقول لك عن مدى حماستي بانتظار أن يسعني التعبير عن ذلك حضورياً؛ ولكنما كان يحيط بك نفر كثير! إن مساندة «فروبيرفيل» أمر ما أبعد أن يستهان به، لكني حصلت من جانبي على وعد من الوزير».

- «حسن جداً. وقد رأيت على أي حال أن هذا ما تستحقه موهبة من

هذا القبيل. لقد كان «هويوس»[1] في غاية الغبطة، ولم أتمكن من لقاء زوجة السفير، فهل كانت راضية؟ ومن عساه لم يكن كذلك، باستثناء من لهم آذان كي لا يسمعوا، والأمر لا أهمية له ما داموا يملكون ألسنة يتحدثون بها».

أفادت السيدة «فيردوران» من أن البارون كان قد ابتعد للتحدث إلى الجنرال فأشارت بيدها إلى «بريشو». وابتغى هذا، وما كان يعلم ما ستقول له السيدة «فيردوران»، إبهاجها فقال للمعلمة دون أن يرتاب إلى أي حد كان يعذبني: «لقد ابتهج البارون أيما ابتهاج أن لم تجيء الآنسة «فانتوي» وصديقتها، فإنهما تثيران أشد الاستنكار لديه. وقد أعلن أن أخلاقهما تثير الفزع. ولست تتصورين كم البارون محتشم ومتشدد في باب الأخلاق». ولم تطرب السيدة «فيردوران» لذلك فأجابت قائلة: «إنه مقزز. هيا اعرض عليه أن يجيء فيدخن برفقتك سيكارة كي يتمكن زوجي من اصطحاب «محبوبته»، دون أن ينتبه لذلك «شارلوس» هذا، واطلاعه على الهاوية التي ينساق إليها». وبدا على «بريشو» شيء من التردد؛ فأردفت السيدة «فيردوران» تقول لتنتزع آخر الوساوس من صدر «بريشو»: «دعني أقول لك إني لا أحسني في أمان مع أمر كهذا في بيتي. فإني أعلم أن أموراً قذرة جرت معه وأن الشرطة تترصده». ولما كانت السيدة «فيردوران» تتمتع بموهبة الارتجال حينما تستلهم أذية الناس فإنها لم تتوقف عند هذا الحد: «يبدو أنه زار السجون. بلى، بلى، قال لي ذلك أشخاص على اطلاع تام. وأعلم، من ناحية أخرى، من واحد يسكن في الشارع الذي يسكنه أنه لا يخطر لك نوع قطاع الطرق الذين يستقدمهم إلى بيته». ولما كان «بريشو» يحتج، وكثيراً ما كان يتردد على منزل البارون، صاحت السيدة «فيردوران» وقد هزّتها الحمية: «ولكني ضامنة لذلك! فأنا من تقوله»، وهي عبارة كانت تحاول أن تدعم بها عادة توكيداً ألقت به

---

(١) الكونت «هويوس» كان سفير النمسا في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر.

كيفما اتفق «سوف يقضي اغتيالاً ذات يوم، كحال أشباهه جميعاً على أي حال. بل ربما لم يبلغ هذا الحد لأنه واقع بين مخالب «جوبيان» هذا الذي تجرأ وبعث به إليّ وهو محكوم قديم بالأشغال الشاقة، إني أعرف ذلك كما تعلم، أجل، وبصورة إيجابية. إنه يمسك على «دو شارلوس» رسائل هي شيء مريع فيما يبدو. لقد أخبرني بذلك شخص رآها وقال لي: «قد يغمى عليك إن شاهدت ذلك». هكذا يسوقه «جوبيان» هذا بالعصا وينتزع منه كل ما يبغي من مال. إني أفضّل الموت ألف مرة على أن أعيش في الهلع الذي يعيش فيه «شارلوس». وفي جميع الأحوال، إن قررت أسرة «موريل» أن تشكوه للقضاء فلست أرغب أن أتهم بالتواطؤ. فإن استمر تحمل التبعات، أكون قد أديت واجبي. ما عساك تريد؟ ليس الأمر مسلياً على الدوام». وقالت لي السيدة «فيردوران» وقد هزتها حماسة لذيذة من توقع الحديث الذي سيجريه زوجها عما قليل مع عازف الكمان: «هيا اسأل «بريشو» إن لم أكن صديقة شجاعة وإن كنت لا أعرف التضحية بنفسي لإنقاذ الرفاق». (كانت تلمح إلى المناسبات التي أوقعته فيها في الوقت المناسب في خصام مع غسالته بادئ الأمر، ومع السيدة «دوكامبرمير» بعد ذلك، وهي المخاصمات التي أضحى «بريشو» في أعقابها كفيفاً تماماً تقريباً ومدمناً على المورفين كما كانوا يقولون). وأجاب الجامعي بتأثر ساذج: «صديقة لا مثيل لها نافذة البصيرة شجاعة». وقال لي «بريشو»: «لقد حالت السيدة «فيردوران» دون أن أرتكب حماقة جسيمة»، قال بعدما ابتعدت هذه الأخيرة. «إنها لا تتردد في اتخاذ التدابير الجازمة. إن لديها نزعة إلى التدخل، كما ربما قال صديقنا «كوتار». على أني أقر أن فكرة جهل البارون المسكين بعد للضربة التي ستحل به إنما تبعث في صدري غماً عظيماً. إنه مجنون تماماً بهذا الغلام، فإن أفلحت السيدة «فيردوران» فذاك رجل سيكون تعيساً جداً، وليس من المؤكد على أية حال أنها لن تفشل. فإني أخشى أن لا تفلح إلا في زرع سوء تفاهم بينهما لن يقود في نهاية المطاف إلا إلى اختصامهما معها دون أن تفصل

بينهما». وكثيراً ما اتفق ذلك للسيدة «فيردوران» مع الخلّص. لكنما كان بارزاً للعيان أن الحاجة لديها إلى الحفاظ على صداقتهم أخذت تسودها أكثر فأكثر الحاجة إلى أن تحبط تلك الصداقة في يوم جراء الصداقة التي يمكن أن يكنها بعضهم لبعض. وما كان الشذوذ الجنسي يسوء في عينيها ما دام لا يمس المعتقد القويم، لكنها كانت تفضّل كالكنيسة التضحيات جميعاً على تساهل واحد بشأن استقامة العقيدة. وشرعت أخاف أن يكون اغتياظها مني ناجماً عن علمها أني منعت «ألبيرتين» من الذهاب إلى هناك (منزل آل فيردوران) في بحر النهار وأن تباشر لديها، إن لم تكن بعد فعلت، ذات العمل الآيل إلى فصلها عني والذي كان زوجها يعتزم القيام به لدى عازف الكمان إزاء «شارلوس». وقالت السيدة «فيردوران»: «هيا، بادر فابحث عن «شارلوس» وأوجد لك صحبة، فقد آن الأوان، واجهد خصوصاً ألا تدعه يعود قبل أن أبعث في طلبكما. آه! يا لها أمسية!» تضيف السيدة «فيردوران» كاشفة هكذا عن السبب الحقيقي لحنقها، «أن تطلب عزف هذه الروائع أمام هؤلاء الحمقى! لست أتكلم عن ملكة نابولي، فإنها ذكية، وهي امرأة ظريفة (تعني: كانت لطيفة جداً معي): بل عن الآخرين! آه! شيء يثير أشد حنقك. ما عساك تريد، لم أعد في العشرين أنا. حينما كنت صغيرة السن كانوا يقولون لي إنه ينبغي أن يعرف المرء كيف يتضجر، وكنت أتكلف الأمر، أما الآن فلا، فالأمر فوق طاقتي وأصبحت في سن أفعل فيه ما أشاء، وإن الحياة لقصيرة، والتضجر والتردد على البلهاء والتصنّع والتظاهر بأنّا نجدهم أذكياء، لا، لست أستطيع. هيا، يا لك يا «بريشو»، لا وقت لدينا نضيعه». وقال «بريشو» في نهاية المطاف فيما كان الجنرال «ديلتور» يبتعد: «ها أنا ذاهب يا سيدتي، ها أنا ذاهب». لكن الجامعي قبل ذلك انتحى بي جانباً زهاء لحظة وقال لي: «إن الواجب الأخلاقي أقل وضوحاً في إلزاميته مما تعلمنا إياه علومنا الأخلاقية. ألا فلتسلم بذلك المقاهي التنويرية وأمكنة الشراب الكانطية: إننا نجهل بصورة مؤسية طبيعة الخير. فإني أنا، وقد فسرت،

ولا فخر، فلسفة المدعو «إيمانوئيل كانط» لتلاميذي ببراءة تامة، لا أرى أية إشارة واضحة إلى الحالة الضميرية المجتمعية التي أراني في مواجهتها في كتاب«نقد العقل العملي» الذي تحدث ونظر فيه الهاجر الكبير للبروتستنتية، نظر أفلاطونياً على الطريقة الجرمانية الألمانية عاطفية ومحاكمته منذ القدم، حول صوفية «بوميرانية»[١] تستخدم لدى الاقتضاء. وهي «الوليمة» أيضاً[٢]، لكنها معدة هذه المرة في «كونيكسبيرغ»، وعلى طريقتهم هناك، عسيرة الهضم مطهرة، بالشوكروت ودون صبيان أنيقين. ومن البديهي أني لا أستطيع من جهة أن أرفض لمضيفتنا الممتازة الخدمة الزهيدة التي تسألني إياها وبما يتفق تماماً مع استقامة العقيدة مع علم الأخلاق التقليدي. فلا بد أن يتجنب المرء قبل كل شيء أن تخدعه الكلمات إذ ليس ثمة الكثير منها مما كان أكثر دفعاً إلى قول الحماقات. لكن لا نترددن في الإقرار بأن البارون، لو كان لربات الأسر حصة في القرار، ربما استبعد كأستاذ للفضيلة بشكل يدعو للرثاء. لكنه لسوء الحظ إنما يتابع مهمته كمربٍّ بطبع الرجل الماكر. لاحظ أني لا أتناول البارون بالسوء، فهذا الرجل اللطيف الذي يجيد تقطيع شواء كما لا يفعل أحد غيره يملك إلى جانب عبقرية اللعنة كنوزاً من الطيبة. فيمكن أن يكون مسلياً كمهرج رفيع المستوى في حين أراني مع هذا أو ذاك من زملائي، وعضو أكاديمية من فضلك، نهب السأم بمئة دراغما في الساعة، كما ربما قال «كزينوفون»[٣]. لكني أخشى أن ينفق إزاء «موريل» أكثر قليلاً مما تأمر به الأخلاق السوية، وإنه، دون أن نعلم إلى أي حد يبدي التائب الشاب خضوعاً أو نفوراً من التمارين الخاصة التي يفرضها عليه أستاذه في الدين

---

(١) نسبة إلى منطقة بوميرانيا في شمال شرق ألمانيا.

(٢) *Le Banquet* من حوارات أفلاطون وفيه يناقش أفلاطون من بين أنماط الحب حب الرجال للفتيان.

(٣) Xenophon فيلسوف وكاتب يوناني من القرن الخامس قبل الميلاد ومن أتباع سقراط.

على صعيد الإماتة الجسدية، لا حاجة لأن يكون المرء عالماً كبيراً كي يتأكد أننا قد نفرط كما يقولون في التسامح تجاه هذا المتصوف الذي يبدو كأنما يجيئنا من «بيتروني»[1] بعد مروره عن طريق «سان سيمون» إن نحن منحناه، مغمضي العينين، إذناً أصولياً بأن يلبس لبوس الشيطان. ولا يسعني مع ذلك، إذ أشغل هذا الرجل فيما تبادر السيدة «فيردوران»، من أجل خير الخاطئ، وقد استهواها بالضبط مثل هذا العلاج، إلى التحدث مع الفتى الطائش دون مواربة، لا يسعني أن أقول إن سلبه كل ما يحب وربما توجيه ضربة قاضية له لا يثيران اهتمامي، فإنه يبدو لي أني أستدرجه كأنما إلى كمين، وتراني أتراجع كأنما إزاء ما يشبه النذالة». وبعد أن قال ما قال لم يتردد في اقترافها وأخذ بذراعي مضيفاً: «هيا أيها البارون، ليتنا نمضي لتدخين سيكارة، فهذا الشاب لا يعرف بعد كل روائع الفندق». واعتذرت قائلاً إني مضطر أن أعود أدراجي، فقال «بريشو»: «انتظر قليلاً بعد، فأنت تعلم أن عليك أن تعيدني ولست أنسى وعدك». وقال لي السيد «دو شارلوس»: «ألا تريد حقاً أن أطلب لك عرض الفضيات؟ فليس ما كان أبسط من ذلك. وكما وعدتني، لا كلمة لـ«موريل» عن مسألة الوسام، فمرادي أن أفاجئه بأن أعلن له عن ذلك عما قليل حينما نكون قاربنا الانصراف. مع أنه يقول إن الأمر لا أهمية له في عين الفنان، ولكن عمه راغب فيه» (واحمر وجهي خجلاً لأن آل «فيردوران» كانوا يعلمون من جدي من عسى كان عم «موريل»). «هيا، ألا تود أن أطلب لك عرض أجمل القطع؟ ولكنك تعرفها، فقد رأيتها عشر مرات في «لا راسبليير». وخانتني الجرأة في أن أقول له أن ليس ما كان يمكن أن يثير اهتمامي أواني تافهة من فضيات بورجوازية، حتى ما كان منها الأكثر ثراء، بل أية عينة، وإن تكن مجرد صورة جميلة، لأوان للسيدة «دو باري». لقد كنت شديد الانشغال وكنت دوماً - حتى لو لم يكن شغلني ذاك الإعلان عن



(١) Pétrone: كاتب روماني من القرن الأول بعد الميلاد.

مجيء الآنسة «فانتوي» - بالغ الشروط والاضطراب بين الناس كي أصرف انتباهي إلى حاجات ليست على جمال كبير. وما كان يمكن تركيزه إلا بدعوة صادرة عن واقع يخاطب خيالي كما كان أمكن أن يفعل في هذا المساء مشهد من مدينة البندقية هذه التي ما أكثر ما فكرت فيها بعد الظهر، أو عنصر عام أياً كان، واحد في مظاهر عدة وأكثر حقيقة منها، كان يوقظ فيّ دائماً من تلقاء ذاته روحاً داخلياً راقداً عادة، ولكن عودته إلى سطح الوعي لديّ كانت توليني فرحاً عظيماً. ففيما كنت خارجاً من الصالة المدعوة قاعة المسرح وكنت أجتاز برفقة «بريشو» والسيد «دو شارلوس» الصالات الأخرى أدركت، إذ عدت فلقيت قطع أثاث رأيتها في قصر «لا راسبليير» وقد نقلت بين قطع أخرى، وما كنت أعرتها أي انتباه، أدركت بين ترتيب الفندق وترتيب القصر نوعاً من المظهر العائلي وتماثلاً دائماً وفهمت «بريشو» حينما قال لي وهو يبتسم: «هيا انظر، هل ترى مؤخر الصالة هذا، إنه يمكن على الأقل أن يزودك بفكرة عن شارع «مونتاليفيه» منذ خمسة وعشرين عاماً، «عن قسم كبير من حياة الإنسان»[١].» وأدركت من الابتسامة التي أهداها للصالة العتيقة التي يراها من جديد أن ما كان «بريشو» يفضله، ربما دون أن يتبين ذلك، في الصالة القديمة إنما كان، أكثر من النوافذ الكبيرة وأكثر من الشباب المرح للمعلمين وأتباعهما المخلصين، ذلك الجزء الخيالي (الذي كنت أستخلصه بنفسي من بعض التشابهات بين «لا راسبليير» و«رصيف كونتي»[٢]) والذي لا يشكّل الجزء الخارجي منها، الجزء الراهن القابل للمراقبة من جانب كل الناس، سواء في الصالة أو أي شيء آخر، سوى امتداد له، كان ذلك الجزء الذي أضحى فكرياً بحتاً وبلون لم يعد موجوداً إلا بالنسبة لمحدثي العجوز ولا يستطيع أن يريني إياه، ذلك الجزء الذي انفصل عن العالم الخارجي ليغور

---

(١) وردت باللاتينية في النص «grande mortalis aevi spatium» «من حياة أغريكولا» للكاتب تاكيتوس.

(٢) ضفة النهر حيث يقول منزل آل «فيردوران».

في النفس التي يعطيها قيمة مضافة وحيث يماثل ماهيتها المعتادة فيستحيل فيها - البيوت المهدمة وناس الأمس وأطباق الفواكه في الأعشية التي نتذكرها - ذاك المرمر الشفاني الذي تؤلفه ذكرياتها والذي نعجز عن إبراز لونه الذي لا يعرفه أحد سوانا، وهذا ما يسمح لنا بأن نقول للآخرين بصدق، حول هذه الأمور الماضية، إنهم لا يستطيعون أن يكوّنوا فكرة عنها وإنها لا تشبه ما سبق أن رأوه، وأننا لا نستطيع أن نتأملها داخل ذواتنا دونما انفعال يهزنا ونحن نفكر أن بقاءها إنما يرتبط بعض الوقت بعد بوجود فكرنا، بريق المصابيح التي انطفأت ورائحة الخمائل التي لن تزهر من بعد. وليس من شك أن صالة شارع «مونتاليفيه» كانت بذلك، في ما يخص «بريشو»، تضر بمسكن آل «فيردوران» الحالي. لكنها كانت من جهة أخرى تضيف إليه، في عيني الأستاذ، جمالاً ما كان ليملكه في نظر أحد الرواد الجدد. إن بعض قطع أثاثه القديم التي أعيد وضعها ههنا وترتيباً واحداً احتفظ به أحياناً وكنت ألقاه بنفسي، هو ترتيب «لا راسبليير»، كانت تدخل في الصالة الحالية أجزاء من القديمة تذكر بها بين الحين والحين إلى حد الهلوسة ثم هي تبدو وهمية تقريباً بما تذكر في صميم الواقع المحيط بأجزاء من عالم بادٍ وكنت تظن أنك تراه في مكان آخر. فكنبة طلعت من الحلم بين المقاعد الجديدة والحقيقية تماماً، وكراس صغيرة غلفت بحرير وردي اللون وسجادة طاولة لعب مقصبة رفعت إلى مرتبة إنسان منذ أن أضحى لها على غرار الإنسان ماضٍ وذاكرة وظلّت تحتفظ في الظلال الباردة لصالة رصيف «كونتي» بتلويحة الشمس عبر نوافذ شارع «مونتاليفيه» (ويعرف ساعتها كالسيدة «فيردوران» نفسها تماماً) وعبر أبواب «دوفيل» المزججة حيث كانوا اصطحبوه وحيث كان يتأمل طوال النهار، خلف حديقة الأزهار، بالوادي العميق بانتظار الساعة التي يقوم فيها «كوتار» وعازف الكمان بلعبتهما سوية، وباقة بنفسج وأزهار ثالوث مرسومة بالباستيل، وهي هدية من فنان كبير صديق قضى منذ ذلك الحين القطعة الوحيدة الباقية من حياة زالت غير مخلفة أي أثر تختصر موهبة

كبيرة وصداقة مديدة وتذكر بنظرية المهتمة العذبة ويده الجميلة السمينة والحزينة أثناء ما يرسم؛ ازدحام حلو، فوضى لهدايا مخلصين لحقت في كل مكان بربّة المنزل واتخذت في نهاية المطاف بصمة وثبات سمة في الطبع وخط للقدر؛ إفراط في باقات الزهر وعلب الشوكولا كان ينظم، هنا وهناك على حد سواء، ازدهاره وفق صيغة إزهار متماثلة هي إقحام غريب للأشياء الغريبة والنافلة التي لا تزال تبدو خارجة من العلبة التي قدمت فيها والتي تلبث الحياة كلها ما كانته بادئ ذي بدء: هدايا الأول من كانون الثاني؛ وأخيراً سائر هذه الأشياء التي لا يمكن عزلها عن الأخرى ولكنما كان لها في نظر «بريشو»، وهو من قدامى رواد حفلات آل «فيردوران»، تلك الطبقة الرقيقة، ذلك الملمس الناعم للأشياء التي يقبل فينضاف إليها صنوها الروحي مزوداً إياها بنوع من العمق؛ كل ذلك مبدداً كانت تصدح به أمامه كأنما مقادير من المضارب الرنانة توقظ في فؤاده تشابهات محبوبة وتذكرات غائمة كانت تقطع وتحدد، مباشرة في الصالة ذات الطابع الراهن تماماً والتي كانت ترقشها ههنا وهناك، تحدد مثلما يفعل في يوم صحو إطار شمسي يقطع الجو المحيط، الأثاث والسجاد، تلاحق من مسند إلى حامل باقات، ومن مقعد إلى بقية من عطر، ومن طريقة إضاءة إلى تسيد ألوان، وتنحت وتذكّر وتضفي روحانية وتبعث الحياة في شكل كان كأنما الوجه المثالي المحايث لمساكن آل «فيردوران» المتتالية الذي اتخذته صالتهم.

وقال لي «بريشو» همساً في أذني: «سوف نجهد في توجيه البارون وجهة موضوعه المفضل، فإنه هائل فيه. «كنت راغباً من جهة أن يكون بوسعي محاولة الحصول من السيد «دو شارلوس» على المعلومات المتعلقة بمجيء الآنسة «فانتوي» وصديقتها، وهي المعلومات التي كنت صممت من أجلها على فراق «ألبيرتين». ثم إني ما كنت أود من جهة أخرى أن أدعها وحيدة فترة طويلة لا لأنها تستطيع (وهي غير متيقنة من لحظة عودتي وفي ساعات كهذه على أية حال ربما كانت زيارة تجيئها أو مغادرة لها أكثر

بروزاً للعيان) أن تسيء استخدام غيابي، بل بغية ألا تراه دام فوق ما تتوقع. لذلك قلت لـ«بريشو» وللسيد «دو شارلوس» إنني لن أتبعهما فترة طويلة. وقال لي البارون «تعال مع ذلك»، قال وقد أخذ هياجه الاجتماعي يخمد، لكنه كان يعاني تلك الحاجة إلى تطويل، إلى دوام الحديث الذي سبق أن لاحظته لدى الدوقة «دو غيرمانت» ولديه على حد سواء والذي إذ يميز خصوصاً هذه العائلة إنما يتسع ليشمل بعامة سائر الذين لا يقدمون لعقولهم إنجازاً سوى المحادثة، يعني إنجازاً غير مكتمل، فيظلون يعانون الظمأ حتى بعد ساعات قضوها سوية ويتعلقون بلهفة متزايدة بمحدثهم المضنى الذي يطالبونه خطأ بإشباع تعجز المتع الاجتماعية عن توفيره. وأردف يقول: «تعال، أليس كذلك، ها هو ذا الوقت الممتع في الحفلات، الوقت الذي يكون فيه المدعوون قد مضوا جميعاً، ساعة «دونيا سول»[1]، وأملنا أن تلقى هذه نهاية أقل أسى. وإنك لسوء الحظ معجل ومعجل على الأرجح لتمضي وتقوم بأمور من الخير لك أن لا تقوم بها. الناس جميعهم معجلون على الدوام وهم يمضون في الوقت الذي يجدر بهم أن يصلوا فيه. نحن هنا كفلاسفة «كوتور» (Couture)[2]، وربما آن أن نستعيد مواد الأمسية ونقوم بما يسمونه في اللغة العسكرية نقد العمليات. ثم نسأل السيدة «فيردوران» أن تأمر بجلب عشاء صغير لنا نحتاط ألا تدعى إليه، ونرجو «شارلي» - هي «هيرناني» على الدوام - أن يعيد من أجلنا وحدنا عزف الحركة المتمهلة الرائعة. أليس أن الحركة هذه على جمال! ولكن أين هو عازف الكمان الشاب؟ أود مع ذلك أن أهنئه فإنه وقت التحنان والعناق. هيا اعترف يا «بريشو» بأنهم عزفوا عزفاً إلهياً،

---

(١) Dona Sol: هي بطلة مسرحية «هيرناني» لفيكتور هوغو. فبعد أن تم الزواج وذهب المدعوون جميعاً ارتفع صوت البوق فتذكر هيرناني الوعد الذي قطعه لـ«دون روي غوميز» بالموت في الحال.

(٢) فنان ورسام فرنسي من القرن التاسع عشر صاحب لوحة تمثل حفلة سكر وعربدة وفي مقدمة اللوحة فيلسوفان يبدو أنهما يتنددان بالحفلة.

ولاسيما «موريل». هل لاحظت الوقت الذي تنفصل فيه الخصلة؟ آه! فأنت إذاً يا عزيزي لم تر شيئاً. لقد أتحفنا بـ«فا» مرفوعة يمكن أن تودي بـ«اينيسكو» و«كابيه» و«تيبو»[1] غيرةً؛ وعبثاً أراني شديد الهدوء فإني أقر لك أني كنت لدى سماعي نغمة كهذه منقبض الصدر حتى كنت أحتبس دموعي. والقاعة كانت تتواتر أنفاسها». ثم صاح البارون وهو يهز الجامعي من ذراعه هزاً عنيفاً: «بريشو»، أيها العزيز، كان ذلك رائعاً. وحده «شارلي» الشاب كان جامداً جمود الحجر، وكنت حتى لا تراه يتنفس فيبدو كتلك الأشياء في عالم الجماد التي يتكلم عنها «تيودور روسو» والتي تحمل على التفكير ولكنها لا تفكر. حينذاك وبصورة مفاجئة تماماً»، يقول السيد «دو شارلوس» صائحاً بلهجة مفخمة وهو يقلّد ما يشبه الانقلاب المسرحي المفاجئ، «حينذاك... كانت الخصلة! وفي أثناء ذلك رقصة «الكدريل» الصغيرة المفناجة على نغمة «الخفيف الحماسي». تدري، تلك الخصلة كانت علامة الاكتشاف حتى لأكثرهم بلادة. إن الأميرة «تاورمينا»، وهي صماء حتى ذاك، إذ ليس من صماوات أسوأ من اللواتي لهن آذان فلا يردن الاستماع، الأميرة «تاورمينا» هذه أدركت أمام بداهة الخصلة العجائبية أن تلك الموسيقى وأنهم لن يلعبوا «البوكر». آه! لقد كانت لحظة احتفالية تماماً». وقلت للسيد «دو شارلوس» بغية دفعه إلى الموضوع الذي يهمني: «عذري إليك يا سيدي أن أقاطعك، فقد كنت تقول لي إن ابنة المؤلف تزمع المجيء. ولعل ذلك كان شاقني كثيراً. أفأنت على يقين أنهم كانوا يقدرون أنها ستحضر؟» - «آه! لست أدري». كان السيد «دو شارلوس» ينصاع هكذا، ربما دون صد منه، لهذا الالتزام العام الذي لدى المرء بأن لا يطلع الغيارى، إما ليظهر بصورة غير معقولة مظهر «الرفيق الأمين» انتخاءً لتلك التي تثيرها وإن كان يمقتها، وإما سعياً لإيذائها متوقعاً أن الغيرة لن تؤدي إلا إلى مضاعفة الحب؛ وإما لحاجة به

---

(١) ثلاثة موسيقيين من أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين.

لإزعاج الآخرين بأن يقول الحقيقة لغالبية الناس أما للغيارى فيكتمها عنهم إذ يزيد جهل الأمور من عذابهم، حسبما يتراءى لهم على الأقل؛ وبغية إشاعة الغم في صدور الناس يسترشد المرء بما يظنون هم أنه الأكثر إيلاماً، وربما كان الظن خاطئاً. وعاد يقول: «تدري، ههنا بيت المبالغات إلى حد ما، إنهم لأناس ظرفاء، لكنما يروق المرء أن يبلغ عن مشاهير من هذا الصنف أو ذاك. على أني لا أراك على ما يرام وسوف يصيبك البرد في هذه القاعة البالغة الرطوبة». يقول وهو يدفع إليّ بكرسي، «لا بد أن تحاذر بما أنك مريض، وسأمضي لأجلب لك معطفك. لا، لا تذهب بنفسك فسوف تضيع ويصيبك البرد. ها أنت ترى كيف يجازف المرء بنفسه مع أنك لست ابن أربع سنين، وربما انبغى لك خادمة عجوز مثلي كي تسهر عليك».

- «لا تزعج نفسك أيها البارون فأنا ذاهب»، قال «بريشو» وابتعد في الحال؛ فإنه إذ لم يتبين ربما بالضبط الصداقة الحقيقية تماماً التي كان السيد «دو شارلوس» يكنها لي والانفراجات الرائعة من بساطة وتفانٍ والتي كانت تتضمنها نوباته المجنونة، نوبات العظمة والاضطهاد، قد خشي أن يكون السيد «دو شارلوس»، الذي عهدت به السيدة «فيردوران» كما السجين لعنايته، حاول فقط، بحجة طلب معطفي، اللحاق بـ«موريل» وإفشال خطة المعلمة بذلك.

كان «سكي» قد جلس في أثناء ذلك إلى البيانو حيث لم يطلب أحد إليه أن يجلس وأخذ وهو يكوّن، بتقطيبة لحاجبيه تلونها ابتسامة، نظرة بعيدة والتواءة خفيفة للفم - وهو ما كان يظن أنه مظهر الفنان -، أخذ يلح على «موريل» كي يعزف شيئاً لـ«بيزيه». «عجباً، لست تحب ذلك، هذا الجانب الطفولي في موسيقى «بيزيه»؟ ولكن أيها العزيز، يقول بغنّة في الصوت تميزه، كان ذلك رائعاً». أما «موريل»، وما كان يحب «بيزيه»، فقد صرح بذلك وغلا، وشرع «سكي» (إذا كانوا يعدونه داخل العشيرة الصغيرة صاحب نكتة، والأمر حقاً لا يصدق) وهو يتظاهر بأخذ مذمات

عازف الكمان على أنها من المفارقات، شرع يضحك. ولم تكن ضحكته اختناقة مدخن كما كانت ضحكة السيد «فيردوران». فقد كان «سكي» يتخذ بادئ الأمر مظهراً ذكياً ثم يطلق وكأنما على الرغم منه نغمة ضاحكة واحدة، كأنها أول نداء للأجراس، يعقبها صمت تبدو فيه النظرة الذكية كأنما تتفحص تفحص عارف بالأمر طرافة ما كان يقال، ثم تندفع ضحكة مجلجلة فإذا هي بعد قليل تهليل أجراس البشارة.

وأعربت للسيد «دو شارلوس» عن أسفي أن يكون السيد «بريشو» كلّف نفسه. «لا عليك، إنه في غاية السرور ويحبك كثيراً، الجميع يحبونك كثيراً. كانوا يقولون ذلك اليوم: لكننا لم نعد نراه، إنه يعتزل الناس!» وأردف السيد «دو شارلوس» يقول: «وعلى أي حال فهو طيب القلب أيما طيبة «بريشو»، يقول ولا يشك دونما ريب، وهو يبصر الطريقة الودية والصريحة التي كان الأستاذ يحدثه بها في الأخلاق، أنه ما كان يلقى حرجاً في غيابه في الهزء منه: «إنه رجل عظيم القدر يعرف الكثير الكثير، ولم يخشن لذلك ولم يصبح فأر مكتبات مثل كثيرين غيره تفوح منهم رائحة الحبر فقد حافظ على رحابة صدر وتسامح نادرين لدى أمثاله. والمرء يتساءل أحياناً، وهو يرى كيف يفهم الحياة وكيف يستطيع أن يعيد بكل لطافة لكل ذي حق حقه، أين أمكن أن يتعلم كل ذلك مجرد أستاذ صغير في الصوربون ومدير ثانوية سابق. إني أنا أستغرب ذلك». وكنت أكثر دهشة وأنا أرى أن حديث «بريشو» هذا الذي كان عدّه أقل مدعوي السيدة «دو غيرمانت» رهافة غبياً جداً وبليداً جداً يروق أكثرهم جميعاً تشدداً، السيد «دو شارلوس». لكنما كان قد ساعد في هذه النتيجة، من بين صنوف التأثير الأخرى، تلك التي كان «سوان» بموجبها، وهي واضحة على أي حال، وقد أنس زمناً طويلاً إلى هذا الحد بالعشيرة الصغيرة حينما كان عاشقاً لـ«أوديت»، وكان من جهة أخرى، منذ أن تزوج، يجد السيدة «بونتان» لطيفة وهي التي كانت تتظاهر بحب الزوجين «سوان» حبّاً جماً وتجيء على الدوام للقاء المرأة وتلتذ بحكايات الزوج

وتتكلم عنهما بازدراء. ومثلما الكاتب يعطي قصب السبق في الذكاء لا للرجل الأوفر ذكاء بل لرجل الملذات الذي كان يطرح فكرة جريئة متسامحة حول عشق رجل لامرأة، الفكرة التي كان من شأنها أن تتفق عشيقة الكاتب المتحذلقة وإياه لتجد أن الأقل غباء من بين سائر الناس الذين يجيئون إلى بيتها إنما كان ذاك المتصابي الذي كان على دراية بأمور الحب، كذلك كان السيد «دو شارلوس» يجد «بريشو» الأوفر ذكاء من بين أصدقائه الآخرين، فهو لم يكن لطيفاً فحسب مع «موريل» ولكنه كان يقتطف في الوقت المناسب من الفلاسفة اليونانيين والشعراء اللاتين والقصاصين الشرقيين نصوصاً كانت تزين ذوق البارون بمقتطفات غريبة وساحرة. كان السيد «دو شارلوس» قد بلغ ذاك العمر الذي يحلو فيه لأمثال «فيكتور هوغو» أن يحيطوا أنفسهم بوجه خاص بأمثال «فاكري» و«موريس»[1]. وكان يفضل على الجميع أولئك الذين يقبلون وجهة نظره حول الحياة. وأضاف يقول: «إني ألتقيه كثيراً»، يقول بصوت صاءٍ موزون دون أن تحرك حركة واحدة، باستثناء الشفتين، قناعة الرزين المغطى بالطحين وقد أرخى فوقه نصف إرخاءة جفني رجل دين. «إني أرتاد دروسه، فإن جو الحي اللاتيني هذا يغيرني وفيه فتيان ذوو جد وتفكير وبورجوازيون شبان أكثر علماً مما كان رفاقي في وسط آخر. إنه أمر آخر تعرفه على الأرجح أفضل مني، هم بورجوازيون شباب»، قال وهو يبرز الكلمة التي جعل قبلها عدة حروف «ب» ويشدد عليها بنوع من عادة إلقاء الكلام التي تقابل ميلاً إلى تلوينات في التفكير كان يميزه، وربما كذلك كي لا يقاوم متعة أن يبدي لي بعض الوقاحة. ولم تقلل هذه شيئاً الإشفاق العظيم والودي الذي يثيره لدى السيد «دو شارلوس» (منذ أن كشفت السيدة «فيردوران» عن مقصدها أمامي)، لكنها أضحكتني فحسب، بل

(١) Vacquerie وMeurice: كاتبان وأديبان فرنسيان من القرن التاسع عشر مقربان من «هوغو» وقد تزوج شقيق الأول ابنة «هوغو» (ليوبولدين) التي قضت غرقاً في «فيلكيه» على نهر السين.

لعلها ما كانت ساءت عندي في ظرف ما كنت شعرت فيه بهذا القدر من التعاطف معه. فقد ورثت عن جدتي أن كنت مجرداً من الاعتزاز بالنفس إلى حد ربما أدى بيسر إلى الافتقار إلى الكرامة. وليس من شك أني كدت لا أنتبه للأمر، ولكثرة ما سمعت منذ المدرسة الثانوية أكثر رفاقي تقديراً عندي لا يطيقون أن يقصّر أحد تجاههم ولا يفصحون عن تصرف سيئ أخذت أبدي في نهاية المطاف في أقوالي وأفعالي طبيعة ثانية على شيء من الاعتزاز. بل كانوا يعدونها بالغة الاعتزاز أني لما لم أكن متخوفاً كنت أخوض بيسر مبارزات أقلل مع ذلك من وزنها النفسي بالاستهزاء بها. وهو ما كان يسهل الاقتناع بأنها تثير السخرية. بيد أن الطبيعة التي نكبتها ساكنة مع ذلك فينا. من ذلك أننا إن قرأنا رائعة جديدة لرجل عبقري وجدنا فيها أحياناً، ويمتعنا ذلك، جميع ما سبق أن ازدريناه من أفكارنا وما احتسبناه من أفراحنا وأتراحنا، وإنها لعالم كامل من العواطف ازدريناه ويطلعنا الكتاب الذي نتعرفها فيها فجأة إلى قيمتها. لقد بلغ بي في النهاية أن أتعلم من تجارب الحياة أنه لا يحسن بي أن أبتسم ابتسامة تودد حينما يسخر مني أحدهم وألا أحقد عليه. لكنما غياب الاعتزاز بالنفس والحقد، إن كنت توقفت عن الإعراب عنه حتى بلغ بي أن أجهل تماماً على وجه التقريب أنه كائن في داخلي، فقد لبث الوسط الحيوي البدئي الذي كنت منغمساً فيه. وما كان الغضب وحب الأذية يحلان بي إلا على صورة مختلفة أتم الاختلاف، على هيئة نوبات جامحة. أضف أن الشعور بالعدالة، إلى حد الغياب التام للحس الأخلاقي، كان مجهولاً لديّ. فقد كنت في أعماق فؤادي منحازاً تماماً إلى من كان الأكثر ضعفاً وكان تعيساً. وما كنت أملك أي رأي حول الحد الذي كان يمكن أن يدخل فيه الخير والشر في العلاقات بين «موريل» والسيد «دو شارلوس»، لكن فكرة العذاب الذي كان يعد للسيد «دو شارلوس» كانت لا تطاق عندي. وددت لو أحذره ولا أعلم كيف أفعل.

- «إن منظر كل هؤلاء العوام المجدّين طريف جداً في نظر عجوز

مثلي. «وأضاف يقول: «لست أعرفهم»، يقول وهو يرفع يده بهيئة المتحفظ كي لا يبدو أنه يتباهى وكي يثبت طهارته ولا يدفع بأي شك حول براءة الطلبة، «لكنهم مهذبون جداً وكثيراً ما يبلغ بهم أن يحجزوا لي مقعداً بما أنني رجل طاعن في السن، بلى أيها العزيز، لا تحتج، فقد جاوزت الأربعين»، يقول البارون الذي جاوز الستين؛ «إن الجو حار قليلاً في هذا المدرج الذي يحاضر فيه «بريشو»، لكن الأمور دوماً مشوقة». ومع أن البارون كان يفضل الاختلاط بشباب المدارس وحتى التدافع وإياهم فقد كان «بريشو» يدخله أحياناً معه كي يجنبه طول الانتظار. وعبثاً يحس «بريشو» في السوربون أنه في بيته فما كان يستطيع، لحظة يسبقه حاجب الكلية مثقلاً بالسلاسل ويتقدم الأستاذ الذي يثير إعجاب الشباب، أن يكتم بعض الوجل، وكان فيما هو راغب أن يفيد من هذه اللحظة التي يحس فيها أنه عظيم القدر كي يبدي شيئاً من التودد لـ«شارلوس»، كان يشعر مع ذلك بشيء من الضيق. وكيما يسمح له الحاجب بالمرور كان يقول له بصوت مصطنع وهيئة المتشاغل: «اتبعني أيها البارون، وسوف يهيئون لك مكاناً»، ثم يتقدم وحده بخطى مرحة في الممر، دون أن يهتم به من بعد، كي يعد دخوله. كان ثمة صف مزدوج من الأساتذة الشباب يحييه من كل جانب. وكان «بريشو»، وهو راغب أن لا يبدو وكأنه يتكلف وقفته أمام هؤلاء الشبان الذين يعلم أنه في نظرهم من الأساطين الكبار، كان يرسل إليهم ألفاً من الغمزات وألفاً من هزات الرأس المتواطئة التي يوليها همه أن يلبث حربي المظهر وفرنسياً صالحاً مظهراً من مظاهر التشجيع الودي، ومن «لنرفع قلوبنا»[1] ترد على لسان جندي عتيق يقول: «يا للعنة، سنعرف كيف نقاتل». ثم كان يدوي تصفيق التلاميذ. وكان «بريشو» يستخلص أحياناً من حضور السيد «دو شارلوس» إلى دروسه فرصة يرضى بها أحدهم ويكاد يرد مجاملات. فقد كان يقول لقريب أو لأحد أصدقائه البورجوازيين: «أعلمك

---

(١) من الأدعية التي ترد في صلاة القداس لدى المسيحيين: لنرفع قلوبنا إلى العلاء.

أن البارون «دو شارلوس» أمير «أغريجانت» وسليل آل «كونديه»، إن أمكن ذلك أن يسلي زوجتك أو ابنتك، سوف يحضر درسي. وإنها، بالنسبة إلى طفل، لذكرى يحتفظ بها أن يكون شاهد أحد آخر أحفاد أرستقراطيتنا ممن يملكون شخصية مميزة. فإن جاءتا تعرفتاه بأن يكون اتخذ مكانه بالقرب من منبري. وسيكون الوحيد على أية حال، رجل قوي البنية بشعر أبيض وشارب أسود ويحمل الوسام العسكري». وكان الوالد يقول: «آه! إني أشكرك». وعلى الرغم من انشغال زوجته فقد كان يلزمها بالذهاب إلى ذاك الدرس كي لا يكدر «بريشو»، فيما كانت الفتاة التي أزعجها الحر والجمهور تلتهم مع ذلك بعينيها بصورة غريبة سليل آل «كونديه» وهي تعجب أن لا يرتدي ياقة منفخة وأنه يشبه الرجال في يومنا. أما هو فما كان منشغلاً بها، لكن عدداً من الطلاب، ولا يعلمون من عساه كان، يأخذ منهم العجب للطفه فينتقلون إلى استكبار وجفاء ويخرج البارون غارقاً في الأحلام كئيباً. وقلت باستعجال للسيد «دو شارلوس» وفي أذني وقع خطى «بريشو»: «عذري لك أن أعود إلى ما يشغلني، فهل يمكنك أن تخطرني برسالة مستعجلة إن علمت أن الآنسة «فانتوي» أو صديقتها عازمتان على المجيء إلى باريس وتقول لي بالضبط مدة إقامتهما ودون أن تخبر أحداً بأني سألتك ذلك؟» كدت لا أعتقد من بعد أن قد تزمع المجيء لكنني كنت أريد هكذا أن أقي نفسي مستقبلاً. «أجل، سأفعل ذلك من أجلك. أولاً لأني أدين لك بامتنان عظيم. فإنك حين لم تقبل بالأمس ما عرضت عليك أديت لي على حسابك خدمة لا حدود لها فقد تركت لي حريتي. صحيح أني تخليت عنها بطريقة أخرى». يضيف قوله بلهجة كئيبة تشتم فيها رغبة في المسارات؛ «إن ثمة ما أعتبر دوماً أنه الأمر الأهم، إنه تجمع كامل من الظروف التي فاتك أن تجعلها تدور في صالحك، ربما لأن القدر أخطرك في هذه الدقيقة بالذات بألا تعترض سبيلي. إنها المقولة الدائمة «الإنسان يضطرب والله يقوده». فمن ذا يدري لو أنك قبلت في ذلك اليوم الذي خرجنا فيه سوية من منزل السيدة «دو فيلباريسيس» فربما ما كان وقع في يوم

الكثير من الأمور التي جرت مذ ذاك». وإذ أصابني الإرباك حرفت الحديث بأن قبضت على اسم السيدة «دو فيلباريسيس» وقلت عن الحزن الذي ألم بي لموتها. وهمس السيد «دو شارلوس» بنبرة خشنة: «آه! أجل»، وباللهجة الأكثر وقاحة آخذاً علماً بتعازيّ دون أن يبدو أنه يعتقد لحظة واحدة بصدقها. وإذ تبينت أن موضوع السيدة «دو فيلباريسيس» لم يكن في جميع الأحوال مصدر ألم له أردت أن أعلم منه، هو الكفء من أي جانب جئته، لأية أسباب استبعدت السيدة «دو فيلباريسيس» إلى هذا الحد من جانب العالم الأرستقراطي. لكنه لم يقدّم لي حلاً لهذه المشكلة المجتمعية الصغيرة، وليس ذلك فحسب، بل لم يبد لي حتى أنه يعرفه. وأدركت حينذاك أن مكانة السيدة «دو فيلباريسيس»، إن كانت لا بد ستبدو بعد عظيمة في نظر الأجيال القادمة، وفي نظر العاملة الجاهلة حتى والمركيزة على قيد الحياة، فإنها لم تبد أقل عظمة في الطرف الآخر القصي من المجتمع، الذي كان على قربى بالسيدة «دو فيلباريسيس»، عنينا آل «غيرمانت». فقد كانت عمتهم، وكانوا يبصرون خصوصاً المولد والنسب والأهمية التي يولونها في أسرتهم للنفوذ الذي يرتفع بهم فوق زوجة الأخ هذه أو أخت الزوج تلك. كانوا يرون ذلك من جانب المجتمع أقل مما هو من جانب الأسرة، وكان الجانب هذا أكثر تألقاً، في ما يخص السيدة «دو فيلباريسيس»، مما كنت ظننت فقد سبق أن دهشت ساعة علمت أن اسم «فيلباريسيس» كان مزيفاً. لكن ثمة أمثلة أخرى لسيدات كبيرات أتممن زواجاً غير متكافئ وحافظن على موقع متفوق. وبدأ السيد «دو شارلوس» فأعلمني أن السيدة «دو فيلباريسيس» كانت ابنة شقيقة الدوقة الشهيرة، وهي الشخصية الأكثر شهرة بين الأرستقراطيين الكبار في ظل نظام تموز (يوليو) الملكي لكنها لم تقبل مخالطة الملك المواطن وعائلته. وشد ما رغبت في الحصول على حكايات حول تلك الدوقة! والسيدة «دو فيلباريسيس»، السيدة «دو فيلباريسيس» الطيبة ذات الوجنتين اللتين كانتا تمثلان في نظري وجنتي بورجوازية، السيدة «دو فيلباريسيس» التي كانت تبعث إليّ بهدايا ما

أكثرها والتي كان وسعني بسهولة كبيرة أن ألتقيها كل يوم، السيدة «دو فيلباريسيس» كانت ابنة شقيقتها وقد ربتها في منزلها، في فندق. وقال السيد «دو شارلوس» وهو يحدثني عن الشقيقات الثلاث: «كانت تسأل الدوق «دو دوفيل»: «من تفضل من الشقيقات الثلاث؟» ولما قال «دو دوفيل»: السيدة «دو فيلباريسيس». أجابته الدوقة: «يا للخنزير!» - «ذلك أن الدوقة كانت بالغة الظرف»، يقول السيد «دو شارلوس» وهو يعطي الكلمة الأهمية والتلفظ المتعارف عليه لدى آل «غيرمانت». ولم يدهشني أن يرى أن الكلمة كانت بالغة «الظرف» إذ سبق لي أن لاحظت في مناسبات أخرى كثيرة النزعة النابذة الموضوعية لدى الرجال والتي تدفعهم حين يعجبون بظرف الآخرين أن يتخلوا عن صنوف التشدد الذي قد يداخلهم حول ظرفهم وأن يلاحظوا ويدونوا باهتمام بالغ ما قد يأنفون عن إبداعه.

«ولكن ما الذي دهاه؟ إنه معطفي الذي يجيء به»، يقول وهو يلاحظ أن «بريشو» قد بحث بحثاً طويلاً جداً في سبيل نتيجة كهذه. «كنت فضلت أن أذهب بنفسي في هذا المسعى. على أي حال ستضعه على كتفيك. أو تعلم أن ذلك مثير جداً للشبهات أيها العزيز؟ لكأن ذلك من قبيل الشرب من الكأس نفسها ولسوف أعرف أفكارك. لا، ليس هكذا، ويحك، دعني أفعل أنا»، وكان فيما يلبسني معطفه يلصقه بكتفي ويرفعه لي حول عنقي ويرفع ياقته ويلامس بيده ذقني وهو يعتذر. «في مثل سنه ولا يعرف أن يدثر بدثار وينبغي أن تبالغ في عنايتك به: لقد فوت عليّ ما كان مقدراً لي يا «بريشو»، فقد ولدت كي أكون مربية أطفال». كنت أود الذهاب، بيد أن «بريشو»، بعدما أعلن السيد «دو شارلوس» عن نيته الذهاب في طلب «موريل»، احتجزنا كلينا. وإن يقيني على أي حال أنني ملاقٍ «ألبيرتين» في البيت، واليقين مساوٍ لذلك الذي داخلني بعد الظهر بأن «ألبيرتين» تعود من التروكاديرو، كان يوليني في هذه اللحظة مقداراً من اللهفة إلى لقائها قليلاً قلة تلك التي داخلتني في اليوم نفسه فيما كنت أجلس إلى البيانو

بعدما كلمتني «فرانسواز» بالهاتف، ذاك الهدوء هو الذي سمح لي في كل مرة ابتغيت القيام في أثناء هذه المحادثة أن أنصاع لأمر «بريشو» الذي كان يخشى أن يحول رحيلي دون مكوث «شارلوس» إلى اللحظة التي تجيء فيها السيدة «فيردوران» لتنادي علينا. وقال للبارون: «هيا فالبث قليلاً وإيانا، وسوف تعانقه عما قليل». يضيف «بريشو» قوله فيما يثبت على عينه الميتة تقريباً التي أعادت إليها العمليات الكثيرة التي أجريت لها شيئاً من الحياة ولكنما لم تعد تتمتع مع ذلك بالحركية اللازمة للتعبير الملتوي عن الخبث. وصاح البارون بنبرة حادة مفتونة: «أعانقه، يا له غبي! أقول لك أيها العزيز إنه يخال نفسه دوماً في حفل توزيع جوائز، وهو يحلم بتلاميذه الصغار. وأتساءل إن لم يكن يضاجعهم». وقال لي «بريشو»، وكان قد سمع آخر حديثنا: «إنه راغب في لقاء الآنسة «فانتوي»، وإني أعدك بإخطارك إن جاءت وسوف أعلم ذلك من السيدة «فيردوران»، يقول لي «بريشو» الذي كان دون شك يتوقع إمكان أن يقصى البارون في العاجل عن العشيرة الصغيرة. وقال السيد «دو شارلوس»: «عجباً، تظنني إذن على علاقة أقل منك بالسيدة «فيردوران» كي تعلم بمجيء هاتين المرأتين بسمعتهما الرهيبة؟ تعلم أن الأمر مكشوف تماماً، والسيدة «فيردوران» مخطئة في السماح لهما بالمجيء، فذلك صالح للأوساط المشبوهة. إنهما صديقتان لزمرة كاملة فظيعة، ولا بد أن هذا كله يتجمع في أماكن مريعة». كان عذابي لدى كل من هذه الأقوال يزداد عذاباً جديداً ويبدّل من شكله. وإذ تذكرت فجأة بعض حركات نفاد الصبر الصادرة عن «ألبيرتين» والتي كانت تكبتها في الحال راعني أن تكون صممت أن تهجرني. كان هذا الشك يزيد لديّ من ضرورة العمل على دوام حياتنا المشتركة إلى زمن أكون قد استعدت فيه هدوئي. وكيما أنزع من «ألبيرتين» فكرة استباق مشروعي في الانفصال، إن توافرت لديها، وكيما أجعل قيدها، إلى أن يمكنني تحقيق ذاك المشروع دون أن أسقيها العذاب، أكثر خفة في عينيها، بدا لي أن الأكثر براعة (وربما أصابتني عدوى جراء وجود السيد «دو شارلوس»

وجراء التذكر اللاواعي للمسرحيات التي كان يحلو له أن يمثلها) إنما يكمن في حمل «ألبيرتين» على الاعتقاد بأني أنا أنوي هجرها، وسوف أبادر حال عودتي إلى تصنع الوداع والانفصال. وأعلن «بريشو» وهو يشدد على كلماته: «لا، بالتأكيد، لا أخالني أفضل منك علاقة بالسيدة «فيردوران»، «إذ كان يخشى أن يكون أثار شكوك البارون. ولما رأى أني أريد الانصراف وشاء أن يستبقيني بطعم اللهو الموعود قال: «ثمة أمر يبدو لي أن البارون لم يفكر فيه حينما يتحدث عن سمعة هاتين السيدتين، وهو أن السمعة يمكن أن تكون فظيعة وغير مستحقة في الآن نفسه. من ذلك، على سبيل المثال، وفي المجموعة الأكثر شهرة التي سأدعوها بالموازية، أنه من الأكيد أن الأخطاء القضائية كثيرة وأن التاريخ سجل إدانات باللواطة تفضح رجالاً مشهورين كانوا أبرياء تماماً من تلك التهمة. وإن الاكتشاف الأخير لحب كبير كنّه «ميكيل أنجلو» لإحدى النساء لأمر جديد يعطي صديق البابا «ليون» العاشر[1] الحق في الإفادة من دعوى إعادة نظر في القضية بعد الوفاة. وتبدو لي قضية «ميكيل أنجلو» مناسبة تماماً لإثارة حماسة المتحذلقين وتعبئة العوام بعدما يكون مضى عهد قضية أخرى جرى فيها التباهي بالفوضوية وأصبحت الخطيئة الشائعة لدى هواتنا الطيبين لكنما من غير المصرح به النطق باسمها مخافة المخاصمات». ومنذ أن بدأ «بريشو» بالحديث عن أمور تخص سمعة الذكور أبرز السيد «دو شارلوس» على كامل صفحة وجهه نوع نفاد الصبر الخاص الذي تراه لدى خبير في شؤون الطب أو الجيش حينما يأخذ نفر من دنيا المجتمع لا يفقهون شيئاً منها في الإدلاء بحماقات حول أمور تتعلق بالعلاج أو الاستراتيجيا. وبلغ به في النهاية أن قال لـ«بريشو»: «إنك لا تعلم مبادئ الأشياء التي تتكلم عنها. هيا اذكر لي سمعة واحدة غير مستحقة. هات أسماء. أجل، أعرف كل شيء»، يقول السيد «دو شارلوس» في رد عنيف على مقاطعة خجولة

---

(١) بابا من أوائل القرن السادس عشر كلّف «ميكيل أنجلو» بالكثير من الأعمال الفنية.

لـ«بريشو»، «الذين فعلوا ذلك فيما مضى عن فضول أو عن حب وحيد لصديق توفي، وذاك الذي يخشى أن يكون مضى أبعد كثيراً مما ينبغي فإن حدثته عن جمال رجل أجابك أن ذلك من لغة غريبة لا يفهمها وأنه لا يقوى على التمييز بين رجل جميل وآخر قبيح أكثر مما يفعل بين محركي سيارة بما أن الميكانيك ليست من اختصاصه. كل ذلك من باب المزاح لاحظ، رجوتك، ليس مرادي أن أقول إن السمعة السيّئة (أو ما اصطلح على تسميته هكذا) واللامبررة أمر مستحيل تماماً. لكن ذلك استثنائي جداً ونادر جداً إلى حد أنه لا وجود له عملياً. بيد أني أنا عرفت شيئاً منه. أنا الفضولي المنقِّب، وما كانت خرافات. أجل، لقد شاهدت في غضون حياتي (وأقصد أني شاهدت علمياً، فلست أكتفي بكلمات فارغة) سمعتين غير مبررتين. وإنها لتتأسس عادة على تماثل في الأسماء أو تبعاً لبعض العلامات الخارجية، كوفرة الخواتم على سبيل المثال، والتي يتخيل الناس غير الأكفياء أنها بصورة مطلقة صفات مميزة لما تقوله، مثلما يعتقدون أن الفلاح لا يقول كلمتين دون أن يتبعهما بعبارة «جارنيغييه» والإنكليزي بعبارة «غودام»[1]. إن ذاك اصطلاح للمسرح غير الجاد».

وقد أدهشني السيد «دو شارلوس» كثيراً وهو يذكر لي من بين الشاذين «صديق الممثلة» الذي سبق أن رأيته في «بالبيك» والذي كان رئيس جمعية الأصدقاء الأربعة الصغيرة[2]. «وتلك الممثلة حينذاك؟»

- «إنها تفيده بوصفها ستارة، ثم إن له من جانب آخر صلات معها ربما أكثر مما له مع الرجال الذين يكاد لا يقيم صلات معهم».

- «وهل له صلات مع الثلاثة الآخرين؟»

- «لا، لا، على الإطلاق! فإنهم أصدقاء لا لهذا الأمر إطلاقاً!

---

(١) Jarniguié أي Je renie Dieu (إني أنكر الله) وgoddam وترد بالمعنى نفسه، والعبارتان من صنوف التجديف.

(٢) سبق ذكر هذه الجماعة في القسم الثاني من «في ظلال ربيع الفتيات» وهي مؤلفة من ثلاثة رجال وممثلة.

فاثنان منهم يتجهان حصراً إلى النساء. وواحد من الجماعة، بيد أنه ليس مضموناً بالنسبة إلى صديقه، وهم في جميع الأحوال يختبئون واحدهم عن الآخر. ما سوف يدهشك أن تلك السمعات غير المبررة هي الأكثر رسوخاً في نظر الجمهور. أنت ذاتك يا «بريشو». وقد تسلم يدك للقطع دفاعاً عن فضيلة هذا أو ذاك ممن يأتون إلى هنا ويعرفهم المطلعون كما يُعرف الذئب الأبيض، لا بد أنك تؤمن، كما يفعل الجميع، بما يقال عن هذا الرجل البارز الذي يجسد تلك الميول في نظر العامة فيما لا أظنه من الجماعة بفلسين، أقول بفلسين، لأننا لو وضعنا في هذا السبيل خمسة وعشرين فرنكاً لرأينا أن عدد القديسين الصغار سوف يتناقص إلى الصفر. فإن لم يكن فإن نسبة القديسين، إن بدا أن في هذا الأمر قداسة، تتحدد كقاعدة عامة بين ثلاثة وأربعة على عشرة». ولئن نقل «بريشو» إلى الذكورة مسألة السمعات السيئة فقد كنت بدوري أردّ أقوال السيد «دو شارلوس» بالعكس إلى جنس النساء وأنا أصرف فكري إلى «ألبيرتين». لقد داخلني الهلع جراء إحصائيته حتى إن أخذت في الحسبان أنه لا بد يضخم الأرقام وفق ما كان يشتهي وكذلك تبعاً لتقارير من أفراد ثرثارين، وربما كاذبين، وفي جميع الأحوال مخدوعين وقعوا فريسة رغبتهم الخاصة التي كانت، إذ تنضاف إلى رغبة السيد «دو شارلوس»، تفسد دون شك حسابات البارون. وصاح «بريشو» قائلاً: «ثلاثة من عشرة! لربما كان عليّ إلى ذلك، إن قلبت النسبة، أن أضرب بمئة عدد المذنبين. وإن كان العدد ما تقول أيها البارون، وإن كنت غير مخطئ، فعلينا أن نقرّ حينذاك بأنك واحد من هؤلاء الكاشفين النادرين لحقيقة لا يرتاب بها أحد من حولهم. فمن ذلك أن «باريس» (Barrès) قام باكتشافات حول فساد البرلمانيين جرى التحقق منها بعد ذلك، كما كان شأن كوكب «لوفيرييه» (Leverrier)[1]. وربما

---

(١) فلكي فرنسي من القرن التاسع عشر استخلص وجود الكوكب «نبتون» بعد حسابات أجراها على مدار «أورانوس».

فضلت السيدة «فيردوران» أن تذكر رجالاً أرى من الأفضل ألا أسميهم وقد كشفوا في مكتب الاستخبارات في الأركان العامة تصرفات أوحت بها حمية وطنية زائدة، ولكني ما كنت في النهاية أتصورها. وهذا «ليون دوديه» (Léon Daudet) يكتب كيفما تيسر حكايات جنيات هائلة يتفق أن تكون الحقيقة بعينها». وأردف «بريشو» يقول مشدوهاً: «ثلاثة من عشرة!» والصحيح أن نقول إن السيد «دو شارلوس» كان يرمي بالشذوذ الغالبية العظمى من معاصريه، لكنما يستثنى الرجال الذين سبق أن أقام علاقات معهم كان يبدو له حالها، إن خالطها نزر يسير من الخيال، أكثر تعقيداً. من ذلك أنك ترى محبين للحياة لا يؤمنون بشرف النساء يكسبون بعضاً منه لهذه أو تلك ممن كنا عشيقات لهم ويؤكدون بصدق وبلهجة تكتنفها الأسرار: «لا، لا، أنت على خطأ فليست عاهرة». وإنما يملي هذا التقدير اللامتوقع عليهم في جزء منه اعتزازهم بنفسهم الذي يرى أن تخصيصهم وحدهم بمثل تلك المنن أكثر دغدغة لمشاعرهم، وفي جزء منه سذاجتهم التي تبتلع بيسر كل ما شاءت عشيقتهم أن تحملهم على تصديقه، وفي جزء هذا الشعور بالحياة الذي يجعل العناوين والخانات المقررة سلفاً شديدة التبسط حالما نقترب من الأشخاص ومن صنوف العيش. «ثلاثة من عشرة! لكن حذار، فإنك أقل حظاً من أولئك المؤرخين الذين سيقرهم المستقبل أيها البارون إن أردت أن تقدم للأجيال القادمة اللوحة التي تحدثنا عنها فقد يمكن أن تجدها سيئة. فهي لا تحكم إلا على الأمور الواقعة وتودّ الاطلاع على ملفك. وبما أنه ليس من وثيقة في اليد لتصدق هذا النوع من الظاهرات الجماعية التي يهم المطلعين وحدهم أكثر مما يهمهم أن يدعوها في العتمة، فربما ثاروا ثورة شديدة في معسكر السذج واحتسبت فوراً مفترياً أو مجنوناً. وبعدما حصلت في سباق الأناقة على الحد الأقصى وعلى الأمارة على هذه الأرض، ربما خبرت مآسي استبعاد في الآخرة. والأمر، كما يقول، عفوك اللهم، صديقنا «بوسويه» (Bossuet)[1]، لا يستحق

---

(١) أحد كبار الأساقفة في القرن السابع عشر وكان خطيباً مفوّهاً.

المغامرة». فأجاب السيد «دو شارلوس» قائلاً: «لست أعمل من أجل التاريخ، فالحياة تكفيني وهي ممتعة جداً، كما كان يقول «سوان» المسكين».

- «يا عجبي! لقد عرفتَ «سوان» أيها البارون، ولكني ما كنت عالماً بذلك. أفكان على تلك الميول؟» يقول «بريشو» بادي القلق. وقال «شارلوس»: «ولكن يا لها فظاظة! تظن إذاً أني لا أعرف إلا أناساً من هذه الطينة؟ لا، لا، لا أعتقد»، قال وهو يخفض عينيه ويحاول أن يوازن بين الشيء وعكسه. وإذ اعتقد البارون، بما أن الأمر يدور حول «سوان» الذي سبق أن كانت ميوله المغايرة تماماً معروفة على الدوام، أن نصف إقرار ما كان يمكن إلا أن يكون غير مؤذٍ بالنسبة إلى من يعنيه ومدغدغاً لمشاعر من يدعه يفلت في إلماحة ما، قال كأنما على الرغم منه وكأني به يفكر بصوت عالٍ: «لا أقول، فيما مضى، في المدرسة، ذات مرة بالمصادفة» ثم يستدرك قائلاً: «لكنما انقضى على ذلك مئتا عام فكيف تريدني أن أتذكر؟» واختتم ضاحكاً: «إنك تزعجني». قال «بريشو»: «وفي جميع الأحوال لم يكن عنوان الجمال»، إذ كان يظن نفسه، هو الدميم، جميلاً ويرى الآخرين على قبح. وقال البارون: «اخرس، لست تعرف ما تقول، لقد كان لونه في ذلك الوقت لون الدراق»، وأضاف يقول، وهو يضع كل مقطع على نغمة مختلفة، لقد كان جميلاً كملائكة الحب. لقد لبث فاتناً على أي حال. لقد أحبته النساء حتى الجنون».

- «ولكن هل عرفتَ امرأته؟»

- «ويحك، لقد عرفها عن طريقي. لقد ألفيتها رائعة في أثوابها نصف التنكرية، ذات مساء كانت تمثل فيه دور الآنسة «ساكريبان». كنت بصحبة رفاق من النادي وكنا جميعاً قد اصطحبنا امرأة، ومع أني لم تداخلني إلا الرغبة في النوم فقد زعمت ألسنة السوء، إذ من المريع كم هو العالم شرير، أنني ضاجعت «أوديت». لكنها استغلت الأمر لتبادر إلى إزعاجي، وخلتني أتخلص منها بتعريفها بـ«سوان». ولم تكف منذ ذلك اليوم عن

إزعاجي، فما كانت تعرف حرفاً في الإملاء وأنا من كان يسطر الرسائل. وأنا من كلف فيما بعد بإخراجها في نزهات. فانظر يا ولدي ما عسى يكون أمر من حسنت سمعته، كما ترى. وما كنت أستحقها على أية حال إلا جزئياً. كانت ترغمني على أن أقيم لها حفلات لهو مريعة يشترك فيها خمسة وستة». أما العشاق الذين اتخذتهم «أوديت» على التوالي (فقد اتخذت هذا، ثم ذاك - من هؤلاء الرجال الذين لم يعرف «سوان» المسكين شيئاً عن أي منهم، وقد أعمته الغيرة وأعماه الحب، يتوقع فرص النجاح تارة وطوراً يصدق العهود وهي أكثر إثباتاً من تناقض يفلت من المذنبة، تناقض أعسر إدراكاً بما لا يقاس مع أنه أكثر دلالة إلى حد بعيد وربما استطاع الغيران أن يفيد منه إفادة تتجاوز في منطقيتها المعلومات التي يزعم زوراً أنه حصل عليها من أجل إثارة مخاوف عشيقته)، هؤلاء العشاق، طفق السيد «دو شارلوس» يعددهم بمقدار ما يبدي من يقين لو أنه تلا قائمة ملوك فرنسا. والغيران بالفعل، كما هي حال المعاصرين، مفرط القرب فلا يعلم شيئاً، وإنما تتخذ أخبار الزنى دقة التاريخ في نظر الغرباء فتستطيل قوائم غير ذات بال على أية حال ولا تضحي حزينة إلا في نظر غيران آخر، من مثل ما كانت، لا يستطيع الحؤول دون أن يقارن بين حالته والحالة التي يجري الحديث عنها ويتساءل إن لم يكن ثمة قائمة معروفة بالنسبة إلى المرأة التي يرتاب بأمرها. لكن لا يسعه أن يعلم شيئاً منها، لكأنما هي مؤامرة شاملة وتنكيد يشارك فيه الجميع بقسوة، وقوامه أن يجعل على عينيه، فيما تمضي صديقته من واحد إلى آخر، عصابة يجهد أبداً في نزعها دون أن يفلح في ذلك لأن الجميع يعمونه، المسكين، فالطيبون عن طيبة بهم، والخبثاء من خبث، والفظّون لميل إلى «المقالب» البشعة، والحسنو التربية لأدب وحسن تربية، والكل لواحد من تلك التوافقات التي يدعونها مبادئ.

- «ولكن هل علم «سوان» في يوم أنك نعمت بمزايا حبها؟»

- «ويحك، أية فظاعة تلك! أروي عن ذلك لـ«شارل»! إنما تقشعر

لذلك الأبدان. لعله كان بكل بساطة قتلني أيها العزيز، فإنه غيور كالنمر. كما أني لم أقر لـ«أوديت»، ولعل الأمر كان عندها سواء على كل حال، بأنه... هيا، لا تدعني إلى قول الحماقات، والأنكى أنها هي التي رمته بطلقات مسدس أوشكت أن تصيبني. آه! لقد أصبت متعة مع هذين الزوجين، وأنا بالطبع من اضطر أن يكون شاهده ضد «دوسمون» الذي لم يغتفر لي ذلك البتة. كان «دوسمون» قد اختطف «أوديت» فاتخذ «سوان»، بحثاً عن العزاء، اتخذ من شقيقة «أوديت» عشيقة، أو عشيقة كاذبة. لست تنوي في النهاية دفعي إلى رواية قصة «سوان»، فقد يقضينا ذلك عشر سنين، فهمت، فإني أعرف ذلك كما لا يعرف أحد. لقد كنت أنا من كان يصطحب «أوديت» حينما لا تبغي لقاء «شارل». كان يزيد من انزعاجي أن لي واحداً من أقرب أقاربي يحمل اسم «دو كريسي» دون أن يملك بالطبع أي حق في ذلك، ولكن ذاك الأمر ما كان آخر الأمر يروقها. فإنها كانت تسمي نفسها «أوديت دو كريسي» وبوسعها أن تفعل تماماً إذ هي انفصلت فقط عن واحد من آل «كريسي» كانت زوجة له، وهو حقيقي في ما يخصه وسيد من أخيارهم كانت قد «نظفته» حتى آخر فلس. لكنما ذلك، ويحك، كيما تدفعني إلى الحديث، فإني رأيتك برفقته في القطار الصغير، وكنت تقدم له الأعشية في «بالبيك». ولا بد لهذا المسكين أن يكون بحاجة إليها، فقد كان يعيش من نفقة زهيدة جداً يوفرها له «سوان»، ولديّ شك قوي بأن هذا الإيراد لا بدّ توقف دفعه تماماً منذ وفاة صديقي. ما لا أفهمه، يقول السيد «دو شارلوس»، أنك لم ترغب منذ قليل، إذ كثيراً ما ذهبت إلى منزل «شارل»، أن أقدمك لملكة «نابولي». وأرى باختصار القول أنك لا تهتم «بالأشخاص» بما هم نوادر غريبة ويدهشني هذا الأمر دوماً من شخص عرف «سوان» الذي كان هذا الاهتمام كبيراً لديه إلى الحد الذي لا يسعنا معه أن نقول إن كنت أنا معلمه في هذا الشأن أو هو معلمي، ذلك يدهشني بقدر ما لو أرى شخصاً سبق أن عرف «ويستلر» ولا يعلم أي شيء هو الذوق. يا إلهي، إنما كان من المهم بالنسبة إلى

«موريل» خصوصاً أن يعرفها. لقد كان يتوق إلى ذلك توقاً شديداً على أية حال فهو من أكثرهم ذكاء. من المزعج أن تكون ذهبت. لكني سأقوم بترتيب الالتقاء في هذه الأيام، سوف يتعرف إليها لا محالة. ربما كانت العقبة الوحيدة الممكنة إن هي ماتت في الغد. والأمل أملي ألاّ يحدث ذلك». ولما كان «بريشو» لا يزال متأثراً بنسبة «الثلاثة من عشرة» التي سبق أن أطلعه عليها السيد «دو شارلوس»، ولم يكن انفك عن ملاحقة فكرته، فقد سأل فجأة السيد «دو شارلوس» متجهم الوجه وبجفاء يذكّر بجفاء قاضي تحقيق يبغي الحصول على اعتراف من المتهم، لكنه ناجم في الحقيقة عن رغبة الأستاذ في أن يبدو ثاقب الذهن وعن الاضطراب الذي به لتوجيه اتهام خطير إلى هذا الحد: «أليس «سكي» على هذه الشاكلة؟» وكان، بغية استثارة الإعجاب بمواهب التحدي المزعومة لديه، قد اختار «سكي» قائلاً في نفسه إنه لما لم يكن ثمة سوى ثلاثة أبرياء من عشرة فإن احتمال الخطأ لديه قليل حينما يسمي «سكي» الذي كان يبدو له غريب الأطوار إلى حد ويعاني من الأرق ويتعطر، وكان بوجيز العبارة خارج الحد الطبيعي. وصاح البارون بسخرية تتسم بالمرارة والحسم والسخط: «لا، على الإطلاق. ما تقوله بادي الزيف وغير معقول وبعيد عن الموضوع! «سكي» هو ما تقول بالضبط بالنسبة إلى الذين لا يفقهون شيئاً من ذلك. ولو كان هذا أمره لما كان بدا عليه ذلك إلى هذا الحد، ونقولها دون أية نية للنقد لأني أرى عنده سحراً بل أجد لديه ما يشدك إليه كثيراً». وعاد «بريشو» يقول بإلحاح: «هيا قل لنا إذن بعض الأسماء». فاعتدل السيد «دو شارلوس» في جلسته وأجاب بهيئة ملؤها العجرفة: «آه! أيها العزيز، تعلم أني أنا أعيش في المجردات، فكل ذلك لا يهمني إلا من وجهة نظر عقلية صرفة»، أجاب بنفور الاعتزاز بالذات الذي يميز أمثاله، وتصنُّعَ الكلام الطنان الذي يسم حديثه. «ليس في ما يخصني، ترى ذلك، سوى العموميات التي تُثير اهتمامي، وإني أكلمك عن ذلك كما أفعل عن قانون الجاذبية». لكن فترات ردة الفعل المتململة التي يجهد البارون فيها

في إخفاء حياته الحقيقية كانت تدوم قليلاً جداً في مقابل ساعات الميسرة الصاعدة المستمرة التي يزيح فيها الستار عنها ويبسطها برضى عن النفس يبعث الضيق في صدرك، إذ كانت الحاجة إلى المسارة أقوى لديه من الخشية من فضح الأسرار. فأردف يقول: «ما كنت أبغي قوله أن ثمة في مقابل سمعة سيئة غير مبررة، مئات من السمعات الطيبة التي لا تقل عنها في سمة اللاتبرير تلك. والبديهي أن عدد الذين لا يستحقونها إنما يتغير حسبما تستند في ذلك إلى أقوال أشباههم أو الآخرين. والصحيح أنه، إن كان سوء النية لدى هؤلاء الآخرين محدوداً جراء ما قد يواجهون من صعوبة كبيرة في الاعتقاد بأن عيباً، هو في نظرهم بمثل فظاعة السرقة أو القتل، يمارسه أناس يعرفون رقتهم وقلبهم، فإن سوء نية الأولين إنما تستثيرها إلى حد الغلو الرغبة في أن يحسبوا، ما عساي أقول، في متناولهم أناساً يروقونهم بفضل معلومات زودهم بها أناس خدعتهم رغبة مشابهة، وتستثيرها في نهاية المطاف العزلة التي تفرض بعامة عليهم. لقد رأيت رجلاً ساء قدره إلى حد ما بسبب ذاك الميل يقول إنه يفترض أن واحداً من علية القوم يعاني الميل نفسه. وصحبته الوحيدة في ما ذهب إليه أن رجل المجتمعات ذاك كان لطيفاً معه! وكلها أسباب تدعو إلى التفاؤل، يقول البارون بسذاجة، في تقدير العدد. لكن السبب الحقيقي للفارق الكائن بين هذا العدد المحسوب على يد غير المطلعين وذاك المحسوب على يد المطلعين مرده جو الأسرار الذي يحيطون به تصرفاتهم بغية حجبها عن أعين الآخرين الذين ربما طار لبهم حرفياً، وقد حرموا أية وسيلة اطلاع، إن أحيطوا علماً بربع الحقيقة فحسب». وقال «بريشو»: فالأمور إذاً في عصرنا كما كانت لدى اليونانيين».

– ولكن كيف ذلك، كما كانت لدى اليونانيين؟ أتتصور أن ذلك لم يستمر مذ ذاك؟ فانظر، في عهد لويس الرابع عشر، «سيدنا»، و«الفيرماندي» الصغير، و«موليير» و«الأمير لويس دو بادن» و«برونسويك» و«شاروليه» و«بوفلر» و«كونديه الكبير» والدوق «دو بريساك».

- «سأوقفك، «سيدنا» كنت أعرفه و«بريساك» كنت أعرفه بريشة «سان سيمون»[1]، و«فاندوم» بالطبع وكثيرون غيرهم على أي حال، لكن هذا الطاعون العتيق الذي اسمه «سان سيمون» كثيراً ما يذكر «كونديه الكبير» والأمي «لويس دو بادن» ولا يقول ذلك البتة».

- «مؤسف في جميع الأحوال أن يقع عليّ أنا أن أعلّم أستاذاً في السوربون تاريخه».

- «إنك قاسٍ أيها البارون ولكنك عادل. خذ هذه، فسوف أسرك بها. إني أتذكر الآن أغنية من ذاك العصر كتبت بلاتينية المطابخ حول عاصفة فاجأت «كونديه الكبير» حينما كان ينحدر فوق مياه «الرون» برفقة صديقه المركيز «دو لا موسيه»، فيقول «كونديه»:

**صديقي العزيز «دو لا موسيه»**
**آه! يا إلهي! أي طقس هو هذا!**
**لاندريرت**
**سوف نهلك من المط».**

ويطمئنه «دو لا موسيه» قائلاً له:

**إن حياتنا في أمان**
**لأننا لواطيان**
**ولا يقدر أن نموت إلا بالنار**
**لاندريري.**

وقال «شارلوس» بصوت حاد متكلّف: «إني أسحب ما قلته، فإنك بحر من العلم، ستكتب لي هذا، أليس كذلك، فإني أريد أن أحفظه في محفوظات أسرتي لأن أم جدتي من الدرجة الثالثة كانت شقيقة السيد الأمير».

---

(١) مذكرات «سان سيمون».

- «أجل، ولكني أيها البارون لا أرى شيئاً حول الأمير «لويس دو بادن». على أي حال أعتقد أن فنون الحرب بعامة...».

- «يا للغباء! في ذلك العصر «فاندوم» و«فيلار» والأمير «أوجين» والأمير «دو كونتي»، ولو حدثتكم عن جميع أبطالنا في «تونكين» وفي المغرب، وإني أتحدث عن الرائعين حقاً والأتقياء و«الجيل الجديد» فقد أدهشكم كثيراً. آه! ما أكثر ما قد أعلمه للذين يقومون بتقصيات حول الجيل الجديد الذي رفض التعقيدات التي لا طائل تحتها التي من صنع الأجداد، كما يقول السيد «بورجيه»![1] إن لي صديقاً حميماً هناك يتحدثون كثيراً عنه وقد قام بأشياء رائعة. لكني في النهاية لا أودّ أن أكون خبيثاً، فهيا نعود إلى القرن السابع عشر، تعلم أن «سان سيمون» يقول عن المارشال «دوكسل» - من بين كثيرين غيره: «... شهواني في مجونه اليوناني[2] الذي ما كان يكلف نفسه التستر عليه، وكان يستدرج ضباطاً شباناً يروضهم، بالإضافة إلى خدم حديثي السن حسني التكوين، وذلك دونما ستر. في الجيش وفي «ستراسبورغ». «لا بد أنك قرأت رسائل «ستّنا» وما كان الرجال يدعونها بغير «فاجرتنا». وهي تتحدث عن ذلك حديثاً واضحاً إلى حد». - «وكانت موثوقة المصادر لتعلم، مع زوجها». وقال السيد «دو شارلوس»: «إنها لشخصية مثيرة». فربما وسعنا بالرجوع إليها وضع الخلاصة الوجدانية لـ«امرأة واحد من جنس العمات». هي قبل كل شيء مسترجلة، وزوجة صنف العمات رجل بعامّة، وهذا ما يسهّل لها إلى هذا الحد أن تهبه أطفالاً. ثم إن «ستّنا» لا تحكي عن عيوب «سيدنا»، لكنها تتكلم دون انقطاع عن هذا العيب ذاته لدى الآخرين كلام العارف بالأمور وجراء هذه العادة التي فينا وقوامها أنه يروق لنا أن نعثر في عائلات الآخرين على العيوب نفسها التي نعاني منها في عائلتنا كي نبرهن

---

(١) الكاتب «بول بورجيه».

(٢) يعني اللواطة.

لذواتنا أن ليس في الأمر ما كان خارقاً أو مشيناً. كنت أقول لك إن الأمر كان كذلك على مر الزمن. لكن زماننا يتميز بصورة خاصة ضمن هذا المفهوم. وعلى الرغم من الأمثلة التي اقتبستها من القرن السابع عشر فلو أن جدي الأول «فرانسوا دو لا روشفوكو» كان يعيش في زماننا لاستطاع أن يقول عنه وبصحة بعد أكبر مما يقول عن زمانه، هيا ساعدني يا «بريشو»: «الرذائل من كل الأزمنة، ولكن لو أنه سبق لأشخاص يعرفهم كل الناس أن يظهروا في الأزمنة الأولى أكنا تحدثنا الآن عن صنوف الدعارة لدى «هيليوغابال»[1]. إن عبارة «يعرفهم كل الناس» تروقني كثيراً. وأرى أن قريبي النبيه كان يعرف «الكلام المعسول» لدى أكثر معاصريه شهرة مثلما أعرف ما يجود به معاصري». أما الناس الذين من هذا القبيل، فليس ثمة كثرة منهم فحسب في يومنا، بل لديهم كذلك ما يميزهم».

وحسبت أن السيد «دو شارلوس» يزمع أن يقول لنا كيف تطوّر هذا الصنف من العادات الخلقية. ولم تغب عن مخيلتي لحظة واحدة فيما كان يتكلم، فيما كان «بريشو» يتكلم، الصورة الواعية إلى حد ما لمنزلي الذي كانت «ألبيرتين» تنتظرني فيه، صورة مقرونة بفكرة «فانتوي» الموسيقية الدافئة الحميمة.

كنت لا أنفك أعود إلى «ألبيرتين»، مثلما لا بد أن أعود بالفعل بالقرب منها بعد قليل وكأنما إلى كرة كنت بشكل أو بآخر مشدوداً إليها وكانت تحول بيني وبين أن أغادر باريس كما كانت في هذه اللحظة، وفيما أتذكر من داخل صالة آل «فيردوران» منزلي، تشعرني به لا على أنه مكان فارغ يستثير حماسة الفرد ويشوبه شيء من الحزن، بل بوصفه مليئاً - وهو بذلك شبيه بفندق «بالبيك» ذات مساء - بذاك الحضور الذي لا يبرحه والذي يدوم هنالك من أجلي وأنا متيقن أني سأعود فألقاه في اللحظة التي

---

(١) Héliogabale: إمبراطور روماني حمصي الأصل (٢١٨ - ٢٢٢) تميّز عصره بصنوف الفوضى في كل المجالات.

أريدها. وكان للإلحاح الذي يعود به السيد «دو شارلوس» على الدوام إلى الموضوع - الذي يتمتع عقله إزاءه على أي حال، عقله المصروف دوماً في الاتجاه نفسه، بشيء من النفاذ - كان له شيء من الطابع المكدر الذي ينطوي على بعض التعقيد. كان مملاً كعالم لا يرى شيئاً خلف حدود اختصاصه، مزعجاً كمطلع يتباهى بالأسرار التي بين يديه ويتحرق شوقاً إلى إفشائها، ثقيلاً كالذين ما إن تعلق الأمر بعيوبهم حتى ينفرجوا دون أن يتبيّنوا أنهم يزعجون، مُسْتَبْعَدَاً كذي هوس، متهوراً كمذنب. كانت تلك السمات التي تضحي في بعض الأوقات لافتة كتلك التي تميز مجنوناً أو مجرماً تحمل إليّ من جانب آخر بعض الهدوء. ذلك لأني إذ كنت أدخل عليها المناقلة اللازمة ليمكنني أن أستخلص منها استنتاجات في ما يخص «ألبيرتين» وأتذكر موقف هذه الأخيرة من «سان لو» ومني، كنت أقول في نفسي، مهما كانت إحدى هاتين الذكريين أليمة في نظري والأخرى حزينة، كنت أقول في نفسي إنهما يبدوان وكأنهما يستبعدان نوع التشويه البارز جداً والتخصص الحصري حكماً في ما يبدو والذي كان ينبعث بهذا القدر من القوة من حديث وشخص السيد «دو شارلوس» على السواء. لكن هذا الأخير سارع لسوء الحظ إلى تضييع أسباب الأمل هذه بالطريقة نفسها التي سبق أن وفرها لي، أي دون علم منه. وقال: «أجل، لم أعد في الخامسة والعشرين وقد شهدت الكثير من الأشياء تتغير من حولي وما عدت أتعرف لا المجتمع الذي تحطمت فيه الحواجز وحيث يرقص حشد غفير عديم الأناقة والاحتشام التانغو حتى داخل أسرتي، ولا الموضات ولا السياسة ولا الفنون ولا الدين ولا أي شيء. على أني أعترف أن ما تغير أكثر ما تغير هو ما يسميه الألمان اللوطية. يالله، في أيام صباي، إن وضعنا جانباً الرجال الذين يكرهون النساء وأولئك الذين لا يحبون سوى النساء فلا يفعلون أمراً آخر إلا من قبيل المصلحة، كان اللواطيون آباء أسر صالحين يكادون لا يتخذون عشيقات إلا في سبيل التغطية. ولو كان لي ابنة أزوجها فما كنت لأبحث إلا بينهم عن صهري إن أردت أن أطمئن إلى أنها لن

تكون تعيسة. لقد تغير كل شيء، وا أسفي! أما الآن فإنك ملاقيهم كذلك بين أكثر الرجال شغفاً بالنساء. كنت أظن لي شيئاً من حاسة الاستبصار وأن لا يسعني أن أكون أخطأت بعدما قلت في نفسي: «لا بالتأكيد». حسن، ها إني أقرّ بعجزي. كان لواحد من أصدقائي معروف تماماً في هذا المجال حوذي سبق أن وفرته له زوجة شقيقي أوريان، وهو شاب من «كومبريه» قد مارس تقريباً سائر المهن ولا سيما مهنة «زير نساء»، ولعلني كنت أقسمت أنه ينفر قدر ما يستطيع من هذه الأمور. وكان مصدر تعاسة لعشيقته إذ كان يخونها مع امرأتين كان يعبدهما، ناهيك عن الأخريات، عن ممثلة وعن نادلة في مشرب. لقد قال لي ابن عمي الأمير «دو غيرمانت»، وهو يتمتع فعلاًبالذكاء المزعج الذي لأولئك الذين يصدقون كل شيء بسهولة مفرطة، قال لي ذات يوم: «ولكن لم لا يواقع السيد من حوذيه؟ فمن ذا يعلم إن كان ذلك لا يمتعه، «ثيودور» هذا (وهو اسم الحوذي)، بل إن لم يكن مستاء جداً أن يرى أن معلمه لا يراوده عن نفسه؟» ولم أستطع أن أملك نفسي من إسكات «جيلبير»، فقد أثار أعصابي نفاذ البصيرة المزعوم هذا الذي يصبح حينما يؤخذ به عشوائياً غياباً للبصيرة، كما أثارني على السواء الخبث الواضح تماماً لدى ابن عمي الذي ربما ابتغى أن يحاول صديقنا س أن يجازف بنفسه على الخشبة من أجل أن يبادر إليها بدوره إن ثبتت صلاحيتها. وسأل «بريشو» قائلاً بمزيج من الدهشة والضيق: «فللأمير «دو غيرمانت» إذن مثل هذه الميول؟» فأجاب السيد «دو شارلوس» بفرح بالغ: «يا الله، الأمر معروف إلى حد لا أعتقد معه أني أفشي سراً إن أجبتك بنعم. حسن، لقد ذهبت في السنة التالية إلى «بالبيك» وعلمت هناك على يد بحار كان يصطحبني أحياناً إلى صيد السمك أن «ثيودور» هذا الذي يملك شقيقة هي بين قوسين وصيفة صديقة للسيدة «فيردوران» تدعى البارونة «بوتبوس»، كان يجيء إلى المرفأ ليأخذ هذا البحار تارة وآخر طوراً بوقاحة جهنمية ليقوم بجولة في قارب و«بأمور أخرى أيضاً».» وجاء دوري لأسأل إن كان المعلم الذي تعرفت

في شخصه السيد الذي كان يلعب الورق طوال النهار مع عشيقته على شاكلة الأمير «دو غيرمانت».

- «ويحك، الجميع يعرف ذلك، وهو حتى لا يتستر على ذلك».

- «لكن كانت عشيقته برفقته».

- «حسن، وما عسى يغير ذلك؟ يا لهم سذج هؤلاء الأولاد»، يقول بلهجة أبوية دون أن يرتاب بالعذاب الذي استخلصه من أقواله وأنا أفكّر بـ«ألبيرتين». «وإنها لفاتنة، عشيقته».

- «وأصدقاؤه الثلاثة إذن هم على شاكلته؟» فصاح يقول: «لا، لا، على الإطلاق»، يقول وهو يسد أذنيه كما لو أني أصدرت علامة موسيقية ناشزة وأنا أعزف على إحدى الآلات. «أراه الآن في الطرف الأقصى الآخر. إذاً لم يعد يحق للمرء أن يتخذ له أصدقاء؟ آه للشباب! إنهم يخلطون كل شيء، ولا بد من إعادة تنشئتك يا ولدي». وأردف يقول: «وإني أقرأ أن هذه الحالة، وأعرف غيرها الكثير، إنما تربكني مهما جهدت في أن أبقي فكري مفتوحاً على كل صنوف الجرأة. إني من طراز قديم جداً، لكني لا أفهم، يقول بلهجة غاليكاني[1] عتيق يتحدث عن بعض أشكال البابوية المتطرفة، أو ملكي ليبرالي يتحدث عن «العمل الفرنسي»، أو تلميذ لـ«كلود مونيه» عن التكعيبيين. لست ألوم هؤلاء المجددين، إني أحسدهم بالأحرى وأحاول أن أفهمهم لكني لا أفلح في ذلك. فإن كانوا يحبون المرأة إلى هذا الحد فلماذا، ولاسيما في دنيا العمال هذه حيث الأمر غير مقبول وحيث يتخفون من باب الاعتزاز بالذات، لماذا نراهم بحاجة إلى ما يسمونه «عَجَباً»؟ ذلك أن الأمر يمثل في نظرهم شيئاً آخر، «ويحك». وكنت أفكر في نفسي: «ماذا يمكن أن تمثل المرأة من أمر آخر في نظر «ألبيرتين»؟» وهنا كان يكمن بالفعل عذابي. وقال «بريشو»: «بالحقيقة أيها البارون، إن اقترح مجلس الكليات

---

(١) الغاليكانية: هي حركة أنصار تحرر كنيسة فرنسا إدارياً تجاه البابوية.

في يوم إحداث كرسي للشذوذ جنسياً فسأعمل على اقتراحك في المكان الأول. أو بالأحرى لا: فربما وافقك أكثر معهد للسيكوفيزيولوجيا الخاصة. وأراك على وجه الخصوص مكلفاً بكرسي في «الكوليج دو فرانس» يمكنك من الانصراف إلى دراسات شخصية تقدم نتائجها مثلما يفعل أستاذ لغة التاميل أو السنسكريتية أمام عدد قليل من الناس الذين يهتمون بذلك. ويكون لديك مستمعان وحاجب، ونقول ذلك دون مقصد منا في زرع أدنى الشكوك حول هيئة الحجّاب التي أظنها فوق الشبهات».

وردّ البارون بلهجة قاسية حاسمة: «لست تدري شيئاً من ذلك. وإنك مخطئ على أية حال إذ تظن أن ذلك يهم عدداً هيناً جداً من الأشخاص. والأمر عكس ذلك تماماً.» ثم قال، دون أن يتبيّن التناقض القائم بين الاتجاه الذي يتخذه حديثه بصورة لا تتبدل واللوم الذي يزمع توجيهه للآخرين، قال لـ«بريشو» بلهجة يطبعها الاستنكار والأسف: «الأمر مخيف بالعكس، فإنهم لا يتحدثون من بعد إلا عنه. ذلك خزي وعار، ولكن الأمر بصورة ما أقول لك أيها العزيز! ويبدو أنهم قبل البارحة لم يتحدثوا في منزل الدوقة «دايين» عن غير ذلك على مدى ساعتين. تصور، إن شرعت النساء الآن في الحديث عن ذلك، إنها لفضيحة حقيقية، وإن ما كان الأكثر سفالة أنهن مطلعات»، يضيف قوله بحماسة وقوة خارقتين، «على يد سفلة ولئام حقيقيين على شاكلة الفتى «شاتيلرو» يمكن تناولهم بالحديث أكثر من أي شخص آخر ويرددون لهن قصص الآخرين. وقد نقلوا إليّ أنه يروى عني ما يستحق أكثر من الشنق، لكني لا أهتم للأمر وأعتقد أن الأوحال والأقذار التي يلقي بها شخص كاد يطرد من نادي الفروسية لأنه زوّر لعبة ورق لا يمكن أن تسقط إلا على رأسه. أعرف تماماً أنني لو كنت «جين دايين» لاحترمت بالقدر الكافي صالتي كي لا يخوضوا فيها بمثل هذه الموضوعات ولا يجرروا في الحمأة ذويّ داخل منزلي. لكن لم يبق ثمة مجتمع ولا قواعد ولا لياقات سواء في ذلك ما اتصل بالحديث أو بالأزياء. آه! يا عزيزي، إنها نهاية العالم. لقد أضحى

الناس جميعاً على مقدار عظيم من الأذية. فقصب السبق لمن تناول بالسوء الآخرين أكثر من سواه. يا للفظاعة!».

لم يبق لي، وأنا جبان كما سبق أن كنت أيام طفولتي في «كومبريه» حينما كنت أهرب كي لا أشهدهم يقدمون الكونياك لجدي وجهود جدتي العقيمة وهي تتوسل إليه أن لا يشرب، لم يبق لي سوى فكرة واحدة، مغادرة منزل آل «فيردوران» قبل أن يتم إعدام «شارلوس». وقلت لـ«بريشو»: «لا بد لي حكماً أن أرحل». فقال لي: «أتبعك على الأثر، ولكن لا يمكننا الرحيل دون استئذان. فهيا نودّع السيدة «فيردوران»، هكذا قال الأستاذ في النهاية واتجه إلى الصالة فِعْلَ من يذهب ليتأكد، في الألعاب المجتمعية، «إن كانت العودة ممكنة».

وفيما كنا نتحدّث كان السيد «فيردوران» قد بادر بإشارة من امرأته إلى اصطحاب «موريل». ولعل السيدة «فيردوران»، لو وجدت بعد طول تفكير أن تأجيل إفشاء الأسرار لـ«موريل» أكثر حكمة، ما كانت استطاعت ذلك من بعد. فثمة بعض الرغبات، وهي محصورة أحياناً في الفم، تضطرّك، إما تركتها تتعاظم، إلى إشباعها أية كانت النتائج. فليس يمكنك من بعد تقبيل كتف عارية تنظر إليها منذ فترة طويلة جداً وتهوي عليها الشفتان مثلما الطير على حية، وأكل حلوى بأسنان يحددها الجوع الشديد، وحجب النفس عن الدهشة أو الاضطراب أو الألم أو المرح الذي ستثيره في نفس أحدهم بأقوال غير متوقعة. كذلك كانت السيدة «فيردوران»، وقد انتشت بجو ميلودرامي، قد أوعزت لزوجها باصطحاب «موريل» والتحدث إلى عازف الكمان أياً كان الثمن. وقد بدأ هذا الأخير فأسف أن تكون ملكة نابولي ذهبت دون أن تكون ثمة إمكانية لتعريفها به. وكان السيد «دو شارلوس» قد أكثرَ من الترداد أمامه أنها شقيقة الإمبراطورة «أليزابيث» والدوقة «دالنسون»، إلى حد اتخذت فيه العاهلة أهمية بالغة في نظر «موريل». لكن المعلم كان قد أوضح له أنهما ما كانا هنا للتحدث عن ملكة نابولي وكان أن دخل في صلب الموضوع. وقد

خلص بعد وقت إلى القول: «خذ، إن شئت، سوف نستشير زوجتي. أقسم بشرفي أني لم أقل لها شيئاً بهذا الخصوص. وسنرى كيف تحكم في هذا الأمر. ربما لم يكن رأيي هو الصائب، لكنك تعلم أي حكم صائب هو حكمها، ثم إنها تكنّ لك وداداً عظيماً فهيا بنا نعرض عليها القضية». وفيما كانت السيدة «فيردوران» تنتظر بفارغ الصبر الانفعالات التي سوف تتلذذ بها في حديثها إلى العازف المُجلّي، ثم في الاستماع، بعدما يكون ذهب، إلى عرض دقيق يؤدّى لها عن الحوار الذي قام بينه وبين زوجها، ولا تنفك تردد بانتظار ذلك: «ولكن ما الذي يمكن أن يفعلاه؟ أملي على الأقل أن «أوغست»، حين يستوقفه مثل هذا الوقت، يكون قد عرف كيف يدرّبه»، كان السيد «فيردوران» قد عاد برفقة «موريل» الذي كان يبدي انفعالاً شديداً. «إنه يود أن يطلب مشورتك»، يقول السيد «فيردوران» لزوجته، ويفعل كمن لا يعلم إن كان سيستجاب لمطلبه. وبدلاً من إجابة السيد «فيردوران» توجهت السيدة «فيردوران» بحديثها، ونار الوجد تكويها، إلى «موريل»: «إني أشاطر زوجي الرأي تماماً وأرى أنه لا يمكنك التغاضي عن ذلك وقتاً أطول!»، تقول صائحة بلهجة عنيفة وتنسى، وكأنما ذلك وهم تافه، أنه سبق أن اتفقت وزوجها على افتراض أنها لا تعلم شيئاً عما قاله لعازف الكمان. وتمتم السيد «فيردوران»: «عمّ يتغاضى؟ ويحك!» وهو يحاول تصنّع الدهشة ويجهد بارتباك يفسّره اضطرابه في الدفاع عن كذبته. وأجابت السيدة «فيردوران» دون أن يربكها قُرْبُ أو بُعْدُ التفسير عن الواقع المحتمل، وهي قليلة الاهتمام بما يمكن أن يخطر لعازف الكمان حول صدق معلّمته حينما يتذكّر هذا المشهد: «لقد حزرت ما قلتَه له». وأردفت السيدة «فيردوران» تقول: «لا، أرى أنه ينبغي ألا تتحمل أكثر من هذا تلك المخالطة المخزية لشخص مفضوح لا يلقى ترحاباً في أي مكان»، تضيف قولها دون أن تهتم بأن ليس الأمر صحيحاً وتنسى أنها تستقبله كل يوم تقريباً. وأردفت ولديها إحساس بأنها ستكون الحجة الأوقع في نفسه: «غدوتَ أضحوكة المعهد الموسيقي. زد

شهراً من هذه الحياة ويتحطم مستقبلك الفني، فيما يفترض أن تكسب، بدون «شارلوس» هذا، أكثر من مئة ألف فرنك في العام». وتمتم «موريل» والدموع تملأ عينيه: «لكني لم يسبق أن سمعت من يقول شيئاً، إني مندهش وشديد الامتنان لكِ». لكنه بدا، في اضطراره إلى تصنّع الدهشة وإخفاء الخجل على السواء، أكثر احمراراً وأخذ يتعرّق أكثر مما لو عزف «سوناتات» بيتهوفن جميعها تباعاً وفي عينيه تتدافع دموع ما كان سيد «بون» بالتأكيد لينتزعها من عينيه. وابتسم النحات وقد أثارت هذه الدموع اهتمامه ودلّني، على «شارلي» من طرف عينه. «إن لم تسمع من يقول شيئاً فإنك الوحيد، فهذا سيد وسخ السمعة كانت له قصص بشعة. أنا أعلم أن الشرطة تراقبه وذلك على أي حال أسعد ما يمكن أن يحل به كي لا ينتهي مثل سائر أشباهه مقتولاً على يد متشردين»، تضيف قولها، فإنها وهي تفكر بـ«شارلوس» كانت ذكرى السيدة «دوراس» تعود إليها فتحاول في الغيظ الذي كانت تنتشي به أن تزيد بعد من خطورة الجراح التي تلحقها بـ«شارلي» المسكين وأن تثأر لتلك التي لحقت بها هذا المساء. «هو على أي حال لا يستطيع أن يفيدك في شيء حتى على الصعيد المادي، فإنه مفلس كلياً منذ أصبح فريسة أناس يبتزونه ولن يسعهم حتى استخلاص نفقات موسيقاهم منه ونفقات موسيقاك أقل بعد، لأن كل شيء مرتهن: الفندق والقصر إلخ.». وصدّق «موريل» هذه الكذبة بيسر متزايد بمقدار ما كان السيد «دو شارلوس» يحب أن يتخذ منه نجيه حول علاقاته بمتسكعين، وهم صنف يجهر تجاهه ابن خادم خاص، مهما كان وغداً في ما يخصه، بشعور بالكراهية يساوي تعلقه بالأفكار البونابرتية.

وقد نشأت مذ ذاك في فكره الماكر تركيبة شبيهة بما سمي في القرن الثامن عشر انقلاب التحالفات. سوف يعود، وقد صمم أن لا يكلم ثانية السيد «دو شارلوس» في يوم، سوف يعود في مساء الغد بالقرب من ابنة شقيق «جوبيان» ويأخذ على نفسه أن يتدبر كل شيء. لكن هذا المشروع

سوف يفشل لسوء حظه، إذ كان السيد «دو شارلوس» على موعد في المساء نفسه مع «جوبيان» ولم يتجرأ صانع الصداري السابق على تفويته على الرغم من الأحداث. وإذ توالت أحداث أخرى سوف نراها على رأس «موريل» فإن البارون، حينما روى له «جوبيان» باكياً المصائب التي حلّت به، صرّح هذا الأخير دون أن يقلّ عنه تعاسة أنه يتبنّى الصغيرة المهجورة، وسوف تحمل أحد الألقاب التي في حوزته، لقب الآنسة «دولورون» على الأرجح، وسوف يعمل على توفير إكمال علمها على أتم وجه وتزويجها زوجاً ثرياً. وأثلجت هذه الوعود صدر «جوبيان» وخلّفت اللامبالاة لدى ابنة أخيه لأنها لا تزال على حب «موريل» الذي كان يدخل ممازحاً إما عن حماقة أو عن صفاقة إلى الدكان في أثناء غياب «جوبيان» ويقول متضاحكاً: «ما الذي ألمَّ بك بهاتين العينين الغائرتين في الزرقة؟ أهي اغتمامات حب؟ يا الله، السنون تتوالى ولا تتشابه. والمرء حر في نهاية المطاف أن يجرب حذاء، وكم بالأحرى امرأة، فإن لم تكن على مقاس قدمه...» ولم يغضب إلا مرة واحدة لأنها بكت، وذلك ما ألفاه جبناً وطريقة معيبة. فليس يتحمل المرء دوماً على أتم وجه الدموع التي يتسبب في ذرفها.

لكننا بالغنا في استباق الأمور لأن كل هذا لم يجر إلا بعد أمسية آل «فيردوران» التي قطعناها ولا بد من العودة إليها حيث كنا وصلنا. وتنهد «موريل» في ردّه على السيد «فيردوران»: «ما كان راودني شك في ذلك يوماً». وعادت السيدة «فيردوران» تقول بخبث وبودّها أن تثبت لـ«موريل» أن الأمر لا يتعلق بالسيد «دو شارلوس» وحده، بل به أيضاً: «بالطبع لا يقولون لك ذلك وجاهياً، لكن هذا لا يمنع أن تكون أضحوكة المعهد الموسيقي. أعتقد جازمة أنك تجهل الأمر، ومع ذلك تراهم لا يتحرجون. هيا اسأل «سكي» عما كان يقال في ذلك اليوم في منزل «شوفيار»، وهو على خطوتين من منزلنا، حينما دخلت مقصورتي. يعني أنهم يدلون عليك بالبنان. سأقول لك إني في ما يخصني لا أعير الأمر أي انتباه، وما أراه

على وجه الخصوص أنه يجعل المرء مثاراً لسخرية عظيمة ويضحي أضحوكة الجميع على مدى كامل حياته».

- «لست أدري كيف أزجيكِ شكري»، يقول «شارلي» باللهجة التي تقولها بها لطبيب أسنان أقدم تواً على إيلامك ألماً رهيباً دون أن تكون وددت إظهار ذلك، أو لشاهدٍ مفرط الدموية اضطرك إلى مبارزة بسبب كلمة تافهة قال لها بشأنها: «لا يمكنك أن تنام عليها». وأجابت السيدة «فيردوران»: «عندي أنك قوي الشكيمة وأنك رجل وأنك ستعرف كيف تتكلم بصوت عالٍ وواضح مع أنه يقول للجميع إنك لن تجرؤ وإنك طوع بنانه». وبحث «شارلي» عن كرامة مستعارة يغطي بها مزق كرامته فوجد في ذاكرته، لأنه سبق أن قرأها أو سمع من يقولها وأعلن في الحال: «لم أنشأ على تناول مثل هذه الأطباق. سوف أقطع صلتي بالسيد «دو شارلوس» منذ هذا المساء. لقد غادرت ملكة نابولي، أليس كذلك؟ وإلا لكنت طلبت إليها قبل أن أقطع صلتي به...»

- «ليس ضرورياً أن تقطع صلتك به بالكامل»، تقول السيدة «فيردوران» وهي راغبة أن لا تشيع الفوضى داخل النواة الصغيرة، «فلا ضرر من أن تلتقيه هنا، داخل مجموعتنا الصغيرة، حيث أنت موضع تقدير وحيث لن يتناولك أحد بالسوء. ولكن طالب بحريتك، ثم لا تسمح أن يجررك إلى منازل كل أولئك البلهاوات اللواتي تراهن لطيفات في حضرتك: لكن وددت لو تسمع ما يقلن في القفا. ولا تأسف لذلك على أية حال، فأنت لا تنزع عنك فحسب لطخة ربما لازمتك طوال حياتك، لكن دعني أقول لك إنك، على الصعيد الفني، وإن لم يكن ثمة هذا التقديم المخزي من جانب «دو شارلوس»، إنما يوليك تضييع نفسك هكذا في هذا الوسط الذي قوامه مجتمع راقٍ زائف مظهراً غير جدي وسمعة هاوٍ وموسيقي منتديات صغير هي رهيبة في مثل سنك. إني أدرك أنه من المناسب تماماً بالنسبة إلى كل هذه السيدات الجميلات رد الجمائل لصديقاتهن باستقدامك مجاناً لوجه الله، لكن مستقبلك الفني هو الذي

سيدفع الثمن: لست أعارض لدى واحدة أو اثنتين. كنت تتحدث عن ملكة نابولي التي غادرت بالفعل، هذه كان لديها أمسية، وهي امرأة طيبة القلب ودعني أقول لك إني أعتقد أنها لا تقيم وزناً كبيراً لـ«شارلوس» هذا. دعني أقول لك إني أعتقد أنها كانت تجيء على وجه الخصوص من أجلي. أجل، أجل، أعلم أنها كانت تتوق إلى التعرف بالسيد «فيردوران» وبي. وهذا مكان يمكنك العزف فيه. ثم إني سأقول لك إن الأمر مختلف تماماً حينما آتي بك أنا، أنا التي يعرفها الفنانون، كما تعلم، والتي كانوا على الدوام لطفاء جداً إزاءها ويعتبرونها إلى حد ما كأنما واحدة منهم، كأنما معلمتهم. ولكن احذر على وجه الخصوص، كأنما من النار، من الذهاب إلى منزل السيدة «دو دوراس»! فلا تبادر إلى ارتكاب هفوة من هذا القبيل! إني أعرف فنانين جاؤوا يستودعونني أسرارهم حولها. تدري، هم يعلمون أنهم يستطيعون الوثوق بي»، تقول بالنبرة العذبة البسيطة التي تعرف اتخاذها فجأة فيما تضفي على قسماتها مسحة من التواضع وعلى عينيها سحراً مناسباً. «إنهم يجيئون هكذا فيروون لي قصصهم الصغيرة. وأولئك الذين يزعمون أنهم الأكثر صمتاً تراهم يثرثرون أحياناً ساعات معي ولا أستطيع أن أقول لك كم هم شيّقون. كان «شابرييه» المسكين يقول دائماً: «ليس سوى السيدة «فيردوران» من يفلح في دفعهم إلى الكلام». حسن! تدري، لقد رأيتُهم جميعاً، أقول جميعهم دون استثناء، يبكون من أنهم مضوا للعزف في منزل السيدة «دو دوراس». والأمر لا يقتصر على صنوف الإذلال التي تتلهّى بإلحاقها بهم على يد خدمها، ولكنهم ما كانوا يستطيعون من بعد العثور على عقد في أي مكان. كان المديرون يقولون: «آه! أجل، هذا الذي يعزف لدى السيدة «دو دوراس». وكانت القاضية، فليس ثمة ما ينهي مستقبلاً مثل هذا. تعلم أن جماعة المجتمع الراقي لا تكسبك مظهر الجد، ويمكنك أن تتمتع بما تشاء من موهبة، ويؤسفنا أن نقول ذلك، إذ يكفي أن يكون ثمة أمثال مدام «دو دوراس» كي يسبغوا عليك سمعة هاوٍ. وفي ما يخص الفنانين، تدري، أنت تدرك أني أعرفهم

أنا فإني في عشرتهم منذ أربعين عاماً وفي الترويج لهم والاهتمام بهم، حسن! تعلم أنه في ما يخصهم حينما يقولون «هاوٍ» فقد قالوا كل شيء. وقد أخذوا في الأساس يقولون ذلك عنك. وكم مرة اضطررت أن أغضب وأن أؤكد أنك لن تعزف في هذه الصالة السخيفة أو تلك! أفتعلم ما كانوا يجيبونني به: «ولكنه سوف يضطر إلى ذلك، و«شارلوس» لن يستشيره، وهو لا يسأله رأيه». وظنّ أحدهم أنه يوليه سروراً بقوله: «إننا معجبون كثيراً بصديقك «موريل». فهل تعلم بما أجابه بهذه اللهجة الوقحة التي تعرفها: «ولكن كيف تريده أن يكون صديقي؟ فلسنا من الطبقة نفسها، قل إنه صنيعتي ومن هو في حمايتي». «في هذه اللحظة كان يضطرب خلف جبين آلهة الموسيقى المحدب الشيء الوحيد الذي لا يقوى بعض الأشخاص على الاحتفاظ به لأنفسهم، كلمة ليس من الخسة فحسب تردادها، بل من التهور أيضاً. لكن الحاجة إلى تردادها أقوى من الشرف، ومن الحذر: ولهذه الحاجة استسلمت المعلمة بعد بضعة تشنجات خفيفة توالت على الجبين المكور الحزين: «بل هم كرروا أمام زوجي أنه قال: «خادمي»، وأضافت تقول: «لكني لا أستطيع تأكيد ذلك». وإنها لحاجة مشابهة تلك التي اضطرت السيد «دو شارلوس»، بعدما أقسم لـ«موريل» أن لن يعرف أحد في يوم منبته، إلى أن يقول للسيدة «فيردوران»: «إنه ابن خادم خاص». ولعل حاجة مماثلة سوف تنقله، الآن وقد أطلقت كلمة السر، من قوم إلى قوم آخرين يستودعونهم الأمر بمثابة سر يعدون به ولا يحفظونه، مثلما سبق أن فعلوا هم. وكانت هذه الأسرار ينتهي بها المطاف، كما هي الحال في لعبة النقلة[1]، إلى السيدة «فيردوران» موقعاً بينها وبين المعني الذي عرف الأمر في النهاية. كانت تعرف ذلك لكنها لا تستطيع الاحتفاظ بالسرّ الذي يحرق لسانها. وما كانت كلمة «خادم» على

---

(١) النقلة: لعبة اجتماعية يتحلق فيها اللاعبون ويمررون فيما بينهم غرضاً ما وعلى لاعب يحتل وسط الدائرة أن يحزر ما هو.

أية حال إلا لتكدر «موريل»، ومع ذلك نطقت بلفظة «خادم»، ولئن أضافت أنه لا يسعها تأكيد الأمر فإنما كان ذلك لتبدو، بفضل هذا الفارق الطفيف، أكيدة من الباقي وبغية إبداء بعض اللاتحيز في الآن نفسه. وقد أثّر فيها ما تبدّى من لاتحيز تأثيراً عميقاً إلى حد أنها شرعت تكلم «شارلي» برقة وقالت: «ذلك أني، ترى، لا أوجه إليه ملامة. إنه يجرك إلى الهاوية التي هو فيها، وليس الذنب ذنبه بما أنه هو يتمرغ فيها: بما أنه يتمرغ فيها»، تكرر قولها وقد فتنتها صحة الصورة التي انطلقت منها انطلاقة أسرع من انتباهها الذي لا يلحق بها إلا الآن فيما يحاول إبرازها. «لا، ما ألومه عليه»، تقول بصوت رفيق قول امرأة تنتشي بنجاحها، «إنه إنما تعوزه الرقة تجاهك. ثمة أشياء لا نقولها لكل الناس. من ذلك أنه راهن منذ قليل أنه سيجعلك تحمرّ سروراً بإعلانه أنك ستحصل على وسام صليب جوقة الشرف (على سبيل المزاح بالطبع لأن توصيته بك كافية لحجبه عنك). والأمر يمكن تحمله بعد مع أني ما أحببت كثيراً في يوم»، تضيف قولها بلهجة لطيفة رزينة، «أن يخدع المرء أصدقاءه، لكنك تعلم أن أقل الأشياء تُغِمّنا. من ذلك على سبيل المثال حين يحكي لنا وهو يتلوى ضحكاً أنك إن رغبت في الوسام فمن أجل عمك، وعمك كان خادماً. وصاح «شارلي»: «أو قال لك ذلك!» وهو يعتقد، تبعاً لهذه الكلمات المنقولة بصورة حاذقة، بصحة كل ما قالته السيدة «فيردوران». وغمر السيدة «فيردوران» الفرح الذي يداخل عشيقة مسنة تفلح، وهي على شفا أن يهجرها عشيقها الشاب، في فسخ زواجه. وربما لم تقدر كذبتها، بل هي حتى لم تكذب عن قصد. كان ثمة ضرب من المنطق العاطفي، وربما ضرب من المنعكس العصبي، وهو بعد أكثر بدائية، يدفعها، بغية إدخال البهجة في حياتها وصون سعادتها، إلى «خلط الأوراق» داخل العشيرة الصغيرة، يحمل إلى شفتيها بنوع من القوة الدافعة هذه الادعاءات المفيدة بصورة شيطانية، إن لم تكن صحيحة بالغة الدقة، فلا يتسع لها الوقت لمراقبة حقيقتها. ثم أردفت المعلمة تقول: «لو كان قال ذلك لنا وحدنا

لما اهتممنا للأمر، فإننا نعلم أنه ينبغي أن نأخذ مما يقول شيئاً ونترك أشياء. ثم إنه ليس ثمة مهنة غبية، فإن لك قيمتك وإنما أنت ما تساويه. فأما أن تبادر إلى إثارة سخرية السيدة «دو بورتفان» من ذلك (وتذكرها السيدة «فيردوران» متعمدة لأنها تعلم أن «شارلي» كان يحب السيدة «دو بورتفان») فذلك ما يسبب تعاستنا. كان زوجي يقول لي وهو يسمعها: «كنت فضلت أن أتناول صفعة». فإنه يحبك، تدري، بقدر ما أفعل، «غوستاف» هذا (وعرفنا بذلك أن السيد «فيردوران» كان يدعى «غوستاف»)، إنه حساس في الأساس». وتمتم السيد «فيردوران» وهو يتكلف الظهور مظهر فاعل الخير الفظ في فعله «لكني لم أقل لك يوماً إنني أحبه: فـ«شارلوس» هو الذي يحبه». فصاح «شارلي» بلهجة صادقة: «آه! لا، الآن أراني أدرك الفارق. لقد تم الغدر بي على يد رجل حقير، أما أنت فإنك طيبة». وهمست السيدة «فيردوران» قائلة: «لا، لا» كيما تحتفظ بانتصارها (إذ تحسّ أنها أنقذت أربعاءات استقبالها) دون أن تفرّط فيه، «غلوت بقولك حقير: إنه مؤذٍ، كثير الأذى، دون وعي منه: تدري، قصة جوقة الشرف هذه لم تدم طويلاً جداً. وربما ساءني أن أردد كل ما قاله عن أسرتك»، تقول السيدة «فيردوران»، ولعله كان أربكها أن تفعل. وصاح «موريل» يقول: «أوه! عبثاً نقول إن ذلك لم يدم إلا لحظة فإنما يدل ذلك على أنه غدار».

واتفق في هذه اللحظة عينها أن عدنا إلى الصالون، وصرخ السيد «دو شارلوس» إذ رأى أن «موريل» هناك، وقال وهو يمشي إلى الموسيقي بنوع الحبور الذي يطبع أناساً نظّموا كامل أمسيتهم تنظيماً بارعاً في سبيل موعد مع امرأة ولا يشكّون وقد انتشوا تماماً أنهم هم أنفسهم نصبوا الفخ الذي سيقبض عليهم فيه وينهال عليهم ضرباً أمام الجميع رجال أقامهم الزوج هناك: «آه! حسن، لم تبكر كثيراً، فهل أنت مسرور يا مجداً فتياً وعما قريب فتى جوقة الشرف من رتبة فارس؟ فعما قليل يمكنك إبراز صليبك»، يضيف السيد «دو شارلوس» لـ«موريل» بلهجة رقيقة ظافرة لكنها تؤكد،

بكلمات الوسام تلك، أكاذيب السيدة «فيردوران» التي بدت لـ«موريل» حقيقة لا جدال فيها، فصاح في وجه البارون: «دعني، فإني أمنعك من الاقتراب مني. لا بد أنك لست في بداية الطريق وأني لست أول من تحاول إفساده!» كان عزائي الوحيد أني سأشهد تحطيم «موريل» وآل «فيردوران» على يد السيد «دو شارلوس». فقد كنت هدفاً لغضبه المجنون لما قل عن ذلك ألف مرة، وما كان أحد في مأمن من ذاك الغضب، وما كان ملك ليخيفه. لكنما حدث هذا الشيء الغريب. فقد شهدنا السيد «دو شارلوس» أبكم ذاهلاً يقيس مدى المصيبة التي تحل به دون أن يدرك سببها، ولا ينبس ببنت شفة وينقل عينيه على التوالي على الحاضرين كافة بهيئة المتسائل الحانق المتوسل والذي كان يبدو أقل سؤالاً عما جرى منه عما ينبغي أن يجيب به. فربما كان العذاب الحالي والخشية على وجه الخصوص من العذابات المقبلة هو ما كان يحبس الكلام في صدره (وهو يرى أن السيد والسيدة «فيردوران» يشيحان بعينيهما عنه وأن لن ينجده أحد): أو هم، لما لم يجمح به الخيال ويصطنع لنفسه غيظاً، ولم يتفق له حنق جاهز بين يديه (فقد كان، هو المفرط الحساسية العصبي المصاب بالهيستيريا، صاحب نزق حقيقي لكنه أخو شجاعة كاذبة، بل شرير زائف، مثلما سبق أن اعتقدت على الدوام وما كان يجعله في نظري محبباً إلى حد ما، ولم يكن يملك الردود الطبيعية التي لأخ شرف لحقت به إهانة)، أمسكوا به وأوسعوه ضرباً مفاجئاً لحظة هو أعزل من السلاح: أو كان يحس أنه في وسط غير وسطه، أقل ارتياحاً وأقل شجاعة مما لعله كان في الضاحية. ومهما يكن من أمر فإن هذا السيد العظيم، في هذه الصالة التي كان يزدريها، هذا السيد العظيم (وما كان التفوق على العوام أكثر ملازمة له في الأساس مما كان لدى أحد أجداده الممتلئ قلقاً أمام المحكمة الثورية) لم يفلح، وقد شلت أعضاؤه جميعها ولسانه، إلا في إلقاء نظرات مذعورة في كل جانب، ساخطة جراء العنف الذي يكيلونه له، متوسلة بقدر ما هي متسائلة. مع أن السيد «دو شارلوس» كان يملك كل الإمكانات لا

على صعيد البلاغة فحسب، بل على صعيد الجرأة أيضاً حينما يتملكه حنق كان يغتلي منذ فترة طويلة في صدره على أحدهم فيسمره من يأس جراء أكثر الكلمات دموية في حضرة النخبة من الناس وقد ثارت ثائرتهم وما ظنوا يوماً أنه يمكن بلوغ هذا الحد. كان السيد «دو شارلوس» في هذه الحالات مستثار الفؤاد يتوثب اهتياجاً بنوبات عصبية حقيقية يرتجف الجميع رعدة منها. لكنما كان يملك في تلك الحالات زمام المبادرة ويهاجم ويقول ما يحلو له (مثلما كان «بلوك» يعرف كيف يهزأ من اليهود ويحمرّ خجلاً إن ذكروا اسمهم في حضرته). وهؤلاء الناس الذين كان يكرههم إنما كان يكرههم لأنه يظنهم يزدرونه. ولعله، لو كانوا لطفاء تجاهه، لعله كان عانقهم بدلاً من انتشائه سخطاً عليهم. ولم يسع هذا الخطيب المهذار، في ظرف شديد القسوة إلى هذا الحد في فجائيته، إلا أن يتمتم: «ماذا يعني ذلك؟ وما الذي يجري؟» وكادوا لا يسمعون صوته. هذا وإن إيمائية الذعر الأزلية قد كانت قليلة التغير إلى حد أن هذا السيد العجوز الذي تقع له حادثة مكدرة في صالة باريسية كان يكرر دون علم منه بضعة المظاهر البشعة التي كان فن النحت اليوناني في العصور الأولى يخط فيه بأناقة رعب حوريات الغاب اللواتي يطاردهن الإله «بان»[1].

إن السفير الفاقد الحظوة ورئيس المكتب المحال على المعاش ورجل المجتمعات المعامل بجفاء والعاشق المبعد إنما يتفحصون على مدى شهور أحياناً الحادثة التي حطمت آمالهم، فهم يقلبونها ويعيدون مثل قذيفة أطلقت ولا تعلم من أين ولا من أطلقها ولولا القليل لكانت نيزكاً. ربما ودوا أن يعرفوا العناصر المكونة لهذا المقذوف الغريب الذي انقض عليهم، وأن يعلموا أية رغبات شريرة يمكن تعرفها فيها. الكيميائيون يملكون التحليل على الأقل، والمرضى الذين يعانون مرضاً لا يعرفون

---

(١) بان Pan: إله الرعاة في الميثولوجيا اليونانية، ينفخ في نايه بصفته هذه، وصوّره الأقدمون بساقي وقرني وشعر تيس.

منشأه يمكن أن يستقدموا الطبيب. والشؤون الجرمية تكشف ملابساتها إلى حد ما على يد قاضي التحقيق. لكن أعمال أبناء جنسنا نادراً ما نكتشف دوافعها. وهكذا لم يبصر السيد «دو شارلوس»، كيما نستبق الأيام التي تلت هذه الأمسية التي سنعود إليها، لم يبصر في موقف «شارلي» إلا شيئاً واحداً جلياً. ولا بد أن «شارلي» هذا، الذي غالباً ما هدد البارون برواية الهوى الذي كان يبعثه في نفسه، استغل في سبيل أن يفعل ذلك ظنه أنه نجح الآن نجاحاً كافياً ليستطيع التحليق بجناحيه. ولا بد أنه روى عن كل شيء للسيدة «فيردوران» يدفعه العقوق المحض. ولكن كيف أفسحت هذه الأخيرة في المجال لخداعها (فإن البارون، وقد عزم على الإنكار، كان مقتنعاً مذ ذاك أن المشاعر التي ربما أخذت عليه كانت من نسج الخيال؟) وقد قام أصدقاء للسيدة «فيردوران»، ربما شغفوا هم أيضاً بـ«شارلي»، بتهيئة الأرضية. وسطّر السيد «دو شارلوس» نتيجة لذلك في الأيام التالية رسائل مريعة لعدد من «الخلّص» الأبرياء تماماً والذين ظنوا أنه جنّ جنونه. ثم مضى يقص على السيدة «فيردوران» قصة طويلة مؤثرة لم يكن لها على أية حال الأثر الذي كان يتوخاه. فإن السيدة «فيردوران» كانت من جهة تردد على مسامع البارون: «ما عليك إلا ألّا تهتم به من بعد، احتقره فإنه طفل». وما كان البارون يلهث إلا خلف مصالحه. وبغية إحلالها، فيما يحجب عن «شارلي» كل ما ظن أنه مضمون له، كان يطالب السيدة «فيردوران» من جهة أخرى ألّا تستقبله من بعد، وهو ما واجهته برفض حَمَلَ إليها رسائل غاضبة تهكمية لاذعة خطها السيد «دو شارلوس». ولم يقم السيد «دو شارلوس»، وهو ينتقل من افتراض إلى آخر، بالافتراض الصحيح في يوم وقوامه أن الضربة لم تجئ على الإطلاق من يد «موريل». ولعله كان استطاع في الحقيقة معرفة الأمر بأن يطلب من «موريل» حديثاً على مدى بضع دقائق. لكنه كان يحكم أن ذلك ينافي كرامته ومصالح حبه. فقد أهين وهو ينتظر تفسيراً لذلك. ثم إن هناك على الدوام تقريباً فكرة أخرى ترتبط بفكرة الحديث الذي ربما أمكن أن يجلو سوء التفاهم،

فكرة تحول لسبب، أي سبب، دون أن نرتضي ذاك الحديث. فإن من هان وأظهر ضعفه في عشرين مناسبة سوف يبدي اعتزازاً في المرة الحادية والعشرين، المرة الوحيدة التي قد يكون من المفيد أن لا يكابر في وقفة متغطرسة وأن يبدد خطأ ستمتد جذوره أكثر فأكثر لدى الخصم لغياب التكذيب. أما في ما يخص الجانب المجتمعي للحادثة، فقد شاع أن السيد «دو شارلوس» طرد من منزل آل «فيردوران» فيما كان يحاول اغتصاب موسيقي شاب. وكان من شأن هذا الخبر إن لم يدهش القوم من أن السيد «دو شارلوس» لم يعد يرتاد منزل آل «فيردوران»، فإن التقى مصادفة في مكان ما أحد الخلّص الذين سبق له أن ارتاب بهم وشتمهم، ولما كان هذا الأخير يحقد على البارون الذي لم يكن يحييه بدوره، فإن الناس ما كانوا يعجبون إذ يدركون أن ليس من يعتزم في العشيرة تحية البارون من بعد.

وفيما كان السيد «دو شارلوس» يتخذ، وقد صعقته على الفور الكلمات التي تفوّه بها «موريل» وموقف المعلمة منه، وقفة الحورية تحت وطأة الرعب الشديد، كان السيد والسيدة «فيردوران» قد اختليا في الصالون الأول، وكأنما تلك علامة قطيعة دبلوماسية، مخلّفين السيد «دو شارلوس» وحيداً فيما كان «موريل» يلف كمانه فوق المنصة. وقالت السيدة «فيردوران» لزوجها بلهجة نهمة: «هيا، قصّ علينا كيف حصل ذلك؟» فقال «سكي»: «لست أعلم ما قلت له فقد بدا عليه التأثر الشديد وما كانت الدموع تجول في عينيه». وتظاهرت السيدة «فيردوران» بأنها لم تفهم وقالت: «أظن أن ما قلته كان غير ذي بال على الإطلاق في ما يخصه»، قالت بواحدة من تلك الحيل التي لا تخدع كل الناس على أية حال، وكيما ترغم النحات على تكرار أن «شارلي» كان يبكي، وهي دموع كانت تنتشي بها المعلمة بقدر من الكبرياء أكبر من أن تعتزم المجازفة بأن يجهلها هذا أو ذاك من الخلّص ممن أساء السمع. «لا، لا، بالعكس، كنت أبصر دموعاً سخية تلتمع في عينيه»، يقول النحات بلهجة خفيضة باشة لمناجاة يبطنها السوء فيما ينظر جانباً ليتأكد أن «موريل» لا يزال على

المنصة ولا يمكنه أن يسمع الحديث. لكنما كان ثمة شخص يسمعه وسوف يرد وجوده ما إن ينتبه له، سوف يرد لـ«موريل» واحداً من الآمال التي فقدها. إنها ملكة نابولي التي نسيت مروحتها فرأت زيادة في اللطف، وهي تغادر أمسية أخرى كانت ذهبت إليها، أن تجيء لتبحث عنها بنفسها. وكانت قد دخلت بهدوء تام وكأنها خجلى وعلى أهبة الاعتذار والقيام بزيارة قصيرة الآن إذ لم يبق أحد هناك. إلا أنهم لم يحسوا بدخولها في غمرة الحادثة التي فهمتها في الحال وأشعلت في صدرها نار الغضب. «يقول «سكي» إن الدمع كان يجول في عينيه، فهل لاحظت ذلك؟ إني لم أبصر دمعاً. لكنه بلى، ها إني أتذكر». تقول مصححة مخافة أن يصدقوا إنكارها. «أما «دو شارلوس» هذا فإنه في وضع محرج ويجدر به أن يتناول مقعداً، فهو متقصف الساقين ويوشك أن يسقط أرضاً»، تقول بقهقهة لا شفقة فيها. وفي هذه اللحظة سارع «موريل» صوبها. وسأل «موريل»: «أليست هذه السيدة ملكة نابولي؟» (مع أنه يعلم أنها هي) وهو يدل على العاهلة التي كانت ماضية باتجاه «دو شارلوس». «بعد هذا الذي جرى، لا أملك من بعد، وا أسفي، أن أسأل البارون تعريفها بي». فقالت السيدة «فيردوران»: «انتظر، سأفعل ذلك». وتقدمت باتجاه الملكة التي كانت تتحدث والسيد «دو شارلوس»، يتبعها بعض الخلّص، فيما عداي وعدا «بريشو» إذ سارعنا في الذهاب لطلب حاجاتنا والمضي خارجاً. وكان السيد «دو شارلوس» قد ظن بأن تحقيق رغبته الكبيرة في أن يجري تقديم «موريل» لملكة نابولي ما كان يمكن أن يحول دونه سوى موت الملكة اللامحتمل. لكننا إنما نتمثل المستقبل على أنه انعكاس للحاضر يسقط في فضاء خالٍ فيما هو النتيجة القريبة جداً في الغالب لأسباب تخفى علينا في أكثرها. وما كانت انقضت ساعة على ذلك فإذا السيد «دو شارلوس» كان تخلّى عن كل شيء في سبيل أن لا يجري تعريف الملكة بـ«موريل». وقامت السيدة «فيردوران» بانحناءة أمام الملكة. وإذ رأت أن الملكة بدت وكأنها لا تتعرفها: «أنا السيدة «فيردوران»، إن جلالتك لا تتعرفني».

وتقول الملكة: «تماماً»، وهي ماضية في التحدث إلى السيد «دو شارلوس» بصورة طبيعية وبمظهر ساهٍ تماماً إلى حد شكّت معه السيدة «فيردوران» إن كانت «تماماً» هذه موجهة إليها وقد قيلت بنبرة رائعة في شرودها انتزعت من السيد «دو شارلوس» وهو في غمرة ألم العاشق ابتسامة امتنان خبيرة نهمة في مجال الوقاحة. كان «موريل» يبصر من بعيد الإعدادات القائمة للتعريف به فاقترب. ومدت الملكة ذراعها للسيد «دو شارلوس». لقد كانت غاضبة منه كذلك، ولكن لمجرد أنه لا يواجه بحزم أكبر الحقراء من شاتميه، وكست حمرة الخجل من أجله وجهها لتجرؤ عائلة «فيردوران» على معاملته على هذه الصورة. كان ما أبدت لهما من عطف زاخر بالبساطة منذ بعض ساعات والاعتزاز الوقح الذي تنتصب به أمامهم يصدران من ذات النقطة في فؤادها. كانت الملكة امرأة تفيض طيبة، لكنها تفهم الطيبة أول ما تفهم في صورة التعلق الذي لا يتزعزع بالناس الذين تحبهم، بذويها، بسائر أمراء عائلتها، ومن بينهم السيد «دو شارلوس»، ثم بسائر ناس البورجوازية أو الشعب الأكثر اتضاعاً مما يعرفون كيف يجلون من كانت تحبهم ويحملون تجاههم مشاعر طيبة. وإما أبدت تعاطفاً مع السيدة «فيردوران» بما هي امرأة تحمل هذه الميول الفطرية الجيدة. وليس من شك أن هذا تصور ضيق محافظ بعض الشيء وأكثر فأكثر تقادماً في مجال الطيبة. لكن ذلك لا يعني أن الطيبة كانت أقل صدقاً لديها وأقل حرارة. والقدماء ما كان حبهم للتجمع البشري الذي كانوا يبذلون النفس في سبيله، لأنه لم يكن يتجاوز حدود المدينة، ولا أناس اليوم للوطن، أقل من الذين سيحبون الولايات المتحدة للأرض جمعاء. قريباً جداً مني، مثال والدتي التي لم تفلح السيدة «دو كامبرمير» والسيدة «دو غيرمانت» قط في حملها على المشاركة في أي عمل خيري، في أي مشغل وطني، على أن تكون في يوم بائعة أو مشرفة على أعمال خيرية. ما أبعدني عن أن أقول إنها كانت على حق ألا تباشر عملاً إلا بعدما تكلم قلبها أولاً، وأن تخص أسرتها وخدمها والمساكين الذين وضعتهم المصادفة على دربها

بكنوز الحب والكرم، لكني أعرف أن هذه الكنوز ومثلها كنوز جدتي كانت لا تنضب وقد تجاوزت كثيراً كل ما استطاعت وفعلت السيدتان «دو غيرمانت» أو «دو كامبرمير» في يوم. إن حالة ملكة نابولي مختلفة تماماً، لكنما لا بد من الإقرار بأن الأشخاص المحببين إلى النفس لم تكن تتصورهم على الإطلاق كالذي هم عليه في روايات دوستويفسكي التي سبق أن أخذتها «ألبيرتين» في مكتبتي واحتكرتها، وأعني بثياب طفيليين متزلفين لصوص سكيرين تافهين تارة وطوراً وقحين فاسقين. وقتلة إن دعت الحاجة. والأضداد على أية حال تتلاقى، بما أن الرجل النبيل القريب المقرب المهان الذي تبغي الملكة الدفاع عنه كان السيد «دو شارلوس»، عنينا، على الرغم من كرم المحتد وسائر القرابات التي كانت تربطه بالملكة، رجلاً يحيط بفضيلته الكثير من الرذائل. وقالت للسيد «دو شارلوس»: «لست فيما يبدو على ما يرام يا ابن العم العزيز، فهيا استند إلى ذراعي، وكن على يقين أنها ستكون لك سنداً دائماً، وهي في هذا السبيل متينة إلى حد كافٍ». ثم رفعت باعتزاز عينيها أمامها (وكان في مواجهتها، كما روى لي «سكي» السيدة «فيردوران» و«موريل») «تعلم أنها أوقفت فيما مضى الأوغاد عند حدهم في «غاييت»[1] وسوف تكون سوراً لك». هكذا خرجت الشقيقة المظفرة للإمبراطورة «أليزابيث» تسحب خلف ذراعها البارون ودون أن تدعهم يعرفونها بـ«موريل».

ربما أمكننا الظن، مع الطبع المريع الذي يميز السيد «دو شارلوس» وصنوف الاضطهاد التي كان يرهب بها حتى أقارب له، أنه يزمع في أعقاب هذه الأمسية أن يطلق غيظه من عقاله ويقوم بعمليات انتقامية ضد آل «فيردوران». ولم يكن شيء من ذلك، وكان السبب الرئيسي بالتأكيد أن البارون أصيب بالبرد بعد بضعة أيام وألمّ به واحد من تلك الالتهابات

(١) Gaète: (أو غاييتا) الإيطالية، حاصرها «غاريبالدي» وشاركت في الدفاع عنها ملكة نابولي.

الرئوية الإنتانية التي كانت كثيرة الحدوث آنذاك فحكم أطباؤه طويلاً وحكم هو نفسه أنه قاب قوسين أو أدنى من الموت ثم مكث عدة شهور معلقاً بين الحياة والموت. فهل كان ثمة مجرد انتقال فيزيائي وإحلال داء مختلف محل العصاب الذي جعله حتى ذاك ينسى نفسه حتى في عربدات الغضب؟ نفرط في التبسيط إن ظننا أنه لم يأخذ قط على محمل الجد آل «فيردوران» على الصعيد الاجتماعي ما كان بمقدوره أن يحقد عليهم كما يحقد على نظرائه، مثلما نفرط في التبسيط أيضاً إن ذكرنا بأن العصبيين الذين يثورون في كل مناسبة على أعداء وهميين غير مسيئين يضحون على عكس ذلك غير مؤذين ما إن يباشر أحدهم الهجوم عليهم وأنك تهدئهم بإلقائك الماء البارد على وجوههم أفضل مما تفعل بمحاولتك إقامة البرهان على بطلان شكاواهم. لكنما ينبغي على الأرجح ألا نبحث في ظاهرة الانتقال عن تفسير لغياب الحقد هذا، بل بالأحرى في الداء عينه، فقد كان يسبب للبارون صنوفاً من التعب عظيمة إلى حد لا يلبث لديه معه إلا القليل من الوقت للتفكير بآل «فيردوران». لقد كان نصف مائت. كنا نتحدث عن الهجوم، فحتى تلك التي لن يكون لها سوى آثار بعد الممات إنما تقتضي، إن ابتغيت إعدادها إعداداً لائقاً، التضحية بقسم من قواك. وقد بقي أقل القليل منها للسيد «دو شارلوس» للقيام بنشاط الإعداد. كثيراً ما يتحدثون عن أعداء ألداء يعودون فيفتحون عيونهم ليبصر أحدهم الآخر عند دنو الأجل ثم يطبقونها من جديد تغمرهم السعادة. لا بد أن هذه الحالة نادرة ما عدا حينما يفاجئنا الموت في ذروة الحياة. فإنما ترانا على العكس لا نهتم، حين لا يظل لدينا ما نخسره، بمخاطر لعلنا في فورة الحياة كنا ركبناها بصورة طائشة. إن روح الانتقام جزء لا يتجزأ من الحياة، وإنه ليهجرنا في الكثير الغالب - على الرغم من استثناءات هي، في صميم الطبع عينه كما سنرى، تناقضات بشرية - على عتبة الموت. كان السيد «دو شارلوس»، بعدما يفكر حيناً بآل «فيردوران»، يحس أن التعب بلغ منه مبلغاً عظيماً فيستدير صوب الجدار ولا يفكر بشيء من بعد. وليس يعني

ذلك أن يكون فقد بلاغته، لكنها كانت تقتضيه جهوداً أقل. كانت لا تزال تجري كانسياب الماء ولكنها تغيرت. فهي ليست من بعد، وقد جردت من مظاهر العنف التي زوقتها كثيراً، سوى بلاغة يقرب أن تكون صوفية تزينها أقوال وادعة، وأمثال من الإنجيل، وتسليم ظاهري بالموت. كان يتكلم على وجه الخصوص في الأيام التي يظن أنه نجا فيها فيما ترده الانتكاسة إلى الصمت. تلك الوداعة المسيحية التي انتقل إليها عنفه الرائع (مثلما انتقلت إلى «استير» عبقرية «أندروماك»[1]، وما أشد اختلافها عنها) كانت تثير إعجاب من يحيطون به. ولعلها كانت أثارت إعجاب آل «فيردوران» أنفسهم الذين ما كان وسعهم حجب النفس عن عشق رجل جعلتهم عيوبه يمقتونه. صحيح أن ثمة أفكاراً كانت تطفو على السطح وليس فيها من المسيحية سوى المظهر. فقد كان يتوسل إلى رئيس الملائكة جبرائيل أن يجيء ويبشره، مثلما فعل بالنبي[2]، متى يجيء المسيح. ثم يقطع القول بابتسامة عذبة موجهة ويضيف: «لكن ينبغي ألا يطالبني رئيس الملائكة كما فعل بدانيال بأن أصبر «سبعة أسابيع واثنين وستين أسبوعاً» إذ أكون قضيت قبلها». وكان من ينتظره هكذا «موريل»، وكان، إذ يجمع وسائل أكثر إنسانية (كحال البابوات المرضى الذين لا يفوتهم، فيما يطلبون إقامة القداديس، أن يرسلوا في طلب طبيبهم)، كان يلمح لزواره أنه، إن رد له «بريشو» طوبيا الشاب على جناح السرعة، فربما ارتضى رئيس الملائكة روفائيل أن يعيد له بصره كما فعل لوالد طوبيا أو في بركة الغنم في «بيت سايدا»[3]. لكن النقاء الأخلاقي في أقوال السيد «دو شارلوس» أضحى، على الرغم من هذه الردات الإنسانية، لا يقل عذوبة لذلك. فالغرور

(١) *Esther* و*Andromaque*: مسرحيتان لكبير المسرحيين الفرنسيين في القرن السابع عشر «جان راسين»، الثانية مقتبسة من التاريخ اليوناني، والأولى من قصص الكتاب المقدس.

(٢) المقصود هو النبي دانيال من العهد القديم.

(٣) البركة التي شفى فيها المسيح الأعمى (بركة سلوان في الإنجيل).

والنميمة وجنون الأذية والكبرياء، كل ذلك كان قد زال. كان السيد «دو شارلوس» قد ارتفع أخلاقياً إلى ما يتجاوز كثيراً المستوى الذي كان يعيش فيه في الماضي. لكن هذا التحسن الأخلاقي، الذي كان فنه الخطابي قادراً على أية حال أن يضلل إلى حد ما مستمعيه الذين رقّ قلبهم حول حقيقته، هذا التحسن زال مع المرض الذي عمل في سبيله. وكرّ السيد «دو شارلوس» على منحدره بسرعة سوف نراها متدرجة في تناميها. لكن موقف عائلة «فيردوران» منه لم يعد من بعد سوى ذكرى متباعدة إلى حد ما وقد حالت غضبات أكثر قرباً دون إذكائها.

وكيما نعود إلى الوراء، إلى أمسية آل «فيردوران»، فإن السيد «فيردوران» قال لزوجته في ذلك المساء حينما لبث أصحاب المنزل وحدهم: «تعلمين لماذا لم يأت «كوتار»؟ إنه بالقرب من «سانييت» الذي فشلت عمليته في البورصة لاستدراك خسارته. لقد أصيب «سانييت» بأزمة قلبية حين علم أنه لم يعد يملك فرنكاً واحداً وأن ديونه قاربت المليون».

- «ولكن ما الذي دفعه إلى اللعب؟ يا للحماقة! إنه أقل من خلق لذلك. وإنه لم يسلم من الضرر من كان أكثر دهاء منه وهو كان متهيأ ليخدعه الجميع». وقال السيد «فيردوران»: «هذا أمر مفروغ منه، فإننا نعلم منذ زمن طويل أنه معتوه. لكن النتيجة ماثلة أمامنا. فهذا رجل سوف يلقى به غداً خارجاً على يد مؤجره وسوف يجد نفسه في أقصى درجات البؤس، وهو لا يحبه والداه، ليس «فورشفيل» من سيفعل شيئاً من أجله. وفكرتُ حينذاك، وليس بودي أن أفعل شيئاً لا يروقك، لكننا ربما أمكن أن نهيئ له إيراداً صغيراً كي لا ينتبه كثيراً لما حلّ به من دمار وأن يتمكّن من علاج نفسه في بيته».

- «أوافقك الرأي تماماً، حسن جداً أنك فكرت في ذلك. لكنك تقول «في بيته»، وهذا المعتوه قد احتفظ بشقة مرتفعة الإيجار، الأمر ليس ممكناً بعد ولا بد من أن نستأجر له شيئاً بحجرتين. أعتقد أنه لا يزال يحتفظ الآن بشقة من ستة إلى سبعة آلاف فرنك».

- «ستة آلاف وخمس مئة. لكنه متمسك جداً بمنزله. لقد أصيب باختصار القول بأزمة قلبية أولى، وربما لن يمكنه البقاء على قيد الحياة أكثر من سنتين أو ثلاث سنوات. لنفرض أننا سنصرف له عشرة آلاف فرنك على مدى ثلاث سنوات، يبدو لي أن بمقدورنا القيام بذلك. ربما استطعنا مثلاً في هذا العام، بدلاً من استئجار «لا راسبليير» ثانية، أن، نأخذ شيئاً أكثر واضعاً. ويبدو لي، بالنظر إلى دخولنا، أن إطفاء عشرة آلاف فرنك على مدى ثلاث سنوات ليس بالأمر المستحيل».

- «وليكن، بيد أن المزعج في ذلك أن الأمر سيعرف ويضطرنا إلى فعل الشيء نفسه لآخرين».

- «بوسعك الاعتقاد أني فكرت في الأمر. لن أقدم عليه إلا بشرط صريح قوامه أن لا يعرف أحد ذلك. لا، شكراً، لست راغباً أن نضطر لأن نصبح أولياء نعمة الجنس البشري. بعيداً عنا مؤسسة الإحسان! ما أمكن ربما فعله أن نقول له إن هذا قد خلفته له الأميرة «شيرباتوف».

- «وهل يصدق؟ فإنها استشارت «كوتار» في أمر وصيتها».

- «يمكن لدى الاقتضاء المطلق أن نستودع «كوتار» هذا السر، فهو تعوّد سر المهنة ويكسب أموالاً طائلة ولن يكون البتة من أصحاب الخدمات الذين تضطر أن تدفع لهم: بل ربما ابتغى أن يأخذ على عاتقه الجهر بأن الأميرة إنما اتخذته هو وسيطاً. وهكذا يبلغ بنا حتى أن لا نظهر. وسوف يجنبنا ذلك نكد مشاهد التشكرات والتظاهرات والجمل».

وأضاف السيد «فيردوران» كلمة كانت تعني بالتأكيد هذا النوع من المشاهد المؤثرة والجمل التي يودّون تجنّبها، لكن لم يستطيعوا نقلها إليّ نقلاً صحيحاً إذ لم تكن كلمة فرنسية بل واحدة من تلك الكلمات مثلما يتفق منها في العائلات للدلالة على بعض الأشياء، ولا سيما الأشياء المزعجة، لأنهم يريدون على الأرجح أن يكون بوسعهم ذكرها أمام المعنيين دون أن يفهم قولهم. وإنما هذا النوع من التعابير بعامة بقية باقية معاصرة لحالة سابقة في العائلة، فتكون العائلة يهودية مثلاً لفظة طقسية حُرفت عن

معناها، وربما كانت الكلمة العبرية الوحيدة التي لا تزال العائلة، وقد «تفرنست» الآن، تعرفها: وتكون في عائلة متأصلة في ريفيتها كلمة من اللغة الإقليمية، مع أن العائلة لا تتكلم، بل لا تفهم من بعد اللغة الإقليمية: وفي عائلة جاءت من أمريكا الجنوبية ولا تتكلم من بعد سوى الفرنسية، كلمة إسبانية، ولن تبقى الكلمة في الجيل التالي إلا بصفتها واحدة من ذكريات الطفولة. سوف نتذكر تماماً أن ذوينا كانوا على مائدة الطعام يشيرون إلى الخدم الذين يقومون بالخدمة بقولهم هذه الكلمة أو تلك دون أن يفهم الخدم، لكن الأولاد يجهلون ما تعني هذه الكلمة بالضبط، وإن كانت إسبانية أو عبرية أو ألمانية أو من اللغة الإقليمية، بل حتى إن هي انتمت في يوم إلى لغة، أي لغة، ولم تكن اسماً علماً أو كلمة مختلفة تماماً. ولا يمكن جلاء الشك إلا إن اتفق لك شقيق جداً أو ابن عم عجوز لا يزال على قيد الحياة ولا بد أنه استخدم اللفظة نفسها. ولما لم أعرف أي قريب لآل «فيردوران»، فلم يسعني أن أرد الكلمة بصورة صحيحة. ومهما يكن من أمر فقد حملت السيدة «فيردوران» بالتأكيد على الابتسام لأن استخدام هذه اللغة الأقل شيوعاً والأكثر فردية والأعمق سراً من اللغة المعتادة إنما يولي الذين يستخدمونها شعوراً أنانياً لا يخلو البتّة من بعض الارتياح. وبعدما انقضت فترة الجدل هذه اعترضت السيدة «فيردوران» قائلة: «فإن تكلم «كوتار» عن ذلك؟»

- «لن يتكلم». وتكلم إليّ على الأقل، فإني عرفت منه هذه الواقعة بضع سنوات بعد ذلك يوم دفن «سانييت»بالذات. وأسفت أن لم أعرف ذلك من قبل. فلعل ذلك كان قادني بصورة أسرع إلى الفكرة القائلة بأنه ينبغي لنا ألا نحقد في يوم على الناس وألا نحكم عليهم تبعاً لذكر أذية ما لأننا لا نعرف كل ما استطاعت روحهم في فترات أخرى أن تبتغيه بصدق وأن تحقق من خير. وهكذا ترانا نخطئ حتى على صعيد التوقع. ذلك أن الصيغة السيئة التي لاحظناها مرة فقط سوف تعود دون شك. لكن الروح أوفر ثراء من ذاك وتملك صيغاً سوف تعود هي الأخرى لدى هذا الرجل

الذي نرفض ما يبدي من لطف بسبب الأسلوب السيئ الذي لجأ إليه. ولعل كشف السر هذا، من وجهة نظر أكثر فردية، ما كان ليكون دون تأثير فيّ. ذلك أن كشف السر هذا من جانب «كوتار»، لو أنه أقدم عليه قبل ذلك، كان بدد، إذ هو يغير رأيي حول «فيردوران» الذي كنت أظنه يوماً بعد يوم أكثر القوم أذية، الشكوك التي تساورني حول الدور الذي يمكن أن تقوم به عائلة «فيردوران» بين «ألبيرتين» وبيني. كان بددها ربما خطأ على أي حال، فلئن توافرت فضائل للسيد «فيردوران»، غير أنه لم يكن لذلك أقل تنكيداً إلى حد الاضطهاد الأشد شراسة، وشديد التمسك بالسيطرة داخل العشيرة الصغيرة إلى حد لا يتراجع معه عن أسوأ الأكاذيب وعن إثارة الأحقاد التي يتعذر تبريرها أكثر ما يتعذر بغية فصم روابط بين الخلّص ما كان هدفها الحصري تقوية المجموعة الصغيرة. كان رجلاً قادراً على التجرد وعلى صنوف من الجود لا يشوبها التباهي، وليس يعني ذلك اضطراراً رجلاً حساساً أو رجلاً محبباً أو متشدداً في محاسبة النفس أو صادقاً أو طيباً على الدوام. كان لديه على الأرجح طيبة جزئية - ربما لا يزال فيها شيء من الأسرة الصديقة على شقيقة جدتي - قبل أن أتعرفها في هذه الواقعة، كما هو حال أميركا أو القطب الشمالي قبل «كولومبوس» أو «بيري». لكن طبيعة السيد «فيردوران» أبرزت لي مع ذلك، حين اكتشافي، جانباً جديداً غير متوقع. وقد خلصتُ من ذلك إلى صعوبة تقديم صورة ثابتة عن الطباع والمجتمعات والأهواء سواء بسواء. فالطبع لا يتغير أقل منها وإن أردنا أن نضع صورة لما فيه من أمر ثابت نراه يقدم للعدسة المربكة، يقدم على التوالي وجوهاً مختلفة (تفترض ضمناً أنه لا يفلح في الحفاظ على سكونه بل هو يتحرك).

ولما رأيت الساعة وخشيت أن تحس «ألبيرتين» بالسأم، سألت «بريشو» وأنا خارج من أمسية آل «فيردوران» أن يتفضل بادئ الأمر بإيصالي إلى المنزل، وتعود به عربتي فيما بعد. وهنأني أن أعود هكذا إلى البيت مباشرة، وهو لا يعلم أن فتاة كانت تنتظرني في المنزل، وأن أنهي

في وقت مبكر إلى هذا الحد وبهذا القدر من التعقل أمسية ما كنت على العكس تماماً إلا أخرت في الواقع بدايتها الحقيقية. ثم كلمني عن السيد «دو شارلوس». ولعل هذا الأخير كان دهش دون شك وهو يسمع الأستاذ، وما ألطفه معه، الأستاذ الذي كان يقول له دوماً: «لا أردد أي شيء البتة»، يتحدث عنه وعن حياته دون أي تحفظ. ولعل دهشة «بريشو» الغاضبة ما كانت ربما لتبدو أقل صدقاً لو أن السيد «دو شارلوس» قال له: «لقد أكدوا لي أنك تتناولني بالسوء». فقد كان «بريشو» بالفعل ميالاً إلى السيد «دو شارلوس» ولو انبغى له أن يعود إلى محادثة تجرى حوله لتذكر مشاعر الوداد التي داخلته تجاه البارون. فيما كان يقول عنه ذات الأشياء التي يقولها الجميع عنه، أكثر منه هذه الأشياء عينها. وما كان ظنّ أنه يكذب إذ يقول: «أنا الذي يتحدث عنك بهذا القدر من الود»، بما أنه كان يحس بعض الود في أثناء حديثه عن السيد «دو شارلوس». كان هذا الأخير يحمل على وجه الخصوص بالنسبة إلى «بريشو» السحر الذي كان الجامعي يطلبه قبل أي شيء آخر في حياة المجتمعات وقوامه أنه يقدم له نماذج حقيقية لما أمكن قبلاً أن يظنه من ابتداع الشعراء. كان «بريشو»، الذي كثيراً ما فسر «**الحوارية الريفية**» الثانية لـ«فيرجيليوس» دون أن يعلم كثيراً إن كان لهذا التصور الخيالي أساس، في الواقع، كان يجد بعد الأوان في التحدث إلى السيد «دو شارلوس» شيئاً من المتعة التي يعلم أن أساتذته السيد «ميريميه» والسيد «رونان» وزميله السيد «ماسبيرو»[1] سبق أن أحسوا بها، أثناء رحلاتهم في إسبانيا وفلسطين ومصر، في أن يتعرفوا عبر المناظر والسكان الحاليين في كل من إسبانيا وفلسطين ومصر الإطار والممثلين الذين لهم باع في المشاهد القديمة التي درسوها في الكتب، وصرح لي «بريشو» في العربة التي كانت تقلنا في عودتنا: «هيا نقل»،

---

(١) Gaston Maspéro: عالم فرنسي من أوائل القرن العشرين مختص بالآثار المصرية.

دونما إهانة نوجهها إلى هذا الشهم الكريم المحتد، إنه ببساطة كلية هائل حينما يعلق على تعاليمه الشيطانية بقريحة يلونها بعض الجنون وبعناد، كدت أقول بطهارة هي لبيض إسبانيا والمهاجرين[١]. أؤكد لك، إن حالفتني الجرأة وقلت مقالة سيادة المطران «دولست»[٢]، أني لا يداخلني السأم حينما أحظى بزيارة هذا الإقطاعي الذي شاء أن يدافع عن «أدونيس» ضد عصر الكفرة الذي نمثله فانساق خلف غرائز جنسه وتهجن ببراءة اللواطي التامة». كنت أصغي إلى «بريشو» ولم أكن وحدي معه. فقد كنت أحس، كما كان أمري على أية حال دون انقطاع منذ أن غادرت المنزل، كنت أحسني، مهما كان الإحساس غامضاً، مرتبطاً بالفتاة التي كانت في هذه الفترة في غرفتها، كنت أحسها، حتى حينما كنت أتحدث إلى هذا أو ذاك في منزل آل «فيردوران»، إحساساً غامضاً إلى جانبي، وأحمل عنها تلك الفكرة الغامضة التي لنا عن أعضائنا ذاتها، وإن اتفق لي أن أفكر فيها فإنما مثلما نفكر بجسدنا ذاته مع ما يعترينا من ضيق لأننا مرتبطون به بعبودية كاملة. وأردف «بريشو» يقول: «يا له «مهذرة» حديث ذاك الرسول حتى ليغذي كل ملحقات **«أحاديث الاثنين»**[٣]! تصور أني علمت منه أن مبحث علم الأخلاق الذي كرمت فيه على الدوام البناء الأخلاقي الأوفر أبهة في عصرنا إنما أوحى به إلى زميلنا المحترم «س» ناقل برقيات فتى. ولا نترددن في الإقرار بأن صديقي اللامع فاته أن يزودنا باسم هذا الفتى في أثناء عروض براهينه. وقد برهن في ذلك عن قدر أكبر من الحياء البشري، أو إن فضلت عن قدر من الامتنان أقل مما أبدى «فيدياس» الذي نقش اسم البطل الرياضي الذي كان يحبه على قاعدة تمثال «جوبيتير الأولمبي». كان البارون يجهل هذه القصة الأخيرة. وغني عن القول إنها

---

(١) الفرع الإسباني لعائلة «بوربون» الفرنسية وكان شعارها الزنبق الأبيض، وقد هاجرت إلى إسبانيا بعد القضاء على الملكية في فرنسا.

(٢) مطران وفيلسوف وواعظ شهير من أواخر القرن التاسع عشر.

(٣) الزاوية التي كان يحررها «سانت بوف» في كل يوم اثنين.

فتنت إيمانه القويم. يسير عليك أن تتصور أنني في كل مرة أحاجج زميلي في أطروحة «دكتوراه» أجد في جدليته، وهي شديدة الإرهاف على أية حال، هذا المزيد من النكهة التي أضافتها صنوف من الكشف المثير في نظر «سانت بوف» إلى أعمال «شاتوبريان» غير المكتملة السرية. ومن يدي زميلنا الذي تقطر حكمته ذهباً لكنه قليل المال انتقل عامل البرقيات إلى يدي البارون («والشرف والأخلاق مصونة»، ويجب أن تسمع اللهجة التي يقولها بها). ولما كان هذا الإبليس أكثر الناس مروءة فقد حصل لمحميه مركزاً في المستعمرات يرسل له هذا الأخير منها، وهو مطبوع على الامتنان، يرسل بين الحين والحين فاكهة ممتازة. ويقدم البارون منها لمعارفه الرفيعي المستوى: واعتلت في وقت مضى قريب جداً ثمار أناناس بعث بها الشاب مائدة رصيف «كونتي»، فيدفع ذلك السيدة «فيردوران» إلى أن تقول، ولا تضمن القول أي خبث: «إن لك إذاً عماً أو ابن شقيق في أميركا يا سيد «دو شارلوس» كي تصلك ثمار أناناس كهذه!» أقرّ أني أكلتها بشيء من المرح وأنا أنشد لنفسي بين الضلوع نشيد لـ«هوراس» الذي كان «ديدرو» شغوفاً بالتذكير به. وإني آخذ باختصار القول، شأن زميلي «بواسييه» في تنقله بين «بالاتينو» و«تيبور»[١]، من حديث البارون فكرة أكثر حيوية إلى حد بعيد وأفضل مذاقاً عن كتاب عصر «أغسطس». دعنا حتى لا نتحدث عن كتاب عصر الانحطاط ولا نعودن إلى الوراء حتى اليونانيين مع أني قلت ذات مرة لهذا السيد الفاضل «دو شارلوس» إني أحسّ نفسي بالقرب منه كأنما أفلاطون في منزل «أسبازيا»[٢]. وكنت، والحق يقال، قد رفعت إلى حد كبير مستوى الشخصيتين، وكان مثالي،

---

(١) Palatino وTibur: هضبة من هضاب روما، والثانية مدينة قريبة في منطقة اللاكسيوم.

(٢) امرأة ذات نفوذ ومشورة عاشت في عهد «بيريكليس» وكانت رفيقته، وقد ارتاد بيتها عدد كبير من الأدباء يستوحونها بعض ما يقولون.

كما يقول «لافونتين»، مأخوذاً «من حيوانات أصغر حجماً». ومهما يكن من أمر فلست تفترض، كما أتصور، أن البارون استاء لذلك فلم أشهده في يوم بمثل تلك السعادة البريئة. وحملته نشوة طفولية إلى الخروج عن هدوئه الأرستقراطي، فإذا هو يصيح مبتهجاً: «يا لهم من متملقين جماعة السوربون أولئك جميعاً! يا عجبي أن انبغى أن أنتظر بلوغي هذا السن كيما أشبه بـ«أسبازيا»! لوحة قديمة على شاكلتي أنا! إليّ يا شبابي!» وددت لو أنك رأيته يقول ذلك، وقد «تبودر» فأفرط كعادته، متصنعاً في مثل سنه كمتأنق شاب. وهو فضلاً عن ذلك أفضل إنسان في العالم خلف هواجسه الأنسابية. ولكل هذه الأسباب ربما أسفت أشد الأسف أن تكون قطيعة هذا المساء نهائية. كان ما أدهشني هي الطريقة التي ثار بها الشاب، مع أنه سبق أن سلك إزاء البارون منذ بعض الوقت سلوك متعصب له، سلوك تابع يكاد لا ينبئ بذلك التمرد. أملي في كل حال، حتى إن انبغى أن لا يعود البارون إلى رصيف «كونتي» من بعد، (أبعدت الآلهة نذير الشؤم هذا!) أن لن يبلغ إلى هذا الانشقاق. فإنه يتفق لكلينا فائدة جمة في المبادلة التي نقوم بها بين معرفتي الهينة وخبرته. (وسوف نرى بالفعل أن مودة السيد «دو شارلوس» لـ«بريشو»، إن هو لم يبدِ حقداً شديداً على الجامعي، فإنها قد تراجعت تراجعاً شبه كامل لتمكنه من الحكم عليه دون أي تساهل). وإني أقسم لك أن المبادلة تفتقر إلى المساواة إلى حد أني، حينما يضع البارون بين يدي ما علمته إياه الحياة، لا يسعني موافقة «سيلفستر بونار» على أن المكتبة لا تزال المكان الأفضل الذي يصنع فيه المرء حلم الحياة».

وكنا وصلنا أمام بابي. ونزلت من العربة كي أزود الحوذي بعنوان «بريشو». فأبصرت من الرصيف نافذة غرفة «ألبيرتين»، هذه النافذة التي كانت فيما مضى دائمة السواد حين لم تكن تقطن البيت، وقد حززتها أنوار الكهرباء الداخلية التي تقطعها مصمتات المصاريع، حززتها من عاليها إلى أسفلها بمتوازيات ذهبية. تلك الطلاسم السحرية، بقدر ما كانت واضحة

في ما يخصني وتخط أمام فكري الهادئ صوراً محددة شديدة القرب وسوف تكون عما قليل ملك يدي، كانت خفية على «بريشو» الذي ظلّ في العربة فاقد البصر أو يكاد، ولعلها كانت ظلت على أي حال غير مفهومة لديه بما أن الأستاذ، شأنه في ذلك شأن الأصدقاء الذين كانوا يجيئون للقائي قبل العشاء حينما تكون «ألبيرتين» قد عادت من نزهتها، كان يجهل أن فتاة، هي ملكي وحدي، تنتظرني في غرفة تجاور غرفتي، وانطلقت العربة. وبقيت مدى لحظة وحيداً على الرصيف. أجل، تلك التحزيزات المضيئة التي كنت أبصرها من تحت، والتي كانت بدت لآخر غيري سطحية كلها، كنت أضفي عليها تماسكاً وامتلاء وصلابة بالغة بسبب كامل الدلالة التي كنت أضعها من ورائها في كنز إن شئت، كنز لا يرتاب به الآخرون، كنت خبأته هنا وكانت هذه الأشعة الأفقية تنبعث منه. لكنه كنز تخليت في مقابله عن حريتي والعزلة والفكر. فلو لم تكن «ألبيرتين» فوق، بل حتى لو لم أبغ إلا توفير المتعة لي لبادرت في طلبها إلى نساء مجهولات ربما كنت حاولت النفاذ إلى حياتهن، ربما في البندقية، أو على الأقل في زاوية من زوايا ليل باريس. أما الآن فإن ما كان ينبغي أن أفعله حينما تحل بالنسبة إليّ ساعة الملاطفات لم يكن الذهاب في رحلة، بل حتى لم يكن في الخروج وإنما في العودة. والعودة لا بغية أن يلفي المرء نفسه على الأقل وحيداً، أن يجد نفسه على الأقل، بعدما غادرت الآخرين الذين كانوا يزودونك من الخارج بغذاء فكرك، مرغماً على البحث عنه في ذاته، لكنما على العكس أقل وحدة مما كنت في منزل آل «فيردوران» إذ كان سيستقبلني الشخص الذي كنت أتخلى بين يديه عن شخصي وأسلمه إياه أتم ما يكون التسليم دون أن يتسنى لي لحظة متسع من الوقت للتفكير بي، حتى دون أن أكلّف نفسي التفكير بها بما أنها ستكون إلى جانبي. وهكذا بدا لي، وأنا أرتفع مرة أخيرة بعيني من الخارج صوب نافذة الغرفة التي سأكون فيها عما قليل، إني أرى الشبيكة المضيئة التي تزمع أن تطبق عليّ والتي صنعتُ بنفسي قضبانها الذهبية التي لا ترحم من أجل عبودية أبدية.

لم يسبق أن قالت لي «ألبيرتين» في يوم إنها ترتاب بأني أغار عليها وأهتم بكل ما تفعل، والكلمات الوحيدة، وهي قديمة بعض الشيء في الحقيقة، المتبادلة فيما بيننا بخصوص الغيرة كانت تبدو كأنما تثبت العكس. كنت أذكر أني، ذات مساء جميل مقمر، في بداية علاقتنا، وفي إحدى المرات الأولى التي اصطحبتها فيها إلى بيتها، ولعلي كنت رغبت بالقدر نفسه أن لا أفعل وأن أفارقها للجري خلف أخريات، قلت لها: «تدرين إن كنت أقترح عليك أن أصحبك إلى البيت فما ذلك لغيرة في النفس، وإن كان لديك ما تفعلينه ابتعدتُ دون إثارة الانتباه»، وأجابتني قائلة: «آه! أدري تماماً أنك لست غيوراً وأن الأمر واحد في نظرك، ولكن ليس لدي ما أعمله إلا البقاء معك». وفي مرة ثانية، وكان ذلك في «لا راسبليير» حيث جاهر السيد «دو شارلوس»، فيما يلقي على «موريل» نظرة مختلسة، بشيء من التلطف الرقيق تجاه «ألبيرتين»، قلت لها: «حسن، آمل أنه ضمك وقرّب إلى حد ما». ولما أضفت بلهجة نصف ساخرة: «لقد كابدت صنوف عذاب الغيرة جميعاً»، قالت «ألبيرتين» وهي تستخدم اللغة الخاصة إما بالوسط السوقي الذي طلعت منه، وإما بالأكثر سوقية بعد والذي كانت تتردد عليه: «يا لطف الله على السخرية! أعلم تماماً أنك غير غيور. وأنت بادئ الأمر قلت لي ذلك، ثم إن الأمر بادٍ للعيان ويحك!» ولم تقل مذ ذاك في يوم أنها غيرت رأيها، لكن لا بد تشكلت لديها بهذا الشأن أفكار جديدة كثيرة كانت تخفيها عني، إنما كان بوسع أية مصادفة أن تكشفها على الرغم منها، ذلك أني في ذلك المساء كاد لا يتسع لي الوقت، حينما قلت لها، بعدما عدت وبعدما مضيت فاصطحبتها من غرفتها وجئت بها إلى غرفتي، قلت لها (بشيء من الضيق لم أدركه بنفسي، إذ كنت قد أعلنت لـ«ألبيرتين» أني سأمضي إلى عالم المجتمعات وقلت لها إني لا أعلم إلى أين، ربما إلى منزل السيدة «دو فيلباريسيس» وربما إلى منزل السيدة «دو غيرمانت» وربما إلى منزل السيدة «دو كامبرمير»، وصحيح أني بالتأكيد لم أسم آل «فيردوران»): «احزري من أين

أجيء؟ من منزل آل «فيردوران»، وما كان يتسع لي زمن النطق بهذه الكلمات حتى أجابتني «ألبيرتين»، وقد تكدر وجهها، أجابتني بهذه الكلمات التي بدا لي أنها تنفجر من تلقاء ذاتها بقوة لم تستطع احتواءها: «كنت أتوقع ذلك».

- «ما كنت أدري أنك ستنزعجين من ذهابي إلى منزل آل «فيردوران». (صحيح أنها ما كانت تقول لي إن الأمر يزعجها، لكن ذلك كان بادياً للعيان. وصحيح أيضاً أني لم أقل في نفسي إن الأمر سوف يزعجها، لكنما بدا لي أمام تفجر غضبها وأمام هذه الأحداث التي يظهرها لنا نوع من الرؤية المزدوجة الاستذكارية وكأنما سبق أن كانت معروفة لدينا في الماضي، بدا لي أنه لم يسعني في يوم توقع غير ذلك).

- «أنزعج؟ وما عسى يهمني ذلك؟ الأمر واحد عندي. أما كان ينبغي أن تكون عندهم الآنسة «فانتوي»؟ فقلت لها وقد خرجت عن طوري لدى سماع هذه الكلمات: «لم تقولي لي إنك التقيت السيدة «فيردوران» في ذلك اليوم»، لأبدي لها أنني أكثر اطلاعاً مما تظن. وسألت تقول: «أتراني التقيتها؟»، تقول بلهجة حالمة، لنفسها كما تحاول تجميع ذكرياتها، ولي كما لو كنت أنا من يستطيع أن يعلمها بذلك: ودونما شك كيما أقول ما أعرفه، وربما كذلك لكسب الوقت قبل أن تعطي جواباً صعباً. لكني أقل انشغالاً بالآنسة «فانتوي» مني بخشية سبق أن لامست فؤادي ولكنها كانت تتملكني بقوة أكبر. كنت أظن حتى لدى عودتي أن السيدة «فيردوران» قد ابتدعت بالتمام والكمال مجيء الآنسة «فانتوي» وصديقتها زهواً وغروراً وهكذا كنت هادئ البال وأنا عائد إلى البيت. وحدها «ألبيرتين» أبرزت لي، إذ تقول: «أما كان ينبغي أن تكون الآنسة «فانتوي» هنا؟»، أنني لم أخطئ في ارتيابي الأول، لكنني في النهاية كنت مطمئناً للمستقبل حول هذا الشأن بما أن «ألبيرتين» قد ضحّت من أجلي بالآنسة «فانتوي» حين عدلت عن الذهاب إلى منزل آل «فيردوران».

قلت لها غاضباً: «على أي حال هناك أمور أخرى كثيرة تخفينها

عني، حتى التي من أكثرها تفاهة، كرحلة الأيام الثلاثة التي قمت بها إلى «بالبيك» على سبيل المثال، وأقول ذلك في معرض حديثي». وقد أضفت هذه الكلمات التالية: «أقول ذلك في معرض حديثي» وكأنما تتمة للكلمات «حتى التي من أكثرها تفاهة»، وهكذا إن قالت لي «ألبيرتين»: «وما كان الخطأ في مشواري إلى «بالبيك»؟ كان بوسعي أن أجيب: «ولكني حتى لا أتذكر من بعد؛ إن ما يقال لي يختلط في رأسي، فما أقل ما أعلق عليه من أهمية!» ولئن كنت بالفعل أكلمها عن ذاك المشوار ذي الأيام الثلاثة الذي قامت به مع الميكانيكي إلى «بالبيك» التي وصلتني بطاقاتها البريدية منها متأخرة إلى حد أني كنت أتكلم عنها بالمصادفة المحضة وآسف أني أسأت اختيار مثالي إلى هذا الحد وذلك بالحقيقة لأنها كانت بالتأكيد، إذ كاد لا يتوافر الوقت للذهاب والإياب، واحدة من نزهاتهما التي لم يتسع فيها الوقت كيما يتخللها حتى لقاء مطول بعض الشيء مع أي كان. لكن «ألبيرتين» صدقت، حسبما قلت لها منذ قليل، أن الحقيقة الحقة إنما كنت أعرفها وحجبت عنها فقط أني كنت أعرفها. لقد لبثت إذن منذ بعض الوقت على اقتناع بأني كنت، بوسيلة أو بأخرى، بوضع من يتعقبها، أو في النهاية بطريقة ما، كنت، كما سبق أن قالت في الأسبوع السابق لـ«أندريه»، «أكثر اطلاعاً منها ذاتها» على حياتها هي. ولذلك قاطعتني بإقرار غير مجدٍ إلى حد كبير لأني ما كنت بالتأكيد أرتاب بأي شيء مما قالته لي وثقل عليّ في المقابل بشدة، فما أعظم ما تكون الفجوة بين الحقيقة التي شوهتها كاذبة والفكرة التي كوّنها، تبعاً لهذه الأكاذيب، ذاك الذي يحب الكاذبة عن تلك الحقيقة. فما إن نطقت بهذه الكلمات: «رحلتك على مدى ثلاثة أيام إلى «بالبيك»، وأقول ذلك في معرض حديثي»، حتى قاطعتني «ألبيرتين» وصرحت أمامي وكأنما عن أمر طبيعي تماماً: «قصدك أن تقول إن هذه الرحلة إلى «بالبيك» لم تحصل في يوم؟ بالتأكيد! وقد تساءلت دوماً لماذا ظهرت بمظهر من يصدق ذلك. مع أن الأمر لا سوء فيه إطلاقاً. فقد كان على الميكانيكي أن يعمل في أمر يخصه

مدة ثلاثة أيام، وما كان يجرؤ أن يفضي لك بذلك، حينئذ اصطنعت رحلة مزعومة إلى «بالبيك» رأفة به (هذه أنا تماماً وعليّ دوماً ترتد هذه الأمور جميعاً). «فقد أوصلني فحسب إلى «أوتوي» لدى صديقتي التي في شارع «أسومبسيون» حيث أمضيت الأيام الثلاثة أتضجر بمئة فلس في الساعة. ترى أن الأمر ليس خطيراً، فما من مصيبة حلت. لقد بدأت أفترض أنك كنت ربما تعلم كل شيء حينما رأيت أنك أخذت تضحك لدى وصول البطاقات البريدية بعدما تأخرت ثمانية أيام. إني أعترف بأن الأمر مضحك ولعله كان من الأفضل أن لا تكون بطاقات على الإطلاق. لكن الذنب ليس ذنبي، فقد كنت ابتعتها سلفاً وأعطيتها للميكانيكي قبل أن ينزلني في «أوتوي»، ثم إن هذا الثور نسيها في جيوبه عوضاً عن أن يرسلها في مغلف إلى صديق له قرب «بالبيك» كان عليه أن يبعث بها إليك. وكنت أحسب دائماً أنها قريبة الوصول. أما هو فقد تذكرها فقط بعد خمسة أيام وبدلاً من أن ينقل إليّ الأمر أرسلها الغبي في الحال إلى «بالبيك». وحينما قال لي ذلك أوسعته شتماً وتقريعاً، يا لك! أن يشغل بالك بقلق لا طائل تحته ذاك الأهبل كمكافأة لي لأني حبست نفسي على مدى ثلاثة أيام كي يتمكن من الذهاب لتسوية شؤونه العائلية الصغيرة! ما كنت حتى أجرؤ على الخروج في «أوتوي» مخافة أن يراني الناس. المرة الوحيدة التي خرجت فيها إنما فعلت متنكرة بزي رجل، على سبيل المزاح بالأحرى. وشاء حظي الذي يلاحقني في كل مكان أن يكون أول شخص وقعت بين يديه صديقك اليهودي «بلوك». لكني لا أظن أنك علمت منه أن رحلة «بالبيك» ما كانت في يوم إلا في مخيلتي فقد بدا عليه أنه لا يتعرفني».

لم أكن أدري ما أقول وأنا لا أريد أن أبدو مستغرباً يسحقني هذا الكم من الأكاذيب. فإلى شعور بالفظاعة ما كان يبعث فيّ الرغبة في طرد «ألبيرتين»، بل العكس، كانت تنضاف رغبة جامحة في البكاء. والرغبة كان مبعثها لا الكذبة نفسها وتلاشي كل ما كنت ظننته صحيحاً - إلى حد كنت أحسني معه كأنما في مدينة دكت دكاً ولم يبق فيها بيت واحد ولا

يحَدِّب أرضَها الخالية سوى الأنقاض - بل الكآبة التي قوامها أن «ألبيرتين»، على مدى هذه الأيام الثلاثة التي قضتها تضجر لدى صديقتها في «أوتوي»، لم تداخلها الرغبة مرة واحدة، وربما حتى الفكرة، فكرة المجيء لقضاء يوم في منزلي في الخفاء، أو أن تسألني في عجالة صغيرة المجيء للقائها في «أوتوي». لكن لم تكن لديّ فسحة من الوقت للانصراف إلى هذه الأفكار. كنت لا أود على وجه الخصوص أن أبدي دهشة. وابتسمت ابتسامة من يعرف أكثر مما يقول: «لكن هذه واحدة من ألف. إليك مثلاً، في هذه الأمسية القريبة في منزل آل «فيردوران» علمت أن ما سبق أن قلته لي عن الآنسة «فانتوي»...» كانت «ألبيرتين» تنظر إليّ جامدة اللحظ بهيئة معذبة تحاول أن تقرأ في عيني ما كنت أعرف. وما كنت أعرفه وأزمع أن أقوله لها هو ما كانت عليه الآنسة «فانتوي». وصحيح أني لم أعلم بذلك في منزل آل «فيردوران»، بل في «مونجوفان» في ماضي الزمان. بيد أني، لما لم أكلم «ألبيرتين» عن ذلك البتة، كان يمكن أن أبدو وقد علمت به في هذا المساء فحسب. وانتابني ما يقارب الفرح - بعد أن داخلني منه في القطار الصغير الكثير من العذاب - من أني أحمل هذه الذكرى عن «مونجوفان» والتي قد أضع لها تاريخاً متأخراً، لكن ذلك لن يقلل من أنها برهان دامغ ومصيبة طارئة تحل على رأس «ألبيرتين». في هذه المرة على الأقل لم أكن بحاجة إلى «أن أبدو كمن يعرف» و«يحمل ألبيرتين على الكلام». كنت أعلم وقد رأيت من النافذة المضاءة في «مونجوفان». وعبثاً كانت «ألبيرتين» تقول لي إن علاقاتها بالآنسة «فانتوي» وصديقتها كانت طاهرة جداً، فكيف يكون بمقدورها، حينما أقسم لها (وأفعل غير كاذب) أني أعرف أخلاق هاتين المرأتين، كيف يكون بمقدورها التأكيد بأنها، بعدما عاشت في جو حميمي يومي وإياهما، يوم تدعوهما «شقيقتيَّ الكبريين»، لم تكن من جانبهما موضع عروض كانت دفعتها لمقاطعتهما لو أنها على العكس لم تقبل بها؟ لكن لم يتسع لي الوقت لأقول الحقيقة. فإن «ألبيرتين» إذ ظنت، كما كان حال

الرحلة الكاذبة إلى «بالبيك»، أني أعرفها إما من الآنسة «فانتوي» إن سبق لها أن جاءت إلى منزل آل «فيردوران»، وإما من السيدة «فيردوران» دون سواها وقد أمكن أن تكلم عنها الآنسة «فانتوي»، ألبيرتين هذه لم تفسح لي في مجال الحديث وقامت أمامي بإقرار يناقض بالتمام ذاك الذي ظننته، لكنه، إذ أوضح لي أنها لم تنفك البتة عن الكذب عليّ ربما بالمقدار نفسه (ولاسيما لأنني لم أعد كما قلت منذ قليل أغار من الآنسة «فانتوي»).

وأخذت «ألبيرتين» إذاً زمام المبادرة فكلمتني هكذا: «قصدك أن تقول إنك علمت هذا المساء أني كذبتك القول حينما زعمت أني تربيت نصف تربيتي على يد صديقة الآنسة «فانتوي». صحيح أني كذبت عليك بعض الشيء، لكن كنت أحسني مزدراة في نظرك إلى حد بعيد، وأراك إلى ذلك مضطرم الفؤاد إزاء موسيقى «فانتوي» هذا إلى حد أني ظننت، ربما أني واحدة من رفيقاتي - وهذا صحيح، أقسمت على ذلك - كانت صديقة الآنسة «فانتوي»، ظننت ببلاهة أنني أصبح موضع اهتمام لديك باختلاقي أني عرفت تلك الفتيات معرفة واسعة. كنت أحس أني أزعجك وأنك تجدني بلهاء. ظننت أني حين أقول لك إن هؤلاء الناس ترددوا عليّ وإني إنما يمكنني تزويدك بتفاصيل حول أعمال «فانتوي» فسوف أحسن إلى حد ما في عينيك وأن ذلك سوف يقربنا. وحينما أكذب عليك فإنما أفعل على الدوام من منطلق الود لك. وكان لا بد من هذه الأمسية المشؤومة لدى آل «فيردوران» كيما تعلم الحقيقة التي ربما بولغ بها على أية حال. أراهن أن صديقة الآنسة «فانتوي» لا بد قالت لك إنها لا تعرفني. لقد رأتني مرتين على الأقل لدى رفيقتي. لكنني لست بالطبع على أناقة كافية في نظر أناس أضحوا بمثل شهرتهم. ويفضلون أن يقولوا إنهم ما رأوني في يوم».

مسكينة «ألبيرتين»، حينما ظنت أن قولها بعلاقة لها وثيقة بصديقة الآنسة «فانتوي» إنما يؤخر هجرها ويقربها مني، فقد بلغتْ الحقيقة، مثلما يتفق ذلك كثيراً، بطريق آخر غير ذاك الذي كانت تود سلوكه. فأن تبدو أكثر اطلاعاً على الموسيقى فيما كنت ظننت ما كان ليحول مطلقاً دون قطع

علاقتي بها في ذاك المساء في القطار الصغير. ومع ذلك فقد كانت تلك الجملة بعينها التي نطقت بها لهذه الغاية هي التي جاءت في الحال بأكثر كثيراً من استحالة قطع علاقتنا. لكنها كانت ترتكب خطأ في التفسير لا بشأن الأثر الذي لا بد سيكون لهذه الجملة، بل بشأن السبب الذي كان لا بد بموجبه أن تنتج ذاك الأثر، سبب قوامه لا أن نطلع على ثقافتها الموسيقية، بل على علاقاتها السيئة. ما قرّبني فجأة منها، أكثر من ذلك، ما صهرني فيها لم يكن توقعي للذة ما - واللذة بعد غلو في القول، لمتعة طفيفة - بل ضمة ألم.

لم يكن يتوافر لي، في هذه المرة أيضاً، وقت للسكوت طويلاً، سكوت كان يمكن أن يحملها على افتراض الدهشة. لذلك قلت لها، وقد أثر فيّ أن تكون شديدة الاتضاع وتعتقد أنها محتقرة في وسط آل «فيردوران»، قلت برقة: «ولكن يا حبيبتي، ها إني أفكر، ربما أعطيتك بكل سرور بضع مئات من الفرنكات كي تمضي وتظهري حيثما شئت بمظهر المرأة الأنيقة وتدعي إلى عشاء فخم يقيمه السيد والسيدة «فيردوران»». لكن «ألبيرتين» كانت، وا أسفي، عدة أشخاص، بدا الأكثر غموضاً بينهم، والأكثر بساطة والأشد فظاعة في الجواب الذي وجهته إليّ بمظهر القرف والذي لم أميز فيه تماماً، والحق يقال، كلماته (وحتى كلمات البداية بما أنها لم تنه كلامها). ولم أعدها إلى محلها إلا قليلاً بعد ذلك حينما حزرت فكرتها. فإنك تسمع بصورة ارتجاعية بعدما فهمت. «يا لعظيم شكري! أنفق فلساً واحداً في سبيل هذين العجوزين، إني أفضل كثيراً أن تدع لي مرة أن أكون حرة كي أمضي وأشقّ...» وما إن قالت حتى اكتسى محياها لون الأرجوان وبدت مغتمة ووضعت يدها أمام فيها كما لو استطاعت أن ترد الكلمات التي تفوهت بها تواً والتي لم أكن أفهمها مطلقاً. «ما الذي تقولين يا «ألبيرتين»؟

- «لا، لا شيء، كنت نصف نائمة».

- «لا، لا، إنك مستيقظة تماماً».

- «كنت أفكر في عشاء آل «فيردوران». ذلك منك لطيف جداً».

- «لا، إني أتكلم عما قلتِ». وقدمتْ لي ألف صيغة، لكنها ما كانت توافق على الإطلاق، لا أقول حتى كلماتها التي لبثت، وقد قطعتها، غامضة، بل ذاك التوقف نفسه والحمرة المفاجئة التي رافقتها. «هيا يا عزيزتي، ليس هذا ما كنت تبغين قوله، وإلا لماذا توقفت؟»

- «لأنني كنت أرى مطلبي فاضحاً».مكتبة سُر مَن قرأ

- «أي مطلب؟»

- «أن أقيم عشاء».

- «ويحك، لا، ما هذا هو الأمر، فليس من أستار نقيمها بيننا».

- «بلى، على العكس، يجب ألا نفرط في استغلال من نحبهم. وفي جميع الأحوال أقسم أن الأمر كذلك». كان يستحيل دائماً عليّ من جهة أن أشك في قسم لها، فيما لا ترضي إيضاحاتها من جهة أخرى عقلي. ولم أكف عن الإلحاح. «فلتحالفك الجرأة على الأقل في إنهاء جملتك، لقد وقفت منها على كلمة «أُشَقّ...»

- «آه! لا، دعني وشأني!»

- «لكن لماذا؟»

- «لأنها سوقية بصورة فظيعة وقد تخجلني خجلاً مفرطاً أن أقول ذلك في حضرتك. لست أدري بما كنت أفكر، وهذه الكلمات التي لا أعرف حتى معناها والتي سبق أن سمعتها ذات يوم في الشارع يقولها أناس شديدو البذاءة وردت على لساني بصورة لا تتفق والمنطق. وهي لا تتصل بي أو بأي كان، لقد كنت أحلم بصوت عالٍ». وشعرتُ أني لن أستخلص من «ألبيرتين» أكثر من ذلك. فقد كذبتني القول حين أقسمت لي منذ قليل أن ما أوقفها إنما خشية مجتمعية من فضح للأمور أضحى الآن خجلاً من التلفظ في حضرتي بقول مفرط في سوقيته. وكانت تلك كذبة ثانية، فإنا حين كنا سوية، «ألبيرتين» وأنا، لم يكن قول فاسق وكلمات بذيئة إلى حد يحول دون أن نقولها أثناء مداعباتنا. وفي جميع الأحوال لم يكن ثمة

فائدة من الإلحاح في هذا الوقت. لكن ذاكرتي ظل يسكنها هاجس هذه العبارة «أشق». كانت «ألبيرتين» غالباً ما تقول: «شق عليه العصا» و«شق عليه الجيب» أو تقول فقط: «آه! ما أكثر ما شققت عليك!» كقولك «ما أشد حزني عليه!» لكنها كانت تقول ذلك عادة في حضرتي، ولئن كان ذلك ما قصدت أن تقوله فلماذا صمتت فجأة، ولماذا كست وجهها حمرة شديدة إلى ذاك الحد ووضعت يديها على فيها وأعادت صياغة جملتها بشكل آخر وأعطت تفسيراً كاذباً حينما تبينت أني سمعت تماماً «أُشَقّ»؟ لكنما كان من الأفضل، بما أنني عدلت عن موالاة استنطاق لن يبلغني منه جواب، أن أظهر بمظهر من لا يفكر فيه من بعد، وقلت لـ«ألبيرتين» وأنا أعود بالفكر إلى العتاب الذي سبق أن وجهته لي لأني ذهبت إلى منزل المعلمة، قلت بطريقة خرقاء تماماً، وكان ذلك نوعاً من العذر الغبي: «أردت بالضبط أن أسألك المجيء ذاك المساء إلى أمسية آل «فيردوران»: والجملة مزدوجة الغباء، فلو كنت أريد ذلك لِمَ لم أعرض عليها الأمر وأنا ألتقيها طوال الوقت؟ فقالت لي، وقد أغضبتها كذبتي وزاد من جرأتها خجلي: «لعلك كنت سألتني ذلك ألف عام فما كنت قبلت. فأولئك أناس وقفوا دوماً ضدي، وفعلوا كل شيء ليعاكسوني. ما كان لطف إلا وأبديته للسيدة «فيردوران» في «بالبيك»، ويا لحسنها مكافأة أصبتها. ولو أنها أرسلت في طلبي على فراش موتها لما ذهبت. ثمة أمور لا صفح عنها. أما أنت، فهذا أول تصرف غير لبق تخصني به. حينما قالت لي «فرانسواز» أنك خرجت (وكانت مسرورة، ويحك، لقولها ذلك) كنت فضلت أن يشق رأسي فلقتين. حاولت أن لا يلاحظ أحد شيئاً، لكني لم أحس في حياتي إهانة كهذه».

لكنما كان يتوالى في داخلي، بينا هي تكلمني، وفي غفوة الوعي الزاخرة بالحياة والخلاقة (الغفوة التي تتم فيها الأشياء التي لامستنا فحسب انغراسها فينا والتي تمسك فيها اليدان الغافيتان بالمفتاح الذي يفتح، وعبثاً جرى البحث عنه حتى ذاك) البحث عما كانت تريد قوله

بالجملة الموقوفة التي وددت لو أعلم ما كان ختامها. وفجأة هبطت عليّ كلمة فظيعة لم تراود مخيلتي: «البطارية». لا يمكنني أن أقول إنها وردتني دفعة واحدة كما هي الحال حينما نظل، في رضوخ طويل جامد لذكرى غير كاملة، فيما نحاول برفق وحذر أن نوسّعها، نظل خاضعين لها ملتصقين بها. لا، كان ثمة، خلافاً لطريقتي المعتادة في التذكر، كان ثمة فيما أعتقد طريقان متوازيان للبحث: أحدهما كان يأخذ في الحسبان لا جملة «ألبيرتين» فحسب، بل نظرتها الغاضبة حينما عرضت عليها هبة نقدية لتقيم مأدبة عشاء كبيرة، نظرتها التي بدا أنها تقول: «شكراً، أنفق مالاً في سبيل أشياء تزعجني حين يمكنني دون مال أن أفعل أشياء تفرحني!» وربما كان تذكر تلك النظرة التي رمتني بها هو الذي جعلني أغير الطريقة لأعثر على ختام ما قصدت أن تقوله. كنت حتى ذاك قد ركزت كامل اهتمامي على آخر كلمة: «أشقّ»، لقد قصدت أن تقول «أشق ماذا»؟ أشق العصا؟ لا. الجيب؟ لا. أشق، أشق، أشق وفجأة جعلتني العودة إلى النظرة المقرونة برفع المنكبين التي أبدتها ساعة اقترحت عليها أن تقيم عشاء أعود القهقرى كذلك في كلمات جملتها. وهكذا تبين لي أنها لم تقل «أشق» بل «تُشَق». يا للهول! هذا ما لعلها كانت تفضل. ويا للهول المزدوج! فحتى آخر العاهرات، من تقبل ذلك أو ترغب فيه، لا تستخدم مع الرجل الذي يستجيب للأمر هذه العبارة الشنيعة. فربما تحس أن ذلك يحط كثيراً من قدرها. تقول ذلك لامرأة فقط، إن كانت تحبهن، بغية الاعتذار لاستسلامها بعد قليل لرجل. ما كانت «ألبيرتين» قد كذبت حينما قالت إنها كانت نصف حالمة. فقد اتفق لها، وهي ساهية ثائرة الأعصاب ولا يخطر ببالها أنها برفقتي، رفعة المنكبين وشرعت تتكلم كما لعلها كانت فعلت مع واحدة من هاتيك النسوة، ربما مع واحدة من فتياتي اللواتي في مقتبل العمر. وفجأة استعادها الواقع وقد احمرت خجلاً تغيب في فيها ما كانت تنوي قوله ويلفها اليأس، فلم تشأ أن تنبس بكلمة واحدة من بعد. لم يكن لدي ثانية واحدة أضيعها إن أردت أن لا

تتبين اليأس الذي كنت فيه. لكن الدموع، بعد انتفاضة حانقة، أخذت تجول في عينيّ. كان لا بد لي، كحالي في «باليك» في الليلة التي تلت كشفها عن صداقتها لآل «فانتوي»، من أن أختلق في الحال لغمي سبباً مقبولاً وقادراً في الوقت عينه على إحداث تأثير عميق في «ألبيرتين» إلى حد يوفر لي مهلة بضعة أيام قبل اتخاذي قراراً. لذلك، وفي الوقت الذي كانت تقول لي فيه إنها لم يسبق لها أن لحقت بها إهانة شبيهة بتلك التي وجهتها إليها بخروجي، وإنها كانت فضلت الموت على أن تسمع ذلك على لسان «فرانسواز»، ولما كنت أزمع أن أقول لها، وبي ضيق من حساسيتها المضحكة، إن ما قمت به كان عديم الشأن وإنه ما كان على شيء من الإساءة أن أكون خرجت، - ولما كان بحثي اللاواعي عما قصدت أن تقوله بعد كلمة «تشق» قد أفلح، بالتوازي، في تلك الأثناء ولم يعد بالإمكان إخفاء اليأس الذي يدفعني إليه اكتشافي، فقد اتهمت نفسي بدلاً من الدفاع عنها، وقلت لها بصوت رقيق كانت تجتاحه أولى دموعي: «يا صغيرتي «ألبيرتين»، بوسعي أن أقول لك إنك مخطئة وإن ما فعلت أمر زهيد، لكني أكون كاذباً. فأنت من هي على حق. لقد أدركت الحقيقة، يا عزيزتي الصغيرة، ذلك أني ما كنت أفعل ذلك البتة منذ ستة أشهر، منذ ثلاثة أشهر، حينما كنت بعد على مودة عظيمة لك. هو شيء زهيد وهو شيء هائل بسبب التغير الشاسع داخل فؤادي والذي هو علامته. وبما أنكِ كشفتِ هذا التغير الذي كنت آمل إخفاءه عنكِ فإنما يقودني ذلك إلى أن أقول لك: يا عزيزتي «ألبيرتين» - هكذا قلت لها برقة وحزن عميقين - إن الحياة التي تقضينها هنا، كما ترين، مصدر إزعاج لك وخير لنا أن نفترق، ولما كنت أفضل صنوف الانفصال تلك التي تتم كأسرع ما تكون فإني أسألك، بغية اختصار الغم العظيم الذي سيصيبني، أن تودعيني هذا المساء وأن تذهبي في صباح الغد دون أن أكون رأيتك، في أثناء نومي». وبدت ذاهلة، غير مصدقة بعد وشديدة الأسف مذ ذاك: «كيف ذلك في الغد؟ أوتريد ذلك؟» وعلى الرغم من العذاب الذي كنت

أعانيه في التحدث عن انفصالنا وكأنما دخل حيز الماضي - ربما في جزء منه بسبب هذا العذاب عينه - أخذت أوجه لـ«أليرتين» أكثر النصائح دقة بخصوص بعض الأشياء التي سيقع عليها القيام بها بعد رحيلها من البيت. ومن توصيات إلى أخرى بلغ بي بعد قليل أن أدخل في تفصيلات بالغة الدقة. وقلت بحزن لا حد له: «كوني لطيفة وأعيدي إليّ كتاب «بيرغوت» الذي هو الآن في بيت عمتك. ليس في الأمر عجلة، بعد ثلاثة أيام، بعد ثمانية أيام، حينما تشائين، ولكن خلّيه في البال كي لا أضطر أن أرسل في طلبه منك فقد يوليني ذلك ألماً مفرطاً. لقد كنا سعيدين ونحس الآن أننا قد نضحي تعيسين». وقالت «أليرتين» مقاطعة: «لا تقل إننا نحس أننا ربما أضحينا تعيسين، لا تقل «نحن»، فأنت وحدك من يرى ذلك!»

- «أجل، أنت أو أنا، كما تشائين، ولهذا السبب أو ذاك - لكنها ساعة غير معقولة، ويجب أن تنامي - قررنا أن نفترق هذا المساء».

- «عفوك، أنت قررت وأنا أطيعك لأنني لا أريد أن أغمك».

- «وليكن، أنا من قرر، لكن ذلك لا يقلل من إيلامه الشديد لي. لست أقول إن ذلك سيكون أليماً فترة طويلة، فأنت تعلمين أن لا قدرة لي على التذكر طويلاً، لكني سأعاني في الأيام الأولى من السأم الشديد لغيابك! لذلك أرى أن ليس يجدي إحياء الذكريات بالرسائل، ولا بد من إنهاء كل شيء دفعة واحدة». فقالت بلهجة تقطر أسى تزيد بعد منها قسماتها التي لواها تعب الساعة المتأخرة: «أجل، أنت على حق، فإني أفضل أن أجود برأسي في الحال بدلاً من أن يقطعوا لك إصبعاً ثم آخر».

- «يا إلهي، أصاب بالهلع لدى تفكيري بالساعة التي أحملك إلى النوم فيها، ذلك جنون. ولكن، بالنسبة إلى آخر مساء! سوف يتسع لك الوقت للنوم طوال باقي الحياة». وهكذا كنت بقولي لها إنه ينبغي أن يقول واحدنا للآخر طابت ليلتك أحاول تأخير الوقت الذي فيه تقول لي ذلك. «أوتريدين أن أقول لـ«بلوك»، بغية إيناسك في الأيام الأولى، أن يرسل لك

ابنة عمه «إستير» إلى المكان الذي تكونين فيه؟ سوف يفعل ذلك من أجلي».

- «لست أدري لماذا تقول ذلك (وكنت أقول ما أقول في محاولة لانتزاع إقرار من «ألبيرتين»)، فأنا لا يهمني إلا شخص واحد هو أنت»، تقول لي «ألبيرتين» التي ملأتني أقوالها رقة ولطفاً. لكنما أي ألم احدثته لديّ في الحال: «أتذكر تماماً أني أعطيت صورتي لـ«إستير» هذه لأنها ألحّت في ذلك كثيراً، وكنت أرى أن الأمر سيسرّها، فأما أن يكون داخلني وداد لها أو شوق للقياها فلا على الإطلاق!» بيد أن «ألبيرتين» كانت طائشة في طبعها إلى حد أنها أضافت تقول: «إن أرادت أن تراني فالأمر واحد عندي، فإنها على لطف عظيم، لكني لا أحرص على ذلك مطلقاً». وهكذا أدركت صديقتي، حينما حدثتها عن صورة «إستير» التي سبق أن أرسلها لي «بلوك»، (وما كنت حتى تسلمتها بعد حينما كلمت «ألبيرتين» عنها)، أن «بلوك» قد أراني صورة لها أعطتها لـ«إستير». وما كنت في أسوأ افتراضاتي تصورت في يوم أن استطاعت حالة حميمية كهذه أن تقوم بين «ألبيرتين» و«إستير». ولم تجد «ألبيرتين» ما تجيبني به حينما تكلمت عن الصورة. والآن رأت، وهي تظن خطأ أني على اطلاع، أن الإقرار أفضل حيلة. ورأيتني مضنى. «ثم إني يا «ألبيرتين» أسألك أن تمنّي عليّ بأمر، وهو ألا تحاولي البتة لقائي ثانية. وإن اتفق في يوم، بعد عام، بعد عامين، بعد ثلاثة أعوام، أن كنا كلانا في المدينة عينها، وهو أمر ممكن الحدوث، فتجنبيني». وإذ رأيتها لا ترد بالإيجاب على سؤالي: «عزيزتي «ألبيرتين»، لا تفعلي ذلك. لا تعودي إلى لقائي البتة في هذه الحياة، فقد يغمني ذلك كثيراً. ذلك أني كنت أكن لك صداقة حقة، تعلمين. إني أعرف تماماً أنك ظننت، حينما رويت لك في ذلك اليوم أنني أبغي لقاء الصديقة التي تكلمنا عنها في «بالبيك»، أن الأمر كان مدبراً. لا، لا، أؤكد لك أن الأمر كان عندي سواء. أنت واثقة أني صممت على هجرك منذ وقت طويل وأن رقتي

كانت مسرحية». فقالت بصوت حزين: «ويحك، أنت مجنون، فإني ما ظننت ذلك».

- «أنت على حق، ينبغي ألا تعتقدي ذلك، كنت حقاً أحبك، لا بدافع الحب ربما، بل بدافع صداقة عظيمة، عظيمة جداً، أكثر مما يمكن أن تظني».

- «بلى، أعتقد ذلك. هل تتصور أنت أنني لا أحبك، أنا؟»

- «فراقك يوليني غماً عظيماً». فأجابتني «ألبيرتين» قائلة: «وهو أعظم ألف مرة في ما يخصني». ثم إني منذ هنيهة أخذت أحس أني ما عدت أستطيع احتباس الدموع التي تتصاعد إلى عيني. ولم تكن تلك الدموع تنبع من ذات نوع الكآبة التي كنت أحسها بالأمس حينما قلتُ لـ«جيلبيرت»: «خير لنا أن لا يلقى أحدنا الآخر من بعد، فالحياة تفصل بيننا». وليس من شك أنني حينما كنت أكتب ذلك لـ«جيلبيرت» كنت أقول في نفسي إنني حينما سأحب، لا هي، بل غيرها فإن فرط حبي سوف يقلّص ذاك الذي ربما أمكن أن أستثيره لديها كما لو كان ثمة بالضرورة كمية من الحب تتوافر بين كائنين فيسحب فيها فائض ما أخذه أحدهما من الآخر، وسوف يكون محكوماً عليّ أن أعزله عن الأخرى أيضاً كما عزلته عن «جيلبيرت». لكن الحالة كانت تختلف كل الاختلاف لأسباب كثيرة، أولها، وهو الذي بدوره أنتج الأخرى، أن فقدان الإرادة الذي خشيتْ عليّ منه جدتي وأمي في «كومبريه»، والذي استسلمت له هذه وتلك لشدة ما يتوافر للمريض من عزيمة ليفرض ضعفه، فقدان الإرادة هذا راح يتفاقم بصورة متزايدة السرعة. كان يتفق لي، بعدما أكون أحسست أن وجودي يتعب «جيلبيرت»، ما يكفي من عزيمة للتخلّي عنها، ولا يظل شيء منها بعدما أكون لاحظت الشيء نفسه في ما يخص «ألبيرتين»، ولا أفكر إلا باستبقائها عنوة. من ذلك أني، حينما كنت أكتب لـ«جيلبيرت» أني لن أراها من بعد، ومقصدي أن لا أراها من بعد بالفعل، ما كنت أقول ذلك لـ«ألبيرتين» إلا لمحض الكذب وكيما أستجر مصالحة. وهكذا كان يقدم

واحدنا للآخر مظهراً مختلفاً تمام الاختلاف عن الواقع. والأمر لا شك دوماً على هذه الشاكلة حينما يقف شخصان كل في مواجهة الآخر، بما أن كلاً منهما يجهل جزءاً مما هو كائن في الآخر، وأنه لا يستطيع، حتى في هذا الذي يعرفه، أن يفهمه في جزء منه، وأن كليهما يظهران ما كان الأقل التصاقاً بشخصيتهما إما لأنهما لم يتبينا خيوطه ويحكمان أنه غير ذي بال، وإما لأن مكاسب عديمة الشأن لا تصدر عنهما إنما تبدو لهما أكثر أهمية وأشد إثارة للزهو، وأنهما يتظاهران من جهة أخرى، في بعض الأمور التي يتمسكان بها دفعاً لزراية تلحق بهما، يتظاهران إذ هما لا يملكانها بأنهما لا يتمسكان بها، وذلك بالضبط الشيء الذي يبدو أنهما يزدريانه فوق كل ما يزدريان، بل يمقتانه، لكن سوء التفاهم هذا إنما يبلغ في الحب أقصى درجاته لأننا نحاول، ربما باستثناء زمن الطفولة، أن يكون المظهر الذي نتخذه، بدلاً من أن يعكس فكرنا بالضبط، هو ما يحكم هذا الفكر أنه الأنسب ليمكننا من الحصول على ما نشتهي. وكان، بالنسبة إليّ منذ عودتي إلى المنزل، أن يمكنني الاحتفاظ بـ«ألبيرتين» طيعة كحالها في الماضي وألا تسألني في اغتياظها حرية أكبر كنت راغباً في توفيرها لها ذات يوم ولكنها ربما جعلتني مفرط الغيرة في هذه الفترة التي كنت أخشى فيها من مقاصدها الاستقلالية. فانطلاقاً من سن معينة يبدو أننا لا نتمسك، انتصاراً لكرامتنا وتبصراً، بالأشياء التي نرغب فيها أكثر ما تكون الرغبة. لكن مجرد التبصر - وهو على الأرجح ليس على أي حال الحكمة الحقة - إنما يضطرنا سريعاً، في نطاق الحب، إلى عبقرية النفاق هذه. فكل ما سبق لي، طفلاً، أن حلمت به على أنه أرق ما في الحب وكان يبدو لي أنه من ذات جوهره إنما كان أن أفصح بحرية في حضرة من أحب عن حناني وامتناني إزاء عطف عليّ، ورغبتي في حياة مشتركة دائمة. لكني كنت قد تبينت تماماً، بتجربتي الخاصة وتبعاً لتجربة أصدقائي، أن التعبير عن مثل هذه المشاعر يصعب أن يكون معدياً. إن حالة امرأة عجوز متصنعة كما كان شأن السيد «دو شارلوس» الذي يظن، لكثرة ما لا يرى

في خياله سوى شاب جميل، أنه يضحي هو شاباً جميلاً، ويكشف أكثر فأكثر عن خنوثته في صنوف تكلفه المضحك للرجولة، إن هذه الحالة تندرج في قانون يطبق في حيز أبعد كثيراً من أشباه «دو شارلوس»، قانون شائع حتى ليعجز الحب نفسه عن استنفاده بكامله. إننا لا نبصر جسمنا الذي يبصره الآخرون و«نلاحق» فكرنا، هذا الشيء الماثل أمامنا ولا يراه الآخرون (وقد جعله الفنان أحياناً مرئياً في واحد من الأعمال، ومن هنا تنجم لدى معجبيه خيبات كثيرة جداً حينما يسمح لهم بالدخول لدى المؤلف الذي انعكس الجمال الداخلي في وجهه انعكاساً غير صحيح إلى حد بعيد). فما إن يلاحظ المرء ذلك حتى لا يدع الأمور من بعد تمضي على سجيتها، وكنت حاذرت بعد الظهر أن أعرب لـ«ألبيرتين» عن كامل الامتنان الذي يداخلني لأنها لم تبق في «التروكاديرو ». وقد تظاهرت في هذا المساء، من خشيتي أن تفارقني، بالرغبة في مفارقتها، ولم يكن التظاهر على أي حال قد أملته عليّ فحسب، كما سنرى ذلك بعد قليل، العِبَر التي ظنتني جمعتها من حالات حبي السابقة والتي كنت أحاول أن يفيد هذا الأخير منها. هذه الخشية من أن «ألبيرتين» تزمع ربما أن تقول لي: «أبغي ساعات معينة أخرج فيها وحدي، وأن يسعني الغياب أربعاً وعشرين ساعة»، وما لست أدري من طلب للحرية ما كنت أحاول تحديده لكنه كان يرعبني، هذه الفكرة مرت بي لماماً على مدى لحظة في أثناء أمسية آل «فيردوران». لكنها تبددت وقد دحضها على أي حال تذكر كل ما كانت «ألبيرتين» لا تنفك تقوله لي عن سعادتها في المنزل. ونية هجراني، إن وجدت لدى «ألبيرتين»، ما كانت تتجلى إلا بصورة غامضة في بعض نظرات حزينة، في بعض تجليات نفاد الصبر، بعض جمل لم تكن تعني ذلك، لكنها، إن أعمل المرء العقل فيها (وما كان حتى بحاجة إلى إعمال العقل لأنه يدرك مباشرة لغة الهوى هذه، والعامة أنفسهم يدركون هذه الجمل التي لا يمكن أن تفسر إلا أنها من باب الغرور، باب الضغينة، باب الغيرة، وهي غير معلنة على أي حال، لكنما تتأثر في الحال لدى

المتحاور حاسة حدسية هي، كما هو شأن هذا «الحس السليم» الذي يتكلم عنه «ديكارت»، «الشيء الأكثر شيوعاً في العالم»)، ما كان يمكن تفسيرها إلا بوجود شعور في داخلها كانت تخفيه وكان بوسعه أن يقودها إلى وضع خطط لحياة أخرى بمعزل عنّي. ومثلما لم يكن الإعراب عن ذاك المقصد في أقوالها واضح المنطق، كذلك كان حدس هذا المقصد الذي يداخلني منذ هذا المساء لا يزال بمثل ذاك الغموض في داخلي. وظللت أعيش على الفرضية التي كانت تضع موضع الحقيقة كل ما كانت تقوله لي «ألبيرتين». لكنما يمكن أن لم تفارقني في تلك الأثناء فرضية في داخلي مناقضة تماماً ولا أريد أن أفكر فيها. والأمر محتمل، يزيد من احتماله أني لولا ذاك ما كان أحرجني إطلاقاً أن أقول لـ«ألبيرتين» إني ذهبت إلى منزل آل «فيردوران»، وأن الدهشة القليلة التي سبّبها لي غضبُها ما كانت لولا ذاك لتبدو مفهومة. وهكذا فإن ما كان على الأرجح يعيش في داخلي إنما كان فكرة عن «ألبيرتين» تناقض ما كان يرسمه عقلي عنها. كما تناقض تلك التي كانت أقوالها ترسمها، مع أنها «ألبيرتين» لم تختلق تماماً بما أنها كانت ما يقارب المرآة الداخلية لبعض حركات كانت تجري لديها، كغضبها من أني ذهبت إلى منزل آل «فيردوران». وقد كانت صنوف الضيق التي كثيراً ما تنتابني، وخوفي أن أقول لـ«ألبيرتين» إني أحبها، كان كل ذلك من جانب آخر يترافق وفرضية أخرى تفسر مقداراً أكبر من الأشياء وتمتاز في ما يخصها بأنك إن تبنيت الأولى أصبحت الثانية أكثر احتمالاً لأنني، إذ أستسلم لبعض دفعات الحنان مع «ألبيرتين»، ما كنت أنال منها إلا اغتياظاً (كانت تعزوه على أية حال إلى سبب آخر).

يجدر بي أن أقول إن ما بدا لي الأكثر خطورة وكان له أعظم الأثر في نفسي بوصفه دليلاً على أنها ماضية على درب اتهامي، بقولها لي: «أعتقد أنهم يستقبلون الآنسة «فانتوي» هذا المساء». وقد رددت عليه بأقسى ما يمكن أن يكون الرد: «لم تقولي لي إنك التقيت السيدة «فيردوران»». فقد كنت حالما لا أجد «ألبيرتين» لطيفة أضحي قاسياً بدلاً من أن أقول لها إني

حزين. وإن قمت بالتحليل وفقاً لذلك، وفقاً للنظام الثابت للردود التي تصف بالضبط نقيض ما كنت أحس به أمكنني أن أتأكد أنني إن قلت لها هذا المساء إني أنوي هجرها فإنما لأنني - حتى قبلما تبينت ذلك - كنت أخشى أن تبغي حرية ما (ولعلني ما استطعت كثيراً أن أقول ما عسى كانت هذه الحرية التي كنت أرتجف منها، لكنها في نهاية المطاف حرية يمكن معها أن تخونني أو على الأقل لا يمكنني معها من بعد التيقن من أنها لا تخونني) وأنني كنت أبغي أن أبدي لها، من باب التكبر، من باب المكر، أني ما كنت لأخشى ذلك مثلما سبق أن كان حالي في «باليك» حينما كنت أود أن تكوّن عني فكرة رفيعة وحينما كنت أود فيما بعد أن لا يتوافر وقت لديها للملل بصحبتي.

وأخيراً في ما يخص الاعتراض الذي يمكن رفعه في وجه هذه الفرضية الثانية - غير المعرب عنها - التي قوامها أن كل ما كانت «ألبيرتين» تقوله لي على الدوام إنما كان يعني بالعكس أن حياتها المفضلة كانت الحياة في بيتي والراحة والقراءة والعزلة وبعض الحب السحاقي، الخ.، يبدو من غير المفيد أن نتوقف عند هذا الاعتراض. فإن «ألبيرتين» لو شاءت من جانبها أن تتصور ما كنت أحس به انطلاقاً مما كنت أقوله لها لكانت عرفت بالضبط نقيض الحقيقة لأنني ما كنت أعرب في يوم عن رغبتي في هجرها إلا حينما لا أطيق بعدها عني، وأنني اعترفت لها مرتين في «باليك» أني أحب امرأة أخرى، مرة «أندريه» ومرة أخرى امرأة مجهولة في المرتين اللتين ردت لي الغيرة بعض الحب لـ«ألبيرتين». لم تكن أقوالي إذاً تعكس البتة مشاعري. وإن لم يتفق للقارئ منها سوى انطباع ضعيف إلى حد ما فلأني لما كنت راوياً، إنما أعرض أمامه مشاعري في الوقت الذي أردد له فيه أقوالي. لكني لو أخفيت عنه تلك وعرف هذه فحسب لأولته أفعالي، وهي قليلة الصلة بها، الانطباع بأن ثمة تبدلات غريبة وكثيرة إلى حد ربما ظنني معه قريب الجنون. والطريقة قد لا تكون من جانب آخر أكثر زيفاً من تلك التي أنتهجتها لأن الصور التي

كانت تحملني على التصرّف، وهي تعارض إلى حد بعيد تلك التي كانت ترتسم في أقوالي، إنما كانت في تلك الفترة غامضة جداً، فما كنت أعرف إلا معرفة غير تامة الطبيعة التي كنت أعمل وفقاً لها: واليوم أعرف بوضوح حقيقتها الذاتية. أما حقيقتها الموضوعية، يعني إن كانت صنوف حدس هذه الطبيعة تدرك بصورة أكثر دقة من محاكمتي العقلية مقاصد «ألبيرتين» الحقيقية، وإن كنت على حق في ثقتي بتلك الطبيعة وإن هي لم تشوّه بالعكس مقاصد «ألبيرتين» بدلاً من استجلائها، فذلك ما يصعب عليّ قوله.

تلك الخشية الغامضة التي أحسست بها في منزل آل «فيردوران» من أن تهجرني «ألبيرتين» تبددت بادئ الأمر. وحينما عدت فإنما فعلت وبي شعور بأني سجين، وليس بأني ألتقي سجينة. لكن الخشية المبدَّدة عادت فتملكتني بقوة أكبر حينما رأيت، لحظة أعلمت «ألبيرتين» بأني ذهبت إلى منزل آل «فيردوران»، رأيت أثراً لحنق غامض يعلو محياها، وما كان يبرز فوقه على أية حال للمرة الأولى. كنت أعلم تمام العلم أنه لم يكن سوى بَلْوَرة في الجسد لمآخذ مدروسة، لأفكار واضحة بالنسبة للشخص الذي يصوغها ويكتمها، وهو تأليف أضحى بارزاً للعيان لكنه لم يعد عقلانياً ويحاول من يجمع بقاياه الثمينة على وجه المحبوب، يحاول بدوره، بغية إدراك ما يجري داخله، أن يرده بالتحليل إلى عناصره الفكرية. إن المعادلة التقريبية لهذا المجهول الذي كان يشكّله في نظري فكر «ألبيرتين» كان قد وفّر لي على وجه التقريب ما يلي: «كنت أعرف شكوكه، وكنت متيقنة من أنه سيسعى إلى التحقق منها وقد أنجز كامل عمله الدنيء خفية كي لا يمكنني أن أضايقه». ولكن إن كانت «ألبيرتين» تعيش بمثل هذه الأفكار التي لم تفصح لي عنها في يوم، أما كان جديراً بها أن تشمئز وأن لا تقوى من بعد على قضاء حياة، أما كان بوسعها أن تقرر بين ليلة وضحاها التوقف عن حياة تعيشها كانت تحس فيها أنها، إن كانت مذنبة على صعيد الاشتهاء على الأقل، مكشوفة ملاحقة ممنوعة من الاستسلام في يوم

لميولها ودون أن تتهاوى لذلك غيرتي! حياة كان لها فيها الحق منذ بعض الوقت، إن كانت بريئة في نواياها والواقع، أن تحس بالقنوط حين ترى أنها لم تفلح، منذ «بالبيك» حيث أبدت قسطاً وافراً من المثابرة على تجنب المكوث وحيدة في يوم برفقة «أندريه»، وحتى يومنا الذي عدلت فيه عن الذهاب إلى منزل آل «فيردوران» والبقاء في «التروكاديرو»، لم تفلح في استرداد ثقتي؟ ولا سيما أني لم يكن بمقدوري أن أقول إن سلوكها لم يكن خالياً من العيوب. ولئن اتفق لها في «بالبيك»، حينما كان يجري الحديث عن فتيات سيئات المسلك، أن تطلق في الغالب ضحكات وتثنيات لجسدها ومحاكاة لطريقتهن كانت تعذبني بسبب ما كنت أفترض أن ذلك يعني لصديقاتها، فإنها منذ أن عرفت رأيي بهذا الشأن أخذت تكف، حالما تجري الإشارة إلى هذا النوع من الأمور، عن المشاركة في الحديث، لا بالقول فحسب بل في تعابير الوجه. فإنه، إما بغية ألا تسهم في الإساءات التي يتناولون بها هذه أو تلك أو لأي سبب آخر، كان الشيء الملفت حينئذ في قسماتها الشديدة التحول أنها منذ اللحظة التي يتطرقون فيها لهذا الموضوع كانت تدلل على سهوتها في حفاظها بالضبط على التعابير التي كانت لها قبل لحظة. وكان لجمود التعابير هذا وإن خفيفاً وقع الصمت. ولعله كان من المستحيل أن تقول إن هي تذم أو تؤيد أو تعرف أو لا تعرف هذه الأمور. ولم تعد لأي من قسماتها صلة إلا بأخرى من قسماتها. كان أنفها وفمها وعيناها جميعاً تتآلف في انسجام تام بمعزل عن الباقي، وكانت تبدو كأنها عجينة «باستيل»، كأنها لم تسمع ما قيل منذ لحظة أكثر مما هي الحال لو قيل أمام رسم للبرج (ايفل).

كانت عبوديتي، ولا أزال أحس بها حينما أبصرت، وأنا أزود الحوذي بعنوان «بريشو» نور النافذة، قد كفت عن إثقال كاهلي بعد ذلك بقليل حينما رأيت أن «ألبيرتين» كانت تبدو كأنما تحس عبوديتها إحساساً أليماً. وكيما تبدو لها أقل ثقلاً وأن لا يخطر لها أن تكسر قيدها بنفسها بدا لي أن أكثر البراعة يمكن في إيلائها انطباعاً بأنها غير نهائية وأني في ما

يخصّني راغب في أن تنتهي. كان يمكن، وأنا أشهد نجاح خدعتي، أن أجدني سعيداً، أولاً لأن ما سبق أن خشيت منه كثيراً، العزم الذي كنت أفترضه لـ«ألبيرتين» على الرحيل، أصبح مستبعداً، ثمّ لأن نجاح خدعتي في حدّ ذاته، وفي معزل حتّى عن النتيجة المتوخّاة، كان يعود، فيما هو يثبت أني لم أكن على الإطلاق في نظر «ألبيرتين» عاشقاً محتقراً وغيّوراً مهاناً تُكتشف سلفاً سائر حيله، كان يعود فيضفي على حبّنا نوعاً من البكارة ويعيد له الزمن الذي كانت لا تزال تستطيع فيه في «بالبيك» الاعتقاد بسهولة أني كنت عاشقاً لأخرى. ما كانت دون شك لتصدق ذلك من بعد، لكنها كانت تصدّق ما أتصنّعه من عزم على افتراقنا هذا المساء دون رجعة.

كانت تبدو كأنّما يخامرها شك بأن السبب في ذلك يمكن أن يكون في منزل آل «فيردوران». وقلت لها إنّه سبق لي أن التقيت مؤلفاً مسرحياً يدعى «بلوك»، وهو صديق كبير لـ«ليا»، وقد قالت له أموراً غريبة (وفي ظنّي أني أحملها بذلك على الاعتقاد بأني أعرف بنات عم «بلوك» أكثر مما أقول). لكني قلت لها تدفعني حاجة بي إلى تهدئة الاضطراب الذي يزجّني فيه تصنّعي القطيعة: «ألبيرتين» هل يمكنك أن تقسمي لي أنّك لم تكذبي عليّ في يوم؟» فنظرت ثابتة العين في الفراغ ثم أجابتني تقول: «أجل، أعني لا. لقد أخطأت بقولي لك إن «أندريه» قد افتتنت بـ«بلوك»، فما كنّا رأيناه.»

- «فلأيّ سبب إذاً؟»

- «لأنني خفت أن تظنّ منها أموراً أخرى».

- «أهذا كلّ شيء؟» فنظرت أيضاً وقالت: «أخطأت أن أخفيت عنك رحلة على مدى ثلاثة أسابيع قمت بها برفقة «ليا». لكنّي كنت هيّنة المعرفة بك».

- «كان ذلك قبل «بالبيك»؟»

- «قبل الثانية، أجل». وكانت قالت لي في الصباح نفسه إنّها لا

تعرف «ليا»! كنت أنظر إلى هبّة نار تحرق دفعة واحدة رواية أمضيت ملايين الدقائق في كتابتها. وما نفع ذلك؟ ما نفع ذلك؟ أجل، كنت أدرك تماماً أن هاتين الواقعتين إنما كانت «ألبيرتين» تزيح النقاب عنهما لأنها تظنّ أني عرفتهما من «ليا» بصورة غير مباشرة وأن ليس ثمّة سبب، أيّ سبب، أن لا يكون هناك مئة من أمثالهما. كنت أدرك أيضاً أن أقوال «ألبيرتين»، حين يسألونها، ما كانت تحوي البتة ذرّة حقيقة وأنها ما كانت تبوح بالحقيقة إلا رغماً عنها وكأنّما خليط مفاجئ كان يتم داخلها بين الأحداث التي كانت حتى ذاك مصممة على إخفائها واعتقادها أن الناس عرفوا بأمرها. وقلت لـ«ألبيرتين»: «أمران، هذا قليل، فلنذهب إلى أربعة كي تخلّي لي ذكريات فما الذي يمكن أن تكشفي عنه بعد؟» فنظرت مرة أخرى في الفراغ. فمع أيّ اعتقادات بالحياة الآتية كانت تكيّف الكذبة ومع أيّ آلهة أقلّ تساهلاً مما ظنّت كانت تحاول تدبّر أمرها؟ لا بدّ أن ذلك لم يكن سهلاً فقد دام صمتها وجمود نظرتها فترة طويلة إلى حدّ ما، وخلصتْ إلى قولها: «لا، لا شيء غير ذلك». وعلى الرغم من إلحاحي تشبثت بـ«لا شيء غير ذلك» وبيسر تفعل الآن. ويا لها كذبة، فكم من مرّة، ما دامت على هذه الميول، كم من مرة إلى اليوم الذي سُجنت فيه في منزلي، وفي أيّة منازل وأيّة نزهات لا بد أشبعتها! إن السحاقيّات نادرات إلى حدّ في الآن نفسه كي لا تخفى إحداهنّ على الأخرى في أي جمهور كان. والالتقاء مذ ذاك سهل. تذكرت بهول ذات مساء بدا لي في تلك الفترة موضع سخرية فحسب. فقد كان دعاني واحد من أصدقائي للعشاء مع عشيقته وآخر من أصدقائه كان يصطحب عشيقته أيضاً ولم يطل بهما الوقت لتفهم إحداهما الأخرى، لكنهما كانتا شديدتي التلهف للتضاجع إلى حد أن القدمين أخذتا ما إن قدّم الحساء تتلاحقان وكثيراً ما تصادفان قدمي. وبعد قليل تشابكت السيقان. وما كان صاحباي يبصران شيئاً، وكنت أنا فريسة العذاب. ونزلت إحدى المرأتين، وقد نفد صبرها، تحت الطاولة قائلة إنها أسقطت شيئاً ثم ألمّ بإحداهن الصداع وطلبت الذهاب إلى المغاسل.

وتذكّرت الأخرى أن الوقت قد حان لتلحق بصديقة لها في المسرح. وظللت في النهاية وحدي برفقة صديقي اللذين ما كانا يشكّان في أيّ أمر. وعادت صاحبة الصداع، لكنها طلبت العودة وحيدة لانتظار عشيقها في بيته كي تتناول قليلاً من خافضات الحرارة وأصبحتا صديقتين حميمتين تتنزهان سوية، إحداهما بأثواب رجل تتصيّد فتيات وتعود بهنّ إلى الأخرى وتدرّبهن. أما الثانية فكان لديها صبي صغير تتظاهر بالاستياء منه فتعمد إلى إصلاحه على يد صديقتها التي ما كانت توفر جهداً في ذلك. ويمكن أن نقول ما من مكان مهما كان عاماً، لم تفعلا فيه ما كان الأكثر خفاء. «لكن «ليا» كانت على امتداد هذه الرحلة لائقة تماماً معي، تقول «ألبيرتين». بل كانت هي أكثر تحفظاً بعد من كثيرات من سيدات المجتمع الراقي».

- «وهل ثمة من نساء المجتمع الراقي من كنّ غير متحفظات إزاءك يا «ألبيرتين»؟

- «لا إطلاقاً».

- «فما الذي تقصدين قوله إذاً؟»

- «حسن! لقد كانت أقلّ انطلاقاً في عبارانها».

- «مثال ذلك؟»

- «ما كانت لتستخدم، على غرار الكثيرات من النساء اللواتي تستقبلهنّ، كلمة «يُطقّق» أو كلمة: «يضحك على ذقون الناس». وبدا لي أن جزءاً من الرواية لم يكن بعدُ احترق أخذ أخيراً يستحيل رماداً. لا بدّ أن فتور عزيمتي قد امتدّ فترة من الزمن. وكانت أقوال «ألبيرتين» حينما أفكّر فيها تخلّف وراءها غضباً عاتياً. لكنّه تهاوى أمام نوع من الحنان والرقّة. فإني منذ عدت وأعلنت عزمي على قطع صلتي بها كنت أكذب بدوري. وإن عزمي هذا على الانفصال الذي كنت أتصنّعه دون كلل كان يحمل إليّ شيئاً فشيئاً بعضاً من الحزن الذي كنت عانيته لو كنت عازماً بالحقيقة على فراق «ألبيرتين».

كنت في جميع الأحوال، حتى حينما أعود للتفكير بطفرات من فكري، بوخزات كما يقولون بشأن الآلام الجسدية الأخرى، في تلك الحياة المنهتكة التي قضتها «ألبيرتين» قبل أن تعرفني، كنت أكثر إعجاباً بلين عريكة سجينتي وكففت عن الحقد عليها. على أنّي ما كففت البتة دون شك مدّة حياتنا المشتركة عن إسماع «ألبيرتين» أن هذه الحياة لن تكون على الأرجح إلا مؤقتة كي تستمر «ألبيرتين» في الإحساس ببعض الفتنة فيها. لكنني ذهبت في هذا المساء إلى أبعد من ذلك وقد خشيت أن التهديدات الغامضة بالانفصال لن تكون كافية من بعد إذ هي قد تناقضها دون شك في فكر «ألبيرتين» فكرتها عن حب كبير غيور عليها يكون قد حدا بي، فيما يبدو أنها تقول، إلى الذهاب لتقصّي الحقيقة في منزل آل «فيردوران». وفكّرت في ذلك المساء أن من بين الأسباب الأخرى التي أمكن أن تحملني فجأة، ودون أن أتبيّن الأمر إلا شيئاً فشيئاً، على تمثيل مسرحية القطيعة هذه كان ثمّة على وجه الخصوص أني حينما كنت، في واحدة من تلك النزوات مما كان يتفق لوالدي، أهدد شخصاً في أمنه وطمأنينته ولمّا كنت مثله لا أملك الشجاعة لتنفيذ التهديد كنت أوغل بعيداً في مظاهر التنفيذ، بغية أن لا يُعتقد أنه مجرد كلام في الهواء، ولا أنثني عائداً إلا بعدما يكون الخصم ارتعد خوفاً وقد توهّم حقاً أني كنت صادقاً.

وإننا على أيّ حال نحسّ تماماً أن ثمة شيئاً من الحقيقة في هذه الكذبات وأنه إن لم تحمل الحياة تغيّرات في تجليات حبنا فسينبغي علينا حملها أو «التظاهر بها والتحدث عن الانفصال لشدّة ما نشعر بأن كل مظاهر حبنا وسائر الأشياء تتطوّر تطوّراً سريعاً باتجاه الوداع. والمرء يبغي أن يذرف الدموع التي سيجلبها هذا الوداع قبل وقوعه بفترة طويلة. ليس من شك أنه كان ثمة هذه المرة سبب نفعي في المسرحية التي مثلتها. فقد حرصت فجأة على الاحتفاظ بها لأني كنت أحسّها مشتّتة في أشخاص آخرين ما كان بمقدوري الحؤول دون أن تلحق بهم. لكنها حتى لو كانت تخلّت نهائياً عن الجميع من أجلي لكنت ربما حرصت حرصاً أشدّ بعد

على أن لا أفارقها في يوم لأن الانفصال إنما يصبح جراء الغيرة قاسياً، لكنه جراء الامتنان يصبح مستحيلاً. كنت أحسّ في جميع الأحوال أنني أخوض المعركة الكبرى التي لا بدّ لي من الانتصار فيها أو الهلاك. وكنت قدّمت لـ«ألبيرتين» على مدى ساعة كلّ ما كنت أملك لأنني كنت أقول في نفسي: «كلّ شيء رهن بهذه المعركة». لكن هذه المعارك أقلّ شبهاً بمعارك الأمس التي كانت تمتدّ عدّة ساعات منها بمعركة معاصرة لا تنتهي لا في الغد ولا ما بعده ولا في الأسبوع التالي. والمرء يصرف قواه كلّها لأنه يظن دوماً أنها آخر ما سيكون بحاجة إليه. وينقضي أكثر من عام دون أن يجيء بالقرار».

ربما كان ينضاف إلى ذلك تذكر لا واعٍ لمشاهد خادعة قام بها السيد «دو شارلوس» الذي كنت بالقرب منه حينما تملكتني خشية أن تهجرني «ألبيرتين». لكني سمعت فيما بعد أمي تروي لي ما يلي، وكنت أجهله آنذاك، وهو يحملني على الاعتقاد بأني وجدت سائر عناصر هذا المشهد في ذاتي، في واحدة من محميّات الوراثة الغامضة التي تجعلها بعض الانفعالات، وتأثيرها في هذا الشأن كتأثير بعض الأدوية المماثلة للكحول والقهوة في مدّخر قوانا المختزنة، تجعلها في متناولنا: حينما كانت عمتي «أوكتاف» تعلم من «أولالي» أن «فرانسواز» قد دبّرت سراً، وقد تيقنت أن سيدتها لن تخرج بعد البتة، نزهة ينبغي أن تخفى على عمتي كانت هذه تتظاهر عشية ذلك اليوم بالعزم على محاولة الخروج في الغد في نزهة. كانت تطلب من «فرانسواز»، وهي في البداية نهب الشكوك لا أن تعدّ سلفاً فحسب أغراضها وتعرّض للهواء تلك التي خُزنت منذ فترة طويلة، بل توصي حتى على العربة وأن تنظّم كل دقائق يومها بما لا يزيد عن ربع الساعة تحديداً. وما كانت تعدل جهاراً عن مشروعاتها إلّا حينما تكون «فرانسواز» أرغمت، وقد أقنعت أو تزعزع موقفها، على الإقرار لعمتي بالمشروعات التي أعدّتها، كي لا تعرقل، تقول، مشروعات «فرانسواز». وعلى هذا المنوال، وكي لا يسع «ألبيرتين» الظنّ بأنني أبالغ وكيما أدفعها

إلى أبعد ما يمكن في الفكرة التي مفادها أننا نفترق، وإذ استخلصت بنفسي نتائج ما أقدمت على قوله تواً، أخذت أستبق الوقت الذي يزمع أن يبدأ في الغد وسيدوم أبداً، الوقت الذي نكون انفصلنا فيه، وأوجّه لـ«ألبيرتين» ذات التوصيات كما لو أننا لا نزمع أن نتصالح عمّا قليل. وكما الجنرالات، الذين يحكمون أنّه لا بدّ لتفلح خدعة في تضليل العدوّ من دفعها إلى أقصى حدودها، كنت قد صرفت في خدعتي من قواي العاطفية ما يقارب مقدارها لو أنها كانت حقيقية. كانت تمثيلية الانفصال الوهمي هذه توليني من الغمّ ما يقارب مقدارها غماً لو أنّها كانت واقعة، ربما لأن أحد الممثلين، وأقصد «ألبيرتين»، كانت، إذ تظنّها كذلك، تضيف إلى وهم الآخر. كنا نعيش نظام «لكلّ يوم همّه»، وهو وإن شقّ يظلّ محتملاً يستبقيه في مجال العاميّ ثقل العادة وهذا اليقين بأن الغد وإن انبغى أن يكون قاسياً سوف يستوعب وجود الكائن الذي نتمسّك به. فإذا بي أدمّر بجنون كلّ هذه الحياة الثقيلة. ما كنت أدمّرها، والحق يقال، إلا بصورة وهمية، لكنما كان ذلك كافياً ليغمّني، ربما لأن الأقوال الحزينة التي ننطق بها، وإن كذباً، إنما تحمل حزنها في ذاتها وتحقنه في أعماقنا: وربما لأننا نعمل أننا بتصنّعنا الوداع إنما نذكر سلفاً بساعة سوف تأتي حتماً فيما بعد. ثم إننا لسنا واثقين من أننا لم نقْدم تواً على إطلاق الآلية التي ستطلق دقاتها. هناك في كل خدعة شيء من التشكك، مهما يكن طفيفاً، حول ما سيقدم عليه من نضلّله. إن كانت تمثيلية الانفصال هذه ستفضي إلى انفصال! فليس يسعك ارتقاب إمكان حدوثه، وإن غير معقول، دون انقباض في الصدر. ويكون ضيقك مزدوجاً لأن الانفصال سيحدث آنذاك في الوقت الذي لا يمكن فيه أن نطيق احتماله، والذي أصابنا فيه عذاب على يد المرأة التي تهجرك قبلما تكون شفتك، أو هدّأت روعك على الأقل. ثم إننا لم يعد لدينا حتى نقطة استناد العادة التي نعتمد عليها حتى أوان الحزن. لقد حرمنا ذاتنا تواً منها وبملء إرادتنا وأولينا النهار الحاضر أهمية استثنائية وفصلناه عن النهارات الملاصقة له فإذا هو يخفق دون جذور

كمثل يوم رحيل، وخيالنا استيقظ إذ لم تعد تشلّه العادة، وضمنّا فجأة إلى حبنا اليومي تصورات عاطفية تضخمه إلى أبعد حد فإذا بنا لا غنى لنا عن حضور لم يعد بالضبط على يقين تام من إمكان اعتمادنا عليه. وليس من شك أننا بغية أن نضمن بالضبط هذا الحضور للمستقبل انصرفنا إلى لعبة إمكان استغنائنا عنه. لكن هذه اللعبة إنما أخذنا نحن بها وشرعنا نتعذّب ثانية لأننا فعلنا شيئاً جديداً غير مألوف، ويتفق أنه يشبه بذلك هذه المعالجات التي ينبغي لها أن تشفي فيما بعد الداء الذي نعاني منه، لكن مفاعيلها الأولى إنما تزيده استفحالاً.

كانت الدموع تجول في عينيّ كحال الذين إذ هم وحيدون في غرفتهم ويتخيّلون تبعاً لانعطافات وتقلّبات حلمهم موت شخص يحبونه فيتصورون ما قد يصيبهم من ألم تصوراً دقيقاً إلى حد أنهم يخلصون إلى معاناته. وهكذا كان يبدو لي، وأنا أكثر من توصياتي لـ«ألبيرتين» حول السلوك الذي ينبغي أن تسلكه حيالي حينما نكون افترقنا، أنّ بي مقدار ما يصيبنا من غمّ تقريباً لو أنه لم ينبغ لنا أن نتصالح في الحال. ثمّ هل كنت متيقناً إلى الحد أنني أستطيع ذلك وأن أرد «ألبيرتين» إلى فكرة الحياة المشتركة، وإن أنا أفلحت في ذلك هذا المساء، أن الذهنية التي بددها هذا الذي جرى لن تُبعث من جديد؟ كنت أحسّني، لكنما لا أخالني، سيد المستقبل لأنني كنت أدرك أن هذا الإحساس ناجم عن أنه لم يكن بعد موجوداً وما كنت والحالة هذه أرزح تحت ضرورته. وأخيراً ربما كنت أضمّن أقوالي، فيما أنا أكذب، مقداراً من الحقيقة أكثر مما كنت أظنه. وقد تيسّر لي منذ قليل مثال على ذلك حينما قلت لـ«ألبيرتين» إنني سأنساها سريعاً. كان ذلك ما وقع لي بالفعل مع «جيلبيرت» التي كنت أحجم الآن عن المبادرة إلى لقائها لا تجنباً للعذاب بل للمشقة، والأكيد أني كابدت العذاب وأنا أكتب لـ«جيلبيرت»، وكلّ ساعات «ألبيرتين» كانت ملك يدي. والأيسر في الحب أن يتخلى المرء عن عاطفة منه وعن عادة. لكن هذا القدر من الأقوال المؤلمة المتعلّقة بانفصالنا، إن كنتُ أعطيت القوة على النطق بها

لأنني أعلم أنّها كاذبة فقد كانت بالعكس صادقة في فم «ألبيرتين» حينما سمعتها تهتف قائلة: «آه! هذا وعد مني، لن ألتقيك البتة. أفضّل كلّ شيء على أن أراك تبكي على هذه الصورة يا حبيبي. لا أودّ أن أبعث الغمّ في صدرك. فإن كان لا بدّ، فلن نلتقي من بعد». لقد كانت صادقة، وما كان وسعها أن تكون كذلك من جانبي، فإنه لما كانت «ألبيرتين» لا تحمل لي إلا المودّة فإنّ التخلّي الذي كانت تنبئ به كان من جهة أقل عبئاً عليها. ولما كانت دموعي تبدو لها، من جهة أخرى، ولعلها كانت بدت أمراً زهيداً في حبّ كبير، خارقة تقريباً وتهزّها في الأعماق إن وُضعت في نطاق هذه المودة التي كانت تلبث مقيمة فيها، هذه المودة التي تفوق مودتي قياساً على ما قالت منذ قليل لأن الذي لا ينطلق في حبّه من العشق هو الذي يقول الأشياء الرقيقة في عملية الفراق إذ الحب لا يعرب عن ذاته بصورة مباشرة، قياساً على ما قالت منذ قليل وما ربّما لم يكن غير صحيح تماماً لأن صنوف اللطف الكثيرة في الحب يمكن أن توقظ في نهاية المطاف لدى الشخص الذي يدفع إليه ولا يكابده مودة وامتناناً أقلّ أنانية من العاطفة التي أطلقتهما وربما لبثا، بعد سنوات من الفراق وحينما لا يظلّ منه شيء لدى العاشق السابق، ربما لبثا على الدوام لدى المعشوقة.

لم تكن هناك سوى فترة شعرت فيها بنوع من الضغينة حيالها، ضغينة ما كان منها إلا أن ضاعفت من حاجتي إلى استبقائها. ولمّا كنت، وبي في ذلك المساء غيرة من الآنسة «فانتوي» فحسب، لمّا كنت أفكّر بأعظم قدر من اللامبالاة في «التروكاديرو»، لا لأنه سبق لي أن أرسلتها إليه لتجنّب آل «فيردوران» فحسب، بل حتى وأنا أشاهد فيه «ليا» هذه التي كنت بسببها قد أعدت «ألبيرتين» وبغية ألا تعرفها، نطقت باسم «ليا» دون أن أفكر فيها فإذا هي تبادر محاذرة، وظناً منها أنه ربما قيل لي عنها أكثر من ذلك، وتقول بلسان طلق، ولا تفعل دون أن تخفي بعض الشيء جبينها: «إني أعرفها تمام المعرفة، فقد ذهبنا السنة الماضية برفقة صديقات لنشهد تمثيلها وصعدنا بعد التمثيلية إلى مقصورتها وارتدت ملابسها أمامنا،

وكان الأمر مثيراً جداً». حينئذ اضطرّ فكري إلى التخلّي عن الآنسة «فانتوي» وانصرف في جهد يائس، في هذه الانطلاقة إلى هاوية الاسترجاعات المستحيلة، وانصرف إلى الممثلة، إلى تلك الأمسية التي صعدت فيها «ألبيرتين» إلى مقصورتها. فكيف نعتقد من جهة، بعد كلّ الأيمان التي أقسمتها وبلهجة صادقة إلى هذا الحد، وبعد تضحيتها الكاملة إلى هذا الحد بحريتها، كيف نعتقد أن يكون ثمّة سوء في كلّ ذلك؟ ولكن ألم تكن شكوكي هوائيات موجهة صوب الحقيقة بما أنها إن كانت ضحّت لي بآل «فيردوران» لتذهب إلى «التروكاديرو» فلا بدّ مع ذلك أن كان ثمة، في منزل آل «فيردوران» الآنسة «فانتوي»، وبما أنه كان في «التروكاديرو»، الذي سبق أن ضحّت لي به كي تتنزه برفقتي، أن كان هناك، بمثابة سبب لإخراجها منه، «ليا» تلك التي يبدو لي أنها كانت تقلقني بغير وجه حق والتي صرّحت عنها مع ذلك في جملة لم أطالبها بها أنها عرفتها على نطاق أوسع مما أمكن أن تذهب إليه خشيتي وفي ظروف مريبة جداً، إذ ما الذي أمكن أن يدفعها هكذا إلى الصعود إلى تلك المقصورة؟ ولئن كنت أكفّ عن المعاناة على يد الآنسة «فانتوي» حينما كنت أعاني على يد «ليا»، وهما الجلّادان سحابة نهاري، فذلك إمّا جرّاء عجز فكري عن تخيّل كمّ مفرط من المشاهد في الآن نفسه، وإمّا جرّاء تداخل انفعالاتي العصبية التي لم تكن غيرتي سوى صدى لها. كان يمكن أن أستدلّ من ذلك أنها لم تكن لـ«ليا» أكثر مما كانت للآنسة «فانتوي» وأني ما كنت أعتقد بـ«ليا» إلا لأني كنت لا أزال أعاني منها. ولكنّ القول بأن وجوه غيرتي كانت تتلاشى - لتستفيق أحياناً الواحد بعد الآخر - ما كان ليعني بدوره أن تلك الوجوه ما كان كلّ منها يقابل بالعكس حقيقة مستشعرة وأني من بين تلك النسوة ما كان ينبغي أن أقول ما من واحدة منهنّ، بل جميعهن. قلت "مستشعرة" لأنه لم يكن بوسعي أن أشغل جميع النقاط التي كان يفترض أن أشغلها في المكان والزمان، ثم أيّة غريزة كانت ستزودني بالتوافق بين هؤلاء وأولئك لتمكنني من مفاجأة «ألبيرتين» هنا

وفي ساعة معينة مع «ليا» أو مع فتيات «بالبيك» أو مع صديقة السيدة «بونتان» التي مستها مساً خفيفاً أو مع فتاة كرة المضرب التي لكزتها بمرفقها أو مع الآنسة «فانتوي»؟

«يا عزيزتي «ألبيرتين»، لطف عظيم منك أن تعديني بذلك. سوف أتجنب على أية حال، في السنوات الأولى على الأقل، الأمكنة التي تكونين فيها. ألا تعلمين إن كنت ستذهبين هذا الصيف إلى «بالبيك»؟ لأنني في مثل هذه الحالة سأتدبر أمري كي لا أذهب إليها». ولئن كنت أوالي الآن التقدم على هذه الصورة أستبق الأزمنة في اختلاقي الكاذب فإنما لأوذي نفسي أكثر مما أخيف «ألبيرتين». ومثلما ينتشي رجل لم يتوافر له بادئ الأمر سوى أسباب قليلة الأهمية ليغضب، مثلما تراه ينتشي كلياً بضجيج صوته ويستسلم لجنون غيظه الناجم لا عن مآخذه بل عن غضبه المتنامي نفسه، هكذا كنت أمضي بسرعة متزايدة على سفوح حزني صوب بأس يتزايد عمقاً وبخمول رجل يحسّ البرد يتملكه ولا يحاول أن يقاوم بل يلقي نوعاً من المتعة في الارتعاش. وإن تيسر لي عما قليل في نهاية المطاف، كما كنت أتوقع، من القوة ما أتمالك به نفسي وأعارض وأتراجع فإنما مردّ ذلك، وبما يفوق كثيراً الغم الذي ولّدته «ألبيرتين» في صدري بسوء ترحيبها بعودتي، الغم الذي انتابني لدى تصوري إجراءات افتراق وهمي بغية التظاهر بتنظيمها، ولدى تنبئي بعواقبه، الغم الذي سيقع على قبلة «ألبيرتين» اليوم، حين تتمنى لي مساءً سعيداً، أن تبدده. والمساء السعيد هذا ما كان ينبغي في كل الأحوال أن تكون هي من تبادر إلى قوله من تلقاء ذاتها، فلعل ذلك كان جعل الانقلاب الذي سأقترح عليها بموجبه أن تعدل عن فرقتنا أكثر مشقة عليّ. لذلك أنفكّ أذكرها بأن ساعة التحية المسائية قد حلت منذ زمن طويل، الأمر الذي كان يمكنني، آن يدع المبادرة بين يديّ، من تأخيرها فترة بعد. وهكذا كنت أزرع بالتلميحات إلى تقدم الليل تقدماً كبيراً وإلى تعبنا الأسئلةَ التي أطرحها على «ألبيرتين». وأجابت عن سؤالي الأخير بادية الاهتمام: «لست أدري إلى أين أذهب.

ربما ذهبت إلى منطقة «تورين» عند عمتي. «هذا المشروع الأول الذي رسمت خطوطه الأولى جمد الدم في عروقي كما لو شرع يحقق فعلاً فرقتنا النهائية. وجالت بنظرها على الغرفة والبيانولا والكنبات التي من الساتين الأزرق. «لست أستطيع التكيف بعد مع الفكرة التي مفادها أنني لن أرى من بعد كل ذلك لا في الغد ولا بعده ولا في أي يوم. يا للغرفة العزيزة المسكينة! يبدو لي أن ذلك مستحيل ولا يمكن أن يدور في خلدي». - «كان لا بد من ذلك، فقد كنت تعيسة هنا». - «ولكني لم أكن تعيسة، ولكنني الآن سوف أضحي تعيسة». - «لا، لا، أؤكد لك، ذلك خير لك». - «خير لك ربما». وشرعت أحدق في الفراغ كما لو كنت أتخبط، وأنا نهب حيرة كبيرة، داخل فكرة خطرت في بالي. وأخيراً قلت دفعة واحدة: «هيا يا «ألبيرتين»، تقولين إنك أكثر سعادة هنا وإنك ستضحين تعيسة». - «بالتأكيد». - «ذلك يبلبل أفكاري. أتودين أن نحاول التمديد بضعة أسابيع؟ من يدري؟ ربما أمكن المضي بعيداً جداً أسبوعاً فأسبوعاً، تعلمين أن ثمة أموراً مؤقتة يمكن في النهاية أن تدوم وتدوم». - «أوه! شد ما ستكون لطيفاً!» - «لكنما يبدو من قبل الجنون آنذاك أن يكون واحدنا عذب الآخر على هذه الصورة طوال ساعات دون طائل، لكأنما تلك رحلة أَعَدّ لها المرء ثم لم يقم بها. لقد أضناني الغم». وأجلستها على ركبتي وأخذت مخطوطة «بيرغوت» التي طالما تاقت إليها وسطرت على الغلاف: «إلى حبيبتي «ألبيرتين»، ذكرى تجديد الإيجار». وقلت لها: «والآن بادري إلى النوم حتى مساء الغد يا حبيبتي. فأنت لا بد منهكة». - «إني على وجه الخصوص مسرورة». - «وهل تحبينني قليلاً؟» - «مئة مرة بعد أكثر من ذي قبل».

لعلني كنت أخطأت لو سعدت بالمسرحية الصغيرة حتى لو لم تبلغ هذا الشكل من الإخراج الحقيقي الذي دفعتُ بها إليه. وحتى لو لم نقم بغير الكلام عن الانفصال لكان الأمر مذ ذاك خطيراً. هذه المحادثات التي تباشرها هكذا، إنما نظن أننا نفعل لا دون صدق فحسب، وذلك واقع

فعلاً، بل بصورة حرة. لكنها بعامة وعلى غير علم منا التمتمة الأولى المهموسة على الرغم منا لعاصفة لا نرتاب بها. إن ما نعبر عنه في الواقع حينذاك هو عكس رغبتنا (التي هي العيش الدائم إلى جانب من نحب). لكنه أيضاً تلك الاستحالة في العيش سوية والتي تشكل عذابنا اليومي، العذاب الذي نفضله على عذاب الفراق لكنه سيؤدي في النهاية على الرغم منا إلى تفريقنا. عادة، وليس دفعة واحدة مع ذلك ويتفق في الكثير الغالب - ولم يكن ذلك حالي مع «ألبيرتين» كما سنرى - أن ننفذ، بعد مضي وقت على الأقوال التي ما كنا نؤمن بها، تجربة أولية لفراق مقصود غير مؤلم ومؤقت. فإننا نسأل المرأة، كيما تتذوق فيما بعد متعة أفضل معنا وكيما ننجو مؤقتاً، من جهة أخرى، من أحزان ومتاعب مستمرة، أن تبادر بمعزل عنا، أو تدعنا نبادر بمعزل عنها، إلى القيام برحلة تمتد بضعة أيام هي الأولى - منذ زمن بعيد - نقضيها بدونها - ولعل ذلك كان بدا لنا مستحيلاً، وسرعان ما تعود لتتخذ مكانها في بيتنا. لكن هذا الفراق، وهو قصير لكنه محقق، لم يتم تقريره جزافاً وليس بالتأكيد الوحيد الذي نتصوره. وتعود الغموم نفسها ثانية تتزايد ذات الصعوبة في العيش سوية، والفراق وحده يكف عن كونه صعباً إلى هذا الحد. لقد بدأنا بالتحدث عنه ثم إننا نفذناه بعد ذلك بشكل محبب. لكنها ليست سوى نذر لم نتعرفها. وبعد قليل إذا بالفراق المؤقت البائن يعقبه الفراق الرهيب النهائي الذي أعددنا له دون علم منا.

«تعال إلى غرفتي بعد خمس دقائق كي يسعني أن أراك قليلاً أيها العزيز الحبيب. ولتفض رقة. لكني سرعان ما سأنام بعد ذلك، فإنني أشبه بالأموات». وقد رأيت بالفعل ميتة حينما دخلت بعدها إلى غرفتها. فقد أغفت حالما استلقت في سريرها. واتخذت ملاءات السرير. وقد التفت مثل كفن حول جسمها، اتخذت بثنياتها الجميلة صلابة الحجر. لكأنما الرأس وحده، كما في بعض لوحات يوم الدينونة في العصر الوسيط، كان يطلع من الضريح وهو ينتظر في رقاده بوق رئيس الملائكة. هذا الرأس

أخذه النوم على حين غرة وقد انقلب تقريباً مشعث الشعر. كنت أتساءل، وأنا أرى هذا الجسم العديم الشأن، أي جدول لوغارتمي كان يؤلفه كي تستطيع سائر الأعمال التي أمكن أن يشرك فيها بدءاً بنكزة بالمرفق إلى ملامسة فستان أن تسبب لي، وقد مدت إلى لا نهاية من النقاط التي شغلها في المكان والزمان وعادت فجأة بين حين وآخر فانتعشت في ذاكرتي، صنوفاً من القلق أليمة إلى هذا الحد مع أني أعلم أنها إنما تسببها حركات ورغبات لها لعلها كانت بدت لي، لدى أخرى غيرها، بل لديها هي قبل خمس سنوات، بعيدة عن أن تثير الاهتمام. لقد كانت بدت لي، لدى أخرى غيرها، بل لديها هي قبل خمس سنوات، بعيدة عن أن تثير الاهتمام. لقد كانت كذبة، لكنما لم تتوافر لي إزاءها الشجاعة للبحث عن حلول أخرى غير موتي. وهكذا لبثتُ في الفِراء التي لم أكن بعد نزعتها عني منذ عودتي من منزل آل «فيردوران»، أمام هذا الجسد الملوي، هذا الشكل الذي هو رمز لماذا؟ لموتي؟ لحبي؟ وشرعت أسمع بعد قليل تواتر أنفاسها المتساوي. فمضيت وجلست على حافة سريرها لأقوم بهذا العلاج المهدئ الذي من نسيم وتأمل. ثم انصرفت على مهل شديد كي لا أوقظها.

كان الوقت متأخراً إلى حدّ أني أوصيت «فرانسواز» منذ الصباح بالسير بخطى رقيقة حينما يقع عليها أن تمر أمام غرفتها. و«فرانسواز» أوصت، وفي يقينها أننا قضينا الليل في ما كانت تدعوه حفلات فاجرة، أوصت الخدم الباقين بلهجة ساخرة ألا «يوقظوا الأميرة». وكان ذلك أحد الأمور التي كنت أخشاها كأن لا تستطيع «فرانسواز» ذات يوم أن تتمالك نفسها من بعد وأن تكون وقحة مع «ألبيرتين» وأن يجر عليّ ذلك تعقيدات في حياتنا. ذلك أن «فرانسواز» ما عادت حينئذ، كحالها في الفترة التي كانت تعاني فيها من حسن معاملة عمتي لـ«أولالي»، في سن يسمح لها بتحمل غيرتها بقلب صامد. فقد كانت تلك الغيرة تفسد، بل تشل وجه خادمتنا، إلى حد أني كنت أتساءل بين الحين والحين إن كانت لم تصبها،

في أعقاب نوبة غضب، أزمة قلبية خفيفة دون أن أكون لاحظت ذلك وبعدما طلبت هكذا أن يصان نوم «ألبيرتين»، لم أستطع في ما يخصني أن أظفر بشيء منه. كنت أحاول أن أفهم ما كانت عليه عقلية «ألبيرتين» الحقيقية. فهل اتقيت خطراً حقيقياً بالمسرحية المشؤومة التي مثلتها، وهل خطرت لها حقاً بين الحين والحين فكرة التوق إلى الحرية على الرغم من زعمها أنها تحس سعادة كبيرة في المنزل، أم كان ينبغي على العكس أن أصدق أقوالها؟ فأي الفرضيتين كانت هي الصحيحة؟ ولئن كان يتفق لي في الغالب، لئن انبغى أن يتفق لي على وجه الخصوص أن أوسع حالة من حياتي الماضية إلى حدود أبعاد التاريخ حينما أود محاولة إدراك حدث سياسي، فإني على عكس ذلك لم أنفك هذا الصباح أماثل بين أهمية ما جرى بيننا الليلة البارحة وبين حادثة دبلوماسية وقعت منذ وقت قريب، على الرغم من الفوارق الكثيرة، وفي محاولة لفهم ذاك الذي جرى.

ربما كان لي الحق في التفكير على هذه الصورة. فقد كان من المرجح جداً أن يكون مثال السيد «دو شارلوس» قد قاد خطاي دون علم مني في هذا المشهد الكاذب الذي كثيراً ما رأيته يمثله بقدر كبير من الثقة: من جهة أخرى هل كان من جانبه غير إدخال لا واعٍ في نطاق حياته الخاصة للنزعة العميقة الكائنة في سلالته الألمانية المفطورة على الاستفزاز تحايلاً والنزعة إلى الحرب استكباراً إن انبغى ذلك؟

فإنه لما أوحت شخصيات مختلفة من بينها أمير «موناكو» للحكومة الفرنسية بأنها إن لم تتخل عن السيد «ديلكاسيه» فستشنّ ألمانيا المتوعدة الحرب فعلاً، فقد طُلب إلى وزير الخارجية أن يستقيل. لقد قبلت الحكومة الفرنسية إذن بفرضية شن الحرب علينا إن لم نرضخ. لكن ثمة أشخاصاً آخرين كانوا يظنون أن الأمر محض خدعة وأن ألمانيا ما كانت لتشهر السيف لو أن فرنسا صمدت. لا شك أن لم يكن السيناريو مختلفاً فحسب بل هو قارب أن يكون العكس بما أن التهديد بقطع العلاقة بي لم يصدر قط عن «ألبيرتين»، لكن جملة من الانطباعات حملت إليّ الاعتقاد

بأنها كانت تفكر فيه، مثلما توافر ذلك الاعتقاد للحكومة الفرنسية حيال ألمانيا. وإن كانت ألمانيا من جهة أخرى راغبة في السلام فإن بعث الفكرة التي مفادها أنها تبغي الحرب لدى الحكومة الفرنسية إنما كان تحاذقاً مشكوكاً فيه وخطيراً. صحيح أن تصرفي كان حاذقاً إلى حدّ كافٍ إن كانت الفكرة التي مفادها أني لن أعقد العزم في يوم على قطع علاقتي بها هي التي كانت تبعث في صدر «أليبرتين» أشواقاً مفاجئة إلى الاستقلال. ثم أما كان عسيراً أن أعتقد أنه لم يكن لديها شيء من ذلك وأن آبى أن أبصر فيها حياة خفية كاملة مصروفة إلى إشباع هوايتها الشريرة لمحض ملاحظة الغيظ الذي علمت به أني ذهبت إلى منزل آل «فيردوران» فصرختْ قائلة: «كنت متيقنة من ذلك»، وأكملت تميط اللثامَ عن كل شيء بقولها: «كان لا بد أن تكون الآنسة «فانتوي» عندهم؟» والكل يؤكده لقاء «أليبرتين» والسيدة «فيردوران» الذي أماطت «أندريه» النقاب عنه. لكن هذا التوق المفاجئ إلى الاستقلال، كما كنت أقول في نفسي حينما أحاول المضي بعكس غريزتي، ربما سببته - بافتراض أنه موجود -، أو انتهى به الحال إلى أن تسببه الفكرةُ المعاكسة وأعني بها أنه لم يخطر لي في يوم أن أتزوجها وأني إنما كنت أقول الحقيقة حينما كنت ألمح وكأنما غير متعمد إلى انفصالنا القريب، وأني سوف أهجرها في جميع الأحوال في هذا اليوم أو ذاك. وهو اعتقاد لم يستطع ما جرى بيننا في هذا المساء إلا أن يعززه حينذاك لكنما كان بوسعه في نهاية المطاف أن يولد لديها هذا القرار: «إن كان ذلك سيقع حتماً في هذا اليوم أو ذاك فالأحرى أن تنتهي منه في الحال. إن الإعدادات للحرب التي ينادي بها أكثر الأقوال المأثورة بعداً عن الحقيقة لضمان انتصار إرادة السلام إنما تنشئ بادئ الأمر على العكس الاعتقاد لدى كل من الخصمين بأن الآخر راغب في القطيعة، هذا الاعتقاد الذي يجلب القطيعة، وبعد أن وقعت، الاعتقاد الآخر لدى كل من الاثنين بأن الآخر هو الذي ابتغاها، إن نجاح التهديد، وإن لم يكن التهديد صادقاً، إنما يحملك على الأخذ به مجدداً. لكن النقطة الدقيقة

التي يمكن للخدعة أن تنجح في حدودها صعبة التحديد؛ فإذا ذهب أحدهما أبعد مما يجب فإن الآخر الذي رضخ حتى ذاك يتقدم بدوره: أما الأول فيستمر، إذ لا يعلم من بعد كيف يغيّر طريقته وقد تعود الفكرة القائلة بأن الظهور مظهر من لا يخشى القطيعة هو أفضل طريقة لتجنبها (وهو ما أقدمتُ عليه هذا المساء مع «ألبيرتين»)، وتعود من جانب آخر أن يفضل الموت على الاستسلام، يستمر في دأبه على التهديد إلى الوقت الذي لا يقوى فيه أحد من بعد على التراجع. من الممكن كذلك أن يختلط الخداع بالصدق، أن يتناوب وإياه وأن يصبح ما كان لعباً بالأمس واقعاً في الغد. وأخيراً يمكن كذلك أن يحدث أن يكون أحد الخصمين مصمماً على هذه الحرب تصميماً حقيقياً، أن تعقد «ألبيرتين» مثلاً العزم عاجلاً أم آجلاً على رفض الاستمرار في هذه الحياة من بعد أو ألا تكون خطرت لها البتة فكرته وأن يكون خيالي قد اختلقها كلياً. تلك كانت الفرضيات المختلفة التي فكرت فيها فيما كانت نائمة في ذاك الصباح. بيد أنه يمكنني أن أقول، في ما يخص الفرضية الأخيرة، إني لم أهدد البتة في الفترات التالية «ألبيرتين» بالهجران إلا رداً على فكرة لديها عن حرية فاسدة، فكرة ما كانت تعرب لي عنها لكنها كانت تبدو لي متضمّنة في بعض وجوه الاستياء الغامضة، في بعض الأقوال وبعض الحركات التي كانت تلك الفكرة التفسير الوحيد الممكن لها والتي كانت تأبى أن تقدم لي بشأنها أي تفسير. وكثيراً ما كنت أعاينها دون أن أقوم بأي تلميح إلى انفصال ممكن أملاً أن تكون ناجمة عن مزاج معكر سيزول في ذلك اليوم، لكن هذا المزاج كان يمتد أحياناً أسابيع كاملة دون انقطاع. أسابيع كان يبدو أن «ألبيرتين» تبغي فيها إثارة نزاع، كما لو كان ثمة في تلك الفترة، وفي منطقة كثيرة أو قليلة البعد، متع تعرفها ويحرمها إياها احتجازها في بيتي، وكانت تؤثر فيها إلى أن تكون انتهت كتلك التغيرات الجوية التي تؤثر في أعصابنا حتى في ركن نارنا وإن هي تشكلت في مكان بعيد بعد جزر «الباليار».

في ذاك الصباح وبينما كانت «ألبيرتين» نائمة وكنت أحاول أن أستشفّ مكنونات صدرها وردتني رسالة من أمي تعرب لي فيها عن قلقها من أنها لا تعرف شيئاً عن قراراتي بهذه الجملة للسيدة «دو سيفينييه»: «إني على يقين في ما يخصني أنه لن يتزوج: فلمَ إشاعة القلق إذاً في صدر هذه الفتاة التي لن يتزوجها في يوم؟ ولم المجازفة بحملها على رفض أزواج لن تنظر إليهم من بعد إلا بازدراء؛ ولم نشيع القلق في صدر شخص ما أيسر أن نتجنبه؟» وأعادتني رسالة أمي تلك إلى الأرض، قلت في نفسي: لم أروح أبحث عن نفس غامضة وأفسر وجهاً وأحسني مطوقاً بهواجس لا أجرؤ على التعمق فيها؛ لقد كنت أحلم، والأمر في غاية البساطة. فأنا شاب متردد والمسألة تتعلق بواحدة من تلك الزيجات التي تستغرق بعض الوقت لنعلم إن كانت ستتم أم لا، وليس ثمة ما كان في الأمر خاصاً بـ«ألبيرتين». وأولتني هذه الفكرة ارتياحاً عميقاً ولكنه قصير. فسرعان ما قلت في نفسي: «بإمكاننا أن نرد كل شيء بالفعل، إن نحن أخذنا في الاعتبار الجانب الاجتماعي. إلى الأحداث العادية الأكثر شيوعاً: فربما رأيت الأمر على هذه الصورة من الخارج. لكني أعلم تماماً أن الصحيح، ما هو على الأقل صحيح بدوره، هو كل ما خطر لي، هو كل ما قرأته في عيني «ألبيرتين»، وهي المخاوف التي تعذبني، هي المسألة التي أطرحها على نفسي دون انقطاع بخصوص «ألبيرتين». وقصة الخطيب المتردد والزواج المفسوخ يمكن أن تقابل ذلك مثلما يمكن لتقرير مسرحي حرره مراسل يتسم بالحس السليم، أن يعطينا موضوع مسرحية لـ«إيبسن». لكنما ثمة شيء آخر غير هذه الأحداث التي يروون عنها. وصحيح أن هذا الشيء الآخر ربما كان موجوداً إن عرفنا كيف نراه لدى كل الخاطبين المترددين وفي سائر الزيجات التي يتباطؤون في إتمامها إذ ربما كان ثمة خفايا في حياة كل يوم. كان يمكنني أن لا أكترث بها في ما يخص حياة الآخرين، أما حياة «ألبيرتين» وحياتي فقد كنت أحياها من الداخل.

منذ تلك الأمسية لم تقل لي «ألبيرتين» أكثر مما فعلتْ في الماضي:

«أعرف أنك لا تثق بي وسأحاول تبديد شكوكك». لكن هذه الفكرة التي لم تعرب عنها البتة ربما كان أمكن أن تكون بمثابة تفسير لأقل أفعالها. فإنها لم تكن تتدبر أمرها فحسب بغية أن لا تلبث وحدها لحظة واحدة بحيث لا يمكنني أن أجهل ما قد قامت به إن لم أصدق تصريحاتها الخاصة، بل هي كانت تزعم، حينما يقع عليها أن تهاتف لـ«أندريه» أو المرآب أو ميدان الخيول أو أي مكان آخر. إن، بقاءها وحيدة بغية الاتصال إنما يبعث على الملل الشديد نظراً للزمن الذي كانت تصرفه الآنسات ليوفرن لك الاتصال، وكانت تتدبر أمرها كي أكون بالقرب منها في تلك اللحظة. وإن لم أكن فـ«فرنسواز»، كما لو أنها خشيت أن أتخيل اتصالات هاتفية تلام عليها وتفيد في تحديد مواعيد خفية. كل ذلك لم يكن يوفر لي الطمأنينة. وا أسفي! وكان «إيميه» قد رد في صورة «إستير» قائلاً إنها لم تكن هي. إذاً ثمة أخريات أيضاً؟ ومن يكنّ؟ وأعدت هذه الصورة إلى «بلوك». أما الصورة التي وددت أن أراها فهي تلك التي أعطتها «ألبيرتين» لـ«إستير». كيف كانت فيها؟ مكشوفة العنق والكتفين ربما: ومن ذا يعلم إن هما لم تتصورا سوية؟ لكنني لم أكن أجرؤ على التحدث عن ذلك لـ«ألبيرتين» فربما بدا عليّ أني لم أشاهد الصورة، ولا لـ«بلوك» الذي ما كنت أود أن أبدو حياله وكأنما أهتم بـ«ألبيرتين». تلك الحياة التي كان أقرّ أنها بالغة القسوة عليّ وعلى «ألبيرتين» كل من كان على بينة من شكوكي وعبوديتها كانت تعتبر من الخارج في نظر «فرانسواز» حياة ملذات غير مستحقة كانت حاذقة في توفيرها لنفسها تلك «الساحرة» وتلك «الكراكوزة»، كما تقول «فرانسواز» التي كانت تستخدم هذا المؤنث بما يجاوز كثيراً استخدامها للمذكر لأنها أكثر حسداً للنساء، بل هي كانت تقول (إذ كانت «فرانسواز» قد أغنت مفرداتها في قربها مني بكلمات جديدة ولكنها ترتبها بطريقتها الخاصة)، كانت تقول عن «ألبيرتين» إنها لم يسبق أن عرفت إنساناً بهذا «الغدر» وإنها كانت تعرف كيف «تسحب مني فلوسي» بالإجادة في تمثيل الكوميديا (التي كانت «فرانسواز»، وهي

تحسب الخاص عاماً بذات السهولة التي تحسب فيها العام خاصاً، ولا تملك سوى أفكار غامضة إلى حد ما حول التمييز بين أجناس الفن المسرحي، كانت تدعوها «الإجادة في تمثيل الإيمائيات». ذلك الخطأ حول حياتنا الحقيقية، أنا و«ألبيرتين». ربما كنت أنا نفسي مسؤولاً عنها إلى حد ما جراء التأكيدات الغامضة التي كنت أسر بها عنها بمهارة في أثناء حديثي مع «فرانسواز» رغبة مني إما في مضايقتها وإما في أن أبدو على الأقل سعيداً إن لم أكن محبوباً. أما غيرتي والرقابة التي كنت أمارسها على «ألبيرتين»، وشد ما وددت ألا ترتاب «فرانسواز» بأمرهما، فلم تلبث هذه الأخيرة أن كشفتهما، وقد أرشدها إلى ذلك، كحال مناجي الأرواح الذي يلقى حاجة وهو معصوب العينين، ذاك الحدس الذي لديها حيال الأشياء التي يمكن أن تشق عليّ، ولا تدع للأكاذيب التي يمكن أن أقولها لتضليلها أن تصرفها في غايتها إلى جانب تلك الكراهية لـ«ألبيرتين» التي كانت تدفع «فرانسواز» إلى اكتشاف ما يمكن أن يودي بعدواتها ويعجل في سقوطهن - أكثر منها بعد إلى الظن بأنهن أكثر سعادة وأوفر حيلة في تمثيلهن مما هن عليه. و«فرانسواز» بالتأكيد لم تعنف «ألبيرتين» في يوم، وتساءلت إن كانت «ألبيرتين» في إحساسها أنها مراقبة، لن تحقق بنفسها هذا الانفصال الذي سبق أن هددتها به، فإن الحياة في تغيرها إنما تصنع حقائق من اختلافات خيالنا. ففي كل مرة كنت أسمع باباً يفتح كنت أرتعش ذات ارتعاش جدتي في أثناء احتضارها كل مرة أقرع فيها الجرس. ما كنت أظنها تخرج دون أن تكون أنبأتني بذلك، لكن لا وعيي هو الذي كان يظن ذلك كما كان لاوعي جدتي هو الذي كان يختلج لدقات الجرس في حين كانت فاقدة الوعي، بل اتفق لي فجأة ذات صباح اضطراب مفاجئ من أن تكون خرجت فحسب بل رحلت. فقد سمعت منذ قليل باباً بدا لي حقاً أنه باب غرفتها. وذهبت خفيف الخطى حتى غرفتها ودخلت ومكثت في العتبة. كانت الملاءات في العتمة منفخة بصورة نصف دائرية، وكان لا بد أنها «ألبيرتين» تنام مقوسة الجسم ورجلاها ورأسها إلى

الجدار، وحده شعر هذا الرأس الذي يتجاوز السرير أسود كثيفاً أفهمني أنها هي وأنها لم تفتح بابها ولم تتحرك، وأحسست نصف الدائرة هذا لا حراك به وزاخراً بالحياة، وفيه تقوم حياة بشرية كاملة كانت الشيء الوحيد الذي أقيم له وزناً: لقد شعرت أنه هنا، ملك يدي المسيطرة.

لكنني كنت أعرف في الإلحاح لدى «فرانسواز» والفائدة التي تجيد جنيها من إخراج للأمور ذي مغزى، ولست أستطيع أن أصدق أن تكون صبرت على إفهام «ألبيرتين» يومياً ما كان الدور الذي تنهض به في المنزل، وإثارة جنونها بوصف الحجز الذي تخضع له صديقتي وصفاً بولع في رسمه بصورة علمية. لقد لقيت «فرانسواز» ذات مرة تبحث في أوراقي، وقد ركزت نظارتين ضخمتين، وتضع واحدة بينها كنت سجلت فيها قصة تتعلق بـ«سوان» واستحالة أن يكون في غنى عن «أوديت». أفكانت تركتها هنا مرمية دون قصد في غرفة «ألبيرتين»؟ وإنه لمن المحتمل على أي حال أنه لا بد ارتفع فوق سائر مضمرات «فرانسواز»، ارتفع إلى مستوى أعلى وأوضح وأكثر إلحاحاً الصوت المتهِم المفتري لآل «فيردوران» وقد أوغر صدرهم أن يروا «ألبيرتين» تمسك بي دون قصد، وأمسك أنا بها متعمداً بعيداً عن العشيرة الصغيرة، وما كانت «فرانسواز» من ذلك الصوت سوى الصدى الهامس الغادر في الطبقة الدنيا.

فأما المال الذي كنت أنفقه من أجل «ألبيرتين» فقد كان يستحيل عليّ تقريباً إخفاؤه عن «فرانسواز» إذ لم يكن بمقدوري إخفاء أية نفقة عنها. كانت «فرانسواز» قليلة العيوب، لكن هذه العيوب جعلت لها لتخدمها مواهب حقيقية كانت في الأغلب تفتقر إليها خارج عمل هذه العيوب. كان الرئيسي منها هو الفضول المطبق على المال الذي تنفقه على آخرين غيرها. فإن كان لديّ حساب أسدده أو إكرامية أعطيها فعبثاً أنتحي جانباً إذ كانت تجد طبقاً ترتبه، منشفة تأخذها، أي شيء يسمح لها بالاقتراب. كانت تلك المرأة، مهما قل الوقت الذي أدعه لها إذ أصرفها غاضباً، تلك المرأة التي لم تعد ترى بوضوح تقريباً وتكاد لا تعرف العد، «فرانسواز»

تلك، يقودها ذاك الذوق نفسه الذي يجعل خياطاً يخمن بالغريزة إذ يراك قماش ردائك وهو حتى لا يتمالك أن يجسه أو يجعل رساماً يتحسس جواً لونياً معيناً، كانت ترى خلسة وتعدّ في الحال ما كنت أعطي، فإن كنت أستبق الأمور وأقول معتذراً عن الإكرامية كي لا يمكنها أن تقول لـ«ألبيرتين» إني أرشو سائقها: «لقد شئت أن أكون لطيفاً مع السائق ونقدته عشرة فرنكات». كانت «فرانسواز»، وهي لا شفقة عندها وكانت نظرة النسر العتيق الأعمى كافية لديها، كانت تجيب قائلة: «لا، لقد أعطاه سيدي ثلاثة وأربعين فرنكاً إكرامية لقد قال لسيدي إن ثمة خمسة وأربعين فرنكاً معه وأعطاه سيدي مئة فرنك فلم يرد له سوى اثني عشر فرنكاً». لقد توافر لها الوقت لترى وتحسب مبلغ الإكرامية الذي كنت أجهله أنا.

لئن كان هدف «ألبيرتين» أن ترد لي شيئاً من الهدوء فقد أفلحت جزئياً في ذلك، فما كان عقلي يطلب على أية حال سوى أن يقيم البرهان على أني أخطأت حول مقاصد «ألبيرتين» الشريرة مثلما ربما كنتُ مخطئاً حول غرائزها الفاسدة. كنت آخذ في اعتباري دونما شك، في تقييم الحجج التي يزودني عقلي بها، الرغبة التي بي في أن أجدها صائبة. لكن إنْ كان ينبغي، كي أكون منصفاً ويحالفني الحظ في رؤية الحقيقة، ما لم أسلم بأنها لن تعرف البتة إلا بالحدس، بانبعاث تخاطري، أما كان ينبغي أن أقول في نفسي إنه إن كان عقلي في محاولته توفير شفائي يدع لرغبتي أن تقوده، فإن غريزتي في المقابل، فيما كان يتعلق بالآنسة «فانتوي» وعيوب «ألبيرتين» ومقصدها بأن تكون لها حياة أخرى وعزمها على الانفصال، وكانت جميعها النتائج الطبيعية لعيوبها، إن غريزتي كان يمكن في ما يخصها، وسعياً منها في إمراضي، أن تضللها غيرتي؟ وإن احتجاز «ألبيرتين» من جانب آخر، وكانت تتدبر أمره ببراعة عظيمة كي تجعله مطلقاً. قد نزع مني شيئاً فشيئاً الريبة إذ نزع مني العذاب وأمكنني حينما كان المساء يعيد صنوف قلقي أن أعود فألقى في وجود «ألبيرتين» سكينة الأيام الأولى. كانت تحدثني وهي جالسة قرب سريري عن واحد من تلك

الأزياء أو تلك الحاجات التي كنت لا أكف عن إعطائها إياها في محاولة لجعل حياتها أكثر لطفاً وسجنها أوفر جمالاً، فيما أخشى أحياناً أن توافق السيدة «لاروشفوكو» رأيها، تلك التي أجابت شخصاً كان يسألها إن لم تكن مسرورة لوجودها في مسكن جميل كما هو «لبانكور» بأنها لا تعرف سجناً جميلاً.

وهكذا، إن كنت سألت السيد «دو شارلوس» حول الفضيات الفرنسية القديمة، فلأننا، حينما عقدنا العزم على امتلاك يخت، وهو مشروع حكمت «ألبيرتين» أنه غير قابل للتحقيق - وحكمت أنا في كل مرة عدت فآمنت فيها بفضيلتها فلا تكبت غيرتي المتناقضة من بعد رغبات أخرى لا مكان لها فيها وتتطلب بدورها مالاً لإشباعها - قمنا تحسباً لأي طارئ، ودون اعتقاد منها على أي حال بإمكان أن يتوافر لنا واحد في يوم، بسؤال «إيلستير» النصح. وإنما كان ذوق الرسام مرهفاً ومتشدداً بشأن تأثيث اليخوت بقدر ما كان بشأن ملابس النساء. فما كان يسلّم فيها إلا بالأثاث الإنكليزي والفضيات القديمة. لم تفكر «ألبيرتين» بادئ الأمر إلا بالأثواب والأثاث. والآن أخذت الفضيات تثير اهتمامها وقد حملها ذلك منذ أن عدنا من «بالبيك» إلى قراءة مؤلفات حول فن الفضيات ومناقش قدماء النقاشين. بيد أن الفضيات القديمة شديدة الندرة إذ هي صهرت مرتين في حين معاهدات «أوتريخت»، يوم بادر الملك نفسه وتبعه في ذلك كبار القوم إلى إعطاء آنيته الفضية، وفي عام ١٧٨٩. ثم إن الصياغ الحديثين قاموا عبثاً بتقليد كل هذه الآنية الفضية وفقاً لرسوم منطقة «بونتوشو»، فقد كان «إيلستير» يرى هذا القديم الجديد غير أهل لدخول مسكن امرأة ذواقة، وإن يكن مسكناً عائماً. كنت أعلم أن «ألبيرتين» قرأت وصف الروائع التي سبق أن صنعها «روتييه»[1] للسيدة «دو باري». كانت تذوب شوقاً، إن كان لا يزال ثمة بعض قطع منها، إلى رؤيتها، وأنا إلى إعطائها إياها. بل هي

---

(١) Roettiers: أحد صاغة بلاط لويس الخامس عشر.

كانت باشرت مجموعات جميلة كانت تضعها بذوق بديع في خزانة زجاجية وما كنت أقوى على النظر إليها دون أن يرق لها قلبي ودون أن يعتريني الخوف لأن الفن الذي كانت ترتبها به كان ذاك الذي كله طول أناة وبراعة وحنين وحاجة إلى النسيان، ذاك الذي ينصرف إليه الأسرى.

أما بخصوص الملابس النسائية فقد كان ما يروقها على وجه الخصوص في تلك الفترة هو كل ما يصنعه «فورتوني». وفساتين «فورتوني» تلك التي سبق أن شاهدت أحدها على السيدة «دو غيرمانت» إنما كانت تلك التي أنبأنا «إيلستير»، حينما كان يحدثنا عن أثواب معاصرات «كارباتشيو» و«تيتسيان الرائعة، بقرب ظهورها تنبعث من رمادها الباذخ لأن كل شيء ينبغي أن يعود مثلما هو مدون في قباب القديس مرقص[1] وكما تعلن عن ذلك الطيور التي تشرب في أجران تيجان الأعمدة البيزنطية التي من مرمر، ويشبه الطيور التي تعني الموت والقيامة في آن معاً. وحالما شرعت النساء في ارتدائها تذكرت «ألبيرتين» وعود «إيلستير» وهاجها الشوق إليها وكان لا بد لنا أن نمضي لاختيار إحداها. على أن تلك الفساتين، إن لم تكن من تلك القديمة الحقيقية التي تبدو فيها نساء اليوم مسرفات بعض الشيء في التنكر والأجمل أن يحتفظ بها كقطعة في مجموعة (وكنت على أي حال أبحث بدوري عن مثلها لـ«ألبيرتين»)، لم تكن تتسم كذلك ببرودة تقليد القديم المزيف. لقد كانت بالأحرى من قبيل زخارف «سير» و«باكست» و«بونوا»[2] الذين كانوا يذكرون في هذه الفترة في مسرح الباليه الروسي بعصور الفن الأقرب إلى الفؤاد بوساطة أعمال فنية مشبعة بروحهم ومبتكرة مع ذلك: هكذا كانت فساتين «فورتوني»، وهي أمينة على قديمها لكنها مبتكرة إلى حد بعيد، كانت تبرز، على هيئة زخارف، بل إن قدرتها على الإيحاء أقوى من الزخارف بما أن الزخارف

---

(١) كنيسة ذائعة الصيت في البندقية.

(٢) Sert وBakst وBenois من أعظم صناع الديكور في مسرح الباليه الروسي آنئذ.

لا تزال تقتضي التخيل، تخيل البندقية المزدحمة بالشرق التي ربما ارتُدِيَتْ فيها وكانت منها، وهي تذكر أفضل مما تفعل ذخيرة في مذخرة القديس مرقص بشمسها والعمائم المحيطة، وباللون المتكسر المبهم المتكامل. كل شيء من ذلك العصر كان قد زال، لكن كل شيء كان يولد من جديد تستذكره، بغية الربط بينهما بروعة المشهد وضجيج الحياة، بالطلوع المفاجئ المجزأ الباقي على الزمن لأقمشة زوجات الدوجات[١].

أردت مرة أو اثنتين أن أطلب بهذا الشأن نصيحة السيدة «دو غيرمانت». لكن الدوقة ما كانت تحب الأثواب التي هي أقرب إلى البزة الرسمية. وهي نفسها ما كانت ترتاح إلا بارتداء المخمل الأسود تزينه ماسات. ولم تكن مشورتها كبيرة الفائدة بالنسبة لفساتين كتلك التي لـ«فورتوني». وكانت بي على أية حال خشية، وأنا أطالبها بذلك، من أن يبدو أني لا أذهب للقائها إلا عندما أكون بالمصادفة بحاجة إليها في حين كنت أرفض لها منذ زمن طويل عدة دعوات في الأسبوع. وما كنت على أية حال أتلقى دعوات منها وحدها بهذه الكثرة. صحيح أنها وكثيرات غيرها من النساء كن على الدوام شديدات اللطف حيالي. لكن انحباسي كان بالتأكيد قد ضاعف من ذاك اللطف. ويبدو في دنيا المجتمع الراقي، وهي صورة باهتة لما يجري في دنيا الحب، يبدو أن أفضل طريقة كي يُسعى إليك هي أن تحتجب. إن رجلاً ليحسب كل ما يمكن أن يستشهد به من أعمال ترفع من شأنه كيما يحسن في عيني امرأة، ولا يني ينوع في ملبسه ويعتني بمحياه، فلا تبدي له واحداً فحسب من الألطاف التي تبديها له هذه الأخرى التي جعلها تتعلق أبداً به في خيانته لها وعلى الرغم مما يبدو أمامها وسخاً وعديم الحيلة ليحسن في عينها. كذلك إن أسف أحد أن لا يسعى إليه الناس بالقدر الكافي فلن أقول له أن يزيد بعد من زياراته

---

(١) Doge الدوج: رئيس منتخب كان يشارك مع زملائه في قيادة الحكم في البندقية وجنوا.

وأن يقتني وسائل نقل أرفع مستوى، بل أنصحه ألا يلبي أية دعوة وأن يعيش حبيس غرفته وألا يدع أحداً يدخلها وحينئذ يزدحم الناس حول بابه. أولاً أقول له ذلك بالأحرى: فإنها طريقة مؤكدة لسعي الناس إليك لا تنجح إلا على غرار الطريقة التي تكون فيها موضع حب، يعني إن نحن لم نتخذها لذاك الغرض، بل إن نحن على سبيل المثال لازمنا بالفعل غرفتنا على الدوام لأننا نعاني مرضاً خطيراً أو تظن أننا كذلك، أو لأننا نحتبس فيها عشيقة نفضلها على الناس جميعاً (أو الثلاثة مجتمعة في الآن نفسه)، الناس الذين سيتخذون من ذلك سبباً، ودون أن يدروا بوجود تلك المرأة ولمجرد أنك تتمنع عليهم، ليفضلوك على سائر الذين يعرضون أنفسهم ويتعلقوا بك.

وقلت لـ«ألبيرتين»: «لا بد إذ نحن بصدد الغرفة أن تهتم عما قريب بمبذلك الذي لـ«فورتوني»». سوف يكون ذلك بالنسبة إليها فعلاً، وهي التي تاقت إليها طويلاً، والتي ستصرف وقتاً طويلاً في اختيارها برفقتي، والتي خصصت لها سلفاً مكانها لا في خزانتها فحسب بل في مخيلتها والتي ستطيل في حب كل تفصيل فيها كيما يقرّ قرارها بين الكثير منها، سوف يكون ذلك أمراً يفوق ما هو عليه بالنسبة إلى امرأة مفرطة الثراء تقتني من الفساتين أكثر مما تشتهي وتكاد لا تنظر إليها. على أني لاحظت، على الرغم من الابتسامة التي شكرتني بها «ألبيرتين» وهي تقول لي: «هذا لطف زائد منك»، إلى أي حدّ بدت متعبة وحتى حزينة. بل كنت أبادر أحياناً، بانتظار أن تستكمل تلك التي كانت راغبة فيها، إلى استعارة بعضها، وأحياناً حتى مجرد أقمشة، وكنت ألبسها لـ«ألبيرتين»، كنت ألفّها بها، وتخطر في غرفتي بجلال زوجة «دوج» وعارضة أزياء. لكن عبوديتي في باريس إنما كانت رؤية هذه الفساتين تجعلها أشد ثقلاً عليّ إذ هي تذكرني بالبندقية. كانت «ألبيرتين» بالتأكيد سجينة بما يجاوز سجني كثيراً. ولقد كان أمراً غريباً كيف أن القدر الذي يحول الكائنات. كيف استطاع المرور عبر جدران سجنها وتغييرها في جوهرها ذاته وأن يجعل من فتاة «بالبيك»

سجينة مبرمة وسهلة القياد. أجل، لم تحل جدران السجن دون اجتياز هذا التأثير؛ بل ربما هي التي انتجته، فهي لم تعد «ألبيرتين» ذاتها، لأنها لم تكن، كحالها في «بالبيك»، في هروب لا ينقطع على دراجتها، ولا يمكن العثور عليها بسبب كثرة الشواطئ الصغيرة التي تمضي إليها لتنام عند صديقات لها وحيث كانت كذباتها من جانب آخر تجعل الوصول إليها أكثر صعوبة. فإنها لم تعد، وهي سجينة لديّ مطواعة وحيدة، ما سبق أن كانت في «بالبيك» على الشاطئ، حتى حين كان باستطاعتي العثور عليها، ذلك الكائن الهروب المحاذر المخاتل الذي كان وجوده يتطاول بالكثير من المواعيد التي كانت بارعة في التستر عليها، والتي كانت تجعلها محببة لأنها تعذب الآخرين، إلى حد كنت تحس معه، خلف فتورها مع الآخرين وأجوبتها السخيفة، موعد البارحة وموعد الغد، ذلك الكائن المطوق في نظري بالازدراء والخداع. لقد كفت، لأن ريح البحر لم تعد تنفخ أثوابها ولأني كنت على وجه الخصوص قد قصصت جناحيها، كفت عن كونها تمثال النصر المجنح، لقد أضحت عبدة متثاقلة وددت لو أتخلص منها.

حينئذ كنت، بغية تغيير مجرى أفكاري، كنت أسأل «ألبيرتين» أن تعزف لي شيئاً من الموسيقى بدلاً من أبدأ معها لعبة ورق أو لعبة «داما». فكنت أمكث في سريري وتمضي هي فتجلس في ركن الغرفة أمام «البيانولا» بين دعامتي المكتبة. كانت تختار مقطوعات إما جديدة كلياً أو هي لم تعزفها بعد في حضرتي سوى مرة أو اثنتين لأنها بدأت تعرفني وتعلم أني لا أحب صرف انتباهي إلا إلى ما كان بعد غامضاً عليّ، وأن يسعني في أثناء أعمال العزف المتتالية هذه أن أضم بعضها إلى بعضها الآخر، بفضل الضوء المتنامي، لكنه، وا أسفي، مشوّه غريب، هذا الذي يطرحه عقلي عليها، خطوط البناء المجزأة المنقطعة، والبناء كان بادئ الأمر مغيباً تقريباً في الضباب. كانت تعرف وتدرك فيما أعتقد الفرح الذي تقدمه في المرات الأولى لفكري عملية التشكيل هذه لسديم لا شكل له بعد. وفيما كانت تعزف لم يكن بوسعي أن أبصر من شعر «ألبيرتين»

الكثيف سوى نفاخة من الشعر الأسود على شكل قلب ألصقت على طول الأذن مثل عقدة ابنة الملك لدى «فيلاسكيز»[1]. ومثلما كان حجم هذا الملاك الموسيقي مشكَّلاً من المشاوير المتعددة بين نقاط الماضي المختلفة التي كانت تشغلها ذكراه في داخلي ومن المراكز المختلفة لتلك الذكرى، من الرؤية حتى الأحاسيس الأكثر جوانية في كياني والتي كانت تعينني على الانحدار حتى صميم كيانها، كان للموسيقى التي تعزفها حجمها أيضاً تصنعه إمكانية الرؤية اللامتساوية لمختلف الجمل حسبما أفلحت في كثير أو قليل في أن أبعث فيها النور وفي أن أضم بعضها إلى بعض خطوط بناء كان بدا لي أول الأمر وكأنما كله تقريباً غارق في الضباب، كانت «ألبيرتين» تعلم أنها تسرني حين لا تضع نصب فكري إلا أشياء لا تزال مبهمة وإلا تشكيل هذه السدم. كانت تحس أن عقلي، في العزف الثالث أو الرابع، وبعدما يكون بلغ أجزاءه كلها ووضعها بالتالي على ذات المسافة، ولم يعد عليه من نشاط يبذله حيالها، قد نشرها وجمدها والعكس بالعكس على مستوى متساوٍ. لكنها لم تكن تنتقل بعد إلى مقطوعة جديدة، ذلك لأنها كانت تعلم، ربما دون أن تتبين تماماً النشاط الذي يجري في داخلي، أنه من النادر جداً، في الوقت الذي استطاع فيه نشاط عقلي أن يبدد غموض العمل الفني، ألا يكون في أثناء مهمته المشؤومة قد وضع اليد من باب التعويض على هذه الفكرة المفيدة أو تلك. ويوم كانت «ألبيرتين» تقول: «هذه لفيفة سنعطيها لـ«فرانسواز» كي تعمل على أن تبدلها لنا بأخرى»، كانت الدنيا في الغالب تتناقص دون شك مقطوعة موسيقية بالنسبة إليّ ولكنها تزيدني حقيقة بالمقابل.

كنت تبينت تماماً أنه من السخف أن أغار من الآنسة «فانتوي» وصديقتها بما أن «ألبيرتين» لم تكن تسعى البتة إلى لقائهما وهي استبعدت من تلقاء ذاتها من سائر مشروعات الاصطياف التي رسمناها «كومبريه».

---

(١) لوحة ابنة الملك للرسام Velasquez.

وما أقربها من «مونجوفان»، على حد أن ما كنت أطلب في الغالب أن تعزفه لي «ألبيرتين» إنما كان من موسيقى «فانتوي» ودون أن يعذبني ذلك. مرة واحدة كانت موسيقى «فانتوي» هذه سبباً غير مباشر في إثارة غيرتي. فإن «ألبيرتين» التي كانت تعلم أنه سبق لي أن سمعتها تعزف في منزل السيدة «فيردوران» على يد «موريل» كلمتني ذات مساء عنه معربة عن رغبة حارة في المبادرة إلى سماعه والتعرف إليه. كان ذلك بالضبط بعد يومين من اطلاعي على رسالة «ليا» إلى «موريل»، وكان السيد «دو شارلوس» وضع يده عليها من غير قصد. وتساءلت إن لم تكن «ليا» كلمت «ألبيرتين» عنه. وعادت فخطرت لي بما يثير الاشمئزاز كلمات «أيتها القذرة الشنيعة، أيتها الفاسقة المريعة»، ولكن، لأن موسيقى «فانتوي» بالضبط ارتبطت هكذا بـ«ليا» برباط الألم - وليس بالآنسة «فانتوي» وصديقتها - فقد استطعت، حينما هدأ العذاب الذي سببته لي «ليا»، سماع هذه الموسيقى دون عذاب. لقد شفاني داء من احتمال الأدواء الأخرى. كان ثمة في الموسيقى التي سمعتها في منزل السيدة «فيردوران» جمل خفيت على الأبصار، أطياف مبهمة غير واضحة المعالم آنذاك، أضحت هندسات رائعة. وبعضها كانت تضحي صديقة، وكدت سابقاً لا أميزها وكانت في أحسن الأحوال بدت قبيحة في عيني وما كنت لأصدق في يوم. كما هي حال أولئك الناس الثقال الظل في البداية، أنها تماماً كما نكتشفها ما إن نعرفها معرفة جيدة. كان بين الحالتين تحول حقيقي. ثم إني كنت من جانب آخر أماهي الآن بين جمل واضحة في المرة الأولى، لكني لم أكن تعرفتها آنذاك هناك، وبين جمل في المؤلفات الأخرى، كهذه الجملة في «التنويع الديني» لآلة الأرغن التي خفيت عليّ في منزل السيدة «فيردوران» في السباعية مع أنها، هي القديسة التي انحدرت على درجات المعبد، كانت تختلط بجنيات الموسيقى المألوفة. ثم إن الجمل التي كانت بدت لي قليلة الترطيب إلى حد بعيد ومبالغاً جداً في إيقاعها الآلي والمرتبطة بفرح أجراس الظهيرة المتعثرة كانت الآن هي ما أفضلها أكثر ما أفضل إما

لأني تعودت قبحها وإما لأني اكتشفت جمالها، إن ردة الفعل هذه على الخيبة التي توليها الروائح بادئ الأمر إنما يمكن أن نعزوها إلى ضعف الانطباع الأولي أو إلى الجهد اللازم لاستخلاص الحقيقة. تلكما فرضيتان تبرزان في سائر المسائل المهمة، مسائل حقيقة الفن والواقع وخلود النفس: وهو خيار لا بد منه بينهما: وكان هذا الخيار في ما يخص موسيقى «فانتوي» يعود فيبرز في كل لحظة بأشكال كثيرة. كانت تلك الموسيقى، مثلاً، تبدو لي شيئاً أكثر حقيقة من سائر الكتب المعروفة. كنت أفكر بين الحين والحين أن الأمر مرده أنه لما كان ما نحسه في الحياة لا يكون إحساسنا به بصورة أفكار فإن ترجمته الأدبية، يعني الفكرية، تبينه وتفسره وتحلله، لكنها لا تعيد تشكيله كالموسيقى التي تبدو فيها الأصوات وكأنها تتخذ انعطافة الكائن، كأنها ترسم هذا الطعم الداخلي القصي للأحاسيس الذي يشكل القسم الذي يولينا هذه النشوة الخاصة التي نعود فنلقاها بين آن وآخر والتي، حينما نقول: «يا للطقس الجميل! يا للشمس الجميلة!» لا نطلع عليها البتة من حولنا فإن الشمس ذاتها والطقس ذاته إنما يثيران في نفسه رعشات مختلفة كل الاختلاف. في موسيقى «فانتوي» كان من هذا القبيل رؤى يستحيل الإعراب عنها ويحظر تقريباً تأملها بما أننا حينما تبلغنا، إن يوافينا النوم، دغدغة سحرها الخيالي، في هذه الحظة ذاتها التي قد هجرنا فيها عقلنا تغتمض العينان وقبل أن يتسنى لنا أن نعرف لا ما يمتنع على القول فحسب بل ما لا يرى، يأخذنا النوم. كان يبدو لي، يوم أستسلم لهذه الفرضية التي يكون فيها الفن حقيقياً، أن الموسيقى يمكن أن ترسم لنا حتى أكثر من مجرد الاغتباط العصبي الناجم عن طقس جميل أو ليلة أفيون، فإنها إنما ترسم لنا نشوة أكثر حقيقية وأوفر خصباً، حسبما كنت أتوقع على الأقل. لكن يستحيل ألا يوافق نحت، أن لا توافق موسيقى توليك انفعالاً تحسه أكثر سمواً وأكثر حقيقية، واقعاً روحياً معيناً، فلا يكون للحياة \معنى من بعد. وهكذا لم يكن شيء يشبه أكثر من جملة جميلة لـ«فانتوي» تلك المتعة الخاصة التي أحسستُها أحياناً في

حياتي أمام أجراس «مارتنفيل» مثلاً أو بعض أشجار على طريق «بالبيك» أو ببساطة أكثر وأنا أحتسي، في بداية هذا المؤلف، كوباً معيناً من الشاي، وكمثل كوب الشاي هذا، كان كم من أحاسيس الضياء والنغمات المشرقة وضجيج الألوان التي كان «فانتوي» يبعث بها من العالم الذي يؤلف فيه يمرر أمام مخيلتي شيئاً ربما وسعني أن أشبهه بحرير جيرانيوم معطر، تمرره بإلحاح ولكنما بسرعة أكبر أن يسعها الإمساك به. إلا أنه بينما يمكن لهذا الإبهام في الذكرى أن يتوضح، إن لم يعمق، بفضل الكشف عن ظروف توضح لماذا استطاع طعم معين أن يذكرك ببعض أحاسيس مشرقة فإن الأحاسيس المبهمة التي يقدمها «فانتوي»، إذ هي لا تنجم عن ذكرى بل عن انطباع (كالانطباع الذي خلفته أجراء «مارتنفيل»)، كان لا بد أن نعثر لا على تفسير مادي لشذى الجيرانيوم في موسيقاه بل على المقابل العميق، العيد المجهول الملون (الذي كانت أعماله تبدو وكأنها أجزاؤه المفككة وشظاياه ذات الكسور القرمزية)، وهي الصيغة التي كان «يسمع» بها الكون ويسقطه خارج ذاته. تلك الصفة المجهولة لعالم فريد لم يستطع أي موسيقي آخر أن يكشفه لها في يوم، ربما كان يقوم في ذلك البرهان، فيما أقول لـ«ألبيرتين» البرهان الأكثر صدقاً على العبقرية، أكثر مما هو في مضمون العمل نفسه. وتسألني «ألبيرتين» قائلة: «حتى في الأدب؟» - «حتى في الأدب». كنت فيما أعيد التفكير في رتابة أعمال «فانتوي» أوضح لـ«ألبيرتين» أن الأدباء الكبار لم يضعوا قط سوى عمل واحد، أو هم بالأحرى عكسوا عبر أوساط مختلفة جمالاً واحداً يحملونه للعالم، كنت أقول لها: «لو لم يكن الوقت متأخراً يا صغيرتي لأريتك ذلك لدى كل الكتاب الذين تقرئين لهم فيما أنام، لأريتك ذات التماثل الذي نجده لدى «فانتوي»، هذه الجمل النماذج التي بدأت تتعرفينها مثلي يا عزيزتي «ألبيرتين»، هي نفسها في السوناتا والسباعية والأعمال الأخرى، ولعلها على سبيل المثال، إن شئت، عند «باربي دوريفييي»، حقيقة مخبأة يكشفها أثر مادي: الحمرة الفيزيزلزجية في المسحورة، وفي

«إيميه دو سبانس» و«لا كلوت»، واليد في «**الستارة القرمزية**»، والعادات القديمة والأعراف السالفة والكلمات العنيفة والمهن القديمة الفريدة التي يقف وراءها «الماضي»، التاريخ الشفوي الذي يرويه الرعاة في المرآة[١] والمدن النورماندية الكريمة المعطرة بعطر إنكلترا والجميلة كما هي قرية في اسكتلندا، والقاذفون باللعنات التي لا حول للمرء إزاءها، والمرأة «فيلليني» والراعي، وذات الإحساس بالضيق أمام منظر طبيعي، سواء أكانت المرأة التي تبحث عن زوجها في «**العشيقة العجوز**»، أو الزوج في «**المسحورة**» يضرب في الأرض البور والمسحورة ذاتها عن زوجها في القداس. وهي كذلك من قبيل الجمل النموذجية لدى «فانتوي» ومن قبيل هندسة نحات الأحجار تلك التي هي في روايات «توماس هاردي».

ذكرتني جمل «فانتوي» بالجملة الصغيرة وقلت لـ«ألبيرتين» إنها كانت كأنما النشيد الوطني لحب «سوان» و«أوديت» و«هما والدا «جيلبيرت» التي تعرفينها فيما أعتقد. لقد قلت لي إنها كانت قليلة اللباقة. أفلم تحاول أن تقيم علاقات معك؟ لقد حدثتني عنك».

- «أجل. لما كان ذووها يرسلون من ينقلها في عربة من الدرس حينما يكون الطقس رديئاً جداً ففي ظني أنها أعادتني ذات مرة وقبلتني». تقول بعد لحظة ضاحكة وكأنما تلك مسارة مسلية. «وسألتني فجأة إن كنت أحب النساء». (ولكن إن هي لم يتبادر لها سوى الظن فحسب بأنها تتذكر أن «جيلبيرت» قد أعادتها معها كيف كان بوسعها أن تقول بهذا القدر من الدقة أن «جيلبيرت» طرحت عليها هذا السؤال الغريب؟) «بل لست أدري أية فكرة غريبة أخذتني في أن أضللها فأجبتها أن نعم». (لكأنما خشيت «ألبيرتين» أن تكون «جيلبيرت» روت لي عن ذلك وهي لا تريد أن ألاحظ أنها كانت تكذبني القول). «لكننا لم نفعل شيئاً البتة». (والغريب، إن هما

---

(١) كل هذه الأمور واردة في كتاب باربيه دورفيبي، (Barbey d'Aurevilly) الذي عنوانه المسحورة (*L'Ensorcelée*).

تبادلتا هذه المسارات، ألا تكونا فعلتا شيئاً ولاسيما أنهما بادرتا قبل هذا إلى عناق في العربة، على حد قول «ألبيرتين»). «لقد أعادتني هكذا إلى المنزل أربع أو خمس مرات، وربما أكثر قليلاً، ولا شيء غير ذلك». وصادفت مشقة كبيرة في الامتناع عن طرح أي سؤال، لكني تمالكت نفسي كي يبدو أني لا أعير أية أهمية لكل هذا الأمر، وعدت إلى نحاتي الحجارة لدى «توماس هاردي».

«تتذكرين إلى حدّ ما في «**جود الغامض**»، وهل رأيت في «**المحبوبة**»، كتل الحجارة التي يستخرجها الأب من الجزيرة وتُقبِل في المراكب لتتكوم في محترف الابن حيث تضحي تماثيل: وفي «العينين الزرقاوين»[1] توازي القبور، وكذلك خطّ المركب الموازي والعربتين المتلاصقتين حيث نجد العاشقين والميتة، والتوازي بين «المحبوبة» حيث يحبّ الرجل ثلاث نساء و«العينين الزرقاوين» حيث تحبّ المرأة ثلاثة رجال، الخ. . وسائر هذه الروايات التي يمكن نضدها الواحدة فوق الأخرى كالبيوت المراكمة عمودياً على أرض الجزيرة الصخرية؟ لست أستطيع أن أكلمك هكذا على مدى دقيقة عن أكثرهم خطراً، لكنك قد تجدين لدى «ستاندال» شعوراً ما بالارتفاع يرتبط بالحياة الروحية، فالمكان العالي الذي سُجن فيه «جوليان سوريل»[2] والبرج الذي اعتقل في أعلاه «فابريس»، وقبّة الجرس التي ينصرف فيها الأب «بلانيس» إلى التنجيم والتي يتسنّى منها لـ«فابريس» إطلالة ما أجملها. قلت لي إنّه سبق أن رأيتِ بعض لوحات لـ«فيرمير»، وتلاحظين تماماً أنّها قطع من عالم واحد، أنّها دوماً، وأيّاً كان النبوغ الذي تُبدع فيه ثانية، الطاولة نفسها والسجادة نفسها والمرأة نفسها والجمال الجديد نفسه، وهو لغز في تلك الحقبة التي لا شيء فيها يشبهه أو يفسّره إن

---

(١) ثلاث روايات لـ«توماس هاردي» (Thomas Hardy) هي: «**جود الغامض**» (*Jude L'obscur*)، و«**المحبوبة**» (*La bien-aimée*) و«**العينان الزرقاوان**» (*Les yeux bleus*).

(٢) بطل رواية «**الأحمر والأسود**» (*Le Rouge et Le Noir*)، لـ«Stendhal».

لم نحاول إقامة صلة القربى فيه بالموضوعات بل استخلاص الانطباع الخاص الذي يورثه اللون. وإنّه، ذلك الجمال الجديد، ليلبث متماثلاً في سائر أعمال «دوستويفسكي»: أفليست المرأة لدى «دوستويفسكي» (وهي بمثل تفرّد المرأة لدى «رامبرانت»)[1]، بوجهها الغامض الذي ينقلب جماله الجذّاب فجأة، وكأنّما هي مثلّث مسرحية الطيبة، وقاحة فظيعة (مع ما يبدو في الأساس أنها طيبة بالأحرى)، أليست دوماً واحدة لا تتغيّر، سواء أكانت «نستازيا فيليبوفنا» إذ تحرّر رسائل حب لـ«أغلايه» وتقرّ لها أنها تبغضها، أم «غروشنكا» في زيارة مماثلة كلياً لهذه - وكذلك لتلك التي تشتم فيها «نستازيا فيليبوفنا» والدي «غانيا»)، وهي لطيفة لدى «كاترينا إيفانوفنا» بقدر ما حسبتها هذه مريعة، ثم هي تكشف فجأة عن خبثها فتشتم «كاترينا إيفانوفنا» (مع أن «غروشنكا» في جوهرها طيّبة)؟ «غروشنكا» و«نستازيا»، وهما صورتان بمثل تفرّد وغموض لا غانيات «كارباتشيو» فحسب، بل «بتشابع»[2] التي رسمها ـ«رامبرانت» كذلك. لاحظي أنّه عرف بالتأكيد غير هذا الوجه الزاهي المزدوج بانفراجات كبريائه المفاجئة التي تظهر المرأة على غير ما هي («لست على هذه الشاكلة»، يقول «مويشكين» أن يقول ذلك لـ«غروشنكا» في زيارته لـ«كاترينا إيفانوفنا»). لكنّه في المقابل حينما يريد أن يحظى بـ«أفكار للوحات» فإنها سخيفة على الدوام وربما ولّدت في أحسن الأحوال لوحات يود «مونكاكسي» أن يُمثّل فيها محكوم بالإعدام في اللحظة التي... الخ، والقديسة العذراء في اللحظة التي... الخ. ولكن هيّا نعد إلى الجمال الجديد الذي جاء به «دوستويفسكي» للعالم، فإن ثمة، كما هو الأمر لدى «فيرمير»، ابتداعاً لروح معين، للون معيّن، لأقمشة وامكنة، وليس ثمّة إبداع لأشخاص فحسب، بل لمساكن أيضاً لدى «دوستويفسكي»، وليس بيت الاغتيال في «**الجريمة والعقاب**»،

---

(١) بطل رواية «محبس بارما» (La Charteruse de Parme) للكاتب نفسه.

(٢) بتشابع هي زوجة أوريا الحثي وقد فتن النبي داود بجمالها فأرسل بأوريا إلى التهلكة وتزوجها من بعده.

ليس مع بوّابه بديعاً كما هي رائعة بيت الاغتيال عند «دوستويفسكي»، ذاك البيت العاتم، وما أطوله وأشدّ ارتفاعه وأوسعه، بيت «روغوجين» الذي يَقْتُل فيه «نستازيا فيليبوفنا». هذا الجمال الجديد المخيف لبيت من البيوت، وهذا الجمال الجديد المختلط في وجه امرأة، ذلك ما جاء به «دوستويفسكي» للعالم من أمر فريد، والمقاربات التي يمكن أن يقوم بها نقّاد أدبيّون وبين «غوغول» أو بينه وبين «بول دو كوك» لا أهمية لها بما أنّها تقع خارج هذا الجمال الخفي. وإن قلت لك على أيّ حال إنه المشهد نفسه من رواية إلى أخرى فإنما تستعاد داخل الرواية نفسها المشاهد ذاتها والأشخاص عينهم إن كانت الرواية طويلة، وباستطاعتي أن أريك ذلك بسهولة كبيرة في «**الحرب والسلم**»، وفي مشهد معين يجري في عربة...».

- «لم أشأ أن أقاطعك، ولكن بما أني أراك تدع «دوستويفسكي» جانباً فإني أخشى أن أنسى. فما الذي قصدت قوله يا عزيزي حينما قلت ذلك اليوم: «ذلك يشبه الجانب الدوستويفسكي» لدى السيدة «دوسيفينييه». ها إني أقرّ بأني لم أفهم، فإن ذلك يبدو لي مختلفاً ما أكثر اختلافه».

- «إليّ أيتها البنيّة كي أقبّلك لأشكرك لما تتذكّرين تماماً ما أقوله لك، وتعودين بعدها إلى البيانولا. وإني أقرّ بأن ما قلته بهذا الصدد كان غبياً إلى حد ما. لكني قلته لسببين. السبب الأول خاص. فقد اتفق أن ترينا السيدة «دو سيفينييه»، ومثلها «إيلستير» ومثلها «دوستويفسكي»، بدلاً من تقديم الأمور وفق تسلسلها المنطقي، يعني البدء بالسبب، ترينا بادئ الأمر النتيجة، الوهم الذي يدهشنا. هكذا يقدّم «دوستويفسكي» شخصياته. فإن أعمالهم تبدو لنا خدّاعة مثل تأثيرات «إيلستير» التي يبدو البحر فيها كأنه في السماء. وندهش كل الدهشة بعد ذلك أن نعلم أن هذا الرجل الماكر هو ممتاز في الأساس أو العكس».

- «أجل، ولكن هات مثلاً عن السيدة «دو سيفينييه». وأجبتها ضاحكاً: «أعترف أن الأمر مبالغ في كلفته وهيّن في منطقه، لكن بإمكاني في النهاية أن ألقي أمثلة. فإليك وصفاً».

- ولكن هل اغتال «دوستويفسكي» أحدهم في يوم؟ إن الروايات التي أعرفها له يمكن أن تدعى جميعها: قصة جريمة. إنها هوس لديه. وليس طبيعياً أن يتكلم دوماً عن ذلك». - «لا أعتقد يا صغيرتي «أليرتين»، فقلما أعرف حياته. والأكيد أنه، شأنه في ذلك شأن الجميع، عرف الإثم بهذا الشكل أو ذاك، والأرجح بالشكل الذي تحرمه القوانين. ولا بد أنه كان بهذا المعنى مجرماً بعض الشيء على غرار أبطاله الذين ليسوا مجرمين تماماً والذين تصدر عليهم أحكاماً بظروف مخففة. بل ربما لا داعي لأن يكون مجرماً. لست روائياً، ومن الممكن أن تغري المبدعين بعض أشكال حياتية لم يألفوها شخصياً. إن رافقتُك إلى «فيرساي» كما سبق أن اتفقنا فسوف أريك رسم الرجل الفاضل بامتياز وأفضل الأزواج «شودرلوس دو لاكلو» الذي كتب أحد أفظع الكتب فسقاً، وقبالته تماماً رسم السيدة «دو جانليس» التي كتبت قصصاً أخلاقية ولم تكتف بخداع دوقة «أورليان» بل أذاقتها العذاب بصرف أولادها عنها. على أني أقرّ مع ذلك أن هذا الانشغال بالقتل لدى «دوستويفسكي» يتّسم بشيء من الغرابة ويجعله غريباً جداً عنيّ. وإني يذهلني أن أسمع «بودلير» يقول:

**إن كان الاغتصاب والسم والخنجر والحريق...**
**فذلك لأن نفوسنا لا تملك للأسف الجرأة الكافية.**

لكنما يمكنني الاعتقاد على الأقل بأن «بودلير» ليس صادقاً. فيما «دوستويفسكي»... كل ذلك يبدو لي أبعد ما يكون عنيّ ما لم يكن في داخلي أجزاء أجهلها، فإن المرء لا يدرك نفسه إلا على مراحل متعاقبة. وإني واجد لدى «دوستويفسكي» أعماقاً سحيقة، لكنما في بضع نقاط متفرقة من النفس البشرية. بيد أنه مبدع كبير فالعالم الذي يرسمه يبدو حقاً، بادئ الأمر، وكأنه خُلق لأجله. فهؤلاء المهرّجون جميعاً الذين يعودون دون انقطاع، أمثال «ليبيديف» و«كرامازوف» و«ايفولغين» و«سيغريف» جميعاً، هذا الموكب الذي لا يصدق. وإنما تلك إنسانية أكثر

غرابة من تلك التي تعمر لوحة «الدورية الليلية» لـ«رامبرانت». وربما لم تكن غريبة مع ذلك إلا بالطريقة ذاتها، بالإضاءة والملابس، وهي في الأساس مألوفة. وهي في جميع الأحوال تفيض حقائق، هي عميقة وفريدة وملك «دوستويوفسكي» وحده. ويكاد يبدو ذلك، أولئك المهرجون، وظيفة لم تعد موجودة، كما هو شأن بعض شخوص الملهاة القديمة، ولكن كم هم يكشفون عن جوانب حقيقية من النفس الإنسانية! ما أضيق به ذرعاً هي الأبهة التي يتكلمون بها ويكتبون بها عن «دوستيوفسكي». هل لاحظت الدور الذي يقوم به الاعتزاز بالنفس والاستكبار لدى شخوصه؟ لكأنما الحب وأشد البغض، والطيبة والغدر، والخجل والوقاحة ليست جميعها في نظره سوى حالتين لطبيعة واحدة، الاعتزاز بالنفس والكبرياء اللذان يمنعان «أغلايه» و«نستازيا» والنقيب الذي يشدّ «ميتيا» لحيته، «كراسوتكين» العدو الصديق لـ«أليوشا» أن يظهروا «كما هم» في الواقع. بيد أن ثمة الكثير من الأمجاد الأخرى. إني قليل العهد بكتبه. ولكن أليست جريمة الوالد «كرامازوف» موضوعاً زخرفياً وبسيطاً جديراً بالفن الأكثر قدماً، أليست إفريزاً يتوقف وينطلق مجدداً وعليه يتجلى ويتعاقب الثأر والتكفير عن الذنوب، جريمة الوالد «كرامازوف» الذي حبّل المجنونة المسكينة، كما التحرك الغامض الحيواني الذي لا تفسير له والذي تبادر به الأم، وهي دون علم منها أداة ثارات القدر وتخضع بالغموض نفسه لغريزة الأمومة لديها. وربما لمزيج من الحقد والامتنان الجسدي تجاه المغتصب، إلى وضع طفلها في منزل «الوالد «كرامازوف»؟ وإنما هذا يؤلف الحلقة الأولى الغامضة العظيمة السامية كمثل خلق المرأة في منحوتات «أورفييتو»[1]. وفي نسخة مطابقة بالمقابل، الحلقة الثانية، بعد أكثر من عشرين عاماً، مقتل الوالد «كرامازوف»، والخزي الذي يلحق بأسرة «كرامازوف» من ابن المجنونة «سميردياكوف» تعقبه بعد قليل الفعلة

(١) منحوتات كنيسة «أورفييتو» من القرنين الثالث عشر والرابع عشر تمثل آدم وحواء.

نفسها زخرفيّة بمقدار الغموض نفسه ولا تفسير لها، ذات جمال يماثل في غموضه وفطريته الولادة في حديقة الوالد «كرامازوف»، «سميردياكوف» يطلّ بعد انحياز جريمته. أما «دوستويفسكي» فما كنت أعرض عنه بالقدر الذي تظنينه وأنا أتحدث عن «تولستوي» الذي قلده كثيراً، إن لدى «دوستويفسكي» الكثير، مركّزاً ويعد منكمشاً متأففاً، الكثير مما سيزدهر لدى «تولستوي». إن لدى «دوستويفسكي» العبوس السابق لآرائه الذي للفنانين البدائيين والذي سيوضحه التلاميذ. - «ياما يزعجني، أيها العزيز، أن تكون كسلان إلى هذا الحد. فانظر كيف ترى الأدب رؤيةً أكثر تشويقاً مما كانوا يدرّسوننا إياه: والوظائف التي كانوا يحملوننا على تسطيرها حول «إستير»: تتذكر يا سيد»، تقول لي ضاحكة، أقل منها لتسخر من معلميها ومن نفسها مما لمتعة أن تلقى في ذاكرتها، في ذاكرتنا المشتركة، ذكرى على شيء من القدم مذ ذاك.

ولكن فيما كانت تكلمني وكنت أفكر في «فانتوي»، كانت الفرضية الأخرى، الفرضية المادية، فرضية العدم، هي التي تطلع في خاطري، وكنت أعود فأشرع أشكّ وأقول في نفسي إنه ربما أمكن في النهاية أن ليس من شيء. إن بدت لي جمل «فانتوي» وكأنها التعبير عن بعض الحالات النفسية - وهي مماثلة للحالة التي أحسستها وأنا أذوق الكعكة المغموسة في كوب الشاي -، ليس من شيء يؤكد لي أن إبهام مثل هذه الحالات إنما هو دلالة على عمقها، بل على أننا لم نستطع بعد فحسب أن نحللّها وأنه ربما لم يكن ثمة فيها ما كان أكثر حقيقة مما هو في غيرها. لكنّما هذه السعادة، وحس اليقين هذا داخل السعادة فيما كنت أحتسي كوب الشاي وأتنشق في «الشانزيليزيه» رائحة حرج عتيق، لم تكن وهماً. ومهما يكن من أمر، هكذا كان يقول لي روح الشك، فإن سحر بعض جمل «فانتوي»، حتى إن كانت تلك الأحوال في الحياة أكثر عمقاً من أخرى غيرها وكانت تمتنع عن الحلّ بسبب ذلك عينه لأنها تطرح الكثير الكثير من القوى التي لم نتبيّنها بعد، إن سحر بعض جمل «فانتوي» يذكّر بها لأنه

بدوره يمتنع على الحل، لكنّ ذلك لا يقيم الدليل على أنه يتسم بالعمق نفسه. وإن جمال جملة من الموسيقى الخالصة إنما يبدو بيسر أنه صورة، أو هو على الأقل مماثل لانطباع غير فكري اتفق لنا، ولكن لمجرد أنه غير فكري. فلمَ تظن، والحالة هذه، أن هذه الجمل الغامضة التي تلازم بعض «رباعيّات» «فانتوي»، وهذه الحفلة الموسيقية، ذات عمق متميز؟ وما كان على أية حال ما تعزفه لي «ألبيرتين» من موسيقاه فحسب، فقد ألفت البيانولا بالنسبة إلينا بين حين وآخر كأنما فانوساً سحرياً علمياً (تاريخياً وجغرافياً)، وعلى جدران غرفة باريس هذه المزوّدة بمخترعات أكثر حداثة من غرفة «كومبريه» كنت أرى، حسبما تعزف «ألبيرتين» لـ«رامو» أو لـ«بورودين»، تارة اندياح سجّادة جدار من القرن الثامن عشر مفروشة برموز الحب على خلفية من الورود، وطوراً السهوب الشرقية التي تتخمّد الأصوات فيها في ترامي المسافات وصمت الثلوج. وكانت تلك الزخارف الهروية على أي حال الوحيدة في غرفتي فإنه، إن كنت منبّت النفس في الوقت الذي ورثت فيه عن عمتي «ليوني» بأن تتوافر لي مجموعات على غرار «سوان» وأن أبتاع لوحات وتماثيل، كان كل مالي يذهب في اقتناء جياد وسيارة وثياب لـ«ألبيرتين». ولكن أما كانت غرفتي تحوي عملاً فنياً أثمن من هذه كلها؟ إنها «ألبيرتين» ذاتها. كنت أنظر إليها، وكان من باب الغرابة في نظري أن أفكر أنها هي، هي التي خلت مدّة ما أطولها أنه يستحيل حتى التعرف بها والتي كانت اليوم تجلس، حيواناً برياً مدّجناً وشجيرة ورد وفّرت لها الدعامة والمحيط والتعريشة لحياتها، تجلس كل يوم في بيتها وبالقرب مني وأمام البيانولا وتستند إلى مكتبتي. وكتفاها اللتان سبق أن رأيتهما مخفوضتين ماكرتين حينما كانت تعود بعصيّ الغولف كانتا تستندان إلى مكتبي. وساقاها الجميلتان، اللتان تصورت بحق أنهما حركتا على مدى كامل يفاعتها ودوّاسي دراجة، كانتا تتواليان صعوداً ونزولاً على دوّاستي البيانولا حيث كانت «ألبيرتين»، وقد أضحت على أناقة تزيد من إحساسي أنها ملك يدي لأنها إنما كانت تأتيها مني،

تضع حذاءها الذي من قماش ذهبي. وأصابعها، وهي ألفت المقود بالأمس، كانت تحط الآن على المضارب مثل أصابع القدّيسة «سيسيليا». وجيدها، واستدارته، إذ أبصرها من سريري، ملآنة ضخمة. كان من تلك المسافة وفي ضوء المصباح يبدو أكثر توّرداً، وهو مع ذلك أقلّ توردا من وجهها المحني جانبياً الذي كانت نظراتي الآتية من أعماق ذاتي، مثقلة بالذكريات لاهبة الشوق، تضيف إليه ألقاً ساطعاً وزخماً حياتياً عظيماً إلى حد يبدو معه رونقه ينطلق ويدور بذات القوة التي تقرب أن تكون سحرية والتي بدا منها في اليوم الذي كانت فيه نظراتي في فندق «بالبيك» مشوشة جراء فرط رغبتي في تقبيلها: كنت أمد كل سطح منه خلف حدود ما يمكن أن أبصر منه وتحت السطح الذي يحجبه عني ويوليني إحساساً أفضل بخطوط هذه السطوح المتراكبة - من جفون تطبق العينين نصف إطباقة وشعر يحجب أعلى الوجنتين: والعينان، مثلما، في فلز عين الهر الذي لا يزال يحتضنه، الصفيحتان المصقولتان بعد وحدهما، كانت العينان، وقد أضحتا أشد التماعاً من المعدن فيما تلبثان أكثر مقاومة من النور، تبرزان في وسط المادة العمياء التي تطلّ عليهما كأن جناحين من حرير بنفسجي لفراشة وضعت تحت الزجاج؛ والشعر الأسود الجعد، إذ يكشف عن مجموعات أخرى حسبما كانت تستدير صوبي لتسألني عما ينبغي أن تعزفه لي، فتارة جناح رائع دقيق الرأس واسع القاعدة أسود مريش مثلثي، وطوراً يجمع تضاريس خصلة في سلسلة غزيرة منوّعة ملأى بالقمم والخطوط الفاصلة والمهاوي، بعطفاته الشديدة الثراء الوافرة العدد التي تبدو كأنها تتجاوز التنوّع الذي تحققه الطبيعة عادة وتستجيب بالأحرى لرغبة نحّات يراكم المصاعب كي يرفع من شأن الرشاقة والاندفاع والتمازج والحيوية في عمله المنفّذ، كان يبرز أكثر فأكثر الانحناءة الزاخرة بالحياة وكأنما دوران الوجه الأملس المورد فيما يوقعه ليغطيه بالطلاء الكامد لخشب مدهون. كانت البيانولا التي تحجبها إلى النصف على غرار قفص أرغن خشبي. والمكتبة وكامل زاوية الغرفة هذه، كانت كلها تبدو،

بصورة تضاد هذا البروز الكبير وبالتناغم الذي يجمعها وإياها، هي التي كيّفت وقفتها مع شكلها ووجوه استعمالها، كانت تبدو وكأنها اختزلت فما هي بعد إلا المعبد المضاء، وإلا مهد هذا الملاك الموسيقي، هذا الأثر الفني الذي سينفصل عما قليل، بفعل عملية سحرية حلوة، عن مشكاته ويقدّم لقبلاتي مادته الثمينة الموردة. ولكن لا، فـ«ألبيرتين» ما كانت البتة في نظري أثراً فنياً. لقد كنت أعلم أي شيء هي نظرة الإعجاب إلى امرأة بطريقة فنية - إذ سبق لي أن عرفت «سوان». كنت على أية حال عاجزاً عن أفعل ذلك من تلقاء نفسي أية كانت المرأة المقصودة، إذ لا أملك أي نوع من روح الملاحظة الخارجية. ولا أعرف البتة أي شيء هو ما كنت أراه ويأخذني الذهول شخصياً حينما كان «سوان» يضيف من أجلي بصورة لاحقة وقاراً فنياً إلى امرأة بدت لي غير ذات بال - إذ يشبهها من أجلي، مثلما يروقه أن يفعل في حضرتها هي بظرف وأناقة، بأحد رسوم «لويني» ويعثر في ما ترتدي على فستان أو مجوهرات إحدى لوحات «جورجونه». وما كان لدي شيء من ذاك، حتى إني، والحق يقال، حينما أخذت أنظر إلى «ألبيرتين» وكأنما إلى ملاك موسيقي لوّحه الزمن بصورة رائعة وأغبط نفسي على امتلاكها ما كان يطول عهدي بها حتى تضحي غير ذات شأن في نظري ويتملكني الضجر بعد قليل في صبحتها، لكن هذه الفترات لم تكن تدوم طويلاً، فإنك لا تحب إلا ما تلاحق فيه شيئاً يمتنع عليك نواله، لست تحبّ إلا ما لا تملكه وسرعان ما كنت أعود فأتبين أني لا أملك «ألبيرتين». كنت أبصر في عينيها عبور الأمل تارة وطوراً التذكر وربما الأسف على مسرات ما كنت أكشف أمرها وكانت تفضل في هذه الحال التخلي عنها على أن تفصح لي عنها وما كنت، وأنا لا أدرك منها سوى ذلك البريق في عينيها، ما كنت أتبينها أكثر مما يفعل المشاهد الذي لم يفسحوا له في الدخول إلى القاعة وهو لا يستطيع، وقد ألصق وجهه بزجاج الباب، أن يشاهد شيئاً مما يجري على المسرح. (لست أدري إن كانت تلك حالها، لكنما هذه المثابرة في الكذب التي يتصف بها سائر

الذين يخدعوننا إنما هي أمر غريب غرابة الدليل يقدّمه أكثرهم كفراً على اعتقادهم بالخير. فعبثاً تراك تقول لهم إن كذبهم يشق عليك أكثر من الإقرار وعبثاً يتبيّنون هذا الأمر فإنهم يوالون الكذب في اللحظة التالية ليلبثوا مطابقين لما قالوا لنا إنهم عليه، أو لما قالوا لنا إننا عليه في نظرهم. وهكذا فإن ملحداً متشبثاً بالحياة يُقبل على الموت كي لا يكذّب الفكرة التي يحملها الناس عن بسالته). وفي أثناء تلك الساعات كنت أبصر أحياناً، خفّاقاً من حولها، في نظراتها، في مطّ شفتيها، في ابتسامتها، وهجَ هذه المناظر الداخلية التي كان تأملها يجعلها في تلك العشيات مختلفة وبعيدة عني أنا الذي كان محروماً منها. «بم تفكرين يا عزيزتي؟» - «بلا شيء إطلاقاً». كانت أحياناً، للإجابة عما ألومها عليه أنها لا تقول لي شيئاً، كانت تارة تقول لي أشياء لا تجهل أني أعرفها بقدر ما يعرفها الجميع (كمثل رجال الدولة الذين قد لا ينقلون إليك أقلّ الأخبار لكنهم يحدثونك في المقابل عن الخبر الذي وسعك أن تقرأه في صحف العشيّة)، وطوراً تروي لي، بدون أي إيضاح وبنوع من المسارات الكاذبة، نزهات على الدرّاجات كانت تقوم بها في «بالبيك» في العام السابق لتعرّفها بي. وكما لو صحّ تخميني بالأمس إذ أستنتج منها[1] أنها لا بد كانت فتاة مطلقة الحرية تحيي حفلات طويلة جداً فإن تذكرها تلك النزهات كان يزلق بين شفتي «ألبيرتين» تلك الابتسامة الغامضة نفسها التي سبق أن فتنتني في الأيام الأولى على سد «بالبيك». كانت تكلمني كذلك عن تلك النزهات التي قامت بها برفقة صديقات لها في الريف الهولندي، وعن رجعاتها في المساء إلى أمستردام في ساعات متأخرة حينما كان هناك جمهور كثيف مرح يؤلفه أناس تعرفهم جميعاً تقريباً يملأ الشوارع وضفاف الأقنية التي كنت أظنني أبصر في عيني «ألبيرتين» المتلألئتين، وكأنما في مرايا مترجرجة لسيارة سريعة، انعكاس أضوائها الهاربة التي لا تحصى. ما

(١) من ابتسامتها.

أحرى أن يطلق على الفضول الجمالي المزعوم اسم اللامبالاة في مقابل الفضول الأليم الذي لا يعرف الكلل والذي كان يداخلني إزاء الأمكنة التي سبق أن عاشت فيها «ألبيرتين» وما أمكن أن تفعله في هذه العشية أو تلك، والابتسامات والنظرات التي أطبقتها والكلمات التي نطقت بها والقبلات التي غنمتها؛ لا، ما كانت الغيرة التي داخلتني ذات يوم إزاء «سان لو»، لو أنها دامت، ما كانت لتوليني في يوم هذا القلق الهائل، فقد كان هذا الحب بين النساء أمراً مجهولاً تماماً وليس ثمة ما يمكّن المرء من أن يتصوره، تصور اليقين والصواب، متعه ونوعيته. فكم من الناس، كم من الأمكنة (حتى تلك التي ما كانت تعنيها مباشرة، أمكنة لهو غامضة كان بمقدورها أن تتذوقه فيها، الأمكنة التي يكثر فيها الناس وتقع فيها الملامسات) أدخلت «ألبيرتين» - على غرار امرأة تدفع بحاشيتها، بجماعة كاملة، إلى التفتيش أمامها، وتدخلها المسرح - من عتبة خيالي أو ذكرياتي حيث لم أكن أكترث بهم - داخل فؤادي؛ والآن كانت معرفتي بهم باطنية مباشرة تشنجية مؤلمة. فإنما الحب المكان والزمان وقد أدخلا نطاق إحساس القلب.

ولعلني مع ذلك، لو كنت على إخلاص تام، ما كنت تألمت جراء خيانات كنت عجزت عن تصورها. لكن ما كان يعذبني تخيله لدى «ألبيرتين» إنما كان توقي الدائم إلى حيازة إعجاب نساء جديدات والتخطيط لمغامرات جديدة؛ كان أن أفترض لها تلك النظرة التي لم أستطع ذاك اليوم، حتى وأنا بجانبها، أن أحجب النفس عن إلقائها على الفتيات الدراجات الجالسات إلى طاولات غابة بولونيا. ومثلما لا معرفة إلا وتأتي من الذات، يمكن القول تقريباً إن لا غيرة إلا آتية من الذات. عن الملاحظة قليلة الأهمية، وليس يستطيع المرء استخلاص المعرفة والألم إلا من المتعة التي يحسها بذاته.

كنت أحس أحياناً في عيني «ألبيرتين»، في التهاب لون وجهها المفاجئ، كأنما بارق دفء يمر خلسة في مناطق أكثر امتناعاً عليّ من بلوغ

السماء وحيث كانت تخطر ذكريات مجهولة لديّ لـ«ألبيرتين». حينئذ كان ذاك الجمال الذي ألفيته منذ قليل لديها وأنا أفكر بالسنوات المتعاقبة التي عرفت فيها «ألبيرتين» إما على شاطئ «بالبيك» وإما في باريس، كان ذاك الجمال، وقوامه أن صديقتي كانت تنمو على صعد كثيرة وتحوي الكثير من الأيام الغابرة، يتخذ في نظري طابعاً مؤلماً. حينئذ كنت أحس خلف هذا المحيا المتورد المساحةَ الشاسعة للمساءات التي لم أكن عرفت فيها «ألبيرتين» تحتجب كأنما الهاوية السحيقة. كان بإمكاني أن أجلس «ألبيرتين» على ركبتي وآخذ رأسها بين يديّ، كان بإمكاني مداعبتها وأن أمرر يديّ طويلاً عليها، لكنني كنت أحس، كما لعلني كنت حركت حجراً يحوي ملوحة المحيطات الضاربة في القدم أو شعاعاً ينبعث من نجمة، أحس أني ألمس فحسب الغلاف المختوم لكائن يبلغ في داخله تخوم اللامتناهي. كم كنت أتألم من هذه الحال التي دفعنا إليها سهو الطبيعة التي لم تفكر، وهي تؤسس لتجزئة الأجساد، أن تجعل تداخل النفوس ممكناً! وأخذت أتبين أن «ألبيرتين» لم تكن حتى في ما يخصني (فلئن كان جسدها خاشعاً لسلطان جسدي فقد كان فكرها في منجى من قبضة فكري)، لم تكن الأسيرة الرائعة التي ظننتني أثري بها منزلي فيما أخفي فيه وجودها حتى عن أعين الذين يجيئون للقائي ولا يشكون أنها في الغرفة المجاورة في آخر الممر، إخفاء يضاهي في إحكامه إخفاء ذاك الشخص الذي كان سائر الناس يجهلون أنه يحتجز أميرة الصين في قارورة: لقد كانت بالأحرى، وهي تدعوني بصورة ملحة قاسية لا خلاص منها إلى البحث عن الماضي، نوعاً من آلهة عظيمة للزمان. ولئن انبغى أن أضيع في سبيلها سنوات، إلى ثروتي، وشرط أن يسعني أن أقول في نفسي، وليس ذلك للأسف أكيداً، إنها هي لم تخسر في ذلك، فليس ثمة ما آسف له. لعل الوحدة كانت لا شك أفضل، وهي أكثر خصباً وأقل ألماً. لكن حياة هاوي المجموعات التي كان ينصحني بها «سوان» ويلومني السيد «دو شارلوس» على جهلي بها حينما كان يقول لي بمزيج من الظرف والوقاحة

والذوق: «ما أقبح مسكنك!»، أية تماثيل وأية لوحات طاردتها طويلاً وامتلكتها أخيراً، بل تأملتها بتجرد في أحسن الأحوال. أي منها كان أفضى بي، كما هو الجرح الصغير الذي كان يندمل بسرعة مقبولة ولكن الرعونة اللاواعية التي تبديها «ألبيرتين» واللامبالاة أو أفكاري الخاصة لا تلبث أن تعيد فتحه، إلى ذاك المخرج الذي هو خارج الذات، إلى درب التواصل الخاص هذا لكنما هو يفضي إلى الطريق الواسع الذي يمر فيه ما لا نعرفه إلا منذ اليوم الذي أخذنا بالتألم منه. وتعني حياة الآخرين؟

كان ضياء القمر أحياناً صافياً إلى حد أني كنت أمضي بعد ما يقارب الساعة على إخلاد «ألبيرتين» للنوم، حتى سريرها لأقول لها أن تنظر من النافذة. وإني على يقين أني كنت أدخل غرفتها لهذا الغرض وليس للتحقق من أنها كانت هناك. فأي احتمال هناك أن تستطيع الهرب منها أو تتمنى ذلك؟ ولعله انبغى لذلك تواطؤ مستبعد مع «فرانسواز». ما كنت أبصر في الغرفة المظلمة شيئاً سوى إكليل دقيق من الشعر الأسود على بياض الوسادة. لكني كنت أسمع أنفاس «ألبيرتين». كان نومها عميقاً إلى حد كنت أتردد معه في الذهاب حتى السرير: وأجلس على حافته، ويستمر النوم بالانسياب محملاً بالهمس عينه. أما ما يستحيل قوله فإلى أي حد كان استيقاظها مرحاً. كنت أعانقها وأهزها. وكانت في الحال تتوقف عن النوم ولكنها كانت تنفجر ضاحكة حتى دون أن تفصلها لحظة عن ذلك وتقول لي وهي تعقد ذراعيها حول عنقي: «كنت بالضبط أتساءل إن كنت لن تجيء»، وتضحك بحنان وتعيد الكرة، لكأنما لا يملأ رأسها الجميل حينما كانت تنام سوى المرح والرقة والضحك. وكنت بإيقاظها أطلق فحسب، كما هي الحال حين تغلق ثمرة، دفق العصير الذي يُرويك.

كان الشتاء في تلك الأثناء يبلغ نهايته. وعاد الصيف، وكثيراً ما كنت أسمع، و«ألبيرتين» انتهت تواً فحسب من تمني ليلة سعيدة ولا تزال غرفتي وستائري والجدار من فوق الستائر بعد سوداء تماماً، في حديقة جاراتي الراهبات، تنغيماً جميلاً نفيساً في سكون الليل، وكأنما «هرمونيوم» في

كنيسة، تنغيماً لعصفور مجهول كان ينشد مذ ذاك ساعات السحر على اللحن الليدي[1]، وكان يضع في وسط ظلماتي النغمة الساطعة النفيسة للشمس التي يراها. وسرعان ما قصرت الليالي، وأخذت أرى، قبل ساعات الصباح القديمة، بياض النهار المتزايد يومياً يتجاوز ستائر نافذتي. ولئن كنت أسلم بمواصلة «ألبيرتين» هذا النوع من الحياة التي كنت أحس على الرغم من صنوف إنكاري أنها ترى نفسها سجينة فيها فلأني كنت في كل يوم على يقين فحسب من أني سأستطيع في الغد أن أشرع في النهوض والعمل في الوقت نفسه والخروج في نزهات والإعداد لرحلة إلى عقار لنا نبتاعه وتستطيع «ألبيرتين» أن تمضي فيه بقسط أكبر من الحرية، ودونما إثارة لمخاوفي، حياة ريفية أو بحرية تروق لها. من إبحار أو صيد.

لكنما هذا الزمن الماضي الذي كنت أحبه تارة وطوراً أمقته لدى «ألبيرتين» (مثلما يعمل كل واحد، حينما يكون [ذاك الماضي] هو الحاضر، بدافع المصلحة أو التأدب أو الشفقة، على أن ينسج بينه وبيننا ستاراً من الأكاذيب نضعها موضع الحقيقة)، كان يتفق في الغد أن تقدم لي واحدة من الساعات التي تؤلفه، حتى عن تلك اللواتي ظننتني أعرفهن، بصورة راجعة ومفاجئة، جانباً ما كانت تحاول حجبه عني وهو مغاير تماماً لذاك الذي سبق أن بدت لي فيه. فوراً هذه النظرة أو تلك، وفي مكان الفكرة الطيبة التي ظننت بالأمس أن أبصرها فيها كانت تنكشف رغبة ما ارتبت فيها حتى ذاك تصرف عني جزءاً جديداً من فؤاد «ألبيرتين» الذي كنت أماثل بينه وبين فؤادي. مثال ذلك أن «ألبيرتين»، حينما غادرت «أندريه» «بالبيك» في شهور تموز (يوليو). لم تقل لي البتة إنها عازمة على لقائها عما قريب. وأخذت أفكر أنها عادت فالتقتها حتى قبلما ظنت أنها في ليل الرابع عشر من أيلول (سبتمبر)، وكانت قد ضحت لي، بسبب الحزن الكبير الذي انتابني في «بالبيك»، بأن لا تمكث هناك وأن تعود فوراً

---

(١) من الألحان اليونانية القديمة، وقيل إن اللحن «الغريغوري» مأخوذ عنه.

إلى باريس. وكنت سألتها، بعدما وصلت في الخامس عشر، أن تمضي للقاء «أندريه» وقلت لها: «هل سرّت بلقائك؟» أما الآن، وإذ جاءت السيدة «بونتان» لتحمل شيئاً لـ«ألبيرتين» فقد لقيتها لحظة وقلت لها إن «ألبيرتين» خرجت بصحبة «أندريه»: «لقد ذهبتا للتنزه في الريف». فأجابتني السيدة «بونتان» قائلة: «أجل، ليست «ألبيرتين» متطلبة فيما يتصل بالريف. من ذلك أنه كان لا بد، لثلاث سنوات خلت، من الذهاب كل يوم إلى موقع «بوت شومون».[1]»، وحال سماعي اسم «بوت شومون» الذي سبق أن قالت لي «ألبيرتين» إنها لم تذهب إليه البتة تقطعت أنفاسي لحظة. إن الحقيقة أوفر الأعداء مهارة، فهي تقرر هجماتها على نقطة من فؤادنا ما كنا ننتظرها فيها ولم نعدّ فيها دفاعاتنا. فهل كذبت «ألبيرتين» عمتها حينذاك إذ تقول لها إنها تمضي كل يوم إلى «بوت شومون»، وكذبتني مذ ذاك إذ تقول لي إنها لا تعرفه؟ وأردفت السيدة «بونتان» تقول: «لحسن الحظ، ستذهب «أندريه» المسكينة هذه بعد قليل إلى ريف أبعث للنشاط، إلى الريف الحقيقي، وهي بأشد الحاجة إليه إذ هي على أسوأ حال. والصحيح أنه لم تتوافر لها هذا الصيف مساحة الهواء الضرورية لها. تصور أنها غادرت «بالبيك» في آخر تموز (يوليو) وفي ظنها أنها راجعة في أيلول (سبتمبر)، ولما فك أخوها ركبته لم تستطع أن تعود. «كانت «ألبيرتين» تنتظرها في «بالبيك» إذن وأخفت عني ذلك! وصحيح أنه كان من قبيل اللطف المتزايد أن تكون اقترحت عليّ العودة. ما لم.. «أجل، أذكر أن «ألبيرتين» حدثتني عن الأمر.. (وما كان ذلك صحيحاً) ومتى وقع ذاك الحادث؟ فكل ذلك مشوش إلى حد ما في رأسي» - «لكنه حدث بمعنى ما في الوقت المناسب تماماً، إذ إن إيجار الدارة يكون قد بدأ عقب يوم واحد وكانت جدة «أندريه» ستضطر إلى دفع شهر لا جدوى منه. لقد كسر ساقه في ١٤ أيلول (سبتمبر) واتسع لها الوقت لتبْرِق

---

(١) موقع في باريس.

لـ«ألبيرتين» في صباح ١٥ بأنها لن تجيء، ولـ«ألبيرتين» أن تخطر الوكالة. وكان سريان الإيجار عقب يوم واحد حتى ١٥ تشرين الأول (أكتوبر)». وهكذا، دون شك، حينما قالت لي «ألبيرتين» وقد غيّرت رأيها: «فلنذهب هذا المساء». فإن ما كانت تراه إنما شقة ما كنت أعرفها، هي شقة جدة «أندريه» حيث سيتاح لها، فور عودتنا، التقاء الصديقة التي ظنت أنها ستلتقيها عما قليل في «بالبيك» دون أن أرتاب في الأمر. والأقوال أنسبها إلى تبدل في قلبها الطيب. لقد كانت مجرد انعكاس لتغير وقع في وضع لا نعرفه وهو مجمل سر التبدل الحاصل في سلوك النساء اللواتي لا يحببننا. إنهن يرفضن لنا بعناد موعداً للغد لأنهن متعبات، لأن جَدّهن يلزمهن بتناول العشاء في منزله، ونلح قائلين: «فتعالي بعد ذلك». - «إنه يستبقيني حتى وقت متأخر جداً. ويمكن أن يرافقني في عودتي». وهن فقط على موعد مع شخص يروقهن. وفجأة لا يعود هذا الأخير طليق اليدين، فيجئن يعربن لنا عن أسفهن أن بعثن الغم في صدورنا وسوف يلبثن، وقد تخلصن من جدهن، إلى جانبنا لا يشغلهن أي شيء آخر. كان يجدر بي أن أتعرف هذه الجمل في الكلام الذي وجهته إليّ «ألبيرتين» في «بالبيك» في يوم رحيلي. ومع ذلك ربما لم يكن يجدر بي الاقتصار على تعرف هذه الجمل فحسب، بل أن أتذكر بغية تفسير هذا الكلام سمتين خاصتين بطبع «ألبيرتين».

عادت فبرزت في هذه الفترة في خاطري سمتان من طبع «ألبيرتين»، واحدة تجلب لي العزاء والأخرى الأسى، لأننا نجد في ذاكرتنا من كل صنف ونوع، فهي ضرب من الصيدلية، من المخبر الكيميائي حيث تضع يدك كيفما اتفق تارة على عقار مهدئ وطوراً على سم خطر. أما السمة الأولى، المعزية، فتلك العادة في استخدام فعلة واحدة لإمتاع عدة أشخاص، وذلك الاستخدام المتعدد لما كانت تقوم به وكان صفة مميزة لدى «ألبيرتين». لقد كان في صلب طباعها. إذ تعود إلى باريس (فأن لا تعود «أندريه» كان يمكن أن يجعل مكوثها في «بالبيك» أمراً غير مريح دون

أن يعني ذلك أنها لا تستطيع أن تكون في غنى عن «أندريه»)، وأن تستخلص من هذه الرحلة الواحدة مناسبة تصيب بها شخصين تحبهما حباً صادقاً: أنا إذ تحملني على الظن بأن ذلك إنما كان من أجل ألا تدعني وحدي وكي لا أتألم وبدافع الإخلاص لي، و«أندريه» بإقناعها أنها لم تشأ، إذ هي لم تجيء إلى «بالبيك»، أن تلبث فيها لحظة واحدة أكثر وأنها لم تمدد إلا لتراها وأنها مسارعة تواً إليها. هذا، وإن رحيل «ألبيرتين» برفقتي كان يعقب غمي ورغبتي في العودة إلى باريس من جهة. ومن جهة أخرى برقية «أندريه»، بصورة فورية إلى حد بدا معه من الطبيعي جداً إن استطعنا، «أندريه» وأنا، وكلانا نجهل، هي غمي، وأنا برقيتها، أن نعتقد أن رحيل «ألبيرتين» كان نتيجة السبب الوحيد الذي تسنى لكل منا معرفته والذي كان يليه بالفعل بفارق ساعات قليلة جداً وبصورة مفاجئة تماماً. كان يعد بمقدوري في هذه الحالة أن أعتقد أن مرافقتي كانت هدف «ألبيرتين» الحقيقي، مع أنها لم تشأ أن تفوت عليها فرصة أن تجعل منها صفة تستحق بها امتنان «أندريه». لكني لسوء الحظ تذكرت في الحال تقريباً سمة أخرى من طبع «ألبيرتين» قوامها السرعة التي تتملكها بها رغبة في المتعة لا تقاوم. فإني تذكرت حينذاك، بعد أن عزمت على الرحيل، أي تلهف كانت تبدي للوصول إلى القطار وكيف دفعت المدير بعيداً، وهو ربما كان استطاع أن يفوت علينا الحافلة في محاولته استيفاءنا، وما قامت به نحوي من ارتفاعات تواطؤ بمنكبيها كان لها أبعد الأثر في نفسي حينما سألنا السيد «دو كامبرمير» في القطار الصغير إن كان لا يمكننا التأجيل أسبوعاً آخر. أجل، إن ما كانت تراه نصب عينيها في ذلك الوقت، ما كان يجعلها محمومة إلى هذا الحد في ابتغاء الرحيل. ما كانت تتلهف للقائه، إنما كان شقة غير مأهولة سبق أن رأيتها مرة، وتعود ملكيتها لجدة «أندريه»، شقة فاخرة يتولى حراستها خادم عجوز، في هاجرة النهار، لكنها خالية هادئة حتى لتبدو الشمس وكأنها تلقي أغطية على الكنبة، على مقاعد الغرف حيث كانت «ألبيرتين» و«أندريه» تطلبان إلى الحارس الذي

يفيض احتراماً، وربما سذاجة، وربما تواطؤاً، أن يدعهما تخلدان إلى الراحة.

كنت الآن أراها طوال الوقت، خالية، بسرير أو كنبة، وخادمة مخدوعة أو متواطئة، حيث كانت «ألبيرتين»، في كل مرة تبدو فيها معجلة جدية، تمضي للحاق بصديقتها التي وصلت دون شك قبلها لأنها كانت أقل ارتباطاً. لم أكن حتى ذاك فكرت قط بهذه الشقة التي أخذت تكتسي الآن في نظري جمالاً مريعاً، إن الجانب المجهول في حياة الأشخاص كالمجهول في الطبيعة الذي لا يسهم أي اكتشاف علمي إلا في تأجيله، لكنه لا يلغيه. ويثير الغيور حنق التي يحبها إذ يحرمها من طائفة من المتع التي لا شأن لها. لكن تلك التي تؤلف أساس حياتها فإنها تخبئها حيث لا يخطر له، في الفترات التي يخيل لذكائه أنه يبدي أكبر قسط من نفاذ البصيرة ويمده الغير بأفضل المعلومات، أن يبحث.

لكن «أندريه» كانت على الأقل تزمع على الرحيل: بيد أني ما كنت أود أن تستطيع «ألبيرتين» احتقاري أن كنت ضحية خديعة حاكتها هي و«أندريه». لكني سأقول لها ذلك ذات يوم. وربما حمّلتها هكذا عنوة على أن تكلمني بصراحة أكبر حينما أظهر لها أنني كنت مطلعاً على الأمور التي تحجبها عني. لكني ما كنت أبغي بعد أن أكلمها عن ذلك، أولاً لأنها ربما أدركت، وهي قريبة جداً من زيارة عمتها، من أين تأتيني معلوماتي، فقطعت على هذا المصدر وما خشيتُ لها مصادر مجهولة. ثم لأني ما كنت أبغي، ما دمت على غير تمام اليقين بالاحتفاظ بـ«ألبيرتين» قدر ما أبتغي، أن أجازف بإثارة مقدار مفرط من صنوف للغيظ في صدرها ربما أمكن أن تقودها إلى الرغبة في هجري. صحيح أني لو كنت أعمل عقلي وأبحث عن الحقيقة وأتوقع المستقبل انطلاقاً من أقوالها التي كانت على الدوام تقر مشروعاتي جميعاً وتعرب عن مدى حبها لهذه الحياة وعن القليل الذي يحرمها منه احتجازها. فما كنت لأشك بأنها باقية على الدوام إلى جانبي، بل كنت شديد الانزعاج لذلك فقد كنت أحس الحياة والكون

اللذين ما تذوقتهما في يوم يفلتان مني وقد استبدلت بهما امرأة ما كان بوسعي أن ألقى فيها من بعد شيئاً جديداً. ما كان بمقدوري حتى الذهاب إلى البندقية حيث ستسومني، ساعة آوي إلى سريري، عذاباً مفرطاً خشيتي من محاولات التقرب التي قد يقدم عليها «الغندولي» وناس الفندق ونساء البندقية. لكني إما أعملت العقل بالعكس وفقاً للفرضية الأخرى، الفرضية التي تستند لا إلى أقوال «ألبيرتين»، بل إلى لحظات يعمرها الصمت ونظرات وحمرة في الوجنتين وصنوف من الحرد وحتى من الحنق لعله كان من اليسير جداً أن أبرهن لها منها أنها كانت بغير ما سبب وكنت أفضل أن أبدو وكأني لا ألاحظها، فقد كنت حينذاك أقول في نفسي إن هذه الحياة كانت في ما يخصها لا تحتمل وإنها كانت طوال الوقت تلفي نفسها محرومة مما تحب وإنها حتماً ستفارقني ذات يوم. كل ما كنت أبغيه، إن هي أقدمت على ذلك، أن يسعني اختيار الفترة، فترة لا يشق فيها الأمر عليّ كثيراً، وفي فصل لن يمكنها فيه الذهاب إلى أي الأمكنة التي كنت أتخيل فيها مجونها، لا إلى «أمستردام» ولا إلى منزل «أندريه» ولا إلى منزل الآنسة «فانتوي»، وهي والحق يقال ستعود فتلتقيهم بعد بضعة شهور، لكني حتى ذاك أكون قد هدأت نفساً ويصبح الأمر غير ذي بال في نظري. كان لا بد في كل الأحوال للتفكير في ذلك من انتظار شفاء النكسة الصغيرة التي سببها اكتشاف الأسباب التي أرادت «ألبيرتين» من أجلها وبفارق ساعات ألا تغادر في الحال «بالبيك»؛ كان لا بد من توفير وقت تزول فيه الأعراض التي لا يمكن إلا أن تتناقص إن لم أحط علماً بجديد، لكنها لا تزال مفرطة الشدة بعد كي لا تزيد من ألم وصعوبة قطيعة أقر الآن أنها حتمية لا مفر منها، لكنها غير ملحة ومن الأفضل القيام بها «على البارد». هذا الخيار الآني كنت مالكه: فإن ابتغت الرحيل قبل أن أكون قررت ذلك فسوف يتسع الوقت دوماً حينما تبلغني أنها سئمت هذه الحياة، أن أنظر في محاربة دوافعها وأن أدع لها قسطاً أوفر من الحرية وأن أعدها بمتعة عظيمة مقبلة تتمنى هي انتظارها، بل أن أصرح لها بغمي إن لم أجد

لي مستجاراً إلا في قلبها، كنت من وجهة النظر هذه إذاً هادئ البال دون أن أكون على أي حال منطقياً جداً في ذلك مع ذاتي. ذلك أني كنت، في إطار فرضية لا أحسب فيها حساباً للأشياء التي تقولها وتنبئني بها، كنت أفترض، إنْ تعلق الأمر برحيلها، أنها سوف تعطيني أسبابها سلفاً وتدع لي أن أقاتلها وأهزمها.

كنت أحس أن حياتي مع «ألبيرتين» لم تكن من جهة سوى سأم حين لم أكن غيوراً، وسوى عذاب، من جهة أخرى، حين تنهشني الغيرة. وبافتراض أن كان ثمة سعادة فما كان بمقدورها أن تدوم. كنت أود بروح الحكمة ذاتها التي كانت تلهمني في «بالبيك» في المساء الذي سعدنا فيه في أعقاب زيارة السيدة «دو كامبرمير»، كنت أود هجرها إذ كنت أعلم أني لن أكسب شيئاً في الإطالة، لكنني كنت لا أزال أتصور أن الذكرى التي سأحفظها عنها ستكون نوعاً من رنين متطاول بفعل مدوس لدقيقة فراقنا. وكنت لذلك أحرص على اختيار دقيقة عذبة كي تكون هي من توالي الرنين في داخلي. ما كان ينبغي الإفراط في التشدد والإفراط في الانتظار، بل ينبغي التعقل. ومع ذلك فقد يكون من الجنون، بعدما طال إلى هذا الحد انتظاري، ألا أستطيع الانتظار بضعة أيام بعد إلى أن تطلع دقيقة مقبولة بدلاً من احتمال أن أراها ترحل بذات الثورة التي كانت تعصف بي فيما مضى حينما تبتعد أمي عن سريري دون أن تعود فتتمنى لي ليلة سعيدة أو حينما كانت تودعني في المحطة. فأخذت كيفما أنفق أضاعف الملاطفات التي يمكن أن أخصها بها. أما بشأن مباذل «فروتوني» فقد قر رأينا أخيراً على مبذل أزرق وذهبي ببطانية زهرية وكان قد أنتهى منذ قليل. وكنت مع ذلك أوصيت على الخمسة الأخرى التي تخلت عنها آسفة لتفضيلها هذا الأخير.

على أني لدى حلول الربيع، وبعدما انقضى شهران على ما سبق أن قالته لي عمتها، أطلقت العنان لغضبي ذات مساء. وكان بالضبط ذاك المساء الذي ارتدت فيه «ألبيرتين» للمرة الأولى مبذل «فروتوني» الأزرق

والذهبي الذي كان، إذ يذكرني بالبندقية، يبعث في نفسي إحساساً أكبر بعد بما كنت أضحي به في سبيل «ألبيرتين» التي لم تكن تبدي أي امتنان لذلك. ولئن كنت لم أرَ البندقية في يوم فقد كنت أحلم بها دون انقطاع منذ عطلة الفصح التي اضطررت أن أقضيها فيها وما أزال طفلاً، وأقدم من ذلك بعد من خلال رسوم «تيستيانو» وصور «جيوتو» التي كان «سوان» قد أعطاني إياها في «كومبريه». كان فستان «فورتوني» الذي ترتديه «ألبيرتين» هذا المساء يبدو لي وكأنه الظل المغوي لهذه البندقية اللامرئية. فقد كان يزدحم بزخرفة عربية كما البندقية، كما قصور البندقية المحتجبة على غرار السلطانات خلف حجاب من حجر مفرغ، وكما الاغلفة في المكتبة «الأمبروسية»، وكما الأعمدة التي كانت طيورها الشرقية، وهي تعني بالتعاقب الموت والحياة، تتكرر في التماعات القماش ذي الزرقة الشديدة التي كانت تنقلب، كلما راح نظري يسرح فيها قدماً، ذهباً مطواعاً جراء هذه التحولات نفسها التي تحيل، أمام الغندول المتقدمة. زرقة القناة الكبرى معدناً متموجاً لاهباً، وكان الكُمّان مبطّنين بقماش وردي كرزي يمتاز بطابع البندقية الخاص حتى ليقولون هو لون «تييبولو»[1] الوردي.

كانت «فرانسواز» قد سربت أمامي في بحر النهار أن «ألبيرتين» لم تكن راضية عن شيء وأنها، حينما كنت أرسل من يقول لها إني سأذهب أو لا أذهب في نزهة وإياها وإن السيارة ستأتي أو لا تأتي لنقلها، كانت تقوم بما يقرب من رفع منكبيها وتكاد تجانب الأدب في إجابتها. وفي ذاك المساء الذي أحسستها فيه منحرفة المزاج والذي أثار أعصابي فيه أول حر شديد لم أقو على احتباس غيظي ولمتها على نكرانها للجميل، وصحت بكامل قواي وقد استشطت غضباً: «أجل، يمكن أن تسألي الجميع، يمكن أن تسألي «فرانسواز»، فإنها صيحة فحسب». لكني ذكرت في الحال أن

(١) Tiepolo : من رسامي البندقية.

«ألبيرتين» سبق أن قالت لي ذات مرة كم كانت ترى لي هيئة مخيفة حينما ينتابني الغضب وطبقت عليّ أبيات «أستير» التالية:

**هيا نصور كم انبغى أن يلقى من قلق في نفسي المضطربة**
**هذا الجبين الغاضب مني...**
**وأي فؤاد جسور يحتمل دونما رعدة، وا أسفي،**
**هذه البروق المنطلقة من عينيك؟**

فخجلت مما أبديت من عنف. وقلت، كيما أعوذ عما فعلت ولكن دون أن يبدو ذلك هزيمة وكيما يكون سلامي سلاماً يسوده السلاح والرهبة وفيما كان يبدو لي مفيداً أن أبرز أني لا أخشى معها قطيعة كي لا تتبادر الفكرة إليها: «سامحيني يا عزيزتي «ألبيرتين»، فإني خجلان من عنف أبديته ومنزعج منه. وإن لم نستطع التفاهم من بعد وإن انبغى أن نفترق فيجب ألا يكون الأمر على هذه الصورة فليس يليق ذلك بنا. نفترق إن كان لا بد من الافتراق، لكنني أحرص قبل كل شيء على أن أستغفرك بكل تواضع ومن صميم فؤادي». وفكرت أنه يستحسن، من أجل التكفير عن ذلك والتأكد من مقاصدها في البقاء في الفترة التي تلي وعلى الأقل إلى أن تكون «أندريه» قد رحلت، والأمر واقع بعد ثلاثة أسابيع، يستحسن أن أبحث منذ الغد عن متعة، أية متعة، أعظم من التي نعمت بها بعد. وأن تكون بعيدة الأجل بعض الشيء. وربما أحسنت صنعاً، بما أنني عازم على إزالة آثار الإزعاج الذي سببته لها في الإفادة من هذه الفترة لأريها أني أفضل اطلاعاً على حياتها مما تظن. وسوف تزيل ملاطفاتي في غد الكدر الذي سينتابها، لكن التحذير سيظل في بالها. «أجل، يا عزيزتي «ألبيرتين»، سامحيني إن كنت عنيفاً. لست مذنباً إلى الحد الذي تظنينه: فثمة أشرار يحاولون الإيقاع بيننا، وإني لم أشأ في يوم أن أحدثك عن ذلك كي لا أزعجك، ويبلغ بي أحياناً أن أجن جراء بعض الوشايات».

وإذ أردت الإفادة من أني سأستطيع أن أبرهن أني كنت على علم

بشأن السفر من «بالبيك» أضفت قولي: «هاك مثلاً، لقد كنت على علم بأن الآنسة «فانتوي» تزمع المجيء إلى منزل السيدة «فيردوران» في العصر الذي ذهبتِ فيه إلى «التروكاديرو». وكست الحمرة وجنتيها. «أجل، كنت على علم». - «وهل تستطيعين أن تقسمي أن لم يكن ذلك لتعودي إلى إقامة علاقات معها؟» - «بالتأكيد أستطيع أن أقسم على ذلك. ولماذا أعود؟ فإني لم أقم علاقات البتة، إني أقسم على ذلك». وحز في نفسي أن أسمع «ألبيرتين» تكذبني القول على هذه الصورة، وتنكر أمامي الحقيقة الواضحة التي أفرط احمرارها في فضحها. كان زيفها يحزنني أشد الحزن. ولما كان يحوي مع ذلك توكيداً للبراءة كنت دون أن أتبين الأمر على استعداد لتصديقه فقد آلمني أقل من صراحتها حينما أجابتني، بعدما سألتها: «وهل يمكن على الأقل أن تقسمي أن متعة لقاء الآنسة «فانتوي» لا دخل لها إطلاقاً في توقك إلى الذهاب إلى أمسية آل «فيردوران» تلك؟»، أجابت قائلة: «لا، لا أستطيع أن أقسم على ذلك، فقد كان لقاء الآنسة «فانتوي» يوليني متعة عظيمة». كنت قبل ثانية حاقداً عليها لإخفائها علاقاتها بالآنسة «فانتوي»، أما الآن فإن قرارها بالمتعة التي كانت أصابتها من لقائها كان يجمد أوصالي. ولا شك أن «ألبيرتين»، حينما قالت لي، بعدما عدت من منزل آل «فيردوران»: «أما كان ينبغي أن تكون الآنسة «فانتوي» عندهم؟»، لا شك أنها أعادت لي كامل عذابي إذ برهنت لي أنها كانت عالمة بمجيئها. لكني كنت دون شك قد قمت مذ ذاك بهذه المحاكمة العقلية: «كانت تدري عن مجيئها الذي ما كان يوليها أي نوع من المتعة، ولكن، لأنها لا بد أدركت بعد فوات الأوان أن الكشف عن أنها كانت تعرف امرأة سمعتها سيئة كما هي الآنسة «فانتوي» هو الذي أولاني قنوطاً عظيماً في «بالبيك» إلى حد أيقظ فيّ فكرة الانتحار، لم تشأ أن تحدثني عن ذلك». ثم أراها مضطرة أن تقر بأن مجيئها كان يمنعها. كان لا بد على أية حال للطريقة الغريبة التي تريد بها الذهاب إلى منزل آل «فيردوران» أن تقدم لي بالبرهان الكافي. لكني ما عدت فكرت في الأمر تفكيراً كافياً.

ومع أني أقول في نفسي الآن: «ولماذا لا تقر إلا نصف إقرار؟ فالأمر غباء أكثر مما هو شر ونكد، فقد كنت أحس انسحاقاً عظيماً إلى حد لم تحالفني معه الشجاعة والإلحاح على هذا الأمر الذي لم تكن لي اليد الطولى فيه إذ لا أملك وثيقة كاشفة أقدمها. وسارعتُ، بغية استعادة سلطاني، إلى الانتقال إلى موضوع «أندريه» الذي سيمكنني من هزيمة «ألبيرتين» شر هزيمة بالكشف الساحق عن برقية «أندريه». وقلت لها: «هاك مثلاً، إنهم يعذبونني الآن ويضطهدونني في إعادة الحديث عن علاقاتك، ولكن مع «أندريه». فصاحت قائلة: «مع «أندريه»؟؟» وكان الغضب يلهب محياها. وكانت الدهشة، أو الرغبة في أن تبدو مندهشة، توسع عينيها. «شيء رررائع!! وهل يمكن أن نعلم من قال لك هذه الأشياء الجميلة؟ وهل يمكن أن أكلمهم، هؤلاء الأشخاص؟ وأن أعلم إلام يسندون هذه الفضائح؟» - «لست أدري يا عزيزتي «ألبيرتين»، إنها رسائل مغفلة، ولكن من أشخاص ربما وجدتهم بشيء من اليسر (كي أبدي لها أني ما كنت أخشى أن تبحث)، لأنهم لا بد يعرفونك حق المعرفة. الرسالة الأخيرة، إني مقر بذلك (وأذكر هذه الرسالة لأنها بالضبط تتعلق بأمر هين وليس فيها ما يشق علينا ذكره)، أثارت مع ذلك حفيظتي. كانت تقول لي إنك إن كنت أردت بادئ الأمر، في اليوم الذي غادرنا فيه «بالبيك»، البقاء ثم الرحيل فلأنك تسلمت في تلك الأثناء رسالة من «أندريه» تقول فيها إنها لن تجيء» - «أعلم تمام العلم أن «أندريه» كتبت لي بأنها لن تجيء، وهي حتى أبرقت لي، ولن يكون بمقدوري أن أريك البرقية لأني لم أحتفظ بها. لكنها لم تكن في ذلك اليوم على أي حال، وحتى لو وصلتني في ذلك اليوم، فما الذي يهمني أن تجيء «أندريه» أم لا تجيء إلى «بالبيك»؟ كانت «ما الذي يهمني» برهاناً على الغضب وأنها «تهمها» إلى حد ما، لكنها لم تكن اضطراراً برهاناً على أن «ألبيرتين» إنما عادت لمجرد رغبة في لقاء «أندريه» ففي كل مرة كانت «ألبيرتين» تتبين فيها أن أحد الأسباب الحقيقية أو المزعومة لواحد من أفعالها قد كشفه شخص سبق أن قدمت له عنه سبباً

آخر، كانت «ألبيرتين» تغتاظ ولو كان الشخص ذاك الذي قامت بالحقيقة من أجله بفعلتها. هل كانت «ألبيرتين» تعتقد أن هذه المعلومات حول ما كانت تفعله لم يكن مجهولون هم الذين يرسلونها رغماً عني بل أنا من كان يلتمسها بلهفة، ذلك ما لم يكن بوسعنا إطلاقاً استخلاصه من الأقوال التي نطقت بها فيما بعد وبدا منها أنها تقبل بروايتي عن الرسائل المغفلة، بل مما بدا من غضبها مني، غضب ما كان يبدو سوى انفجار لصنوف استيائها السابقة، مثلما لم يكن التجسس الذي لعلها اعتقدت، في إطار هذه الفرضية، أني مارسته سوى نقطة النهاية لمراقبة لأعمالها جميعاً ما عاد ساورها الشك حولها منذ زمن طويل. واتسع غضبها ليشمل حتى «أندريه»، وإذ تقول دون شك في نفسها إني الآن لن أطمئن من بعد حتى حينما تخرج برفقة «أندريه» أضافت: «إني أضيق ذرعاً بـ«أندريه» على أي حال، فهي تبعث على السأم. إنها عائدة في الغد، ولست أريد الخروج وإياها من بعد. ويمكنك نقل الخبر للذين قالوا لك إني عدت إلى باريس من أجلها. فإن قلت لك إني لا أستطيع، بعد هذه السنين الكثيرة التي عرفت فيها «أندريه»، أن أقول لك كيف هو وجهها لقلّة ما نظرت إليها!» - على أنها سبق أن قالت لي في السنة الأولى في «بالبيك»: «إن «أندريه» رائعة». وصحيح أن ذلك ما كان ليعني أنها تقيم علاقات غرامية معها، بل إني ما سمعتها قط آنذاك تتكلم، إلا ثائرة ساخطة، عن سائر العلاقات التي من هذا القبيل. ولكن ألا يمكن أن تكون تغيّرت، حتى دون أن تتبيّن أنها تغيرت، إذ لا تعتقد أن صنوف لهوها مع صديقة إنما هي من قبيل العلاقات اللاأخلاقية، وهي قليلة الوضوح في ذهنها، التي كانت تندد بها لدى الآخرين؟ أما كان ذلك ممكناً، بما أن هذا التغير ذاته ولاوعي هذا التغير ذاته قد حدث في علاقاتها بي، أنا الذي سبق أن رفضت له بثورة عارمة في «بالبيك» هذه القبل التي كانت ستمنحني إياها من تلقاء ذاتها فيما بعد وفي كل يوم وسوف تمنحني إياها، كما آمل، فترة طويلة بعد وستمنحني إياها بعد لحظة؟ «ولكن كيف تريدينني أن أنقل الخبر إليهم يا

عزيزتي وأنا لا أعرفهم؟» كان هذا الجواب قوياً إلى حد كان ينبغي معه أن يذيب الاعتراضات والشكوك التي كنت أراها متبلورة في حدقتي «ألبيرتين». لكنها أبقت عليها سليمة: وكنت قد صمتُّ، وظلّت مع ذلك توالي النظر إليّ بهذا الاهتمام المتصل الذي تصرفه إلى من لم ينه كلامه. واستمحتها عذراً من جديد، فأجابتني أن ليس ما تسامحني به؛ وكانت قد عادت فأضحت وديعة جداً. لكنما كان يبدو لي أن سراً قد تشكل خلف وجهها الحزين الشاحب. كنت أعلم تمام العلم أنها لا يمكن أن تفارقني دون أن تخطرني بذلك: ما كان بوسعها على أية حال لا أن تشتهي ذلك (فقد كان عليها أن تجرّب فساتين «فورتوني» الجديدة بعد ثمانية أيام) ولا من باب اللياقة أن تقدم عليه، إذ تعود أمي في آخر الأسبوع وكذلك تفعل عمتها. وإذ كان يستحيل أن ترحل، فلماذا أعدت على أسماعها مراراً وتكراراً أننا سنخرج سوية في الغد لنمضي لمشاهدة زجاجيات من البندقية كنت أبغي إعطاءها إياها، وطبتُ نفساً لسماعها تقول لي إنها موافقة؟ وحينما جاءت تتمنى لي ليلة سعيدة وقبلتها فإنها لم تفعل كعادتها وأشاحت برأسها ولم تردّ لي قبلتي، وكان ذلك بعد لحظات، أو تكاد، من الوقت الذي خطرت لي فيه هذه الحلاوة التي قوامها أن تمنحني كل مساء ما سبق أن رفضته في «باليك». لكأنما لم تكن تبغي، وقد خاصمتني، أن تعطيني دليل حنان ربما أمكن أن يبدو لي فيما بعد نوعاً من الزيف يكذّب ذلك الخصام. لكأنما كانت توفق بين أفعالها وذلك الخصام، ولكنما تفعل باعتدال، إما بغية أن لا نذيع الأمر، وإما لأنها تريد، وهي تقطع علاقاتها الجنسية معي، أن تلبث مع ذلك صديقتي، حينئذ قبلتها مرة ثانية وأنا أشد إلى صدري الزرقة الملتمعة المذهبة للقناة الكبرى والطيور المتسافدة، رموز الموت والقيامة. لكنها ابتعدت مرة ثانية، بدلاً من أن تردّ لي قبلتي، بنوع العناد الغريزي المشؤوم لدى الحيوانات التي يوافيها إحساس الموت. وغمرني بدوري هذا الهاجس الذي بدا أنها تعرب عنه، غمرني بخشية مقلقة إلى حدّ لم تحالفني معه الشجاعة، حينما بلغت «ألبيرتين» الباب،

بأن أدعها تذهب فاستدعيتها وقلت لها: «ألبيرتين»، لست أشعر بالنعاس، فإن كنت بدورك لا ترغبين في النوم أمكنك البقاء، قليلاً بعد، إن أردت، لكني لا أصرّ على ذلك ولا أريد خصوصاً أن أتعبك. كان يبدو لي أني لو استطعت أن أعريّها وأن تكون لي بقميص نومها الأبيض الذي كانت تبدو فيه أكثر تورّداً وأكثر دفئاً وتبعث في حواسي إثارة أعظم، لكانت مصالحتنا أكمل وأشمل. لكني ترددت لحظة لأن حاشية فستانها الزرقاء كانت تضيف إلى محيّاها جمالاً وإشراقاً وسماء لعلها كانت بدت بدونها أشد قسوة. وعادت الهوينى وقالت لي بكثير من الرقة وبذات الوجه المنكسر الحزين: «يمكنني أن أمكث ما تشاء، فلست أشعر بالنعاس». وهدّأ جوابها من روعي لأنني كنت أحسني قادراً، ما دامت حاضرة هنا، على التفكير في المستقبل، وكان يحوي إلى ذلك شيئاً من المودة والطاعة، لكنّها من طبيعة معينة وكانت تبدو لي وكأنما يحدّها ذاك السر الذي أحسه خلف نظرتها الحزينة وعاداتها المتغيرة، نصفها على الرغم منها والنصف دون شك لتوفق سلفاً بينها وبين شيء لم أكن أعرفه، على أنه بدا لي أن ليس ما يوليني جرأة كافية لحملها عنوة على الاستسلام سوى أن تبرز أمامي بثياب كلها بيضاء، أن تكون أمامي بعنقها العاري مثلما سبق أن رأيتها في سريرها في «بالبيك». «بما أنك أبديت من اللطف أن تمكثي قليلاً لتواسيني فيجدر بك أن تنزعي فستانك، فهو مفرط الدفء مفرط الخشونة، ولست أجرؤ على الاقتراب منك كي لا أكرّش هذا القماش الجميل، ثم إن بيننا تلك الطيور القدرية: هيا انزعي ثيابك أيتها العزيزة».

- «لا، ليس من الملائم أن أفك هذا الفستان هنا. سأنزع ثيابي عما قليل في غرفتي». - «لست تريدين إذاً حتى أن تجلسي فوق سريري؟» - «بلى، بلى. لكنها لبثت بعيداً بعض الشيء، بالقرب من قدمي. وجرى بنا الحديث. وسمعنا فجأة الإيقاع المنتظم لنداء منتحب. تلكم كانت الحمائم التي أخذت في الهديل فقالت «ألبيرتين»: «ذلك دليل على أن النهار قد طلع». وأضافت مقطبة الحاجبين تقريباً وكأنما تفوّت عليها في العيش

عندي متع فصل الصحو والجمال: «لقد بدأ الربيع كيما تكون الحمائم عادت». كان التشابه بين هديلها وصياح الديك عميقاً وغامضاً كما هو في سباعية «فانتوي»، التشابه بين فكرة الحركة المتمهلة المبنيّة على ذات الفكرة الرئيسية في المقطوعة الأولى والمقطوعة الأخيرة، ولكنها تحولت جراء الفوارق النغمية والإيقاعية، إلخ. . إلى حدّ يعجب معه الجمهور غير المطّلع، إن فتح مؤلفاً حول «فانتوي»، أن يشاهد أن الحركات الثلاث بنيت على ذات النغمات الأربع التي يستطيع على أيّ حال أن يعزفها بأصبع واحد على البيانو دون أن يقع على أيّ من المقطوعات الثلاث. كذلك كانت تلك المقطوعة الثلاث، كذلك كانت تلك المقطوعة الحزينة التي عزفها الحمام نوعاً من صياح الديك على السلم الصغير وما كان يرتفع صوت السماء ولا يصعد عمودياً، لكنه كان يمضي، منتظماً كنهيق حمار، مغلفاً بالعذوبة، من حمامة إلى أخرى على خطّ أفقي واحد ولا يرتفع البتة ولا يغيّر نواحه الجانبي إلى ذاك النداء السعيد الذي أطلقته مرات عديدة الحركة السريعة في الافتتاحية والخاتمة. إني أعلم أنني نطقت حينئذ بكلمة «الموت» كما لو أن «أليرتين» تزمع أن تموت، ويبدو أن الأحداث أوسع من الفترة التي تجري فيها ولا يمكن تضمينها فيها كاملة. أجل، إنها تفيض على المستقبل بالذكرى التي نحفظها عنها، لكنها تطلب كذلك حيزاً من الزمن الذي يسبقها سوف يقال بالتأكيد إننا لا نراها طبقاً لما ستكون عليه، ولكن أليست تتغير أيضاً في الذكرى؟

لما رأيت أنّها لا تقبلني من تلقاء ذاتها، وأدركت أن ذلك كله وقت ضائع وأن الدقائق المهدئة والحقيقية لن تبدأ إلا انطلاقاً من القبلة قلت لها: «ليلة سعيدة، لقد تأخر بنا الوقت كثيراً»، لأن ذلك سيحملها على تقبيلي ونستمر فيما بعد. لكنها بعد أن قالت لي: «ليلة سعيدة، حاول أن تنام نوماً هنيئاً»، اكتفيت، تماماً كما فعلت في المرتين الأوليين، بقبلة على الخد. ولم تحالفني الجرأة هذه المرة في استدعائها ثانية. لكن قلبي كان يخفق بشدة لم أقوَ معها على معاودة النوم. كنت أنتقل دون توقف

من خوفي أن تستطيع «ألبيرتين» الرحيل إلى هدوء نسبي مثل عصفور يمضي من زاوية في قفصه إلى أخرى. وكان ذلك الهدوء ناتجاً عن المحاكمة العقلية التي كنت أعيدها مرات عدة في الدقيقة الواحدة: «لا يمكن في كل الأحوال أن ترحل دون أن تخطرني بذلك، فإنها لم تقل لي البتّة إنها سترحل»، ويوافيني الهدوء تقريباً. لكني كنت أعود في الحال فأقول في نفسي: «فإن ألفيتها قد رحلت مع ذلك غداً! إن قلقي نفسه إنما يحمل سببه في أمر ما. لماذا لم تقبّلني؟» حينئذ كان قلبي يؤلمني ألماً رهيباً. ثم هو يهدأ بالمحاكمة التي أعود فأباشرها، لكنما ينتهي بي الحال إلى صداع لأن حركة فكري هذه كانت لا توقف فيها البتة وشديدة الرقابة. ثمة بعض الحالات النفسية من هذا القبيل ولا سيما القلق الذي لا يقدّم لنا سوى خيارين فيتسم بشيء رهيب في محدوديته كما هو مجرد ألم جسدي. لقد كنت أعيد باستمرار المحاكمة التي تجعل قلقي على حق، وتلك التي تخطئه وتطمئنني، على حيّز يسير كما هو المريض الذي يجسّ دون توقف وبحركة باطنة العضو الذي يؤلمه، ويبتعد لحظة عن النقطة المؤلمة كيما يعود إليها في اللحظة التالية وفجأة هزّني في سكون الليل صوت غير ذي بال في ظاهره لكنه ملأ فؤادي هلعاً، صوت نافذة «ألبيرتين» التي انفتحت بعنف. وحين لم يبلغ أسماعي شيء من بعد تساءلت لمَ أولاني ذاك الصوت خوفاً كهذا. فلم يكن يحمل في حدّ ذاته شيئاً خارقاً إلى هذا الحد، لكني كنت أحمّله على الأرجح دلالتين كانتا تبعثان الرعب في نفسي على السواء. كان ثمة بادئ الأمر اتفاقية في حياتنا المشتركة قوامها ألا تفتح البتّة نافذة في الليل بما أنني كنت أخشى تيارات الهواء. وكانوا قد قاموا بإيضاح الأمر لـ«ألبيرتين» حينما جاءت لتسكن في البيت، وعلى الرغم من يقينها بأنه هوس مني، وغير سليم، وعدتني ألا تخرق البتة هذا الحظر. وكانت شديدة التخوف إزاء سائر هذه الأمور التي تعلم أني أريدها، فأنحت عليها باللائمة، إلى حد أني كنت أعلم أنها كانت فضلت النوم في رائحة نار الموقد على أن تفتح نافذتها،

كما أنها ما كانت لتعمل على إيقاظي بداعي الحدث الأكثر أهمية. وما كانت تلك سوى واحدة من الاتفاقيات الصغيرة في حياتنا، لكنها ما دامت تخرق هذه دون أن تكون كلمتني عنها أفما كان ذلك يعني أنه لم يعد لديها شيء تراعيه وأنها قد تخرقها جميعاً أيضاً؟ ثم إن هذا الصوت كان عنيفاً وقارب أن يكون عديم التهذيب كما لو أنها فتحت، وقد ألهب الغضب وجنتيها، وقالت: «هذه الحياة تضيق عليّ أنفاسي، فليكن ما يكون، إني بحاجة إلى الهواء!» لم أقل كل ذلك بالضبط في نفسي، لكني واليت التفكير، وكأنما في نذير أكثر غموضاً وأشد كآبة من صرخة يوم، في صوت النافذة التي فتحتها «ألبيرتين»، وفي جو من الاضطراب ربما لم أعشه منذ ذلك المساء في «كومبريه» الذي تناول فيه «سوان» طعام العشاء في المنزل، سرت طوال الليل في الممر آملاً أني ألفت انتباه «ألبيرتين» بالضجة التي أثيرها وأنها سترقّ لحالي وتستدعيني، لكني ما كنت أسمع أي صوت ينطلق من غرفتها. كنت في «كومبريه» قد سألت أمي المجيء. لكني ما كنت أخشى من أمي سوى غضبها وكنت أعلم أني لا أقلل من حنانها حين أبرز لها حناني. وجعلني ذلك أتأخر في استدعاء «ألبيرتين». وشعرت شيئاً فشيئاً أن الأوان فات، فلا بد أنها نائمة منذ فترة طويلة. وعدت أدراجي لأنام. وفي الغد قرعت جرس «فرانسواز» حالما استيقظت، إذ لم يكن أحد يجيء إلى غرفتي مهما جرى دون أن أكون ناديت عليه. وفكرت في الوقت نفسه: «سأكلم «ألبيرتين» عن يخت أودّ أن آمر بصنعه لها». وقلت لـ«فرانسواز» دون أن أنظر إليها وأنا آخذ رسائلي: «عندي عما قليل ما أقوله للآنسة «ألبيرتين»: فهل نهضت من نومها؟» - «أجل، لقد نهضت باكراً». وشعرت بألف من الاضطرابات ترتفع في داخلي وكأنما في عصفة ريح ولا أقوى على حجب حركتها بين أضلعي. كان الصخب عظيماً إلى حد فقدت معه أنفاسي وكأنما في عاصفة. «عجباً! ولكن أين هي الآن؟» - «لا بد أنها في غرفتها». - «آه! حسن، سألتقيها عما قليل». وتنفست الصعداء، إنها هنا، وتهاوى

اهتياجي، لقد كانت «ألبيرتين» هنا، وأصبحت لا أبالي تقريباً بأن تكون هنا، أفلم أتحامق على أية حال أن افترضت من الممكن أن لا تكون هنا؟ وأغفيت ولكن، على الرغم من يقيني بأنها لن تفارقني أغفيت خفيف الأجفان، والخفة تتعلق بها فحسب. ذلك لأن الأصوات التي لا يمكن ردها إلا إلى أعمال في الباحة إنما كنت ألبث مطمئناً إزاءها مع أني أسمعها بصورة مبهمة في نومي، فيما كانت أقلّ ارتعاشة تجيئني من غرفتها، أو حين تخرج أو حين تعود دون ضجة وهي تضغط برفق شديد على الجرس، تجعلني أنتفض وتسري في كل مفاصلي وتخليني خافق الفؤاد مع أني سمعتها في إغفاءة عميقة، مثلما كانت جدتي، في الأيام الأخيرة التي سبقت موتها والتي كانت فيها غارقة في سكون لا يعكره شيء ويسميه الأطباء سباتاً، تأخذ، فيما قيل لي، بالارتجاف على مدى لحظة كالورقة حينما تسمع النقرات الثلاث للجرس التي تعوّدت أن أنادي بها «فرانسواز» والتي ما كان أحد يستطيع، حتى حينما جعلتها في ذلك الأسبوع أكثر رقة كي لا أعكر سكون غرفة الموتى، ما كان يستطيع، فيما تؤكد «فرانسواز»، أن يخلط بينها، بسبب طريقة كنت أنتهجها، وأجهلها شخصياً، في الضغط على الجرس، وبين نقرات جرس لآخر غيري. فهل دخلت بدوري طور النزاع؟ وهل كان ذلك دنوّ الأجل؟

في ذلك اليوم وفي غده خرجنا سوية، بما أن «ألبيرتين» لم تعد تبغي الخروج برفقة «أندريه». ولم أحدثها حتى عن اليخت، فقد كانت تلك النزهات قد هدأت من روعي تماماً. بيد أنها استمرت تقبلني مساءً بالطريقة الجديدة نفسها، مما أثار حنقي. ولم يعد بإمكاني أن أبصر فيها سوى طريقة تبدي بها أنها مستاءة مني، وكان ذلك يبدو لي مفرط السخف بعد الألطاف التي لم أكف عن إسدائها لها. ولما لم تعد تلبي لي حتى الحاجات الجنسية التي كنت أحرص عليها، وأجدها قبيحة في حردها، فقد وافاني شعور أكثر حدة بحرماني من سائر النساء والرحلات التي تؤجج في أولى أيام الربيع هذه الشوق إليها. كانت منطقة الربيع هذه التي

أوقفته للتوّ فيها منذ ثلاثة أيام رحلة مسكننا الشارد عبر الفصول تحت سماء مؤاتية، والتي تسرع دروبها جميعاً صوب أغدية في الحقول وطلعات تجذيف وتسأل، كانت تبدو لي، دون شك بفضل الذكرى المبعثرة للمواعيد المنسيّة التي نعمت بها. ولا أزال طالباً في المدرسة الثانوية، مع نساء في ظلال خضرة كثيفة، بلد النساء وبلد الأشجار على حدّ سواء حيث المتعة المبذولة في كل مكان مصرّح بها لقواي الناقهة. كان التسليم بالكسل والتسليم بالعفة وعدم تذوّق المتعة إلا مع امرأة واحدة ما كنت أحبها، والتسليم بالمكوث في غرفتي وبالامتناع عن السفر، كل ذلك كان ممكناً في العالم القديم الذي كنا لا نزال فيه البارحة، في عالم الشتاء الخاوي، وليس في هذا العالم الجديد المورق الذي استيقظت فيه مثل آدم فتيّ يواجه للمرة الأولى مشكلة الوجود والسعادة ولا يثقل كاهله تراكم الحلول السلبية السابقة. كان حضور «ألبيرتين» يثقل عليّ وكنت أنظر إليها رقيقة متجهمة وأحسّ أنها لمصيبة أن لا نكون قطعنا علاقتنا. كنت أودّ الذهاب إلى البندقية، كنت أودّ، إلى أن يحين ذلك، الذهاب إلى «اللوفر» لمشاهدة لوحات عن البندقية، وإلى اللوكسمبور لمشاهدة لوحتي «إيلستير» اللتين باعتهما الأميرة «دو غيرمانت» منذ وقت قريب، فيما نقل إليّ، لهذا المتحف، تلكما اللتان ما أكثر ما تأملتهما بإعجاب في منزل الدوقة «دو غيرمانت»: «**متع الرقص**» و«**صورة عائلة س**». لكني كنت أخشى أن تولي بعض الوضعيات الشهوانية في الأولى «ألبيرتين» اشتياقاً وحنيناً إلى التسليات الشعبية وتحملها على أن تقول في نفسها إن حياةً لم نقضها، حياة أسهم نارية وحانات ريفية، ربما كانت لها بعض الحسنات. كنت أخشى مذ ذاك سلفاً أن تسألني في ١٤ تموز (يوليو) الذهاب إلى حفلة راقصة شعبية وأحلم بحادث مستحيل من شأنه أن يكون ألغى هذا الاحتفال. أضف أن ثمة أيضاً في لوحات «إيلستير» رسوماً عارية لنساء في مناظر طبيعية من الجنوب كثيفة الخضرة يمكن أن تذكر «ألبيرتين» ببعض الملذات، على الرغم من أن إيلستير نفسه ما كان ليرى فيها – ولكن أليس

يحطّ ذلك من قدر العمل؟ - سوى الجمال المرمري، والأحرى أن نقول سوى جمال صروح بيضاء تخطّها أجساد نساء جالسة في قلب الخضرة.

وسلمّت بالعدول عن ذلك وعزمت على الرحيل للذهاب إلى «فيرساي» أما «ألبيرتين» التي لم تشأ الخروج برفقة «أندريه» فقد لبثت تقرأ في غرفتها، في مبذل من صنع «فورتوني». وسألتها إن كانت تبغي المجيء إلى «فيرساي». لقد كانت تتسم بهذا الشيء الرائع أنها كانت دائماً جاهزة لأي أمر، ربما جراء هذه العادة التي اتخذتها فيما مضى بقضاء نصف وقتها في منازل الآخرين، ومثلما حزمت أمرها في المجيء معنا إلى باريس في مدى دقيقتين. وقالت لي: «بوسعي المجيء هكذا إن لم نترجل من السيارة». وترددت مقدار ثانية بين معطفين لـ«فورتوني» تستر بهما مبذلها - كما لعلها كانت فعلت بين صديقين مختلفين تصطحبهما - فأخذت منهما واحداً أزرق عاتماً رائعاً وغرست دبوساً في قبعة. وجهزت في دقيقة واحدة قبل أن أخذت معطفي ومضينا إلى «فيرساي». وخلفتني هذه السرعة نفسها وهذه الطاعة المطلقة أوفر اطمئناناً كما لو أني كنت بالفعل في حاجة إلى الطمأنينة، دون أن يكون أي داعٍ واضح لدي للقلق. كنت أقول في نفسي ونحن ذاهبان إلى «فيرساي»: «مع ذلك، ليس ثمة ما أخشاه. إنها تفعل ما أطلبه منها، على الرغم من صوت النافذة في تلك الليلة. فما إن تحدثت عن الخروج في نزهة حتى ألقت بهذا المعطف الأزرق فوق مبذلها وجاءت، وليس ذلك ما قد تفعله متمردة، امرأة لم تعد وإياي على ما يرام». ومكثنا هناك فترة طويلة. كانت السماء مصنوعة كلها من هذه الزرقة التي على شيء من الشحوب مثلما يراها أحياناً فوق رأسه المتنزه الذي استلقى في أحد الحقول، لكنها موحدة عميقة إلى حد تحس معه أن الزرقة التي صنعت منها جرى استخدامها دون أي مزيج وبثراء لا ينضب حتى ليسعك أن تتعمق أكثر فأكثر في ماهيتها دون أن تلقى ذرة من غير هذه الزرقة نفسها. كنت أفكر في جدتي التي كانت تحب السمو في الفن الإنساني وفي الطبيعة وكان يمنعها أن ترى قبة جرس كنيسة القدّيس «هيلاريون» تنطلق

صاعدة في هذه الزرقة نفسها. وفجأة عصف بين الحنين مجدداً إلى حريتي المفقودة وأنا أسمع صوتاً لم أتعرفه بادئ الأمر ولعل جدتي كانت أحبّته بدورها أعظم الحب. كان كأنما طنين زرقطة، وقالت لي «ألبيرتين» هيا، ثمة طائرة، وهي عالية جداً، عالية جداً كنت أنظر من حولي في كل جانب، لكني كحال المتنزّه الذي استلقى في أحد الحقول، ما كنت أبصر سوى الزرقة الشاحبة المتساوية التي لا مزيج فيها، ودون أية لطخة سوداء. لكني كنت أسمع مع ذلك دوماً طنين الجناحين اللذين دخلا فجأة في نطاق رؤيتي. كان ثمة في الأعالي جناحان صغيران جداً داكنان ملتمعان يغضّنان الزرقة المتساوية في السماء الصافية. واستطعت أخيراً أن أربط الطنين بعلته، بتلك الحشرة الصغيرة التي تضطرب في الأعالي على ارتفاع نيف وألفي متر دون شك. كنت أرى ضجيجه. ربما كانت صفارة قطار يمر على بعد كيلو مترين، حينما المسافات على الأرض لم تكن بعد قُلصت منذ زمن طويل جراء السرعة على نحو ما هي اليوم، ربما كانت تتسم بهذا الجمال الذي يهزّ الآن مشاعرنا بعض الوقت بعد في طنين طائرة على ارتفاع ألفي متر لدى التفكير بأن المسافات المقطوعة في هذه الرحلة العمودية هي نفسها على الأرض وأنه، في هذا الاتجاه الآخر الذي تبدو فيها المقاييس مختلفة لأن الوصول إليه كان يبدو ممتعاً علينا، ليست تبعد عنا طائرة على ارتفاع ألفي متر أكثر من قطار على بعد كيلومترين، وهي حتى أقرب إذ المسافة الواحدة يتم القيام بها في وسط أكثر صفاء دونما فاصل بين المسافر ونقطة انطلاقه، مثلما في البحر أو السهول وفي جوّ ساكن يخدد شق سفينة أضحت بعيدة أو هبّة نسيم مفردة بحر الأمواج أو الأقماح.

وداخلتني الرغبة في تناول العصرونية، فتوقفنا في دكان حلواني واقعة تقريباً خارج المدينة وكانت تنعم في تلك الفترة ببعض الشهرة. كان ثمة سيدة تزمع الخروج فطلبت أشياءها من الحلوانية. وما إن ذهبت تلك السيدة حتى نظرت «ألبيرتين» عدة مرات إلى الحلوانية كما لو تبغي جلب انتباهها وهي كانت ترتب الأكواب والصحون والمحمصات، إذ كان

الوقت قد تأخر. كانت تقترب مني إن أنا طلبت شيئاً فقط. وكان يتفق حينئذ، إذ كانت الحلوانية، وهي من جانب آخر فارعة القد، واقفة لتخدمنا و«ألبيرتين» جالسة بالقرب مني، أن كانت «ألبيرتين» ترفع شاقولياً صوبها، بغية لفت انتباه الحلوانية، نظرة شقراء تضطر معها أن ترفع حدقتها وتزيد بمقدار ما لم تكن تملك، والحلوانية قريبة منا تواجهنا تماماً، وسيلة تخفيف ميل الانحدار بميلان نظرتها. أنت مضطرة، دون أن تفرط في رفع رأسها، أن ترفع نظراتها حتى ذاك الارتفاع الهائل حيث عينا الحلوانية. كانت «ألبيرتين» تخفض عينيها بسرعة لطفاً بي، ثم تعيد الكرة إذ لم تعرها الحلوانية أي انتباه. وقد أفضى ذلك إلى سلسلة من النظرات المرفوعة المتوسلة دون جدوى صوب إلهة يمتنع الوصول إليها. ثم اقتصر أمر الحلوانية على ترتيب الصحون على طاولة كبيرة مجاورة. وهنا لم يكن على «ألبيرتين» إلا أن تكون نظرتها جانبية. بيد أن عيني الحلوانية لم تحطا مرة واحدة على صديقتي. وما كان ذلك يدهشني وأنا أعلم أن تلك المرأة التي كنت أعرفها بعض الشيء تملك عشاقاً كثيرين مع أنها متزوجة، لكنها كانت تفلح تماماً في ستر مغامراتها، وهو ما كان يدهشني بالغ الدهشة بسبب غبائها الهائل. ونظرت إلى هذه المرأة فيما كنا ننهي عصرونيتنا. لقد قاربت، وهي منغمسة في تنضيد حاجاتها، أن تكون قليلة التهذيب إزاء «ألبيرتين» لما لا تخص بنظرة واحدة نظرات صديقتي التي لم تكن تتسم على أية حال بأي مظهر غير لائق. كانت الأخرى في الترتيب، ماضية إلى ما لا نهاية، لا يصرفها شيء عن ذلك. ولعل إعادة الملاعق الصغيرة إلى مكانها وأمواس الفواكه، لعلها كانت أسندت، لا إلى هذه المرأة الفارعة الجميلة، بل إلى مجرد آلة بغية توفير العمل الإنساني، فما أمكن أن ترى انعزالاً تاماً إلى هذا الحد عن الانتباه لـ«ألبيرتين»، مع أنها لم تكن تخفض عينيها ولا تستغرق بل تطلق بريق عينيها ومفاتنها وهي منصرفة إلى عملها فحسب. وصحيح أن لو لم تكن تلك الحلوانية امرأة تتسم بغباء خاص (فلم تكن تلك شهرتها فحسب بل كنت أعرف الأمر بالتجربة) لأمكن أن

يكون هذا التجرد قمة المهارة. وإني أعلم تمام العلم أن الكائن الأكثر غباء، إن تعرّضت رغبته أو مصلحته للخطر، يستطيع في هذه الحالة الوحيدة، في جو تفاهة حياته الغبية، أن يتكيّف فوراً مع تلافيف الوضع الأكثر تعقيداً: ولعل الأمر كان على الرغم من كل شيء افتراضاً مفرطاً في براعته بالنسبة إلى امرأة بمثل غباء الحلوانية. بل كانت هذه البلاهة تتخذ شكلاً للوقاحة لا يصدق! فهي لم تنظر مرة واحدة إلى «ألبيرتين» مع أنه ما كان يمكن أن لا تراها. لم يكن ذلك لطيفاً جداً بحق صديقتي، لكنني سررت أعظم السرور أن تلقن «ألبيرتين» هذا الدرس الصغير وترى أن النساء ما كن في الغالب يعرنها انتباهاً. غادرنا دكان الحلوانية واستقللنا العربة، وكنّا قد سلكنا طريق المنزل رجوعاً حينما داخلني الأسف فجأة أن فاتني أن أنتحي بالحلوانية جانباً وأسألها، تحسباً لأي طارئ، ألا تقول للسيدة التي ذهبت حينما وصلنا اسمي وعنواني، ولا بد أن الحلوانية كانت تعرفها تمام المعرفة بسبب طلبات كثيرة وسبق أن قمت بها. فقد كان من غير المفيد بالفعل أن تتمكن السيدة بذلك من معرفة عنوان «ألبيرتين» بصورة غير مباشرة. ورأيت من الإطالة بمكان أن نعود أدراجنا لأمر زهيد إلى هذا الحد وربما بدا ذلك من قبيل إيلاء الأمر أهمية مبالغاً فيها في نظر الحلوانية البلهاء الكذابة وفكرت فقط أنه لا بد من العودة لتناول العصرونية هناك خلال ثمانية أيام كي أوصي بذاك الأمر وأنه لمن المزعج حقاً، إذ المرء ينسى دائماً نصف ما يجب أن يقوله، أن يفعل أبسط الأمور على عدة دفعات.

عدنا في ساعة متأخرة جداً في ليلة كان يكشف فيها، ههنا وهناك على قارعة الطريق، بنطال أحمر إلى جانب تنّورة، أزواجاً من العشاق. واجتازت عربتنا للعودة بوابة «مايّو». وكان قد حل محل أبنية باريس رسم أبنية باريس خالصاً تخطيطياً لا كثافة فيه، كما لعلهم كانوا فعلوا بشأن مدينة مهدّمة أحبّوا الاحتفاظ بمخطط صورتها؛ لكن كانت ترتفع على حافتها الحاشية الزرقاء الفاتحة التي كانت تبرز فوقها، ترتفع شديدة

العذوبة حتى لتبحث العيون العطشى في كل مكان، تبحث بعد عن شيء من هذا اللوينات الرائعة التي توزع عليهم بتقتير مفرط: فالليلة كانت مقمرة. وتأملتها «أليرتين» بإعجاب. ولم أجرؤ على أن أقول لها إني كنت استمتعت بها بصورة أفضل لو كنت وحدي أو ماضياً في البحث عن امرأة مجهولة. وأسمعتها أبياتاً أو جملاً نثرية عن ضياء القمر مبرزاً لها كيف انقلب من فضيّ كأنه فيما مضى إلى أزرق مع «شاتوبريان» و«فيكتور هوغو» واضع «أيفيرادنوس» و«الاحتفال لدى تيريز»، ليعود فيضحي أصفر معدنياً مع «بودلير» و«لوكونت دو ليل». ثم ذكرّتها بالصورة التي تمثل الهلال في آخر مقطوعة «نوم بوعز» وأكملت فكلّمتها عن كامل المقطوعة.

لست أستطيع أن أقول إلى أي حد كانت حياتها، حينما أعود أفكر فيها، محملة برغبات متناوبة متهربة متناقضة في الغالب. ولا شك أن الكذب كان يزيد التعقيد إذ لا تذكر من بعد بالضبط أحاديثنا يوم قالت لي: «آه! تلكم فتاة جميلة وكانت تجيد لعبة الغولف»، ويوم أجابتني، إذ سألتها اسم تلك الفتاة، أجابتني بهذا المظهر المتجرد الشامل المتفوق الذي يملك على الدوام دون شك أطرافاً طليقة إذ يستعيره كل كذاب من هذه الفئة مقدار لحظة في كل مرة حالما لا يبغي الإجابة عن سؤال ولا يخذله البتّة: «آه! لست أدري (مغلّفة بأسف أن لا تستطيع تزويدي بمعلومات). ما عرفت اسمها في يوم، كنت ألتقيها في الغولف، لكني ما كنت أعلم أي اسم يطلقونه عليها»: فإن قلت لها بعد مرور شهر: «ألبيرتين» تعلمين، تلك الفتاة الحلوة التي كلمتني عنها والتي كانت تجيد لعبة الغولف»، كانت تجيبني دونما تفكير: «آه! أجل، «إميلي دالاتيه»، لست أدري ما حل بها». وكانت الكذبة تُنقل، شأن التحصينات الميدانية، من دفاعات الاسم، وقد احتل الآن، إلى إمكانات العثور عليها. «آه! لست أدري، لم أعرف عنوانها في يوم. ولست أرى أحداً يمكنه أن يقول لك ذلك. لا، لا، «أندريه» لم تعرفها. فلم تكن في عداد جماعتنا الصغيرة، وما أكثر ما هي منقسمة اليوم». وفي مرات كانت الكذبة من قبيل الإقرار الشنيع: «آه!

لو كنت أملك إيراداً قوامه ثلاث مئة ألف فرنك. . .» وتعضّ على شفتيها.
- «حسن، وما عساك تفعلين؟» فتقول وهي تعانقني: «أسألك الإذن بالبقاء عندك. فأين يمكن أن أكون أكثر سعادة؟» لكنما كان غريباً، حتى إن أخذنا الكذبات في اعتبارنا، إلى أي حد كانت حياتها تعاقبية وأعظم رغباتها عابرة. كانت تُجن بشخص وما كانت لتقبل بزيارته بعد انقضاء ثلاثة أيام. وما كان بوسعها أن تنتظر ساعة حتى أكون أوصيت من يشتري لها قماشات وألواناً إذ تبغي معاودة الرسم الزيتي. وكانت على مدى يومين نافدة الصبر وتكاد تدمع عيناها، وما أسرع ما تجفّان، مثل طفل حُرم مرضعته. كان تذبذب عواطفها إزاء الكائنات والأشياء والمشاغل والفنون والبلدان. كان في الحقيقة شاملاً إلى حد أنها إن أحبت المال، وهو ما لا أصدقه، فما استطاعت أن تحبه فترة أطول من الباقي. وحينما كانت تقول: «آه! لو كنت أملك إيراداً قوامه ثلاث مئة ألف فرنك!» فما كانت، حتى لو عبرت في فكرة شريرة لكنها لا تستمر إلا القليل القليل، ما كانت لتستطيع التمسك بها فترة أطول من تمسّكها برغبة الذهاب الى منطقة «ليه روشيه» التي وفّرت لها صورتها نسخة جدتي من كتاب السيدة «دو سيفينيه»، أو اللحاق بصديقة لها في لعبة الغولف، أو أن تستقل الطائرة، أو تمضي لقضاء الميلاد مع عمتها، أو تعود لمزاولة الرسم الزيتي.

وقالت «لسنا كلانا في الأساس جائعين وكان بإمكاننا المرور بآل «فيردوران» فإنها ساعتهم وإنه يومهم» - «ولكن، إن كنت غاضبة منهم؟» - «أوه! هناك الكثير من القيل والقال بحقهم، لكنهم ليسوا في الأساس على هذا القدر من السوء. لقد أبدت لي السيدة «فيردوران» دوماً مقداراً عظيماً من اللطف. ثم إنه لا يمكنك دوماً أن تكون على خصام مع الناس جميعاً. إن لهم عيوبهم، ولكن، من ذا يخلو منها؟» - «لستِ على أناقة كافية ولا بد من عودتك لارتداء ثيابك ويكون الوقت متأخراً جداً». فأجابت «ألبيرتين» بذلك الانقياد الوادع الرائع الذي كان يذهلني دائماً: «أجل، أنت على حق، هيّا نعد فحسب».

قفز الطقس الجميل في تلك الليلة قفزة على الأرقام مثلما الميزان يتجه صعوداً وجهة الحر. وحينما استيقظت أخذت أسمع من سريري، في هذه الصباحات التي تبكر في الربيع، الحافلات الكهربائية تمر عبر العطور في الهواء الذي يمتزج الحر به شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ مرحلة تصلب وتكاثف الظهيرة. وكنت أراني، وهو على العكس أكثر برودة في غرفتي، بعدما يكون الهواء الطريّ اللذيذ قد انتهى من صقل وعزل رائحة المغسلة فيها ورائحة الخزانة ورائحة الكنبة، أراني لمحض الوضوح الذي تتراصف به شاقوليّة منتصبة على هيئة شرائح متجاورة متمايزة في تدرجّ أضواء لؤلؤي يضيف ألقاً أكثر نعومة على بريق السجف والكنبات التي من الساتين الأزرق، أراني لا لمجرد نزوة من خيالي، بل لأن الأمر ممكن بالفعل، أسلك، في حي جديد من الضاحية شبيه بالذي كان «بلوك» يقطنه في «بالبيك»، الشوارع الغارقة في نور الشمس، وأشاهد لا الملاحم التافهة وحجارة البناء المنحوتة البيضاء، بل قاعة الطعام الريفية التي يمكن أن أصلها بعد قليل والروائح التي سألقاها لدى وصولي، رائحة الكرز والمشمش المطبوخين وعصير التفاح وجبنة «الغرويير». والتي تطفو معلقة في الانجماد المضيء للظلمة التي تخططها بعروق ناعمة وكأنما باطن حجر من العقيق، فيما تلقي فيها حوامل السكاكين التي من زجاج موشوري أقواس قزح أو تغرس ههنا وهناك على القماش المشمع التماعات ريش طاووس.

وكمثل ريح تتعاظم في تدرج منتظم سمعت، يلفنّي الفرح، سيارة تحت نافذتي. وشممت رائحتها البترولية، ويمكن أن تبدو مؤسفة في نظر المرهفين (وهم دوماً ماديون تُفسد عليهم الريف) وبعض المفكرين، وهم ماديون أيضاً على طريقتهم، ويتصورون، إذ يؤمنون بأهمية الحدث، أن الإنسان قد يكون أكثر سعادة وقادراً على ابتداع شعر أكثر سمواً لو قدر لناظريه أن يبصرا ألواناً أكثر ولمنخريه أن يتعرّفا عطوراً أكثر، وذلك هو التحريف الفلسفي للفكرة الساذجة لمن يؤمنون أن الحياة كانت أوفر جمالاً حينما كان الناس يلبسون، بدلاً من الرداء الأسود، أثواباً باذخة. أما بالنسبة إليّ (ومثلما شذا النفتالين وطيب العرب، وهو ربما كريه في حدّ

ذاته، كان بعث النشوة في نفسي إذ يردّ لي صفاء البحر الأزرق يوم وصولي إلى «باليك»)، فإن رائحة البترول هذه التي ما أكثر ما تلاشت، مع الدخان الذي كان ينبعث من الآلة، في زرقة السماء الشاحبة في تلك الأيام اللاهبة التي كنت أمضي فيها من «سان جان دو لا هيز» إلى «غورفيل»، كما تعقبت خطاي في نزهاتي في فترات العصر أثناء ما كانت «ألبيرتين» تنصرف إلى الرسم، كانت تفتح الآن في كل جانب مني، ومع أني داخل غرفتي المظلمة، أزهار الترنشاه والخشخاش المنثور والأنفال القرمزية، وتسكرني كرائحة أرياف، لا تلك المحصورة الثابتة، كالتي هي موضوعة أمام أزهار الزعرور وتطفو، وقد حدّت من حركتها عناصرها الطليّة الكثيفة، بشيء من الاستقرار أمام السياج، بل رائحة تهرب أمامها الطرق ويتغيّر وجه التربة وتسرع إليها القصور وتشحب أمامها السماء وتتضاعف القوى، رائحة كانت كأنما رمز ثوابت وقوة وكانت تجدد الرغبة التي داخلتني في «باليك» في الصعود إلى القفص الذي من كريستال وفولاذ، ولكن لأذهب هذه المرة لا للقيام بزيارات إلى مساكن مألوفة مع امرأة أعرفها معرفة كبيرة، بل لممارسة الحب في أماكن جديدة مع امرأة مجهولة. رائحة كان يرافقها في كل وقت نداء أبواق السيارات العابرة الذي كنت أؤالف بينه وبين كلمات، وكأنما مع لحن نحاسيّات عسكري: «أيها الباريسي هيا انهض، انهض وتعال لتناول الغداء في الأرياف والتجديف في النهر، تحت ظلال الأشجار بصحبة فتاة جميلة، هيّا انهض، انهض». كانت كل هذه الفترات الحالمة شديدة العذوبة على قلبي إلى حد كنت أغبط به نفسي «للقانون الصارم» الذي ما كان يفكر جراءه أي «بشري وجل»، حتى «فرانسواز» وحتى «ألبيرتين»، بالمجيء، ما دمت لم أدعه، لإقلاق راحتي «داخل هذا القصر» حيث:

**هناك جلال مهيب يتصنع**
**حجبي عن أنظار رعاياي**[1].

---

(١) من نص محوّر بعض الشيء من مسرحية «إستير» لـ«جان راسين».

لكن المشهد تبدل فجأة. فلم تعد ذكرى انطباعات قديمة، بل رغبة قديمة أيقظها لفترة قريبة جداً خلت فستان «فورتوني» الأزرق والذهبي هي التي بسطت أمامي ربيعاً آخر، لم يعد كثيف الأوراق البتة بل عُري فجأة على العكس من شجره وزهره جراء هذا الاسم الذي قلته في نفسي منذ قليل: «البندقية»، ربيعاً مصفى ردّ إلى جوهره ويعبر عن تطويل وتسخين وتفتح أيامه التدريجي بالتخمر التدريجي لا لأرض دنسة، بل المساء لا تشوبه شائبة أزرق ربيعي دون أن يحمل تويجات ولا يسعه الاستجابة لشهر أيار (مايو) إلا بومضات، ماء صنعه هو ويوافقه تماماً في العري المشرق الثابت لياقوته الأزرق العاتم لذلك لا تحمل السنوات الحديثة للمدينة القوطية تغييراً أكثر مما تحمل الفصول لشعبها البحرية التي لا تزهر. كنت أعلم ذلك، ولا أستطيع تصوره، أو إن أنا تصورته هاك ما كنت أبغي من تلك الرغبة نفسها التي سبق أن حطمت بالأمس فيّ، حينما كنت طفلاً. وفي اندفاعة الرحيل نفسها، القدرة على الرحيل: أن أجدني وجهاً لوجه مع تخيلاتي البندقية وأتأمل كيف يحوط هذا البحر المقسم بتعرجاته، مثلما تثنيات نهر «أوقيانوس»، حضارة مدينية مرهفة لكنها، وقد عزلها نطاقها اللازوردي تطورت وحدها، وملكت وحدها مدارسها في الرسم والعمارة - هذه الحديقة الخرافية من ثمر وطير صنعت من حجارة ملونة، حديقة أزهرت في وسط البحر الذي يقبل ليبردها ويضرب بموجة ركائز الأعمدة ويلقي على بروز تيجان الأعمدة الجبارة، وكأنما نظرة لازوردية عاتمة تسهر في الظلام. يلقي الضوء رقعاً ويحركه دون توقف. أجل كان لا بد من الرحيل، وقد آن الأوان. فمنذ لم تعد «ألبيرتين» تبدو غاضبة مني لم يعد امتلاكها يبدو لي خيراً أنت مستعد أن تعطي مقابله الخيرات الأخرى جميعاً. ربما لأننا كنا فعلنا ذلك للتخلص من غم، من ضيق نفسي، وهما الآن هدأا. لقد أفلحنا في اجتياز الدولاب القماشي الذي ظننا فترة أننا لن نستطيع البتة المرور عبره. لقد بددنا العاصفة وأعدنا صفاء البسمة. لقد تبدد السر المقلق لكراهية لا سبب معروفاً لها وربما لا نهاية. ونلقى ذواتنا مذ ذاك وجهاً لوجه مع المشكلة التي استبعدت مؤقتاً، مشكلة سعادة نعرفها

مستحيلة. وشعرت الآن وقد عادت الحياة مع «ألبيرتين» فأضحت ممكنة أنني لن أستطيع أن أجني منها غير المصائب بما أنها لم تكن تحبني، وخير لي أن أفارقها وأنا في حلاوة موافقتها التي سأطيل فيها بالتذكر. أجل، آن الأوان: ولا بد من أن أستعلم بالضبط عن التاريخ الذي تزمع «ألبيرتين» فيه مغادرة باريس والعمل بحزم لدى السيدة «بونتان» كي أكون على أوثق اليقين بأن «ألبيرتين» لن تستطيع في هذا الوقت الذهاب إلى هولندا أو إلى «مونجوفان». فقد يتفق، لو عرفنا أن نحلل بصورة أفضل صنوف غرامنا، أن نرى أن النساء كثيراً ما لا يرقننا إلا بسبب المقابل من الرجال الذين يقع علينا أن ننازعهم فيهن: فإن حذف هذا المقابل تهاوى سحر المرأة. وإن لنا في هذا الشأن مثالاً مؤلماً ووقائياً كامناً في إيثار الرجال للنساء اللواتي ارتكبن قبل التعرف بهن المعاصي، لأولئك النساء اللائي يحسون أنهن يتخبطن في المخاطر وينبغي لهم إعادة الفوز بهن في أثناء كامل دوام حبهم لهن. أو المثال اللاحق على العكس، وما هو بالمأساوي، مثال الرجل الذي، إذ يحس تناقص ميله إلى المرأة التي يحب، يطبق تلقائياً القواعد التي استخلصها، وكيما يتيقن أنه لا يزال على حب المرأة يضعها في وسط خطر ينبغي له فيه أن يحميها في كل يوم. (وهو عكس الرجال الذين يطالبون بأن تتخلى امرأة عن المسرح مع أنهم من جانب آخر إنما أحبوها لأنها ارتادت المسرح).

وحينما لا يظل هكذا لذاك الرحيل أية محاذير، يجرى اختيار يوم صاح كهذا - ويزمع أن يكون منه الكثير - تكون فيه «ألبيرتين» عديمة الشأن بالنسبة إليّ، وتغريني فيه ألف رغبة ورغبة؛ ينبغي أن أدعها تخرج دون أن أراها، ثم أن أدع لها، لدى نهوضي واستعدادي السريع، كلمة وأفيد من أنني سوف يمكنني، بما أنها لن تستطيع في هذه الفترة أن تذهب إلى أي مكان يشيع في نفسي الاضطراب أن أفلح، في أثناء سفري، في استبعاد تصور الأسوأ التي يمكن أن تأتيها والتي كانت تبدو لي في هذه الفترة. على أي حال، غير ذات بال إطلاقاً، وأن أذهب إلى البندقية دون أن أكون رأيتها. وقرعت الجرس أستدعي «فرانسواز» لأسألها أن تبتاع لي

دليلاً ومرشداً للطرق، مثلما سبق أن فعلت طفلاً حينما عزمت مذ ذاك على الإعداد لرحلة إلى البندقية، تحقيقاً لرغبة بمثل عنف الرغبة التي كانت تعتمل في صدري في هذه الفترة. وفاتني أن كان ثمة مذ ذاك رغبة كانت بلغتها دون أية متعة، هي رغبة «بالبيك»، وأن البندقية، بما هي كذلك ظاهرة مرئية، لن تستطيع على الأرجح أكثر من «بالبيك» أن تحقق حلماً يمتنع على القول، حلم الزمن القوطي المحيّن لبحر ربيعي، وكان يقبل بين حين وحين ليداعب فكري بصورة له مسحورة ناعمة متهربة خفية مبهمة. ودخلت «فرانسواز»، بعدما سمعت رنة جرسي، يساورها بعض القلق من الطريقة التي قد أنظر بها إلى أقوالها وسلوكها. وقالت لي: «لقد كنت منزعجة جداً أن يستدعيني سيدي اليوم في ساعة متأخرة إلى هذا الحد. ولم أكن أعرف ما ينبغي لي أن أفعله. لقد طلبت مني الآنسة «ألبيرتين»، في الساعة الثامنة هذا الصباح، حقائبها وما تجرأت أن أرفض، فقد خشيت أن يوبخني سيدي إن جئت أوقظه. وعبثاً «قرأت على رأسها» وقلت لها أن تنتظر ساعة لأني كنت أظن دوماً أن سيدي يزمع أن يقرع الجرس. فلم تشأ، وقد تركت لي هذه الرسالة لسيدي، وفي الساعة التاسعة رحلت». حينئذ - وما أكثر ما يمكن أن يجهل المرء مكنونات صدره، بما أنني كنت مقتنعاً بلامبالاتي بـ«ألبيرتين» - تقطعت أنفاسي وأمسكت قلبي بكلتا يدي اللتين بللهما عرق لم يسبق أن عرفته في يوم منذ السر الذي كشفته لي صديقتي في الحافلة الصغيرة بخصوص صديقة الآنسة «فانتوي»، ودون أن أقوى على قول غير ما يلي: «آه! حسن جداً يا «فرانسواز» وشكراً، لقد أحسنت بالطبع فعلاً أن لم توقظيني، دعيني لحظة، وسوف أستدعيك عما قليل».

* * *



# هذا الكتاب

رواية «بحثاً عن الزمن المفقود» يروي فيها الكاتب مارسيل بروست صراعه مع الزمن بأسلوب مرهف الحس، يجعلك تعيش الماضي كأنه واقع، ولم يعتمد بروست على الأسلوب المعروف في الروايات، بل صنع لنفسه أسلوباً خاصاً به يقوم على الجمل الطويلة التي تبدو معقدة، والتفاصيل المكثفة، واستطاع بالفعل أن يثبت أن البساطة لا تصنع الجمال وحدها، وإنما التعقيد أيضاً قد يصنع الجمال. في هذه الرواية ينتبه الكاتب إلى أن الزمن ينفلت من بين يديه، وبدلاً من أن يتتبع هذا الزمن ويحاول اللحاق به أراد أن ينقضّ على الزمن باستحضار ذكريات الماضي وإحيائها حتى تصير هي الواقع. . . استطاع بروست أن يستحضر الماضي حتى يعيشه القارئ ويشعر بكل تفاصيله، فلا يمكن لقارئ هذه الرواية أن يمرّ سريعاً على المقاطع دون أن يشعر بما فيها من أحاسيس ومشاعر كأنه هو بطل هذه الرواية. . .







ISBN 978-9922605852

الغلاف : سكينة صلوَن